مركز البحوث والدراسات الاجتماعية
كلية الآداب – جامعة القاهرة

الجمعية المصرية
للدراسات التاريخية

الثـــورة والتغييـــر
فى الوطن العربى عبر العصور

أعمال ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

تحرير
عُبادة كُحيلة

الطبعة الأولى
٢٠٠٥

مركز البحوث والدراسات الاجتماعية
كلية الآداب - جامعة القاهرة

العنوان: ١ ش الشهيد عبدالهادى صلاح (الرماحة سابقاً)
بريد الأورمان - الجيزة
تليفون: ٧٤٨٥٤٢١ - ٧٤٨٦٤٣٤
فاكس: ٣٣٨٥٣٦٦

المشاركون فى تأليف هذا الكتاب

ابراهيم العدل المرسى	أستاذ مساعد – كلية الآداب – جامعة المنصورة
جاب الله على جاب الله	أستاذ بكلية الآثار – جامعة القاهرة
رءوف عباس حامد	أستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
سيد عشماوى	أستاذ مساعد بكلية الآداب – جامعة القاهرة
عادل حسن غنيم	أستاذ بكلية الآداب – جامعة عين شمس
عاصم الدسوقى	أستاذ بكلية الآداب – جامعة حلوان
عُبادة كُحيلة	أستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة
عبدالله الأشعل	سفير. مساعد وزير الخارجية سابقاً
عبدالله عزباوى	أستاذ بكلية التربية – جامعة القاهرة بالفيوم
عبدالحميد حسين حمودة	أستاذ مساعد بكلية التربية جامعة القاهرة بالفيوم
عبدالرحمن عوض	باحث فى تاريخ وادى النيل
عبدالعليم أبو هيكل	أستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة
عبدالمنعم إبراهيم الجميعى	أستاذ بكلية التربية – جامعة القاهرة بالفيوم
عبدالناصر إبراهيم عبدالحكم	مدرس بكلية الآداب – جامعة أسيوط
عطية القوصى	أستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة
عودة عبدالواحد جودة	مدرس بكلية الآداب – جامعة القاهرة
فطين أحمد فريد	أستاذ مساعد بجامعة قناة السويس

ليلى عنان	أستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة
محمد بركات البيلى	أستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة
محمد رفعت عبدالعزيز	أستاذ مساعد بكلية التربية – جامعة عين شمس
محمد مجدى الجزيرى	أستاذ بكلية الآداب – جامعة طنطا
محمد محمود أبو غدير	أستاذ بجامعة الأزهر
محمود إسماعيل	أستاذ بكلية الآداب – جامعة عين شمس
نبيل السيد الطوخى	مدرس بكلية الآداب – جامعة المنيا

فهرس المحتويات

الموضوع	صفحة

الباب الرابع

الثورة والتغيير في العصور الحديثة

الموضوع	صفحة



تقديم

الثورة ظاهرة تاريخية ، تعود في أصولها إلى ماض بعيد ، ويحضرنا مثال ثورة إيبوير في عهد الدولة المصرية القديمة ، والثورة أيضاً ظاهرة مجتمعية ، أي أنها لا ترتبط بجانب معين من حياة الإنسان ، إنما هي ترتبط بجوانب حياته كلها. وليس لها مفهوم محدد متفق عليه بين الجمهور ، لكنها تعنى- على نحو عام – تغييراً كبيراً مفاجئاً في أوضاع قائمة ، يسفر عن أوضاع جديدة ، لم يكن ثم عهد بها .

ولما كانت الثورة تستمد أهميتها من اتساع مداها وعمق محتواها ، كانت الثورات التي أفضت إلى تغييرات سياسية واجتماعية ظاهرة ، هي الأوفر شهرة والأكثر تداولاً عند المؤرخين وغيرهم من المثقفين .

من هذه الثورات ، الثورة الفرنسية (١٧٨٩) والثورة الروسية (١٩١٧) والثورة الإيرانية (١٩٧٩) .

على أنه مما تجب ملاحظته أن هناك ثورات لم تكن تضم عناصر المجتمع وطبقاته كافة ، إنما كانت تضم بعضها دون غيرها ، مثل ثورة العبيد (سبارتاكوس) في القرن الأول قبل الميلاد ، وثورة الزنج (في بطائح العراق) فى القرن التاسع الميلادى ، وثورة الفلاحين في ألمانيا في القرن السادس عشر .

ومع اعترافنا بأهمية هذه الثورات التي نجمت في سياق سياسي اجتماعي محدد، إلا أنه لدينا ثورات أخرى كان لها شأنها ، نجمت في سياق آخر وإن كانت له صلاته- تأثيراً وتأثراً – بهذا السياق (السياسي – الاجتماعي) مثل الكشوف الجغرافية ، والإصلاح الديني والإصلاح الدينى المضاد ، والثورة الصناعية .

ولم نذهب بعيداً... ألم يكن اختراع الزراعة في مرحلة ما قبل بداية التاريخ، واختراع الكتابة في مرحلة ما بعد بداية التاريخ ... ألم يكن كل من هذين الاختراعين ثورة بذاته، كان لها تأثيرها في مجريات حياة الإنسان في عصور التاريخ التالية ؟؟

كذلك ... ألم يكن لاختراع الحاسوب ، وما أفضى اليه من ثورة معلوماتية تأثير واضح في ظهور ما يعرف بالعو لمة التي نعانى نحن في وطننا العربي من تبعاتها ...ما أمرّ هذه التبعات!!.

كانت الثورة عبر العصور شغلاً للعديد من المفكرين في مجالات عدة بينهـا التاريخ، ووجدنا بينهم من تخصص فيها ، وأظهرهم عندنا حنـة أرنـت ومـن هؤلاء من يرى في الثورة ضرورة للتقدم الإنساني (ماركس) ومنهم من يراهـا سلوكاً يصدر عن سيكولوجية الغوغاء ، وهى سيكولوجية تشـبه فـي تكوينهـا العقلية البدائية (نيتشه) .

هذا السجال الذي دارت رحاه في الحضارة الغربية ، شهدنا – وما نـزال – مثيلاً له في حضارتنا العربية الإسلامية ، فمن مفكرينا من قال بحـق الثـورة ، ومنهم من جانبه (الإمام الغزالى) .

لما كان لهذا الموضوع – موضوع الثورة – أهميته القصوى ، فقد اختصته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بندوتها للعـام ٢٠٠٣ بعنـوان " **الثـورة والتغيير في الوطن العربي عبر العصور** " ، والتأم عقد هذه الندوة بمقر الجمعية في الفترة ٢٢– ٢٤ من أبريل

(نيسان) ٢٠٠٣ وشارك فيها جمهور من المؤرخين وجمهـور آخـر مـن المهتمين بالدراسات التاريخية ، كما ترأس جلساتها نخبة من كبار المثقفين فـي طليعتهم محمود أمين العالم وطارق البشرى والسيد يسين.

أزعم أن هذه الندوة عن "الثورة" حققت من النجاح ما حققته سـابقتها عـن "التقاء الحضارات"، وليس من فضل في هذا النجـاح إلا للجهـود التـي بـذلها أعضاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ومجلس إدارتها ورئيسه الأسـتاذ الدكتور/ رءوف عباس حامد ، فلهم منى الشكر... وافر الشكر.

الشكر واجب كذلك لمركز البحوث والدراسات الاجتماعية بجامعة القـاهرة ومديره الأستاذ الدكتور/ أحمد عبد الله زايد، فقد تفضل بطباعـة هـذا الكتـاب والنفقة عليه، ليخرج فى أبهى حلة وأجمل صورة، فجزاه الله عنا خير جزائه.

والله الموفق

مقرر الندوة

عبُادة كُحيلة

الباب الأول
مداخل نظرية

الفصل الأول
فى البحث عن قانون علمى لظاهرة الثورة
الإشكالات .. والفروض

عاصم الدسوقى[*]

البحث في التاريخ ليس مجرد جمع معلومات خاصة بموضوع البحث من مختلف المصادر والمراجع العامة، رغماً عن أن جمع المعلومات يمثل الخطوة الأولى والأساسية في بناء البحث، إذ لا يمكن بداهةً كتابة التاريخ دون الاستناد إلى معلومات. كما أن كتابة البحث لا تقوم فقط على نقد المصادر التي يعتمد عليها الباحث وفق قواعد النقد المتعارف عليه، وإلا فإن البحث يصبح مجرد معلومات مصفوفة بعناية، وكأنه رسالة في المعلومات وليس رسالةً في العلم. ولكن فوق هذا وذاك لا بد من أن يقوم البحث على اكتشاف العلاقات بين جزيئات الظاهرة موضع البحث تطبيقاً لقانون علمي قائم، أو للخروج من هذه العلاقات بقانون علمي يستخدم في تفسير الأشياء في الماضي والحاضر وتقديم تصور للمستقبل. وبهذه الخطوة يقترب التاريخ من دائرة العلم أو فلسفة العلم، لأن العلم يعني المعرفة المنظمة للظواهر الطبيعية أو الإنسانية وللعلاقة التي بينها، ودراسة العلاقات التي بين الظواهر تعني دراسة قوانين هذه الظواهر.

ولكن.. ما هي طبيعة القانون العلمي في موضوع التاريخ ؟!. أو كيف يبنى القانون العلمي؟!.

إن القصد بالقول بالقانون العلمي هنا التأكيد على نفي القول بالمصادفة في تكوين الظاهرة وتطورها من حال إلى حال، والتأكيد على أن حركة حوادث

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر كلية الآداب، جامعة حلوان، عميد كلية الآداب، جامعة حلوان سابقاً.

التاريخ لا تتم جزافاً هكذا، وإنما ثمة عوامل متشابكة ومتراكمة كل منها يــؤدي إلى الآخر إلى أن يكتمل تبلور الظاهرة موضع الدراسة.

ولقد ذهب فلاسفة العلم مذاهب شتى في تحديد طبيعة القــانون العلمــي، يمكن حصرها في أربعة مذاهب كل منها يتناقض مع الآخر تمامــا. وأول هــذه المذاهب يقول أصحابه إن القانون كامن في العلاقات الداخلية للظاهرة، أي فــي ماهية الأشياء وصفاتها الجوهرية، وإن إدراك ما بين هذه الصفات من علاقــات يوضح لنا أنها تجري على نسق مطرد، وهذا النسق هو ما يطلق عليه "القانون". وبعد إستخراج هذه القوانين، أي نسق العلاقات المطردة التــي تصــل الأشــياء بعضها ببعض، يصبح بالإمكان أن نستخدم هذه القوانين في تفسير الأشياء دونما حاجة إلى إفتراض وجود قوة مطلقة مفارقة تسير الطبيعة من الخارج.

وأما المذهب الثاني فيقول أصحابه إن القانون غير كامن فــي العلاقــات الداخلية للظاهر، وإنما هو مفروض على الظاهرة من الخارج ،ومن هنــا يبــدأ البحث عن العلاقات الداخلية للظاهرة بواسطة القوة المفارقة (القوة الإلهية) التي تسير الظاهرة ،لأن العلاقات الداخلية هذه بين الأشياء تعد آية من آيات العمــل الإلهي وحكمته .

والمذهب الثالث يقول أصحابه : إن القانون ما هو إلا وصــف لمــا تمــت ملاحظته في الطبيعة من إطراد، دون أن يقتضي ذلك ضرورة حدوث الإطــراد أو حتميته. وهذا يعني إنكار وجود السببية في الطبيعة، لأن القانون والحال كذلك يصف كيف تتحرك الأشياء على نحو معين دون أن يفسر لنا لماذا تتحرك علــى هذا النحو دون غيره من الأنحاء ،وبالتالي فأصحاب هذا المذهب يستبعدون كلاً من الحتمية (المذهب الأول) ،والقوة العليا المفارقة " الحكمة الإلهية" (المــذهب الثاني).

وأما المذهب الرابع فإن أصحابه يعدون القانون مجرد تفسير اصطلاحى وأسلوب إجرائى في البحث، كما وضح لدى بعض أتباع الوضعية المنطقيــة ، والبرجماتيين وخاصةً في القرن العشرين. فأتباع الوضعية المنطقيــة يــرون أن القوانين العلمية عبارة عن أطر تساق فيها القضايا ،ومن هنــا تكــون الســببية عندهم وسيلة أداتية لتنظيم سير البحث في كائنات الوجود الخــارجي. ويقتــرب البرجماتيون من هذا الفهم حين يقولون : إن قوانين الطبيعة عبارة عــن قواعــد للسلوك نتوخاها عند استخدامنا لوقائع العالم الخارجي.[١]

وإذا كانت هذه المذاهب الأربعة تقصر معنى القانون العلمي على الظواهر الطبيعية فقط ،فإن ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع ،جعل القانون (العلمي) ينسحب على الظواهر الاجتماعية ،إذ انتهت به دراسته لهذه الظواهر إلى الكشف عن القوانين التي تخضع لها وتفسيرها، من حيث نشأتها وتطورها، وما يعرض لها من أحوال. وقد اهتدى من دراسته إلى أن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون ،وبالتالي فإن للعلوم الإنسانية قوانين تشبه قوانين العلوم الطبيعية. وبمعنى آخر إنه رأى إمكانية دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية، كما تدرس ظواهر العلوم الأخرى للوقوف على طبيعتها وصفاتها والقوانين التي تخضع لها.

ومن هنا جاء قول ابن خلدون في تعريف التاريخ إنه "في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول السوابق من القرون ،وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ،وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق".[٢]

وعلى هذا فلا ينبغي التفرقة بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الإنسانية (التجربة البشرية وتطورها) ،وبالتالي فإن المنهج العلمي ينبغي أن يكون واحداً بالنسبة للظاهرتين ،إذ لا فرق بين ظاهرة طبيعية يتم بحثها على أساس المشاهدة والملاحظة تنتهي باستخراج قانون منها ،وظاهرة إنسانية يتم بحثها باستدعائها من التاريخ، نخلص منها إلى قانون أيضاً. فالقانون العلمي في النهاية عبارة عن علاقة أو صلة أساسية ضرورية ومطردة بين خواص معينة .. فقانون الجاذبية مثلاً يحدد علاقة الأجسام كلها بالأرض وهي علاقة حقيقية وأساسية ومطردة ،وكذلك الحال بالنسبة للقوانين الاجتماعية كما سوف نرى ، والقانون لا يصنعه الإنسان وإنما يكتشفه حين يربط بين المتغيرات الكمية والتغير الكيفي النهائي. مع الاعتراف بأن السلوك البشري أكثر تعقيداً من حيث الاطراد وغير نمطي عكس الظاهرة الطبيعية.

وحيث أن "الثورة" ظاهرة إنسانية اجتماعية عرفتها المجتمعات البشرية نتج عنها تغيير في البناء السياسي والاجتماعي ،برزت على إثرها قوى اجتماعية ،وتوارت اخرى ،وقد تتكرر إذا ما دعت الظروف إلى ذلك .. فهل يمكن اكتشاف القانون العلمي لها ؟. إن الإجابة على هذا السؤال هو محور هذه المقالة التي تستهدف صياغة قانون علمي لظاهرة الثورة.

والحق إن هذه المحاولة هي نوع من الملاحة في بحار صاخبة متلاطمة الموج ،لأن القانون ينبغي أن يقوم إبتداءً على حصر جميع الحالات التي ينطبق عليها (أي الثورة في موضوعنا) حتى تتحقق شمولية المعرفة التي هي أحد خصائص المعرفة العلمية. ولعل صعوبة حصر جميع حالات الظاهرة الاجتماعية-الإنسانية من وقائع التاريخ على مر العصور جعلت بعض فلاسفة العلم يذهبون إلى أن العلوم الاجتماعية Social sciences ليست علوما أصلا وأنها في أحسن الأحوال عبارة عن دراسة Study وأن "العلم" Science هو العلم الطبيعي فقط.(٣)

ويستند هؤلاء الذين يرفضون دراسة الظاهرة الاجتماعية في ضوء قانون علمي إلى عدة ملاحظات يمكن تلخيصها فيما يأتي :

- أن الدراسات الإنسانية-الاجتماعية تستخدم مفاهيم كيفية (أي مصطلحات) غير مبنية على تجارب كمية مثل مصطلح الطبقة ،والمجتمع ، والديموقراطية ،والبورجوازية والليبرالية ..إلخ ،وكأنما هذه الألفاظ بسيطة المعاني يمكن ضبط مدلولاتها ضبطا يمنع الاختلاف حولها ،أو يمكن تطبيقها في أي مجتمع وعلى أي فترة من فترات التاريخ ،أو يمكن معاملتها معاملة مصطلحات : حرارة وضوء وصوت وكهرباء.

- أن المفاهيم التي تخلص لها الدراسات الإنسانية هي مفاهيم ذاتية الدلالة أي خاصة بالحالة أو الحالات موضوع الدراسة ولا يمكن تعميمها.

- أن التغير في الحالة الاجتماعية أبطأ من التغير في الظاهرة الطبيعية وبالتالي من الصعب ملاحقته إلا على فترة زمنية طويلة، بينما الظاهرة الطبيعية يمكن إدراكها من واقع ملاحظتها على مدار زمني قصير ،ويمكن استعادتها في المعمل لمعرفة كيفية تكوينها وإعادة تركيبها عكس الظاهرة الاجتماعية-الإنسانية التي تحدث مرة واحدة ولا تعود ولا يمكن إعادتها ،إذ لا يمكن استعادة الحروب والمعارك والثورات وإعادة تمثيلها حتى تتكشف أسرارها.

- أن للإنسان إرادة حرة ويتمتع بحرية الاختيار تمكنه من تغيير المسار السببي ،وهي خصوصية لا تتمتع بها الظاهرة الطبيعية ،وبالتالي فإن قانون العلم الطبيعي عام ومطلق، ولا يتغير بتغير المكان أو الزمان.

- أن العلم الطبيعي حتمي في نتائجه ،وأن ظواهره محتومة الوقوع أو ما يعبر عنه بالحتمية Determinism، وهو أمر بعيد الحدوث في الظاهرة

الاجتماعية. وتبعاً لهذا الرأي فالتاريخ لا يمكن أن يكـون إلا سـرداً لا يدخلـه الاستدلال بالشواهد ولا بالتجارب المعملية.(٤)

ورغم وجاهة تلك الملاحظات الاعتراضـية علـى "علميـة" الظـاهرة الاجتماعية ،إلا أن الباحث في تاريخية الظاهرة الاجتماعية يمكنه التوصل إلـى قانون، يمثل حكماً كلياً عمومياً لا يقل في ذلك كثيراً عن أحكام الظاهرة الطبيعية ،فالمؤرخ يفسر قيام ثورة ما كما يفسر الجيولوجي وقوع الزلزال ،والقصد أنـه يريد أن يثبت أن الثورة لم تقع مصادفة وإنما وقعت وفقاً لقانون معين حتـى إذا لم يبلغ درجة الدقة التي تتصف بها العلوم الطبيعية.(٥)

وفي هذا الخصوص يرى هرنشو أنه على الرغم من صعوبة استخلاص قوانين علمية من دراسة التاريخ على غرار دقة العلوم الطبيعية ،فـإن هـذا لا يجرد التاريخ من صفة العلم ،بل إن العجز عن بلوغ أغراض محددة في دراسة الأساطير (الميثولوجيا) مثلا بسبب عدم دقة قوانينها لا يجيز نفي صـفة العلـم عنها ،ويكفي في رأيه إسناد صفة العلم إلى موضوع ما إذا سعى الباحـث إلـى تأسيس بحثه على حكم نقدي بعيداً عن هوى النفس.(٦)

على أن أول ما يصادفنا في صياغة قانون علمي للثورة إشـكالية تعريـف الثورة ذاتها للبحث عن تراكميتها الكمية. وتبدو المشكلة واضحةً عنـدما تطلـق جماعة ما على نفسها أو فرد يستولى على السلطة بأن ما قام به أو قامـت بـه الجماعة "ثورة" ،وينتقل هذا الوصف الكيفي إلى الدارسين دون وعـي بحقيقـة الظاهرة العلمية، مما ينتج عنه في النهاية خلط واضح بين "الثورة" علمياً وبـين أية حركات أخرى من نوع الانتفاضة ،أو الهبة ،أو التمرد ،أو العصيان.

لكن التعريف المعجمي للثورة يساعدنا على اكتشاف القانون العلمي لها.. فالمعاجم الغربية تتفق على تعريف الثورة Revolution بأنهـا تغيـر فجـائي وأساسي وتام ،وتغيير جوهري في النظام السياسي يتلخص في الإطاحة بحكومة قائمة وإقامة حكومة من المحكومين ،والمصطلح مشتق من فرنسـية العصـور الوسطى اللاتينية Revolutio ومـن الأصـل اللاتينـي Revolvere بمعنـى الاستدارة في الاتجاه. (٧)

أما في اللغة العربية فإن المعجم الوسيط الصادر من مجمع اللغة العربية في مصر (١٩٦٠) يعرف الثورة "بأنها تغيير أساسي في الأوضـاع السياسـية والاجتماعية يقوم به الشعب في دولة ما" ولكنه يضع أمام التعريف وبين قوسين

كلمة "محدثة" . والمعنى أن المعاجم العربية السابقة لم ترد فيها الكلمة بهذا المعنى الإصطلاحي ،ففي مختار الصحاح تأتي كلمة "ثوّر (بتشديد حرف الواو) فلان الشر تثويراً : أي هيجه وأظهره". كما تأتي كلمة "ثور (بتشديد حرف الواو) القرآن: أي بحث عن علمه". وفي المصباح المنير كلمة "أثاروا الأرض: أي عمروها بالفلاحة والزراعة".

والخلاصة أن الثورة هي عملية الوصول إلى السلطة وتغيير البناء الاقتصادي-الاجتماعي القائم في المجتمع وإقامة علاقات اجتماعية جديدة. ولكن ما هو القانون العلمي للثورة ؟.

يمكن اكتشاف هذا القانون من واقع دراسة عينة من الثورات السياسية-الاجتماعية الكبرى التي قامت في التاريخ الحديث بحثا عن التراكمات الكمية التي أدت إلى التغير الكيفي أي الثورة. وهذه الثورات : الثورة الفرنسية ١٧٨٩ ،والثورة الروسية ١٩١٧ ،والثورة الصينية ١٩٤٩ ،والثورة المصرية ١٩٥٢ ،وثورات أمريكا اللاتينية (الجنوبية) في كل من بوليفيا ١٩٥٢ ،وكوستاريكا ١٩٥٣ ،وكوبا ١٩٥٩ ،وجواتيمالا ١٩٦٤. وإن متابعة حركة هذه الثورات من حيث أسبابها وتنظيمها وقيامها ونتائجها ،يحدد التراكمات الكمية المطلوب توافرها لبلورة الثورة ،نستطيع أن نلخصها في الشروط الخمسة الآتية :

١- وجود تناقض اجتماعي- سياسي بين السلطة القائمة وبين المحكومين، كأن تكون هناك مشكلة اجتماعية حادة بسبب عدم التوازن بين الأجور وبين الأسعار ،أو بسبب احتكار صفوة اجتماعية معينة للحكم وتنحية صفوات اجتماعية أخرى، ومن ثم الصراع بمختلف أشكاله وحسب مقتضى الحال.

٢- السلطة الحاكمة تعجز عن حل التناقض القائم وتسعى للاحتفاظ بزمام الأمور في يدها عن طريق إرضاء مختلف الأطراف ،ونقل التناقض إلى القوى المتنافسة معها، فتحاول استقطاب قوة ضد قوة ،أو تصفية أخرى ،أو اختراق قوة ثالثة وهكذا ،وتقديم تنازلات هنا وهناك فلا تنجح بل تزيد الأمور سوءاً ، ذلك أن الحلول الوسطى كما يقول جون ستيوارت مل ،لا تقدم أي حلول على الإطلاق.

٣- وجود جماعة "سياسية" سرية أو علنية ،حزب أو جبهة ،تسعى لحل التناقض القائم لصالحها، وفق ما تعبر عنه من مصالح القوى المشاركة.

٤ – جموع الناس تتطلع إلى التغيير وتنتظره يأساً من الوضع القائم ،أو ما يعبر عنه بشرط "توفر حالة الثورة في المجتمع".

٥– اختيار اللحظة المناسبة، أو الظرف المواتي للاستيلاء على السلطة. وهذا الاختيار له حسابات دقيقة ويأخذ في الاعتبار عدة عوامل من حيث زمنه وتوقيته ومكانه حسب مقتضى الحال. وهذا يعني أن القيام بالعمل قبل اللحظة المناسبة المحددة يؤدي إلى إجهاض الثورة ،والتأخر عن القيام بها في اللحظة المناسبة من شأنه تفويت الفرصة أو كما يقال .. يكون العمل في غير أوانه .. ألا يقول المثل الشعبي "كل وقت وله أدان" ،أي النداء للصلاة في مواقيتها .. ليس قبلها وليس بعدها.

فإذا توافرت هذه الشروط الكمية في مجتمع حالة الثورة تقع الثورة حتماً ولا بد ،وتلك هي خلاصة متابعة عوامل الثورة في تلك البلاد والتي لم نجد بينها اختلافاً إلا في أسماء الثوار وتنظيماتهم ووقت قيام الثورة ومكانها . أما إذا لم يتوافر شرط أو اثنان فإن هذا لا يعني خطأ القانون، وإنما يعني أن تراكمات الحالة لم تكتمل بعد. أما إذا فشل الثوار في الاستيلاء على السلطة وتم اعتقالهم وتصفيتهم، فلا يجوز وصف ما قاموا به "بالثورة" اعتماداً على أن الثورة تقاس بالأهداف التي كانت ترمي إليها.

وبعد استخلاص القانون العلمي للثورة على هذا النحو يبقى أن يستخدمه الباحثون الذين يفكرون في دراسة ثورة من الثورات في أي مجتمع من المجتمعات وفي أي فترة من فترات التاريخ قديماً ووسيطاً وحديثاً ،أي أن على الباحث أن يهتدي بشروط هذا القانون في بحثه ابتداءً من تشخيص التناقض الاجتماعي القائم وانتهاءً بلحظة الاستيلاء على السلطة.

وفي هذا الشأن ينبغي التفرقة بين ثورة التحرر الوطني من الاحتلال الأجنبي والثورة الاجتماعية أو ثورة التحرر الاجتماعي ،ذلك أن ثورة التحرر الوطني أو الاستقلال هي أقرب إلى الانقلاب ،لأن الذي يقودها عادة صفوة اجتماعية طبقية، تتسلم مقاليد الأمور بعد النجاح في التخلص من الاحتلال ، ولكن لا تقوم بأي تغيير اجتماعي أساسي لصالح الطبقة الوسطي أو لصالح العمال والفلاحين، بل تحرص من خلال احتفاظها بآلة التشريع على المحافظة على مكاسبها، فتفتح بذلك الباب لثورة التحرر الاجتماعي.

أما إذا نفينا صفة العلم عن الظاهرة الاجتماعية وذهبنا إلى أن التاريخ

مجرد دراسة Study وليس علماً Science ومن المستحيل أن يكـــون كــذلك ، فينبغي ألا نضيف في قولنا كلمة "علم" إلى الاجتماع ،أو إلى الاقتصـــاد وإلـــى غيرهما من فروع العلوم الاجتماعية المتعارف عليها. لأننا عندما نقـــول بـــالعلم في الظاهرة الاجتماعية فنعني البحث عن علاقات الأشياء والجزيئـــات بعضـــها ببعض وترابطها، من أجل تحديد التراكمات الكمية المطلوبة كما سبقت الإشارة.

الهوامش

(١) راجع : محمد فرحات عمر ،طبيعة القانون العلمي ،الدار القومية للطباعة والنشـــر ، القاهرة ١٩٦٦. وأيضاً : زكي نجيب محمود ،المنطق الوضعي ،مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٦.

(٢) راجع : ابن خلدون ،المقدمة ،تحقيق علي عبد الواحد وافي ،لجنة البيـــان العربـــي ، القاهرة ١٩٥٧.

(٣) توفيق الطويل ،إشكالية العلوم الإجتماعية أنها ليست علوما ،نـــدوة "إشـــكالية العلـــوم الإجتماعية في الوطن العربي" ،المركز القومي للبحوث الإجتماعيـــة والجنائيـــة ،القـــاهرة ١٩٨٦.

(٤) زكي نجيب محمود ،أسس التفكير العلمي ،دار المعارف ،القاهرة ١٩٧٧. أنظر أيضاً: جوزيف هورس ،قيمة التاريخ ،ترجمة نسيم نصر ،منشورات عويدات ،بيروت ١٩٧٤.

(٥) أنظر : إدوارد كار ،ما هو التاريخ ،ترجمة ماهر وبيار عقـــل ،المؤسســـة العربيـــة للدراسات والنشر ،بيروت ١٩٧٦. وأيضاً : عبد الرحمن بدوي ،النقد التاريخي ،النهضـــة العربية ،القاهرة ١٩٦٣.

(٦) أنظر : حسن عثمان ،منهج البحث التاريخي ،الطبعة الرابعة ،دار المعارف ،القاهرة ١٩٧٧.

(٧) أنظر : Webster's, New Encyclopedic Dictionary , 1994

الفصل الثانى

الفلسفة والثورة

محمد مجدى الجزيرى(*)

تثير علاقة الفلسفة بالثورة بعض التساؤلات لكن أهمها أن الفلسفة بحكم طبيعتها العامة ثورية، بمعني أنها لا تكتفي بالواقع الغفل الخام الذي يواجهنا ويتحدانا، بل أنها من البداية تتمرد عليه وتتجاوزه من أجل تعقيله وتسويغ مشروعيته، فالواقع المعقول هو هدف الفلسفة وغايتها الكبري، وليس ثمة فلسفة لو سلمنا بالأشياء علي نحو ما هي عليه بدلا من أن نخضعها لقبضة العقل، والوعي الإنساني لا يمكن أن يكون ثابتاً، بل إن طبيعته تقتضي التغير والتجدد الخلاق. وعلي هذا تتكشف طبيعته الدينامية، فهو في تغير دائم وانبثاق متصل، ليس مجرد واقعة جاهزة الصنع بقدر ما هو بمثابة استفسار أو وضع للسؤال، هو المطلب والأمل الذي يتطلع إليه الإنسان علي مدي حياته كلها، عن طريقه يؤكد ذاته ويتعالي علي عالمه الذي يرتبط به، ذلك أن الوعي الإنساني عندما يجد نفسه في مواجهة صريحة مع العالم الذي يحيا فيه فإنه يصبح عليه أن يتساءل؟ هل يمتثل لهذا العالم ويقبله بالصورة التي هو عليها أم يحاول أن يتعرف علي حقيقته وماهيته.

والحق أن أهم ما يميز الإنسان ويحدد مكانته في سلسلة الوجود العامة قدرته علي التمييز بين الحقيقي والممكن، بين حقيقة الأشياء وإمكانها، وهي التفرقة التي نبه إليها كانط في كتابه "نقد ملكة الحكم" ويمكن أن نجدها أيضا عند أرسطو في تفرقته بين الوجود الفعلي والوجود بالقوة. فالتفرقة بين الحقيقي والممكن لا نصادفها ولا نجدها لدي الكائنات الأدنى من الإنسان، أما بالنسبة للكائنات الواقعة دون الإنسان، فإنها محصورة في عالم مدركاتها الحسية فحسب، تتلقى الدوافع المادية الواقعة عليها وتجيب عليها بردود فعل، لكنها تعجز عن تكوين فكرة عن الإشياء الممكنة. وهكذا يمكن القول بأن الفلسفة بحكم طبيعتها ثورية، وهي أيضا بحكم طبيعتها تاريخية، لا تتوقف أو تتجمد عند نقطة معينة، مكانية أو زمانية، شأنها في ذلك شأن التاريخ سواء بسواء، ومن هنا يمكن أن

(*) أستاذ الفلسفة المعاصرة كلية الآداب - جامعة طنطا.

نتفهم طبيعة الدور الذي قامت به الفلسفة في التمهيد للعديد من الثورات العالمية كالثورة الفرنسية والثورة البلشفية.

وإذا كان يمكن مناقشة علاقة الفلسفة بالثورة في ضوء هذا المستوى، أقصد مستوى استشراف الفلاسفة للمستقبل ودعوتهم للثورة والتمهيد لها، فإن هذا المستوى الذي يصعب تجاهله لا ينبغي أن يجعلنا نتجاوز مفارقة الثورة. وبالتالي يمكن القول بأن موقف الفيلسوف من الثورة يتسم بالتوجس والحذر، فهو يبشر بها وينادي بالعديد من المبادئ التي قد تشكل منطلقات عامة لها، لكن الثورة متى تحققت، خصوصاً على أيدي المؤسسة العسكرية، فإنه كثيراً ما يتوجس منها ويتشكك في مصداقيتها، بل في تحديد أهدافها الحقيقية، وقد ينتهي به الأمر إلى أن يصطدم بها. فالغايات الأخلاقية التي تغلفت بها الثورة في بداياتها الأولى سرعان ما تتكشف حقيقتها على أرض الواقع، وهنا تتبدى إشكالية الثورة عند الفيلسوف، أعني بها إشكالية الازدواجية بين الثورة كأمل وحلم وغاية وطموح وفكر والثورة كواقع وممارسة وتحقق فعلى وتطبيق.

وإذا كان ثمة ما يشبه التلاقي والتواصل بين الفلسفة والثورة – كما أوضحنا – فإن هناك أيضاً ما يؤكد الانفصال والقطيعة بل والعداء أيضاً، وتفسير ذلك بسيط للغاية فإذا كانت الفلسفة بحكم طبيعتها دعوة إلي العقلانية والاحتكام إلى معايير العقل في كل جوانب حياتنا، دعوة إلى تجاوز كل العناصر اللاعقلية في الوجود الإنساني، فإنها من هذا المنطلق قد تبدو معارضة لكل ثورة تشعل وتلهب المشاعر الإنسانية وتبتعد عن صوت العقل وأحكامه الباردة، لكن قدر الفلسفة أن تواجه كل المعطيات التي تجدها في طريقها حتى ولو بدت بعيدة كل البعد عن العقلانية.

وهنا تتبدى مفارقة الثورة بكل وضوح، فالمفارقة تنطوي على طبيعة الفلسفة الثورية وتبشيرها بالثورة على مستوى الدعوى والتنظير والرسالة من ناحية، ومخاوف الفلسفة وشكوكها تجاه التجسد الفعلي للثورة من ناحية أخرى، وفي ظل التوجس والحيرة والشك والارتياب يتولد الموقف النقدي تجاه الثورة. وهنا تتباين المواقف والرؤى في التعامل مع الثورة كحدث تاريخي وواقع فعلي، ولا تتباين المواقف بين الفلاسفة فحسب، بل تتباين مواقف الفيلسوف أو المفكر في تعامله مع مسار الثورة عبر تاريخها، قد يظل مؤيداً لها مدافعاً عنها، رغم كل الإحباطات التي قد يصطدم بها في تعقبه مسارها، وقد تتغير مواقفه من التأييد إلى التنديد، في ضوء مدى توفيقها أو إخفاقها في تحقيق الغايات التي

استهدفت تحقيقها في البداية قد يتلمس لها كل التبريرات الممكنة، لكنه سرعان ما يتحول إلى موقف الهجوم عليها والتنديد بها بل ورفضها أيضاً. وفي هذا الصدد يمكننا الاستشهاد ببعض النماذج الفلسفية التي عايشت تجربة الثورة وعبرت عنها، أيدتها في البداية لكنها سرعان ما انقلبت عليها في النهاية.

كان هيجل في بداية حياته من أشد المعجبين بالثورة الفرنسية، تأثر بها تأثراً عميقاً في صباه، فعندما كان تلميذاً في القسم اللاهوتي بجامعة توبنجن، واستمع إلى أنباء عن الثورة الفرنسية وصلت إلى ألمانيا هلل لها في حماسه. واشترك معه في التهليل بها صديقه شلنج وصديقه هلدرلين. وعندما زار نابليون مدينة يينا بعد هزيمة الجيش البروسى في معركة يينا ١٨٠٦ تحدث هيجل عن هذا الحادث بحماسة بالغة، وكتب في إحدى رسائله: لقد رأيت الإمبراطور روح العالم، وهو يمتطي جواده ويجوب الشوارع. كان إعجاب هيجل عميقاً بالثورة الفرنسية التي نجحت في تجسيد فكرة الفردية المسيحية في شخص نابليون، ومن ثم حاول هيجل تبرير وجود نابليون واستنباطه من المبادئ الأولى لفلسفته. فالفكرة الأساسية التي اعتمدت عليها فلسفة هيجل هي التركيب بين عنصرين: العنصر التاريخي والعنصر الديني، وتأكيد ما بينهما من تواصل وتفاعل متبادل. واقتنع هيجل بأنه أول من أدرك هذه التبعية المتبادلة في ضوئها الصحيح، وبالتالي لم يبد التاريخ في مذهب هيجل مجرد مظهر لله، بل بدا ماهية الله في المقام الأول، فليس لله تاريخ فحسب، إنه هو التاريخ، أو بمعنى آخر لقد أصبح الله في فلسفة هيجل مرادفاً للتاريخ.

في كتاب "فلسفة التاريخ" كتب هيجل" لقد كشف الله في الدين المسيحي عن نفسه، أي عرفنا كيف نستطيع فهم ماهيته، بحيث يمكن القول بأنه لم يعد وجوداً خفياً ولا سراً، والآن بعد أن تيسرت معرفته على هذا الوجه أصبحت هذه المعرفة أمراً واجباً، ولابد أن يجئ الزمان لفهم مثل هذا النتاج الخصيب للعقل الفعال الذي يعرضه علينا تاريخ العالم". فإذا كان الفلاسفة المسيحيون قد أقاموا حداً فاصلاً بين ما أسموه عالم الطبيعة وعالم النعمة الإلهية، فإن هيجل لم يقبل هذا التعارض، وذكر أن أية نظرية تأملية صحيحة للتاريخ تكفي لإقناعنا بما في هذه القسمة من اصطناع. ففي التاريخ لا انفصال بين عاملي "الزمان والأبدية" إنهما منذ البداية متداخلان. وهكذا بدت دولة أو امبراطورية نابليون – في نظر هيجل – عبارة عن تحقق لعالم أو مملكة السموات المسيحي، فعن طريق قيام الثورة الفرنسية أمكن تحقيق الفكرة المسيحية لتصبح دنيوية على يد العقل، أو

بعبارة أخرى أمكن تحقق مركب الفردية – الذي يجمع بين الكلى والجزئي في شخصية نابليون، ومن هنا وجدنا هيجل في نهاية الفصل السادس من الفنومنولوجيا يشير إلى نابليون قائلاً: هذا هو الإله المتجلي، هو الواقع، هو المسيح الحق.

لكن الثورة الفرنسية التي انبثقت تنادي بشعارات الحرية والإخاء والمساواة سرعان ما تحولت إلى الإرهاب. فالحرية المطلقة التي ارتبطت بها الثورة في البداية، والتي قصد بها تسامى الإرادة الفردية إلى مستوى الإرادة العامة، بدت في نهاية المطاف مجرد إرادة إنسان خاص، بدلاً من أن تكون إرادة مواطن، وهكذا تضاءلت الإرادة العامة إلى مستوى الإرادة الفردية، وإذا كانت الحرية بالنسبة للعبد تكمن في قهر القيود وكل مظاهر الاستعباد، بينما تتمثل الحرية بالنسبة للثوري في انطلاقه وتحقيق الإرادة الجماعية، فإن قادة الثورة الفرنسية عجزوا عن إدراك الصلة الحقيقية التي تجمع الإرادة الفردية والإرادة الجماعية، فالوعي الفردي لم يكن لديه الاستعداد لأن يتقبل التحديدات التي كان يفرضها عليه النظام الاجتماعي، ومن ثم تحولت حرية هذا الوعي إلى حرية هدامة لا تريد سوى ذاتها، ولا تقبل أي تنازل أو أي اغتراب عن الذات، ومن ثم فإن الحرية السلبية التي أرادت لنفسها التحقق على نحو مباشر، دون حاجة إلى وساطة أو أي اغتراب عن الذات، هي التي عملت على انحلال الفردية، وغلبة الموت وسيادة الإرهاب.

وعلى هذا النحو فإن الحرية المطلقة التي تنكر النظام الاجتماعي القائم والتي قصد بها في البداية تسامي الإرادة الفردية إلى مستوى الإرادة العامة سرعان ما تنكر ذاتها وتتحول إلى الحرية الذاتية التي ترد النظام الاجتماعي إلى نفسها، وهو ما يفسر تحول نابليون إلى طاغية. أصيب هيجل بخيبة أمل في الثورة الفرنسية، وأدرك أنها لم تحقق شيئاً ولم تغير من واقع المجتمع في شيء، إن تغيير الواقع أمر شاق عسير، والمفكر الثائر الذي يصل إلى هذه الحقيقة أما أن يرضى بأن يعوي مع الذئاب – كما صرح بهذا هيجل نفسه في فترة من فترات حياته وذلك في رسالة إلى أحد الأصدقاء في ٩ فبراير عام ١٧٩٧، وأما – وهذا أفضل أن يواصل التفكير من الداخل. فبدلاً من أن يتجه بثورته إلى تغيير الواقع المادي والاجتماعي، عليه أن يقنع – وقد لا يكون هذا من قبيل أضعف الإيمان بل أقواه – بثورة باطنية روحية، وهيجل كان ثائراً من هذا الطراز. ومن ثم فإنه بعد أن كتب في إحدى رسائله مبتهجاً بانتصار نابليون في

معركة يينا ١٨٠٦ "لقد رأيت الإمبراطور روح العالم، وهـو يمتطـي جـواده ويجوب الشوارع،، فإنه بعد ذلك قرر حكماً مختلفاً فلقد هـزم نـابليون ونفـى، وأصبحت بروسيا القوة السائدة في ألمانيا، وبذلك انتقلت روح العالم إلـى جـزء آخر من الجسم السياسي.

وإذا كانت الثورة الفرنسية قد تركت تأثيرها العميق في فلسفة هيجل، فإننـا لو انتقلنا إلى الثورة البلشفية عام ١٩١٧ وجدنا تأثيرها لا يقل أهمية فـي فكـر وحياة نيكولا بيرديائف، بل لقد أفاض بيرديائف بصورة أكثر تفصـيلاً وتحلـيلاً في مناقشته لظاهرة الثورة، فالثورة عند بيرديائف تعد ظاهرة مستمرة، في حيـاة المجتمعات الإنسانية، ففي كل العصور التاريخية كانت هنـاك ثـورات .. فـي مصر القديمة، في اليونان، في روما.

ويعلل بيرديائف انفجار الثورات بقوله: "إن أمير هذا العالم يحكم المجتمـع الإنساني ويسيطر عليه بطريقة خاطئة زائفة، ولهذا فإنه أصبح من الطبيعـي أن يحدث التمرد على سيطرته هذه بين الوقت والآخر".

ويعد بيرديائف الثورة بمثابة تحقيق لحكم الله، كما أنها من ناحيـة أخـرى تتضمن في نظره لحظة أخروية، تتمثل في توقعها نهاية الزمـان. لكنهـا علـى الرغم من هذا تمثل مرضاً يحل بالمجتمع الإنساني كله، فهي تحمل الدليل علـى انعدام القوة الإيجابية الخلاقة لإصلاح المجتمع بما تتضمنه من عنصر شـيطاني مدمر، يتمثل في رغبات الانتقام والكراهية والحقد بما يجعلهـا كفيلـة بـإعلان انتصار روح الهدم على البناء.

وقد تصبح الثورة حلماً للجميع وحقيقة ينتظرونها متى انعـدم فيهـا ذلـك العنصر الشيطاني، ولكنه قد يكون من المستحيل مع هذا تجنـب الثـورة لـذلك العنصر الذي قد ينفجر فيها في أية لحظة، فعلى الرغم من الأهـداف والغايـات النبيلة التي قد تدفع بالثورة إلى الانفجار .. إلا أنه سرعان ما تتحقق خيانة هـذه الغايات والمبادئ السامية. وبالتالي تستحيل الثورة إلى عبودية واسترقاق للـنفس الإنسانية. ففي الثورة يرغب الإنسان في أن يحرر نفسه كلية من الدولـة ومـن الأرستقراطية ومن البرجوازية .. من كل الأوثان والمقدسـات الكاذبـة. لكنـه سرعان ما يخلق أوثاناً جديدة ومقدسات زائفة جديدة.

ومن هنا فإن الثورة التي قد تنفجر من أجل قضية الحرية سرعان ما تخون قضيتها، فتخلق أسطورة جديدة تتحرك من خلالها وتلـزم الجميـع بتقديسـها،

باعتبارها كياناً موضوعياً قائماً بذاته. بل إن الثورة نفسها قد تتشخصن وتكتسب وجوداً حياً مستقلاً يقف في مواجهة المصائر الإنسانية. ومن هذا المنطلق تصبح الثورة ظاهرةً مقدسةً لها حق العبادة والتقديس وبالتالي ترتبط الحرية الإنسانية بذلك الإله أو المعبود الجديد. وواقع الأمر أنه لا وجود لأي شئ مقدس في العالم الموضوعي.

وينتقل بيرديائف بعد ذلك إلى مناقشة علاقة ميتافيزيقا الثورة بالزمان، فإذا كان الزمان ينطوي على مفارقة أساسية فإن هذه المفارقة تصل إلى ذروتها في علاقته بالثورة. فالثورة تتحقق في الحاضر والرجال الذين يصنعونها يخضعون لسحر الحاضر، ومع هذا فإن الثورة لا تعرف الحاضر بل لا يوجد أي حاضر بالنسبة لها، فهي لا تهتم ولا تتعلق إلا بالماضي والمستقبل وحدهما، وهي توجه رفضها وتمردها للماضي، فهي تفترض أنه من الممكن إعدام الماضي إلى الحد الذي لا يصبح له أي وجود. وهنا يكمن الخطأ الأساسي في نظرتها. فقد يكون من الممكن في رأي بيرديائف إعدام كافة الأشكال المتباينة من الظلم والاستعباد المنتمية إلى الماضي. وقد يكون من الممكن إعدام ونبذ كل ما ينتمي إلى الزمن التاريخي. لكنه من غير الممكن بل من المستحيل إلغاء وإبطال كل ما ينتمي إلى الزمن الوجودي الإنساني. فالإنسان يمكنه أن يعدم التاريخ لكنه لا يستطيع أبداً إبطال ما وراء التاريخ.

ويمضي بيرديائف في تحليله، فيلاحظ أنه شيئاً فشيئاً تبدأ الذاكرة في العودة ثانية إلى الثورة، ويبدأ بالتالي استدعاء الماضي إلى العقل، فالتاريخ لم يقم إلا على الذاكرة، وفقدان الذاكرة معناه نهاية التاريخ كليةً. ومن ثم يصبح من العجيب والمدهش أن تختفي الذاكرة كلية خلال الثورة نفسها. فاختفاء الذاكرة فيها يؤدي بها إلى تنكرها لكل من أخلص لها وتطلع إليها وساعد في خلقها وبعثها، ومن هنا تبدأ الثورة في التخلص من هؤلاء الذين كان لهم الفضل في وجودها واحداً بعد الآخر. وخلال مرحلة الثورة نفسها وخصوصاً قرب نهايتها تتبدى مشكلة كتابة تاريخها بعد اختفاء ممثليها وقادتها الرئيسيين من على خشبة المسرح. وهو ما يعد ظاهرةً تقليديةً بالنسبة لكل ثورة، وتفسيرها في نظر بيرديائف يرجع بالدرجة الأولى إلى كونها تمثل مرضاً أو داءً يصيب الزمان نفسه، فالثورة لا تهتم إلا بعملية الانتقال وحدها وهي تقيم كل شئ طبقاً للخدمة التي قدمها لهذه العملية، ومن هنا كانت نظرتها التفاؤلية إلى المستقبل ونظرتها التشاؤمية إلى الماضي. وواقع الأمر أنه لا محل لمثل هذه النظرة، فالماضي

والمستقبل ما هما إلا بعدين من ذلك الزمان الواحد المتكامل الذى تمزق وتعرض للبتر على أيدى دعاة الثورة، وليس هناك أي أساس لا لنظرة متفائلة للماضى كما يرى المحافظون ولا لنظرة متفائلة للمستقبل كما يرى التقدميون دعاة الثورة. فالموقف التفاؤلي عند بيرديائف لا يسمح به إلا في ضوء علاقته بما هو خالد أبدي وحده، وهو القادر على كسر حدة الزمان وسطوته.

ومع كل شرور الثورة هذه إلا أنها تعد عملية حتمية وقدرية في نظر بيرديائف، وإذا كان أعداء الثورة كثيرا ما يتحدثون عن شرورها وأهوالها إلا أنهم لا يمتلكون أي حق في انتقادها والسخرية منها، بل إنهم السبب المباشر وراء إنفجارها. والثورة بتحققها ونجاحها فإنها تقضى على الكثير من ألوان العبودية، كما أنها تحطم كافة أصنام ومقدسات الماضى الزائفة. وهي على هذا النحو تمتلك مبررات وجودها ومعناها الأصيل، بل إنها تعد لحظة هامة في مصير كل شعب. لكن الثورة مع هذا نادراً ما تنجح في خلق الإنسان الجديد، فهي في نظر بيرديائف لا تخلق إلا المجتمع الجديد فحسب، وهنا تكمن مأساة الثورة الحقيقية، فالإنسان الجديد هو ما ينبغى أن يحلم به الجميع. وهو أعظم وأكثر أهمية من خلق المجتمع الجديد. ومثل هذا الإنسان لا يمكن أبداً أن يصبح موضوعاً للصناعة أو ثمرة للتنظيم الاجتماعي. وظهور الإنسان الجديد هو بمثابة البعث الروحي الجديد الذى يحقق الانتصار على كل تموضع واغتراب للروح الإنسانية، وفي ضوء هذه الحقيقة يتكشف المفهوم الحقيقى للثورة التي آمن بها بيرديائف، فالثورة الأصيلة الحقيقية بالنسبة له هي وحدها تلك الثورة التي تؤدي إلى تغيير حقيقي في بناء الوعي وتغيير في الموقف الأساسى تجاه العالم الموضوعي.. وهذه الثورة هي وحدها الكفيلة بتحقيق الحرية، فهي ثورة الروح والضمير، أما كافة الثورات التاريخية الأخري فإنها لا يمكن أن تحقق مثل هذا التغيير في الوعي، فهي تتحدد بالمصير والقدر وسلطان مملكة التموضع.

يقول بيرديائف في وصفه لتجربة الثورة الروسية "كانت مرحلة تجربة الثورة الروسية مرحلة من مراحل مصيرى الشخصى الخاص، ولم تكن شيئا مفروضاً، فهي قد حدثت لي. على الرغم من أن موقفي منها كان موقفاً نقدياً. كما أنني قاومت مظاهرها الشريرة. والحق أن كل شخص مسئول عن الثورة متضمن فيها. وتأتي في المقام الأول تلك القوى الرجعية في النظام القديم. وأعتقد أن الثورة في روسيا كانت أمراً محتوماً وخليقاً بأن يحدث ولكنني لم

أتبين قط ألوانها الوردية، وإنما على العكس تنبأت أن قضـــية الحريـــة ســـوف تتعرض فيها للخطر".

من هنا كان ترحيبه بمقدم الثورة مع تحذيره في نفس الوقت مما قد يترتـب عليها من نتائج مدمرة لقضية الحرية. فكانت مقالته الأولي التـي نشـرها فـي مستهل الثورة بعنوان "سقوط القيصرية الروسية المقدسة" حيـث رحـب فيهـا بسقوط القيصرية واعتبر هذا السقوط عملية عادلة ونتيجة محتومـة لمـا حـل بروسيا من تحلل وانهيار سلسلة من الرموز التاريخية التي طالما حملت معنـىً مقدساً على الرغم من خيانتها حقيقة الواقع لا الواقع الذي تخيله أنصار الملكيـة المطلقة.

ومع هذا الموقف الثورى الذى اتخذه في بداية الثورة فإنه من جهة أخـرى اعتبر مثل هذه العملية المحتومة من نبذ المظاهر والإدعاءات الكاذبة الزائفـة لا يمكن أن تكون في حد ذاتها ضماناً لما تنطوى عليه الأشياء المقبلة مـن خيـر. ومع كل هذه الاعتبارات لاحظ بيرديائف أن العيب الرئيس للثـورة الروسـية لا يكمن في أنها أتت مبكرة بل لأنها أتت متأخرة جـداً ،كمـا أن شخصـيتها قـد اعتمدت إلى حد كبير على الظروف التي سببتها الحرب. فالثورة لم تخلع الملكية المستبدة خلعاً حقيقيا، ذلك أنها كانت قد تحطمت وانهارت من تلقاء نفسها. ولـم يكن هناك تمهيد كاف للثورة بقدر ما كان هناك استغلال للحظة أفلت فيها زمـام كل شئ. وهو ما يعد خير شاهد على طبيعة الثورة القدرية.

ولم يتوقف نشاط بيرديائف بعد الثورة الروسية، بل لقد شرع في تنفيذ خطة تعليمية واسعة النطاق، فألقى المحاضرات وعقد الندوات واستمر يقرأ الأبحـاث في منزلة كل يوم ثلاثاء دون أي عائق، وكان من أهم تلك المحاضـرات التـي ألقاها محاضراته عن العلم والدين في قاعة المتحـف الهندسـي وكـان عـدد الحاضرين يومها يبلغ حوالي ألفين أغلبهم من العمال ورجال الجيش الأحمر.

وفي عام ١٩٢٠ انتخب بيرديائف أستاذا للفلسفة بجامعـة موسـكو حيـث واصل العمل بها لمدة عام، ألقي خلالها مجموعة من المحاضرات انتقـد فيهـا الماركسية بصراحة وبلا أدنى عائق، هذا بالإضافة إلى اشتراكه اشتراكا فعليـا إيجابيا في اتحاد الكتاب، وكثيرا ما كان يتدخل من أجل أعضاء الاتحاد للحصول على إذن بإطلاق سراح بعض أعضائه من السجن.

وفي عام ١٩٢٢ أنشأ الأكاديمية الحرة للعلم الأخلاقي ، وضم لها ممثلـين

لاتجاهات متباينة لا يوحد بينها سوى الاعتراف باستقلال القيم الروحية وأولويتها. وكان الهدف الرئيس من إنشاء الأكاديمية هو استمرارية العمل الثقافي وحشد كافة القوى الثقافية والفكرية الميسرة بعضها إلى بعض. ونظمت الأكاديمية سلسلة من المحاضرات والندوات في بعض القاعات التي أتاحت السلطات تأجيرها في ذلك الوقت. وكان من أهم المحاضرات التي ألقاها بيرديائف في الأكاديمية محاضراته عن فلسفة التاريخ وأهمية دوستويفسكي وتحليل فلسفة الحضارة عند شبنجلر كما بدت في مؤلفه انحلال الغرب. ونتيجة لبعض هذه المحاضرات ظهرت كلمة في صحيفة برافدا تقول إن بيرديائف قد استغل المؤسسة السوفيتية للدعاية الدينية وأن مثل هذه الأعمال يجب أن توقف فوراً. وعلى إثر هذه المقالة استدعي بيرديائف للتحقيق معه، فسألوه عن معنى العلم الأخلاقي وعما إذا كان يختلف عن العلم الطبيعي. وانتهت الحادثة بسلام.. إلا أنها تسببت في التمهيد في طرده من روسيا فيما بعد.

أما أهم المؤلفات التي كتبها بيرديائف في السنوات الأولي فهي كتابة "فلسفة عدم المساواة The philosophy of inequality" الذى انتهي منه في ربيع عام ١٩١٨، وفي هذا المؤلف تكشف اهتمامه العظيم بالحرية ضد نزعة المساواة الاجتماعية لا الروحية وهي النزعة التي أطلقتها الثورة والقائمة على أساس شعار سيادة الإنسان العادي والعقل الجمعي، فجاء هذا الكتاب تأكيدا بأن المصدر الوحيد للمساواة الاجتماعية الحقيقية إنما يوجد في الاعتراف بكرامة وقيمة الشخصية الإنسانية، ولما كانت البلشفية قد أنكرت هذه الحقيقة فإنه اعتبرها ظاهرة قبيحة ينبغى تجازوها كلية. ومن ثم كان هذا الكتاب بمثابة بداية نضاله الأخلاقي ضد الضغوط كافة التي واجهته خلال فترة الثورة في ضوء إيمانه بالقيمة العليا للشخصية والحرية الإنسانية. وبالإضافة إلى هذا الكتاب كتب كتابين هامين الأول "معنى التاريخ" والثاني "دوستويفسكى".

وفي دراسة بيرديائف عن "معنى التاريخ" نجده قد اتجه إلى تناول أزمة النزعة الإنسانية ونظرية التقدم التاريخية ومشكلة الحضارة المعاصرة من خلال بحث ذلك الصراع والتقابل بين إرادة الحضارة وإرادة الحياة.

أما بالنسبة لمؤلفه عن "دوستويفسكي" فإننا نلاحظ اهتمامه بالكشف عن الجانب الروحي من تفكير هذا الروائى العظيم كما تبدى في أعماله الأدبية.

كان أول اعتقال لبيرديائف بعد الثورة عام ١٩٢٠ بتهمة انضمامه إلى

منظمة فوضوية تسمى" المركز التيكي"، ولم يكن لبيرديائف علاقة مباشرة بهـذه المنظمة وكانت صلته بها منحصرة في بعض معارفه المنضـمين لهـا والـذين اعتقل معظمهم بتهمة مناهضة الثورة، وأجريـت المحاكمـة علـى إثـر هـذه الاعتقالات، إلا أن قضيته نظرت على انفراد. وكان الوحيد من بـين المعتقلـين الذى حقق معه رئيس البوليس السياسى الشهير دزرزنسكى الذى كانت روسـيا كلها ترتعد من مجرد ذكر اسمه. إلا أن بيرديائف بدلا من أن يتخذ موقف الدفاع عن نفسه فإنه اتخذ موقف المهاجم منذ البداية، فانتفض قائلا لـرئيس البـوليس السياسي "أرجو أن تضع نصب أعينك أن كرامتى كمفكر وكاتـب تقتضـى أن أتكلم في صراحة وجلاء، واستمر يتحدث أكثر من نصف ساعة وهـو يسـوق الحجج على معارضته الدينية والفلسفية والأخلاقية للشيوعية، مؤكداً في الوقـت نفسه رفضه القاطع لسياسة الحـزب، وعنـدما انتهـت الإجـراءات قـال لـه دزرزنسكي : ((سأطلق سراحك ولكن لن يكون في استطاعتك مغادرة موسـكو دون تصريح)). ويعلل بيرديائف سبب الإفراج عنه في ذلك الوقت بأن النشـاط العدائى للسلطة كان منصبا في البداية على الخصوم العسكريين والسياسيين أكثر من انصبابه على الخصوم المذهبيين، إلا أن هذا الموقف سرعان ما تغير عندما تكاثفت الأخطار من الداخل والخارج على السواء وأصبح للخوف اليـد العليـا، ومن هنا كان تحول الثورة إلى ثورة دموية أطاحت بكل شئ وقف أمامها.

وكان مما أثار بيرديائف بصفة خاصة تهافت أعضاء الطبقة المثقفة الثورية على احتلال المناصب الحكومية في الحكومة المؤقتة، مع السهولة الكبيرة التـي تحولوا فيها إلى موظفين محترمين. وتحول المناضلين في سبيل الحرية بين يوم وليلة إلى انتهازيين مستغلين، وتكشفت له كل هذه الحقائق من خلال عضـويته لفترة قصيرة في مجلس سوفييت الجمهورية، ذلك المنصب الذى بدا لـه غريبـاً إلى حد ما. إلا أنه أتاح له مع هذا أن يرى عن كثب كافة التيارات العميقة فـي روسيا الثورية.

وعاش بيرديائف بعد ذلك في طمأنينة نسبية، إلا أن هذا الموقف سرعان ما تغير في ربيع عـام ١٩٢٢ بعـد أن تألفـت جبهـة معاديـة للـدين، وبـدأت الاضطهادات المناهضة للدين، فكان من نتيجتها أن ألقى القـبض عليـه للمـرة الثانية.

ونقل بيرديائف إلى السجن حيث حجز به لمدة أسبوع، وفي أثناء التحقيـق معه أخطروه بأنه سوف ينفي من الاتحاد السوفيتي، وأظهر له المحقـق وثيقـة

جاء فيها أنه لو اجتاز حدود الاتحاد السوفيتي بعد نفيه فإنه سوف يضرب بالنار. ووقع بيرديائف على هذه الوثيقة، وفي حقيقة الأمر فإن قرار إبعاده لم يكن قائماً على أية أسباب سياسية بقدر ما كان قائما على أسس أيديولوجية.

غادر بيردياثف روسيا عام ١٩٢٢ مع جماعة المنفيين من الكتاب والعلماء متجهين صوب برلين فوصلوها في شهر أكتوبر من العام نفسه. وكانت أول تجربة له في ألمانيا حينما اصطدم بالمهاجرين الروس حيث كانت الغالبية العظمى منهم تلقى المنفيين بالشك المطلق بل بالعداء الصريح، وألقي معظمهم الشائعات القائلة بأنهم من وكلاء البلاشفة المأجورين.

وكان المهاجرون يرون ضرورة قلب البلشفية عن طريق التدخل العسكرى، أما بيردياثف فقد رأي أن الطريق الوحيد لإنقاذ روسيا إنما يكمن في إصلاحها من الداخل عن طريق عملية باطنية أليمة من التطهر والمعاناة. ومن هنا كان الخطأ الرئيس للمهاجرين في نظره يكمن في عدم مبالاتهم أدني مبالاة بالنقد الصائب الوحيد للبلشفية، وهو النقد الصادر عن الاعتراف بالقيمة العليا للحرية الإنسانية – باعتبار أنهم لم يكونوا أكثر اعترافا بالحرية من روسيا السوفيتية.

ولم تطل إقامة بيردياثف في ألمانيا إذ سرعان ما غادرها إلى باريس حيث استقر ومات بها.

على الرغم من اختلاف المنطلقات والظروف التاريخية بين هيجل وبيردياثف، لكنهما في نهاية المطاف اشتركا في نظرة نقدية تكاد تكون واحدة تجاه الثورة كحدث تاريخى سواء كانت الثورة الفرنسية أو الثورة البلشفية، بل إن موقف بيردياثف من الثورة الفرنسية يكاد يتوحد مع موقفه من الثورة البلشفية، فالثورة الفرنسية عند بيردياثف مثلها مثل عصر النهضة الأوروبية وعصر الإصلاح الدينى وعصر التنوير انبعثت تنادي بشعارات الدفاع عن حقوق الإنسان وقيم الحرية والإخاء والمساواة، ولكنها سرعان ما انتهت إلى التنكر المطلق لكل حق ولكل حرية. وربما أمكن تفسير موقف الفيلسوف من الثورة كحدث تاريخى من ملاحظة أن مثل هذا التفسير يستمد دلالته ومعناه من خلال نسق الفيلسوف أو مذهبه ككل. وقد يكون هذا النسق صريحاً في نزعته الثورية، وقد يكون محافظاً في رفضه لها ورفضه كل تغيير عن طريق القوة المسلحة، وقد يكون مراوغاً يوحي الثورة وهو في حقيقة الأمر بعيد عن طبيعتها وروحها، شديد المكر والدهاء في تعامله معها، وتطبيقاً لهذا نجد مذهب هيجل

ككل قد غلب عليه الطابع التبريرى المحافظ، وليس أدل على ذلك من مقولة هيجل القائلة بنهاية التاريخ، فقد جمد هيجل التاريخ في لحظة محددة، هي لحظة تكشف أو تجلى المطلق في دولة بروسيا، وهكذا يمكن القول بأن موقف هيجل من الثورة الفرنسية يصعب معالجته بعيدا عن نسقه الفلسفي ككل، وهو نسق مكتمل مغلق على ذاته يتسم بطابعة المحافظ إلى حد كبير، هو ما يجعله مغايراً لمنهجه الجدلي الذى يؤكد الحركة والتطور والتغير، ومن ثم فإن الفيلسوف يصعب عليه أن يتعامل مع الثورة كحدث تاريخى منفصل عنه، وهو وإن لم يكن من صناعها، فإنه بمقدوره أن يخدع نفسه ويوهمها بصورة ما بأن إدراكه وتعقله لها يشكل بعداً حيوياً لا غنى عنه لكل ثورة، فالقراءة الفلسفية للثورة ليست جزءاً من تراث الفيلسوف فحسب، بل هي جزء ضروري من تراث الثورة، وهكذا تتعدد الثورة الواحدة بتعدد القراءات الفلسفية، وكأن الفيلسوف يريد أن يقحم نفسه ويدمغ الثورة بطابع فلسفته ليجعلها بعداً منها، ولعل هذا يفسر لنا أن القراءة الفلسفية للثورة غالبا ما تأتي محافظة، وهي لا تتعامل معها من خلال الواقع والمسار التاريخي بقدر ما تتعامل معها من خلال القالب الفلسفي والمنطلق الفكرى لتوجهات الفيلسوف وكأن الفيلسوف يريد منذ البداية أن يجعل من عقله مركزاً للكون وبالتالي مركزاً للثورة، ومن ثم فإنه يصعب أن نتفهم موقف الفيلسوف من الثورة بمعزل عن نظرته الفلسفية العامة، خصوصاً متى كانت هذه النظرة تؤكد سعى الفيلسوف إلى تأكيد وحدة مذهبه وتناسق عناصرة وتكاملها بصورة يستحيل بمقتضاها تفهم أي عنصر على نحو مستقل عن بقية العناصر. وإذا كان فكر الفيلسوف لا يدعى منذ البداية اكتماله فى منظومة فلسفية واضحة المعالم، فإن نقطة انطلاقة الفلسفية كفيلة بتحديد موقفه من الثورة، وعلى سبيل المثال لم يكن بيرديائف من أصحاب الأنساق أو المذاهب الفلسفية الجامدة، لكن نقطة انطلاقة ارتبطت بتأكيده قيمة الشخصية الإنسانية إلى أبعد مدى.

ومتى انتقلنا إلى جورج سوريل وكتابه الهام "تأملات عن العنف" الذى أكد بمقتضاه دور العنف في حركة التاريخ، وأن التاريخ لا يخضع للعقل والمنطق بقدر ما يخضع لأهواء البشر وصراعاتهم ورغباتهم، لو أدركنا دلالة العنف عند سوريل استطعنا بالتالي تفهم نظرته للثورة الفرنسية التي اعتبرها من أروع النماذج الأسطورية التي تركت تأثيرها العظيم على التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، فقد تجلت في سلسلة من الحروب المجيدة لا تقبل التفسير عن طريق

العقل أو أي قانون للتقدم التاريخي، ومن ثم بدت أشبه بملحمة عظيمة ألهبت الروح الفرنسية بحماسة بالغة تكاد لا تفترق عن حماسة الشعور الديني ، ولا شك أن نظرته هذه تلاقت مع تمجيده للعنف، ففي مقدمة كتابه "تأملات عن العنف" اعترف سوريل بأنه ظل متيماً ومسحوراً بتطور الإضرابات المصحوبة بسلسلة من مظاهر العنف، ولا عجب في ذلك، فقد بدت لديه الإشتراكية كنظرية في الحركة النقابية أو الثورية، أو بالأحرى فلسفة للتاريخ الحديث، ومن ثم لم يحاول أن يقدم نظرية عن العدالة أو تصوراً جاهزاً بشأنها، كما إنه ابتعد عن الفكر اليوتوبي، بل وأدان كل فكر بعيد عن حركة الواقع، مكتفياً بتقديم خواطره عن قوة الدفع وراء العدالة وقوة الدفع هي الحركة العمالية النقابية وحدها، وهي تتجنب منذ البداية صيغ وأكليشيهات المنظرين، فالحركة هي كل شئ وموت الحركة معناه موت العدالة والحياة، وبقاء الحركة يعنى استمرارية المواجهة والصمود والتحدي. لكن الحركة دائماً مهددة، يهددها محاولات الساسة والفلاسفة تجميدها في أطر وقوالب ونظريات، ويهددها أيضاً أصحاب الحركة ودعائمها عندما تمتصهم وتستقطبهم أحلام التسلط والوظيفة والقيادة.

وبالتعارض مع سوريل نجد "ريمون آرون" يرفض الثورة كعمل من أعمال العنف يتخذ صورة نضال مسلح يقوم به الشعب في وجه حكومته خروجاً على قوانينها مما يعرقل ممارستها لسيادتها، وإذا كان القرن العشرين قد شهد العديد من الثورات، فإن الثورة لا تعد اصلاحاً ، بل هي صورة من صور العنف وهي في مجملها تقوم على عدة مبادئ سلبية.

- طغيان الحزب الشمولي الديكتاتورى كما حدث في روسيا وإيطاليا.
- تحطيم الديمقراطية الليبرالية كما حدث في ألمانيا ١٩٣٠.
- الاستبداد الاقتصادي.
- الدعاية.
- التسلط على عقول البشر.

فالثورة بمعنى التغيير الجذرى للنظام القائم بالفعل لا تختلف عن الحروب، فهي تحطم وحدة المجتمع وتسوغ السلطة المطلقة لقادتها، وفي نهاية المطاف لا تحقق شيئا. ومن هنا كان رفض ريمون آرون لحركة التمرد الطلابي في فرنسا ١٩٦٨ التي اندفعت تؤكد أن العنف هو الوسيلة الوحيدة لإصلاح المجتمع

وإصلاح الجامعة، وهو ما أدي إلى انقسام المجتمع الفرنسى وتمزقه، وبالتالي انقسمت الحكومة الفرنسية على نفسها بين اتجاهين، اتجاه جورج بومبيدو الذى قرر إعادة فتح جامعة السوربون والإفراج عن الطلاب والعفو عن الأساتذة، واتجاه ديجول الذى رفض تقديم هذه التنازلات. ومن ثم أصبح الطريق ممهداً أمام أصحاب الفكر اليساري للقفز على السلطة وإبعاد الحكومة الشرعية.

وربما تساءل البعض، ما هو موقف الفكر العربي المعاصر من ظاهرة الثورة، خصوصاً وأن عالمنا العربي قد شهد العديد من الثورات، وبداية يمكن القول بأنه إذا جاز لنا أن نتحدث عن الفلسفة والثورة في العالم الغربي، فإنه ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن عالمنا العربي لم يشهد فيلسوفاً منذ ابن رشد، وإنما شهد رجال فكر، لديهم لمحات فلسفية واجتهادات فكرية، لكنها لا ترقى إلى المستوى الذى يجيز لنا أن نتحدث عن فلسفتهم، وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى بعض النماذج الفكرية في عالمنا العربي المعاصر في ضوء موقفها من الثورة من ناحية وفي ضوء نزعتها الثورية أو المحافظة من ناحية أخرى. وبصفة عامة يمكن القول بأن موقف الفكر العربي المعاصر من ثورة يوليو جاء لاحقا للثورة وليس صانعاً لها، متحفظاً أحياناً، مرواغاً أحياناً أخرى، يحاول إن يتكيف معها بصورة ما، وأن تطلب ذلك أن يطوع مقولاته ومنطلقاته الفلسفية لفكر الثورة، ومن ثم فقد ينزع ناحية تبرير الثورة وتسويغ مشروعيتها والدفاع عنها، لكنه قد يصطدم بها، ولا يملك الشجاعة الكافية لمواجهتها في العلن، مكتفيا بنقده لها والهجوم عليها في جلساته الخاصة. وربما احتمى وراء مقولاته الفلسفية التي يصعب فك شفراتها ورموزها المغرقة في التجريد من قبل العامة.

كتب فؤاد زكريا في العدد الخاص الذى صدر من مجلة الفكر المعاصر في نوفمبر ١٩٧٠ في أعقاب رحيل الزعيم جمال عبد الناصر يقول "أن الفكر – في عهد التغير الاجتماعي السريع ما بين ١٩٥٢ حتى وقتنا الحاضر – لم يكن هو الذى يصنع الحوادث، بل كانت الحوادث هي التي تصنعه. وكثيرا ما كان المفكرون، وهم يلهثون وراء الأحداث السريعة، يكتفون بتقديم عرض أو تبرير نظرى لها بعد أن تكون قد حدثت. ولما كان الواقع لا يعبأ كثيراً بالتنظير الذى يحدث لاحقاً ومبرراً له فحسب، فإن مجرى الواقع كثيرا ما كان يفاجئ هذا النوع من التنظير بتطورات غير متوقعه تدفعه إلى مراجعة مواقفه السابقة بصورة قد تصل إلى حد التناقض الصريح معها))

ولا شك أن التناقض الواضح والصريح بين بعض رموز الفكر العربي

المعاصر وثورة يوليو قد تجسد بصورة واضحة في تباين المنطلقـات الفلسـفية التي انطلقوا منها في تعاملهم معها، خصوصاً متى وضعنا في اعتبارنـا مـدى توفيق ثورة يوليو أو اخفاقها في تحقيق مبدأ الديمقراطية، بما يؤدي إليه من تقبل كل فكر حتى لو جاء مغايرا لفكر الثورة. وتصديقا لـذلك نجـد أن الوضـعية المنطقية التي انطلق منها فكر زكى نجيب محمود في تجاهلها البعد الاجتمـاعي والتاريخى ونزعتها العلمية المحافظة بدت إلى حد كبير بعيدة عن الفكر الثورى الاشتراكي الذى تبنته ثورة يوليو. وبالتالي فإن موقفه منها، حتى لو أيـدها فـي العلن، وحاول تطويع نزعته الفلسفية لمتطلباتها، يشكل معضلة في تفهـم حقيقـة موقفه، وإن افصح عنه بصورة غير مباشرة في بعض كتاباته بإدانته الواضـحة للحكم الفردي المطلق متى أصبح صاحب السلطان السياسى هو في الوقت نفسه، وبسبب سلطانه السياسي، صاحب الـرأي لا أن يكـون صـاحب رأي. وعبـد الرحمن بدوى بنزعته الوجودية وإيمانه المطلق بالحرية الإنسانية ورفضه للفكر اليسارى لم يكن بمقدوره أن يتعاطف مع ثورة يوليو التي اصطدمت به فكان من ضحاياها عندما طبقت عليه قانون الإصلاح الزراعي. وعثمان أمـين صـاحب النظرة الجوانية المثالية لم يستطع أن يتعامل معها في ضوء دلالتها الثوريـة إلا من خلال نزعته الإصلاحية، ومن ثم بدت لديه مجرد امتداد للمفاهيم الأساسـية لدى رواد الإصلاح الدينى والاجتماعي والسياسي في الشرق العربـي ومـنهم محمد عبده ولطفي السيد وقاسم أمين، ومن ناحيـة أخـرى إذا كانـت النظـرة الجوانية لا تقتصر على رصد الوقائع والمنجزات وما تحقق بالفعل، بـل تتجـه إلى البعد الجواني بما يتضمنه من مطامع ومثل عليا فإن الفلسـفة الناصـرية أو فلسفة ثورة يوليو بدت عند عثمان أمـين مجموعـة مـن المعـاني الأخلاقيـة والاجتماعية والسياسية، يمكن استكشافها في أقوال وبيانات عبد الناصر بالدرجة الأولي (صوت مصر في الفلسفة الثورية لعثمان أمين. الفكر المعاصر العدد ٦٩ نوفمبر ١٩٧٠).

وفؤاد زكريا بنزعته العقلية النقدية الواضحة أكد إيمانه العميق بالاشـتراكية والعدالة الاجتماعية كسياسة رسمية لثورة يوليو، ومع إيمانه بالتعـدد والتنـوع الفكرى، لكنه رأي أن هذا الإيمان لا ينبغى أن يمتد إلى الأسس والمبادئ الأولي للطريق الاشتراكي (كلمة عن المستقبل لفؤاد زكريا. الفكر المعاصر العـدد ٦٩ نوفمبر ١٩٧٠) ومن ناحية أخرى آمن بضرورة مراجعة الفكر الاشتراكي الذى اعتمدته ثورة يوليو بل وتعديله وإعادة النظر فيه إذا لزم الأمر مـن منطلـق أن

الواقع لا يمكن أن يتجمد ويتحجر عند وضع معين (الفكر الاشتراكي والتحدى المعاصر لفؤاد زكريا مقال بالفكر المعاصر العدد ٤٤ نوفمبر ١٩٦٨).

أما يحي هويدى فقد تعاطف مع ثورة يوليو من خلال نزعته الواقعية التي تنصت إلى الواقع وتلتحم به، وترى أنه مهما كانت دقة الصورة الذهنية التي يعدها الفيلسوف المثالي في عقله، فإن الصورة التي تخرج من هذا الواقع لابد أن تكون أكثر كمالا وتنوعا من الصورة الذهنية. ومن منطلق هذه النظر كتب يحي هويدى العديد من الدراسات عن ثورة يوليو لعل أهمها: حياد فلسفى، الفلسفة في الميثاق، فلسفتنا فلسفة واقعية، فلسفة الدولة العصرية، فلسفة المقاومة مؤكداً تطابق الفلسفة الواقعية بالفلسفة الاشتراكية الثورية. وإذا كانت مواقف الفكر العربى المعاصر من ثورة يوليو قد تباينت منطلقاتها على النحو الذى تناولناه، فإن بمقدورنا أن نتعرف على حقيقة بعض الإدعاءات الثورية التي قد يتبناها المفكر في كتاباته من منطلق محاولته مواجهة التحديات التي تواجه عالمنا العربي المعاصر، وبالتالي إمكانية اكتشاف الحلول الثورية لها وهنا نأتي إلى نموذجين من فكرنا العربي المعاصر، الأول التزم بنزعة عقلية تنويرية رشديه على درجة كبيرة من التماسك والوضوح والاتساق، والثاني يعد كتاباته تحمل لواء ثورة فكرية وفلسفية كفيلة بيقظة الأمة واستنهاض الهمة رغم تناقضاتها الفادحة وتذبذب مواقفها وغموض اتجاهاتها. وتوضيحاً لهذا نجد أن المتتبع للدراسات المتنوعة التي قدمها عاطف العراقي بدءاً من دراسته الرائدة "النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد" يمكنه أن يدرك بكل بوضوح المسار العقلي الذى ارتبطت به، فالنزعة العقلية النقدية وحدها دون غيرها هي التي انطلقت منها كتاباته، ومن هنا يقدم لنا عاطف العراقي نموذجا أصيلا للمثقف العربي الثورى بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة، فكتاباته واضحة لا تقبل المزايدة، اختلفت معها أو اتفقت. فهو مؤمن بالعقل، مدرك تمام الإدراك أنه لا تنوير بدون العقل، فالعقل يمثل التقدم، يمثل القوة الخلاقة المبدعة، ومن ثم فلا يمكن الحديث عن التنوير سواء في أوروبا أو في العالم العربي المعاصر دون القول بالركيزة الكبرى والأساس القوى البنيان لهذا التنوير، وهو العقل والعقل وحده.

ولا شك أن النزعة العقلية التي التزم بها عاطف العراقي قد جعلت كتاباته بمنأى عن التناقض، وبمنأى عن التلون الايديولوجي، لديه القدرة على مواجهة الحاضر واستشراف المستقبل. وبالتالي فإن فكر عاطف العراقي يتسم بنزعة ثورية تستهدف البحث عن الجذور العقلية في التراث الفلسفي كما تمثلت في

فلسفة ابن رشد بصفة خاصة، مع إمكانية تطوير هذه الجذور في تعاملنـا مـع مشكلات وقضايا عالمنا العربي المعاصر بغية التجديد والتحديث. ولأنـه مفكـر ثائر فقد اصطدم بالواقع إلى المدى الذي أدى به إلى الوقوف في ساحات المحاكم الجنائية متهما أو شاهدا.

فإذا انتقلنا إلى حسن حنفي لوجدنا كتاباته تؤكد الثورة والتغييـر (التـراث والتجديد – من العقيدة إلى الثورة) ومع ذلك فإنك سرعان ما تعجز عن التعرف على ملامح الثورة الفكرية التي ارتبط بها. فلا مجال للتـرابط والاتسـاق فـي كتاباته، والطابع التوفيقى والتلفيقي هو أهم ما يميزها. وعلـى حـد رأي فـؤاد زكريا فإن القارئ لحسن حنفي يصعب عليه أن يظل محتفظا بقواه العقلية بعـد أن يتراقص مع كاتبها في حلقة المتناقضات الجنونية التي تدور فيهـا معالجتـه للموضوع، وهي الملاحظة نفسها التي أوردها جورج طرابيشي، ولـم يكتـف بصورتها العامة بل تناول تفصيلاتها، فهناك تنـاقض فـي الموقـف المنهجـي وتناقض في الموقف من القضايا وتناقض في الموقف من الوقائع وتناقض فـي الموقف من الأشخاص. ومتى اتسمت كتابات حسن حنفي بكل هذه التناقضـات أمكن لنا التساؤل إلى أي حد تتسم كتابات حسن حنفي بالثورية بعد كل هذا؟

والحق أن كتابات حسن حنفي رغم غزارتها وتنوعها وارتباطها بمشـروعه الحضاري تبدو وكأنها مجرد تكريس مباشر لكل ما يصدم وعينا ويزيد حيرتنـا ويبعدنا عن تلمس الطريق الصحيح لأزمتنا. ولعل هذا ما يفسر لنا مـا تنطـوى عليه من تناقضات حادة في نظر أصحاب الفكر الدينى مـن ناحيـة وأصـحاب الفكر العلماني من ناحية. فالرجل يقدم نفسه كمفكر إسلامي ورجل فقـه وتـابع مخلص وتلميذ جاد في مدرسة المجددين العمالقة أمثال ابن حنبل وابـن تيميـه والأفغانى ورشيد رضا وحسن البنا، وهو يهدى مؤلفه الضخم "من العقيدة إلـى الثورة" إلى علماء أصول الدين، ويعلـن تأييـده للثـورة الإسـلامية الإيرانيـة ويتعاطف مع جماعات الإسلام السياسي المتطرفة بتنظيماتها المسلحة، لكنه فـي نفس الوقت يقدم قراءة استشراقية غربية للتراث الإسلامى، بل تراه يسخر ممـا تحويه كتب التراث من روايات أسطورية حتى لو تعلق الأمر بالعقيدة الإسلامية. في كتاباته هناك رغبة واضحة في إرضاء كل الأطراف، فهو يرضـى التيـار السلفي ويرضى التيار الماركسى ويرضى التيار الليبرالي، وبالتالي يصـعب أن نتبين دلالة ثورية لكتابات تنزع ناحية التوفيق والتلفيق. وعلى نحو مـا لاحـظ محمود إسماعيل فإن حسن حنفي يعتقد في تفرده بحس ذاتي – لا مصدر معلوم

له – يتجاوز كل النظريات والرؤى والمناهج التي اصطنعها العقل البشرى في رحلته الطويلة من أجل المعرفة. وبوسعنا القول بأن كتابات حسن حنفي من هذا المنطلق يغلب عليها الطابع المحافظ، فهي تكرس لما هو قائم، لا تقدم طريقا واضحاً للثورة الفكرية والعقائدية بقدر ما تقدم خليطا مشوها من الأفكار، يصعب توحيدها وتنظيمها، وإذا كان هيجل قد وحد كل التناقضات في الروح المطلق، وأكد أن عصره يمثل قمة الأحداث التاريخية التي سبقته، ومن ثم أكد أن الفكرة المطلقة تحققت وتجسدت في دولته، دولة بروسيا. فإن كتابات حسن حنفي تبدو وكأنها تحاول أن تحتوى كل تناقض لتجعلنا نتساءل بعد كل هذا، أين موضع الثورية في كتابات تدور في نطاق الذات ولا تتفاعل مع حركة التاريخ، أين موضع الثورية في كتابات يرى السلفي فيها ما يرضيه ويرى التقدمي فيها ما يدعم فكره؟ أين موضع الثورية في القول بالشئ ونقيضه؟ هل يمكن أن تحل الذات الفردية محل الروح المطلق في احتواء كل التناقضات؟

وبعد. رأينا نماذج مختلفة من الفكر الفلسفى في موقفها من الثورة، ربما تكمن قيمتها في التعرف على بعض المؤشرات التي تمكننا من التعامل مع الثورة، لكن لابد من توخى الحذر في الاعتماد عليها كلية، فهي في نهاية المطاف تكاد تدور في نطاق فكر الفيلسوف ومحاولته بصورة أو بأخرى أن يجعل من الثورة بعداً من أبعاد نظرته الفلسفية سواء كان موقفه منها بالرفض أو التأييد. لكن الثورة كثورة كثيراً ما تتجاوز ذلك الإطار أو القالب المحدود الذى يوهمنا المفكر أو الفيلسوف بقدرته على إحكام قبضته عليه. ولعل مثل هذه الحقيقة تؤكد لنا أن المؤرخ العظيم هو الذى بمقدوره أن يتعامل مع الثورة شريطة أن يكون تعامله معها موضوعيا ومحايداً وعلى درجة كبيرة من العقلانية.

بعض مراجع البحث

مراجع عن هيجل

- إمام عبد الفتاح إمام. المنهج الجدلي عند هيجل ، دار المعارف، ١٩٦٨.
- روجية جارودى: فكر هيجل ترجمة إلياس مرقص، بيروت ١٩٧٣.
- زكريا إبراهيم: هيجل أو المثالية المطلقة. مكتبة مصر ١٩٧٠.
- فؤاد زكريا: هيجل في ميزان النقد مجلة الفكر المعاصر سبتمبر ١٩٧٠.
- وليد عطاري: الوعى في فلسفة هيجل، رسالة ماجستير إشراف يحي هويدى ١٩٧٥.
- ولترسيتس: فلسفة هيجل ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. دار الثقافة للطبع والنشر ١٩٨٠.

– يحي هويدى: الثورة الهيجلية. مجلة الفكر المعاصر ١٩٧٠.
- Hegel. Lectures on the philosopy of History.

مراجع عن بيرديائف

– بيرديائف: العزلة والمجتمع. ترجمة فؤاد كامل. مكتبة النهضة العربية ١٩٦٠.
– بيرديائف: الحلم والواقع. ترجمة فؤاد كامل. الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠.
– بيرديائف: أصل الشيوعية الروسية. راشد البراوى. الدار المصـــرية للتـــأليف والترجمـــة القاهرة ١٩٦٦.
– محمد مجدى الجزيرى. شهادة على عصر من بيرديائف إلى جوربا تشـــوف. دار الوفـــاء لدنيا الطباعة والنشر ٢٠٠١.
- Berdyaev: The Russian Revlution.
- Berdyaev: The End of our time.
-Berdyaev: The meaning of history.
- Berdyaev: Slavery and freedom.

مراجع عن جورج سوريل

– محمد مجدى الجزيرى. العنف والتاريخ عند سوريل. دار الوفاء لدنيا الطباعـــة والنشـــر الإسكندرية ٢٠٠١.
- Sorel, G. Reflections of violence.
- Sorel, G. The illusions of progress.

مراجع عن ريمون آرون

– ارنوسبير: ريمون آرون الكاتب الأخلاقي. نماذج من الفكر الفرنسى المعاصـــر. ترجمـــة كاميليا صبحى. دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٩٨.
– شعبان عبد الله محمد. فلسفة ريمون آرون السياسية. رسالة دكتوراه إشراف نصار عبـــد الله، مصطفي كامل السيد.
- Aron, R. the industrial society.
- Aron, R The Elusive Revolution.
- Aron, R. An Essay on Freedom.

مراجع عامة

– مقالات بمجلة الفكر المعاصر سبتمبر ١٩٧٠ لكل من:

فؤاد زكريا. كلمة عن المستقبل.
زكريا إبراهيم. مفهوم الثورة في فكر عبد الناصر.
يحي هويدى. شخصية القائد ووحدته الفكرية.
عثمان أمين. صوت مصر في الفلسفة الثورية.
عبادة كحيلة. ماذا تعنى ظاهرة عبد الناصر.
حسن حنفي. من العقيدة إلى الثورة.
حسن حنفي. التراث والتجديد.
محمد عاطف العراقي: النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد.
محمد عاطف العراقي: الفيلسوف ابن رشد ومستقبل الثقافة العربية.
محمد عاطف العراقي: ثورة العقل في الفلسفة العربية.
محمد عاطف العراقي: العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر.
محمد عاطف العراقي: ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة.
محمد مجدى الجزيرى: أقنعة حسن حنفي، مقال بمجلة إبداع، نوفمبر وديسمبر، ٢٠٠١.
محمد مجدى الجزيرى: عاطف العراقي. كلمة وموقف. دراسة بالكتاب التذكاري عن عاطف العراقي، تصدير فؤاد زكريا، دار الوفاء بالإسكندرية، ٢٠٠٣.
محمد مجدى الجزيرى: مقالات فلسفية في فكرنا العربي المعاصر، ١٩٩٤.
محمد مجدي الجزيري: الأسطورة عند زكي نجيب محمود، دراسة بالكتاب التذكاري عند زكي نجيب محمود، دار الوفاء، ٢٠٠١.

الفصل الثالث

دور الثورات
فى صناعة القانون الدولى

السفير عبد الله الأشعل(*)

يعرف تاريخ الأمم أنماطاً من الأحداث بعضها رتيب و بعضها الآخر يتسم بالقوة والعنف . ويكون له بالغ الأثر في حياة المجتمعات . وقد عرفت الإنسانية سلسلةً طويلةً من الثورات. وهى قفزات صنعت حضارة الإنسان في المجـالات العلمية والتكنولوجية والصناعية والثقافية والسياسية كافة . ولذلك يجب أن نفرق في مجال الثورات السياسية بين الثورة والانقلاب من حيث أن كـلاً منهمـا أداة استثنائية لتغيير الحكم بغير الطريق المعتاد . والفارق عنـدنا يتحصـل فـي أن الانقلاب أداة عسكرية لقلب النظام واستبداله بنظام جديد . وقد يقف الأمر عنـد هذا الحد . ولكن الثورة قد ترتبط بانقلاب . وكما حدث في مصر عام ١٩٥٢ . وقد تكون هبة شعبية عامة تستعلي على الواقع . وتشد المجتمع بعنف إلى الأمام ومثال ذلك في العصر الحديث الثورة الإيرانية الشعبية التـي أطاحـت بنظـام الشاه. و أحلت محله حكومة الجمهورية الإسلامية عـام ١٩٧٩ . ومثـل هـذه الثورات تؤدى إلي تغيير المجتمع تغييراً كاملاً . غير أن بعض الثورات الشعبية تنتهى عند حدود تغيير النظام ، فتحل ملكا محل ملك آخر ، ومثال ذلك الثورات الشعبية في يوغسلافيا ورومانيا والفلبين وجورجيا وفنزويلا والبيرو وغيرهـا ، حيث أصرت الجماهير على استقالة رئيس الجمهورية وإجراء الإنتخابات لتغيير النظام ، ولكن أثر هذه الأحداث محدود ولا يتعدى تغيير نظام ، كما لا يمتد إلى تغيير نمط الحياة وأسلوب الحكم .

وقد لعبت الثورات جميعا في كل المجالات أدواراً متفاوتة فـي العلاقـات الدولية والقانون الدولي. فلا شك أن الثورة الصناعية قد غيرت نمط المجتمـع الأوروبي ، مما سمح له بانتهاج سياسات استعمارية خـارج أوربـا ، كمـا أن

(*) مساعد وزير الخارجية سابقا.

الثورات التكنولوجية وثورة وسائل الاتصال ونقل المعلومات ، قد أنتجــت لنـــا ظاهرة العولمة التي أثرت على العالم كله فى كل المجالات الإعلامية والثقافية والاقتصادية وغيرها .

أما الثورات السياسية ، فكان لها دور لا ينكر في صناعة القانون الــدولي ، لا يقل عن دور الثورات التكنولوجية التي تركت بصمات واضحة على صـــفحة العلاقات الدولية . والحق أن عدد الثورات السياسية الكبرى فـــي العـــالم كلـــه محدود وآثارها متفاوتة ، و نكتفي في هذه العجالة بان نحلل آثار بعضـــها فـــي بنية القانون الدولي المعاصر ، هادفين إلى تقديم نظرة عامة تغنى عن تفصـــيل هذه الآثار ، والتي لا يتسع هذا المقام لإيرادها .

فإذا قصرنا تحليلنا على الثورات السياسية الكبرى في التـــاريخ المعاصـــر لتقافزت إلى أذهاننا أسماء ثورات عظيمة تبـــدأ بـــالثورة الأمريكيـــة والثـــورة الفرنسية وكلاهما وقع في الغرب خلال حقبة لا تزيد على بضع سنوات . فضلا عن ثورات التحرر الوطني في أمريكا اللاتينية في أوائل القرن التاسع عشـــر . فإذا بدأ القرن العشرون . صادفنا الثورة البلشفية في الإمبراطورية الروسية ، ثم الثورة الصينية التي قادها ماوتسى تونج ، ثم مجموعة ثورات التحرر الـــوطني في إفريقيا من الاستعمار والعنصرية التي بدأت في مصر وامتدت إلى إفريقيـــا والعالم الثالث . وسوف نلقى نظرة عاجلة على دور كـــل مـــن هـــذه الثـــورات وآثارها على القانون الدولي .

أولاً: الثورة الأمريكية وإسهامها فى القانون الدولى

تتحصل هذه الثورة في رفض المستعمرات البريطانية في العـــالم الجديـــد لسياسة الاستعمار البريطاني . وتصاعدت هذه الثورة حتى انتهت بتحرير هـــذه المستعمرات وإنشاء الولايات المتحدة الأمريكية . ويلاحظ أن الثوار هم أصـــلا مهاجرون شكلوا إحدى طبقات المجتمع الأمريكي المبكرة . وهـــم مهـــاجرون أصلاً من أوربا ومعظمهم من بريطانيا وأيرلندا . فكانت الثورة الأمريكية بمعنى ما ثورة داخلية لولا اختلاف الأقاليم بين الثائر والدولة الاستعمارية . وقد أرست الثورة الأمريكية عدداً من القواعد التي تتصل بحق المستعمرات في الاستقلال ، وتكوين الدولة وهو أحد تجليات التمتع بحق تقرير المصير . كما أكـــدت هـــذه الثورة مبادئ تضمنها الدستور الأمريكي تعلى قضية الحرية والحكم الصـــالح ، وكلها أصبحت روافد هامة لصناعة مبادئ القانون الدولي في هذا الباب .

ويذكر في هذا الوقت المبكر . انه رغم اجتهاد الفقهاء في تكييف العلاقة بين الدولة المستعمرة ومستعمراتها . إلا أن فرنسا التي كانت تساند الثوار . قد أرست مبدأ هاماً وهو أن مساندة الثوار ضد مستعمر أجنبي لا يعد انتهاكا لمبادئ العلاقات الدولية بين الأمم ، وأن حق المقاومة يمتد إلى حق الدولة الأخرى في مساندة هذه المقاومة . وعندنا أن أثر الثورة الأمريكية لا يقتصر على دراسة الحالة أو المبادئ التي أعلنتها ، ولكن أثرها امتد إلى ما تضمنه السلوك الأمريكي في الخارج من إصرار على استصحاب مبادئ الدستور الأمريكى لنصرة الحرية ، على الأقل من الناحية النظرية .

ثانياً: الثورة الفرنسية وإسهامها فى القانون الدولى

تختلف الثورة الفرنسية عن الثورة الأمريكية في عدد من الملامح، منها أن الثورة الفرنسية كانت موجهة ضد الطبقة الحاكمة الأرستقراطية، فهي ثورة اجتماعية سياسية، وكانت أكثر جسارة ودموية في إعلان مبادئها وتتحصل هي الأخرى في قضية الحرية، حيث أصدرت إعلان حقوق الإنسان والمواطن، الذي يتسم بصبغة عالمية، كما رفعت شعار الحرية والإخاء والمساواة، نبراسا للعلاقات الدولية. ويكفى أن الثورة الفرنسية هي التي ابتدعت حق اللجوء السياسي، وأن اللاجئ لا يسلم، كما أن الجريمة السياسية لا يجوز المحاكمة عليها، بعد أن ظلت الجريمة السياسية منذ اتفاقية قادش ١٢٨١ ق.م بين رمسيس الثالث والملك حاتوسيل ملك الحيثيين تركز على أن الاعتداء على الملوك والوزراء هي الجريمة التي يجب تسليم مرتكبيها والتعاون بشأنها بين الدول.

وهكذا يؤرخ بمساهمات الثورة الفرنسية في تطوير القانون الدولي لحقوق الإنسان ، حيث تعد الثورة إحدى المحطات الهامة في إنشاء هذا القانون ، ولا تزال مبادئ الثورة الفرنسية إضاءة مهمة لقضية الحرية . ولذلك عندما جاء نابليون إلى مصر ، ظن المصريون أنه قدم إليهم بأنوار الثورة لتوقظهم من ظلمات العصور الوسطى ، ولكنهم ذهلوا عندما فاجأهم باحتقار دينهم ، وامتهان الأزهر الشريف وتحطيم أنف أبو الهول ، رمز الحضارة الإنسانية . ثم زال عنهم العجب والغضب والذهول ، بعد أن قدم نابليون لمصر واحداً من أعظم التجليات الثقافية في تاريخها ، وهى كتاب ((وصف مصر)) ، بقلم علماء الحملة وكذلك فك طلاسم اللغة الهيروغليفية التي كانت فتحا عظيما في مجال

الاكتشافات الأثرية الهامة . لهذا السبب التبس على المصريين الوجه الاستعماري والوجه الحضاري للحملة الفرنسية . فإحتفلوا بمرور مائتي عام على الحملة بشقها الحضاري دون الاستعماري ، حيث ذكرنا جهاد المصريين في صد الحملة و أبطال ثورتي القاهرة الأولى والثانية . أما الوجه الحضاري وما جاءت به الحملة من أدوات الحضارة الحديثة ، فكان ذلك بداية العقد الثقافي بين مصر وفرنسا.

ثالثاً: الثورة السوفييتية وإسهامها فى القانون الدولى

قامت الثورة السوفييتية على أساس أيدلوجي مختلف ، هو تطبيق المثاليات الماركسية ، واختارت الإمبراطورية الروسية التي كانت حتى قيام الثورة تتسم بطابع العصور الوسطى في أمرين : أولهما ، سيطرة الوازع الديني بسبب سطوة الديانة الأرثوذكسية . والأمر الثاني ، سيطرة العلاقات الإقطاعية على الإمبراطورية الزراعية . وكان واضحا أن روسيا القيصرية قد أصبحت متخلفة بعدة قرون . عندما قامت المواجهة العسكرية بينها وبين اليابان ١٩٠٥ وهى المواجهة الوحيد خارج إطار المواجهات التقليدية مع الدولة العثمانية ، حيث كانت روسيا في كل هذه المواجهات جزءاً من التحالفات الغربية . وقد قامت الثورة البلشفية والحرب العالمية الأولى تقترب من نهايتها . ورغم أن روسيا كانت طرفاً رئيساً في الحرب إلى جانب بريطانيا وفرنسا . ألا أن إبرامها لصلح برست ليتوفسك مع ألمانيا لم يكن كافيا لكي ينقذ ألمانيا من هزيمة ساحقة في الحرب العالمية الأولى. وقد أنتجت الثورة السوفيتية فقهاً قانونياً متكاملاً في مواجهة الغرب الذي حشد قدراته العسكرية والسياسية والقانونية لهزيمة هذا الفيروس الجديد الذي ظهر في فترة بالغة الحرج ، فضاعف أزمة النظام الرأسمالي في المجالات الاقتصادية والسياسية، وبشكل خاص في المجال الاجتماعي ، حيث كانت شعارات الثورة السوفيتية تلتقي عندها أشواق الطبقة العاملة وفى لحظة كانت فيها أوربا تئن بسبب المظالم العمالية ، والاحتقان الاجتماعي وتوحش الحركة الرأسمالية الاستعمارية ، وتكاثر ضحايا الثورات الصناعية من العمال العاطلين . وارتفاع الفجوة بين العمال و أرباب الأعمال . ومما ساعد على قبول شعارات الثورة تلك الأرضية الصلبة من الفكر الاشتراكي الذي كانت تزخر به أوربا منذ بدايات القرن التاسع عشر .

ومعنى ذلك أن أثر الثورة الشيوعية السوفييتية في القانون الدولي ، كان

يؤسس لنسق جديد يقوم على الحرية للطبقات المستغلة وللشعوب المغلوبة على أمرها ضد الاستعمار . وعلى تأكيد حق الشعوب في تقرير مصيرها . ومن الواضح أن كل الثورات قد التقت على أرضية واحد، **وهى قضية حرية الإنسان من كل أصناف القهر** . ولكن الثورة الأمريكية انقلبت في جزء من شعاراتها على مبادئ الرئيس ولسن التي بشر بها . وقد ظل الاتحاد السوفييتي حتى نهايته، ورغم اتفاقه مع الثورة الأمريكية في المبادئ نفسها . هو العدو والمنافس الأكبر والمناهض الأساسي لقضية الحرية من وجهه النظر الغربية . ولكن موسكو وواشنطن التقتا عند مسألة مشتركة ، وهى ضرورة تصفية الاستعمار الغربي ، والحلول محل الإمبراطوريات الغربية الآفلة ، وقد اتضح ذلك بشكل جلي بعد الحرب العالمية الثانية .

ومن البديهي أنه يصعب في هذا السياق أن نستعرض بالتفصيل مساهمة الفقه السوفييتي الذي أكد على عدد من المبادئ التي ساعدت دول العالم الثالث في قضاياها على المسرح الدولي . كما أن الاتحاد السوفييتي هو الذي ناصر هذه الدول وساعد بكل الطرق على تحريرها من الاستعمار الغربي ، كما أن تحرير هذه الدول وقع في إطار الحرب الباردة بين موسكو وواشنطن . ولسنا بحاجة إلى القول بأن الفقه السوفييتي كان يعمل على دعم السلوك السياسي السوفييتي ، وعلى سبيل المثال ، فإن الاتفاق السوفييتي الأمريكي على قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ قد وجد تفسيره في الفكر السوفييتي على أساس أن إسرائيل قد تحررت من الاستعمار البريطاني ، وأن يوم قيامها هو ذكرى استقلالها ، وأنه من المأمول أن تصبح إسرائيل سنداً للسياسة السوفييتية في الشرق الأوسط، هذا التفسير هو نفسه القصة الإسرائيلية ، ولا يزال موقف الاتحاد السوفييتي ولقاؤه مع واشنطن عند مساندة إسرائيل لغزاً في الدراسات العربية .كما أفسح هذا الموقف لتفسير آخر هو أن الاتحاد السوفييتي يحاول أن يضلل الرأي العام العربي ، وأن يبرر موقفه بعد أن اتضح له أن إسرائيل هي قلعة الغرب ضد النفوذ السوفييتي في المنطقة العربية . ولكي يزيل التناقض بين ولاء اليسار العربي لموسكو .ومناهضة هذا اليسار للحركة الصهيونية ، إدعى الاتحاد السوفييتي أنه أساء التقدير عندما اكتشف العلاقة العضوية بين إسرائيل والولايات المتحدة .

والراجح لدينا أن مجرد وجود حزب ركح الشيوعي في إسرائيل لم يكن كافياً لإغراء موسكو أو إقناعها بأن إسرائيل قد أصبحت دولة شيوعية ، لأنه

حزب صغير من ناحية ، ولأن كل أوربا الغربية الرأسمالية كان لديها أحـزاب شيوعية وحركة يسارية متطورة ، دون أن يؤثر ذلك على التركيب الرأسـمالي لهذه الدول . وفى إطار الاستراتيجية السوفييتية ، دعم الاتحاد السوفيتي حركات التحرر الوطني وثورات العالم الثالث جميعاً من منطلـق واحـد ، وهـو إنهـا تناهض الاستعمار الغربي ، وخاصة الولايات المتحدة أحياناً ، وأن اتساع رقعة هذه الثورات يعزز المكانة الدولية للاتحاد السوفيتي ولكننا لا نريد أن نخلط بين إسهام الثورة السوفييتية ، وبين إسهام الاتحاد السوفييتي نفسه في صناعة القانون الدولي ، غير إننا في هذه الحالة وجدنا من الصعوبة الفصل بين الأمرين ، لان مبادئ الثورة السوفييتية تجسدت في سلوك الاتحاد السوفييتي بصرف النظر عن دوافعه السياسية والأيدلوجية ، وعن خططه في إطار المواجهـة العالميـة مـع الغرب ، والتي شملت جميع الساحات واستخدمت فيها جميع الوسـائل ، لأنهـا كانت صراعاً على البقاء ، وليست صراعاً على سيادة نمط من أنماط السياسـة والمجتمع . وعلى سبيل المثال لا يمكن الفصل بين مواقف الاتحاد السوفييتي في الأمم المتحدة في مواجهة الغرب في كل القضايا التي تتصل بالعـالم الثالـث ، وبين اتجاهات الفقه السوفييتي الذي كان يقف لمساندة هذه السياسات السوفييتية، رغم أن هذا الفقه قد وجد الحرج في التوفيق بين بعض المبـادئ وتطبيقاتهـا ، وخصوصاً فيما يتعلق بعلاقة الاتحاد السوفييتي بالدول الاشتراكية فـي أوربـا الشرقية . فقد أعلن برجينيف مبدأ السيادة المحدودة لهذه الـدول فـي مواجهـة السيادة المطلقة التي تمارسها موسكو على هذه الدول ، حتـى يبـرر التـدخل العسكري السوفييتي في المجر عام ١٩٥٦ للقضاء على ثورة إمري ناج وفـي تشكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ للقضاء على ربيع براج . وقد شايعه الفقه السوفييتي، واهم أعلامه الأستاذ تونكين الذي ترجم كتابه " القانون الـدولي العـام " إلـى عشرات اللغات .

كذلك لا يمكن التغاضي عن موقف الفقـه السـوفييتي المسـاند للسـلوك السوفييتي في الأمم المتحدة ، حيث جعل هذا الفقه قرارات مجلس الأمـن فـي مرتبة المعاهدات الدولية ، عندما كان الاتحاد السوفييتي لا يملك نفـوذاً داخـل الجمعية العامة في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين . ثم انقلـب تمامـاً ، فقلل من أهمية قرارات مجلس الأمن ، رغم أن موسكو تتمتع بالفيتو داخلـه ،و أعلى من شأن قرارات الجمعية العامة منذ بداية السبعينات وتوصياتها . عندما أصبحت دول العالم الثالث الموالية لموسكو تمثل الأغلبية الساحقة في الجمعيـة

العامة ، وهو ما أحدث أزمة طاحنة بين الأمم المتحدة وبين الولايات المتحدة ، خاصة في عامي ١٩٧٤- ١٩٧٥ وهما عامان مشهودان فـــي تـــاريخ الأمـــم المتحدة من زاوية علاقة الولايات المتحدة بالمنظمة الدولية .

رابعاً: مساهمة الثورة الصينية فىالقانون الدولى

قامت الثورة الصينية عام ١٩٤٩ بزعامة " ماوتسى تونج" فـــي المنـــاطق الريفية . وكانت لوناً جديداً من الثورات الاجتماعية ، وتطبيقاً خاصـــاً متطـــوراً وملائماً للظروف الريفية للنظرية الماركسية ، حيـــث كانـــت الثـــورة البلشـــفية محاولة للتطبيق الحرفي لهذه النظرية في أوساط العمال ، مع ملاحظة أن البيئة النموذجية هي المجتمع الصناعي. وليس المجتمع الإقطاعي . وربما كان الفارق هو المسئول عن إخفاق التجربة السوفييتية في زمن قياســـي ، بالإضـــافة إلـــى العوامل الأخرى الداخلية و الدولية .

وقد انضمت الثورة الشيوعية الصينية إلى الثورة السوفييتية في التأكيد على قواعد القانون الدولي الخاص بالتحرر من الاستعمار الغربي وتقرير المصـــير . كذلك التأكيد على السيادة الدائمة للدول على ثرواتها الطبيعة ، وعنـــدما حلـــت الصين الشعبية محل الصين الوطنية في الأمم المتحدة ، وأصبحت عضواً دائمـــاً في مجلس الأمن ، فإن تعزيزها لهذا الخط القانوني من الناحية السياســـية كـــان اكثر وضوحاً . ورغم أن الاطلاع العربي على الفقه الصيني محدود ، كمـــا أن فقهاء الصين لم ينشروا بشكل مكثف أبحاثهم بلغات دولية إلا أن ما توافر منها لا يشذ عن القاعدة ، إذا استثنينا ذلك الجدل القانوني الذي وقـــع بـــين الصـــين الشعبية والاتحاد السوفييتي في مرحلة ما سمى بالقطيعة بـــين عملاقـــي الكتلـــة الشيوعية في بداية الستينيات ، بل والتنافس بينهما على قيادة الحركة الشـــيوعية العالمية .

قد شددت الصين على حظر استخدام القوة في العلاقات الدولية ، وركـــزت على أولوية التسوية السياسية للمنازعات الدولية ومن المفهوم أنه عندما يركـــز الفقه الصيني على عدم التدخل في الشئون الداخلية ، فانه يعنى أمرين الأول: أن هذه قاعدة من قواعد القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة . والثاني أن التمسك بهذا القاعدة كان رداً دفاعياً على الهجمة الأمريكية من خلال دعـــاوى حقـــوق الإنسان على الصين . خاصة عقب أحداث الميدان السماوي **Tiananmen**.

ولابد من الإشارة إلى أن ضعف إسهام الفقه الصيني في حركـــة القـــانون

الدولي . يرجع بالإضافة إلى عامل اللغة ، وعدم الترجمة إلى اللغات الأجنبية . إلى أن الصين كانت في معظم الأحوال بعد اندماجها في المجتمع الدولي اعتباراً من ١٩٧١ تلتزم خطاً هادئاً في مواجهة الغرب . مما جعل الاتحاد السوفييتي هو المعرض للضغوط الغربية ، والحملة الضارية لاختراق الأسوار العقائدية والاجتماعية . ويفسر ذلك أن التركيز على الصين من جانب الغرب لم يكن بالحدة نفسها التي تعرض لها المجتمع السوفييتي . والدول الشيوعية في شرقي أوروا .

خامساً: الثورة المصرية والقانون الدولي

من الناحية العملية، تتفرد الثورة المصرية بخصيصة هامة ، رغم أنها تنضم إلى ثورات العالم الثالث أو العالم غير الأوربي ، وذلك في أن هذه الثورة بدأت انقلابا عسكريا ، هدفه تغيير نظام الحكم ، ولكنها اتخذت عددا من الإجراءات الاجتماعية والسياسية التي تجاوزت بها أن تكون مجرد أداة لاحلال نظام محل نظام آخر . وبصرف النظر عن مدى سلامة الإجراءات التي اتخذتها الثورة ، فقد أدارت المجتمع المصري بأسره ، كما أدارت علاقات الدولة الخارجية ، وهذا كله يتطلب مراجعة شاملة لجوانب الفشل والنجاح في هذه التجربة التي لا نعتقد أنها محاطة بالحساسيات نفسها التي كانت تعانيها في الماضي .

وقد أسهمت الثورة المصرية في تأكيد خط الحرية الذي بدأته الثورات الأخرى ، ولكنها ركزت على حرية الوطن من الضغوط الأجنبية والاستعمار البريطاني على حساب حرية المواطن ، فأقامت نظما أحلت السيطرة السياسية لهذه النظم محل السيطرة الأجنبية ، وتعاملت مع المجتمع المصري بشكل يحتاج إلى مراجعة جذرية ، وسبب ذلك أساسا هو سيطرة العسكريين الصغار ، وعدم إدراكهم لقدرات المجتمع المصري ، وتقديم القوة المسلحة والسلطات البوليسية على جوانب العلاقات الأخرى ، فاختلطت معاني الوطنية بالولاء للحاكم ، كما روج مفكرو السلطة لنظرية غريبة ، وهى أن الحكم العسكري لا يزال مهماً ، مادامت المواجهة مع إسرائيل قائمة علما بأن هذا الحكم العسكري هو الذي أسهم في تعميق الموقف في التعامل مع الصراع العربي الإسرائيلي .

ويتلخص إسهام الثورة المصرية في قواعد القانون الدولي في أن فكرة التأميم كانت تعد اعتداء على الملكية الخاصة الأجنبية في الفقه الغربي ، ولكنها

أصبحت حقا لشعوب العالم الثالث . كما ساهمت الثورة في التأكيد على بعـض حقوق الإنسان المتصلة بالعدالة الاجتماعية ، وتأكيد سيادة الشعوب على ثرواتها الطبيعية . كما أسهمت الثورة فكرا وعملا في مسـاندة حـق تقريـر المصـير للشعوب ، فانضمت بذلك – مع الفوارق المعروفة – إلى خط الحرية الذي أكدته الثورات الأخرى .

سادساً: الثورة الإيرانية والقانون الدولي

تختلف الثورة الإيرانية عن الثورات الأخرى ، وتتميز بخصائص متعددة ، أولها : أنها ثورة اجتماعية دينية تدعو إلى التخلص من نظام سياسـي علمـاني طبقي ، و إقامة نظام يطبق الشريعة الإسلامية على المـذهب الشـيعي الاثنـى عشري ، وتعد في موازين العلاقات الدولية – وان كان على مسـتوى أقـل – انقلابا ضخما فى السياسات العالمية . فإذا كانت الثـورة السـوفيتية ، وكـذلك الثورة الصينية ، ثورتين ضد ظلم اجتماعي في الداخل وطغيان السيطرة الغربية في الخارج ، فان الثورة الإيرانية تعتبر رمزا لهذين المعنيين صـوب تعميـق الممارسة السياسية الإسلامية ، وكان يمكن أن تكون ثورة إسلامية لإبراز العالم الإسلامي على الخريطة الدولية ، لولا أنها حصرت نفسها في المذهب الشيعي ، وأطلقت شعارات استغلت استغلالا سيئا ضدها ، كما أن هـذه الثـورة وجـدت مقاومة العنف ، بسبب تهديدها لشبكة واسعة من المصالح ، ومحاولة ظهورهـا فى منطقة شديدة الحساسية فى وقت كانت الحرب الباردة فيه تتجه إلى التهدئـة واتساع مساحات العمل المشترك بين موسكو وواشنطن ، فتحالف الجميع عليها، كل لأسبابه و دواعيه .

وإذا كان من الملاحظ أن الثورات السابقة جميعاً لم تستخدم القوات المسلحة وإنما استخدمت الشارع ضد القوات المسلحة أحياناً ، والتي كانت أداة للقمع فـي يد السلطة البائدة ، فإن الثورة الإيرانية قد انضمت إلى الثورات الأخـرى فـي التأكيد على المبادئ نفسها وهى : الاستقلال الوطني ، و إقامة علاقات دوليـة عادلة في المجالات السياسية والاقتصادية ، وحظر استخدام القوة في العلاقـات الدولية . ولكن الثورة الإيرانية ربما لم تعل من شان مبدأ عـدم التـدخل فـي الشئون الداخلية ، خصوصاً بين الدول الإسلامية ، وهذا يشبه إلي حد ما – مع الفوارق العديد– مذهب برجينيف المعروف بالسيادة المحدودة في إطار العلاقـة بين موسكو وأوروبا الشرقية ، حتى يبرر تدخل موسكو العسكري والسياسي في

شئون أوروبا الشرقية .

والحق أن إسهام الثورة الإيرانية في تأكيد مبادئ القـــانون الـــدولي لـــيس واضحاً بالقدر الكافي . حتى على مستوى الكتابات الأكاديمية . وربمـــا يرجـــع ذلك أساساً إلى أن الثورة تواجه – حتى رغم مضى ربع قرن علـــى قيامهـــا – محاولات قمعها ، وهى المحاولات نفسها التي واجهتها الثورة السوفيتية، عندما اضطرت لندن وواشنطن إلى الاعتراف بها بعد قرابة عقـــدين مـــن الزمـــان. ولكنهما يكنان للثورة الإيرانية العداء لأسباب سياسية ودينيه لا يتســـع المجـــال للإفاضة فيها.

الباب الثانى
الثورة والتغيير فى العصور القديمة

الفصل الأول
أوتوحيجال وأول ثورة تحريرية في العالم

جاب الله علي جاب الله(*)

حوالي منتصف الألف الخامسة ق.م. وفد إلي جنوبى العراق شعب قدر له أن يلعب دوراً بارزاً، ليس في تاريخ حضارة العراق فحسب، و إنما في تـاريخ حضارة الإنسان بصفة عامة ، ولما كانت الشعوب السامية التي استوطنت بـلاد الرافدين في مراحل تاريخية لاحقة قد أطلقت علي جنوبى العراق: تعبير "مـات شوميرم" بمعنى "أرض سومر ...." فقد تعارف الباحثون المحدثون علي تسـمية هذا الشعب باسم " السومريين " .

وقد نشب خلاف بين العلماء حول تحديد الأصول العرقية التي ينتمي إليهـا السومريون والموطن الأصلى الذي جاءوا منه، مما لا يتسع المجـال لتفصـيله، يكفي القول بأن البحث عن موطنهم الأصلي امتد من الخليج العربي جنوباً الـى وادى نهر السند شرقاً ، وحتى المنطقة الواقعة حول بحر قزوين شمالاً .

تدل الشواهد الأثرية على أنه مـع نهايـة الألـف الرابعـة ق.م. انـتظم السومريون في وحدات مستقلة ،ومع أنها كانت تعتمـد فـي اقتصـادها علـي الزراعة إلا أن واحدتها كانت أقرب إلى نظام المدينة منها إلي القرية ، وبـذلك يكون السومريون هم أول من دخل عصر الثورة المدنية، علي حد تعبير الباحث الكبير جوردون تشايلد ، اذ أن المدينة كانت وحدة سياسية مسـتقلة بحكومتهـا وأرضها واقتصادها وعلاقاتها الخارجية ،ولذلك عرفت بمصطلح دولة المدينـة city state ، وهو النمط نفسه تقريباً الذي عرفته دولة المدينـة فـي اليونـان Polis بعد ذلك بأكثر من ألف سنة .

(*) أستاذ الآثار المصرية كلية الآثار، جامعة القاهرة. مستشار وزير الثقافة للآثار.

تشير قرائن كتابية إلى أنه في بداية نشأة دولة المدينة في سومر، كان نظام الحكم يتسم بسمة ديمقراطية هي الأولى في التاريخ حسب علمنا ، وقد أطلق الباحث الأمريكي ثوركيلد جاكوبسن عليه تعريف الديمقراطية البدائية Primitive Democracy ، اذ كانت السلطة المطلقة في يدى مجلس عام من المواطنين الأحرار رجالاً ونساء ، ويمكن أن يسمى مجلس الكبار (الشيوخ) ، وكان يتألف أساساً من وجهاء المدينة وأعيانها ، وكان منوطا به النظر في أمور الدولة من معاهدات وحروب بل واختيار ال "إن" بمعني السيد، والذي كان يتولى مهام المعبد الرئيسي لإله المدينة ، أهم مؤسسة دينية/ دنيوية في الدولة ، والى جانب ذلك كان هناك مجلس آخر يضم الأحرار من الفلاحين والصيادين والنجارين والحرفيين والكتبة وغيرهم.

مع مرور الوقت تآكلت سلطات هذين المجلسين حتى ندر السماع عنهما ، ومع ذلك فإن نظرية الحكم في دولة المدينة السومرية ذهبت إلي أن النظام الملكي عبارة عن منحة سماوية وهبتها الآلهة إلي المدن ، لذلك نقرأ كثيراً عبارة "عندما هبطت الملكية من السماء إلي الأرض " واقتضت هذه العقيدة أن المالك والملك الحقيقي لكل مدينة هو إلهها الرئيس ، أما الحاكم الأرضي مجرد " انسى " بمعني نائب أو وكيل الالهه ، نيط به أن يدبر شئون الدولة ، وبعكس ما كان قائماً في مصر القديمة فإن الأنسى كان مجرد إنسان فان ، ولم يرق أبداً إلي مرتبة التأليه ، وكان أقصى ما يصبو إليه " الانسى " هو أن يرقي إلي " لوجال " بمعني " الرجل الكبير " والذي قد يترجم مع بعض التساهل بكلمة " ملك ". اعتمد الاقتصاد السومرى في المجال الأول علي الزراعة ، ورغماً عن وفرة المياه التى كان يأتي بها الي سومر نهرا الدجلة والفرات وروافد هما ، فإن رى الأراضي لم يكن بالأمر الهين ، لاسيما إذا علمنا أن فيضانات النهرين تقع بين شهرى أبريل ويونيو، وهو موعد غير مناسب لزراعة المحاصيل الشتوية أو الصيفية ، ولذلك برع السومريون في هندسة الرى ،وبذلوا جهوداً مضنية لإنشاء نظام معقد من القنوات والخزانات والسدود ، لضمان الحفاظ على المياه وتوزيعها بالتساوي على الأراضي الزراعية . أضف إلى ذلك أن أرض سومر بحكم طبيعتها الجيولوجية وظروفها المناخية كانت تفتقر إلى المعادن والأحجار والأخشاب الجيدة ، ولذلك ازدهرت تجارتها، ووصلت إلي شاطىء البحر المتوسط غرباً وشرقى إفريقيا عبر الخليج العربي وبحر العرب جنوباً ؛ أو

مناطق بحر قزوين شمالاً، وغنى عن القول أنه في ركاب التجارة انتقلت الثقافة السومرية المتفوقة الى معظم هذه البقاع، بما في ذلك نظام الكتابة الذي كان للسومريين قصب السبق في اختراعه .

ربما كان أخطر ما قدمه السومريون للإنسانية وأهمه اختراع الكتابة والتي بدأت بعلامات تصويرية، ثم تحولت لظروف خاصة بمواد الكتابة في العراق القديم إلي علامات مجردة بعيده كل البعد عن أصولها التصويرية ، وتعرف لدينا الآن بالكتابة السماوية ، وليس الآن هو مجال الدخول في جدل حول من كان له شرف السبق في هذا الاختراع : المصريون أم السومريون ، ولكن يكفى السومريين شرفاً أن كتابتهم انتشرت في كل أصقاع منطقة الشرق الأدنى القديم فيما عدا مصر ، اذ استخدمها الأكديون والبابليون والأشوريون في العراق ، كما استخدمها الإبلويون والأموريون والكنعانيون والفينيقيون في الشام ، واستخدمها الحيثيون في آسيا الصغرى ، والعيلاميون والفرس الأوائل في ايران ، بل وفي وقت من الاوقات كانت المسمارية هي وسيلة الكتابة الدولية، مما يفسر لنا العثور علي مئات اللوحات الطينية المكتوبة بالخط المسمارى في الأرشيف الملكى بالعمارنة ، آخت آتون عاصمة اخناتون ، وإذا كانت شعوب الشرق الأدنى القديم ودوله تدين بشيء لشعب آخر ، فإنها تدين في المجال الأول للسومريين اختراعهم الكتابة.

أدرك السومريون بعبقريتهم الفطرية مدى خطورة الكتابة، ولذلك حرصوا على تدريسها تدريساً منتظماً في مدارس مخصصة لهذا الغرض ، وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن عدد من هذه المدارس بين أطلال المدن السومرية بل وعثر على بعض الكتب المدرسية التى يعود تاريخها الى ما لا يقل عن ٢٥٠٠ق.م.

كانت المدرسة تعرف في اللغة السومرية بإسم " ايدوبا " ومعناها الحرفي " بيت الألواح " وكان يدير شئونها ناظر يعرف بإسم "أوميّا" ، ويلقب بلقب شرفى هو " أبو المدرسة " ويعاونه في أداء وظيفتة مايقابل لدينا " المدرس الأول " ولقبه السومريون " الأخ الآكبر " أما هيئة التدريس فكانت لها تخصصاتها فهناك مدرس اللغة السومرية ومدرس الرسم ... الخ . وتعبيراً عن مدى التصاق التلميذ بمدرسته فقد كان يوصف بأنه " ابن المدرسة " ،ولم تكن الصلة الروحية بين التلميذ ومدرسته لتنقطع بعد التخرج، إذ أن المتخرج كان يوصف بأنه " ابن المدرسة في الأيام الماضية " .

ترك لنا أبناء المدارس القدامى هــؤلاء مـــن الكتبــة آلاف النصـــوص المسمارية التي كشفت عن جميع نواحي الحياة السومرية : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والأدبية والطبية والفلكية والرياضية... إلخ. رغما عـــن أن السومريين ، مثلهم مثل كل شعوب الأرض قديماً وحديثاً ، كانوا يعتقدون بـــأنهم متميزون عن غيرهم من الأمم ، وأن مجتمعهم مجتمع مقدس وثيق الصلة بعـــالم الآلهه ، إلا أنهم في الوقت ذاته أدركوا بثاقب فكرهم أنهم جـــزء مـــن مجتمـــع بشرى أوسع يستوطن جهات الكون الأربع (على حســـب تعبيـــرهم) ولـــذلك ظهرت فى كتاباتهم كلمة " نام لولو " التي تعطى معنـــى " البشـــرية " بمـــدلولها المجرد .

في ظل الرقي المدنى الذي حققه السومريون تولد لدى المـــواطن العـــادى إحساس قوى بحقوقه الشخصية ،وحرص شديد على حريته ، وإصـــرار علـــى مجابهة أية تجاوزات قد يتعرض لها سواء أكان ذلك من قبل حاكم أو رئيس في العمل ، أو أى مواطن آخر ، فلا غرابة إذن أن يكون سن التشريعات من أهـــم الخصائص المميزة لدولة المدينة في سومر، وليس محض صدفة أن تكون أقدم قوانين معروفة لدينا يعثر عليها في العراق ، ونعنى هنا القوانين المنسوبة الـــى أور ــ نمو ، ملك أور فيما بين حوالي ٢١١٣ ــ ٢٠٦٩ق.م .

وطبقاً لديباجة المقدمة لمواد تشريعاته ينص أور -نمو على أنه قصد مـــن إصدارها القضاء على ناهبي ثيران المواطنين وأغنامهم وحميرهم ، وضبط نظم الموازين والمكاييل حتى لا يجرى التلاعب بها ، وحتى " لا يقع اليتـــيم فريســـة للغنى " و "الأرملة ضحية للقوى" و "مالك الشيقل (الفقير) فريسة لمالـــك المنـــا (الغنى)".[١]

أما في مجال الإبداع الفكري فقد خلف السومريون ثروةً هائلـــةً ، فـــاحتوى أدبهم على العديد من الأساطير والقصص الملحمية والتراتيل الدينية والمرثيـــات (لاسيما مرثيات المدن) وأقوال الحكماء والوثائق التاريخية وخلافه .

ومن القصص الملحمي عثر على ما لا يقل عن تسع منهـــا ، ومـــن بينهـــا قصة ايتانا سيد كيش الذي نجح في أول محاولة طيران ، إذ صعد إلى الســـماء على جناحي نسر لكي يحصل على نبتة الإنجاب لأنه كان محروماً من الأبناء ، وقصة إينمر كار سيد أورك الحافلة بالبطولات ، وكان ملكـــاً غازيـــاً وصـــلت

فتوحاته إلى مملكة أراتا بجوار بحر قزوين[٢] وقصة زيو سودرا الذي أنقذ العالم من الطوفان الذي كاد أن يهلك الحرث والنسل وبذلك يكون المقابل الســومرى ، لنبي الله نوح عليه السلام في التوراة والقرآن الكريم .

على أنه ربما كان أشهر هذه القصص جميعاً جلجــاميش ، ذلــك البطــل المأساوي القلق الذي قضى عمره سعياً وراء أمل ، كان يعرف من البداية انه لن يتحقق ، ألا وهو قهر الموت والفوز بالحياة الأبدية ، وفى النهاية خــاب مســعاه لأن الآلهة عندما خلقت الإنسان قدرت عليه الموت واحتفظت لنفســها بالحيــاة الأبدية .

كشفت النصوص السومرية عن قيم إنسانية سامية ومثل أخلاقية عليا، ففــي نص ينسب إلى عهد أوركاجينا الذي حكم مدينة لجش في منتصف الألف الثالثــة ق .م وردت كلمة " أمارجى " " بمعنى " الحرية " وهو أول ذكر مــدون لهــذه الكلمة حسب علمنا .

وقيل عن الآلهة نانشة ربة المدينة نفسها أنها :

" تعرف اليتيم وتعرف الأرملة

تعرف ظلم الإنسان للإنسان

أم اليتيم

نانشة، التي تعنى بالأرملة

التي تهب العدالة لأفقر الناس (؟)

الملكة التي تأخذ اللاجئ في حجرها

وتجد ملاذاً للضعيف "

ومن أقوالهم المأثورة :

" القلب لا يسبب العدواة ، بل اللسان هو الذي يسبب العداوة "

" الكلمة الطيبة صديقة كل إنسان "

القلب الحنون يبنى البيت أما القلب الحقود فيهدم البيت "

" الزوجة مستقبل الرجل والابن ملاذ الرجل والابنة خلاص الرجل "

وتضرع جوديا سيد لجش إلى ربه قائلاً :

" لا أم ، أنت أمي

ولا أب لي ، أنت أبي"

أرجو ألا توهمنا الإنجازات الحضارية المذهلة التي حققها السومريون بأنهم عاشوا في الجنة الموعودة التي أبدعها خيالهم ، لأن مئات من النصوص الأخرى تلقي الأضواء على جوانب أخرى من حياة المدن السومرية ، جوانب من الخصومات والنزاعات والحروب والأخطار ، وهي أمور تصير مفهومة إذا ما أدركنا أن دويلات المدن لم تنتظمْ في دولة واحدة إلا نادرا ، ولذلك كثيراً ما احتدمت النزاعات بينها ، وهي نزاعات غالباً ما كان يحسمها حد السيف ، وقليلاً ما حسمتها الاتفاقات التي سرعان ما كان يتم نقضها والرجوع عنها .

ومن ناحية أخرى فعلى العكس من مصر ، لم يتوافر للعراق حدود طبيعية تحميه من الغارات الخارجية ، بل كان البلد مفتوحاً ومعرضاً للأخطار من جميع الاتجاهات : فإلى الجنوب والغرب تمتد صحراوات شاسعة تتجول فيها جماعات بدوية خشنة الطباع ، فقيرة في موارد رزقها ، ولذلك كانت كثيراً ما تغير على التخوم الغربية لبلاد الرافدين ، تقتل وتدمر وتنهب ، والى الشمال توجد الجبال الوعرة بسكانها المتبربرين والطامعين في خيرات الأراضي الخصبة ، ولذلك كثيراً ما كانوا يهبطون عليها مثل الجراد يحرقون مدنها ويسترقون أهلها ويسلبون ثرواتها. حوالي ٢٢٥٠ ق .م تعرض وسط وجنوبي العراق لواحدة من تلك الغارات ، إذ هبطت جماعات من المرتفعات الشمالية ، فدخلت المدن السومرية وروعت مواطنيها وسلبت ممتلكاتهم ، إلا أنها لم تنسحب مرتدة إلى مرتفعاتها ، وانما بدأت تحكم المدن وتسيطر على مقاديرها ، وطبقاً لمصدر تاريخي يعرف اصطلاحاً باسم " قائمة الملوك السومريين " فإن هذه الجماعات عرفت باسم الجوتيين ، وإن عهدهم المظلم استمر ٩١ عاماً واربعين يوماً ، رزحت خلالها المدن السومرية تحت حكم جماعات بربرية لا نصيب لها من الحضارة ، فلا غرابة في أن نمت روح قومية بين أبناء المدن السومرية على اختلاف انتماءاتهم وتوحدت إرادتهم للتخلص من هذا الكابوس ، وبدأت بداية ثورة تحريرية لعلها الأولى في التاريخ .

تزعمت مدينة أورك (على نهر الفرات جنوب شرق مدينة السماوة حالياً) بقية المدن السومرية وقاد حاكمها المدعو أوتوحيجال حرب التحرير ضد

الطغيان الأجنبي ، ومن حسن الحظ أنه عثر على نص مسماري يكاد أن يكـون فريداً من نوعه ، يمكن عن طريقه تتبع مراحل الحرب التحريرية مـن بـدايتها حتى نهايتها .

طبقاً للنص لم ينطلق أوتوحيجال إلى هذه الحرب تحقيقا لمطمـع شـخص وانما بتكليف إلهي :

"آنليل (٣) ملك الأقطار كلها ، كلف (أتوحيجال) ، الرجل القوى ، ملك أوروك، ملك أركان العالم الأربعة ، الملك الذي لا يقدر امرؤ على مخالفة أمره ، بتحطيم اسم جوتي" .

ثم يسوق النص المبررات التي جعلت انليل يكلف أوتوحيجال بتدمير اسـم (ملك) جوتى ، لانه " ثعبان وعقرب الجبل ، الذي شهر سـلاحه ضـد (إرادة) الآلهة " والأخطر من ذلك ارتكب خطيئة كبرى لأنه نقل ملكية بلاد سومر إلـى بلاد (أجنبية) ، ولعنا لازلنا نتذكر أن الملكية كانت منحة سـماوية تهـبط مـن السماء إلى أي من المدن السومرية طبقاً للإرادة الإلهية .

ولم تقتصر شرور الجوتيين على الآلهة وإنما امتدت لتشمل مواطني سومر قاطبة ، فقد " ملأ سومر بالعدواة ، وفصل الزوجة عمن كان له زوجه ، وسـلب الطفل ممن كان له طفل ، وأوجد البغضاء والعصيان في البلاد ".

وإذا كان التكليف بالشروع في حرب قد جاء إلى أوتو حيجال من انليل رب الأرباب السومريين ، فإن أتوحيجال لم يكن من الغفلة بحيث يخوض حرباً مثـل هذه ضد عدو شرس مثل الجوتيين بمفرده ، وانما توجب عليه أن يطلب العـون من بقية المدن السومرية لكي تقف معه ، ولأن كل مدينة كانـت ملكـاً لالهها الرئيس أو إلهتها الكبرى فقد توجه إليها مباشرة ، طالباً عونها وملتمساً نصرها:

" توجه (اوتوحيجال) إلى إنانا (٤) ملكته وابتهل ضارعاً : يا مليكتى أيتها اللبؤة في المعركة ، يا من تهاجم الأقطار الأجنبية كلها ، لقد كلفتي انليل بإعادة ملكيـة بلاد سومر فكوني حليفتى " بعدما ضمن أتوحيجال تأييد آلهة المدن السـومرية الواحد بعد الأخر انطلق إلى المعركة " في ذلك المكان جمع الجوتيون قـواتهم و أرسلوا الجيوش ضده إلا أن اوتوحيجال الرجل القوى أوقع بهم الهزيمة وأسـر قائدهم " .

رغم الهزيمة المنكرة التي ألحقهـا أتوحيجـال بـالجموع الجوتيـة إلا أن

تيريجان ملكهم تمكن من الهرب و" لجأ إلى مدينة دوبروم حيث عومل برفق (؟) ولكن لما كان أهل دوبروم يعرفون أن أوتوحيجال هو الملك الذي وهبـه انليـل القوة فإنهم لم يطلقوا سراح تيريجان ، وإنما سلموا مبعوث أوتوحيجال تيريجـان وعائلته ، فقيد يديه بأطواق من خشب ، وعصب عينيه ، وجـئ بترجـان إلـى حضرة أتوحيجال ، فألقى بنفسه على قدميه ، فداس أوتوحيجال بقدمه على رقبته ... وهكذا عادت الملكية إلى بلاد سومر" .

لقد نفذت الإلهة إرادتها وعادت الملكية مرة ثانية إلى مكانهـا الطبيعـي : أرض سومر ، وتحقق حلم السومريين فـي الحريـة ، وتخلصـوا مـن نيـر الجوتيين، ثعبان الجبل وعقربه .

الهوامش

(١) المنا = حوالي ٥٠٠ جم ويعادل ٦٠ شقيلاً

(٢) والواقع أن هذه القصة تقدم لنا في أحد فصولها وصفاً لحلم الإنسان بعالم مثالي خـال من الشرور :

" في يوم من الأيام لم يكن هناك ثعبان ولم يكن هناك عقرب
لم يكن هناك ضبع ولم يكن هناك سبع
لم يكن هناك كلب متوحش ولا ذئب
لم يكن هناك خوف ولا رعب
كان الإنسان بدون عدو "

(٣) انليل (حرفياً سيد الريح) كان رب الهواء والعاصفة عند السومريين واحتـل مكانـة رفيعة في مجمع الآلهة السومرية حتى أنه كان يوصف بأنه " ملك الآلهة " و" ملـك السـماء والأرض " وكان هو الذي يعلن اسم الملك ويمنحه صولجان الحكم .

(٤) كانت " إنانا " إبنة اله القمر " نانا " وعرفها الساميون بعد ذلك باسم " عشتار " وكانـت تتجلى في كوكب الزهرة وكانت ربة للحرب والحب في آن واحد .

مراجع مختارة

- باقر ، طه ، **مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ــ جـ١ ــ الوجيز فى تأريخ حضارة، وادي الرافدين** ــ ط٢ ، بغداد ١٩٨٦.

- برنتيس ، بورهارد ، **نشوء الحضارات القديمة** ــ ترجمة جبرائيل يوسف كباس، دمشـق ١٩٨٩

– صالح ، عبد العزيز ، **الشرق الأدنى القديم – جـ١ – مصر والعـراق** – ط ٤، القاهرة، ١٩٩٠.

– عبد الواحد على، فاضل، "السومريون والأكديون" في نخبه من الأساتذة العراقيين، **العـراق في التاريخ** ، بغداد ١٩٨٣

– كريمر ، ص . ن ، **السومريون : تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم** ، ترجمـة فيصـل الوائلي ، الكويت (بدون تاريخ)

– لويد ، سيتون ، **آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغـزو الفارسـي** – ترجمة محمد طلب ، دمشق ١٩٩٣.

–نخبة من الباحثين العراقيين ، **حضارة العراق – جـ١** – بغداد ١٩٨٥

- Childe, G.,**What Happened in History**, Penguin Books, 1946

- Gadd, C.J. " The Cities of Babylonia " ,in Cambridge Ancient History, 3rd ed., vol. I/2 , Cambridge 1971

- Heidel, A., **The Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels**, Phoenix Books, Chicago 1965

- Jacobsen Th., "The Sumerian King-list", Assyriological **Studies**, 11, Chicago 1939.

- "Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia", **Journal of Near Eastern Studies** , 2, 1943.

- Kramer, S.N., Sumerian Mythology , A Study of Spiritual and Literary Achievement in the Third Mellennium B.C., Harper Torchbooks, New York, 1961.

- History Begins at Sumer, Thames and Hudson , London 1961.

- The Sumerians : Their History , Culture, and Character, Chicago 1963.

- " Dilmun : Quest for Paradise ", **Antiquity**, 27,no.146, 1963.

- Roux, G . , **Ancient Iraq**, Penguin Books, 2nd ed.,1985.

- Saggs, H.W.F., **The Greatness that Was Babylon**, London 1962.

الفصل الثانى

الثورات المصرية فى العصر الرومانى

(٣٠ق.م – ٢٨٤م)

عودة عبدالواحد جودة(*)

شاع لدى العامة أن الوطنية والقومية مترادفان، وأن أياً منهما إذا ذكرت تغنى عن الأخرى، بيد أن الواقع يبين أن لكل منهما معنى وإن كانا غير مختلفين. الوطنية مشتقة من الوطن أى لها مدلول مكانى، وأما القومية فمشتقة من القوم أى لها مدلول إنسانى. وتبرز الوطنية عندما يكون سكان أى وطن ينتمون إلى أرومة واحدة، كما هى الحال فى مصر الفرعونية[1]. وأيضا عندما يشترك أهل وطن واحد على اختلاف أصولهم العرقية فى عمل مشترك. أما القومية فهى مرحلة تبرز إذا ما كان يسكن الوطن أكثر من جنس واحد كل منهم يشكل قومية، على سبيل المثال مصر فى العصرين اليونانى والرومانى التى كان يسكنها المصريون إضافة إلى اليونان والرومان وجنسيات أجنبية أخرى[2]. وبالتالى شكل المصريون إحدى القوميات التى سكنت مصر فى العصر الرومانى. ومن هنا نتبين أنه على حين يمكن أن نطلق على ثورات المصريين على المحتلين فى العصر الفرعونى اسم الثورات الوطنية، فإننا نطلق على ثوراتهم ضد محتليهم فى العصر الرومانى اسم الثورات القومية، على اعتبار أن تلك الثورات عمل قومى مصرى.

تنقسم الثورات التى خاضها المصريون على مدار تاريخهم إلى ثورات داخلية ضد الطغاة من حكامهم من بنى جلدتهم، وإلى ثورات وطنية أو قومية ضد محتل أجنبى. وطالما أن العصر الرومانى قد شكل فترة احتلال أجنبى لمصر، فلاشك أن الثورات القومية ضد سلطة الاحتلال الرومانى ستكون هنا بيت القصيد. وطالما أطلقنا على تلك الثورات اسم الثورات القومية المصرية فإن الدراسة سوف تقتصر على ثورات المصريين دون الدخول فى تفاصيل ثورات

(*) مدرس التاريخ القديم، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

السكندريين اليونان أصلاً، والتى اتخذت شكلاً آخر يختلف فى كثير من سماته وملامحه عن ثورات المصريين. وإن كان بعض الباحثين يرى أنه عند اندلاع تمرد فى مكان آخر من مصر نجد السكندريين على استعداد للانضمام والمساعدة[٣]، فإن واقع الحال يؤكد أنه لم يحدث تعاون بين المصريين والسكندريين فى ثوراتهم ضد الرومان، ويبدو أن ذلك كان أحد أهم أسباب فشل ثورات كلا من المصريين والسكندريين.

وثمة ملاحظة أخرى نود إضافتها ألا وهى أن المادة العلمية المتعلقة بتلك الدراسة قليلة وناقصة، ولعل ذلك ما أدى إلى إعراض الباحثين عن دراسة هذا الموضوع رغم أهميته.

عاش المصريون منذ أقدم العصور فى الوادى والدلتا ظانين أن الموانع الطبيعية التى تتمتع بها مصر مانعتهم من الغزو الأجنبى، فكما هو معروف أن مصر تحميها الصحارى من الشرق والغرب ويحميها البحر من الشمال، وقد أشار تاكيتوس إلى أن مصر بلد يسهل الدفاع عنها، خاصة إذا ما تمت السيطرة على مدخليها، بيلوزيون فى الشرق وفاروس فى الغرب اللذين يوصفان بأنهما النقطتان الرئيسيتان للدفاع عنها من البر والبحر[٤]. وبالتالى نعم المصريون بالأمن فى وطنهم مما منحهم الفرصة لتشكيل حضارة متجانسة رائدة دونما مؤثرات خارجية. بيد أن المصريين تبينوا فيما بعد فكرة الأمن الزائف داخل حدودهم، ذلك أن كثيراً من ملامح المجتمع الدولى القديم أخذت فى التغير بشكل سريع عن النمط الذى ألفه المصريون، وصارت بلاد الشام تعج بكثير من الهجرات الأجنبية التى تطلعت للوثوب على مصر مستغلة فترة الضعف التى كانت تمر بها مصر، فى عصر الأسرة الثالثة عشرة[٥]. وبالفعل حدثت أول غزوة أجنبية لمصر، تلك التى حدثت فى أوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد، وعرفت بغزوة الهكسوس[٦]. وشكلت تلك المحنة أول اختبار حقيقى للوطنية المصرية. تلك التى يبدو أنها لم تتأخر كثيراً بل تبلورت وأخذت تنمو فى طيبة فى طرف قصى لم يتطرق إليها الاحتلال الهكسوسى، وشكل الأمير سقننرع من الأسرة السابعة عشر أول شهيد وطنى مصرى، ودليل ذلك رأس موميائه وقد كللتها خمسة جروح. وحمل لواء المقاومة بعده ولداه كاموس وأحمس، وعلى حين اختفى الأول فى ظروف غامضة كان أحمس الأول بطل التحرير[٧].

تنبه فراعنة الدولة الحديثة (١٥٧٥-٩٤٥ق.م.) إلى فكرة الأمن الزائف، ورأوا أن موانع مصر الطبيعية لم تحمها من الغزو الخارجى، وبالتالى عمدوا

إلى إنشاء الإمبراطورية المصرية، وما استتبع ذلك من وجود أملاك خارجية لمصر، تحصل منها على ما ينقصها من موارد، ويتم فيها إجهاض الغزوات الأجنبية قبل وصولها إلى مصر، وبالتالى فإن قوى أجنبية مثل الميتان والحيثيين جربوا حظهم فى الشام مع المصريين، أما شعوب البحر فقد وصلت إلى الحدود المصرية إلا أنه تم دحرها(٨).

كانت ثانى الغزوات الكبرى التى استطاعت الولوج إلى مصر، كانت قوة آشور حيث بذل آشور حادون محاولتين لغزو مصر، أفلح فى الثانية عام ٦٧١ق.م فى دخول منف. وأحس المصريون بأن الآشوريين غرباء، ولذا فإن كرامتهم منعتهم إلا الثورة التى تزعمها طهراقا آخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين فى مصر، حقيقة أن ثورة المصريين لم تفلح فى طرد الآشوريين، لكنها عملت على قض مضاجع المستعمرين الذين ظلوا فى مصر حتى استطاع أبسماتيك الأول أمير سايس استغلال الظروف السيئة التى حاقت بدولة الآشوريين، وتخلص من النفوذ الآشورى وكون الأسرة السادسة والعشرين(٩).

رغم النهضة فى العصر الصاوى فإنها كانت أنشودة وداع لأمة أدت دورها الحضارى والسياسى فى وقت ظهر فيه الغول الفارسى، وأسس قورش الأسرة الهاخمنشية، واجتاح آسيا الصغرى والشام وبابل، فى وقت توفى أحمس الثانى ملك مصر، واستطاع الملك الفارسى قمبيز فتح مصر عام ٥٢٥ ق.م(١٠).

أساء قمبيز إلى المصريين وإلى ديانتهم وبالتالى وفر منذ البداية مقوماً وسبباً أساسياً للثورة الوطنية المصرية، بيد أن أعمال الملك العظيم دارا الأول الطيبة مثل تسجيل التشريع المصرى واحترام الديانة المصرية قد خدرت المصريين مؤقتاً. ومع ذلك ظلت جذوة الثورة الوطنية المصرية مشتعلة تحت الرماد، وقد شهد العصر الفارسى على الأقل أربع ثورات مصرية، دخل اليونان فيها طرفاً فاعلاً لمناصرة المصريين فى ثوراتهم ضد الفرس عدوهم المشترك، ومن أبطال تلك الثورات أيناروس وآمون حر ونقتانبو(١١).

فى ظل تلك الظروف السابقة ظهر فيليب الثانى المقدونى صاحب مشروع توحيد اليونان والقيام بعمل مشترك للانتقام من الفرس، وكان من رأيه مساعدة مصر ضد الفرس(١٢).

بعد اغتيال فيليب الثانى المقدونى آل عرشه وورث مشروع توحيد اليونان والقيام بعمل ضد الفرس ابنه الإسكندر الثالث المعروف بالإسكندر الأكبر.

ورغم صغر سنه أبدى الإسكندر براعة سياسية وحربية وبالتالى لم يتأخر كثيراً فى القيام بحملته المنتظرة على الشرق. وفعلاً هزم الفرس فى موقعة سهل إسوس فى آسيا الصغرى عام ٣٣٣ ق.م[١٣]. ثم نجده يتجه جنوباً ليجتاح بلاد الشام ثم يلج إلى مصر عام ٣٣٢ق.م. ويقضى على الحكم الفارسى[١٤].

ظن المصريون أن جيش الإسكندر الأكبر نجدة يونانية جاءت لمساعدتهم ضد الفرس، وبالتالى ساعد المصريون الإسكندر ورحبوا به حيثما حل. ولم يفطن المصريون حينذاك إلى أن اليونان لم يأتوا هذه المرة حلفاءً، وإنما ليفرضوا سيادتهم عليهم ويقيموا مكان الحكم الفارسى حكماً أشد بأساً وأطول بقاءً[١٥]. وصار فاتحة عصر جديد من حكم الأجانب اليونان لمصر دام قرابة الثلاثة قرون عرف بعصر البطالمة.

أقام البطالمة دولتهم فى عام ٣٢٣ ق.م.و اتخذ بطلميوس الأول سوتير منف عاصمة له حتى يتم بناء الإسكندرية، وبالتالى تودد إلى المصريين إلا أن سياسته اختلفت بعد أن انتقل للإقامة فى الإسكندرية عام ٣١١ق.م. وبالتالى ولى وجهه شطر بلاد اليونان وأهلها وأدار ظهره لمصر وأهلها[١٦]. ونزع عن المصريين صلاحياتهم كافة وأحل اليونان محلهم فى مختلف الوظائف المدنية والعسكرية، ماعدا الدنيا منها فقد تركها للمصريين، وحرم المصريين من قياداتهم المدنية. كذلك حرم المصريين من الخدمة فى الجيش إلا فى أدنى مراتبه فصار الجيش يونانياً صرفاً، وبالتالى حرم المصريين من أهم أسباب ثورتهم ونعنى بها القيادة وحمل السلاح. وبالتالى تحولت مصر وأهلها إلى مجرد أدوات إنتاج لإمداد البطالمة بأهم أسباب ثرواتهم التى غدت مضرب الأمثال، مما مكنهم من متابعة سياستهم العالمية بإنشاء دولة كبيرة كل مكاسبها لليونان، ووقعت كل مغارمها على المصريين. وبذا توافر للمصريين أول مقومات الثورة على البطالمة ومرد ذلك كرامتهم الوطنية السليبة والخضوع لجنس غريب[١٧].

ساهمت قوانين الدخل Nomoi Telenikoi التى أصدرها بطلميوس الثانى فيلادلفوس بماحوته من قوانين مالية، لم تدع شاردة ولا واردة من مصادر الدخل فى مصر إلا وفرضت عيها ضرائب، ليس هذا وحسب بل إن كثيراً من مصادر الإنتاج فى الزراعة والصناعة والتجارة خضعت لاحتكارات حكومية، كانت عقوبة من يخالفها تصل إلى الإعدام. وطالما أن عبء هذا التشريع المالى الكريه قد وقع كاملاً على المصريين مما أوقعهم فى براثن الفاقة[١٨]. فقد توافر لهم سبب جديد للثورة على الحكم البطلمى. أضيف سبب جديد أدى إلى ضيق

المصريين بحكم البطالمة، يتمثل فى تضييق البطالمة الخناق على رجال الدين المصريين طليعة القيادة الوطنية المصرية، بعد أن قضى البطالمة على نفوذ الارستقراطية العلمانية. حقيقة أن البطالمة احترموا الديانة المصرية وآلهتها، بيد أنهم فرقوا بينها وبين الكهنة، وبالتالى صاروا يضيقون الخناق على الكهنة بتعيين مراقب Epistates لكل معبد لمراقبة الموارد والمصروفات[١٩]. بل إن البطالمة صاروا يبيعون للكهنة المناصب الكهنوتية ذات الموارد[٢٠]. ومع ذلك يحسب للبطالمة الأواخر على الأقل أنهم أبقوا على حق المعابد فى حماية اللاجئين إليها asulia [٢١]. ولاشك أنه كان من شأن تلك الإجراءات التعسفية أن تدفع إلى بث الثورة فى نفوس الكهنة الزعماء الروحيين للبلاد، وبالتالى إذكائها فى نفوس المصريين.

بالإضافة إلى كل ما سبق من أسباب كانت تدفع المصريين إلى الثورة فى العصر البطلمى، فإن بعض الظروف الطارئة كانت تفضى بهم أيضاً إلى التذمر، أو تكمل الصورة القاتمة أصلاً قتامةً مثل الأوبئة والمجاعات تلك الظروف، وبالتالى كانت تلك الأوضاع تفضى للتذمر. ولا ننسى دور موظفى البطالمة الذين أساءوا السلطات المخولة لهم فزادوا الطين بلة[٢٢].

من المعروف أن الإسكندرية منذ إنشائها وعلى مدار عصر البطالمة والرومان لم تكن تعد جزءاً من مصر أو حتى تقع داخلها بل كانت توصف دائماً بأنها الإسكندرية المجاورة لمصر Alexandria ad Aegyptum، أما بقية مصر فكانت توصف بالوادى أو الأرض Chora[٢٣]، وبالتالى فإن مملكة البطالمة كانت تتكون من الإسكندرية ومصر بالإضافة إلى ممتلكاتهم الخارجية. وقد أنشئت الإسكندرية مدينة يونانية زخرت بأعداد كبيرة من اليونان الذين شاركوا الملك البطلمى المقيم بين ظهرانيهم استغلال المصريين[٢٤]. وبالتالى لايمكن أن نعتبر ثورات السكندريين على ملوكهم ثورات قومية تحررية، بل نرجح أن فورات أو شغب السكندريين كان لأجل الأسرة البطلمية لا ضدها، ورغم أن السكندريين قد عزلوا بعض ملوكهم أو طردوهم أو حتى قتلوهم، فلم يكن الهدف من ذلك التخلص من حكم البطالمة الذين غمروهم برعايتهم، وجعلوهم سادة فى بلد غير بلدهم، وبالتالى كانت ثورات السكندريين اليونان لتقويم سلوك ملوكهم[٢٥]. أما المصريون فكان لهم رأى آخر.

اندلعت ثورات المصريين على الحكم البطلمى لكل الأسباب السابقة وربما غيرها، وانقسمت ثوراتهم إلى نوعين من حركات المقاومة، أولها المقاومة

الإيجابية برفع السلاح والاشتباك مع قوات البطالمة من أجل الاستقلال وطرد البطالمة واليونان، أما المقاومة السلبية فلم يتطرق فيها المصريون إلى حمل السلاح فى وجه البطالمة، إنما تمثلت فى الإضرابات عن العمل والهروب من القرى، مما يعطل عجلة الإنتاج أو حتى تمنى زوال الاحتلال. لم تتأخر الثورات المصرية كثيراً عن بداية العصر البطلمى، وكذلك اختلطت أدوارها السلبية والإيجابية، ويكاد لا يمر عهد ملك من ملوك البطالمة دونما حدوث هوجة أو ثورة أو إضرابات أو هروب . ونتبين من وثائق زينون التى تعود إلى عصر بطلميوس الثانى وقوع اضطرابات بين المزارعين وفرارهم للاحتماء بالمعابد(٢٦). بيد أنه لم يحدث فى عصرى بطلميوس الأول أو الثانى ثورات مصرية مسلحة، ربما كان مرد ذلك هو كفاءة الإدارة البطلمية التى كفلت قدراً من عدالة توزيع ما تبقى للمصريين من نتاج جهدهم بعد استيفاء الدولة حقها، وكذلك يبدو أن الإجراءات المالية القاسية التى أدخلها بطلميوس الثانى لم تكن قد ظهرت آثارها بعد. كذلك لم تتوافر مقومات طبيعية لقيام ثورات مثل عدم حدوث نقص فى فيضان النيل. ولم يكن لدى الكهنة مبررات الثورة، وأن المصريين لم يمتلكوا السلاح.

عرف عهد بطلميوس الثالث يورجيتيس الثورة القومية المصرية، تلك التى حدثت خلال حربة السورية واضطرته إلى هجران فتوحاته فى آسيا والعودة إلى مصر، وإن كنا لا نعرف تفاصيل هذه الثورة(٢٧).

فى عهد الملك بطلميوس الرابع فيلوباتور العابث اندلعت الحرب السورية الرابعة. اجتاح خلالها الملك السلوقى أنطيوخوس الثالث ممتلكات البطالمة فى جوف سوريا حتى وصل إلى جنوب رفح طامعاً فى غزو مصر. بسبب قلة الجنود المرتزقة فى الجيش البطلمى لجأ بطلميوس الرابع إلى تجنيد المصريين لأول مرة فى العصر البطلمى، وكون منهم فيلق الجيش، ولما كان المصريون لديهم من الدوافع للدفاع عن بلدهم ما لا يمكن حصره وبالتالى تفوقوا على جند السلوقيين المرتزقة وأحرزوا النصر(٢٨).

كانت موقعة رفح نقطة تحول فى سلوك المصريين تجاه البطالمة، فقد أمدهم النصر الذى أحرزوه بما نقصهم منذ فترة، من إحساس بالعزة القومية امتلاكهم السلاح، وذكرهم بأيام ملوكهم الفراعنة القدامى الوطنيين، ولما كان نصر رفح نصراً للمصريين فإنهم لم يعودوا راضين عن وضعهم السابق بل تطلعوا إلى التمتع، إن لم يكن بكل خيرات بلدهم فببعضها. حقيقة أن البطالمة

اللاحقين صاروا يغدقون على بعض المصريين خاصة الجنود والكهنــة[٢٩]. إلا أنها لا يمكن أن تقارن بما نعم به اليونان.

كذلك ظهرت الدعاية السياسية القومية المصرية كإحدى طــرق المقاومــة السلبية على شكل نبوءات أشهرها النبوءة الديموتيقية المعروفة بنبوءة الفخراني، تلك التي بشرت بظهور زعيم وطني يطهر البلاد من الأجانــب ويحكمهــا[٣٠]. وبالتالي فقد ثارت طيبة تلك التي استطاعت الاســتقلال لمــدة عشــرين عامــاً (٢٠٥-١٨٦ق.م) تناوب خلالها على حكمها ملكان مصريان هما حورمــاخيس وعنخماخيس[٣١]. ويرى بعض المؤرخين أن السبب الأساسي لتلك الثــورة هــو التغير في توازن القوى بين الملك والمصريين بعد موقعة رفح، ويرى آخــرون أنها لم تكن ثورة قومية إنما مجرد تذمر من الأوضاع الاقتصــادية[٣٢]. ويــرى آخر أن خطر الثورة في عهد بطلميوس الرابع جاء من أن الجنــود المصــريين كانوا لا يزالون مدربين ويحملون السلاح[٣٣].

ظلت الثورة مشتعلة في عهد بطلميوس الخامس، ولاشك أنها صارت لهــا نتائج داخلية وخارجية سيئة، تمثلت في ضعف أداء الدولة الاقتصادي واضطرت الحكومة البطلمية إلى رفع القيمة الإسمية للعملة واتخاذ البرونز قاعدةً لها، وأدت إلى فقدان البطالمة نفوذهم في بحر ايجة[٣٤]. وظلت الثورة متأججة خلال حكــم بطلميوس الخامس حيث استطاع الملك البطلمي قمع الثورة وإعدام الثــوار[٣٥]. ومع ذلك لجأ الملك إلى التهدأة وأصدر قراريــن، الأول تضمن إعفــاءات مــن الضرائب وتنازل عن متأخراتها والعفو عن الثوار والمسجونين. وتضمن الثاني منحاً سخيةً وإعفاءات للمعابد والكهنة[٣٦]. إلا أن الثورة لم يتم القضاء عليها في الصعيد إلا في عام ١٨٦ ق.م عندما تم أسر عنخماخيس ، وتم القضــاء علــى الثورة في الدلتا عام ١٨٤ ق.م. وانتقم بطلميوس من الثوار[٣٧].

توفى بطلميوس الخامس شاباً ليخلفه ابنه الطفل بطلميوس السادس. عانــت مصر خلال حكمه النزاع الأسري وفساد البلاط والتــدخل الأجنبــي الرومــاني والمشاكل الاقتصادية، فنشبت الثورات القومية المصرية، عندما اغتــنم الــزعيم المصري ديونسيوس بيتوسيرابيس فرصة النزاع الأسري البطلمي للتخلص مــن الحكم البطلمي، فأشعل ثورة في الإسكندرية، وعندما فشلت فر إلى مصر وأشعل الثورة بها[٣٨]. وقد اشتعلت الثورة في منطقة طيبة حتى استطاع الملك القضــاء عليها[٣٩]. ويحتمل أن الثوار المصريين قــد لاقــوا دعمــاً مــن النــوبيين لأن بطلميوس السادس اهتم بحماية الحدود الجنوبية[٤٠]. ورغم أن بطلميوس السادس

قد أصدر عفواً فى عام ١٦٣ ق.م. عن كل المشاركين فى الثورة إذا مـا ألقـوا السلاح[٤١]، ومع ذلك لم تهدأ الأمور تماماً، فعلى حين انصرف المصريون عـن المقاومة الإيجابية بالثورة المسلحة استمرت المقاومة السلبية متمثلة فـى أعمـال الإضرابات واللصوصية[٤٢]. واتهم كثير من مزارعى الملك حوالى عـام ١٥٧ ق.م بالسلب والنهب[٤٣].

أما بطليموس الثامن فقد بدأ عهده بإصدار قرار عفو عـام ١٤٥ ق.م. [٤٤] ومع ذلك لم تستقر الأمور ولجأ الفلاحون إلى الهروب مـن أراضـيهم وقـاموا بأعمال السلب والنهب[٤٥].

أدى انقسام أسرة البطالمة إلى هروب بطلميوس الثامن مـن مصـر عـام ١٣١ق.م. ولم يعد إليها إلى فى عام ١٢٧ ق.م. [٤٦] وفى أثنـاء غيابـه عمـت الثورة القومية والفوضى البلاد[٤٧]، وارتكبت الفظائع[٤٨]، وانقسـم المصـريون إلى مؤيد للثورة أو معارض لها [٤٩]. وعلى مايبدو أنه كان هناك فريـق مـن المصريين يؤيد بطلميوس الثامن فعلى ما يبدو أن قائد جيش بطلميـوس الثـامن المدعو باوس كان مصرياً[٥٠].

لم تخمد الثورة المصرية بعودة الملك عام ١٢٧ ق.م وصـلحه مـع أختـه كليوباترا الثانية، وإنما ظلت بعض المدن ثائرة فأرسـل الملـك إليهـا حمـلات عسكرية[٥١]. ثم لجأ الملك إلى إصدار سلسلة من قرارات العفو عـام ١١٨ق.م لمعالجة أسباب الثورة[٥٢]. حاول فيها استرضاء الكهنة، قادة الثورة، فمنحهم حق إدارة أرض المعابد وأعفاهم من الضرائب ومنح المعابد حق حماية اللاجئين[٥٣]. وإرضاء لجمهور المصريين، وقود الثورة، حظر سجنهم أو بيع مواشـيهم لقـاء الدين وإعفاءهم من إسكان الجنود فى منازلهم[٥٤]. ومع ذلك لـم تخمـد الثـورة طالما ظلت الأسباب التى أدت إلى ثورة المصريين منذ عصر البطالمة الأوائل، فعلى سبيل المثال نشبت ثورة فى إحدى قرى الفيوم بسبب ظلـم المـوظفين[٥٥]. وثارت الاضطرابات فى طيبة[٥٦] ولم يستطع بطلميوس التاسع القضاء عليهـا إلا بعد ثلاث سنوات وبعد أن دمر طيبة تدميراً شديداً[٥٧]. وظلت الثورة مشتعلة فى أرجاء مصر المختلفة[٥٨].

يبدو أن المصريين قد أعرضوا خلال عهد الزمار وأولاده عـن المقاومـة الإيجابية بالثورات المسلحة، ولجأوا إلى المقاومة السلبية المتمثلة فى هجـرانهم العمل وبالتالى تدهورت الحياة الاقتصادية. ولكن يجب ألا ننسـاق وراء بعـض

الآراء التى ترجع هدوء المصريين في عهد كليوباترا إلى أن تلك الملكة استطاعت اكتساب محبة المصريين(٥٩). إلا إننا نرى أن السبب الحقيقى لذلك هو تعب المصريين من الثورة، وما جرته عليهم من خراب ودمار دونما التوصل إلى نتائج حاسمة.

أما فيما يتعلق بالثورات القومية فى العصر الرومانى فيجب الإشارة إلى أن مصر لم تسقط فى حوزة الرومان بين يوم وليلة. إذ أن علاقات دبلوماسية بين مصر البطلمية والجمهورية الرومانية، تعود إلى عهد بطلميوس الثانى فيلادلفوس عام ٢٧٣ ق.م(٦٠). إلا أن التدخل الرومانى فى مصر أخذ فى الازدياد منذ عهد بطلميوس الخامس عندما نصب الرومان أنفسهم قضاة وحكاماً بين ملوك العالم الهلنيستى، ووضح التدخل الرومانى فى شئون دولة البطالمة أكثر فى عهد بطلميوس السادس، عندما غزا أنطيوخوس الرابع السلوقى مصر مرتين ١٧٠، ١٦٨ ق.م.، وقد انسحب الملك السلوقى من مصر ليس خوفاً من جيوش البطالمة، إنما بسبب دائرة جايوس بوبيليوس لايناس عضو مجلس الشيوخ الرومانى الذى رسمها حول الملك السلوقى وطلب منه الموافقة على الانسحاب من مصر قبل خروجه من الدائرة، وكان معنى استجابة الملك السلوقى لطلب الرومان أن نصبت روما من نفسها حامية لعرش البطالمة(٦١). وليس أدل على مدى دفء العلاقة بين روما ودولة البطالمة وتدخل الرومان فى شئون مصر من تلك العلاقة الحميمة التى نشأت بين كليوباترا السابعة واثنين من كبار قادة الرومان هما يوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس(٦٢). وطالما لم يكن أوكتافيوس من عينة سابقيه فإن كليوباترا لم تستطع السيطرة عليه وبالتالى انتحرت، وأعلنها أوكتافيوس مدوية "لقد أضفت مصر إلى سلطان الشعب الرومانى" "Aegyptum imperio populi Romeni Adicie" (٦٣) وغدت مصر ولاية رومانية Provinicia(٦٤).

حافظ الرومان على أغلب النظم التى كانت سائدة فى مصر البطلمية وتخدم أغراضهم إذ كان معلوماً عن الرومان المحافظة على الأوضاع التى كانت سائدة لدى المجتمعات التى خضعت لهم. وقد أبقى الرومان على تقسيم البطالمة لمصر إلى قسمين، الإسكندرية وبقية مصر(٦٥). وبالتالى صار حاكم مصر الرومانى يوصف بأنه حاكم الإسكندرية ومصر Praefectus Alexandreae et Aegypti(٦٦). وقد ظلت الإسكندرية أيضاً فى العصر الرومانى مدينة يونانية تضم خليطاً من سكان عالم البحر المتوسط يغلب عليهم العنصر اليونانى إضافة

إلى بعض المصريين[٦٧].

ومن المعروف أن السكندريين لم يسلسوا القياد لملوكهم البطالمة وبالتالى لم يكن متوقعاً أن يسلسوه للحكم الرومانى الذى حل بساحتهم فى عام ٣٠ق.م. وقد توافر للسكندريين منذ البداية الثورة ضد الحكم الرومانى. إذ إن الرومان لم يكتفوا بما حصلوا عليه من كرامة وثروات ملوكهم البطالمة الأواخر بل أنهم طمعوا فى الغنيمة كلها وضموا مصر إلى أملاك الرومان، وحرموا السكندريين من استقلالهم وملوكهم وثروتهم لصالح روما محدثة النعمة وإمبراطورها المتغطرس وشعبها الغوغائى. ولاشك أن أوكتافيوس عندما فتح مصر كان يعلم أن السكندريين شعب ميال إلى الشغب يثور لأتفه الأسباب، ولذا فقد وضع فى المعسكر الكبير الذى أقامه فى نيكوبوليس فرقة رومانية، هى الفرقة الثانية والعشرون التى عرفت باسم فرقة ديوطاروس Legio XXII Deiotariana ليس هذا وحسب بل أن الرومان على حين سمحوا لليهود الدخلاء على الإسكندرية بإقامة مجلس للشيوخ Gerosia فأنهم حرموا السكندريين من إقامة مجلس للشورى Boule[٦٨]. وبالتالى انصب حقد السكندريين على كل من الرومان وصنائعهم اليهود، وطالما أن الحامية الرومانية قوية وموجودة فى الإسكندرية ومصر، فإن أسلوب مقاومة السكندريين للرومان أنفسهم لم يتعد النوع السلبى من المقاومة، فلم تصل إلى المقاومة المسلحة. وتبين من أعمال السكندريين Acta Aelxandrinorum أو التى عرفت أيضاً بأعمال الشهداء الوثنيين، مدى ما كانت تكنه صدور السكندريين من حقد على الرومان وصنائعهم اليهود[٦٩].

وطالما أن اليهود كانوا الجبهة الأضعف فإن السكندريين نفسوا عن حقدهم على الرومان تجاه اليهود، إذ كانوا ينتهزون أية فرصة للتحرش باليهود. وكثرت الصدامات بين السكندريين واليهود تلك التى كانت مزيجاً من التعصب العنصرى والسياسى[٧٠].

لم يتأخر الصدام بين السكندريين واليهود، وتكرر مثل الصدام الذى حدث عام ٣٨م بمناسبة زيارة أجريبا هيروديس اليهودى ملك أيتوريا فى فلسطين وصديق الإمبراطور جايوس كاليجولا إلى الإسكندرية وما ترتب على ذلك من أضرار جسيمة حاقت باليهود[٧١]. إلا أن اليهود انتقموا لأنفسهم أثناء ثورتهم الكبرى (١١٣-١١٧م) والتى اشتعلت فى برقة ومنها انتقلت إلى قبرص ثم مصر، وذاقت مصر بسببها الأمرين من جراء اتباع اليهود سياسة الأرض المحروقة، والغريب أن تلك الثورة لم تمتد إلى الإسكندرية، إذ أن الثوار لم

يستطيعوا دخولها لنجدة بنى جلدتهم الذين نالهم أصناف العـذاب علـى أيـدى السكندريين، وغض الرومان الطرف عن ذلك نكايةً فى الثوار اليهود(٧٢). كذلك اتبع السكندريون أسلوباً آخر فى نضالهم ضد الرومان، ونعنى به تأييد أى مـدع للعرش الرومانى ليس حباً فيه إنما نكاية فى الإمبراطور الجالس على العـرش، وربما تشجيعاً للثورة والتمرد والحروب الأهلية الرومانية التى ربما تخلصهم من الحكم الرومانى. فقد التف السكندريون حول جرمانيكوس عندما زار مصر، ولا يبعد أن بعض إشاراتهم كانت تشجعه على العصيان علـى عمـه الإمبراطـور تيبريوس(٧٣). كذلك أيدوا فسبسيان فى سعيه لتولى عرش الإمبراطوريـة عـام ٦٩م، ولم يضع فسبسيان الفرصة فقدم إلى الإسكندرية حيث هتـف بـه أهلهـا إمبراطوراً، ومنحوه ما يحتاجه من وجاهة ونفوذ(٧٤). وبالفعل تـولى فسبسـيان عرش الإمبراطورية(٧٥).

كذلك أيدت أو حتى حرضت الإسكندرية الجنرال أفيديوس كاسيوس، قائـد الحامية الرومانية فى سوريا، والذى قضى على ثورة الرعاة فى الـدلتا، علـى إعلان نفسه إمبراطوراً عندما وصلته أنباء كاذبـة عـن مـوت الإمبراطـور ماركوس أوريليوس، فهتفت به إمبراطوراً، إلا أن أفيديوس كاسيوس لم يفلح فى الجلوس على عرش الإمبراطورية ومع ذلك عفا الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس عن السكندريين.

لم يتوقف شغب السكندريين على الرومان عندما سلف ذكـره، بـل إنهـم برعوا فى لمز حكامهم سواء البطالمة أو الأباطرة الرومان ونعتوهم بأوصـاف جارحة، فعلى سبيل المثال وصفوا البطالمة بأوصاف تهكمية، مثـل بطلميـوس الثامن الذى نعتوه بالسمين Phoskon والشرير Kekrogetes (٧٦). كذلك وصـفوا زوجته كليوباترا الثالثة بلقب الحميراء Kokke (٧٧). بـل وأطلقـوا علـى ابنـه بطلميوس التاسع لقب حمص Lathoros (٧٨). أما بطلميوس الثانى عشـر الـذى اشتهر بحبه للعزف على القيثارة، فقد وصفوه تهكمـاً بالزمـار auletes(٧٩). وإذا كانت تلك هى حالهم مع ملوكهم اليونان فلاشك أن ألسنتهم لم تعف تلـك المـرة من لمز الأباطرة الرومان فى إطار المقاومة السلبية، فبعد أن هتفـوا بفسبسـيان إمبراطوراً وتولى العرش من الإسكندرية توقع منه السكندريون الكثير، إلا أنـه خيب ظنهم بفرض ضرائب جديـدة وإحيـاء أخـرى ملغـاة، وعندئـذ سـلقه السكندريون بألسنة حداد شداد، ووصفوه بتاجر الأسماك المملحة Kubiosakty's وغير ذلك من ألقاب السخرية، واستشاط فسبسيان غضباً، وأخضـعهم لضـريبة

الرأس امتهاناً لهم، إلا أن ابنه تيتوس توسط لهم عنده فصفح عنهم وأعفاهم منها[٨٠]. ومع ذلك تعالت أصوات السكندريين" إننا نصفح عنه فهو لا يعرف كيف يتصرف تصرف الأباطرة"[٨١]. كذلك حمل الأدب السكندرى المعروف بأدب الشهداء الوثنيين، كثيراً من الصفات اللاذعة للأباطرة الرومان ولم ينج سوى عدد قليل من أباطرة القرنين الأول والثانى من تشهير[٨٢]. فعلى سبيل المثال وصف الإمبرطور كلوديوس بأنه ابن لقيط لسالومى اليهودية وأنه مجنون[٨٣]. ووصف الإمبراطور كومودوس بأنه طاغية وأنه به نقائص مثل الطغيان والغدر والغلظة[٨٤].

عندما زار الإمبراطور كاركلا الإسكندرية عام ٢١٥م، جرب معه السكندريون السخرية من الأباطرة، إلا أن كاركلا عصبى المزاج لم يرق له ذلك، وبالتالى عندما سخروا منه لتشبهه بالإسكندر الأكبر، وذكروه أنه قاتل أخيه جيتا أمر بالقبض على وجهائهم وأعدمهم، وأباح الإسكندرية ثلاثة أيام لجنوده مما أدى إلى تخريب المدينة[٨٥].

أما بقية مصر chora فقد سكنها العنصر الوطنى المصرى بالإضافة إلى سكان المدن اليونانية الثلاث نقراطيس وبطلمية وأنطينوبوليس التى أنشأها الإمبراطور هادريانوس[٨٦]. إضافةً إلى الجاليات اليونانية فى عواصم المدن ويونان الريف، وكان الصنف الأخير من اليونان يعاملون معاملة المصريين[٨٧]. قبع المصريون، في أدنى الهرم السكانى فى مصر الرومانية على الأقل اجتماعياً واقتصادياً. فلم يكن لحامل الجنسية المصرية أية امتيازات تذكر، إنما جلبت على حاملها شتى المغارم على اختلاف أنواعها، بدايةً من ضريبة الرأس المهينة وانتهاءً بكل ما يخطر أولاً يخطر على بال من ضرائب فرضت على كل ذى دخل، إضافةً إلى الخدمات الإلزامية، سواء سخرة فى العمل الزراعى بحفر قنوات الرى وإصلاح الجسور والسدود، إضافةً إلى الوظائف والمهام الإلزامية والشرفية، يضاف إلى ذلك ضياع الكرامة الوطنية المصرية، بسبب خضوع مصر والمصريين لحاكم أجنبى، تجبى إليه ثمرة كدهم، وليته من جنس المصريين ولا حتى يقيم بين ظهرانيهم مثل ملوك البطالمة، إنما كان خير مصر وجهود المصريين موجهة لرفاهية روما وأباطرتها[٨٨]. وبالتالى تهيأت الظروف لاندلاع ثورات المصريين بشقيها الإيجابى والسلبى.

لم تتأخر ثورة المصريين على الحكم الرومانى كثيراً، فلم يكد يمضى عام على الفتح الرومانى لمصر حتى هبت منطقة طيبة ثائرة فى وجه الرومان، إما

بسبب تعسف جباة الضرائب الرومان المعروفين بكفاءتهم المالية، أو محـــاولتهم فرض ضرائب جديدة لم يألفها المصريون من حكامهم البطالمة، خاصة الأواخر منهم الذين أفرطوا فى منح المصريين إعفاءات ضريبية، أو حتى لمجرد الثورة فى وجه حكامهم الجدد تجريباً لحظهم كما حاولوا مع البطالمة من قبل. وقد بلـــغ من خطورة تلك الثورة أن كورنيليوس جاللوس أول حكام الرومان اضطر إلـــى أن يقود القوات الرومانية بنفسه ويزحف جنوباً لقمعهـــا(٨٩). ووردت معلومـــات أكثر تفصيلاً عن تلك الثورة فى نصب أرساه الحاكم كورنيليوس جـــاللوس تـــم العثور عليه فى جزيرة فيلاى إلى جنوبى مصر، وهو مكتـــوب بلغـــات ثـــلاث المصرية واللاتينية واليونانية، ويحمل النص الهيروغليفى تاريخ ٢٠ برمودة من السنة الأولى من حكم قيصر (أوكتافيوس) (٩٠)، وافتخر الحاكم بنفسه قائلاً "أنـــه قاهر طيبة فى ١٥ يوماً، هزم خلالها العدو مرتين فى معركة عامة. واســـتولى عنوة على خمس مدن هـــى بوســـيرديس (غيـــر معروفـــة) وكبتـــوس (فقـــط) وكيراميكى (البلات) وديوسبوليس ميجالى (طيبة) وأفيـــون (الكرنـــك). وأســـر زعماء تلك الثورات. وقاد الجيش إلى ما وراء شلال النيل، وهو مكان لم تبلغـــه من قبل قوات الشعب الرومانى أو ملوك مصر وأخضع طيبة، مصـــدر الـــذعر لجميع الملوك"(٩١).

لم تقتصر الثورات المصرية فى بداية العصر الرومانى علـــى طيبـــة، بـــل قامت ثورة أخرى شرقى الدلتا وبالتالى قاد كورنيليوس جاللوس جزءاً من قواته حيث هاجم الثوار فى هيرونوبوليس (تل المسخوطة) وقضى عليهم(٩٢).

هكذا بدأ المصريون يجربون حظهم مع الحكام الرومـــان الجـــدد، فـــأعلنوا ثورتهم فى طرف قصى بعيداً عن الإسكندرية حيث يتركز الحكـــم الرومـــانى، اختاروا منطقة طيبة فى أقصى الجنوب حيث معقل القومية المصـــرية، والتـــى كثيراً ما ثارت على البطالمة بزعامة كهنة آمون(٩٣)، ولذلك لاعجب أن ســـبقت غيرها من المدن المصرية إلى شق عصا الطاعة فى وجه الغـــزاة الجـــدد(٩٤). كذلك اندلعت الثورة فى أقصى شمال شرقى الدلتا إلا أن انتباه الحاكم الرومـــانى وكفاءة القوات الرومانية أدى إلى وأد الثورات قبل اســـتفحالها وانتشـــارها إلـــى أرجاء مصر. كذلك تعمد الحاكم الرومانى كورنيليوس جاللوس قيادة جيشه إلـــى ما بعد شلال النيل (الشلال الأول) وعلى ما يبدو أن الحاكم الرومانى لـــم يكـــن يقصد من خلال ذلك إخضاع النوبة، لأن ذلك خارج إمكانياته خاصة وأن سياسة الإمبراطور أغسطس فى الجنوب كانت تقتضى تأمين الحدود الجنوبيـــة وعـــدم

التوسع والاكتفاء بمناطق حرام تعترف بالسيادة الإسمية الرومانية متاخمة لحدود الإمبراطورية، تجنباً للنزاع مع الدول القريبة منها(٩٥).

ولاشك فى أن الرومان والبطالمة قبلهم توخوا فى سياستهم تجاه النوبة عدة أمور أهمها وقف غارات النوبيين على حدود مصر الجنوبية وتهديد الأمن، مما كان يعود بالضرر على مقومات الإنتاج، وثانيها قطع الصلات بين النوبة التى ظلت محافظة على تقاليدها الحضارية والدينية الفرعونية، وبين جنوبى مصر خاصة طيبة، لأجل منع تحريض النوبيين للمصريين على الثورة. ومع ذلك فإن النوبيين لم يلتزموا بالصلح الذى عقده الحاكم الرومانى كورنيليوس جاللوس مع ملكهم تريتيكاس وانتهزوا فرصة غياب الحاكم الثانى أيليوس جاللوس بقسم كبير من الحامية الرومانية فى الحملة على بلاد العرب، وأغاروا على جنوبى مصر بقيادة ملكتهم كنداكى، فخربوا فيله وألفانتين وأسوان وحملوا تماثيل أغسطس وأسروا الأهالى، مما اضطر بترونيوس ثالث الولاة الرومان إلى قيادة حملة لتأديب النوبيين وطاردهم حتى بسلكيس (الدكة) ثم بريموس (حصن آبريم)، ثم وصل إلى نباتا عند جبل بركل قرب الشلال الرابع وعندها تفاوض مع الملكة كنداكى واشترط أن تعيد الأسرى والتماثيل وبعدها انسحب إلى بريموس وحصنها وأقام بها حامية، إلا أن النوبيين استخفوا بحامية الرومان فى بريموس، فعاد بترونيوس وهاجمهم مرة أخرى وهزم النوبيين، وعندما أرسلت كنداكى سفارة تطلب الصلح حولها بترونيوس لمقابلة الإمبراطور أغسطس الذى كان يقضى الشتاء فى جزيرة ساموس، حيث تم عقد الصلح وبالتالى هدأت الحدود الجنوبية(٩٦).

والحق يقال إن مصر لم تعدم إبان العصر الرومانى فترات انتعاش اقتصادى واستتباب أمن مما حدا بالمصريين إلى الهدوء وعدم الثورة : فقد بلغ من هدوء الأوضاع فى مصر أن قام الإمبراطور تيبريويس بسحب إحدى الفرق العسكرية الثلاث التى كانت مرابطة فى مصر(٩٧). وعلى ما يبدو أن الإمبراطور قد اشتهر بالحزم مع الموظفين فحرص على إنصاف رعيته درءاً لحدوث اضطرابات، فعلى سبيل المثال عندما أرسل إليه الحاكم الرومانى أيميليوس ركتوس مقداراً من الغلال أكبر من المفروض جزية على مصر أرسل إليه الإمبراطور يذكره بأنه أرسله إلى مصر ليجز غنمها لا أن يسلخها(٩٨). ويبدو أنه لأجل إنصاف رعيته تم فى عهده استبدال نظام جباية الضرائب على يد محصلين حكوميين بنظام الالتزام المرهق. ومع ذلك فإن عهد تيبريوس شهد

بداية العمل بنظام الخدمات الإلزامية مما أوقع بمصـر أوخـم العواقـب فيمـا بعد[٩٩]. ومع ذلك لم يخلو عهد تيبريوس من نذر الثورة، إذ تشير بعض الوثائق إلى أن الحاكم الرومانى أفيليوس فلاكوس قد أصدر منشوراً فى عـام ٣٤/٣٥م حرم فيه على الأهالى حمل أو حيازة أسلحة وهدد فيه المخالفين بالإعـدام[١٠٠]. ولتفسير دواعى إصدار هذا القرار يرى الكاتب اليهودى فيلون أن فلاكوس كـان متحاملاً على اليهود، وأنه أمر بتفتيش منازلهم ومصادرة الأسلحة المخبأة بها إلا أنه لم يعثر فيها على شئ، بينما بعد فترة عثر على أكداس منها مخبأة فى بيوت المصريين[١٠١]. ويتبين من إحدى الوثائق[١٠٢]، أن فلاكوس قام بجولة فى مصر حتى وصل طيبة فى ٩ أغسطس عام ٣٣م وراءه كمية الأسـلحة التـى كـان يحوزها الأهالى، وبالتالى عندما عاد إلى الإسكندرية - أصدر هذا المنشور عام ٣٤/٣٥م. ويتهم فيلون اليهودى المصريين صراحة "الذين كثيراً ما ثاروا علـى السلطات التى ارتابت فى أنهم يدبرون ثورة جديدة"[١٠٣]. ويرى أحد الباحثين أن ذلك يبدو محتملاً، إذ أن المصريين بدأوا يضيقون ذرعـاً بتعسـف السـلطات المحلية ووطأة الاحتلال الرومانى[١٠٤]، وصاروا يعدون للثورة، إلا أن فلاكوس عمد إلى إجهاضها بمصادرة أسلحتهم التى لم يستطع المصريون تعويضها علـى ما يبدو بسهولة بسبب مراقبة الحكومة الدقيقة، ولاشك أنه كان لتلك الإجـراءات أثر فى مجريات الأمور بتخلى المصريين مؤقتاً عن ثوراتهم.

شهد عهد الإمبراطور كاليجولا انـدلاع الاضـطرابات بـين السـكندريين واليهود بمناسبة زيارة أجريبا هيروديس اليهودى ملك أيتوريـا فـى فلسـطين للإسكندرية وما صاحبها من اضطهاد حل باليهود على يد السـكندريين غـض الوالى إيميليوس فلاكوس الطرف عنه، ربما إرضاء للإمبراطور الـذى رفـض اليهود قبول فكرة ألوهيته التى قبل السكندريون الوثنيون بها، فأخذ الإمبراطـور جانبهم وانتهى الأمر بإرسال سفارتين واحدة سكندرية والثانية يهودية إلى رومـا لمقابلة الإمبراطور الذى بدا أنه عازم على التنكيل باليهود الذين لم ينقذهم مـن بطشه سوى اغتياله عام ٤١م[١٠٥].

أما الإمبراطور كلوديوس (٤١-٥٤م) فقد انتهج سياسة أكثر تسامحاً تجـاه اليهود فأصدر منشورين، أقر فى الأول حقوق اليهود فى الإسكندرية التى كـانوا يتمتعون بها فى عهد كاليجولا. ومنح فى الثانى الحقوق نفسها لجاليـاتهم فـى جميع أنحاء الإمبراطورية[١٠٦]. وبالتالى حاول اليهود رد الصاع للسكندريين فى ظل حكم إمبراطور يحدب عليهم وبالفعل حدثت اضـطرابات وردت الإشـارة

إليها[١٠٧]. وعندما هدأت الأمور أرسل اليهـود والسـكندريون سـفارتين إلـى الإمبراطور وكان أهم مطلبين هما طلب اليهود بحقوق المواطنـة الكاملـة فـى الإسكندرية مما كان سيهيأ لهم الحصول على المواطنة الرومانية، أمـا مطلـب السكندريين فكان إنشاء مجلس شورى Boule لمدينتهم[١٠٨].

وتجلت عبقرية الإمبراطور كلوديوس الدبلوماسية من رده على الطرفين فلم يلب طلب أى من الطرفين بل أنه أنذر كل من يرتكب أعمالاً عدوانيـة بـأوخم العواقب، ومنى من يخلد إلى الهدوء بالنظر فى طلبه بعين الجد[١٠٩]. وهكذا يبدو مما سلف أن السكندريين وحدهم الذين أثاروا الاضطرابات فى عهدى كـاليجولا وكلوديوس، ولا نسمع شيئاً عن نضال المصريين خلال تلك الفترة. ولاشك فـى أن مهاجمة السكندريين لليهود تندرج فى باب نضـالهم ضـد الرومـان، إذ أن اليهود كانوا صنائع الرومان وأنصارهم عند غزو الرومان لمصر، بل أن اليهود طمعوا فى الحصول على امتيازات كثيرة فى الإسكندرية فى ظل حكم الرومـان لم تكن لهم من قبل، وبالتالى صب السكندريون جام غضبهم على اليهود تنفيثـا عما يعتمل فى صدورهم من حقد على الحكم الرومانى، إذ أن مهاجمـة اليهـود أسلم عاقبة من مهاجمة الرومان أنفسهم، وبالتالى تحولت الكراهيـة العنصـرية لليهود إلى كراهية سياسية أيضاً[١١٠].

أما عهد نيرون (٥٤-٦٨م) فيتميز بأنه عهد هدوء فى مصر، بل إنه اهـتم بالإسكندرية، حيث أعاد تنظيم القبائل والأحيـاء بهـا[١١١]. بـل إن المـؤرخين القدامى يخبروننا بأنه عندما غربت شمس نيرون فى روما وتخلى عنه الجـيش وأحاطت به الأخطار فكر فى الفرار إلى مصـر، أو حتـى مناشـدة الشـعب الرومانى تعيينه حاكماً عليها[١١٢]. وعلى حين كانت سمعة نيرون فى روما سيئة فإنه حظى بسمعة طيبة فى مصر فقد وصفه المصريون فى بردية بمناسبة عيـد جلوسه على العرش بأنه "روح العالم الطيب، والإمبراطور المرتقب من الـدنيا وأمل الدنيا ومصدر كـل البركـات، ولـذا يجـب أن نرتـدى نحـن سـكان أوكسيرونخوس (البهنسا)، الأكاليل وننحـر الثيـران لجميـع الآلهـة عرفانـاً بجميلها"[١١٣]. ويصفه نقش يعود إلى منطقة الجيزة بأنه روح العالم الطيب[١١٤]. ووصفته بعض مسـكوكات الإسـكندرية التـى تحمـل صـورته بأنـه منقـذ المعمورة[١١٥]. وطالما أن نيرون قد حظى بسمعة طيبة لدى كل من المصـريين والسكندريين على حد سواء فاننا نجد عهده هادئاً يكاد لا يبدى أثراً لثورة اللهـم إلا اندلاع ثورة اليهود فى فلسطين عام ٦٦م تلك الثـورة التـى امتـدت إلـى

الإسكندرية ولم يجن منها اليهود سوى الخراب وتـدمير معبـدهم الكبيـر فـي أورشليم على يد تيتوس عام ٧٠م[١١٦].

لاشك أن نيرون لم يحظ وحده من بين الأباطرة الرومان بالسمعة الطيبة فى مصر، ولم يكن الوحيد كذلك الذى لم يشهد عهده ثورات قوميـة. فقـد عـرف الإمبراطور تراجان كذلك بعدله حتى أنه أعاد إلى مصر أسطولاً محملاً بـالقمح لتخفيف آثار المجاعة التى ترتبت [illegible]فاض فيضان النيل[١١٧]. ويبدو أن تلك الأعمال الخيرة لبعض الأباطرة قد [illegible]وعاً من الولاء لدى المصريين تجـاه شخص هذا الإمبراطور حتى أننا نجد المصريين يشاطرون الرومـان التصـدى للثورة اليهودية الكبرى (١١٣-١١٧م) والتى اندلعت من برقة ثم انتقلـت إلـى قبرص ثم إلى مصر، وارتكب اليهود خلالها الفظائع متذرعين فى ذلك بتـدمير معبدهم فى أورشليم عام ٧٠م. وفرض ضريبة الدينارين عليهم لصـالح معبـد جوبيتر الكابيتولى وإغلاق معبد أونياس فى ليونتوبوليس (تـل اليهوديـة) فـي مصر[١١٨]. وخلال تلك الأحداث بدت الحامية الرومانية فى مصر، والتـى تـم سحب إحدى فرقها، غير قادرة على التصدى للثوار اليهود مما اضـطرها إلـى التقهقر إلى الإسكندرية، وعاث اليهود فساداً فى أرجـاء مصـر، وإزاء تـأزم الموقف اضطرت السلطات الرومانية إلى تعبئة الفلاحين المصريين على عجـل لمواجهة تداعيات الموقف الخطير. وإن كان الثوار اليهود قد هزمـوا الفلاحـين المصريين عند إقليم هيروموبوليس فإن مرد ذلك أنه تم تجميع الفلاحـين علـى وجه السرعة دونما تدريب أو تسليح جيد ودفع بهم إلى المواجهـة مـع ثـوار مدربين[١١٩].

نتيجة لخطورة الأوضاع أرسلت السلطات المركزية الرمانية نجـدة بقيـادة ماركيوس توربو الذى استطاع بفضل تعاون اليونان والمصريين مـع الرومـان القضاء على ثورة اليهود، ومع ذلك ظلـت الاشـتباكات متفرقـة فـي أرجـاء مصر[١٢٠]. يبدو أن المصريين وقد أصابهم القدر الأكبر من الدمار على أيـدى السفاحين اليهود ظلوا يتذكرون أحداث تلك الثورة بعد مرورها بوقت كاف، بـل على ما يبدو كانوا فخورين بدورهم فى القضاء عليهم، وبالتالى كانوا يـذكرون الأباطرة الرومان بدورهم فيهـا، ففـي رسـالة مـن أحـد مـواطنى مدينـة أوكسيرونخوس إلى الإمبراطور سبتميوس سيفروس وابنه [illegible]ركلا يذكرهما بـأن أهالى مدينته قاتلوا إلى جانب الرومان فى حرب اليهود[١٢١].

ولأجل تبرير مسألة اشتراك المصريين إلى جانب الرومان فى قتال اليهود،

نحن لسنا من أنصار فكرة أن المصريين قد ألفوا الحكم الرومانى بطول العشرة، أو أن اشتراكهم فى قتال اليهود مع الرمان يدل على تبدل المواقع، وأن المصريين قد تحولوا إلى مدافعين عن الحكم الرومانى المنصف ضد ثورة اليهود الكفرة، كما يبدو من تفسير إحدى البرديات(١٢٢). بيد أننا نتبين من واقع الحال أن ثورة اليهود الكبرى وإن انتهت فى يوليو/ أغسطس عام ١١٧م إلا أنها تركت آثاراً بعيدة المدى فى نفوس السكان جميعاً، وتطلب إخمادها تكاتف جميع طوائف سكان مصر مع السلطات الرومانية، وكان لكل دوافعه فلاشك فى أن السلطات الرومانية كانت بحاجة إلى إعادة الهدوء والاستقرار إلى مصر حفاظاً على مواردها. أما اليونان بصفة عامة فى الإسكندرية أو الريف فلاشك أن موقفهم من اليهود معروف سلفاً، وقد تأثر يونان الريف خاصة كثيراً بثورة اليهود تلك التى كانت تجسيداً لسياسة الأرض المحروقة وكانت أعمال اليهود الوحشية موجهة مباشرة إلى اليونان وبالتالى التزم اليونان جانب الرومان منذ البداية. وعندما ساءت الأوضاع اضطر الرومان إلى حشد قوات من الفلاحين المصريين إلا أنهم نالوا الهزيمة مع الرومان واليونان، ويرجح البعض ذلك إلى انعدام الحافز لدى الفلاحين المصريين إلى القتال بحماس إلى جانب سلطة الاحتلال الرومانية، بل إن بعض المصريين قد ساعدوا الثوار اليهود(١٢٣). ومع ذلك، حقيقة أن المصريين كانوا يضيقون ذرعاً بالحكم الرومانى، إلا أنهم كانوا يكنون كراهية لليهود لا توصف، وبالتالى لا نتوقع أن المصريين نكاية فى الحكم الرومانى يتكاتفون كلية إلى جانب اليهود لإزالة الحكم الرومانى، ومن هنا يجب أن نضع فى الحسبان أن المصريين الذين ساعدوا اليهود كانوا أقلية ناقمة مقهورة، إما من الفلاحين الذين أرهقتهم الضرائب وفروا من مواطنهم anachoresis وانضموا إلى عصابات قطاع الطرق واللصوص، وبالتالى وجدوا فى ثورة اليهود فرصة للتخلص من الحكم الرومانى الظالم، وإما من مزارعى أراضى الدولة الذين فرضت عليهم السلطات الرومانية إيواء الجنود فى منازلهم وتقديم المؤن لهم(١٢٤).

وفيما عدا تلك الفئات الناقمة على الرومان لم يكن لدى جمهور المصريين من الدوافع ما تجعلهم يمدون يد العون لليهود فى ثورتهم، بل إن العدواة كانت مستحكمة بين الشعبين منذ أقدم العصور لأسباب دينية وعنصرية، إضافة إلى أن الثوار اليهود قد اتسموا بالحقد الدفين على غيرهم من الأقوام، وبالتالى تشير القرائن إلى أنهم بيتوا النية خلال ثورتهم الكبرى على إبادة الطوائف الأخرى

دون تمييز، وبالتالى تم إزهاق آلاف من الأرواح وتدمير ممتلكات كل من عـدا اليهود، وبطبيعة الحال كان المصريون هم الطبقة الاجتماعية الأعرض والأكثـر سكاناً والأقل فى توافر عوامل الأمن، وبالتالى نالهم القسط الأكبـر مـن انتقـام اليهود، وكرد فعل لذلك انضموا إلى جانب الرومان لأجل القضاء علـى هوجـة اليهود. ويبدو أن ذكرى الثورة اليهودية لم تمح من أذهان المصريين، حتى بعـد مرور أعوام طويلة على القضاء عليها، فتشير إحدى الوثائق البردية إلى أن أهل أوكسيرونخوس كانوا لا يزالون يحتفلون بذكرى الانتصار علـى اليهـود بعـد مرور حوالى ٨٥ عاماً على القضاء على ثورتهم(١٢٥).

لم يدم الوفاق والتعاون الطارئ طويلاً بين الرومان والمصـريين بمناسـبة الثورة اليهودية الكبرى، إذ سرعان ما ظهر التباين فى وجهات النظر بعد زوال الخطر المشترك وبالتالى عاد كل إلى خندقه السابق، فالرومـان هـم السـلطة الحاكمة المحتلة التى فرضت الضرائب والخدمات الإلزامية، تلك الأعباء التـى أرهقت المصريين وبالتالى هيأتهم للثورة، بيد أنها لم تندلع فى عهدى تراجان أو هادريان بسبب جهودهما فى وضع الأمور فى نصابها، بل إن الجميـع شـغلوا بالقضاء على الثورة اليهودية مما صرفهم مؤقتاً عن الصدام معاً.

أما الإمبراطور أنطونينوس بيوس (١٣٨-١٦١م) فقد سلك تجاه رعاياه ذلك المسلك الطيب الذى جعله جديراً بحمل لقب التقـى Pius وكـان عهـده خيـراً ورفاهية لدى كل المصريين حتى أنهم لقبوه بلقب روح مصر الخيرة، وبالتـالى خلد المصريون فى عهده إلى الراحة. إلا أنه عكر صفو السـلام فـى عصـره نشوب أعمال شغب طائفية فى الإسكندرية بين السكندريين واليهود سقط خلالهـا الحاكم الرومانى صريعاً، ويحتمل أنه كان لوكيوس موناتيوس فيليكس وقد ألحق بالمدينة خراباً كبير، وسبب غضب الإمبراطور الذى اضطر إلى القيام بزيـارة عاجلة إلى المدينة لتهدئة الأمور، أقام خلالها الإمبراطور عدة منشآت هامة فـى الإسكندرية(١٢٦).

أما الأمبراطور ماركوس أوريليوس فأن رأى المصريين فيه بدا من إحـدى البرديات التى تحمل أحد أعمال الشهداء الوثنيين التـى تحـوى منـاظرة بـين الإمبراطور كومودوس وأبياتوس مدير معهد التربية فـى الإسـكندرية، فيقـول أبيانوس مخاطباً الإمبراطور "أن ماركوس (أوريليوس) المؤله أباك كـان خليقـاً بأن يكون إمبراطوراً، تذكر أنه كان فى المقام الأول فيلسوفاً وثانياً أنه لم يكـن يلهث وراء المال وثالثاً كان محباً للخير"(١٢٧). إلا أن الغريب أن تندلع فى عهده

أكبر ثورة شهدتها مصر فى العصر الرومانى فى عام ١٧٢/١٧٣م. اندلعت تلك الثورة فى أحراش الدلتا ولذا عرفت بثورة المراعى Bucolia، ويصـــفها بعــض الباحثين بأنها ثورة الرعيان أو حتى ثورة الفلاحين(١٢٨). توافر لتلك الثورة قــدر من التنظيم وتزعمها الكاهن المصرى أيسيدوروس، مما يشير إلى زيـــادة نمــو الشعور القومى المصرى، وانضم إلى جمــوع الثــورة أرتــال مــن الفلاحــين المزودين بالأسلحة البدائية، بيد أنه توافر لتلك الثورة مجموعـــة مـــن العوامــل الخارجية التى أدت إلى قوة تلك الثورة وطول مدتها وعجز القــوات الرومانيـــة الموجودة فى مصر عن القضاء عليها، فقد اجتـــاح الطـــاعون الإمبراطوريـــة الرومانية مما أدى إلى موت أعداد غفيرة من السكان وأضعف قبضـــة الســلطة المركزية. واختار الثوار توقيتاً مناسباً يتمثل فى قيـــام الإمبراطـــور مـــاركوس أوريليوس بسحب فرقة تراجان الثانية، إحدى فرقتين عسكريتين رومانيتين كانتا متمركزتين فى مصر، للمساعدة فى الحرب ضد قبائل الماركومانى الجرمانيـــة التى كانت تضغط على حدود الإمبراطورية الرومانيـــة الشـــمالية عنـــد نهــر الدانوب(١٢٩). كذلك استغل الثوار نقاط الضعف فى العســـكرية الرومانيـــة مثـــل لجوئهم إلى حرب العصابات التى لم تألفها القوات العسكرية الرومانية النظاميـــة والتى تعودت على الحروب المكشوفة المنظمة(١٣٠)، واختاروا مسرح العمليـــات منطقة أحراش ومستنقعات يصعب فيها تتبع أثر الثوار.

بدأ أيسودوروس وأتباعه ثورتهم على هيئـــة العصـــابات، وتـــذكر بعــض الروايات أنه تخفى وبعض أتباعه فى زى نساء أقبلن لدفع الضرائب ،وقتلوا قائد المائه Centurion الذى كان مسئولاً عن الأمن فى المنطقة، ثم أكلوا لحوم القتلى وأقسموا يمين الولاء للثورة حتى النهاية(١٣١).

عندما حاولت القوات الرومانية القضاء على الثورة لاقت هزيمة فانســحبت إلى الإسكندرية يتبعها الثوار، ولما لم تكن فى الإسكندرية - قوات رومانية كافية للدفاع عنها فأنها كادت تسقط فى أيديهم(١٣٢).

إزاء عجزها عن التصدى للثوار طلبت السلطات الرومانيـــة فـــى مصـــر تعزيزات عسكرية من سوريا، حيث كان يتولى القيادة العسكرية القائد الرومـــانى الشهير أفيديوس كاسيوس وكان من القواد العسكريين الطموحين للحصول علـــى انتصارات تضاف إلى سجله العسكرى. وبالتالى ظن أنها ثورة فلاحـــين ســـذج يسهل القضاء عليها، وأن قوات الثورة من الفلاحين سوف يتم قهرها عنـــد أول اشتباك، أو أنها سوف تنفض بمجرد ظهور القوات الرومانية، إلا أن أفيـــديوس

كاسيوس وجد الأمر مختلفاً وأن الثورة فى الأحــراش والمســتنقعات يمكــن أن تستمر طويلاً، بل قد تنمو وتتوسع إلى مناطق أخرى فى مصر، خاصــةً وأنــه تزعمها كاهن له نفوذ روحى على الناس - وبالتالى لجأ افيديوس كاسيوس إلــى الحيلة والوقيعة بين صفوف الثوار وصار يؤلبهم على بعض، وبالفعــل نجحــت خطته وقاتل الثوار بعضهم بعضاً وتصيدهم منفردين وبالتالى استطاع أفيــديوس كاسيوس القضاء على تلك الثورة التى هددت بالفعل الوجود الرومانى فى مصر لأول مرة تهديداً حقيقياً(١٣٣). يبدو أن انتصار أفيديوس كاسيوس على الثورة فى مصر قد ملأه غروراً ، وبالتالى عندما وصلته أنباء كاذبة عن وفاة الإمبراطــور ماركوس أوريليوس تشجع وأعلن نفسه إمبراطوراً، والغريب أن تؤيده مصر أو على الأقل الإسكندرية بطبيعة الحال نكاية فى السلطة المركزية الرومانية لاحبــاً فيه، تلك المحاولة الانقلابية التى باءت بالفشل(١٣٤). ومع ذلك كانت ثورة الرعاة فى الدلتا آخر ما يستحق الذكر من الثورات القومية بشكلها الإيجابى على الحكم الرومانى فيما تبقى من فترة الدراسة.

أما فيما يتعلق بالمقاومة السلبية لدى المصريين ضد الحكم الرومــانى فقــد تنوعت مجالاتها:

أولاً : الدعاية السياسة : عبر المصريون عن كراهيتهم للحكــم الرومــانى بالقلم كما عبروا بالسيف، وعلى حين ظهرت أعمال الشــهداء الــوثنيين لــدى السكندريين فى إطار الدعاية السياسية ضــد الحكــم الرومــانى، صــار لــدى المصريين كتابات خاصة بهم تناوئ الحكم الرومــانى أيضــاً، اتخــذت طــابع النبوءات الكهنوتية تلك التى كتبت باللغة اليونانية أيضاً حتى يقرأها أكبــر عــدد من الناس(١٣٥). وتنبأت تلك الكتابات بالسقوط الوشيك للحكام الطغــاة الفاســقين، وتبشر ببداية عصر ذهبى جديد ينعم فيه المصريون بالسعادة بعد تخلصهم مــن القهر. وأطول جذاذة بردية وصلت إلينا من هذا النوع تحمــل عنــوان "نبــوءة الفخرانى" تلك النبوءة التى أرجعت إلى العصر الفرعونى، وفى إحدى أكمل تلك الجذاذات البردية، يقول صانع الفخار "بالنسبة لغير الأتقياء، فإن ملكاً من سوريا سوف يتغلب عليهم.. وسوف يجافيهم الحظ السعيد. ويذل أقاربهم وستعم أرضهم الفوضى حتى لا يبقى منها إلا مجرد أثر.... وسوف تتجه كــل الأشــياء نحــو الغاية نفسها من أجل خدمة الواحد... وسوف يضــرب المــوت (بعنــف) فــى المناطق المرتفعة وسوف تهجر مدينة لابسى الأحزمة، والعبيــد ســيتحررون، وسيحرم سادتهم من الحياة. وستفسد بناتهم العذارى، وسيخصى الرجــال أزواج

بناتهم ويأتون الفحشاء بأمهاتهم. وسوف يضطرون للتضحية بأبنائهم الذكور وبأنفسهم....وسوف يهجر الإله الحامي مدينتهم ويتركها خراباً، ويذهب إلى ممفيس حاملة الآلهة. وسيكون ذلك نهاية آلامنا. حين ... مدينة لابسي الأحزمة تصير خاوية كموقدى جزاء ما ارتكبوه من أعمال مخالفة للقانون. وسيعود العدل إلى مصر. وستصير المدينة المجاورة للبحر مكاناً للصيادين يجففون فيها صيدهم لأن كنيفيس الأله الحامى سوف يذهب إلى ممفيس حتى يقول المارة "هذه المدينة الجامعة التى يعيش فيها كافة أجناس البشر" وعندئذ سوف تنمو مصر عندما ... موزع الهبات يأتى من الشمس، ويحتل مركزه هناك بفضل الإلهة إيزيس العظمى، لدرجة أن أولئك الذين سيكونون أحياء فى ذلك الوقت سيصلون وينهض الأموات ليشاركوا فى النعم التى تأتى بعد انتهاء الآلام"(١٣٦).

لم تتوقف مقاومة المصريين السلبية عند حدود الأمانى والنبوءات وتمنى زوال الحكم الرمانى، إنما أجاد المصريون نمطاً آخر من ذلك النوع من المقاومة أكثر فاعلية، ونعنى به الإضراب عن العمل والنزوح من الموطن، وقد امتلأ العصر الرومانى بانتفاضات وإضرابات بطبيعة الحال من جراء ثقل عبء الضرائب أو الانخراط الإجبارى فى الخدمات الالزامية.

كان يجرى تعداد للسكان كل أربعة عشر عاماً، كان يتم تعديله طبقاً للتغييرات التى تحدث من عام لآخر بمعرفة كاتب المدينة أو القرية، كذلك كان مسح الأرض يقدم البيانات الضرورية لتقدير الضرائب على الأرض ومنتجاتها(١٣٧). لم تعرف أى من حكومات العالم القديم وربما الحديث نظاماً ضريبياً أعقد من النظام الضريبى الذى كان سائداً فى مصر الرومانية، وتعكس لنا الأعداد الكبيرة من البرديات المكتشفة المتعلقة بالضرائب مجموعة هائلة من الضرائب المباشرة والضرائب الإضافية التى فرضت فى العصر الرومانى على الفرد والأرض والمهن والخدمات والمبيعات والتحويلات وحركة البضائع والناس والملكية العقارية والشخصية(١٣٨). خليط مذهل من الضرائب الأصلية والإضافية، زاد عددها على المائة ضريبة. كذلك كانت قسوة الموظفين وجامعى الضرائب موضوع شكوى مزمنة فى كل أقاليم الإمبراطورية و ليس فى مصر وحدها. ويبدو أن الناس لم يستشعروا الحكم الرومانى فى البداية إلا من خلال كفاءة التحصيل على عكس القبضة المتراخية عند أواخر الحكم البطلمى(١٣٩).

وجد الرومان عند فتحهم لمصر نظام جمع الضرائب عن طريق الالتزام، أى منح حق جمعها لأعلى متزايد، وبالتالى احتفظوا به دون تغيير لحوالى مائة

سنة الأولى من حكمهم. وقد كان الملتزم يهدف إلى تحقيق ربح كبير لنفسه إضافة إلى جمع الضرائب التى التزم جبايتها، وبالتالى كان يستخدم كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لابتزاز دافعى الضرائب البائسين لتحقيق الثراء السريع، وكان لا يتورع عن استخدام كل ما أوتى من قوة لإرهاب الأهالى وإساءة معاملتهم للحصول على ثمرة كدهم طوال العام حتى غدا جباة الضرائب نموذجاً للجشع وإساءة استخدام السلطة حتى فى الأناجيل[١٤٠]. وحتى فيلون اليهودى وصف سوء سلوك جباة الضرائب بشكل مؤثر وأنه لم يكن ينجو من عقابهم الأطفال والنساء أو أقارب دافعى الضرائب الذين كانوا يتأخرون أو يعجزون عن دفعها، وأن كثيراً ممن تأخروا عن دفع الضرائب اضطروا للفرار خوفاً من العقاب الذى لا يحتمل، والذى كان يتنوع من الركل والصفع أو الجر فى الشوارع والتشهير أو حتى القتل، وبالتالى كان يضطر من بقى فى القرى إلى الهروب خوفاً من وحشية جباة الضرائب وبالتالى أصبحت قرى بأكملها مهجورة تخلو من سكانها الذين لجأوا إلى أماكن ظنوا أنهم فيها بمأمن من أيدى هؤلاء الوحوش[١٤١].

وليس أدل على مدى ما كان يحيق بدافعى الضرائب على يد جباتها من شكوى فلاح تعود إلى عام ١٩٣م جاء فيها "إلى أمونيوس باتيرنوس، قائد مائة، من سيروس بن سيريون الشهير بتبيركاس من العاصمة أرسينوى، أنا وأخى سلمنا فى شهر بئونة كل الضرائب التى ندين بها حبوباً، وكذلك تسعة من العشرة أرادب المضافة علينا فى قرية كرانيس، والآن بسبب الأردب الباقى، اقتحم جباة ضرائب القمح بيتيسيوس بن توكليو وسارابيون بن مارون وكاتبهما بطلميوس فضلاً عن مساعدهما أمونيوس، منزلى بينما كنت فى الحقل، ومزقوا ثوب أمى وألقوا بها على الأرض، ونتيجة لذلك لازمت الفراش وأصبحت عاجزة عن الحركة، ولذا أطلب أن يتم استدعاؤهم أمامك، بحيث أحصل على العدالة على يديك، التوقيع والتاريخ"[١٤٢]. وبالتالى إزاء هذه الأوضاع المتردية المفعمة بالقسوة شاعت الرشوة والفساد[١٤٣] إذ صار الضعفاء يشترون حماية الأقوياء، وحتى تلك الحيلة لم تكن حلاً جذرياً لانعدام الأمن ، وبالتالى لم يعد أمام المقصرين فى دفع الضرائب سوى الهروب anachoresis، وكان ذلك يمثل الحل النهائى للفلاح المصرى عندما تصبح الظروف غير محتملة، فلم يكن الفلاح المصرى ولايزال عازفاً عن البعد عن مواطنه مرتبطاً بأرضه، ومن المعروف أن المعابد المصرية ظلت منذ عهد الفراعنة وحتى العصر البطلمى

تتمتع بحق حماية اللاجئين asulia، ولذا كان الهاربون من الفلاحين لا يبعـدون كثيراً عن مواطنهم ، إذ كانوا يفضلون اللجوء إلى حرم أحد المعابد على أمل أن يعودوا إلى منازلهم وأعمالهم ، متى هدأت الأحوال أو صدر قرار للعفو. أما فى العصر الرومانى فقد ظهرت عدة مستجدات بشأن تلك الظاهرة على سبيل المثال انضمام فئات اجتماعية أخرى، خلا الفلاحين إلى تلك الظاهرة، كذلك فإن الغيبة فى هذه المرة صارت أطول وأحياناً تصبح دائمة.

لم تعد طبقة الفلاحين وحدها المتذمرة فى العصر الرومانى بل إن الحرفيين قد أصابهم التذمر بسبب الأعباء المفرطة من ضرائب وخـدمات إلزاميـة[١٤٤]. ومن جراء حرمان المعابد المصرية من حق حمايـة اللاجئـين فـى العصـر الرومانى، إذ لا تشير أية بردية إلى هذا الأمر، وبالتالى لم يعد بإمكان الفـارين اللجوء إلى المعبد القريب من وطنهم، بل صاروا يتجهون إما إلى المدن اليونانية فى مصر وبخاصة الإسكندرية، وإما الفرار إلى الأمـاكن النائيـة والأحـراش والمستنقعات. وفى حالة لجوئهم إلى المدن الكبيـرة والإسـكندرية لـم ينعمـوا بالراحة، إذ أن السلطات المحلية فى مصر وحتى الأباطرة، مثل كاركلا، كـانوا يصدرون قراراً "بعودة الريفيين الذين فروا إلى الإسكندرية من مناطق أخـرى"، وبالتالى لم يجد هؤلاء الذين أغلقت أمامهم أبواب المعابد والمدن اليونانية سـوى الانضمام إلى جماعات السطو والجماعات الخارجة عن القانون، الـذين شـكلوا عبئاً خطيراً على الإدارة الرومانية بخلق جو من عدم الأمن أثر على الإنتـاج، وكذلك حرم المجتمع ثمرة كدهم ، بل إنهم سطوا على ثمرة جهد الذين ظلوا فى العمل فى مواطنهم على حين حرم المجتمع جهدهم[١٤٥]. ومع ذلك لم يغلق بـاب التوبة بالمرة أمام الهاربين، إذ أنه فى أحيان كثيرة خاصة فى أوقـات التعـداد كانت الحكومة تضطر لإصدار عفو ضريبى كإغراء للفارين على العـودة إلـى ديارهم، إلا أن آثار تلك القرارات كانت وقتية، ولذا استمرت المشـكلة قائمـة. فتحمل إحدى الوثائق التى تعود إلى عام ١٥٤م قراراً للحاكم يعلن فيه عفواً لمدة ثلاثة أشهر يسمح خلالها للخارجين على القانون بالعودة إلى بيوتهم دون عقاب، إلا أنه هدد بأن من يتم القبض عليهم بعد ذلك يعاملون معاملة مرتكبـى أعمـال السطو[١٤٦]. وكان يتم إدراج أسماء الهاربين فى قوائم الفارين الذين ليس لـديهم ممتلكات، بناءً على بلاغ من ذويهم، وكان موظفو المدينة أو القرية يمدون جبـاة الضرائب بقوائم بأسماء "الرجال الذين فروا إلى أماكن غير معروفة"[١٤٧].

أما الخدمات الإلزامية munera فقد عرفها اليونـان باسـم Leitourgia أى

الخدمة من أجل الشعب، أما الرومان فقد طوروه إلى مفهوم أوسع، فلم تعد الخدمات الإلزامية حكراً على الإغنياء كما عرفها اليونان، بل امتد ليصل إلى أبعد القرى ويشمل كل مستويات السكان، ماعدا من تمتعوا بإعفاءات، مثل المواطنين الرومان والسكندريين وإغريق الحضر والأبطال الرياضيين وأعضاء المهن العلمية وآباء الخمسة أطفال والنساء، وقسم الرومان الأعمال الإلزامية إلى نوعين : العمل اليدوى فى إصلاح الجسور وقنوات الرى والسدود، والعمل فى بعض الوظائف ذات النفقات[١٤٨]. وبالتالى كان من الطبيعى أن يخلق عبء الخدمات الإلزامية أيضاً حصته من الفارين، بل إن بعضهم قد فروا بمجرد أن شكوا أنهم سيعينون فى وظائف إلزامية[١٤٩]، أو حتى تنازل عن ثروته بدلاً من تولى الوظيفة الإلزامية[١٥٠]. ومع أن قرارات العفو كانت تشكل نوعاً من المسكنات المؤقتة لأدواء فتاكة صارت بتوالى الأيام حالة ميئوساً منها، واستمرت الحكومة الرومانية تعانى من مشكلات خلقتها هى، خاصة قلة الأيدى العاملة وتدنى الموارد ونشاط عصابات اللصوص وقطاع الطرق[١٥١]. ومع ذلك لا نتوقع أن كامل المجتمع قد شارك فى عملية الهروب، بل ظلت تعمل وتدفع الضرائب وتحيا!.

وعلى الرغم من طول فترة الدراسة، والتى تمتد إلى ما يزيد على الثلاثة قرون (٣٠ق.م - ٢٨٤م)، وتغطى فترة أطول زمناً من العصر البطلمى (٣٢٣-٣٠ق.م) فإننا إذا ما عقدنا مقارنة بين الثورات القومية المصرية، من حيث العدد، والاتساع والخطورة، بين الفترتين البطلمية والرومانية نجد نصيب الأسد للعصر البطلمى، رغم زيادة الأسباب التى كانت تدفع إلى الثورة فى العصر الرومانى، وبالتالى لابد من تحرى الأسباب التى قللت من عدد الثورات المصرية القومية فى العصر الرومانى وخطورتها.

ومن خلال استقراء صفحة تاريخ مصر فى العصر الرومانى يتبين أن هناك بعض الأسباب التى أدت إلى قلة الثورات المصرية القومية فى ذلك العصر، بطبيعة الحال بعضها يبدو مقبولاً والبعض الآخر تجافيه الحقيقة، ومن ذلك النوع الأخير، أن الازدهار الاقتصادى الذى ترتب على سياسة أغسطس وخلفائه قد انعكس أثره إيجابياً على شتى نواحى الحياة فى مصر وبالتالى صرف المصريين عن القيام بالثورة[١٥٢]. إلا إن واقع الحال يؤكد أن ذلك الرخاء الذى ظهر فى عهد أغسطس، والأباطرة الصالحين لم يمنع من أن تنشب أكبر الثورات المصرية القومية فى عهدهم، أى أن ذلك لم يكن سبباً قوياً لوقف

ثورات المصريين على الرومان[١٥٣] .

لاشك أن كفاءة الإدارة الرومانية فى مصر قد أدى إلى حــل الكثيــر مــن المشكلات التى ترتبت على انهيار الجهاز الحكومى عند أواخر عصر البطالمــة وساعد تراخى قبضة البطالمة على زمام الأمور على إذكاء نار الثورة القوميــة المصرية، إلا أن كفاءة الإدارة الرومانية أبــرزت فاعليــة الجهــاز الحكــومى الرومانى وبالتالى أغلقت بابا هاماً من أبواب التذمر والثورة.

لا يمكن أن نغفل دور الحامية الرومانية كبيرة العد والعدة، والتى تألفت من ثلاث فرق رومانية Legiones، وعدة كتائب Cohertes، تم توزيعها بعناية على مداخل المناطق الحساسة على طول مصر والإسكندرية لدفع الأخطار الخارجية، وعند ملتقى الوادى والدلتا وقرب المدن الكبيرة لقمع الاضــطرابات الداخليــة، وبالتالى لاشك فى أن وجود جنود محترفين مرابطين مزودين بأحدث الأســلحة فى معسكراتهم على مرأى ومسمع من المصريين قد جعلهم يخشون بأسهم أكثر من قوات البطالمة المرتزقة التى عاشت حياة الإقطــاعيين فــى الريــف ويــتم تجميعهم وقت حدوث خطر خارجى، أما الأخطار الداخلية فى كثير من الأحيان فى العصر البطلمى فكان يتصدى لها جهاز الشرطة، وبالتالى أحجم المصــريون عن الثورة بسبب أو بدون سبب كما كان يحدث فى العصر البطلمى[١٥٤]. وهــذا يبدو سبباً وجيهاً.

أضف إلى ذلك أنه عرف عن المصريين الولاء لآلهتهم وتعلقهم بــديانتهم، ولذا كانوا يثورون لأتفه الأسباب المتعلقة بديانتهم ، أو إذا ما مستها شبهة عــدم احترام، أو إذا ما تجرأت السلطة الأجنبية الحاكمة على تقاليدها الموروثة. أمــا وقد عرف عن الرومان التسامح الدينى مع الأمم التى خضعت لحكمهم، وبالتالى حافظوا، فى إطار سياستهم المعروفة بالحفاظ على الأوضاع الراهنة، للمصريين على ديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم وبالتالى لم ينكأوا ذلك الوتر الحساس الذى كثيراً ما تسبب فى ثورة المصريين إذا ما تعرض لأى تدخل[١٥٥]. ومع ذلــك لايبــدو ذلك سبباً كافياً، فقد احترم البطالمة الديانة المصرية ومع ذلك انــدلعت ثــوراتهم ضد البطالمة.

عمل الرومان على التفريق بين الآلهة المصرية وبين الكهنة، فعلــى حــين منحوا الآلهة المصرية، خاصة الربة إيزيس، الاحترام والتقديس كافة [١٥٦]، لــم يعاملوا كهنة الآلهة المعاملة نفسها، ويرى أحد الباحثين أن تاريخ مصر خــلال

الألف سنة الأخيرة قبل الفتح الرومانى يتميز بتـأرجح السـلطة بـين الملـوك والكهنة[١٥٧]. لكن بعد ضم مصر إلى حـوزة الإمبراطوريـة الرومانيـة أقـام أغسطس نظاماً للسيطرة على الكهنة أدى بشكل واضح إلى تقليل الثروة الضخمة فى أيدى الكهنة وكبح جماح تأثيرهم السياسى الذى مارسوه أيام الحكم الضـعيف للملوك البطالمة الأواخر، فتم الحد من أعدادهم ومعابدهم وملكيـتهم لـلأرض، وخضعت سجلاتهم الشخصية وحساباتهم المالية لمحاسبات منتظمـة قـام بهـا ممثلون عن الخزانة Privy Purse كما حرموا مع التهديد بالعقاب الشـديد مـن الاشتراك فى أى نشاط غير متصل بخدمتهم الدينية. وقد أكـد المرسـوم الـذى أصدره الحاكم جايوس تورانيوس فى العام ٤ ق.م. لتحجيم المؤسسة الكهنوتيـة "أننى آمر (المعابد) بتسجيل كهنتهم بالوراثة وتلاميذهم وكل من ينتمـى للمعابـد وأولادهم. (كما آمر) بتوضيح الوظائف التى يقومون بها وحينئذ سـأقوم حـالاً بعزل أولئك الذين ليسوا من أصل كهنوتى"[١٥٨]. ولم يعد الكهنة يعفون تلقائياً من الضرائب أو أداء الخدمات الإلزامية، وعندما تخلو إحدى الوظائف فـى المعبـد لعدم وجود من يخلف صاحبها كانت الدولة تقوم ببيعهـا لمـن يعـرض ثمنـاً أعلى[١٥٩]. كذلك تم تجريد المعابد المصرية من حق حماية اللاجئـين والـذى تصمت عنه وثائق العصر الرومانى كليةً مما يفيد إلغائه، ويبدو أن أغسطس هو الذى أوقف العمل بهذا الامتياز للمعابد المصرية[١٦٠]، كذلك نقلت إدارة أراضـى المعابد إلى أيدى بعض موظفى الدولة الذين أصبحوا يتولون تأجيرها بدلاً مـن الكهنة ، وبالتالى أصبح الكهنة يعتمدون على إعانات الدولة، وبالتالى تـم نقـل إدارة أراضى المعابد لبعض موظفى الدولة الذين يتولون تأجيرهـا بـدلا مـن الكهنة، وسيرا على نفس السياسة وضع أغسطس موظفاً رومانياً إدارياً للإشراف على كل ما يتصل بالديانة والمعابد فى مصر كان يلقب بلقب "الكـاهن الأعظـم للإسكندرية وكل مصر"[١٦١]، وبالتالي توخى الرومان من تلك الإجراءات عـدم تمرد الكهنة أو أن يتحولوا إلى طليعة العمل الوطنى والقومى، كما كـانوا فـى عصور الفراعنة والبطالمة، وما عدا ثورة الرعاة ١٥٢/١٥٣م لا نسمع عن أية ثورة قادها الكهنة.

ولا ننسى بحال دور الديانة المسيحية التى دخلت مصـر مبكـراً، إذ يعـد القديس مرقس الـذى جمـع أول أنجيـل فـى عـام ٦٥م، أول آبـاء كنيسـة الإسكندرية[١٦٢]. وإبان القرن الثالث على الاقل كان يوجد اثنان من الأساقفة فى عاصمتين من عواصم المديريات هما لوكوبوليس وأوكسـيرونخوس، وبعـدهما

أنطينوبوليس(١٦٣). ولاشك فى أن ما حملته المسيحية من تعاليم سماوية سـامية جذبت انتباه الناس فى مصر فاعتنقوها وبالتالى تأثروا بتعاليمها التى تدعو إلـى نبذ الدنيا وشرورها وإلى التوجه إلى ملكوت الله، وإلى ضرورة تحمل آثام الدنيا لأجل الفوز بالجنة. وبالتالى عد المصريون الصبر على موبقات الحكم الرومانى أحد مسوغات الفوز بالجنة، فانصرفوا عن التعبير عن سخطهم على الرومان إما بالثورة أو السخط. كذلك وفرت المسيحية بالحركة الديريـة التـى قامـت فـى الصحارى والمناطق النائية ملاذاً آمناً للهاربين من ظلم الحكم الرومـانى، بـدلاً من الانضمام إلى عصابات اللصوص وقطاع الطرق، مما وفـر الأمـن نوعـاً ما(١٦٤)، وقلل من ثورات المصريين.

وأخيراً فقد تعب المصريون من طول الكفاح الذى دام لأكثر من ستة قرون لأجل تحقيق هدفهم المنشود بطرد الحكام الأجانب بداية من الآشوريين ثم الفرس واليونان وأخيراً الرومان. ولم يعد بإمكانهم مواصلة الكفاح والثورات تلك التـى هدفوا من ورائها إلى طرد الحكام الأجانب وإقامة دولـتهم الوطنيـة القوميـة. وطالما أنهم لم يفوزوا من وراء تلك الثورات إلا بالخراب والدمار، فإنهم خلـدوا إلى الراحة، ورضوا بحكم الواقع ، وبالتالى كان العصر الرومانى خاصـة أقـل عصور الاحتلال الأجنبى لمصر فى عدد الثورات وخطورتهـا ، رغـم أنهـا أطول عصور الاحتلال الأجنبى لمصر وأقساها.

الهوامش

(١) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق ١٩٧٩، ص ٣١.

(٢) إبراهيم نصحى، تاريخ مصر فى عصر البطالمة، الجزء الرابع ١٩٨١، ص ص ١٠٧-١١٢.

(٣) نفتالى لويس، مصر الرومانية، ترجمة فوزى مكاوى ، الهيئـة المصـرية العامـة للكتـاب، ١٩٩٤، ص٢٣٣

(٤) Tacitus, Ann. II 59; Hist. II 82,

- عبد اللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البرديـة، دار النهضة العربية ١٩٨٨، ص٥٣.

(٥) A. Gardiner, The Turin Canon of Kings, London, 1952, 1959.

- عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ص ١٨-١٨٦.

(٦) J.Van Seiers, The Kyksos, 1866

- راجع، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص١٨٨،

(٧) A. Gardiner and Gunn., J.E.A.;V., pp.4ff; Gardiner, Late Egyptian Stories, 1932, p.58f; Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 167f;

- عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ص ١٩١-١٩٢

(٨) E.Wilson, In Ancient Near East Textes, 1955, p.378; D.J. Hogarth, J.E.A.I, 9f; H.Breasted, Ancient Records II, 39; P.Montet, Byblos et Egypte, p.35f, pl. XXVIII, 2; Edgerton and Wilson, Historical Records of Ramses III, 1936,

(٩) Olmsted, History of Assyria, p.748; Herod-II 157;

- عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ص ٢٧٢-٢٧٨.

(١٠) Diod- XIV, 10, XV, 41-43; Plut, Agesilovs, 23, 3f M. Ponser La Premiére domination Perce en Egypte 1936.

(١١) Diod, XIV, 10, XV, 141-43; Xenophbon, Agesitaus II, 27

(١٢) Arrian, I, 1,2, II, 14, 4; Doid., XVI, 40, 44, 48.

(١٣) A. Bevan, History of Egypt under ptolemaic dynasty p.1; Rostovtzeff, Ancient World, I, p.232; I.Bell. Egypt from Alexander to Arab Conquest, 1948, p.28.

(١٤) Arrina., Anab. III 1,1; C.A.H., VI, p.376.

(١٥) نصحى، مرجع سابق، جـ١، ص١٩.

(١٦) P. Jouguet, Les Destinées de l'Hellensime dans L'egypte Greco-Romaine, Chr. D'Eg.1935, pp. 95-96; Rostovtzeff, Social and Economic History of Hellenistic world, 3vols 1941, pp.263-65; Bouche-Ledercq, Histoire des Lagides, 4 vols Paris 1903-7; IV p.4;

- نصحى، جـ٢، ص٢٧١، جـ٣، ص٢٧٣

(١٧) P.Jouguet, L'Impérialisme macedonien et l'hellenistation de l'orient, Paris 1926, p.333.

(١٨) Rostovtzeff, Soc. And Eco. Hist. Of Hell. World, p.300 Cl.Préaux, Economic Royal des Lagides, Bruxelles 1939 p.431; cf.P. Revenue Laws, Col.. 44-49, 59.

(١٩) Wildken, Grunzüge, I, p.III; Rostovtzeff; Op.cit. p.82.

(٢٠) P.Tebt., 5, 11. 65-67; Otto, Priester und Tempel in hellenistichen Aegypten, 2 vols, Leipzig-Berlin 1905-8; pp. 211-212; Bevan, op.cit., p.264.

(٢١) P.Tebt., 5, 11. 54-84; Rostortzeff, Op.cit., pp. 899-903.

(٢٢) P. Tebt., 5, 11. 25-27; 28-36, 45-72, 85-92, 138-143, 144-146-178-187, 235-254.

(٢٣) Ps. Callsith., I, 32, 10; Rostovtzeff, Op.cit., p.415;
- نصحى، جـ٤، ص٢٧٩

(٢٤) Arian, II 1,5; Tarn, W.W. Alexander the great, 1948, p.43, D.Hogarth, Alexandria in Egypt, J.E.A. 11 (1915) p.56;

(٢٥) عن أوضاع اليونان فى مصر فى عصر البطالمة راجع : نصحى، جـ٤، ص ص١١٧-١٢٠.
Rostovtzeff, Op.cit., pp.326, 411, 1644.

(٢٦) W. Peremans, Ptolemy II Philadelphos et les indegenes egyptiennes; Rev. Belg., de Philol. Et d'Hist., XII, 1933, pp. 1005-22; Martin, Les Papyri et l'Histoire administration de l'Egypte Greco. Romaine, Münch. Beit. XIX (1934) pp.144ff.

(٢٧) Justin. XVII, 1,9; Hieron, In Dan., XII; Bevan, Op.cit., p.194.

(٢٨) P.Frank. 7; Rostovtzeff, Op.cit., pp. 707-708; Jouguet, Mac.Imp., pp.214-215;
- نصحى، جـ١، ص ص ١٥٤-١٥٧.

(٢٩) Préaux, Le Economie royale, pp.529-30; P.Gautier-Sottàs, Un decret trillingue en l'honneur de ptol. IV 1925; Bevan, Op.cit. p.391.

(٣٠) Melanges Maspero, II le Caire 1939, pp.119-20; Bevan, Op.cit., p.240; Preaux, Chr. D'Eg. 1936, p.525.

(٣١) Préaux, Op.cit., p.523; Rostovtzeff, Op.cit., p.710.

(٣٢) Préaux, Op.cit., pp.528-532.

(٣٣) نصحى، جـ٤، ص١٩٠.

(٣٤) نفسه، جـ٤، ص ص ١٩٠-١٩١.

(٣٥) Cf. Bevan, Op.cit., pp.265-6.

(٣٦) Rostovtzeff, Op.cit. p.713; Bevan, Op.cit.,pp.264-265.

(٣٧) Polyb., XXII, 17,3.

(٣٨) Doid.XXXI, 159; P.Amh.30= Chrest. n.9.

(٣٩) Doid., XXXI, 17b.

(٤٠) Préawx, Chr. d'Eg. 1936, p.542.

(٤١) U.P.Z., III.

(٤٢) U.P.Z., 71, 7; 122, 9.

(٤٣) P.Tebt., 742, 11. 26ff, 23f.

(٤٤) U.P.Z., 161, Col. 3f; 162, Col. 5, 21; P. Tebt., 699.

(٤٥) Matrin, Papyri et Histoire adminsitration d'Egypte. Greco-Romaine, Münch-Beitr., 19(1934) p.102.

P.Tebt., 6.(٤٦)

Rostovtzeff, Op.cit. pp.873-74.(٤٧)

Doid., XXXIII, 289; Justin, XXXVIII, 8; Bouche-Ledercq, Op.cit., (٤٨)
II, pp. 71-76.

Préaux, Chr-d'Eg. 1936, pp. 544-45; Wilck-Chrest n,10.(٤٩)

(٥٠) نصحى، جـ٤، ص ٢٠٥.

B.G.U. 933; Col. 6,7; P.Bad., 48.(٥١)

Cf. P.Tebt. 5.(٥٢)

P.Tebt., 5, 11. 54-84.(٥٣)

P.Tebt., 5, II.68-77; 99-101.(٥٤)

P.Tebt., 15.(٥٥)

P.Lond., II, 401, 20.(٥٦)

Pausnias I, 9,3.(٥٧)

B.G.U., VIII 1744-50, 62; Cf. Aegyptus, XVIII 1938, pp.279ff.(٥٨)

Tarn, C.A.H, X, pp.35ff.(٥٩)

Eutroplos, II 5; Valerius Maximius, IV, 3,2; Livius, Peioch., 14, (٦٠)
T.R.S. Broughton, The Magistrates of the Roman Republic, Amer. Philol. Assoc. XV, vol.I (1951), p.197.

Livius, XLV, II, 10; P. Tebt., 698, 781; Cf. H. Henne. "P.Tebt, 698 (٦١)
et l'"invasion de l'Egypte par Antoichus IV "Revue Etude An. 38 (1935) pp. 443-ff.

Doi Cass. . XLII, 34' Suet., Caes., 52; Appian, B. Civ., II 90; Plut. (٦٢)
Anton., 25-27.

Suit, Div. Aug. , XXXI, 2; Dio Cass., Lv, 6; J. Gage; Res Gestal (٦٣)
Divi Augusti, 2e ed Publ. Fac. Lett. Univ. Strasb., Texts d'Etude, 5; Paris 1950; p.158 n.1; R. Hollmes, The Architect of the roman Empire, Oxford 1928, vol., I, p.181 and n.6.

- عبد اللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الوثائق البردية ١٩٨٨، ص ص ٤١-٤٢.

Suit., Divi Aug., XVIII, 2; Tacitus, Hist. I, 11; I.Bell, Roman Egypt (٦٤)
from Augustus to Diocletian, Chr.d'Eg. 13 (1938) p.247.

Cf.I.Bell. Alexandria ad Aegyptum; J.R.S. 36 (1946) pp.130-132. (٦٥)

O.W. Reinamuth, The Prefect of Egypt from Augustus to (٦٦)
Diocletian, Klio XXXIV, N.F. Hert, 21, Leipzig 1935, p.9.

Cf. Bell., C.A.H., X (1934) p.297; Idem, J.J.P. IV (1950) p.20f; (٦٧)

M.Romsay, Nationalism in the Roman Egypt, A egyptus 44 (1964) p.187.

(٦٨) راجع، عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص ص٨٣-٨٤.

(٦٩) H.A. Musurillo, The Acts of the Pagan Martyrs, 1954, pp. 275-77; I.Bell, The Acts of the Alexandrians,J.J.P.IV (1950) p.24f.

(٧٠) Bell, J.J.P.IV (1950) p.21.

- عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص٨٥.

(٧١) Philon, In flac., 25-39.

(٧٢) P.M.Fraser, Hadrian and Cyrene, J.R.S., 1950 pp. 77-78; p.Brem. 42 introd.p.99; P.Giss; 19, 25; A. Fuks, The Jewish Revolt in Egypt (A.D.116-117) in the Light of the papyri, Aegyptus33 (1953) p.145f.

(٧٣) Suit., Tib. L11, 2; Tacit., Ann. II 59-61; S.B.3924 = selected Pap.II 211; A.C. Johnson, Roman Egypt, New Jersy1959, pp. 622-23.

(٧٤) P. Faud 8; Suet., Vesp; VII, 2.

(٧٥) Ph. Derhain, La visite de Vaspsien au serapium d'Alexandrie, Ch.d.Eg.28 (1953) pp. 261-79.

(٧٦) Strabo., XVIII, 11, Athen., XII, 549; Joseph., Ant.jud. XII 235; Bevan, Op.cit., p.288; Bouche-Leclercq, Op.cit., II pp.27-28; Jouguet, Nat. Eg. P.145.

(٧٧) G.Strabo.,XVII, 749.

(٧٨) J.E.Letronne, Recveil des inscr. Grecq. Et latines de l'Egypte (1842) II, 781.

- نصحى، مرجع سابق، جـ١، ص٢٤٨.

(٧٩) C.A.H., IX, p.388, Bevan, Op.cit., pp. 350-351.

(٨٠) Suet. Vesp., XIX2;Dio Cass., LXV3; Wallace, Taxation in Roman Egypt, p.346.

(٨١) Dio Cass., LXV, 8,6;

- عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص ص١٤٣-١٤٤

(٨٢) Cf. C.H. Roberts, J.R.S. 39 (1949) p.79.

(٨٣) W.Chrest. 14; Musurillo, Op.cit., Text IVA.

(٨٤) P.Yale inv. 1536 (Published and transtaled in Amer. Philol. AS.n.67 (1936-7) + P.OXY.33.

(٨٥) P. Giss. 40 = select. pap. 215.

- نفتالى لويس، مصر الرومانية، ترجمة فوزى مكاوى، الهيئة العامة للكتـــاب، ١٩٩٤، ص ص٢٣٣-٢٣٤.

(٨٦) لويس، نفسه، ص ص ٣٥-٣٦.

(٨٧) راجع لويس، نفسه، ص ص ١٩٧-١٩٩.

(٨٨) لويس، نفسه، ص ص ١٨٣-٢١٣، وتتضمن وثائق كثيرة تتعلق بهذا الصدد.

(٨٩) Starbo., XVII, 53; O.G.I.S.634; I.G.rr., 1293.

(٩٠) C.I.L. 14147= I.L.S., 8995 = Barrow, Selection of Latin inscriptions No.7 = Ehremberg-jones, Documents illustrating the Reigns of Augustus and Tiberius No.2; O.G.I.S., 654.

(٩١) Cf. Lesquier, L'Armeé romaine d'Egypte d'Auguste a Dioclétien, M.I.F.A.O., I, XLI (1918) p.49f.

(٩٢) Strabo., XVII, 53.

(٩٣) Préaux, Esquisse d'une histoire des revolutions egyptienne sous les lagides, Chr.d'Eg. 11(1936) pp. 548-52.

(٩٤) عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص٦١.

(٩٥) عبد اللطيف أحمد على، نفسه، ص٦٢.

(٩٦) Dio Cass., Liv, 5; Pliny., Nat. Hist. VI 29, 181-182; M.J.Leiboritch, A propos de L'expidition militaire en Ethiopie par P.Petronius sous le rége d'Auguste, Bull. Soc..Roy. Geog. Eg. 19 (1937) pp.270-77; P.Mill.40; Turner, J.R.S.40 (1950) pp. 57-9; W. Chrest. 4.

(٩٧) C.A.H., X, p.245 and n.2;

- عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص٦٩

(٩٨) Dio Cass., LVII,10, 5; Jouguet, La Dom. Rom.p.33, n.2.

(٩٩) عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص ص ٦٩-٧٠.

(١٠٠) W.Chrest. 13; Cf. Reinmuth, Klio 34 (1935) p.121f.

(١٠١) Philon., in Flacc., 86-96.

(١٠٢) W.O. 1372 = W. Chrest. 414.

(١٠٣) Plilon. Loc. Cit.

(١٠٤) عبد اللطيف احمد على، مرجع سابق، ص ص ٨٢-٨٣.

(١٠٥) Cf. Bell. J.J.P. IV (1950) p.28; Musurillo, Op.cit., p.102, n.56f.

(١٠٦) Joseph., Ant., Jud., XIX 280-86; Chrales Worth, Documents illustriting the reigns of Claudius and Nero Cambridge, 1939, No.14-15.

(١٠٧) Joseph., Anti Jud., XIX 278 ff.

(١٠٨) H.Stuart. Jones, Caludius and the Jewish Question at Alexandria, J.R.S. 16(1926) pp. 21f; Bell., Anti Samitism in Alexandria, J.R.S.31 (1941) P.10; Davis, Race Relations in Ancient Egypt, 1951, p.108; P.Lond. 1912; Hunt-Edgar, Sel.Pap.II 1934, pp. 1-37.

(١٠٩) Cf. P.Lond., 66-72; 1912, 73-104.

(١١٠) Bell., J.J.P., IV (1950) p.21.

- عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص ص ٨٤-٨٥.

(١١١) Bell, C.A.H., X 1934, p.295; Jouguet, B.S.A.A. 37 (1948) p.22; Idem, Vie Mune. P.141f.

(١١٢) Suet. Nero. XLVII 2; Tacitus, Hist., I 31; Plutarch, Galba, 2; Dio Cass, LXIII, 27,2.

(١١٣) P.Oxy., 1021 = W. Chrest. 113.

(١١٤) O.G.I.S., II 666.2.

(١١٥) Letronne, Recueil, I, p.91.

(١١٦) عبد اللطيف أحمد على، المرجع السابق، ص ص ١٣٦-١٣٧.

(١١٧) Pliny., Paneg. p.31-32

(١١٨) Cf. V. Tcherikover, The Jews in Egypt in the Hellenistic Roman Age in the Light of Papyri, Jerusalem 1945 pp.18ff.

(١١٩) P. Brem. I.

(١٢٠) P.Giss. 27 = W. Chrest. 17, P.Bad., 36; P.Oxy. 500; B.G.U., 889, 1189, A.Fuks, The Jewish Revolt in Egypt (A.D.115-117) in the Light of Pap., Aegyptus 33 (1953) p.145f.

(١٢١) P.Oxy. 705,Col.11, 11.31-35.

(١٢٢) P.Giss. 25 = W. Chrest. 15.

(١٢٣) Rostovtzeff, Social and Economic History of Roman Empire I 2nd ed (1957), p.348.

(١٢٤) عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص٢٠٥.

(١٢٥) P.Oxy. 705, Col.11, 11.34. 36 = W. Chrest. 153.

(١٢٦) نفتال لويس، مرجع سابق، ص٢٣٧. سيد الناصرى، تـاريخ الإمبراطوريـة الرمانيـة، ١٩٩٨، ص٣٨٥.

(١٢٧) P.Yale inv., 1536 (Published in trans. Am.Philol. A.Sn. 67 (1936) p.7; P.Oxy. 33.

(١٢٨) Cf Capitolinus, Ant. Phil.2, Vulcatius Gall, Canus, Avidius Cassius, 6,7.

(١٢٩) Cf. T. Frank, An Economical Survey of Ancient Rome, Vol.V p.76f.

(١٣٠) نفتال لويس، مرجع سابق، ص٢٣٧.

(١٣١) Dio.Cass., 72, 4. I; E.H.Giliam, The Archives of the temple of soknobraisis at bechias, Yale Classical Studies X 91947) , p.205.

(١٣٢) J.G. Milne, J.E.A., 14 (1928) p.231; M.Ramsay, Aegyptus, (1966) p.183; Cf. R.Remondon, Bull. Inst. Fr.d'arch. oriental 51 (1952) p.73.

- سيد الناصرى، مرجع سابق، ص ص ٣٩٧-٣٩٨.

(١٣٣) Dio Cass., LXXI, 28; H.M.D.Parker, A. History of

عن تمرد أفيديوس كاسيوس راجع :

- Roman World from A.D. 138 to 337, London 1958, p.27; John Wacher, Edit., The Roman World, New York 1990, p.282.

(١٣٤) نفتال لويس. المرجع السابق، ص٢٣٧.

(١٣٥) P.Oxy. 2332, vol.22, pp. 90-91, n.3; cf. M.Ramsay, Aegyptus, 46 (1964) p.183 n.2. and pp.190-91.

(١٣٦) P.Oxy. 2332

- نفتالى لويس، المرجع السابق، ص ص ١٨٦-١٨٧.

(١٣٧) Cf. Wallace, Taxation in Roman Egypt, pp.88-98.

(١٣٨) نفتالى لويس، المرجع السابق، ص ١٨٧.

(١٣٩) Rostovtzeff, Social and Economic History of the Roman Empire, p.480.

(١٤٠) إنجيلا : متى ٩ : ١٠، مرقس ٢ : ١٦، ٣٠ و ٧ : ٣٤

- Ramsay, Aegyptus 41 (1964) pp. 188-189; Rostovtzeff, Soc. And Econ. Hist. Of the Roman Emipte, p. 479-90; A.C. Johnson, J.J.P. 4 (1950) pp.151-58.

(١٤١) Philon, On Special laws, B.K., 3, ch.31; P, Mich. 529

- لويس، مرجع سابق، ص ص ١٨٩-١٩٠

(١٤٢) B.G.U. 515 = select pap.286.

(١٤٣) S.B. , 9207.

(١٤٤) P.Mert., 81; B.G.U., 229; P.Oxy., 1149, 1213, 1477.

(١٤٥) P.Oxy., 266, 1408; P.Ryl.595; S.B. 7462; P.S.I., 101, 102; B.G.U., 372

(١٤٦) P.Oxy. 1408 = select. Pap., 244; B.G.U, 372.

(١٤٧) P.Oxy. 2669.

(١٤٨) P. Pelaus. 65; P. Oxy. 1119; P.Wisc. 81.

(١٤٩) P.Wisc. 81.

(١٥٠) P.Oxy 1405.

(١٥١) نفتالى لويس، مرجع سابق، ص٢١٣.

(١٥٢) Tacitus, Ann. II 59; Joseph., Bell. Iud. IX, 10, 5. Pliny., Nat. Hist., VI 101, XII, 63-63; Bell, Chr.d'Eg. 13 (1933) pp. 347-63; Idem, C.A.H.

X 1934, p.284f.

(١٥٣) Stabo., XVII, 53;

- عبد اللطيف أحمد على، مرجع سابق، ص ص ٥٨-٦٠

(١٥٤) Strabo, XVII, 10; Dio Cass. Li, 1,3; Lesquer, L'Armée Romaine, I.F. A.O., XL (1918) p.49; A.H.M.Jones, Cities of the Eastern Roman Provinces, Oxford 1937, p.474, n.22.

(١٥٥) Cf. S.B. 1073a = S.E.G. , XX n.760; P.Mer., 63; P.oxy. 2782; S.B., 3924 = sel. Pap. 211.

(١٥٦) P. Lond. Lit., 239; P.Oxy. 1380.

(١٥٧) نفتالى لويس، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(١٥٨) B.G.U. 1199.

(١٥٩) نفتال لويس، مرجع سابق، ص ص ١١٠-١١١.

(١٦٠) H.I. Bell; Cults and Creeds in Greco-Rman Egypt, Liverpool 1953, pp.52-55.

(١٦١) L.G. Moderna, Bull. De la Soc. Roy. D'Arch. D'Alex. 33 91939) p.298 f.; Remondon, B.I.F.A.O., 51, (1952) p.68f.

(١٦٢) M.Ramsay, Aegyptus, XLIV (1964) p.192.

(١٦٣) Ramsay, Aegyptus. XLIV (1964) pp. 193-194.

- عن بدايات المسيحية فى مصر الرومانية بصفة عامة راجع :

(١٦٤) Bell., Cults and Creeds; pp. 78-105.

الباب الثالث
الثورة والتغيير فى العصور الوسطى

الفصل الأول
مفهوم الثورة فى الإسلام

محمد بركات البيلى[*]

هل في الإسلام من ثورة ؟ سؤال قد يبدو بسيطاً في ظاهره ، ولكنه يطرح إشكالية غير بسيطة ، ويصعب الخوض فيها دون تعريف المفاهيم وتحديد الاصطلاحات ، والتي يعنينا منها فيما نحن بصدده كل من مفهوم الثورة ومفهوم الإسلام الذي لا ينبغي أن يخلط فيه بين الإسلام المبدأ والجوهر والدين الذي نزلت به الرسالة الإسلامية ، والإسلام التاريخي الذي يربط بين الدين وأهله ويجمع بين الإسلام والمسلمين في حركتهم التاريخية ، وفق تعاليم الإسلام .

أما عن مفهوم الثورة فأنها في رأى البعض " ظاهرة مجتمعية ليس لها مفهوم محدد متفق عليه بين الجمهور" [١] ومن ثم عرفها البعض بأنها تغيير جذري وقلب رأس على عقب للأوضاع القائمة إلى أوضاع جديدة ، ويعتقد قادتها أنها تسير نحو الأفضل ، وأنها ليست مجرد تطور أو تغيير جزئي أو علاج لبعض العيوب و إنما هي فوران بركان وقوة لا قبل للحكام على الوقوف في وجهها [٢] ومنهم من عرفها بأنها تحول في الحياة الاجتماعية للإطاحة بما عفا عليه الزمن و إقامة نظام اجتماعي تقدمي جديد ، أو هي التغيير الجذري المفاجئ في الأوضاع السياسية والاجتماعية القائمة بوسائل تخرج عن النظام المألوف ولا تخلو عادة من العنف[٣] وعرفها البعض بأنها الحصول على السلطة من أجل التغيير الواسع من الواقع الذي يثار عليه إلى المستقبل الذي يطالب به[٤] .

ومجمل القول أن الثورة تعنى على نحو عام تغييراً كبيراً ومفاجئاً في أوضاع قائمة يسفر عن أوضاع جديدة لم يكن ثم عهد بها ، ولا يخفى على

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب – جامعة القاهرة.

الملاحظة أن مصطلح الثورة في ضوء هذه التعاريف يشير إلى معنيين : أولهما: التغيير الدائري الذي يكشف عن أنماط جديدة ، وثانيهما : هو التحول الجذري في التكوينات الاجتماعية و السياسية والنظام العام (٥) وهذان المعنيان تشير إليهما لغة العرب بلفظتي التبديل والإبدال ، ففيها أن الإبدال هو إيجاد بديل لما هو قائم ، وهذا هو ما يعنيه التغيير الدائري ، أما التبديل فهو تغيير حالة الشي وهو ما يشار إليه بمعنى التحول الجذري .

ولعله لا يخفى - على كل من يهتم بأن يلاحظ - أن هذه التعاريف التي ذكرناها - على سبيل المثال - تأخذ كلها- وغيرها - بأن الثورة عمل بشرى ، يضطلع فيها العامل البشرى بالدور الأساسي في مراحلها كافة بداية من الفكر والنظرية ومروراً بالتخطيط وصولاً إلى التنفيذ ، فالثورة عمل بشرى من بدايتها إلى نهايتها ، وهى في هذا تختلف اختلافاً بيناً عن رسالة الإسلام التى هي إلهية المصدر ولا يصح أن توصف بأنها ثورة ثارها ثائر من البشر على الأوضاع القائمة في مجتمعه ، فهذه المقولة الخاطئة دأب المستشرقون على ترديدها - تصريحاً وتلميحاً - حتى من وصف بالاعتدال منهم مثل مونتجمرى وات في كتابه المعروف " محمد في مكة Mohammed at Mecca " أو كستر kister في دراسته عن مكة وتميم Mecca and Tamim وقد سار على دربهما بعض باحثينا حتى أن أحدهم وضع بحثاً بعنوان " ثورة الإسلام " لم يعن فيه بتفسير مفهوم هذه الثورة كما يراها ولكنه وصف بعض أحوال العرب قبل الإسلام خاصة ما أسماه الكومنولث المكي التجاري، وما تعلق به من تراتيب سياسية وأوضاع دينية ، انتهى إلى القول بأن محمداً صلى الله عليه وسلم عزم على القيام بثورة من داخل النظام ذاته ، فكان دائم الإلحاح على أنه ينبغي على قريش أن ترتب أمورها وعلى أن نجاتها كانت في رعايتها للفقراء من أقاربهم واليتامى والمساكين منهم ، وان هذا التعاون بين الأغنياء والفقراء هو المبدأ الأساسي في دعوة محمد صلى الله عليه وسلم على مدار حياته كلها ، مثلما أن الحب هو جوهر رسالة المسيح عليه السلام (٦)

وسواء كان ترديد مثل هذه المقوله عن سوء فهم أو سوء قصد ، فإن رسالة الإسلام لم تكن كما توهم البعض مجرد ثورة بشرية ، و إنما الإسلام دين سماوي نزل من لدن عزيز حكيم على الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ليبلغه للعالمين ، قال تعالى " يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك " (المائدة/٦٧)، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم واضعاً للرسالة بل كان

رسولاً لتبليغها ولم يكن على الرسول إلا البلاغ كما نصت آيات قرآنية كثيرة (منها عمران / ٢٠، المائدة /٩٢ ، الرعد / ٤٠ ، النحل / ٣٥ ، النور / ٥٤، العنكبوت / ١٨ ، وغيرها) وكانت رسالة الإسلام تذكيراً للناس ليعودوا إلى عبادة الله وطاعته ، قال تعالى " فذكر إنما أنت مذكر " (الغاشية / ٢١) وقد يرتبط هذا التذكير بوعيد من الله للعصاة ،قال تعالى " فذكر بالقرآن من يخاف وعيد " (ق/ ٤٥) لكنه لم يقترن بالإكراه أو حمل الناس بالعنف على الإيمان قال تعالى " لا إكراه في الدين " وقد نزلت الرسالة الإسلامية من عند الله على محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة الوحي – على تعدد إشكاله – لكن منكري المصدر الإلهي للإسلام ينكرون الوحي ويزعمون أنه مجرد انعكاس على مخيلة محمد صلى الله عليه وسلم من عقله الباطن أو نفسه الروحانية فتوهم – أي محمد – أن الملك ماثل له يوحي إليه ما تخيله وحياً ، ومن ثم زعموا – قاتلهم الله – أن مصدر الإسلام و قرآنه بشرى وأنه من عند محمد صلى الله علية وسلم وليس من عند الله ، وابتنوا على ذلك مقولات خاطئة قد يكون لبعضها بريق زائف يعمى بعض الأبصار فلا تفطن إلى زيف هذه المقولات ، ومن هذه المقولات الزائفة قول البعض أن الإسلام كان ثورةً على مختلف الأوضاع القائمة قبل البعثة المحمدية ، لكن الإسلام لم يكن أبدا بشرياً محمدياً و إنما كان إلهيا سماوياً ، قال تعالى " وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين " (الشعراء /١٩٢-١٩٤).

وإذا سلمنا بان الإسلام دين سماوي إلهي المصدر ، فان محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن – على ذلك – ثائراً و إنما كان رسولاً مبلغاً ، ولم تكن رسالته ثورة بل كانت هدياً من عند الله لمن ضل من عبيده ، قال تعالى " وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم " (الشورى / ٥٢) وهذا الهدى نوع من التغيير كما أن الثورة نوع من التغيير ، ولكن شتان ما بين هدى الرسل وثورة البشر، فهدى الرسل تغيير أمرهم الله بالدعوة إليه ومباشرته، لكنهم ليسوا هم الذين يحققونه بل يحققه الله عز وجل ، قال تعالى " إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء " (القصص / ٥٦)وقد بين الله – عز وجل – أن الهدى هو الإسلام فقال تعالى " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام " (الأنعام / ١٢٥).

وإذا لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم هو هذا الثائر الذي يجعل من الإسلام ثورة ، لانه ليس مصدرها بل مجرد مبلغ لرسالته ، أيكون هذا الثائر هو الله عز وجل الذي هو مصدر هذا الإسلام ؟ حاشا لله وتنزهت ذاته عن أن

يوصف بمثل هذا ، فليس من أسمائه الحسنى اسم من هذا القبيل ، ولا يوجد في القرآن الكريم آية واحدة يرتبط فيها شئ من صيغ الجذر اللغوي " ثور " - فعلاً كان أو اسماً - بالذات الإلهية أو منسوبا إليها مع أن القرآن الكريم قد ذكر أن لله سخطاً مثل قوله تعالى " لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم "(المائدة/٨٠) وقوله تعالى " أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله " (آل عمران / ١٦٢) ، وذكر القرآن الكريم أن لله عز وجل- غضباً - مثل قولي تعالى " ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم " (المجادلة / ١٤) وقوله تعالى " وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله " (البقرة / ٦١) ولم يذكر القرآن على الإطلاق أن لله ثورة أو أنه - حاشاه - قد ثار ، وليس صحيحاً ما ذكره البعض أن في القرآن الكريم إشارات إلى ما يعنيه مصطلح الثورة من تغيير عميق ومن انقلاب في الأوضاع ولا صحة في الاستدلال على هذا ببقرة بنى إسرائيل التي كانت " لا ذلول تثير الأرض " (البقرة / ٧١) ، فإثارة الأرض - في اللغة لا تعنى تغييرها ، و إنما تعنى حرثها وقلب قشرتها الظاهرة على الحب ، فضلا عن أن البقرة التي تحرث الأرض - على وحد وصف القرآن لها - هي الذلول المنقادة وليست الجموح الهائجة أو الثائرة، وفى ذلك ابتعاد تام عن مفهوم الثورة الذي يجعل الثورة من هيج الهائجين لا من خضوع الأذلاء الخانعين .

وفى الحديث النبوي الشريف لم يخرج معنى الفعل ثار - في الأحاديث كافة التى ذكر فيها - في كتب الحديث الصحاح الستة وغيرها مما اعتمده فنسك Wensinck أساساً لتصنيف معجمه المفهرس لألفاظ الحديث النبوي - عن معنى هاج أو معنى قام من مجلس أو معان أخرى قريبة منها لا تصل مطلقاً إلى ما يدل عليه مفهوم الثورة الاصطلاحي بأي حال من الأحوال ، فعلى سبيل المثال جاء في واحد من هذه الأحاديث " ثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ... فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا " وجلى أن ثار هنا تعنى الهياج والصخب ، وجاء في حديث آخر " فثار فتى من الحي " وروى الحديث نفسه بلفظ آخر " فقام فتى من الحي " فدل على أن ثار تعنى قام من مجلس .

وإذ يتضح - على - هذا النحو - أن القرآن و الحديث الصحيح وهما مصدرا الإسلام و مرجعيته الأساسية - لا ذكر فيهما للثورة بمفهومها الاصطلاحي ، فهل يصح بعد ذلك القول بأن في رسالة الإسلام ثورة ؟، قد

يقال إن جوهر الثورة التغيير ، وأن رسالة الإسلام كانت تغييراً للأوضاع القائمة، لكن مثل هذا القول منقوض من أساسه ، فماهية التغيير في رسالة الإسلام هي الإصلاح قال تعالى " إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت " (هود / ٨٨) ولا يقبل التغيير في الإسلام إذا كان إصلاحا ، قال تعالى " ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها " (الأعراف / ٥٦) . ومن ثم يمكن القول في هذا السياق أن الإسلام جاء إصلاحاً لمفاسد العمران البشرى وليس ثورة عارمة تحركها شهوة التغيير دون النظر لعواقب هذا التغيير ، ولم يكن الإصلاح الذي استهدفه الإسلام محدوداً بل كان إصلاحاً شاملاً يعيد هيكلة العمران البشرى وفقاً لمنهج الإسلام .

لقد حوت رسالة الإسلام ما يمكن تسميته مبدأ الإسلام ، والمبدأ اصطلاحاً هو فكر أساسي كلى تنبثق عنه، أو تبنى عليه أفكار فرعية أو عقيدة ينبثق عنها نظام ، والإسلام كمبدأ انبعثت عنه النظم الإسلامية التي أقامها المسلمون وفقاً لمقتضيات عقيدة الإسلام .

ولقد قام النظام السياسي الإسلامي على قواعد منبثقة عن المبدأ الإسلامي وفقا لما يسمى " شرع ابتناء " يبنى على تعاليم ما يسمى " شرع ابتداء " أي المبدأ المنصوص عليه في الكتاب والسنة وهو مبدأ يتسم بالثبات نظراً لثبات مصدره الإلهي ، ويضبط حركة الحياة الواقعية بقيمه الثابتة التي لا تتغير ، وقد وضع المبدأ الإسلامي الثابت قواعد ثابتة لنظام الحكم الإسلامي لا تتغير وهى:- (١) الشورى قال تعالى "وأمرهم شورى بينهم" (٢) البيعة ، وهى بيعة الحاكم - أو اختياره والموافقة عليه - سواء كان هو الرسول صلى الله عليه وسلم أو من يخلفونه من أئمة الحق ، واعتبرها الإسلام بيعة لله قال تعالى " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله " وعلى أساس من الشورى والبيعة أقام المسلمون نظام الخلافة ، والخلافة كما يعرفها فقهاء السياسة المسلمون - كالماوردى مثلا -هي " حفظ الدين وسياسة الدنيا به " ويمكن أن يفهم من هذا أن الخلافة امتداد لمهمة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان مجرد مبلغ للشرع وليس مصدراً له باعتبار أنه صلى الله عليه وسلم كان وحياً يوحي ، فإذا كانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هي الإبلاغ ، ومهمة خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم - أو الخلفاء - هي الحفظ فليس لهم ولا لغيرهم من البشر سلطة الأمر العليا في الدولة التي تعنى اصطلاحا " السيادة " إذ السيادة أو ما يعبر عنه أحيانا بالحاكمية لله وحده باعتبار أنه عز وجل هو الخالق الذي له وحده الأمر قال تعالى " ألا

له الخلق والأمر" (الأعراف ٥٤).

ولأن سلطة الأمر العليا في المبدأ الإسلامي حق خالص لله ، فمن ثم وجب على المسلمين الطاعة لله الآمر صاحب السيادة أو الأمر العليا أو سلطة الحاكمية ، والطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله ، قال تعالى " ما أمركم به الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " والطاعة لولاة الأمور الذين يحفظون الدين ويسوسون الدنيا به ، قال تعالى:" يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فأن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر " (النساء / ٥٩) وطاعة السلطة الحاكمة مرتهنه بشرعيتها ومشروعيتها ، وبين الشرعية والمشروعية فارق أساسي ، فالشرعية تعنى صلاحية السند الذي تستند إليه السلطة القائمة كسلطة للأمر ، وهذه الشرعية سابقة على قيام السلطة الحاكمة التي لا بد لها من سند تقوم عليه أو حين تمارس السلطة الحاكمة بعد قيامها سلطتها وفقا لقواعد المبدأ الذي تستند إليه - وهو الإسلام - أي إنها تمارس شرع الا بتناء وفقا لشرع الابتداء ، فإنها تكتسب بذلك المشروعية التي تعنى التزام السلطة الحاكمة القائمة بالنظام القانوني للدولة في كل ما يصدر عنها، فالشرعية هي الأساس الذي تستند إليه السلطة الحاكمة في قيامها والمشروعية هي السمة التي يجب أن تتسم بها ممارساتها .

ومع ثبات الشريعة الإسلامية أو شرع الابتداء (المبدأ) فإنها حينما رهنت طاعة السلطة الحاكمة بالشرعية والمشروعية ، فقد أجازت للمسلمين مقاومة الجور ، وجعلت من ذلك حقاً مشروعاً لهم ، ومقاومة الجور ليست تغييراً مطلوباً لذاته - أي لمجرد التغيير - و إنما مقاومة الجور تهدف إلى الإصلاح أي التغيير الهادف إلى الخير ولا يكون الإصلاح مفاجئاً أو عنيفاً أو قتالاً - كما هي الثورة فيما يبدو من تعاريفها ، و إنما يكون الإصلاح تدريجيا بهدف إعادة المشروعية إلى النظام الجائر بعد أن فقدها ، فان لم تستجب السلطة الجائرة القائمة إلى دعاوى الإصلاح جاز الخروج عليها ومنازعتها لحملها قهراً على العودة إلى الشرعية التي استندت إليها في قيامها ، قال تعالى " فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر " .

والخروج على سلطة الجور لا يكون هياجاً انفعالياً ولا غوغائيا عشوائياً بل يجب أن يكون هادفا . وغائياً هدفه إبدال الحكم غير الشرعي والذي فقد مشروعيته بحكم جديد يستند إلى الشرعية في قيامه ويتسم بالمشروعية في

ممارساته ، وبدون تحقيق ذلك تكون الفتنة التي لا تكون فقط في اقتتال المسلمين بعضهم لبعض ، و إنما تكون أيضا في اقتتالهم لغير سبب مشروع .

وفى ضوء ذلك كله ينبغي أن نعيد النظر فيما يسمى في التاريخ الإسلامي بثورات فما يسمى بالثورة العباسية –على سبيل المثال – قام بها مسلمون على سلطة حاكمة مسلمة ، واستند من قاموا بها إلى تعاليم الإسلام في الإطاحة بالسلطة القائمة ليحلوا سلطة حاكمة جديدة مسلمة أيضا فكان ما قاموا به مجرد استبدال أشخاص بآخرين دون أن يغيروا نظاماً أو يغيروا قواعده أو أحكامه ، فهل يصح بعد ذلك أن يطلق على قيام الدولة العباسية اسم ثورة عباسية أو ثورة إسلامية .

أظن – وبعض الظن ليس بإثم – أنه قد آن لنا أن نستخدم مسميات ومفاهيم جديدة .

الهوامش

(١) رءوف عباس: النشرة الإرشادية للندوة بتاريخ ٢٠٠٤/١/٦ .

(٢) احمد سويلم العمري: معجم العلوم السياسية الميسر ، ص ٧٣.

(٣) محمد عمارة: الثورة والإسلام .

(٤) محمد أنيس وزميله: ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

(٥) محمد على محمد: أصول الاجتماع السياسي .

(٦) محمد عبد الحي شعبان: ثورة الإسلام ، ص ٧٣.

الفصل الثانى

المهمشون فى التاريخ الإسلامى

رؤية سوسيو – تاريخية

محمود إسماعيل[*]

لا تطمح هذه الدراسة إلى تقديم تاريخ شامل للعوام المهمشين في التاريخ الإسلامي؛ بقدر ما تصبو إلى تقديم رؤية عامة تتسم بالجدة والإنصاف لهذه الجماعات التي جرى تشويه تاريخها من قبل " مؤرخي البلاط " ومن نحا نحوهم من الدارسين المحدثين .

ذلك أن هذه التأريخ الشامل قد سبق وأنجزناه ضمن مشروع يتناول التاريخ والتراث الإسلامي كله ؛ صدر في عشرة مجلدات [1] كما إن شلة من تلامذتنا النجباء في مصر و الجزائر والمغرب[2] قدر لهم – تحت إشرافنا – كتابة أكثر من عشر رسائل جامعية عن تاريخ العوام في العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى أسفرت عن تعميق رؤيتنا وتأكيد منهجنا الذي اعتمدناه في المشروع.

وقد أثبت البحث في هذه الحقل – الذي كان ملغزا ومهمشا – أن دراسة الموضوع واجهت الكثير من الإشكاليات والمصاعب التي جرى تذليلها. من هذه الإشكاليات ، ما يتعلق بالإطار المرجعي ، وما يختص بقضايا[3] المنهج ، وما يرتبط بمسألة الرؤية والتفسير والتقويم .

بخصوص المرجعية ، ثبت أن الحوليات التاريخية لم تحفل بالتأريخ للعوام، وانشغلت بتواريخ الحكام سياسياً وعسكرياً ليس إلا . ومن ثم ظل تاريخ العامة يدخل في إطار " المسكوت عنه " او " اللا مفكر فيه " ؛ حسب صياغة المفكر النابه " محمد أركون " . وبرغم وفرة مصادر التاريخ الإسلامي العامة ؛ لم يرد ذكر العوام الإ لماما عند التأريخ للكوارث الطبيعية كالمجاعات والأوبئة التى كانت تحصدهم حصدا . أو من خلال ذكر حركات المعارضة التى جرى تهميشها بالمثل ودمغها بأبشع التهم والنعوت .

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي، كلية الآداب – جامعة عين شمس .

لذلك كان علينا البحث فى مادة مصدرية فى مظان أخرى مهملة من قبل المؤرخين ؛ فوقفنا على مادة تاريخية ثرية تخدم الموضوع فى كتب الخراج والفقه والحسبة والنوازل والجغرافيا والطبقات والأدب والديارات والحرف والفلاحة والتجارة ؛ وحتى كتب " الطبيخ(٤) . وهذه المادة التى عولنا عليها تتسم بقدر أكبر من الصدق والموضوعية نظراً لكونها أبعد ما تكون عن السياسة والدين . أما عن إشكالية المنهج ؛ فهى تتعلق بتناول القدماء للتاريخ الإسلامي عموما ؛ من حيث التعويل على السرد والوصف ؛ دون التحليل والتعليل والتفسير . ذلك لأن المفهوم الطبقى لدراسة التاريخ كان غائبا عن فطنة القدماء؛ فالناس فى نظرهم " أهل سيف " و "أهل قلم (٥)" وما دون ذلك فغثاء لا يستحق الاهتمام والتسجيل . ومن أسف أن جل الدارسين المحدثين – عربا ومستشرقين – لم يحفلوا بالتاريخ الاقتصادى – الاجتماعي ؛ متذرعين فى ذلك بندرة المظان حينا ، وبعجزهم عن الإحاطة بمناهج البحث التاريخي وأدواته فى معظم الأحيان.

وقد تجاوزنا تلك الاشكالية من خلال الاسترشاد بالمنهج الجدلى التاريخى من ناحية ، وسائر المناهج المتبعة فى حقول البحث الاجتماعى والاقتصادى والأنثروبولوجى وغيرها(٦) ، فضلا عن البدء من " درجة الصفر " في رصد و إحصاء المعلومات المتناثرة واستخلاص ما تنطوي عليه من دلالات ؛ من ناحية أخرى .

وبخصوص إشكالية التعليل والتأويل والتحليل والتفسير وصياغة الرؤية العامة التي تنتظم الجزيئات في مقولات وتخريجات وأحكام ، نلاحظ أن القدماء تحاملوا على حركات العوام ؛ فوصموهم بالسوقة والرعاع والأراذل والزنادقة وأهل البدع والفتن، كما نعتوا زعامات هذه الحركات بالخبث والمماحكة والإباحية وسائر النعوت والصفات الدونية . ومن أسف أن الدارسين المحدثين ساروا على منهجهم :متذرعين بدعاوى الأمانة العلمية والحياد في النقل عن القدماء . لذلك تتسم رؤيتهم بالثيولوجية والخرافة والأسطرة ، فضلاً عن التقويمات الأخلاقية الذرائعية التي تجافى روح البحث العلمي الرصين .

كانت تلك المزالق والسقطات في اعتبارنا – وتلامذتنا – ونحن نحاول الكتابة في هذا الحقل المضبب والملغز ، سواءً من حيث " عدم براءة " المادة التاريخية ، أو من حيث تأويلها.

في هذا الإطار ؛ نقدم تصوراً أولياً ، أو " بانوراما " عامــة عــن العامــة المهمشين في التاريخ الإسلامي بعصوره المتعددة ، وفى ســائر بقــاع العــالم الإسلامي وأقاليمه من مشرقه إلى مغربه .

ولا يتسع المقام لرصد الأساس الاقتصادي وتطوره ، والبناء الطبقــي فــي صيرورته وتحولاته ، ونحيل في ذلك إلــى مشــروعنا " سوســيولوجيا الفكــر الإسلامي " حيث قدمنا رصداً دقيقاً من خلاله أثبتنا أن طبقــة العامــة خطــت تاريخها من خلال صراع مستمر بين البورجوازيــة والإقطــاع ؛ حســم منــذ منتصف القرن الخامس الهجري لصالح " الإقطاع العسكري " . وأثبتنا أيضاً أن هذه الطبقة التي قامت بالجهد الأكبر والفعال في صياغة التــاريخ الإســلامي ؛ همشت من قبل " مؤرخي البلاط " . لذلك كان علينا أن نصحح الوضــع ؛فيمــا تحويه هذه الدراسة .

في عصور ما قبل الإسلام ؛ شهدت شبه الجزيرة العربية أنماط إنتاج شتى متباينة ومتداخلة تجمع بين الإقطاعي والنمط العبــودى وبــواكير بورجوازيــة تجارية . وفى هذا الإطار ؛ تدهورت أحوال العــوام ؛ فعــانوا الفقــر والفاقــة والحرمان ؛ إلى حد الإقدام على وأد البنات " خشــية الانحــلال " ، أو المــوت الجماعي في الصحراء ، أو التحول إلى العبودية ضمانا لاستمرار الحياة .

ومع ذلك أفرز هذا المجتمع ظاهرة " الفتوة" و" الصعلكة " كحــل للمشــكلة الاقتصادية الاجتماعية . أما " الفتيان " فعبروا عن شــلة مــن الموســرين ذوي النزعة الإنسانية ، جعلوا في أموالهم نصيباً للفقراء والمعدمين . بينمــا كــان " الصعاليك " جماعات من الفقراء والمعدمين شكلت " عصابات مسلحة " هامــت وجوهها في الصحراء ، واحترفت الإغارة على قوافل التجار الموسرين ونهبهــا وتوزيع النصيب الأوفر مما نهبته على المعوزين ، والاكتفاء بقدر منه يقــيم أود الحياة كانوا يوزعونه بينهم بالتساوي(٧) ويحدثنا الشعر الجاهلي عن أحوال هــذه الجماعات التي كانت بمثابة " حكومة شعبية " تستهدف تحقيق العدل الاجتماعي. وتفيض أشعار " تأبط شراً " و" طرفة بن العبد " و"عــروة بــن الــورد " بقــيم الشجاعة والنخوة والكرم والنجدة وإغاثة المظلوم ... الخ من الفضائل والشــمائل التي افتقرت إليها " الطبقة " الأرستقراطية " ويقول عروة بن الورد :

أقسم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسوا عباب الماء والماء بارد

وبظهور الإسلام ؛ تبنت دعوته هموم المستضــعفين وتوجهــاتهم فــي

العدالة والإخاء والمساواة . لذلك أقبل هؤلاء " الأراذل " – حسب نظرة الأغنياء آنذاك – على الدعوة الإسلامية وشكلوا عصب مجاهديها ؛ من أمثال من كانوا عبيداً جرى تحريرهم "كبلال الحبشي" و"وصهيب الرومي" و"سلمان الفارسي" ؛ والذين علت منزلتهم في ظل حكومة الرسول (ص) في المدينة ذات التوجه القائم على " المؤاخاة" هذا بينما عارض معظم أفراد "الأرستقراطية" – الملأ المكي – الدعوة لا لأسباب دينية ؛ بقدر كونها زلزلت مكانتهم وأعادت صياغة المجتمع حسب تعاليم الإسلام .

وفى خلافتي " أبى بكر " و" عمر" تحسنت أحوال العوام نتيجة اضطلاعهم بالدور الأعظم في " الفتوح" وما نتج عنها من ثروات حرص الخليفتان الراشدان على توزيعها وفق أصول الشريعة .

تغيرت الحال إبان خلافة " عثمان " في أواخر أيامه . ووجهت السياسة آنذاك لصالح " الأرستقراطية السفيانية " و "الأرستقراطية البيروقراطية " ، فاختل ميزان العدالة ؛ الأمر الذي أفضى إلى " الفتنة الكبرى " وأصبح على بن أبى طالب" راعيا للمستضعفين من الثوار الذين آزروه وتشيعوا له بعد مقتل عثمان .

وكان ما كان من ظهور " الفرق الإسلامية " التي عبرت عن مصالح القوى والطبقات الاجتماعية المتناحرة ، أكثر منها تعبيراً عن خلافات دينية . وبقيام الدولة الأموية؛ جرى خلخلة البناء الطبقي وإعادة صياغته لصالح " الأرستقراطية " . لذلك اندرج معظم العوام في حركات المعارضة الخارجية والشيعية التي قمعها الأمويون في قسوة وعنف.

ولم يقف العامة مكتوفي الأيدي ؛ فقاموا بثورات اجتماعية في سائر الولايات . ومن مظاهر المقاومة ؛ هجرة صغار المزارعين للضياع والمزارع التي حازها الأمويون وقادتهم وولاتهم وعمالهم ، كذا القيام بمظاهرات واعتصامات للتنصل من دفع الجبايات والمغارم[٨] . ثم انضموا إلى الدعوة العلوية – العباسية التي نجحت في إسقاط الحكم الأموي وتأسيس الدولة العباسية.

وبرغم جهود الخلفاء العباسيين الأوائل في تطبيق الكثير من شعارات الدعوة – كالإصلاح والمساواة ونحوها – إلا أنهم لم يقدموا حلاً حاسماً وناجحاً للمشكلة الاقتصادية – الاجتماعية . لذلك اندلعت ثورات العوام في سائر أقاليم "دار الإسلام" . تلك التي وصمها " مؤرخو البلاط " بتهم الزندقة والإباحية

ونحوها[٩] .

وخلال العصر العباسي الثاني ؛ تفاقمت المشكلات الاقتصادية – الاجتماعية؛ من جراء ترسيخ النظام الإقطاعي . فاندلعت الثورات التي أفضت إلى ظهور الحركات الاستقلالية عن الخلافة والتي قام فيها العوام بدور أساس . هذا فضلاً عن قيام حركات فلاحية وأخرى مهنية في الريف والمدن عند الولاة والعمال . ففي الريف ظهرت تنظيمات " الصعاليك " التي قطعت الطرق على قوافل كبار التجار ، وأغارت على ضياع الموسرين من الولاه والعمال والقواد وكبار التجار . ومن أشهر صعاليك هذا العصر " ابن حمدون " الذي وصفه أحد المؤرخين المحدثين " بأن فيه شهامة الفرسان ، فكان يعطف على الفقراء والمعوزين ... وكان يتعرض للأغنياء ويقسم الغنائم بالتساوى بين أصحابه وبين الفقراء ".منهم أيضاً " عمران بن شاهين" الذي أقام إمارة في " البطائح" شهدت نوعاً من الاشتراكية[١٠]. كما اندلعت " ثورة الزنج" التي آزرها عناصر مختلفة من شتى الأجناس والمذاهب ، طلبا للحرية والعدل الاجتماعي .وفى المدن ؛ تأسست تنظيمات " العيارين " والشطار " التي ارتبطت بتنظيمات " الحرف " وشكلت " مليشيات" للدفاع عن الحوانيت والأسواق من إغارات العسكر الرسمي. واتسمت بفضائل الفروسية وقيم النبالة والدفاع عن الفقراء والمعوزين، كما قامت أحياناً بدور جهادى في مواجهة أخطار البيزنطيين الذين أغاروا على أعالى العراق والشام .

ثم تطورت المعارضة ؛ فاندرج العوام في سلك الدعوة الشيعية والخارجية، ونجحوا في تأسيس ثلاثة كيانات سياسية ذات طابع " اشتراكي " ؛ كدولة " القرامطة " في البحرين ، والدولة " الصفارية " في سيستان ، وإمارة " بجانة" في الأندلس[١١] وإذ تبنت دولة القرامطة طموحات الفلاحين ؛ فقد عبرت الدولة الصفارية – التي أسسها عامل في صناعة النحاس – عن هموم الحرفيين؛ بينما أسس صغار التجار الإمارة الأخيرة . وهو أمر يدل على مدى تعاظم حركات العوام .

وقد أفضى ذلك في النهاية إلى تضعضع الإقطاعية وحدوث " صحوة بورجوازية " حول منتصف القرن الرابع ، أسفرت سياسياً عن تأسيس ثلاثة كيانات كبرى هي " الدولة البويهية " في إيران والعراق ، و " الدولة الفاطمية في المغرب ومصر واليمن " والخلافة الأموية في الأندلس .

والحق أنه في ظل هذا المد البورجوازي ، انتعشت الحياة الاقتصادية وتحسنت أوضاع الطبقة الدنيا – العوام– وتعاظمت النهضة العلمية والفكرية والأدبية ؛ بحيث يمكن الجزم بأن هذا العصر شكل أزهى عصور الحضارة الإسلامية[12]. لذلك ندر قيام ثورات اجتماعية ؛ بل إن بعض السلاطين والخلفاء جندوا في جيوشهم فرقاً من العامة .

على أنه حول منتصف القرن الخامس الهجري انتكست " الصحوة البورجوازية " وساد نظام الإقطاع العسكري في العالم الإسلامي برمته . فاختل البناء الطبقي ، وتعاظمت الأرستقراطية العسكرية خصوصاً ، واختفت الطبقة الوسطى أو كادت[13]؛ إذ انضمت بعض شرائحها العليا إلى الطبقة الأرستقراطية، واندرجت شرائحها الوسطى والدنيا في طبقة العامة ؛ نتيجة تردى الأحوال الاقتصادية في ظل النظام الإقطاعي ، وتعاظمت الحروب الداخلية والخارجية وما تبعها من تخريب ودمار . وأصبحت موارد السلطة تعتمد أساساً على ما عرف باسم " اقتصاد الغزو ".

لذلك تعاظمت حركات العوام الذين تحامل عليهم فقهاء البلاط ومؤرخوه . فقد نعتهم " الطرطوشى" بالفسق والدعارة والنهب واللصوصية " ووصفهم " الغساني " "بالخسة والعتو لأنهم رعاع وأراذل " كما وصمهم " ابن خلدون " "بالمماحكة والفجور والبعد عن المروءة"(١٥).بينما أشاد بهم إخوان الصفا " فقالوا : " فنيت أبدانهم فى خدمة أهل الدنيا ، وكثرت همومهم من أجلها ، ولم يحظوا بشيء من نعيمها ولذاتها " . ولا غرو ؛ فإخوان الصفا كانوا أصحاب دعوة إصلاحية ذات نزعة إنسانية . ويعزى إليهم – علميا – الفضل في الوقوف على المفهوم العلمي الصحيح لمصطلح " الطبقة "حيث جعلوا من " درجة حيازة الثروة " معياراً لتشكيل البناء الاجتماعي .ومن خلال رسائلهم نقف كذلك على معلومات هامة عن تدهور أحوال العامة في هذا العصر ؛ إذ فطنوا إلى ظاهرة انتشار " البطالة " ؛ أي الذين لا ينتجون نظراً لتفشى الأمراض الاجتماعية كنتيجة منطقية لتدهور الأحوال الاقتصادية في عصر الإقطاع العسكري .

لذلك اتسم هذا العصر بتعاظم ثورا ت العوام . ففي العراق جرى تشكيل تنظيمات " الفتوة " من " العيارين " و" الشطار" المعدمين . فثاروا ضد الطبقة الإقطاعية والشرائح العليا من البورجوازية التجارية (١٦) .

ولما وقع خلاف بين الخلافة العباسية والسلطة السلجوقية ؛ آزر العوام

الخلافة التي أكتسبتهم إلى جانبها بعد أن وزعت على تنظيماتهم الغذاء والكساء. ولكنهم ما لبثوا أن ثاروا على الخلافة والسلطة معا لأنهما عجزتا عن تقديم حلول ناجحة لأحوالهم المتردية، فاندلعت في الريف حركات " قطع الطرق " . وتذكر المصادر قصصاً ضافية في هذا العدد ؛ يشيد بعضها بأخلاق الفتيان وشمائلهم . منها ما ذكر عن قاطع طريق يسمى " يونس الحرامى "الذي استهدف هو وجماعته إقطاعيات الخلفاء والسلاطين والوزراء وكبار رجالات الدولة ومن سار في ركابهم من كبار التجار وفقهاء السلطة . ولما فشلت الجيوش في ردعهم لجأ الحكام إلى تأسيس " منظمات مناوئة " حبذوا فيها " دراويش " الطرق الصوفية ، كما فتوا في قوة الفتيان عن طريق تقديم الرشاوى لبعض زعمائهم ، فآلت ثوراتهم وهباتهم إلى الفشل ، بما يؤكد افتقار هذه التنظيمات إلى الوعي السياسي والطبقي (١٧) .

وفى المدن تعاظمت هبات العيارين والشطار نظراً لتأثرهم بالمذهب الشيعي ، لذلك وصمها الفقهاء الموالون للسلطة بتهم الزندقة ، ونعتوا زعماءهم بالخبث والإباحية .

وفى العصر الأيوبي ، آزر العامة صلاح الدين تقديراً لدوره الجهادى في مواجهة الصليبيين . لكنهم رفعوا لواء المعارضة ضد خلفائه لتقاعسهم عن الجهاد ، وكثيراً ما شكلوا فرقا خاصة لمناوأة الوجود الصليبي في الشام .

وفى العصر المملوكي ؛ تعاون العوام مع الأعراب في إثارة المشكلات ضد السلاطين . وكثيراً ما قاموا بتظاهرات للتشهير بالجائرين من الحكام . وفى المدن – كالقاهرة والإسكندرية ومدن الصعيد – تعاظمت انتفاضات العامة فشكلوا فرقا من " الحرافيش " " البطالين " أثاروا الذعر في الأسواق (١٨) .وفى الشام عرفت منظماتهم باسم تنظيمات " الزعار" الذين أعلنوها حربا ضارية ضد رجالات الدولة وكبار التجار .

وفى بلاد المغرب ؛ فقد تأدجلت حركات العوام بالتصوف في صيغ متطرفة أقرب ما تكون إلى الهرطقة ؛ وذلك لتردى أحوالهم في ظل "المرابطين" و"الموحدين" كما تلقف عوام المغرب فكرة " المهدوية " عن الشيعة ، ونجح زعماء العوام في كسب المزيد من الأعوان والأتباع . وقاموا بحركات ضد السلطات الحاكمة في الريف والمدن على السواء . منها – على سبيل المثال " حركة أبى قصبة " و" حركة ابن الفرس" و" حركة الدعي الماسي" التي تنزع

زعماؤها بالشعوذة والسحر ، وادعى بعضهم " النبوة " لذلك لم تجد السلطات الحاكمة مناصا من اتهامهم بالكفر والإلحاد ، ونجحت في ردعهم مستعينة في ذلك (١٩) بالفقهاء .

وشهدت الأندلس حركات وهبات شعبية مماثلة ؛ ذات أبعاد مذهبية واجتماعية لاقت إقبالا حتى من بعض الفقهاء المستنيرين . واستعانت السلطة بفرق من النصارى المرتزقة لردعهم واستئصال شأفتهم . كما تعاظمت حركات أخرى بعيدة عن المذهبية ؛ عرف أصحابها باسم " الصقورة " نجحت فى تكوين مجتمعات " جيبية" مستقلة عن السلطة . ذكر ابن عذارى " المؤرخ أنهم " دمروا البحائر وقطعوا مياهها وشجرها ، فخلت أمامهم المداشر والقرى " (٢٠) .

وعرفت أقاليم المشرق الإسلامى - البلاد الواقعة - شرقي بغداد - حركات مماثلة عبرت عن انتفاضات العوام ، واستهدفت تحرير العبيد والأرقاء العاملين بالسخرة في ضياع الطغمة الحاكم ورجالات دولها . وعرفت تنظيماتهم باسم " منظمات الفتاك " (٢١) .

وقد ذكر ابن بطوطة الكثير من أخبارهم ، وأشاد بفضائلهم . ولا غرو ؛ فقد قاد بعض الفقهاء المستنيرين هذه الحركات ، بينما نعتها فقهاء السلطة بالكفر ، خصوصاً وأن الكثيرين من أتباعها اعتنقوا مذهب " الكرامية " ، وهو مذهب ينطوي على مضمون اجتماعي ثوري . كما اعتنق بعضهم التصوف بالمفهوم الشيعي العرفانى ، لذلك قالوا بمبدأ " المهدوية " واتخذوها شعارا للتحرر من ربقة الطغاة من الحكام . وبفضل التنظيم الصوفي العراقي ؛ نجحت بعض هذه الحركات في تحقيق أهدافها مرحلياً ، لكنها ما لبثت أن تحولت إلى دعوات " هرطقية " واعتنقت أفكارا خرافية أفضت إلى إخفاقها في النهاية . ولا أدل على طابعها الشعبي من أن أحد قادتها كان " صانع غرابيل " نجح في جمع الأنصار والنيل من رجالات الدولة وكبار التجار .

أما ثقافة العوام ، وطبيعة " ذهنياتهم " . فقد عبرت عنها أدبياتهم في صورة قصص ومقامات وأشعار وأزجال وأمثال وملاحم شعبية .

ومعلوم أن بعض المستنيرين من رجالات الفكر تبنوا في إبداعاتهم هموم العوام ، وعلى رأسهم " الجاحظ " الذي ألف رسالة عن " فضائلهم " ، كما حوى أدبه رسائل أخرى موجهة ضد الطغاة من الحكام ، وثالثة - عن " المكدودين " كرسالة " التربيع والتدوير " ولم يخطئ أحد الدراسيين المتحدثين حين وسم

الجاحظ بأنه " رائد الفلكلور العربي " وصدق آخر قال أنه " الـزعيم الروحـي للشطار والعيارين " (٢٢) .

وأبدع العوام أدبا في صورة " مقامات وعظية " تشيد بطبقتهم وتحثهم على الثورة . كما ظهر نوع من الأدب أطلق عليه مصطلح " أدب التسول والكدية " ، وهو يفضح الواقع السياسي والاجتماعي للمجتمعات الإسلامية آنذاك . إذ ينحـاز للمهمشين ، ويميل بضراوة على جلاد يهم من الحكام الجائرين . كما أن رسائل إخوان الصفا انطوت على قصص رمزي ذي مسحة اجتماعيـة تتعـاطف مـع العوام :أصبح في كثير من الأحيان متداولا بين جماعتهم .كما أبدع العامة شعرا عن " المكدودين " (٢١) منه على سبيل المثال نقتبس هذين البيتين :

إذا ما أعوز الطرق   على الطراق والجند

حذار من أعاديهم   من الأعراب والكرد.

كما أبدع عوام الأندلس أزجالا وموشحات اعتبرها النقاد الموالين للسلطة " هذرا سوقيا لا يستحق التسجيل " ؛ بينما أشـاد بهـا غيـرهم مـن المنصـفين واعتبروها بمثابة " تاريخ غير مكتوب عن العوام " إذ انطوت على مادة تاريخية هامة وبريئة تقدم صورة واقعية عن تردى أحوالهم .

وأخيرا ، أبدع العوام أدبا ملحميا تمثل في " السير الشعبية " التي تعد كذلك مرآة تعكس مواقف العوام من الحكام فسيرة " سيف بـن ذي يـزن " و" سـيرة الظاهر بيبرس " و" السيرة الهلالية " وغيرها تنطوي على بعد إسلامي تحـرري بعد أن وقع العالم الإسلامي - خصوصا في العصور المتأخرة - فريسة للحكـام الطغاة في الداخل ، والإغارات الأجنبية الصليبية والمغوليـة وغيرهـا . كمـا تطرح فكرة " المخلص" أو " المهدى المنظر " الذي يظهر ليملأ الأرض عـدلا بعد أن ملئت جورا ، ويعيد وحدة " دار الإسلام " إلى ما كانت عليه في عصـره الذهبي .

نستخلص مما سبق عدة حقائق نوجزها فيما يلى :

أولاً : أن انتشار حركات الفتوة والصـعلكة فـي سـائر أرجـاء العـالم الإسلامي؛ دليل على وحدة صيرورته وتطوره التاريخي ؛ بمـا يفنـد مـزاعم بعض الدارسين المحدثين عن " القطيعة بين الشرق والغرب " .

ثانياً : أن اندلاع هذه الحركات غير المنظمة - في الغالب الأعم - يعكـس

غياب الطبقة الوسطى وعجزها عن الاضطلاع بمهامها التاريخية (٢٥) ؛ كما يوضح هزال هذه الطبقة ويؤكد انتماءها إلى الأرستقراطية الحاكمة .

ثالثاً : برغم تعدد هذه الثورات إلا أنها افتقرت إلى التنظيم والإعداد ، فكانت أشبه ما تكون بهبات تلقائية وعفوية ، ولذلك كانت إنجازاتها محدودة .

رابعاً : أن هذه الحركات افتقرت إلى الوعي الطبقي ؛ ومن ثم نجحت السلطات الحاكمة المتمرسة أن تتخذ من الوسائل لقمعها، سواء عن طريق القوة والبطش ، أو عن طريق الدهاء والحيلة .

خامساً : أن هذه الحركات برغم إخفاقها نجحت إلى حد ما في إيجاد حلول جزئية خففت من تسلط السلطات الحاكمة التي اضطرت أحيانا إلى الاستجابة لبعض مطالبها ، من ناحية ؛ كما كان توجهها ذو الطابع الاشتراكي بمثابة تعبير عن فساد النظم البيروقراطية والعسكرية .

سادساً : أن تفاقم المشكلات الاقتصادية والاجتماعية يفضي تلقائياً إلى التطرف الذي يصل إلى حد الهرطقة .

سابعاً : أن عدم حسم الصراع الطبقي يفضي إلى سيادة أنماط الإنتاج السائدة ، ويحول الصورة التاريخية من التطور الطبيعي للمجتمعات ؛ إلى نوع من الجمود والصورة " الحلزونية " التي تكرس " الأمر الواقع " .

تلك – في اختصار صورة عامة عن تاريخ المهمشين في التاريخ الإسلامي؛ تنطوي على دروس ما أحرانا بأن نعيها للوقوف على الكثير من مظاهر تخلف العالم الإسلامي المعاصر وأسبابه.

الهوامش

(١) هو مشروع : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، دار مريت القاهرة ٢٠٠٣ م .

(٢) منهم : الدكاترة عنتر الشبراوى وناريمان عبد الكريم وأحمد الطاهرى وإبراهيم القادري ومحمد تصفوت وأحمد المحمدي وهاشم العلوي وبوبه مجاني .

(٣) عن إشكالية المنهج ؛ راجع :

محمود إسماعيل : إشكالية المنهج في دراسة التراث ، دار مريت القاهرة ٢٠٠٣ م .

(٤) عن مظاهر التاريخ الاقتصادي – الاجتماعي ؛ أنظر :

– محمد تضفوت : نحو تحديث دراسة التاريخ الإسلامي ، دار مريت ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م .

(٥) أنظر : كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، الترجمة العربية ، ص ١١٨ ، بيروت ١٩٧٧ .

(٦) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، المجلد الأول ، المقدمة .

(٧) أدونيس : الثابت والمتحول جـ١ ، ص ١٠١ ، بيروت ١٩٧٤ .

(٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، بيروت ١٩٥٧ ، ص ٦٣ .

(٩) محمود إسماعيل : الحركات السرية الإسلامية ، فاس ١٩٧٧ ، ص ٤٩ وما بعدها .

(١٠) المقدسى : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٩ ، ص ٢١٩ وما بعدها .

(١١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، بولاق ١٢٣٨ هـ ، ص ٣١٣ .

(١٢) موريس لومبار : الإسلام في عظمته الأولى ، الترجمة العربية، بيـروت ١٩٧٧ ، ص ١٤٠.

(١٣) Robin Livy. Social Structure Of Islam, P .46,Cambridge,1956.

(١٤) الطرطوشى : سراج الملوك ، القاهرة ١٢٨٩ هـ ،ص ٤٢٨ .

(١٥) ابن خلدون : العبر ، القاهرة ، د.ت ، جـ ٣ ، ص ٩١٧.

(١٦) أشتور : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط فـي العصـور الوسـطى ، الترجمة العربية ، دمشق ١٩٨٥ ، ص ٣٤٨ – ٣٥١.

(١٧) أحمد صادق سعد : تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٣٠٥ وما بعدها ، .

(١٨) Lane,Pool:History Of Egypt Under The Mohammedan Rule , P.327,New York ,1962.

(١٩) ابن بطوطة : تحفة أنظار في عجائب الأمصار ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٣٦٧ .

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب جـ ٣ ، ص ٢٦٧ .

(٢١) ابن بطوطة : المرجع السابق ، ص ٣٦٩ .

(٢٢) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، القاهرة ١٩٥٧ ، جـ ١ ، ص ٤٥٠ .

(٢٤) محمد رجب النجار : التراث القصصي في الأدب العربـي ، الكويـت ١٩٩٥ ، جـ ١ص ١٦٩ وما بعدها.

(٢٥) عن هزال البورجوازية في العالم الإسلامي ومسئوليتها عن تخلفه .

راجع : محمود إسماعيل : سوسيولوجيا ، مجلد ١ ، ص ١٩٢ وما بعدها .

أول ثورة وتغيير فى الدولة العربية الإسلامية:
(ثورة الأمويين ضد خلافة الراشدين سنة ٤١هـ/٦٦١م)

عطية القوصى(*)

وقعت أولُ ثورة وتغيير في الدولة العربية الإسلامية سنة ٤١هـ / ٦٦١م بإعلان قيام حكم دولة جديدة على أنقاض دولة الخلفاء الراشدين، وهو حكمُ البيت الأموي والدولةُ الأمويّة التي أقامها معاوية بن أبي سفيان وجعل الحكم فيها وراثيًا لأسرته من بعده؛ خلافًا لما كانت عليه الحال زمن الراشدين، وسارت على نهجها الدولةُ التي قامت بعدها على حكم المسلمين وهي دولةُ خلفاء العباسيين.

وكان المسلمون قد واجهوا، بعد وفاة الرسول (ﷺ) سنة ١١هـ/٦٣٢م مشكلة نظام الحكم، وكيفية تدبير أمور الدولة التي وضع النبيُ أساسها في بلاد الحجاز، وقد نتجت هذه المشكلة من أنّ الرسول ارتحل عنهم دون أن يُوصي لأحد بالحكم من بعده، كما إنه لم يترك وراءه ابنا يرثه في حكم المسلمين وقيادة الدولة التي أقامها من بعده. كذلك فإنّ آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي لم تشر الى هذا الأمر؛ وكأنّ الله ورسوله تركوا الأمر للمسلمين ليختاروا من نظم الحكم ما يلائمهم، ويتمشى مع تطور حياتهم، ولا يتنافى مع تعاليم الدين الجديد.

ولقد ارتبط التشريعُ الإسلامي بضرورة استمرار قيام الدولة التي وضع الرسولُ أساسها ولبناتها الأولى، ولذلك كان لابد منْ تواجُدْ سلطة تنفيذية، بعد وفاة الرسول، لهذه الدولة، تقوم بتطبيق التشريع وتحافظ على وحدة الأرض ووحدة الجماعة وتحقق عالمية الدولة خارج نطاق شبه الجزيرة، وفي الوقت نفسه تسهرُ على مصلحة الجماعة الإسلامية وتحافظ عليها من أي خطر يتهددها أو عدو يُهدد أمنها.

وقد عُرف النظامُ الذي تمثل في الطريقة التي هدى الله المسلمين إليها،

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى، كلية الآداب - جامعة القاهرة.

لاختيار من يخلُف الرسول في حكمهم وفي تسيير أمور دولـتهم باسـم نظـام الخلافة. على أنَّ هذا النظام لم ينشأ من فراغ، فلقد وضع الرسولُ أسُسـه عنـد قيام الدولة، وطوال العشر السنوات التي قاد فيها مسيرتها. وتمثلت هذه الأسُـس في مبدأين هامين من مبادئ التشريع الإسلامي؛ وهما مبـدأ الشـورى بالنسـبة للحاكم، ومبدأ الطاعة لله وللرسول بالنسبة للرعية. وقد أشار إليهما الله تعالى في كتابه الكريم في قوله تعالى : [فبما رحمة من الله لنتَ لهُمْ ولوْ كنتَ فظًا غلـيظ القلْب لانْفضُّوا منْ حوْلك فاعفُ عنْهُمْ واستغفرْ لهُمْ وشاورْهُمْ في الأمْـر فـإذَا عزَمْتَ فتَوكَّلْ علَى الله إنَّ الله يُحبُّ المُتوكّلينَ] (آل عمـران : ١٥٩). وقولـه تعالى في طاعة الرعية لله وللرسول : [يَا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أطيعُوا اللهَ وأطيعُـوا الرَّسُولَ وأُولي الأمْر منْكُمْ] (النساء: ٥٩). وقد رسَّخ الرسولُ هـذين المبـدأين عمليًا، فأصبح الحكمُ في الإسلام بمثابة عقد أو عهد، وهـو مـا عُـرف عنـد المسلمين باسم " البيعة "، وهي بيعةٌ بين الراعي والرعية يلتزم فيهـا الطرفـان بحدود التشريع الإسلامي. وقد طبقَّ الرسولُ نظام الشورى في الحكم، وظهر في عهده أهلُ الشورى، وكانوا من كبار الصحابة، واستبعد النظـام الـوراثي فـي اختيار قيادات حكومته. وقد كان النظامُ

الوراثي معروفًا عند العرب من اتصالهم بالفرس والروم وملوك الغساسـنة والمناذرة وممالك اليمن القديمة، معين وسبأ وحميَّر.

وما حدث في اجتماع " سقيفة بني ساعدة " بالمدينة، بعـد وفـاة الرسـول مباشرة، يؤيد رسوخ مبادئ الشورى ومفاهيمها في الحكم عند المسـلمين. وقـد برز في اجتماع السقيفة هذا مبدأ آخر في الحكم، وهو ضرورة أن يكون خليفـة رسول الله من قريش، وذلك من خلال المناقشـات التـي دارت بهـا، والتـي استطاعت أن تتخطى حاجز العصبية القبليـة عنـد القبائـل بـين المهـاجرين والأنصار. وقد أُعتمد إقرارُ هذا المبدأ على إقرار أهل السقيفة لمَـا للمهـاجرين من فضل وسابقة على الأنصار في نصرة الدعوة الإسلامية.

وبذلك نجد أنَّ المبادئ التي قام عليها نظامُ الخلافة وأقرها اجتماعُ السـقيفة هي : اقتصارُ اختيار الخليفة على القرشيين، وأن يكون أهلُ الشـورى، الـذين يساعدون الخليفة في الحكم، من طبقة كبار الصحابة، وأن يتم اختيـارُ الخليفـة بالانتخاب الحر، وأن تؤخذَ للخليفة البيعةُ العامة من عموم المسلمين. وكان على الخليفة المنتخب الالتزام بكتاب الله وسُنة رسوله، وعلى الرعيـة التـي بايعـت السمع والطاعة، طالما ظل الخليفةُ قائمًا بهذا الالتزام.

ولقد سارت ا لأمورُ على ما رسمه اجتماع المسلمين في سقيفة بني ساعدة ، في اختيار الخلفاء الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان بن عفان، وقد حكم أبو بكر الصديق سنتيْن وحكمَ عمر بن الخطاب عشرِ سنوات، وحكم عثمان إثنى عشر عامًا، وقد جاءت نهايةً كل خليفة منهم نهايةً طبيعية إلا نهاية عثمان، فقد جاءت مفجعة باغتياله سياسيًا في أعقاب أحداث الفتنة التي وقعت في أواخر أيام خلافته وتطورت أحداثها حتى انتهت بمصرع أولِ خليفةٍ من خلفاء المسلمين قتيلاً بسبب الحكم.

حقيقةً أنّ الاغتيال والقتل قد وقعا على الخليفة عمر قبل عثمان، لكن اغتيال عمر وقتله تم على يد فتىً موْلى للمغيرة بن شعبه يُدعى أبا لؤلؤة المجوسي، وهو شخصٌ واحد ولدافع شخصي لم يكن له علاقةٌ بالسلطة أو الحكم، أمَّا اغتيالُ وقتلُ عثمان فقد جاء في أعقاب ثورة، قام بها رجال من الأمصار، احتجاجًا على سياسة الخليفة عثمان وسياسة ولاته الأمويين معهم، عُرفت في التاريخ باسم " الفتنة الكبرى "..

ولقد كانت جذورُ هذه الفتنة كامنةً في باطنِ نفسية العرب منْ قبل الإسلام، وقد ظلت كامنةً ولم تظهر على السطح إلا في خلافة عثمان، أو بمعنى أصح، غداةَ اختيار عثمان خليفةً للمسلمين سنة ٢٣ للهجرة. ولقد جاء هذا الاختيار بين اثنين بارزين من الستة من رجال الصحابة، الذين رشحهم عمر للخلافة منْ بعده وهو على فراش الموت، ليكون الخليفة على المسلمين واحدًا منهم، وهما علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، علي الهاشمي وعثمان الأموي.

وقد بدا أنّ اختيار عثمانِ للخلافة، دون عليّ، فيه تجاوزٌ لحق الهاشميين في الحكم، لذا أوجدت هذه النتيجةُ معارضةً من بني هاشم من أول الأمر، وكانوا يعتقدون أنّ عليًا أحقُ بالخلافة من عثمان. ولقد أذكى هذا الاختيارُ لعثمان روح التنافس القديم الذي كان بين بني هاشم وبني أمية على السيادة والزعامة في مكة، وامتدت جذورُه إلى ما قبل الإسلام.

ولقد جاءت الفرصةُ، التي طالما انتظرها الأمويون، في إحراز السيادة والزعامة على الهاشميين، وذلك حين أُنتخب عثمان بن عفان الأموي خليفةً للمسلمين. وقد كان عثمان في حاجة الى خبرة بعض رجال الأمويين في الحكم والإدارة، ليكونوا عونًا له في حكم الدولة، وقد أنس منهم الإخلاص والمعونة، ولذلك اتُهمت حكومتُه بأنها صُبغت بالصبغة الأموية. وكان عثمان قد قام بعزل

بعض ولاة البلدان الذين كانوا ولاةً عليها على عهد عمر، بسبب وقـوع بعـض الأحداث فيها، فعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة، وعيَّن مكانه قريبه سعد بـن أبي وقاص، ثم قريبه الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط، ثم قريبه سعيد بن العـاص. أما البصرة فقد عزل عنها أبا موسى الأشعري، وعيَّن مكانه ابن خاله عبدالله بن عامر. وكانت ولايةُ الأردن ودمشق قد اجتمعت لمعاوية بن أبي سفيان الأمـوي في عهد عمر، فلمَّا وُليَّ عثمان الخلافة أقره عليهما، ثـم ضـم إليـه فلسـطين وحمص وقنسرين، وبذلك أصبح معاوية واليًا على كل الشام بعد سنتين من تولي عثمان أمْرَ الخلافة. وكان عمرو ابن العاص واليًا على مصر، فأبقـاه عثمـان عليها واليًا مدة خلافته لمدة عام، ثم عزله عنها وولىَّ مكانه أخاه من الرضاعة، عبدالله بن سعد ابن أبي السرح.

وهكذا نرى بني أمية يستأثرون بالنفوذ والحكم في خلافة عثمـان. وبـرغم إثبات هؤلاء الولاة الأمويين جدارتهم في الحكم، لتمرسهم ولطول خبرتهم فيـه؛ إلا أنَّ وقوع بعض الأحداث في الأمصار أدى إلى المعارضة لهم والثورة ضـد الخليفة عثمان، واتهامه باصطناع أقربائه، والاستناد عليهم واستبدادهم في البلاد التي تولوا أمْرَها وظلمهم لأهلها، فوقعت في هذه الأمصـار الفتنـة التـي أدت بالثورة على الخليفة وانتهت بمقتله (يوم الجمعة ١٨من ذي الحجة سنة ٣٥هـــ) الذي عُرف في التاريخ بيوم الدار.

ولقد تجددت روحُ التنافس بين بني أمية وبني هاشم، غداة انتخاب علي بـن أبي طالب خليفةً للمسلمين بعد اغتيال عثمان بخمسة أيام (يوم ٢٣من ذي الحجة سنة ٣٥هــ)، تولى عليٌ في ظروف صعبة كانت تمر بها الدولة الإسلامية، فقد تولاها في أعقاب فتنة أصابت الدولةَ وانتهت بمقتل خليفة أموي، وهو علمٌ مـن أعلام الإسلام، وصاحبُ فضل وسابقة في الدين، وصاحبُ أياد بيضـاء علـى الدعوة الإسلامية، قتُل مظلومًا. كذلك كان قتلته الذين أشعلوا نارَ الفتنة لا يزالون يرابطون في المدينة، ولم يغادروها إلى أمصارهم في انتظار تحقيق ما جـاءوا وثاروا من أجله. ومازال المتربصون بالإسلام والمحرضون على الفساد، وعلى رأسهم عبدالله بن سبأ، يترصدون للإسلام وللمسلمين.

ولقد انقسم الناس آنذاك أقساماً : بين مُطالب للخليفة الجديد بالأخذ بالثأر لدم الخليفة المقتول، ومُتهم لعدد من الصحابة وفي مُقدمتهم الخليفة المنتخـب علـيُّ بمسئولية قتل عثمان، وعدم قيامهم بالدفاع عنه كما يجب، وقتلة قتلـوا الخليفـة، وهم على استعداد لقتل كل من يقف أمام أطماعهم، ومعتزلين للفتنة آثروا إغلاق

أبواب بيوتهم عليهم، أو ترك المدينة إلى غيرها من البلاد، حتى لا تتلوث أياديهم بدماء ضحايا هذه الفتنة وكلها دماءُ أناسٍ مسلمين.

وكان على عليٍّ أن يعالج الموقف بما عُهد به من حكمة، وما شُهد له من حنكة، وأن يطفئ نار الفتنة، وأن يتخطى رواسبها ليَصل بالدولة الجريحة إلى بر الأمان. وإذا كان على قدأتهم في دم عثمان، فإننا نستطيع القول بأنه ليس عليٌّ وحده هو المتهم في هذا، ولكن كل الصحابة، مِنْ منطلق هذا الاتهام متهمون؛ لأنَّ ألف رجلٍ من الثوار جاءوا من الأمصار لقتل الخليفة، لا يمكن لهم أن يغلبوا أربعين ألفًا من أهل المدينة إذا هم وضعوا في اعتبارهم حماية الخليفة من القتل ! وإذا افترضنا جدلاً كما يزعُم البعضُ أنَّ عليًا وطلحة والزبير ومعاوية قد تضافروا على قتل عثمان، فما الذي منع بقية الصحابة من المهاجرين والأنصار من نصرته والدفاع عنه وحمايته من القتل ؟

وفي الحقيقة فإن المسئول عن دم الخليفة هم دعاةُ الفتنة والمدبرون لها من أمثال ابن سبأ اليهودي الحاقد على الإسلام وأتباعه، ومن بعض رجال القبائل دون قريش الذين حقدوا على قريش أن تكون لها السيادة على القبائل كلها، وأرادوها أن تكون لكل العرب دون تمييز. والصحابة جميعهم براءٌ من دم الخليفة، فحاشا لله أن يتآمر صحابي، وهم من صفوة المؤمنين، على قتل إنسان، وهو يعلمُ أنَّ قاتل النفس بغير حق مخلدٌ في النار، فما بالك لو كان هذا الإنسانُ خليفةً للمسلمين ؟

لقد كان جميعُ الصحابة وراء عثمان، وكانوا مساندين له ومستشاريه وأداته في الحكم وأهل مشورته والمدافعين عنه يوم الدار وقبل ذلك اليوم؛ فكيف يجرؤ مجترئٌ على اتهامهم بقتله ؟

لقد ثبت أنَّ الحسن والحسيْن ابنيْ علي وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر ومروان بن الحكم وأبا هريرة؛ كانوا كلهُم يحملون السلاح دفاعًا عن منزل الخليفة وكانوا يتناوبون في حراسته، ولم يدخل الثوار منزل الخليفة، ويقتحموه لقتله إلا بعد أن صرفهم الخليفة، وأمر بأن ألا يدافع أحدٌ عنه وأن يلتزموا بيوتهم. ولم يكن عثمان وهو الرجل المؤمن بقضاء الله والمؤمن بنزاهة حكمه، يتصور أن يهون على الناس وأن ينسوا له أياديه البيضاء عليهم وعلى الإسلام، وأن تنتهي الأمور إلى النهاية المأساوية التي انتهت إليها.

ولقد بدأ على خلافته بالعمل على إزالة أسباب شكوى الناس، وقد تمثلت في

شكايتهم من ولاة عثمان على الأمصار، فقام بعزل ولاة عثمان جميعهم وتوليـــة غيرهم، وقد قصد بذلك أن يطوي صفحةً سابقةً بخيرها وشرها، تتصل بعلاقـــة هؤلاء الولاة مع رعيتهم في الأمصار، وفتح صفحة جديدة بتولية ولاة جُدد قـــد يرضى عنهم أهل الأمصار. فعزل أبا موسى الأشعري عن الكوفة، وعبدالله بـــن عامر عن البصرة، وعبدالله بن أبي السرح عن مصر، ومعاوية بن أبي ســـفيان عن الشام. ولم يكن لدى الخليفة، في عزل هؤلاء الولاة عن ولاياتهم، أيُ شـــك في ذممهم ولا سلوكهم، ولكنه أراد التغيير حتى يقطع الطريـــق علـــى الثـــوار والمتمردين ويقيم عليهم الحجة. ولم يستبد عليٌ برأيه في هذا الأمر، وإنما جـــاء بعد مشورة كبار الصحابة ومن بينهم طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام.

وبينما كان على يتدبر الأمر فوجئ بتجمع في مكة بقيادة طلحـــة والزبيـــر، يطالب الخليفة بالتحقيق في مقتل عثمان وأخذ الثأر من قاتليه، وقد انضـــم هـــذا التجمع حول أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبـــي بكـــر، زوجُ رســـول الله (ﷺ) ووقعت بين الطرفين موقعتا الجمل عند البصرة، وهُزم فيها أصـــحابُ الجمـــل، ودخل عليٌ البصرة وصالح أهلها، فبايع له أهلُ العراق وفارس جميعًا. ثم انتقـــل عليٌ إلى الكوفة واتخذها عاصمةً لدولته بدلاً من المدينة.

ورغم انتصار عليّ فإنّ خلافته كانت تواجه الكثير من الصـــعوبات بســـبب بداية اقتتال المسلمين لبعضهم البعض يوم الجمل، مما زاد الحقد فـــي النفـــوس والرغبة في الثأر. كذلك لوجود قتلة عثمان في جيش عليّ ووجود أنصار عبدالله بن سبأ الميالين إلى الفتنة والراغبين في استمرار الشر بين صفوف المســـلمين. كذلك شارك في جيش عليّ كثيرون من أهل القبائل المتأخرة في دخول الإسلام، الذين لم يكن يهمهم الوقوف إلى جانب الحق بقدر اهتمامهم بما يحقق مصـــالحهم ويزيد من مكاسبهم.

وكانت الخطوةُ التالية، أمام الخليفة بعد يوم الجمل، المواجهة مع أهل الشـــام الذين خرجوا ثائرين بقيادة معاوية بن أبي سفيان وهم يرفعون قمـــيص عثمـــان الملطخ بدمه ويطالبون بالثأر له منْ قتلته. هذا ولم يذكر معاوية وفريقه عليًا في أمر البغي على عثمان إلا لمناسبة انضواء قتلة عثمـــان إليـــه واســـتعانته بهـــم ووقوفهم معه؛ فهم لم يتهموه بقتل عثمان اتهامًا مباشرًا لأنهم يعلمـــون أنّ قتلـــة عثمان هم الذين أساءوا إلى عليّ كما أساءوا إلى عثمان والإسلام.

ولقد سار عليٌ بقواته أواخر ذي القعدة سنة ٣٦هـــ، إلى حدود الشام والتقى

بجيشه مع جيش معاوية بقرب الرقة على شاطئ الفرات، آخر تخـوم العـراق وأول أرض الشام في سهل يُعرف (بصفين)، ووقعت هنالك معركة كبيرة أوشك جيش عليّ أن يحقق النصر فيها على جيش الشام، فأدرك معاوية ومَنْ معه قرب هزيمتهم فلجأوا إلى التحكيم، وهي فكرة عمـرو بـن العـاص. وذلـك برفـع المصاحف على أسنة الرماح وطلب وقف القتال ووقـف إراقـة دم المسـلمين وتحكيم كتاب الله بين المتحاربين.

فتوقف القتال بين الطرفين وكُتب كتابُ التحكيم يوم ١٣مـن صـفر سـنة ٣٧هـ، على أن يختار كل فريق من الفريقين المتقاتلين حكمًا لـه، وأن يجتمـع هذان الحكمان سويًا ثم يعلنان أمَرهما من النزاع الدائر بين الطرفين، وقد حُـدد مكانُ اجتماع الحكميْن في منطقة أذرح بدوْمة الجندل في أول شـهر رمضـان. فاختار حزب علي الصحابي الجليل أبا موسى الأشعري، واختار حـزب الشـام الصحابي الجليل عمرو بن العاص. وكان أبو موسى الأشعري رجلاً تقيًا فقيهًـا عالمًا، وكان عمرو بن العاص من كبار الصحابة ومن كبار قادة المسلمين.

ولقد تم التحكيم في الموعد والمكان المحدديْن، وقد روى المغـالطون عـن حادثة التحكيم أن أبا موسى وعمراً اتفقا على خلع الرجلين، فخلعُهما أبو موسـى واكتفى عمرو بخلع عليّ دون معاوية. وهذه مغالطة تاريخية لم تحدث، وأصـل المغالطة هنا تجاهل المغالطين أنَ معاوية لم يكن يؤمئذ خليفةً ولا هـو ادعـى الخلافة، وأنه لم يكن هنالك خليفتان أو أميران للمؤمنينَ جرت المفاضلة بينهمـا وأنَّ الحكميْن اتفقا على خلعهما معًا، وأنَّ أبا موسى خلع الخليفتين تنفيذاً لاتفاقـه مع عمرو على ذلك، وأنَّ عمراً خدعه بخلع خليفة دون الآخر خلافًـا للاتفـاق بينهما. وهذا كله كذب، فالذي فعله عمرو هو الذيّ فعله أبو موسى لا يفترق عنه في شيء. وقد بقى أمرُ الخلافة معّلقًا على نظر أعيان الصحابة ليروْا فيه رأيهم متى شاءوا وكيف شاءوا. واتفق الحكمان على أن يعهدا بهـذا الأمـر بصـدد الخلافة لكبار صحابة الرسول الأحياء آنذاك والذين مات عنهم رسول الله وهـو راضٍ عنهم. واتفاق الحكميْن على ذلك لا يُدخل معاوية في حساب الخلافة، لأنه لم يكنْ خليفة آنذاك ولم يقاتل من أجل الخلافة، وإنما قاتل طلبًا في إقامـة الحـد على الذين شاركوا في قتل عثمان. وبخصوص إمامة المسلمين والخلافة اتفـق الحكمان على ترك النظرِ فيها إلى كبار الصحابة إنَ شاءوا يقرون عليًـا علـى خلافته أو يختاروا خليفةً غيره من الصحابة. وقد اتفق الحكمان أيضًا على ترك كلٍ من عليّ ومعاوية التصرف في البلاد التي تحت يده حتى يتم الفصل في أمر

الخلافة وأن يبقى وضعهما السياسي على ما هو عليه.

وبذلك فإنّ التحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة، كما يدعي المغرضون. وكان التحكيم يكون محل المكر والغفلة لو أنّ عمراً أعلن في نتيجة التحكيم أنه وليّ معاوية خلافة المسلمين، وهذا ما لـم يعلنـه عمـرو ولا ادعاه معاوية. وخلافة معاوية، كما هو ثابت تاريخيا، لم تبدأ إلا بعد تصالحه مع الحسن بن عليّ سنة ٤١هـ، وتنازل الحسن لمعاوية عن حقه في الخلافة بعـد قتل والده، في عام الجماعة ومن ذلك اليوم فقط تسمى معاويـة بخليفـة وأميـر للمؤمنين. فعمرو بن العاص لم يغالط أبا موسى ولم يخدعه، لأنه لم يُعط معاوية شيئًا جديدًا، ولم يقرر في التحكيم غير ما قرره الصحابي الجليل أبو موسى ولـم يخرج عما اتفقا عليه معًا. فبقيت العراق والحجاز وما يتبعهما تحت منْ كانـت تحت يده من قبل، وبقيت الشام وما يتبعها تحت يد من كانت تحت يده من قبـل. وتعلق أمرُ الخلافة بما سيكون من اتفاق أعيان الصحابة متـى شـاءوا وكيـف شاءوا، ولهم أن يُبقوا عليًا في الخلافة، أو أن يخلعوه عنها ويولوا عليهـا مـن يرونه خيرًا منه. وإذا كانت هذه الخطوة الثانية لم تتم فما ذلك تقصير من أبـي موسى ولا خدعةٌ من عمرو، فهما قد قاما بمهمتهما بحسب اقتناعهما وبحسب ما أدى إليه اجتهادُهما.

ولقد رفضت طائفةُ القراء من قبائل بكر وتميم وطيء، التي كانت مع جـيش عليّ، فكرة التحكيم برغم أنهم هم الذين دفعوا عليًا إلى قبولهـا، واتخـذوا مـن صيحة أحد زعمائهم: " لا حُكم إلا لله " شعارًا لهم، أي أنّ حكـم الله فـي أمـر الخلافة واضح لا يحتاج إلى التحكيم. وخرج هؤلاء عن جيش عليّ، ورفضـوا العودة معه إلى الكوفة، ونزلوا، بظاهر الكوفـة قريـةٌ تُعـرف " بحـروراء "، واختاروا من بينهم قائدًا وإمامًا هو " عبدالله بن وهب الراسبي "، وقـد أطلقـوا على أنفسهم اسم " الحرورية " نسبة لحروراء، والشُراة لأنهـم، كمـا يـدعون، اشتروا أنفسهم بأن باعوها في سبيل الله؛ بينما أطلق عليهم جماعة علـيّ اسـم " الخوارج ".

ودخل عليّ في نقاش مع الخوارج ومحاولة التفاهم معهم للرجوع إلى صـفه وصف المقاتلين في جيشه، إلا أنهم رفضوا وأصروا على دعواهم وطالبوا عليًا بإقرار الخطأ على نفسه لقبوله التحكيم وطلبهم منه أن يتوب إلى الله. وقد كـرر عليّ المحاولة معهم، فعاد إليه جماعةٌ منهم وبقى نحو أربعة آلاف منهم خارجين عليه. فلم يكن أمام عليّ إلا مقاتلة هذه الفئة الخارجة عن صف جيش المسـلمين

وقت الحرب وفي ظرف يتحدد فيه مصيرُ الدولة الإسلامية. فقاتلهم عند قرية " النهروان "، خارج الكوفة وهزمهم، وانضاف إلى جيشه عددٌ منهم بعد الهزيمة وفر من نجا منهم من القتل هاربين بأفكارهم ومبادئهم ينشرونها في البلاد البعيدة عن قبضة الدولة.

وبعد هزيمة عليّ للخوارج، حاول استنفار قواته لقتال جند الشام لكن جند العراق كانوا قد ملوا القتال وطول أمده وتشوقوا للعودة إلى بلادهم، فتسللت أعدادٌ كبيرة منهم عائدة إلى الكوفة ولم يبق معه إلا عددٌ قليلٌ منهم. وفي الوقت نفسه تزايدت أعداذ الملتفين حول معاوية في الشام، خاصة بعد أنْ رأوا تخاذل أهل العراق وتفرقهم من حول عليٍّ وعدم رغبتهم في مواصلة القتال.

وبينما كان عليٌّ يستحث جنده على القتال ويمنيهم بالنصر إذا هم واصلوه معه، حدثت مؤامرة الخوارج التي دبروها للخلاص من عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص بالقتل والاغتيال في ليلة واحدة. وقد نجحت هذه المؤامرة التي دُبرت صباح يوم السابع عشر من رمضان سنة ٤٠هـ، في قتل عليّ على يد الخارجي عبدالرحمن بن مُلْجَم بينما نجا كل من معاوية وعمرو بن العاص.

لدى طعن عليّ، ذهب إليه جماعةٌ من المسلمين، كانوا قريبين منه، وقالوا له : "استخلف علينا "، فقال : " لا، ما استخلف رسول الله فأستخلف، ولكن إنْ يُرد الله بالناس خيرًا فسيجمعهم بعدي على خيرهم، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم ".

ومات عليّ متأثرًا بجرح السيف المسمم الذي ضُرب به. فلمّا مات عقد الناسُ، في الكوفة، بالبيعة لابنه الأكبر الحسن، وهم يرونْ أنه أحقُ بالخلافة من غيره. لكنّ الحسن رأى ضرورة حقن دماء المسلمين ووقف نزيف هذه الفتنة بتنازله عن الإمامة، بعد أن تولاها لستة شهور، وأدت الوساطة التي حدثت في هذا الخصوص إلى أن يتنازل عن الخلافة. و تم عقد البيعة من الحسن لمعاوية في موضع يُقال له (مسكن) على نهر دجيل في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٤١ للهجرة، فسمُي ذلك ا لعام (بعام الجماعة) لاجتماع المسلمين فيه بعد الفُرقة.

ولقد دخل معاوية، بعد ذلك، مع أعوانه الكوفة فبايعه أهلُها وبقية المسلمين في كافة الأمصار بالخلافة. وبتولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة ينتهي عهدُ الخلفاء الراشدين ويبدأ عهدٌ جديدٌ هو عهد الخلافة الأموية، الذي استمر خلاله الأمويون يحكمون دولة الإسلام مدة ٩١ عامًا من سنة ٤١ حتى سنة ١٣٢

للهجرة.

ولقد وقع التغيير في الدولة العربية الإسلامية على يد معاوية بن أبي سفيان، الذي صار الخليفة والحاكم الشرعي للدولة الإسلامية، والذي نجح في أن يجعل الحكم وراثيًا في دولة الإسلام، على خلاف ما كان عليه في عهد الراشدين، والذي نجح في أن يقيم لأسرته وأهل بيته الأمويين مُلْكًا على غرار مُلك الفرس والروم.

ولقد كانت المهمة الملقاة على عاتق معاوية لإحداث التغيير في الدولة الإسلامية مهمةً غايةً في الصعوبة، إذ كان عليه في بداية حكمه أن يَلُم شعث المسلمين وأنْ يوحد كلمتهم، وأن يتخطى الأحداث الجسام التي وقعت ووصل بسببها إلى كرسي الحكم، وأن يعيد الأمن والنظام الى الدولة وأن يُصلح الإدارة والاقتصاد، وأن يستعيد، بعد ذلك كله، مسيرة الفتوح الإسلامية التي بدأت على عهد أبي بكر الصديق، وأنْ يُشغلَ القبائل العربية بحركة الفتح والجهاد عن الصراع في داخل الدولة.

ولقد حكم معاوية الدولة الإسلامية مدة عشرين عامًا (٤١-٦١هـ) استطاع خلالها أن يحقق كل ذلك وأن يتخطى جميع العوائق التي اعترضت سبيله، وأن يؤسس دولة قوية البنيان مزدهرة الحكم والسياسة والإدارة، منتعشة الاقتصاد، متينة الجيش والأسطول-واسعة الجهات والأركان. ولقد نجح معاوية، في جعلْ حكام الأمويين من بعده، يُكملون ما بدأه الراشدون من فتوح، ويواصلون ما قاموا به من جهاد، وأن يوسعوا حدود الدولة لتصل إلى حدود الصين شرقًا والأطلسي غربًا وغانا جنوبًا وفرغانة شمالاً، وتضُم بين جنباتها مزيجًا متجانسًا من شعوب القارات المختلفة، وتجني المزيد من ثمرات وخيرات البلاد المفتوحة، مما جعلها في حالة رخاء وترف زائد.

وقد أحدثت ثورة الأمويين تغييرًا لنظام حكم الدولة العربية الإسلامية، لما تميز به ذلك العصر من سمات خاصة غلبت عليه هي :

أولاً : انتقال مركز الخلافة وعاصمتها من المدينة والكوفة إلى دمشق وبلاد الشام، فحدث بذلك في الدولة التغيير الحضاري، وانتقلت من طوْر البداوة التي كانت عليها في شبه الجزيرة إلى طور المدنية الهيلينية، لمجاورة العاصمة دمشق لدولة الروم. فحدث بذلك التأثير المادي على العرب في الملبس والمأكل والمشرب والمسكن، كذلك ظهر التأثير البيزنطي واضحا في المعمار الإسلامي

الذي تأثر كثيرًا بالمعمار البيزنطي وبنى خلفاء الأمويين المساجد الفخمة والقصور الفارهة تشبهًا بكنائس الروم وقصورهم.

كذلك ظهر التأثير المادي واضحًا في حياة الترف والبذخ التي عاشها خلفاء الأمويين، عدا الخليفة عمر بن عبدالعزيز، فقد ورد عن غالبيتهم الإسراف والبذخ الزائد في كل ألوان الترف والرفاهية .. ولقد كان دخل الولايات المفتوحة في العهد الأموي كفيلاً بتحقيق الترف الذي شمل الدولة جميعها، ولم يقتصر على الحاكمين فحسب بل شمل سائر طبقات الشعب بدليل رخاء الأسعار في ذلك العهد وتوافر السلع وعدم وجود مجاعات أو أوبئة أصابت البلاد أيام الحكم الأموي.. حقيقةً أنَّ ثورات الخوارج استنزفت أموالاً طائلة من حكام الأمويين.. لكن رغم ذلك لم تعاني البلاد أيامهم من أي أزمات مالية أو مشاكل اقتصادية.

ومن النقلات الحضارية للدولة الإسلامية في العهد الأموي استكمال نظمها الإدارية والمالية وقيام دواوين عدة، أدارت أمور البلاد بكفاءة زائدة، وقد استعان حكامُ الأمويين في ذلك بأهالي البلاد دون تعصب لدين أو لمذهب، وشارك أهل الذمة في الأعمال الهامة وفي دواوين الدولة كافة .

ومن التغييرات الحضارية التي تمت للدولة العربية الإسلامية في العهد الأموي تعريب العملة والدواوين ويُنسب ذلك للخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، الذي عرَّب الدواوين فصار يُكتب فيها بالعربية بعد أن كان كل مصر من الأمصار يكتب باللغة التي كان يُكتب بها قبل الإسلام، وقد أدى ذلك إلى سرعة تعريب الأمصار وانتشار العروبة والثقافة العربية فيها. كذلك يُنسب لعبدالملك تعريبُ العملة الإسلامية، ففي سنة ٧٥ هجرية أمر عبدالملك بسك أول دينار عربي كُتب على وجه من وجهيه (قل هو الله أحد)، وكتبُ على الوجه الآخر عبارة (لا إله إلا الله)، ويرجع السبب في سك عبدالملك للعملة الإسلامية أنَّ المسلمين كانوا يتعاملون بعملة الروم، وهي الدنانير الذهبية وعملة الفرس، وهيَ الدراهم الفضية، ولم تكن لهم عملة خاصة بهم. وحدث أنّ عبدالملك استحدث أن يكتب في صدر صحفه المرسلة إلى ملك الروم عبارة (قل هو الله أحد) مع ذكر النبي (ﷺ)، ووصلت صحف من هذه الصحف إلى ملك الروم فغضب لذلك وأرسل إلى عبدالملك يقول له معاتبًا : (إنكم قد أحدثتم في طواميركم شيئًا من ذكر نبيكم فاتركوه وإلا كتبنا في دنانيرنا منْ ذكره ما تكرهون). فعظم ذلك في صدر عبدالملك، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية يسأله في هذا الأمر، فقال له : (يا أبا هشام حرِّم دنانيرهم واضرب للناس سككًا فيها ذكر الله تعالى وذكر رسوله(ﷺ)

ولا تعفهم مما يكرهون) فضرب الدنانير سنة ٧٥، واستقلت بذلك العملة الإسلامية عن التبعية للعملات الرومية والفارسية.

ومن التغييرات الهامة التي حدثت للمجتمع الإسلامي في العصر الأموي قيام الجماعات السياسية والفرق الدينية كفرق الخوارج والشيعة، هذه الجماعات التي كان لها دور كبير في الثورة ضد الدولة الأموية ذاتها وإحداث التغيير في حكم الدولة الإسلامية وتحويله من البيت الأموي إلى البيت العباسي سنة ١٣٢هـ.

ولعل سقوط هذه الدولة العريقة ذات الإنجازات التاريخية المجيدة، وانتهاء أمرها دون أن يتجاوز عمرها القرن من الزمان ، يجعلنا نتساءل عن أهم الأسباب التي أدت إلى سقوطها وزوالها رغم ما قدمته للمجتمع الإسلامي من إصلاح وفتوح ونجاح، خلال السنوات القليلة التي حكمت فيها بلاد الإسلام من عمر الزمان ؟

في الحقيقة، فإنه يأتي في مقدمة هذه الأسباب، تلك المعارضة التي لقيتها هذه الدولة، منذ قيامها، وبخاصة من الموالي في الأمصار. وقد قامت هذه المعارضة، في وجه الأمويين، من جماعات المسلمين غير العرب، الذين لم يُقروا الأمويين على الطريقة التي وصلوا بها إلى الحكم، ولم يعترفوا بأحقية حكامها في الخلافة. وقد ظل البعض منهم مواليًا لعليّ بن أبي طالب ولبنيه وأحفاده من بعده، وقد رأى هؤلاء ضرورة استمرار حكم المسلمين في بيت النبوة. ورأى البعض الآخر أنّ معاوية انتزع الحكم، دون وجه حق، من مستحقيه، أنه أغفل مبدأ الشورى الذي جاء به الإسلام وسار عليه الخلفاء الراشدون وصولاً إلى الحكم، وأنه حوّل الخلافة إلى مُلك وراثي كسروي؛ الأمر الذي يتنافي مع ما اتفق عليه المهاجرون والأنصار، غداة وفاة النبي (ﷺ)، في سقيفة بني ساعده وما طبقه الشيخان أبو بكر وعمر. ولقد كانت جماعتا الشيعة والخوارج، كما قلنا، أكثر المعارضين لحكم الأمويين، ومن أشدهم عملاً على إسقاط حكمهم وإنهاء دولتهم.

ويرى الشيعة، وهم العلويون، الذين تشيعوا لعلي ولآل البيت، أن الخلافة، وهي الإمامة عندهم، حقٌ لآل البيت من نسل عليّ والسيدة فاطمة ابنة رسول الله (ﷺ)، وأن خلافة الأمويين باطلة من أساسها. وقد ظهرت جماعة الشيعة، كجماعة سياسية، بعد معركة كربلاء التي استشهد فيها الحسين بن عليّ سنة ٦١هـ، وقد قام هؤلاء الشيعة بثورات ضد الأمويين، بقصد تغيير نظام الحكم

ونقله من البيت الأموي إلى البيت العلوي، قام بإحداها زيد بن علي بن الحسين في الكوفة في عهد خلافة هشام بن عبدالملك، وقام بالثانية ولده يحيى بن زيد في بلاد الديلم، جنوبي بحر قزوين في منطقة طبرستان. وقد قابل حكام الأمويين هذه الثورات العلوية بعنف شديد، ولم يشفع لأهلها عندهم قرابتهم للرسول، لأن الأمويين اعتبروهم متمردين خارجين عن طاعة الدولة وجبت محاسبتهم. وحين فشلت الثورات المسلحة المعلنة للعلويين ضد الأمويين لجأوا إلى التنظيمات السرية المحكمة بعيدًا عن العاصمة دمشق وبخاصة في بلاد فارس حيث نجحوا هنالك في اكتساب أعداد كبيرة من الأتباع، وأصبحت تلك البلاد وسكانها الفرس منطلق ثورتهم في القضاء على الحكم الأموي وإقامة الحكم العلوي.

أما الخوارج، وهم فرقة نشأت أثناء معركة " صفين " بين علي ومعاوية، وبعد حادث التحكيم، وكان هؤلاء قد أجبروا عليًا على قبول التحكيم، وبعد أن تم التحكيم احتج هؤلاء على عليٍّ لقبوله، رافعين شعار " لا حُكم إلا لله "، وهجروا جيش علي وانسحبوا إلى قرية "حروراء"، بالقرب من الكوفة، وسموا لذلك بالحرورية. وسموا هم أنفسهم " بالشراة " وسماهم أعداؤهم " بالخوارج ". وبرغم أن عليًا قد أوقع بالخوارج هزيمة ساحقة عندما حاربهم عند "النهروان"، إلا أنهم، بعدما انهزموا، تفرقوا إلى أماكن عديدة وظلت أفكارهم الدينية والسياسية قائمةً وقويٌّ جانبهُم في العصر الأموي وشكلوا حزب معارضةٍ قويًا ضد الأمويين. وقد رأى الخوارج أنَّ الخلافة ليست قصراً على قريش والعرب، وإنما هي حقٌ مباحٌ لكل مسلم حُر يبايعه المسلمون أيًا كان جنسُه أو نسبُه أو لونه. وأنَّ لجماعة المسلمين الحقَ في عزل الحاكم الذي يختارونه لحكمهم إذا هو حاد عن الطريق القويم. ولقد حاول الخوارج إسقاط حكم الأمويين بالقوة، وقاموا بالثورة ضدهم، وكانوا أشد العناصر إقلاقًا لهم بسبب شجاعتهم واستبسالهم في القتال وعدم مبالاتهم بالموت ورغبتهم في الاستشهاد.

وقد قاتل حكام الأمويين الخوارج بضراوة وأوكلوا إلى قوادهم الكبار أمرَ محاربتهم، فاستنفد قتالهُم معظم قوتهم. وكاد الخوارج يقضون على الدولة الأموية في عهد حكم عبدالملك بن مروان، لولا شجاعة قائده وواليه على العراق وفارس الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي دخل معهم في أكثر من ثمانين معركة كان النصرُ حليفه في معظمها. وقد اشتدت ثورات الخوارج في عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، وانضم إلى صفوفهم أعدادٌ كبيرة من شعوب الموالي الذين راقتهم شعارات الخوارج السياسية في الحكم وبخاصة الموالي

الفرس والبربر. فاستطاع الخوارج، بذلك، أن يؤلبوا شعوب الدولة الإسلامية ضد الدولة الأموية التي تفرغت في السنوات الأخيرة من حكمها لمحاربة هذه العناصر الساخطة المتمردة؛ الأمر الذي أتعب الدولة وأجهد اقتصادها وأدى في النهاية إلى انهيارها وسقوطها.

وكان سوءُ حال الموالي في الدولة الأموية سببًا من أسباب سقوط هذه الدولة، وقد نقم هؤلاء الموالي غير العرب، على الأمويين تعصبهم للعرب والعروبة، معاملتهم لهم كمواطنين من الدرجة الثانية وبدونية عن العرب، وعدم توليتهم مناصب القيادة في الدولة والجيش والحكم والإدارة وقصر ذلك على العرب. وكان هؤلاء الموالي وبخاصة الفرس يرون في أنفسهم، ، التفوق على العرب لأنهم أصحاب حضارة قديمة ومدنية عريقة يوم كان العرب مجرد بدوٌ يرعوْن الإبل ويسكنون الخيام. وبسبب تلك التفرقة في المعاملة بين العرب وغير العرب في دولة الأمويين هرع هؤلاء الموالي إلى الخارج وانضافوا إليهم واعتنقوا مبادئهم السياسية التي تجعل الحكم حقًا متاحًا لأي مسلم ارتضت بحكمه جماعة المسلمين. وقد انتهز الخوارج تلك الفرصة في إشعال نادر العداوة في صدور الموالي ضد الأمويين لتحقيق أهدافهم في إقامة دولة لهم، بعد أن ينجحوا في تقويض حكم دولة الأمويين.

كذلك كان الصراعُ القبلي والعصبيةُ القبلية من أهم العوامل التي أدت إلى القضاء على دولة الأمويين ووصول حكمها إلى نهايته. ففي ظل حكم الدولة الأموية تفشت روح العصبية القبلية، تلك الروح التي عمل الإسلامُ على القضاء عليها، وكانت سبب الفرقة بين قبائل العرب في الجاهلية وسبب الحروب والنوازل بينهم. وفي عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء الأمويين ثارت روح العصبية القبلية في جميع أنحاء الدولة الأموية، فقد تعصب مروان للقيسية ضد اليمنية فثارت اليمنية ضده، وقد خاض مروان حروبا طويلة ضد اليمنية المتمركزين في بلاد الشام، وساد النزاع القبلي الدولة جميعها في الشام واليمن والعراق والحجاز، وكان على مروان محاولة رأب صدع الدولة لكن جاء ذلك بعد فوات الأوان وبعد نجاح الدعوة العباسية في خراسان. ولقد عجلت هذه الحروب القبلية بنهاية الدولة الأموية وأدى النزاع بين عرب الشام القيسية واليمانية إلى تضعضع الأساس الذي ارتكز عليه الحكم الأموي فى إقامة دولته. هذا فضلاً عن انتقال هذا الداء العضال إلى الأمصار الإسلامية، مما أدى إلى عدم قدرة الدولة على السيطرة على ولاياتها وعدم مقدرتها في استمرار سيادتها

عليها؛ الأمر الذي جعلها تربةً خصبةً رتع فيها الشيعة والخوارج وحققوا ما يريدون دون أن تنالهم يد الدولة بأي أذى.

كذلك كان انقسام البيت الأموي على نفسه من عوامل سقوط الدولة الأموية، ولقد جاء هذا الانقسام بسبب نظام ولاية العهد وتولية الخلفاء العهد من بعدهم لأكثر من واحد، وهو المبدأ الذي أقره الأمويون في مؤتمر الجابية سنة ٦٤هـ. وقد أدى ذلك إلى النزاع بين أمراء البيت الأموي الحاكم والصراع على تولي الحكم؛ مما أدى إلى الحروب بينهما ، وقد أضعفت هذه الحروب الدولة وأدت إلى تدهورها ثم نهايتها.

وكان مروان بن الحكم، هو أول من سنّ هذه السُنة، حين جعل ولاية العهد من بعده لإبنيه : عبدالملك ثم عبدالعزيز، وقد خالف في ذلك ما تقرر في مؤتمر الجابية من أن تكون ولاية العهد لخالد بن يزيد بن معاوية ثم لعمرو بن سعيد بن العاص. وكان من أثر ذلك أن خرج عمرو بن سعيد ثائرًا على عبدالملك.

وقد سار عبدالملك بن مروان على سنة أبيه مروان، فقد فكر في خلع أخيه عبدالعزيز من ولاية العهد وجعلها لابنه الوليد ثم سليمان، ولم يمنعه ذلك سوى وفاة أخيه عبدالعزيز قبل أن يُقدم على هذه الخطوة. كذلك حاول الوليد خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها في ابنه عبدالعزيز، وقد أجابه قواده إلى ذلك، وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفي. وكاد هذا الأمر أن يتم لولا وفاة الوليد فجأة ونجاح أخيه سليمان في الوصول إلى الخلافة، وانتقامه ممن كان لهم ضلع في محاولة إبعاده عن الخلافة من كبار قواده.

وظهر هذا الخلاف واضحًا في البيت الأموي الحاكم في النزاع الذي وقع بين يزيد ابن الوليد بن عبدالملك وبين ابن عمه الوليد بن يزيد. وقد شارك يزيد في قتل الوليد وإزاحته عن الخلافة.

ولقد أضعفت هذه الخلافات داخل الأسرة الحاكمة من قوة البيت الأموي وتماسكهم، فأتاح مناخ الضعف والتفكك هذا الفرصة لأعدائهم العباسيين في الاستفادة من جميع الظروف وتجنيد العناصر الساخطة على حكم الأمويين، ونجحوا في النهاية في الثورة عليهم وإسقاط حكمهم وتغيير نظام الحكم في الدولة الإسلامية من الشكل الأموي إلى الشكل العباسي، الذي أرسى قواعد الأمويين ذاتها في الحكم مع تغير أسماء الحكام وانتمائهم إلى بيت عربي قرشي هو البيت العباسي.

الفصل الرابع

ثورة أهل البشرود(١) فى عهد الخليفة المأمون

٢١٦ : ٢١٧هـ / ٨٣١ : ٨٣٢م

عبدالناصر إبراهيم عبدالحكم(*)

قام الأقباط بكثير من الثورات طوال القرن الثاني الهجري ، وكان معظم هذه الثورات في الوجة البجري ، وكانت آخر تلك الثورات ، ثورة أهل البشرود في عهد الخليفة المأمون وانضم العرب إلى الثورة بعدما زاد عددهم وأصبحوا يملكون الأراضي ، وخرجوا جميعاً على طاعة الولاة ، وطردوا الموظفين من أعمالهم ، وثاروا على قوات الشرطة والجيش ، وشملت الثورة الوجه البحري كله(٢).

موقع البشرود

البشرود : كورة (٣) من كور بطن الريف في أسفل الأرض بمصر (٤). وذكر المقريزى أن عدد القرى التابعة للبشرود " أربع وعشرون قرية " (٥). وهى المنطقة الرملية الواقعة على ساحل البحر المتوسط (بحر الروم) بين فرعى دمياط ورشيد ، وهى منطقة تحيط بها المستنقعات والأوحال ، ويصعب الدخول إليها(٧) وقد عرف أهل البشرود بغلظة طباعهم وحبهم للعصيان والثورات منذ التاريخ القديم ، وقد شجعتهم طبيعة المنطقة التي يعيشون فيها على ذلك .

أسباب الثورة

أسباب مالية وليست دينية بدليل اشتراك المسلمين في هذه الثورة ، وترجع هذه الأسباب إلى زيادة الخراج(٨) المفروض على الأراضي الزراعية في العصر العباسي(٩) .

وقد عانى أهل البشرود من تعسف أحمد بن الأسبط ، و إبراهيم بن تميم في جباية الخراج ، حيث طالبا الناس بما لا يقدرون عليه ، في وقت

(*) مدرس التاريخ الاسلامى، كلية الآداب – جامعة اسيوط.

تعرضت فيه البلاد لقحط شديد نتيجة لقلة فيضان النيل في العام السابق ، مما أدى إلي نقص الغلال وإلى غلاء شديد ومات من الجوع خلق كثير من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ .

ويوضح ساويرس بن المقفع ظلم جباة الخراج ويقول " كان متولي الخراج في ذلك الزمان رجلين أحدهما اسمه أحمد بن الأسبط والآخر إبراهيم بن تميم هذين مع ما كانوا الناس عليه من البلايا لا يدعوا طلب الخراج بغير رحمه وكان الناس في ضيق زايد لا يحصى وأصعب ما عليهم ما يطلبوه منهم متوليين الخراج وطلب ما لا يقدروا عليه ، وبعد هذا نزل الله الكريم بأحكامه الحق غلا عظيما على كورة مصر حتى أن القمح بلغ خمس ويبات(١٠) بدينار . ومات بالجوع خلقا كثيرا من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ والشبان ومن جميع الناس مالا يحصى عدده من شدة الجوع ، وكان متولي الخراج يؤذى الناس في كل مكان وكان وأكثر النصارى ... كانوا يعذبونهم بعذاب شديد ... إلى أن باعوا أولادهم في الخراج من كثرة العذاب ، لأنهم كانوا يربطوهم في الطواحين ويضربوهم حتى يطحنوا مثل الدواب وكان يعذبهم رجلا يعرف عبت(١١) وتمادت عليهم الأيام وانتهوا إلى الموت"(١٢) .

وقد سخط الخليفة المأمون على الوالي عيسى بن منصور(١٣) وقال : " لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون و كتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد"(١٤) وفي رواية أخرى قال له: "هذا كله بسوء تدبيرك وجورك على أهل القرى وقد حملت الناس مالا يطيقون وكتم الأمر عنى حتى عظم"(١٥) .

وصفوة القول فقد قامت الثورة بسب فداحة الضرائب المفروضة على أهل البشرود ، وظلم جباة الخراج في تحصيل الخراج بالقوة رغم الظروف التي تمر بها البلاد من قحط وغلاء كبير أدى إلى وفاة عدد كبير من الناس .

أحداث الثورة

أعد أهل البشرود العدة للثورة ، وقامت الثورة في جمادى الأولى سنة (٢١٦هـ /٨٣١ م) واشترك فيها العرب والقبط ، وصنعوا السلاح ، وطردوا عمال الحكومة وامتنعوا عن دفع الخراج ، وتحصنوا في كورة البشرود ، وشجعتهم طبيعة المنطقة التي يعيشون فيها على ذلك إذ كانت تحيط بهم المستنقعات والأوحال التي تعيق حركة الجند ، مع معرفتهم التامة لطرق هذه

المنطقة[١٦] .

قال الكندي " انتقضت اسفل الأرض كلها عربها وقبطها في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين ، وأخرجوا العمال ، وخالفوا الطاعة وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم " [١٧].

وعمت الثورة أنحاء الوجه البحري كله واختار الثوار عبدوس الفهرى قائد لهم وهو من ولد عقبة بن نافع[١٨] "وحشدوا وجمعوا فكثر عددهم وساروا نحو الديار المصرية ؛ فتجهز عيسى بن منصور ، وجمع العساكر والجند لقتالهم، فضعف عن لقائهم وتقهقر بمن معه ، فدخلت الأقباط وأهل الغربية مصر وأخرجوا منها عيسى هذا على أقبح وجه لسوء سيرته ، وخرج معه أيضا متولي خراج مصر وخلعوا الطاعة "[١٩].

وهكذا فقد فشل الوالي عيسى بن منصور الرافقى في التصدي للثوار، ونجح الثوار بقيادة عبدوس الفهرى في هزيمته ودخلوا الفسطاط ، وطردوا منها عيسى بن منصور على أقبح وجه ومتولي خراج مصر [٢٠] .

بعث الخليفة المأمون إلى قائد الأفشين [٢١] في برقة ، ليقضي على الثورة في مصر ، فقدم الأفشين من برقة منتصف جمادى الآخر سنة (٢١٦هـ/٨٣١م) وأقام بالفسطاط لأن النيل في مده قد حال بينه وبينهم ، ثم خرج الأ فشين وعيسى بن منصور في شوال لمحاربة أهل تنو وتمى ، وقد اجتمعوا بإشليم[٢٢] . وهزمهم الأفشين ، وأسر وقتل منهم الكثير[٢٣] . وأجمعا على أن يختص عيسى بن منصور ، بالضرب على أيدي القبط ، و الأفشين بإخماد ثورة العرب ، فرجع عيسى بن منصور إلى الفسطاط ، وقام بتعبئة الجيش ، ثم خرج إلى تمي فقاتل أهلها وهزمهم . ومضى الأفشين إلى الحوف[٢٤] ، وقتل جماعة الثوار فيه ، وبعث عبيد الله بن يزيد[٢٥] ، إلى الإسكندرية فتصدى له بنو مدلج فحصروه في حصن الإسكندرية ، ومضى الأفشين إلى شرقيون ، فلقى من هناك بمحلة أبى الهيثم فاقتتلوا فظفر بهم الأفشين وقتل قائدهم أبا ثور اللخمي ، وذهب الأفشين إلى دميرة فحاربهم في ذي القعدة وانتصر عليهم .

وأقبل الأفشين في جنوده إلى الإسكندرية فلقيه طائفة من بنى مدلج بخربتا من أعمال البحيرة فهزمهم ، وحاربهم أيضا في محلة الخلفاء فهزمهم وأسر أكثرهم ، ونزل بهم قرطسا إحدى قرى البحيرة فضرب أعناقهم . ودخل الأفشين

الإسكندرية فهرب منه رؤساء الثوار وهم بحر بن على اللخمي ، و ابن عقاب اللخمي ، ورئيس جماعتهم معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، وبعد فتح الإسكندرية ، مضى الأفشين إلى أهل البشرود فامتنعوا عليه . فكتب إلى الخليفة المأمون يخبره بما حدث ، فرأى الخليفة أن يأتي بنفسه إلى مصر(٢٦).

وبذلك يتضح لنا أن الأفشين قد تعامل بقسوة مع الثوار في الدلتا والحوفين الشرقي والغربي والإسكندرية ، وقد قضى على عدد من رؤساء الثوار وقتل كثيرا من عامة الشعب .

يقول ساويروس " كان الأفشين يقتل حتى الأبرياء بجريرة المفسدين وما بقى أحد يراه إلا قتله"(٢٧) .

والسبب في ذلك يرجع إلى أنها ثورة ، عرضت أمن البلاد للخطر ، ورأى الأفشين أنها عصيان وانشقاق عن سلطان الخليفة ، ولذلك كان لابد من التعامل معها بالقوة ، وقتل كثيراً من رجالها.

موقف بطريرك الأقباط من الثورة

حاول البطريرك أنبا يوساب(٢٨) تهدئة الثوار(٢٩) وقد ذكر ساويرس أن البطرك أنبا يوساب حزن على أولئك الضعفاء لأنهم لا يقدروا على مقاومة السلطان وأنهم باختيارهم أختاروا الهلاك لنفوسهم " . وكتب إليهم كتباً مملوءة خوفا ويذكر لهم مايحل بهم ليعودوا ويندموا ، ويرجعوا عن خلافهم ،ويدعوا مقاومة السطان ، فلم يرجعوا فلم يفتر من مكاتبتهم كل يوم ، وكان يكتب إليهم فصولا من الكتب ويقول قال لسان العطر بولص : كل من يقاوم السلطان فهو مقاوم حدود الله ، والذي يقاومه يدان " ولما وصلتهم كتب البطرك مع أساقفته ، وثب الثوار عليهم ونهبوا كل ما معهم وأهانوهم فعادوا إلى البطرك وعرفوه ما جرى عليهم"(٣٠) .

فحزن البطريرك عليهم لأن العصيان يجلب سلف الدماء ، ويعقبه اضطهاد كبير، وصم الثوار آذانهم عن سماع أقواله ، واتهموه مع أساقفته بالضعف والجبن ، وقالوا أنهم عزموا أن يموتوا أشرافاً بحد الحسام من أن يعيشوا عبيد سلطة الظلم و العسف(٣١) . فقال البطريرك " ما يبطئ عن هؤلاء الهلاك ، بل يتم عليهم ما قاله النبي أشعيا إني أسلمكم للسيف ، ويقع جميعكم بالقتل ، لأني ناديتكم فلم تسمعوا كلامي وخالفتم وفعلتم الشر أمامي"(٣٢)

وبذلك يتضح لنا محاولة البطريرك أنبا يوساب تهدئـــة الثـــوار ، ونبـــذ العنف وعدم مقاومة السلطان ، وخوف البطريرك علـــى شـــعبه ومـــا ســـوف يتعرضون له من قتل وتعذيب واضطهاد وايضـــا حـــب البطريـــرك للســـلام والمحبة و إطاعة أوامر السلطان .

رغم ذلك صمم الثوار على الثورة ؛ ومحاولة التخلص من الحكم العباسي .

حضور الخليفة المأمون إلى مصر

أعد الخليفة المأمون العدة ليخرج بنفسه إلى مصر ، فدخلها في المحـــرم ســـنة ٢١٧هـــ / ٨٣٢م عـــلى رأس جيشه ، وقد صحبه أخوه محمد المعتصم ،وولده العباس ، وولدا أخيه ، وهما الواثق والمتوكل ؛ والقاضـــي يحيـــى بـــن أكـــثم ، والقاضي احمد ابن أبى داود وغير هؤلاء من أعيان بغداد[٣٣] .

واستصحب معه البطريرك ديونوسيوس[٣٤] بطريرك أنطاكية ، فلما علم البطريرك أنبا يوساب بوصول المأمون وصحبته البطريرك ديونوسيوس، جمع الأساقفة وسار إلى الفسطاط ليسلم عليه ، فلما نظـــر البطريـــرك ديونوســـيوس البطريرك أنبا يوساب فرح فرحا عظيما وأخبر البطريرك ديونوسيوس الخليفـــة المأمون بان البطريرك أنبا يوساب لم يتـــأخر عـــن مكاتبـــة الثـــوار ، وأن لا يقاوموا أمر الخليفة ، ففرح المأمون بهذا الأمر وطلب من البطريرك أنبا يوساب والبطريرك ديونوسيوس أن يذهبا إلى الثوار لاقناعهم بالرجوع عن خلافهـــم و إطاعة أوامر الخليفة .

وقال المأمون " فان أجابوا فأنا افعل معهم الخير في كل ما يطلبوه منـــي ، وإن تمادوا على الخلاف فنحن بريئين من دماءهم " فذهبا إلي الثوار لاقناعهم بالتخلي عن مخالفتهم للخليفة فرفضوا[٣٥]

وفى ذلك الوقت قام المأمون بعزل عيسى بن منصور " أمر بحل لوائـــه وأمره بلباس البياض " وضم أصحابه إلى ابن عمه موسى بن إبراهيم ، وولـــى المأمون على شرطة الفسطاط أحمد بن بسطام الأزدى من أهل بخاري ، وعقـــد لأبى مغيث موسى بن إبراهيم ومعه رشيد التركي على جيش بعثه إلى الصـــعيد فى طلب عبدوس الفهرى ، و تقاتل الطرفان فـــي طحـــا[٣٧]فهـــزم عبـــدوس وأسر[٣٧] .

وأمر المأمون الأفشين بان يسير إلى أهل البشرود ، فلم يقـــدر علـــيهم

لموقعهم الحصين المحاط بالمياه ، بل كانوا يقتلون من جنود الأفشين كل يوم جماعة ، فلما علم المأمون بذلك سار بجيشه إلى هناك ، وأمر أن يحشدوا جميع من يعرف طرق البشرود من أهل المدن والقرى المجاورة لهم ومن كل الأماكن ومن أهل تيدا وشبرا بسيوط الذين يعرفون طرق تلك الأماكن ، وتتبعهم الجنود إلى أن سلموا لهم أهل البشرود وقتلوهم ونهبوهم و أخربوا مساكنهم وأحرقوها بالنار وهدموا بيعهم [٣٨] . ونزلوا على حكم أمير المؤمنين فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ، فبيعوا وسبى أكثرهم ، وأحضر عبدوس الفهري إلى سخا [٣٩] وقتله . وتتبع كل من يومئ إليه بخلاف فقتل كثير من الناس[٤٠] .

ويقول المقريزى " ومن حينئذ أذل الله القبط في جميع أرض مصر ، وخذل شوكتهم فلم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان وغلب المسلمون على القرى، فعاد القبط من بعد ذلك إلى كيد الإسلام وأهله بأعمال الحيلة واستعمال المكر وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم في كتاب الخراج"[٤١].

وصفوة القول فقد سببت هذه الثورة إزعاجا كبيرة للخلافة العباسية ، نتيجة لفشل الوالي عيسى بن منصور في التصدى لها ، ولم يستطع الأفشين القضاء على الثورة ، لذلك حضر الخليفة المأمون بنفسه للقضاء على الثوار ، فأرسل الأفشين إلى أهل البشرود ثم تابعه الخليفة بنفسه إلى البشرود وقضوا على ثورتهم . وأرسل موسى بن إبراهيم ورشيداً التركي إلي الصعيد للقضاء على عبدوس الفهرى ، وهزم وأسر ، وسيق إلى الخليفة المأمون في سخا حيث ضربت عنقه .

وقد ذكر اليعقوبي أن الخليفة المأمون استفتى فقيهاً من أهل مصر يدعى الحارث بن مسكين[٤٢] فيما فعله بأهل البشرود فقال إن كانوا خرجوا الظلم نالهم فلا يحل دماءهم و أموالهم " فأنكر المأمون عليه فتواه وقال" هؤلاء كفار لهم ذمة، إذا ظلموا تظلموا إلى الإمام، وليس لهم أن يستنصروا بأسيافهم ويسفكوا دماء المسلمين في ديارهم"[٤٣] .

إذن فقد أوضح الخليفة المأمون الطريق التي يجب أن يتبعها كل من يتعرض للظلم وأن يتظلم إلى ولى الأمر وليس بالخروج عليه وسفك الدماء .

الخليفة المأمون يتفقد أحوال الرعية

كان الخليفة المأمون يسير في قرى مصر يتفقد أحوالها وكان يقيم في كل قرية يوماً وليلة . ويقول المقريزى " فمر بقرية يقال لها طاء النمل [٤٤] فلم

يدخلها لحقارتها ، فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعــرف بماريـــة القبطيـــة ، صاحبة القرية ، وهى تصيح ، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها وكـــان لا يمشى أبدا الا والتراجمة بين يديه من كل جنس فذكروا له أن القبطية قالت يا أمير المؤمنين : نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي والقبط تعيرني بـــذلك ، وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفني بحلوله في ضيعتي، ليكـــون لـــى الشـــرف ولعقبى ولا تشمت الأعداء بى وبكت بكاء كثيراً ؟، فرق لها المأمون وثنى عنان فرسه اليها ونزل فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ ، وسأله : كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشـــمع والفاكهـــة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته ، فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة.

وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس وولدا أخيه الواثق والمتوكل ويحي بن أكثم والقاضى أحمد بن دواد ، فأحضرت لكل واحد منهم مـــا يخصـــه على انفراد . ولم تكل أحد منهم ولا من القواد إلى غيره ، ثم أحضرت للمـــأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيراً ، حتى أنه استعظم ذلك . فلما أصـــبح وقـــد عزم على الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفه طبق ، فلما عاينها المأمون من بعد قال لمن حضر قد جاءتكم القبطية بهدية الريف الكـــامخ والصحناء والصبر ، فلما وضعت ذلك بين يديه ، إذا في كل طبق كـــيس مـــن ذهب ، فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته ، فقالت : لا والله لا افعل ، فتأمل الـــذهب فإذا به ضرب في عام واحد كله ، فقال هذا والله أعجب ، ربما يعجز بيت مالنـــا عن مثل ذلك .فقالت: يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا فقـــال : إن بعض ما صنعت لكفاية ولا نحب التثقيل عليك ، فردى مالـــك بـــارك الله فيـــك فأخذت قطعة من الأرض وقالت يا أمير المؤمنين هذا و أشارت إلى الذهب مـــن هذا وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندى من هذا شئ كثير . فأمر به فأخذ منها وأقطعها عدة ضياع أعطاها مـــن قريتها طاء النمل مائتي فدان بغير خراج ، وانصرف متعجباً من كبـــر مروتهـــا وسعة حالها[٤٥].

وهكذا ضرب الخليفة المأمون مثلاً جديداً للحكام والولاة علمهم أن العظمـــة لا تقوم إلا على احترام الشعب، وأن الرفعة لا تنافى التواضـــع والتحبـــب إلـــى قلوب الرعية ، وأن الدولة لا تقوم الا بسواعد طبقاتها الصغيرة العاملة .

وكان المأمون وهو يزور مصر لا ينزل بمدنها فحسب ، ولكنه يذهب إلـــى أقاصي الجهات ، دارسا متفقداً لأحوال رعيته ، يطـــوف بـــالقرى ويزورهـــا ،

ويسأل عن أحوالها ويضرب لولاته مثلا رفيعا في الاهتمام بشـــئون الشـــعب ، ويعلمهم أنهم مسئولون عن سعادة هذا الشعب ورخائه و أمنه[٤٦] .

من خلال دراستنا لهذه الرواية التي رواها المقريـــزى والمصـــادر التـــي تحدثت عن ثورة أهل البشرود يتضح لنا:

١- أن المقريزى هو المصدر الأول الذي روى هذه القصة ولم يوضح لنا مـــن أين استقاها مع العلم أنه استقى أغلب أخبار ثورة البشرود من الكندى صـــاحب كتاب " ولاة مصر" . ولم يذكر هذه القصة بعد ســـوى مصـــدر متـــأخر عـــن المقريزى هو ابن إياس في كتابه " بدائع الزهور"[٤٧] . لذلك من المحتمل أنه قد اعتمد على المقريزى في القصة . ولم تذكر هذه القصة في أي مصـــدر آخـــر حتى المصادر القبطية مثل ابن البطريق في كتابة " التـــاريخ المجمـــوع علـــى التحقيق والتصديق "[٤٨] . وساويرس بن المقفع في كتابة " سير الآباء البطاركـــة "[٤٩] .

٢- كيف تستطيع صاحب قرية صغيرة ، استضافة الخليفة وصـــحبته وجيشـــه الذي يتكون من عدة آلاف فقد ذكر سعيد بن البطريق أنه كان " لأمير المؤمنين عشرة آلاف مولى مسلم"[٥٠] سوى عدد العرب في الجيش فما هو المكان الـــذي سوف يتسع لمثل هذا العدد في القرية صغيرة وما هي كمية الطعام المقدمة لهم ومن أين لها بكل هذا الطعام . مع العلم أن ســـبب قيـــام الثـــورة هـــو فداحـــة الضرائب المفروضة على أهل البشرود وقلة الطعام والغلاء الذي حل بـــالبلاد وكان من نتيجة موت كثير من الأطفال والنساء والصبيان والشيوخ من الجوع.

٣- أعطت صاحبة القرية الخليفة عشرة أطباق في كل طبق كيس من الـــذهب، كلها من ضرب عام واحد . ويقول الخليفة "ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلـــك" إذا كان بيت مال المسلمين والخلافة الإسلامية يعجز عن إنتاج مثل هذا الكم من الدنانير الذهبية فمن أين لصاحبة قرية صغيرة أن تملك مثل هذا القدر المال.

٤- يذكر ابن إياس ، أن المأمون " دخل عليه من المال في هذه السرحة ، نحو أربعة آلاف ألف دينار غير الهدايا والتحف"[٥١] لم يوضح ابن اياس هل كان ذلك مقدار الخراج أم مقدار الهدايا التي أهديت إلى الخليفة . وذكـــر المقريـــزى أن خراج مصر زمن المأمون قد بلغ " أربعة آلاف ألف دينار ومائتي ألـــف دينـــار وسبعة وخمسين ألف دينار"[٥٢] .ورغم أن مقدار المال الذي عاد بـــه المـــأمون يقارب الخراج إلا أننا نشك في أن هذا المبلغ هو مال الخراج وذلك نتيجة للثورة

التي عمت الدلتا والوجه البحري والفسطاط والصعيد أيضا فكيف تيسر لجباه الخراج للحصول عليه في الثورة .

وإذا كان مال الخراج فأين مرتبات العمال والجنود وأرزاق العرب و الأموال التي تنفق على الولاية نفسها.وإذا كان هذا المال من الهدايا التي تحصل عليها الخليفة فكيف حصل عليه مع اضطراب الأحوال والغلاء والجوع وموت كثير من الناس ولذلك فإننا في قيمة هذا المقدار من المال الذي عاد به الخليفة المأمون .

ومن أهم الأعمال التي قام بها الخليفة المأمون في مصر:

١- عزل الوالي عيسى بن منصور الرافقى وعين بدلاً منه كيدر بن عبد الله السعدي[٥٣] وولى الشرطة أحمد بن بسطام الأزدى من أهل بخارى[٥٤]

٢- قام بتنظيم نظام الخراج ، وسمح لبعض القبط بأن يكونوا مسئولين عن خراج بعض المقاطعات ، كما سمح للكنيسة بأن تقوم بجمع الضرائب من المناطق المجاورة[٥٥] .

٣- عمر المقياس الذي بجزيرة الروضة ، وقم بعمل جسر على النيل أمام الفسطاط [٥٦]

٤- بنى بصعيد مصر مقياساً يقاس فيه زيادة النيل في موضع يقال له شوارت بقرية يقال لها بنوده وأصلح مقياس النيل فى أخميم[٥٧] .

٥- سمح بإقامة كنيسه مرتمريم للفراشين النصارى الذين كانوا معه ، وأقيمت بالقرب من قبة الهوى التى بنيت له على جبل المقطم ، وكانت تسمى كنيسة الفراشين ، ثم أصبح اسمها كنيسة الروم[٥٨]

٦- ولى بكام النصرانى من أهل بورة حكم بورة [٥٩] وما حولها فبنى ببورة كنائس كثيرة . وكان فيها أيضا مسجدان يجتمع فيهما المسلمون ويصلون بهما [٦٠]

٧- فسخ عقود الضمانات وأصدر أوامر بإعفاء كافة الضمناء والعاملين من قبول الزيادة ، وأصدر بذلك منشوراً قرئ على الناس في جميع الكور[٦١].

وارتحل المأمون يوم الخميس لثماني عشرة من صفر، فكان مقامه بالفسطاط ، وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوما[٦٢]

النتائج التي ترتبت على الثورة

١- قضى الخليفة المأمون على الثورة وعاقب كلا من الحاكم والمحكومين بمـا يستحق أما الوالى عيسى بن منصور فقد عزله ، أما قائد الثوار عبدوس الفهرى فظفر به وقتله ، وأما الثائرون من الأقباط فنزلوا على حكم أميـر المـؤمنين ، فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ، فبيعوا وسبى أكثرهم[٦٣] .

٢- القضاء نهائيا على مقاومة القبط ، ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان وغلبهم المسلمون على عامة القرى [٦٤]

٣- أعاد الخليفة المأمون الأمن والاستقرار إلى مصر[٦٥] .

٤- امتزج العرب بالمصريين ، وتزوج الأعراب بكثير من نساء القبط ، وكـان لذلك التصاهر أثره الطيب في الامتزاج النهائي ، ولم يبق هناك من فارق بـين القبطي والمسلم إلا فارق الدين ، أما الدم والجنس فقد ثبـت أن فيهـا اشـتراكا وامتزاجا .وتكونت أمة مصرية عربية إسلامية متحدة الغايات ، لها كيان سياسي ظاهر ولها شخصية واضحة في الدولة له الإسلامية الكبرى ، وتؤثر فيها تأثيرا إيجابيا أو تشترك في أحداثها اشتراكاً فعلياً. واخلد كلا الفريقين إلى الحياة الهادئة في هذا القرن ، وذهبت صفة التميز عن العرب وأسقطوا من ديوان العطـاء[٦٦] حيث أسقط الخليفة المعتصم (٢١٨هـ /٨٣٣م) أرزاقهم وهـي الأرزاق التـي كانوا يتوارثونها منذ عهد عمر بن الخطاب ، أي منذ حوالي مائتي سـنه ممـا جعل العرب يفقدون مكانتهم السامية ، وينتشرون في ريف مصر ويندمجون في المصريين[٦٧] .

٥- تحول عدد كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامي ، فقد ذكر أنه في عام ١٨٤ هـ /٨٠٠ م لم تكن مصر تضم بالفعل غير ٢٢% من المسيحيين إلـى جانـب ٧٧% من المسلمين و١%.من اليهود [٦٨] وعقب ثورة البشرود قل عدد الأقبـاط ودخل في الإسلام ربع السكان المسيحيين ، وأصبح المسلمون أغلبية في القطـر المصري[٧٠]

٦- انتشار اللغة العربية : ، وكان انتشار اللغة العربية فى مصـر أبطـأ مـن انتشار الدين الإسلامي وقد يدل ذلك على أن الشعب المصري في معظمه كـان يدين بالإسلام عندما حضر المأمون إلى مصر ، ولكنه كان لا يـزال يتخاطـب باللغة القبطية[٧٢] .

وساعد انتشار القبائل العربية في سائر أنحاء الـبلاد المصـرية وامتـزاج العرب بالمصريين على سرعة تعلم اللغة العربية[٧٣] ، وساعد اعتناق كثير مـن المصريين للإسلام على تعلم اللغة العربية ، حتى يستطيعوا قراءة القرآن وفهم أحكام الدين، وعظم انتشار اللغة العربيـة و أصـبحت بمـرور الوقـت لغـة المصريين في الدين والثقافة والإدارة وفى العمل والبيت [٧٥] وقل استخدام اللغة القبطية ولم تكن تستخدم بصورة شرعية إنما في بعض المنازل[٧٧] .وفى خـلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) دانت الغالبية العظمى من أهل مصـر بالإسلام ، و أصبحت اللغة العربية ، لغة كل المصريين في التخاطب والعبـادة والثقافة والفكر والإدارة[٧٨]

وهكذا يتضح لنا أن ثورة البشرود ، ثورة قومية بدليل قيام العرب والقـبط بالثورة معا، واشترك الفريقان في محاولة التخلص من التحكم العباسي والامتناع عن دفع الخراج أو محاولة خفضه ، لهو الدليل القوى على اندماج العنصـريين واشتراكهما في الآراء والمصالح ، رغم ضعف الثوار الـذين استسـلموا آخـر الأمر وغلبوا على أمرهم.

الهوامش

(*) أحيانا يطلق عليها خطأ ثورة البشمور وهذا الخطأ الذي وقع فيـه بعـض المـؤرخين المحدثين ، ناجم عن سببين:

١- اعتمد كثير من المؤرخين على ساويرس بن المقفع في كتابة " سير الآبـاء البطاركـة" حيث يشير في متن الكتاب إلى البشمور ، ويؤكد ناشر الكتاب في الهامش إنها البشـرود وأن التغير الذي في المتن يحتمل أنه من عمل الناسخ وليس المؤلف راجع سير الآبـاء البطاركـة جـ ٢ ص ، ٢٧٧،٢٧٨،٢٧٩،٢٨٢،٢٨٣

٢- إن الثورة قد شملت الوجه البحري كله ومن ضمن الكور التي شـملتها الثـورة كـورة البشمور أيضا وهى كورة من أعمال الدقهلية .

الأسعد بن مماتى : قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية مطبعة مصر ١٩٤م ، ص ٨٩ وهى كورة بمصر قرب دمياط فيها قرى وريف وغياض .

ياقوت الحموى : معجم البلدان ، دار الكتب العلميـة ، بيـروت ، ط الأولـى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠م، جـ١ ص٥٠٩

القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ص ١٥٥ وهى جزيزة بين نيل اشمون طناح ، وهو الشرقي ونيل دمياط وهو الغربي .

أبو الفدا : تقوم البلدان ، طبع بمدينة باريس ، ١٨٤٠ م،ص ١٠٧ مساحتها ستمائة و أربعون

فدانا .

ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، المطبعة الأميريه ، ١٣٠٩ هـ جـ ٥ ص ٦٩ .

(*) فى حين يؤكد كثير من المؤرخين إنها ثورة البشرود . ومن هؤلاء المؤرخين من هو أقدم من ساويرس مثل :

اليعقوبى (ت ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م) : تاريخ اليعقوبى ، مطبعة الغرى ، النجف ١٣٥٨ هـ ، جـ ٣ ص ١٩٢ والكندى (ت ٣٥٠هـ /٩٦١ م) كتاب " تاريخ ولاة مصر وكتاب تسميه قضاتها " ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط الاولى ١٤٠٧ م ص ١٥٠ ومؤرخ متاخر وهو من كبار مؤرخي الخطط المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الدخائر رقم ٥١ ، جـ ١ ص ٧٩، ٨١ ،١٧٤ . وقد أعطى كثيراً من التفصيلات عن الثورة ، والكور والمدن التي انضمت إليها

(١) **المقريزى** : المصدر السابق جـ ١ ص ٧٩ .

عطية القوصى : تاريخ مصر الإسلامية ، دار الثقافة العربية ، ١٩٩٧ م، ص ٧٢،٧٣

مصطفى طه بدر : مصر الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط الثانية ١٩٥٩ م، جـ ١ ص٩٦

(٢) **أحمد عبد الرزق** : تاريخ مصر و آثارها الإسلامية ، دار الفكر العربي ، ١٩٩٣ م، ص ٥٦ ، ٥٧

ايسونورس : الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة ، مكتبة المحبة ٢٠٠٢م ص ٢٨٦

سيدة الكاشف : مصر في فجر الإسلام الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ حتى ٢٣٧

محمد خفاجى : مواكب الحرية في مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م، ص ٤٩،٥٠

Barbara Watterson: The Egyptians , Blackwell P 268

Joan Wucher king , Historical Dictionary of Egypt , Cairo, p 93

(٣) **كورة** : كلمة أطلقها العرب عند فتحهم مصر على النوم Nome والنوم وحدة إدارية وسياسية

سعاد ماهر : محافظات الجمهورية العربية المتحدة ، وآثارها الباقية في العصر الإسلامي ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ – ١٩٩٦ م، ص ٣ .

وهى كلمة يونانية Xwpa أطلقت على الباجركوس pagarchos حاكم الكورة فى العصر البيزنطى

Gaston Wiet , L' Egypte Musulmane (precis L' Histoire D Egypte) 11, Caire , P127

وهى كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها

ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص٣٦ ، ٣٧

محمود خطاب: قادة فتح فارس ، دار الفتح ، بيروت ، ط الأولى ، ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م، ص ٣٤٤ ويقابلها المركز في النظام الإداري المصري الحاضر .

الكندى : فضائل مصر المحروسة ، تحقيق على محمد عمر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧ ، ص ١٠ هامش (٢) .

وكانت وظيفة صاحب الكورة ، وظيفة هامة ودقيقة ، إذ كان همزة الوصل بين الحكام العرب في الإدارة المركزية وبين عمال الإدارة المحلية أهل مصر من سكان المدن والقرى .وكان الوالي هو الذي يعين أصحاب الكور ويخضعون لسلطته ، ويتلقون الأوامر منه .كما كان يراقبهم . ويطالبهم بالرجوع للإدارة المركزية دائما في كل شئون كورته ، ويتدخل في الشئون المالية ،و في مقدار الضرائب من خراج وجزية ، وفى موعد جبايتها . وكان يصدر أوامر الدفع الخاصة بالقرى الخاصة بالقرى ، ويهدد المتأخرين عن دفعها ، وكان يتدخل فيما يجرى من أحداث وتصرفات يقوم بها صاحب الكورة كالقضايا التي ينظر فيها ، والغرامات التي يفرضها على الناس ، وتهاونه في وجود الهاربين في كورته ، و أرزاق الجند الموجودين بالقرى .

صابر محمد دياب : دراسات في تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، دار النهضة العربية ١٩٧٦ ، ص ١٠١ .

صفاء حافظ عبد الفتاح : الإدارة المحلية في مصر في عصر الولاة ١٩٩١ م. ص ٥١: ٥٧

صفاء حافظ عبد الفتاح: الموانى والثغور المصرية ، دار الفكر العربي ، د . ت ص ١٠٣.

(٤) اليعقوبى : مصدر السابق ، جـ ١ ص ١٥٣ .

البكري : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفىالسقا ، لجنه التأليف والترجمة والنشر القاهرة ط الأولى ١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م، جـ ١ ، ص ٢٥٢

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥٠٨

ابن عبد الحق : مر اصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، مطبعة ، ليدن ١٨٥٢م جـ ١ ، ص ١٥٦

- عرفت قديما باسم بيكولى BUCOLIES والتي حدثت فيها حرب الزراع في عهد الإمبراطور الروماني ماركوس أورليوس

سيدة الكاشف : المرجع السابق ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ هامش (٥)

صفاء حافظ : الموانى والثغور المصرية ، ص ٥٦ هامش (٧٠)

- وعرفت فى العصر البيزنطى باسم ايلس شيا.

السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦١ م، ص ١٦٧

السيد محمد احمد عطا : تاريخ الغربية و أعمالها في العصر الإسلامي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٢ ، ص ٤٢ .

فتحي محمد مصيلحى وعلاء الدين عبد الخالق سيد علوان : تجربة التعمير المصرية من خلال الأطلس التاريخي للوجه البحري عند عمر طوسون ، ١٩٩٦ ، خريطة ص ٣٧ .

- تقع الآن ناحية سيدى غازي (الكفر الغربي سابقا) محافظة كفر الشيخ
- **احمد رمزى** : القاموس الجغرافي ، القسم الأول ، البلاد المندرسة ، مطبعة دار الكتـب المصرية ١٩٥٤ م،ص ٣١

(٥) **المقريزى** : المصدر السابق ، ص ٧٣

(٦) **سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الولاة ، الهيئة المصـرية العامـة للكتـاب ، ١٩٨٨ م ، ص ١٣٤ .**

(٧) **مصطفى طة بدر** : المرجع السابق . ص ٩٦ .

8- Terry G . Wilfong , The non Muslim Communities : Christian Communities , (The cambridge History of Egypt , vol I , p182

٩- ويرجع أمين صالح الزيادة في الخراج إلى

١- اعتبار أرض مصر خراجية ، وعدم جواز تحويلها إلى أرض عشرية سـواء بإسـلام حائزها أو شراء العرب المسلمين لها . طبق هذا الأمر منذ عهد الخليفة عمر بـن العزيـز . واشترك العرب مع القبط في هذه الثورة بعد أن تملك العرب الأرضي الزراعية منذ أوائـل القرن الثاني الهجري ، فقامت ثورتهم من أجل الخراج في العصر العباسي .

٢- زيادة قيمة الضمان عن كل فدان بنسبة ١٠٠% **في ولايه موسى بن معصـب ١٦٧- ١٦٨ هـ / ٧٨٣ م كما زيد على المزارعين زيادة لم يفصح عن قدرها المؤرخون ، أجحفت بهم في ولاية اسحق بن سليمان ١٧٧- ١٧٨ هـ ٧٩٣ م، ومسحت الأراضي في ولاية الليث بن فضل ١٨٢: ١٨٧هـ ٧٨٩: ٨٠٢ م بانتقاص بضع أصابع من قصبة المسـاحة ، وهـى وسيلة لا تخفى في زيادة عدد الأفدنة ليحصل عليها الخراج . ومرة أخرى ظلم الناس وزيـد** الخراج فى ولاية عيسى بن يزيد الجلودى ٢١٢ : ٢١٤ هـ /٨٢٩: ٨٣١ م. وفى كل هـذا المناسبات كانت تندلع الثورات من القبط أو العرب أو القبط و العرب معاً

محمد أمين صالح : دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية ، عصر الولاة ، مكتبـة نهضة الشرق ، ط الثالثة ، د.ت ، ص ١٢٤-١٢٥ .

(١٠) الويبة : مكيال مصري : يعادل ستة أمداد أو ستة عشر قدحا أو كيلتين

محمود عرفة محمود : دراسات وبحوث في الحضارة الإسلامية ، دار الثقافة العربية ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م، ص ٢٦٧

(١١) من المحتمل أنه صاحب الشرطة أبو مغيث موسى بن إبراهيم – ابن عم الوالي عيسى بن منصور

الكندى : تاريخ ولاة مصر ، ص ١٤٩

(١٢) ساويرس ين المقفع : المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٢٧٦

(١٣) عيس بن منصور : كان مولى بنى نصر ، تولى مصر من قبل أبى إسحاق (المعتصم) مستهل سنة ست عشرة ومائتين وصرف سنة سبع عشرة ومائتين

الكندى : تاريخ ولاة مصر ، ص ١٤٩ ، ١٥٠

ابن ظهيرة : الفضائل الباهر في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السـقا – كامـل

المهندس ، دار الكتب ١٩٦٩ ، ص ٣٧، ٣٨
(١٤) **الكندى** : تاريخ ولاة مصر ، ص ١٥٠
(١٥) **ابن اياس** : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة، ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م ، جـ ١ ، ص ١٤٨ .
(١٦) **ساويرس** : المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٢٧٦ : ٢٧٧
محمد عبد المنعم خفاجي : المرجع السابق ، ص ٤٩ ، ٥٠
(١٧) **الكندى** : كتاب ولاة مصر ، ص ١٤٩
المقريزى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٨١
(١٨) **السيد محمد عطا** : المرجع السابق ، ص ١٠٢
إلياس الأيوبي : تاريخ مصر الإسلامية ، مكتبة الرغايب مصر ، ١٩٣٢ ، ص ٣٣٩
Hugh, kennedy: Egypt as a province in The Isamic Caliphate 641-868. (The Cambridge History Of Egypt, Vol I,P 83
(١٩) **ابن تغرى بردى** : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، د. ت ، جـ ١ ، ص ٢١٥
(٢٠) **الطبرى** : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ط الثالثة ، جـ ٨ ، ص ٦٢٥.
ابن الجوزى : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط الأولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ ن جـ ١٠ ، ص ٢٧٤ .
ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، دار صادر ، ط السادسة ١٩٩٥ م المجلد السادس ، ص ٤١٩
ابن كثير : البداية والنهاية ، تحقيق احمد عبد الوهاب فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ، ط الخامسة ، جـ ١٠ ص ٢٩٤
السيوطى : حسن المحاضرة ، تحقيق خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، جـ ٢ ص ٢٣٦
ابن وردان : تاريخ العباسيين ، تحقيق المنجى الكعبى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط الأولى ١٩٩٣ م، ص ٤٧٣
(٢١) **الأفشين** : بكسر الهمزة وفتحها ، اسمه خيذر بن كاوس من كبار قادة جيش المأمون ثم المعتصم توفى ٢٢٦ هـ / ٨٤٠ م .
ابن خلكان : وفيات الأعيان ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م، المجلد الخامس ، ص ١٢٣
ابن كثير : المصدر السابق ، جـ ١٠، ص ٣١٨
Stanley lane pool , History of Egypt in The Middle Ages London , 1901, Vol , I p 38

Hugh Kennedy , loc cit , P83

(٢٢) **إشليم** : بكسر ثم السكون ، وكسر اللام ، وياء ساكنة ، وميم : كورة أو قرية بحوف مصر الغربي

ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٠

(٢٣) **الكندى** : تاريخ ولاة مصر ، ص ١٤٩

(٢٤) **الحوف** : الناحية أو الجانب ، و تحوف الشيء أخذ من حافته ، وحافتا الوادي وغيره من كل شئ حافتاه ومن هنا أطلق العرب تسمية الحوف الشرقي والحوف الغربي على جانبي الدلتا شرقا وغربا .

صفاء حافظ : الموانى والثغور المصرية ، ص ٩٩ هامش (٢٠)

(٢٥) **عبيد الله بن يزيد** : ابن مزيد بن زائدة بن مطر بن شريك بن عمرو والشيبانى تولى والده أرمينية .

ابن قتيبة : المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، الهيئة العامة للكتاب ، ط الثانية ٢٠٠٢ م، ص ٤١٣، ٤١٤

(٢٦) **الكندى** : تاريخ ولاة مصر ص ١٤٩ ، ١٥٠

المقريزى : المصدر السابق جـ١ ، ص ١٧٣

محمد محمود الحويرى : مصر في العصور الوسطى ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية ، ط الاولى ١٩٩٦ م، ص ٧٦

إلياس الأيوبي : المرجع السابق ،ص ٣٣٩ ، ٣٤٠

Hugh Kennedy , loc cit , P83

(٢٧) **ساويرس** : المصدر السابق جـ ٣ ، ص ٢٧٦

(٢٨) **أنبا يوساب** : البطريرك الثاني والخمسون ، من رهبان دير أبى مقار وهو من مدينة منوف العليا ، توفى والداه ، فنشأ عند تادرس متولى كورة مصر ثم أرسل إلى الإسكندرية عند البطريرك أنبا مرقس وتعلم هناك اللغة اليونانية ، ثم أرسل إلى دير ابو مقار عند القديس بولا، وبدأ يعلمه التعاليم المقدسه التي للآباء الرهبان فأصبح شماسا ثم قسا ثم اختير بطريركاً فى الفترة من ٨٢٣: ٨٤١ م

ساويرس : المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٢٧١ ٢٧٤ ، ٢٧٥

ايسوذوريس : المرجع السابق ، ص ٢٨٤

29- Gaston Wiet,, OP. Cit P134

(٣٠) **ساويرس** : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ٢٧٧

(٣١) **ا.ل بتشر** : تاريخ الامة القبطية ، ترجة اسكندر تادرس ، مطبعة مصر بالفجالة ١٩٠١ المجلد الثانى ، ص ٢٢٣ .

(٣٢) ساويرس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٧

(٣٣) **ابن اياس** : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٤٨

(٣٤) **ديونوسيوس** : بطريرك أنطاكية ، ترهب بدير قنسرين ثم بدير يعقوب بين حلب

والرها ، وقد اختاره بعض الأساقفة ورقوه الى درجة شماس ثم قس ، وفي اليوم الثالث وسموه بطريركا سنه ٨١٨ . زار مصرو التقى مع البطريرك أنبا يوساب .

ايسوذوريس : المرجع السابق ص ٢٨٢

(٣٥) **ساويرس** : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٧٩

جان موريس فييه : أحوال النصارى في خلافة بني العباس ، ترجمه حسني زينه ، دار المشرق ببيروت ، ط الأولى ١٩٩٠ م، ص ١١٧

(٣٦) **طحا** : كورة بمصر شمالي الصعيد في غربي النيل

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، المجلد الرابع ، ص ٢٢

(٣٧) **الكندي** : الكتاب ولاة مصر ، ص ١٥٠ .

(٣٨) **ساويرس** : المصدر السابق ، جـ ٢ ٢٧٩

(٣٩ **سخا** : كورة بمصر و قصبتها سخا بأسفل الأرض ، وهى قصبة كورة الغربية في عصر ياقوت ».

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص ١٩٦

سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ١١٠ ، ١١١

(٤٠) **الكندي** : الكتاب ولاة مصر ، ص ١٥٠ ، ١٥١

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، ببيروت ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م ، جـ ص ٤٢

الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، حوادث وفيات ٢١١ – ٢١٠ هـ تحقيق عمر عبد السلام تدمرى ، دار الكتب العربي ببيروت ، ط الثانية ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، ص ١٧

ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط الأولى ١٤٠٣ هـ – ١٩٩٢ م ، المجلد الثالث ، ص ٣١٤ .

جمال الدين الشيال : مصر الإسلامية ، دار المعارف ، ١٩٦٧ ، ص ٩١،٩٠

عصام الدين عبد الرءوف : مصر الإسلامية ، دار الثقافة العربية ، ٢٠٠٢ م، ص ٧٤

Gaston Wiet, op. Cit , p 134

Hugh Kenndy , Loc . cit . p83

(٤١) **المقريزى** : المصدر السابق جـ ١ ، ٧٩ ، ٨٠

(٤٢) الحارث بن مسكين : ابن محمد بن يوسف الأموي أبو عمرو المصري . الحافظ الفقيه العلامة ، روى عنه داود والنسائي . قال الخطيب : كان فقيها على مذهب مالك ، ثقة في الحديث ، ثبتا . وله تصانيف ولد سنة أربع وخمسين ومائتين

السيوطي : المصدر السابق المجلد الأول ص ٢٦٨

(٤٣) **اليعقوبي** : المصدر السابق جـ ٣ ، ص ١٩٣

(٤٤) **طاء النمل** : احدى قرى مركز أجا مديرية المنصورة

– **محمد خفاجى** . المرجع السابق ، ص ٤٨

(٤٥) **المقريزى** : المصدر السابق جـ ١، ص ٨١

(٤٦) **محمدخفاجي.** المرجع السابق ، ص ٤٩

(٤٧) **ابن إياس** : المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٤٩ ، ١٥٠

(٤٨) **ابن البطريق** : **التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، مطبعة الآباء اليسوعيين** ، بيروت ١٩٠٩ م، ص ٥٧ : ٥٩.

(٤٩) **ساويرس** : المصدر السابق جـ ٢ ، ص٢٧٥ : ٢٨٠ .

(٥٠) **ابن البطريق** : المصدر السابق ، ص ٥٨

(٥١) **ابن إياس** : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٥٠

(٥٢) **المقريزى** : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص٨١

(٥٣) **ابن ظهيرة** : المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٥٤) **ابن تغرى بردى** : المصدر السابق ، جـ ، ص ٢١٦

55- Barbara Watterson , OP . Cit , P 268

(٥٦) **الكندى** : كتاب ولاة مصر ، ص ١٥٠

(٥٧) **ابن البطريق**: المصدر السابق ، ص ٥٨.

(٥٨) **ابن البطريق** المصدر السابق والصفحة .

(٥٩) **بورة** : مدنية على ساحل بحر مصر قرب دمياط .

ياقوت الحموي : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٥٠٦

- **شهد تاريخ سعيد بن بطريق** : أن رجل يسمى بكام كان كثير المال من كنز وجده في بلبوش من الأ بوانية في صهريج ، ولما وصل المأمون إلي مصر فاخبر به فمثل بين يديه فرسم له بعمالة بوره وما معها ، وحمل إليه مالا كثيرا وتحف وبلغ عند المأمون منزلة كبيرة فسأله فى تحديد ما تهدم وتشعث من البيع فرسم له بذلك وأخذ منه مرسوم بخط يده وعلامته وجدد كنائس كثيرة أعادها لما كانت عليه .

ابو المكارم : تاريخ ابو المكارم ، (تاريخ الكنائس والأديرة فى القرن ١٢ بالوجه البحرى)، اعداد الانبا صموبل ١٩٩٩ ، ص ١١١ .

(٦٠) **ابن البطريق** : المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٦١) **السيد احمد عطا** : المرجع السابق ، ص ١٠٤ ، ١٠٥

(٦٢) **الكندى** : كتاب ولاة مصر ، ص ١٥١ .

ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ، المطبعة الحيدرية – النجف. ط الثالثة ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ جـ ١ ،ص ٢٩٩ .

(٦٣) **جمال الدين الشيال** : المرجع السابق ، ص ٩٠ ، ٩١ .

(٦٤) **أحمد مختار عمر** : الفتح الإسلامي وتعريب مصر ومقال فى كتاب (أثر الإسلام فى مصر) الهيئة العامة لقصور ، يوليو ١٩٩٩ م، ص ٨٥

Ceres Wissa Wassef , Pratiques Rituelles et Alimentire des coptes le Caire p 21

Stanley lane pool , OP. Cit . p 38

(٦٥) **حسن إبراهيم حسن** : تاريخ الإسلام السياسي والديني الثقافي والاجتماعي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ط ١٣، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م، ص ١٦٤

عبد الرحمن الرافعي وسعيد عاشور : مصر في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، ٢٠٠٠ م، ص ٦١

(٦٦) **محمد خفاجى** : المرجع السابق ، ص ٥٢ : ٥٥

(٦٧) **الحويرى** : المرجع السابق ، ص ٧٢

حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق والجزء والصفحة .

(٦٨) **فليب فارج ويوسف كرباج** : المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي ، ترجمه بشير السباعي ، سينا للنشر ، القاهرة ط الأولى ١٩٩٤ م ، ص ٣٣ .

(٦٩) **بتشير** : المرجع السابق ، ص ٢٢٤

(٧٠) **سيدة الكاشف** مصر في عصر الولاة ، ص ١٣٥

(٧١) **مصطفى طه بدر** : المرجع السابق ، ص ١٠٠

(٧٢) **المقريزى** : المصدر السابق جـ ١ ، ص ٨١

(٧٣) **إبراهيم أحمد العدوى** : مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام ، سلسلة الثقافة الأثرية ، مشروع المائة كتاب ٤ ١٩٩٢ م ، ص ٢٠٨ .

هويدا عبد العظيم رمضان : المجتمع في مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٠م، جـ ٢ ، ص ٣٩

(٧٤) **الحويرى** : المرجع السابق ، ص ٧١

(٧٥) **على حسن الخربوطلى**: مصر العربية الإسلامية، مكتبة الأ نجلو المصرية، د. ت، ص٣٢

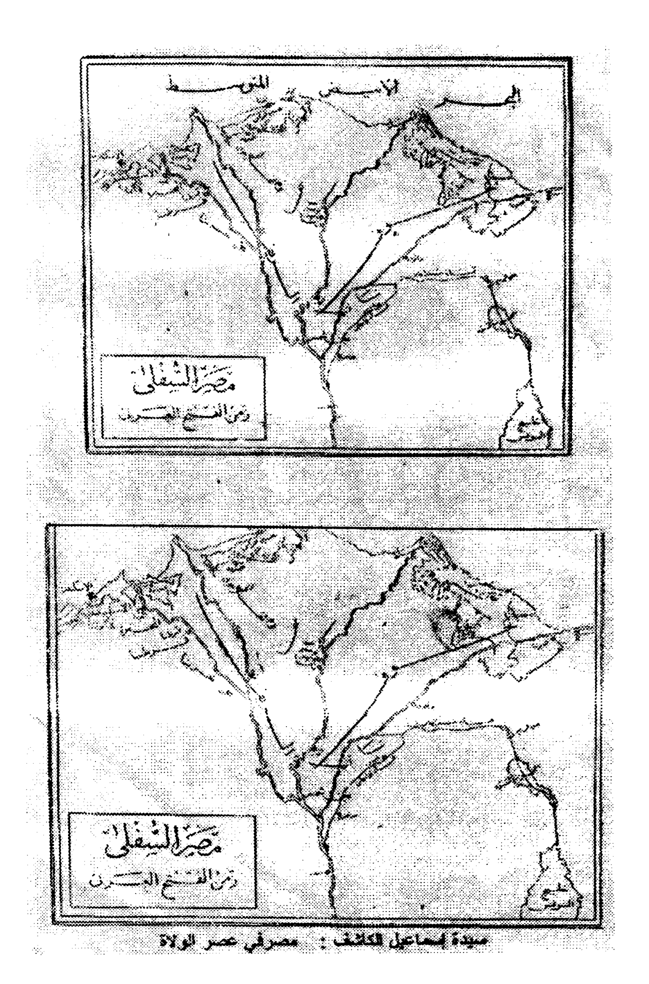
(٧٦) **اللغة القبطية** : من اللغات القديمة التى تداولها المسيحيون فى وادى النيل . وكانت بعض الفقرات القبطية تكتب باللغة اليونانية القرنين الثاني والثالث للميلاد وترجم الإنجيل من اليونانية إلى القبطية قبل عام ٣٠٠ م، وكانت القبطية تكتب بأبجديتها الخاصة المشتقة من الأبجدية اليونانية ، وفى القرن الخامس أصبحت خاصة بالأقباط المينوفزيين

William Foxwell Albright , (Colliers Encyclopedia) New York , vol 7, p312

77- Terry G Wilfong , Loc . Cit p 184

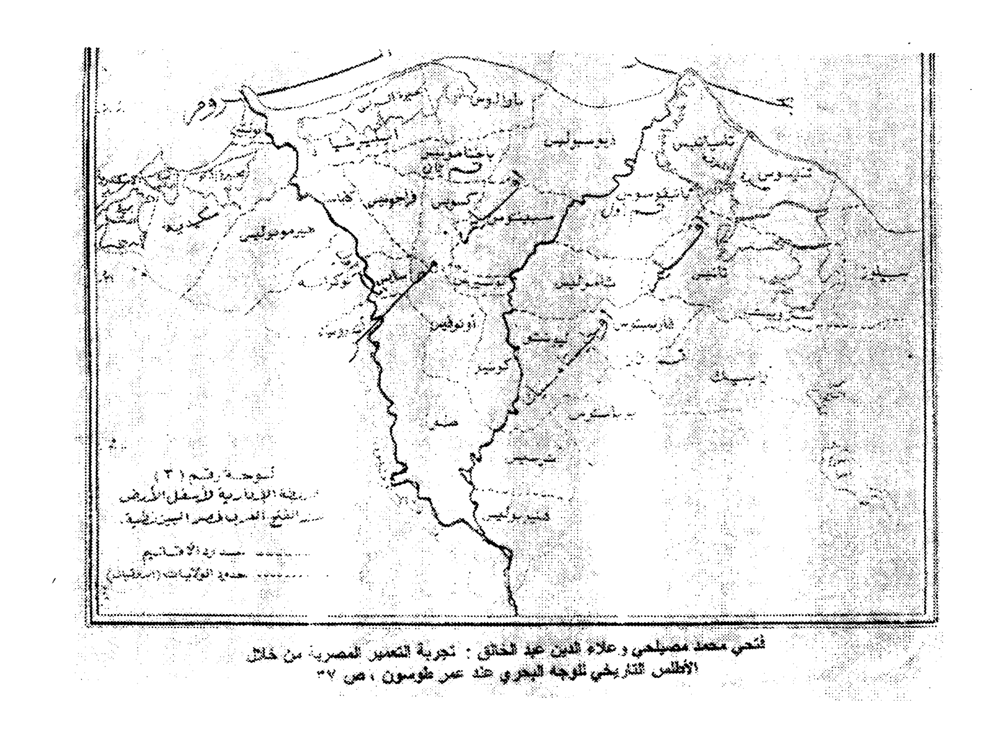
(٧٨) **الحويرى** : المرجع السابق ، ص ٧١

محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر الإسلامية ، مطبعة الجمهورية الإسكندرية ١٩٩٨م، ص ٤٣.

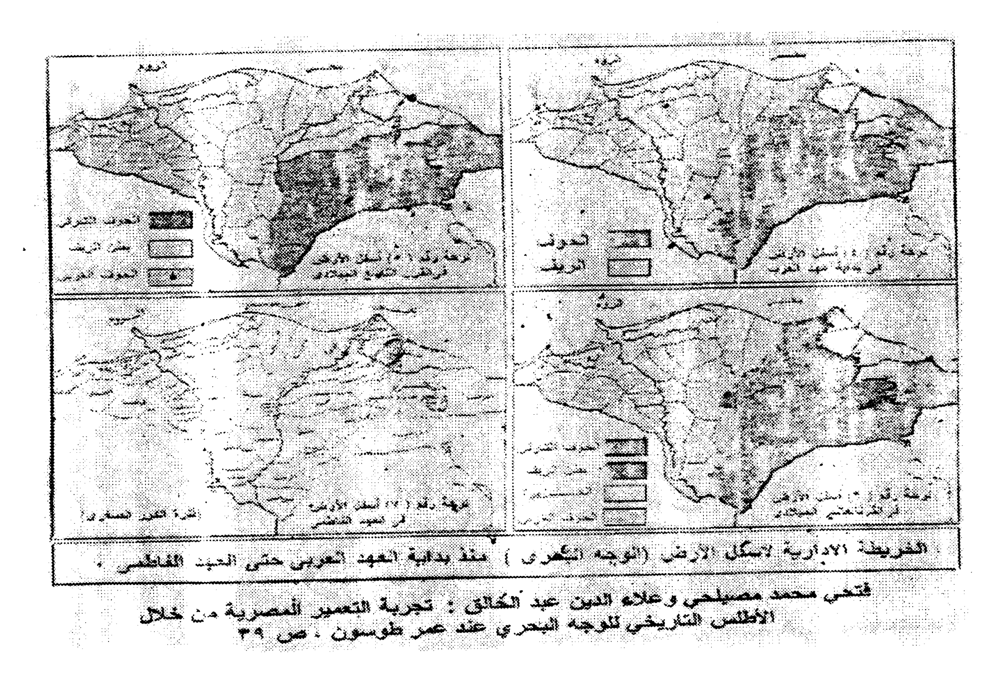


مصر السفلى
زمن الفتح العربي

سيدة إسماعيل الكاشف : مصر في عصر الولاة



فتحي محمد مصيلحي و علاء الدين عبد الخالق : تجربة التعمير المصرية من خلال الأطلس التاريخي للوجه البحري عند عمر طوسون ، ص ٣٧



الخريطة الادارية لأشكال الأرض (الوجه البحري) منذ بداية العهد العربي حتى العهد الفاطمي .

فتحي محمد مصيلحي وعلاء الدين عبد الخالق : تجربة التعمير المصرية من خلال الأطلس التاريخي للوجه البحري عند عمر طوسون ، ص ٣٩

الفصل الخامس

ثورة الدراهم فى عهد إبراهيم بن أحمد الأغلبى

دراسة تحليلية لنص أبن عذارى المراكشى

عبد الحميد حسين محمود حموده(*)

المقدمة

كانت ثورة الدراهم في عهد إبراهيم (الثاني) بن أحمد الأغلبي (٢٦١ – ٢٨٩هـ/ ٨٧٥ – ٩٠٢م) تاسع أمراء الأغالبة . هى أول ثورة فى تاريخ المغرب ، تعترض على إصلاح نقدى أجراه أمير من أمرائها . ولقد وصلتنا أحداث هذه الثورة عن طريق المؤرخ المغربي ابن عذارى المراكشى الذى كان حياً فى سنة (٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) بينما التزمت المصادر المغربية والمشرقية الأخرى الصمت التام :

وذكر ابن عذارى هذه الثورة فى سياق أحداث سنة (٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م) موجزة فلم تتعد تفصيلاتها أربعة عشر سطراً فى النص التالى:

" ثورة الدراهم على إبراهيم بن أحمد (سنة ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م) وذلك أن إبراهيم بن أحمد ضرب الدراهم الصحاح ، وقطع ما كان يتعامل به من القطع . فأنكرت ذلك العامة ، وغلقوا الحوانيت ، وتألفوا ، وصاروا إلى رقّادة ، وصاحوا على إبراهيم ؛ فحبسهم فى الجامع ، واتصل ذلك بأهل القيروان ؛ فخرجوا إلى الباب ، وأظهروا المدافعة . فوجه إليهم إبراهيم بن أحمد وزيره أبا عبداللہ بن أبى إسحاق ؛ فرموه بالحجارة وسبوه . فانصرف إلى السلطان إبراهيم بن أحمد ؛ فأعلمه بذلك . فركب إبراهيم إلى القيروان ، ومعه حاجبه نصر بن الصمصامة فى جماعة من الجند ؛ فناصبه أهل القيروان القتال ، فتقدم إبراهيم إلى المصلى ، فنزل وجلس ، وكف أصحابه عن قتالهم ، فلما اطمأن به مجلسه وهدأ الناس خرج إليه الفقيه الزاهد أبو جعفر أحمد بن مغيث، فكان بينهما كلام كثير، ودخل أبو عبد الله بن أبى إسحاق الوزير مدينة القيروان مع

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد، كلية التربية – جامعة القاهرة بالفيوم.

أحمد بن مغيث ، فشق سماطها وسكن أهلها . فرجع إبراهيم بن أحمد إلى رقادة ، وأطلق المحبوسين بالجامع، وانقطعت النقود والقطع من إفريقية إلى اليوم، وضرب إبراهيم بن أحمد دنانير ودراهم سماها العاشرية.فى كل دينار منها عشرة دراهم (١).

سوف تسير خطتى فى معالجة هذا النص وفقا للعناصر الأساسية التالية :-

١ - البعد التاريخى المتمثل فى زمن الثورة .

٢ - المسرح الجغرافى أو مكان الثورة .

٣ - العنصر البشرى (الثوار) .

٤ - أسباب الثورة .

٥ - موقف الثوار .

٦ - موقف الحكومة الأغلبية من الثوار .

٧ - المفاوضات .

٨ - نهاية الثورة ونتائجها .

سأتناول تلك النقاط بالشرح بقدر المستطاع ؛ لكى أصل إلى صورة شبه متكاملة عن أحداث الثورة التى أوردها ابن عذارى باختصار شديد .

١- البعد التاريخي المتمثل فى زمن الثورة

كان يلى عرش السلطة الأغلبية زمن الثورة إبراهيم الثانى بن أحمد الأغلبى . ويعد عهده أطول حكام الأغالبة زمنياً إذ بلغت ولايته منذ ولى يوم الأربعاء فى السادس من جمادى الأولى سنة (٢٦١ هـ / ٨٧٥ م) إلى أن مات فى الثالث عشر من ذى القعدة (٢٨٩ هـ / ١٠ أكتوبر ٩٠٢ م) ثمانية وعشرين سنة وستة أشهر وبضعة أيام (٢) .

بدأ إبراهيم بن أحمد ولايته بحسن السيرة والعدل والحزم فى توفير الأمن فى البلاد وقتل أهل البغي والفساد . وكان يجلس للعدل فى جامع القيروان يوم الخميس والإثنين من كل أسبوع لسماع شكاوى المتظلمين والحكم فيها . وكانت قوافل التجار تسير فى أمن على الطريق وشيد المحارس والحصون على سواحل البحر (٣) وبنى مدينة رقادة فى سنة (٢٦٣ هـ / ٥ - ٨٧٦ م)

وأكمل بناء القصر المعروف بقصر الفتح فى سنــة (٢٦٤ هـ/٧ – ٨٧٨ م[٤]) وشيد سور سوسة (٥). واستكثر من العبيد الســودان وبلغــوا ثلاثــة الآف (٦) وشهدت بلاد المغرب فى أيامه أحداثاً هامة حيث فتحت سرقوسة . كمــا كانــت فتنة العباس بن أحمد بن طولون الذى سار إلى برقة مخالفاً لابيه الذى خرج إلى الشام، وكان العباس يهدف إلى تملك إفريقية (٧) . وفى سنة (٢٦٨ هـ / ١ – ٨٨٢ م) أوقع إبراهيم بن أحمد بأهل الزاب (٨) .

وفى سنة (٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م) أجرى إبراهيم بــن أحمــد إصــلاحه النقدى . مما أدى إلى ثورة الدراهم (٩) موضوع البحث . ولم يلبث أن تغيــرت أخلاقه وأسرف فى القتل وأفنى أصحابه وكتابه وحجابه حتى قتل ابنه (١٠).وفى أواخر حكمه فى سنة (٢٨٩ هـ / ١– ٩٠٢ م) أظهر إبراهيم بن أحمد التوبة وعلى الأخص عندما ظهر الداعى الشيعى أبو عبدالله بين قبيلــة كتامــة . وأراد ابراهيم ان يرضى العامة ويستميل قلوب الخاصة ؛ فرد المظالم وأسقط القبالات، وأخذ العشر طعاماً،وترك لأهل الضياع خراج سنة وسماها سنة العدل (١١)

٢– المسرح الجغرافي أو مكان الثورة

دارت رحى ثورة الدراهم فى مدينة القيروان التى شيدها الفاتح العربــى عقبة بن نافع الفهرى سنة (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) فــى ولايتــه الأولــى علــى المغرب ؛ لتكون قاعدة للمسلمين هناك على غرار المدن الإسلامية الأخرى فــى مصر والعراق (١٢) .

وامتدت أحداث هذه الثورة إلى مدينة رقادة التى شيدها إبراهيم بــن أحمــد الأغلبى فى سنة (٢٦٣هـ/ ٨٧٦م)(١٣) الواقعة إلــى الجنــوب الغربــى مــن القيروان(١٤). وكانت رقادة مدينة ملوكية اقتصرت على الأمير وحاشيته وجنــده. والمقربين من البيت الأغلبى(١٥). ولا يتسع المقام هنــا لــذكر خطــط مــدينتى القيروان، ورقادة؛ لأن هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة مستقلة ليس هذا محلها.

٣– العنصر البشرى (الثوار)

أشار ابن عذارى(١٦) إلى الثوار بقوله: "فانكرت ذلك العامــة، وغلقــوا الحوانيت".

ولا يخفى علينا أن الثورة تستمد قوتها أو ضعفها مــن الثــوار حســب وضعهم فى السلم الاجتماعي ووزنهم فى المجتمع. وجاء حديث ابن عذارى عن

الثوار فى كلمة واحدةً حيث ذكر أن العامة هم الذين أعلنــوا العصـــيان علـــى إصلاح الأمير إبراهيم بن أحمد . ومن المعروف أن كلمة العامة تضم عدة فئات مختلفة من شرائح المجتمع كالجند (١٧) ، والتجار ، والعبيد (١٨) ، وأصحاب الحرف اليدوية .... ألخ .

ولن أسهب في السرد التاريخي لأوضاع العامـــة ككــل فـــي مجتمـــع القيروان . لأن هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة مستقلة . وكل ما يهمني في هذا المقام تحديد تلك الفئة التى تزعمت الثورة . ولا غرو أنها طائفة التجار، ولـــدينا دليل ذلك من قول ابن عذارى أنهم سارعوا بأغلاق الحوانيت . وانضم إليهم كل متضرر من هذا الإصلاح .

بقى علينا أن نطرح سؤالاً على درجة كبيرة من الأهمية بمكان . ماهى طوائف التجار ومكانتهم الاجتماعية فى القيروان ؟

أ- طوائف التجار

كانت طائفة التجار في القيروان تضم تشكيلةً من مختلف شرائح المجتمـــع القيروانى . ويأتى فى مقدمتهم العرب ونخص بالذكر منهم عوف بـــن يوســـف الخزاعى المتوفى فى سنة (٢٣٩ هـــ / ٨٥٣ – ٨٥٤ م) الـــذى كـــان يبيـــع الكتان (١٩) . والزاهد عبد الرحمن بن عبد ربه الربعى الذى عمل بالتجارة فى سوق البزازين (٢٠) . وعمل بعض الفرس فى التجارة فى أسواق القيروان (٢١) وإلى جانب العرب والفرس وجد أيضا الأندلسيون الذين نالوا مكانةً رفيعةً فـــى المجتمع القيروانى حيث شاركوا فى الحياة السياسية والاجتماعية فخرج بعضـــهم فى حملة أسد بن الفرات سنة (٢١٢ هـــ / ٨٢٧ م) لغـــزو صـــقلية (٢٢) . ومن أشهر الأسماء اللامعة فى عالم التجارة بالقيروان أبو جعفر بـــن خيـــرون صاحب الفنادق المشهورة (٢٣) . وعلاوةً على الطوائف السابقة وجد أهل الذمة من اليهود والنصارى . و برزت عائلات يهودية كبيرة كعائلة ابن عوكل (٢٤) وأبى الفرج يعقوب بن أبراهام (٢٥) . وقامت شركات بين المســـلمين واليهـــود فى مجال التجارة (٢٦).

ب – مكانة التجار

حظى التجار بمكانة رفيعة فى العالم الإسلامى . وكانت لهم مكانة بارزة عقب تأسيس مدينة القيروان . وخير دليل على ذلك أنه لم يمض علـــى تأســـيس المدينة سوى سبع سنوات حتى سقطت فى يدى الزعيم البربرى كسيلة فى ســـنة

(٦٤ هـ / ٦٨٤ م) بعد استشهاد الصحابى الجليل عقبة بن نافع فى تهـوده . وخشى معظم سكان القيروان من بطش كسيلة بهم ففضلوا مغادرة القيروان غير أن الحاجة أجبرت بعض الناس على الإقامة معرضين حياتهم للخطر، من أجـل الدفاع عن مصالحهم وممتلكاتهم . كما يقول ابن الأثيـر (٢٧) : " وبقـى بهـا أصحاب العيال وكل مثقل من التجار " .

وأشاد الزهرى(٢٨) (المتوفى فى أواسط القرن السادس الهجرى) بمكانـة تجار القيروان قائلا : " كان فيها أربعة آلاف كرسى للعلم ، وأربعمائة شاعر لا يمدحون ملوكاً ولا وزراءً . وإنما يمدحون التجار وأولاد التجار " .

كما أخذ التجار موقفاً معارضاً لسياسة الأغالبة فـى بعـض الأحيـان . وثمة دليل على ذلك عندما طلب إبراهيم ابن الأغلـب العـون المـادى مـنهم لمساعدته عندما كان والياً لإقليم الزاب ؛ لنصرة محمد بن مقاتل العكـى علـى تمام رفض التجار إقراضه بالمال (٢٩) .

كما رفض التجار وبعض فقهاء القيروان مساعدة أحـد أفـراد البيـت الأغلبى ويدعى إبراهيم بن الأغلب الذى حاول لم الشمل والتصـدى للفـاطميين بعد هروب آخر أمراء الأغالبة زيادة الله (٢٩٠ – ٢٩٦ هـ/ ٩٠٣ – ٩٠٩م) إلى الشرق فجاء رد أهل القيروان مخيباً لآماله إذ قالوا: "إنما نحن فقهاء وعامـة وتجار، وما فى أموالنا ما يبلغ غرضك وليس لنا بالقتال طاقة"(٣٠).

كذلك وقف تجار القيروان بالمرصاد عندما شعروا بـالخطر الفـاطمى على مدينة القيروان فهبوا للدفاع عن المدينة ، ونـازلوا قبيلـة كتامـة حليفـة الفاطميين وساعدهم الأيمن والتى قامت بعمليات نهب واسعة النطاق للحوانيـت فصاح أهل السوق " النفير ؛ النفير " ودار قتال عنيف بين كتامة وتجار القيروان أسفر عن مقتل ما يربو عن ألف رجل من كتامة (٣١) .

٤- أسباب الثورة

أشار ابن عذارى (٣٢) إلى سبب ثورة الدراهم بقوله : " ضرب إبراهيم ابن أحمد الدراهم الصحاح ، وقطع ما كان يتعامل به من القطع " .

ومن الجدير بالذكر ، أن هذا الإصلاح حدث بعد مـا تفاقمـت الأزمـة المالية وكثر الغش فى الدراهم ، وهذا يقودنا إلى تتبع جذور المشـكلة . ونجـد أنفسنا أمام نقطتين جديرتين بالمناقشة هما:

الأولى : نقص النقود في بيت المال

عانى بيت المال الأغلبى من نقص ملحوظ فى النقود قبل ولاية إبراهيم بن أحمد . وحمل ابن عذارى المسئولية الكاملة على محمد بن أحمد الأغلبى الملقب بأبى الغرانيق (٢٥٠ – ٢٦١ هـ / ٨٦٤ – ٨٧٥ م) ثامن أمراء الأغالبة الذى اتبع سياسة مالية غير متزنة أدت إلى هذا التدهور وحمله ابن عذارى (٣٣) المسئولية بقوله : " ولما مات أبو الغرانيق لم يجد إبراهيم في بيت المال شيئاً يذكر " . ويؤكد النويرى (٣٤) على المعنى ذاته بقوله : " ولم تكن له همة في جمع المال ، فلما مات لم يجد إخوانه فى بيت المال شيئاً " .

ويبدو أن أبا الغرانيق كان ينفق بدون وعى، حيث كان غاية فى الجود مسرفاً في العطاء شغوفاً بالصيد فلقب بأبى الغرانيق ، وبنى قصراً فى السهليين لصيد الغرانيق (٣٥) – جمع غرنوق وهو الكركى (٣٦) – أنفق فيه ثلاثين ألف دينار (٣٧) . وذكرها ابن عذارى بثلاثين ألف مثقال (٣٨) وأراد إبراهيم الثاني تغطية العجز عندما وجد خزائن بيت المال خاوية . ولم يجد ما يكفيه لدفع أرزاق الجند، فاضطر إلى ضرب حلى نسائه إلى دنانير ودراهم ووزعها على جنده ، عندما خرج على رأس قواته لنجدة طرابلس من العباس بن أحمد بن طولون الذى شن هجوماً عليها (٣٩) . ولم يلبث إبراهيم أن وصله خبر هزيمة العباس وهو فى طريقه إلى قابس .

وينبغى علينا أن نقف قليلاً أمام هذا الأجراء ؛ هل اضطر إبراهيم الثاني إلى تخفيض عيار الدراهم في الوقت نفسه الذي يحول فيه كل شئ إلى نقود، أو بمعنى آخر هل خفض العملة من أجل تغذية بيت المال بالقطع النقدية بصورة أوفر عندما اشتدت الحاجة الملحة إلى النقود ؛ للوفاء وبدفع أرزاق الجند . ويجب أخذ هذا الأمر فى الاعتبار (٤٠) .

ومن الجدير بالذكر أن الكوارث الطبيعية ساهمت بصورة فعالة فى قلة الأموال حيث عم القحط والوباء فى المغرب كما حدث فى سنة (٢٦٠ هـ / ٣ – ٨٧٤ م) فقد عمت المجاعة فى المشرق والمغرب (٤١) . وفى سنة (٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م) كان القحط العظيم والغلاء المفرط بإفريقية (٤٢) . ثم عاد القحط والوباء فى سنة (٢٦٨ هـ / ٨٨١ م) وترتب عليه رفع سعر القفيز من القمح إلى ثمانية دنانير حتى هلك الناس (٤٣) .

ومن الجدير بالإشارة أن المجاعة الأخيرة التى لحقت بالبلاد كانت سـببا في كوارث أخرى حيث امتنعت قبائل اقليم الزاب عـن دفـع مـا عليهـا مـن الأموال (٤٤) . كما غضبت قبائل وزداجة فى باجة فى سـنة (٢٦٨ هـــ / ٨٨١ م) ومنعوا ما كانوا يدفعونه للأمير إبراهيم الثانى من الأموال (الصدقات) وعندما قاتلهم الوالى وهو الحسن بن سفيان من أجل ذلك هزموه (٤٥) .

الثانية : الغش في الدراهم

ضرب إبراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة الدنانير (٤٦) والدراهم فى مدينة العباسة التى شيدها فى سنة (١٨٤ هـ / ٨٠٠ م) حيث نقـل إليهـا الدواوين من القيروان ومن جملتها دار الضرب . ومن أقدم الـدنانير الأغلبيـة دينار مؤرخ بسنة (١٨٩ هـ / ٤ - ٨٠٥ م) كتب عليه : " محمد رسـول الله غلب لاإله إلا الله وحده لاشريك له " وعلى الوجه الأخر " ضرب هـذا الـدينر (الدينار) سنة ١٨٩.هـ . محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحـق ليظهـره على الدين كله "(٤٧).

واستمر ضرب الدنانير الذهبية فى العصر الأغلبى حتى ولايـة زيـادة الله ابـن عبـد الله (٢٩٠ - ٢٩٦هـ/ ٩٠٢ - ٩٠٨م) آخـر أمـراء الأغالبـة بإفريقية(٤٨).

ولم يطرأ على وزن الدنانير أى تغيير رغم الظروف الصعبة التي مـر بها بيت المال . ولكن فى أواخر عهد الأغالبة أنخفضت انخفاضاً ملموساً بـدلاً من ٤,٢٠ جرام وصلت إلى ٤,١٢ أو ٤,١١ جرام (٤٩) .

ويبدو أن النقود الذهبية لم تخضع لأى زيف. وذلك لحماية المقياس الذهبى الذى كانت تقوم عليه جميع المبادلات، منعا لحدوث كارثة اقتصادية(٥٠).

وكانت الدراهم تمثل حجر الزاوية فى المشكلة النقدية التى حـدث فيهـا التلاعب . وتشير كتب النميات إلى أن أقدم درهم من ضرب الأغالبـة مـؤرخ بسنة (١٨٤ هـ / ٨٠٠ م) مضروب فى العباسية ثم توالى ضـرب الـدراهم بعد ذلك فى سنوات (١٨٥ هـ / ٨٠١ م) و (١٨٦ هـ / ٨٠٢ م) و (١٨٧ هـ / ٨٠٣ م) (٥١) . وتوقف ضرب الدراهم الفضية بعد عهـد محمـد بـن الأغلب (٢٢٦ - ٢٤٢ هـ / ٨٤٠ - ٨٥٦ م) خامس أمراء الأغالبـة . ثـم عادت إلى الظهور مرة أخرى فى عهد إبراهيم الثاني بن أحمـد الأغلبـى (٥٢) (٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٤ - ١ - ٩٠٢ م) تاسع أمراء الأغالبة بمعنـى أن

ضرب الدراهم توقف نحو تسعة عشرة سنة .وذكر (Lavoix) أربعة دراهم سكت في عهد إبراهيم الثانى فى مدينة العباسية سنة (٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) وتحمل أرقام (٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢) (٥٣) .

وتصمت المصادر التاريخية عن سبب توقف المسكوكات الفضية منذ عهد محمد الأول فى وقت كان فيه بيت المال مزدهراً وربما يكون ربط هذه الظاهرة أيضا بالنضوب ، ثم بتقاطر المعدن النفيس . فصار الإصلاح قابلاً بذلك للإنجاز (٥٤) ومما لاريب فيه ، أنه فى فترة التوقف كثرة الدراهم الزائفة والمغشوشة فى أيدى الناس يومذاك فى القيروان . وعم النقد الردئ . ونستند إلى رواية ذكرها الزبيدى (ت ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م) صاحب كتاب (طبقات اللغويين والنحاة) وهذا الكتاب من المصادر الهامة التى تترجم لعلماء اللغة والنحو فى حواضر العالم الإسلامي شرقه وغربه . ذكر فى معرض ترجمته لطبقة القرويين أن الطلاء المنجم إسماعيل بن يوسف أول من أدخل الطلاء العراقى إلى القيروان . واتهم بتزوير الدنانير والدراهم فلاذ بالفرار إلى الأندلس (٥٥) .

وهذا الخبر لا ينبغى أن يمر علينا مرور الكرام . وإنما يدل على تفشى ظاهرة غش العملة (الدراهم) وأن بعض الناس عمل في التزوير في الخفاء . مما أدى إلى ظهور النقد الردئ وبكثرة كربع الدرهم ، وثمن الدرهم ، وكان يتعامل في أسواق القيروان ومدن إفريقية الأخرى بالوزن لا بالصرف . وكثير ما كانت تقطع أجزاء صغيرة من أنصاف وأثلاث وأرباع بدعوى تسهيل الشراءات الصغيرة . وتم ذلك دون السير على قاعدة سليمة . وشاع ضرر هذه الطريقة وأدى إلى الفوضى في التعامل، وأراد إبراهيم الثاني تلافى الأمر بتنظيم هذا التعامل، على أساس سليم، يحفظ الريبة ويكف التنازع بين الأفراد ، فأمر بضرب دراهم خالصة عرفت بالدراهم الصحاح . وسميت بالدراهم " العاشرية " وجعل كل عشرة منها تساوى ديناراً ذهباً (٥٦) .

٥- موقف الثوار

وكانت أولى خطوات التجار للتعبير عن غضبهم هى :

أ- إغلاق الحوانيت

كان إغلاق الحوانيت من قبل التجار يعبر عن مغزى جوهرى فى القيروان حيث سيصيب الحياة التجارية بالشلل التام. وكانت تلك الحوانيت قد

أنشأها زيادة الله الأول (٢٠١ – ٢٢٣ هـــ / ٨٠٧ – ٨٣٨ م) عنـدما أراد إدخال تنظيم جديد لأسواق القيروان . فانشأ الحوانيت الجديدة ، ونقل الناس مـن أسواقهم إليها (٥٧) .وكانت الحوانيت تقع فى أقصى الجانب الشرقى من سـوق الرهادنة – الرهادرة – وفى آخر سوق الكتانيين (٥٨) .

ب– انتقال المظاهرة إلى رقادة

تجمع التجار في حشود كبيرة لم يخبرنا ابن عذارى بأعدادها وزحفـوا إلى رقادة (٥٩) الواقعة في الجنوب الغربي للقيروان على بعد ثمانية أميال (٦٠). ويبدو أن المتظاهرين كانوا يقصدون بخروجهم إلى رقادة وضع الأمير إبـراهيم ابن أحمد أمام الأمر الواقع ؛ ليعدل عـن خطتـة الخاصـة بضـرب الـدراهم الجديدة . أو لنقل شكواهم عن حجم الضرر الذى لحق بهـم مـن جـراء هـذا الإصلاح . ومهما يكن من أمر فإن إبراهيم بن أحمد لم يستجب لهذا التهديـد . الأمر الذى دفع المتظاهرين أمام قصره على التنديد بمسـلك الأميـر إبـراهيم بعبارات وهتافات معادية . وضاق الأمير إبراهيم ذرعاً لهذا المشهد الـذى لـم يألفه من قبل فأمر حراسه بتطويق المتظاهرين وحبسهم فى المسجد الجامع(٦١).

أما عن رد فعل أهل القيروان على حبس المتظاهرين من التجـار فقـد تجمعوا فى حشوداً كبيرة وسخطوا على الأمير إبـراهيم وأعلنـوا العصـيان . واتجهوا صوب باب القيروان المؤدى إلى رقادة (٦٢) .

٦– موقف الحكومة الأغلبية من الثوار

ولما علم الأمير إبراهيم الثانى بماحدث فى القيروان أرسل وزيـره أبـا عبد الله بن أبى إسحاق للتفاوض مع أهل القيـروان وإقنـاعهم بجـدوى هـذه الإصلاحات الاقتصادية . ولم يعبأ أهل القيـروان بمجـئ الـوزير الأغلبـى ، واستقبلوه بقذفه بالحجارة والسب والشتائم ، مما عجل بفشل مهمـة الـوزير . الذى وجد أن الفرصة غير مهيأة للحوار والتفاوض فاثر العودة علـى عجـل ؛ ليخبر الأمير إبراهيم الثانى بحقيقة الموقف .

وأسرع الأمير إبراهيم الثاني ومعه حاجبه نصر بن الصمصامة والوزير أبو عبدالله بن إسحاق وجماعة من الجند . ولما وصل إلى القيروان وجد الشـر في أعين أهلها الذين أصروا على القتال . يقول ابن عـذارى (٦٣) فـى هـذا الصدد : " فناصبه أهل القيروان القتال " .

ورغب الأمير إبراهيم الثاني في معالجة الموقف بحكمة دون اللجوء إلى القوة . ويحسب له هذا المسلك برغم ما عرف به من حدة مزاجه وتقلبه . وانسحب إلى المصلى خارج القيروان سلمياً بمن معه . ونهى جنده عن التحرش بأهل القيروان (٦٤) خشية أن يفلت زمام الأمور من يديه ويقع بينه وبين أهل القيروان ما لا يحمد عقباه .

٧- المفاوضات

من حسن الحظ ان القوة لم تكن هي لغة التعامل بين السلطة الأغلبية وأهل القيروان المساندين للثور . الأمر الذي أتاح الفرصة للحل السلمى عن طريق المفاوضات بين الطرفيين.

وكان الأمير إبراهيم الثانى بن أحمد هو ممثل السلطة الأغلبية وسبق أن عرفت به فى مستهل البحث . أما أهل القيروان فقد مثلهم لعرض شكواهم أحد الفقهاء الزهاد الذى ذكره ابن عذارى خطأ أبا جعفر أحمد بن مغيث (٦٥) . ولكن كتب الطبقات صححت لنا اسمه فهو أبو جعفر أحمد بن معتب الأزهرى (٦٦) . ولم يشر ابن عذارى إلى الظروف التى جعلت أهل القيروان يوافقون على اختياره . فمن هو ذلك الرجل ؟ كان أحمد بن معتب بن أبى الأزهر بن عبد الوارث بن حسن الأزدى رجلاً نبيلاً ، فاضلاً (٦٧) . وكانت له رحلات إلى الشرق وسمع على أيدى نخبة كبيرة من العلماء . وكان شديد التأثر بسماع القرآن الكريم (٦٨) . ويقول ابن الدباغ (٦٩) عنه : " سمع من سحنون وسمع بالمشرق من حسين بن حسن . وكان فقيها صالحا وعالماً بالحديث " . وكان أحمد بن معتب ذا مكانة عند إبراهيم الثانى بن أحمد ، وثمة دليل على ذلك أن الأخير كان يكتب إليه : " يا أخى فى الإسلام وشقيقى فى المحبة " (٧٠) . وتوفى أحمد بن معتب فى سنة (٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) (٧١) .

وعلى أية حال ، دارت مناقشات طويلة بين إبراهيم الثانى بن احمد وأحمد بن معتب فى موضع إقامة إبراهيم الثانى بن احمد عند المصلى خارج سور القيروان . ولم يشر النص إلى فحوى هذا النقاش . ومن المؤكد أنه دار حول لب القضية الأساسية مسألة الدراهم الجديدة وشكوى التجار المتضررين من هذا الإصلاح النقدى من ناحية ومشكلة المحبوسيين من تجار القيروان – الثوار – فى مسجد رقادة .

ويبدو أن إبراهيم الثانى بن أحمد أدرك مطالب أهل القيروان . وتمسك

بموقفه فى مسألة الإصلاح النقدى وأقنع أحمد بن معتب بأهمية إصــلاحه درءًا للمصلحة العامة للدولة مع حفظ مصالح أصحاب العملــة التــى تقــرر ســحبها بتعويضهم . كما وعد بإطلاق سراح المحبوسين فى مسجد رقادة دون شروط .

٨- نهاية الثورة ونتائجها

ومما يدل على رضاء الطرفين على ما اتفقوا عليه أن الهــدوء عــاد إلــى القيروان وسكن أهلها وثمة دليل على ذلك أن الفقيه أحمد بن معتب والوزير أبــا عبدالله بن إسحاق مشيا معاً فى سماط القيروان (٧٢) الذى يبدأ من بــاب أبــى الربيع فى الجنوب الشرقى إلى باب تونس فى الشمال الشرقى والذى يبلغ طولــه نحو ميلين، وكان هذا السماط سطحاً متصــلاً يحفــل بالمتــاجر والصــناعات كافة(٧٣).

على أية حال ، عاد إبراهيم الثاني إلى رقادة وأطلق المحبوسين فى الجامع. وانتهت هذه الثورة دون إراقة دماء . وكان من الممكن أن يحدث مــا لا يحمــد عقباه وانقطعت النقود والقطع الزائفة من إفريقية إلى أوائل القرن الثامن الهجري زمن ابن عذارى ، حلت محلها الدنانير والدراهم العشرية في كل دينــار منهــا عشرة دراهم (٧٤) .

الهوامش

(١) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة كــولان وبروفنسال ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣ م ، ص ١٢٠ – ١٢١ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٢ .

محمد أحمد عبد المولى : أضواء على عصر الأمير إبراهيم الثانى الأغلبى ، مقــال بمجلــة كلية الأداب – جامعة طنطا ، العدد الأول ، سنة ١٩٨٢ م ، ص ٧٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، الجزء الثالث ، دار الفكر ، بيروت (د.ت) ، ص ٥.

(٤) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١١٧ .

(٥) ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ ٦ ، ص ٥ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المجلد الرابع ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ٢٠٣.

(٦) ابن خلدون : مصدر سابق ، جـ ٤ ، ص ٢٠٣ .

(٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق وتعليق / أحمد مختــار العبــادى وآخرين ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ م ص ٢٨ .

(٨) ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ ٦ ، ص ٣٩ .
(٩) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٢٠ .
(١٠) ابن الخطيب : مصدر سابق ، ق ٣ ، ص ٢٩ – ٣٤ .
(١١) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٣١ .
(١٢) الحبيب الجنحانى : القيروان عبر عصور إزدهارها الحضارة الإسلامية ، تونس ، ١٩٦٨ م ، ص ٥٦ .
سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، الجزء الأول ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ م ، ص ١٨٦.
(١٣) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الجزء الرابع والعشرون ، تحقيق / حسين نصار ، مراجعة / عبد العزيز الأهوانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣ م ، ص ١٣٧ .
(١٤) حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ، القسم الأول ، الطبعة الثانية ، مكتبة المنار، تونس ، ١٩٧٢ م ، ص ٣٦٢ – ٣٦٣ .
(١٥) محمد الشابى : رقادة – بحث بمجلة المنظمة العربية للتربية والثقافة – جامعة الدول العربية – المؤتمر السادس للآثار فى البلاد العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ٥١٩ .
(١٦) البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٢٠ .
(١٧) كان قواد الجيش من الطبقة الخاصة ، أو الطبقة الحاكمة ، أما الجنود فكانوا من الطبقات الشعبية ، وقد نشأت بينهم – نظراً بكثرة العمليات العسكرية التى عرفتها القيروان – فئة خاصة يمكن أن نسميها بفئة الجنود المرتزقة الذين كانوا يحاربون مع كل من يستأجرهم لذلك أنظر .الحبيب الجنحانى : مرجع سابق ، ص ١٤٨ – ١٤٩ .
(١٨) كان العبيد من شرائح العامة فى القيروان وكانوا يعملون فى ضياع كبار الملاك حيث كانت هناك قرى كاملة مملوكة لكبار الملاك ، وبها عبيد ...
نريمان عبد الكريم أحمد : مجتمع إفريقية فى عصر الولاة ، سلسلة تاريخ المصريين رقم (١٩٥) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ م ، ص ٢٧٠ .
(١٩) أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ، تحقيق / على الشابى وآخرين ، تونس ، ١٩٦٨ م ، ص ١٨٨ – ١٨٩ .
المالكى : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية ، الجزء الأول ، تحقيق / حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥١ م ، ص ٢٩٧ .ابن الدباغ : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، الجزء الثانى ، تحقيق / محمد الأحمدى أبو النور و آخرون ، مكتبة الخانجى ، القاهرة (د.ت) ، ص ٧٣.
(٢٠) المالكى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢٧ .
(٢١) محمود إسماعيل : مغربيات ؛ دراسة جديدة ، المغرب (د.ت) ، ص ١١٠ – ١١١.
(٢٢) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٠٢ .
(٢٣) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٦٩ .

(٢٤) نورمان : بيت ابن عوكل ، ترجمة / زبيده عطا (بحث تحت الطبع) ، ص ٢ .
(٢٥) Goitein : Zion (Hbrew) V.27, 1962, P.12 .
(٢٦) أمين الطيبى : جوانب من النشاط الاقتصادي فى المغــرب خــلال القــرن الســادس الهجرى من خلال رسائل جنيزة القاهرة ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الثانى ، مركــز جهاد الليبيين ، طرابلس ، ١٩٨٤ م ، ص ٤٥٧.
(٢٧)ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ ٣ ، ص ٣٠٩ .
الحبيب الجنحانى : مرجع سابق ، ص ٨٦ .
(٢٨) كتاب الجغرافية ، تحقيق / محمد حجاج صادق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة (د.ت) ، ص ١٠٩ .
(٢٩) الرقيق : تاريخ أفريقيا والمغرب ، تحقيق / المنجى الكعبى ، تونس ، ١٩٦٧ م ، ص ٢١٦.
(٣٠) النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق / وداد القاضى ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٠ م ، ص ٢١٠ .
ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ ٦ ، ص ١٣٢ .
المقريزى : اتعاظ الحنفا ، الجزء الأول ، تحقيق / جمال الــدين الشــيال، المجلــس الأعلى للشئون
الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ص ٦٣ .
(٣١) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٦٦ .
(٣٢) البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٢٠ .
(٣٣) البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١١٤ .
(٣٤) نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ، ص ١٢٧ .
(٣٥) نفسه ، ص ١٢٥ – ١٢٦ .
(٣٦) نفسه ، ص ١٢٦ حاشية (١) .
(٣٧) نفسه ، ص ١٢٦ .
(٣٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١١٤ .
(٣٩) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١١٩ .
(٤٠) محمد الطالبى : الدولة الأغلبية التاريخ السياسى ، ترجمة / المنجى الصيادى ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٥ م ، ص ٣٠١ – ٣٠٢
(٤١) ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ ٥ ، ص ٣٧٣ . ابن أبى زرع : الأنــيس المطــرب بروض القرطاس ، دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢ م ، ص ٩٦.
(٤٢) ابن الأثير : مصدر سابق ، جـ ٦ ، ص ٢٥ .
ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١١٧ .
محمد بركات البيلى : الغلاء والمجاعات فى بلاد المغرب الإسلامى حتى القــرن الخــامس الهجرى ، بحث بمجلة المؤرخ المصرى يصدرها قســم التــاريخ بكليــة الآداب – جامعــة

القاهرة، العدد الحادى عشر ، يوليو ، ١٩٩٣ م ، ص ٣٢٥ .
(٤٣) النويرى : مصدر سابق ، جـ ٤ ، ص ١٣٠ .
(٤٤) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١١٩ .
(٤٥) النويرى : مصدر سابق ، جـ ٢٤ ، ص ١٣٠ .
محمد الطالبى : مرجع سابق ، ص ٣١٣ .
(٤٦) إفريقية حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ / ٦٨٤ – ٧٠٥ م) حيث أمر بسك الدينار العربي . أنظر – ابن يوسف : الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة ، تحقيق / حسين مؤنس ، مدريد ، ١٩٦٠ م ، ص ٤٧.
– المقريزى : النقود الإسلامية ، تحقيق / محمد السيد على ، الطبعة الخامسة ، النجف ، ١٩٦٧ م ، ص ١١ .
– حسن محمود الشافعى : العملة وتاريخها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ م ، ص ٨٧ .
-OGodrington : Muslim Numismatins London , 1904, P.12.
وكانت العملة البيزنطية ينقش عليها كتابة باللاتينية تزين برسوم الأباطرة . وفى ولاية حسان بن النعمان (٧٣ – ٨٦ هـ / ٦٩٢ – ٧٠٥ م) على بلاد المغرب أضاف على تلك العملة بعض التعديلات والنقوش الدينية الإسلامية ثم عربت بعد ذلك في القيروان في دار الضرب التي كانت تسلك فيها النقود على اختلاف أنواعها .
عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، الجزء الأول ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ،.– الحسنى : تطور النقود العربية الإسلامية ، الطبعة الأولى ، بغداد ، ١٩٦٩ م ، ص ٥٣ .– محمد محمد زيتون : القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ، الطبعة الأولى، دار المنار ، القاهرة ، ١٩٨٨ م ، ص ١٥٤ .
(٤٧) عبد الرحمن فهمي محمد : موسوعة النقود العربية ، دار الكتب المصرية القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٨٢٩.
Muhammed – Abu –L . Farage : Annnales Aglabdes, Damas. 1982, P. 43.
(٤٨) Lavoix : Catalougu des Monnaies Musulmanesa , V.III, Africa and Spain, Paris, 1887, P. 368.
(٤٩) جورج مارسية : بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامى فى العصور الوسطى ، ترجمة / محمود عبد الصمد هيكل ، مراجعة / مصطفى أبوضيف أحمد ، منشأة المعارف ، الإسكندرية (د.ت) ، ص ٩٥ .
(٥٠) محمد الطالبى : الدولة الأغلبية التاريخ السياسى ، ص ٣٠٢ .
(٥١) Mohammed Abu . L . Farage : op cit, P. 96
(٥٢) محمد الطالبى : مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .
(٥٣) Lavoix : op cit, P.365-366.

(٥٤) محمد الطالبى : مصدر سابق ، ص ٣٠٣ .
(٥٥) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ م ، ص ٢٤١ – ٢٤٢ .
(٥٦) حسن حسنى عبد الوهاب : النقود العربية فى تونس ، تونس ، ١٩٦٨ م ، ص ٢٥ .
(٥٧) المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٩٦ .
ابن الدباغ : معالم ، جـ ٢ ، ص ٣٧ .
(٥٨) ابن الدباغ : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ٣٧ .
(٥٩) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٢٠ .
(٦٠) اليعقوبى : البلدان ، ليدن ، ١٨٩٣ م ، ص ٣٤٨ .
(٦١) ابن عذارى / مصدز سابق ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .
(٦٢) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .
(٦٣) البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .
(٦٤) نفسه ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .
(٦٥) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٢١ .
(٦٦) الخشنى : قضاة قرطبة وعلماء إفريقية وتونس ، عنى بنشره السيد / عزت العطار ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٣٧٢ هـ ، ص ١٨٩ .المالكى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٣٧٠ . ابن الدباغ : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ .
(٦٧) الخشنى : مصدر سابق ، ص ١٨٩ .
(٦٨) المالكى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٣٧٠ .
(٦٩) معالم الإيمان ، جـ ٢ ، ص ١٧٧ .
(٧٠) ولم تضع محبة إبراهيم بن أحمد الأغلبى من خذلان أحمد بن معتب ذات مرة عندما مكن منه القاضى أبا العباس محمد بن عبدون الذى أمر بضرب أحمد بن معتب . وكان أحمد يقول بعد ذلك هذه النازلة خير لى ، إذ سلبت محبة إبراهيم بن الأغلب من قلبى الخشنى : مصدر سابق ، ص ١٨٩ – ١٩٠ . ابن الدباغ : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ .
(٧١) ابن الدباغ : مصدر سابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٣ .
(٧٢) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٢١ .
(٧٣) البكرى : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، مكتبة المثنى ، بغداد (د.ت) ، ص ٢٥ – ٢٦ .
(٧٤) ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ١٢١ .سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، الجزء الثاني ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ م ، ص ١٢٨ – ١٢٩ . الحبيب الجنحانى : المغرب الإسلامى ، تونس ، ١٩٧٨ م ، ص ٧٧ . محمد الطالبى : الدولة الأغلبية ، ص ٣٠٥ .

الباب الرابع
الثورة والتغيير في العصور الحديثة

الفصل الأول
عنــف الجيــاع
انتفاضات الخبز فى مصر العثمانية
١٥١٧-١٧٩٨
"الجعان يحلم بسوق العيش"

سيد عشماوى(*)

(١)

ويظل التساؤل : ما الذى يمكن أن تقدمه هذه الأوراق من أضــواء علــى هذه الظاهرة التاريخية المجتمعية، والتى هى بطبيعتها على درجة عاليــة مــن التكثيف والتواصل التاريخى بين الماضى والحاضر؟

تتجاوز هذه الدراسة، تلك الصورة التى أبرزها، بعض المــؤرخين مــن أمثال المقريزى مؤلف "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، فى بيان الأسباب التى نشــأت عنها المجاعات فى مصر، وهى صورة وضحت معالمها في "عجائــب الآثــار" للجبرتى، فى الربط بين الظروف الطبيعية، الممثلة فــي أحــوال نهــر النيــل، والظروف الاقتصادية، الممثلة فى اشتداد الغلاء، وبــين الظــروف السياســية، الممثلة فى تعدى ومظالم الولاة والأمراء والعسكر، تتجاوز مــا أكــدت عليــه دراسات حديثة، في الربط بين غلاء الأسعار وتحركات الــرفض والاحتجــاج، مثلما خط اندريه ريمون دراسته عن "أحياء القاهرة الشعبية في القــرن الثــامن عشر والحركات الجماهيرية التى قامت بها".

ويعترف كاتب هذه السطور، أن سمات عنف الجياع، لا يمكن إدراكهــا،

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد، كلية الآداب - جامعة القاهرة.

إلا في ظل السياق المجتمعي، الذي يبرز تحولات الاقتصاد في ظل ارتفاع معدلات الغلاء، وحدوث حالة من القحط، أو الفقر الكلي، وتحولات السياسة في ظل تعدى وعنف السلطة ورموزها، وازدياد مظالمها، أو حتى تحولات المجتمع فى ظل تزايد الجماعات المهمشة مثل الشحاتين والفقراء وتجمعات الحرافيش والمناسر والعياق والزعر، المفلوكون من أصحاب الخصاصة والمسكنة، فقراء المدن والقرى، الذين حملوا بذور ثقافة الانحراف مع ثقافة الرفض والتمرد.

دراستى تدرك ذلك جيداً، ولكنها تركز على منحنى آخر "ثقافى - اجتماعى"، يتخذ من تصور أهل مصر لقيمة ودلالة الخبز، لقمة العيش، فى حياتهم اليومية، محوراً ترك بصماته الواضحة، على تحركهم العنيف، وتظهر إحدى جوانب الروح المنطلقة والمنعتقة لعوام أهل مصر، بعد أن حصل لهم "مشقة" أو "غاية التعب"، ووقعوا "فى المهالك والعطب" على حد تعبيرات الملوانى والبكرى والاسحاقى المنوفى، هذه الروح التى تجلت فى صرخات وهتافات تواكبت مع تحركاتهم، عبروا فيها بقوة واقتدار عما حاق بهم من البلاء والغلاء، الذى لم يسمع بمثله إلا فى "زمن الفواطم"، وهو الأمر الذى جعل أحياناً بعض من أرخوا لهذه الأحداث فى زمانها، يرددون فى كتاباتهم بغضهم لهذه الأشياء ومسبباتها، تمنياً ذهابها بلا رجعة : "الله لا يرجع الغلا ولا كياله" وقالوا فى تذكر شئ يؤلم ذكراه "الله لا يعودها" وفى طلب السلامة من وقوع مكروه "الله لا يقدر ولا يكون"[1]. وتؤكد هذه الدراسة، على أن هناك بعض الفترات التاريخية في مصر العثمانية، حدث فيها الغلاء العظيم، والمظالم والفرد وتشحيطة الغلال، غير أنها لم تواكبها أى تحركات للجياع تتسم بالعنف، كما حدث مثلاً فى عهد محمد باشا طبان (١٦٢٨-١٦٣٠م)، ومع ذلك مضت أيام الغلا، ولم يشعر أحد بها من كثرة المكاسب والحظ والبحبحة"[2]، بل كما يؤكد الجبرتى أن الغلاء والمظالم فى إحدى السنوات لم يقع فيها "قحط ولا موت من الجوع، كما رأينا فى الغلوات السابقة من عدم الخبز فى الأسواق، وخطف أطباق العيش، والكعك، وأكل القشور، وما يتساقط فى الطرقات من قشور الخضروات"[3].

مثل هذه السنوات كانت هى "الاستثناء"، لكن "القاعدة" أن الجوع كان يرتبط دائماً بالغلاء والوباء، والشئ المؤكد فى التاريخ أن تشحيطة الخبز، أو نقصه، أو احتكاره، أو حتى رفع أسعاره كسلعة ضرورية، قد ارتبطت بها،

تحركات عنيفة، أثرت على مجمل الأوضاع الاقتصادية - السياسية، وأصبح العنف سمة للحالة المجتمعية التى أفسدها فقر البلاد والعباد، وحملت تحركات الجياع بذور عنف فوضوى، كان هو الرد الطبيعى على العنف الذى مورس ضدهم، عنف نما تدريجياً تحت أشكال مختلفة، أسقط العوام شرعية الموجبات الخاضعين لها، ولأن "الجوع كافر" فقد تزايدت موجات السلب والنهب، وانتشرت عصابات قطاع الطرق والزعر والمناسر، وتعدى هؤلاء على ممتلكات الغير، وذواتهم، نهبوا بعض الأشياء وأحرقوا بعضها. ولم يقتصر ذلك على المدن فقط، بل امتد إلى الأرياف، حيث اتسعت دوائر العنف وتكاثرت، لتقوض هيبة الدولة. وتعلن الخروج عليها وعصيانها وهى ذات الباع الطويل، خاصة وأن عنف السلطة وتعديها لحدودها قد تجاوز الحد، فهى التى تملك ذهب المعز وسيفه، سطوة المال أو الفلوس عبر عنها صاحب "الدرة المصانة" بقوله[٤]:

إن الدراهم فى الأماكن كلهـا	تكسى الرجال مهابة وجـلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة	وهى السلاح لمن أراد قتـالا

أن الحصول على مال السلطنة، كان يؤخذ بالقوة والعنف "مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم"[٥]، وهو شكل من أشكال عنف الدولة، المؤسسى الرسمى. وما فعله رموزها وأدواتها، وكما يقول الجبرتى "شئ لا تدركه الأفهام ولا تحيط به الأقلام"، فقد كان "فمها يسبح ويديها تذبح". أما عنف الجياع، المضاد لعنف السلطة، فهو عنف لا مركزى، يعبر عن الاختلال المجتمعى غير المتوازن بين "الأصاغر" الذين يزدادون فقراً ويتضورون من الجوع، وبين "الأكابر" الذين يزدادون غنى، عنف الجياع التلقائى العفوى غالباً والذى يستخدم القوة أو يهدد باستخدامها لكى يلحق الضرر بآخرين، كان يتوقف غالباً عند مجرد تصريف التوتر الناشئ عن الجوع، ومحاولة الحد من مصادره، عبر عن عدم الرضا فى شكل انتفاضات متكررة، تكاد أن تكون "بروفة" ضيقة للثورة والتى هى مرحلة تكثيف لهذه الانتفاضات.

عنف الجياع ليس هو عنف "الثورة"، أو عنف "الانحراف"، من الممكن أن يطلق عليه تجاوزاً عنف مرحلة "المابين" تعبر فيه الجماعة عن شعورها بأشكال الحرمان النسبى الناجمة عن الغلاء، أو الحرمان المطلق حيث العجز عن إشباع الحاجة الأساسية للإنسان، وتطلعه إلى ما يرغب فيه "الجيعان يحلم أنه فى سوق

العيش"[٦]، أو كما قيل : "أبوك مات من الجوع، قال هو طال وماكلشى؟!"[٧].

تفاوتت شدة وعنف الجياع، ضج هؤلاء، وعيطوا على الحكام، خاصة وقد "أيقنوا بالقحط وأيسوا من رحمة الله" على حد قول الجبرتى، وضجوا، حتى أثناء الابتهال بالدعاء وطلب الاستسقاء، على حد قول الحجازى [٨]:

عـــلا علـــى النـــاس ضـــج	فكـــاد يحصـــل كفـــر
ليأســـهم واســـتمروا	يـــدعون لـــم يســـتقروا

والملاحظ أن عنف الجياع، وبصفة خاصة إبان فترات التناحر بين القوى السياسية، كان يؤدى إلى تسيس مشاعر هؤلاء، وتعبئتهم ضد الولاة، وهو الأمر الذي كان يؤدى أحياناً إلى عزل بعضهم ومغادرتهم مصر، فى فترات تاريخيـة، كان بعض الباشوات يبيعون الغلال للأفرنج، بينما الناس تتقاتل على الخبز، ومع ازدياد ضغط العوام كان العسكر يتدخل، على نحو ما حدث أيام خضـر باشـا (١٥٩٧-١٦٠١م) وعلى باشا السلحدار (١٦٠١-١٦٠٤م)[٩] ويذكر صـاحب "تقويم النيل"[١٠] أنه في عهد كتخدا حسين باشا (١٦٨٦م) غلت الأسعار في هذه السنة، بمصر فضج الناس وأظهروا التذمر من الوالى فعزل من الولاية .

استشراف بعض المؤرخين بما هو آت من أحداث، عبر عنه ابـن عبـد الغنى بأبيات من الشعر كان يستشهد بها دائماً أثناء عرضه للأحداث [١١]:

* الليـــالى مـــن الزمـــان حبـــالى	مثـــقلات تلـــدن كـــل عجيبـــة
* وإذا عطيـــت ولايـــة كـــن عـــادلاً	وأعلـــم بأنـــك بعـــدها معـــزول

بطبيعة الحال كان جهاز الحكم يحرص علي التعامل مع عنـف الجيـاع، يستخدم بعض الفرق العسكرية المعدة إعداداً جيداً، ولأن الأزمة الاقتصادية قـد مست الأكابر والأصاغر ومساتير الناس، كان لابد من احتواء هذا العنف والحد منه، كانت تقدم عدة بدائل لعلاج الأزمة، وكانت المساومة آلية كحـل يرضـى الأطراف، ولو مؤقتاً، يخفف من بعض التوترات الناجمة عن السـخط بعـد أن تحول الاحتجاج الجماعى إلى أعمال عنف وشغب وتخريب، بل وقتل واغتيـال لمن مارس العنف والعنف المضاد، شارك فيه العوام مع أولاد القرافة الفقـراء، مع من انضم أحياناً إليهم من أهل الأرياف، الذين تسحبوا وهجوا وطفشوا مـن بلادهم إلى القاهرة، وشارك هؤلاء جماعات المناسر والعياق، ولم يفـت بعـض

المؤرخين أن يربطوا بين كثرة المناسر وبين أزمة الخبز، ففى عهد مصطفى البستنجى (١٦٤٠-١٦٤٢م) يذكر ابن عبد الغنى "وفى أيامه كثرت المناسر لكونهم لم يجدوا الخبز، ودخلت اللصوص إلى الأسواق"[١٢]، ويؤكد على ذلك شاروبيم بقوله : "فى ولاية مصطفى البستانجى (١٦٤١م) ظهر أهل الفساد واللصوص وقطاع الطرق وكثرت السرقات فى حارات القاهرة وبيوت مصر القديمة، وما جاورها من القرى، وقصر النيل فى الزيادة، فغلت الأسعار، وقل وارد الحبوب، واشتد البلاء على الناس فكانوا بين قرمين عنيدين الغلاء واللصوص"[١٣].

يرى كاتب هذه السطور، أن عنف الجياع، لا يقتصر على حالات الضجيج والصوات والزن "إذا شبعنا غنينا، وإذا جعنا صوتنا" أو فى معنى آخر "إذا شبعوا غنوا، وإذا جاعوا زنوا"[١٤]، والصراخ والهتافات، والسلب والنهب والحرق والخطف والسرقة، بل يظهر هذا العنف في أشكال أخرى تكاد تخفى أمورها على بعض المؤرخين، مثل أشكال المقاومة بالحيلة، السخرية والاستهزاء والتهكم وانطلاق اللسان بالكلام الفج، غير اللائق، وتكاثر الدعوات والأدعية في الشوارع والبيوت ومن فوق المآذن : "اللهم أكفينا السوء، اللهم أكفينا الشر، اللهم الطف بعبادك، اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله"[١٥] أحد أشكال عنف الجياع، يكمن أحياناً، رغم المبالغة فى الصور المأسوية، ما يمكن أن نسميه تجاوزاً بأكله لحوم البشر والدواب والتكالب على جثث الموتى وافتراسها، ففى مجاعة ١٦٩٥ الشهيرة يذكر أحد المعاصرين : "والله، رأيت بعين أم رأسى جمعاً من النساء الفقراء، الذى بجانب الدرب الذي بحارة الجودرية، وحطوه فى جورة الفرن، ثم صاروا يتقاتلون عليه، وهم يأكلون فيه والدم والصديد وتراب الجورة"[١٦]. وأحدهم يذكر : "أننى أخبرت ممن أثق به من الرجال أنه رأى بمدينة الفيوم، ناس أكلوا أولادهم"[١٧]، وآخر يذكر أنهم اضطروا إلى أكل "القطط والرمم"[١٨] ويؤكد ساويرس بن المقفع، أنه أثناء مجاعة ١٦٧٦، "أكل الفقراء جثث الموتى من الناس والميتة من الحيوان"، أما الجبرتى فيؤكد فى أحداث نوفمبر ١٧٨٤ : "وأشتد بهم الحال، حتى أكلوا الميتات من الخيل والحمير والجمال، فإذا خرج حمار ميت، تزاحموا عليه، وقطعوه وأخذوه، ومنهم من يأكله نياً من شدة الجوع، ومات الكثير من الفقراء بالجوع" ويعود الجبرتى، ليذكر مرة أخرى فى أحداث عام ١٧٩٢ : "كثر الصياح والعويل ليلاً ونهاراً فلا تكاد تقع الأرجل إلا على خلائق مطروحين

بالأزقة، وإذا وقع حمار أو فرس تزاحموا عليه وأكلوه ميتاً ولو كان منتناً، حتـــى صاروا يأكلون الأطفال !!" [١٩]

(٢)

حفل التاريخ المصري منذ القدم، حتـــى عصــرنا الحــديث، بتحركــات وتظاهرات الجياع وضجيجهم وصراخهم، بعد أن حملت أنفسهم مـــا لا تطيــق فنطقت بما لا يليق، على حد تعبير ابن إياس، أن تاريخ المجاعات فـــى مصـــر، ظاهرة متكررة عبر العصور، تفاوتت شدتها بين زمن وآخر. ولعلنا نشير فـــى عجالة، إلى أبرز وأهم مجاعات مصر ما قبل العصر العثمـــانى، وعلـــى وجـــه الخصوص .

- ما شهدته بعض سنوات الدولة الفاطمية، زمن الظاهر لاعزاز دين الله عـــام ٤١٥هـــ، حيث افتتن البلد بالضجيج وتصايح الناس فى الطرقـــات الجـــوع، الجوع، وعندما تجمع العبيد والنهابة ومن انضاف إليهم صـــاحوا "مانزلنـــا ننهب، ولا نتعرض لشئ إلا لما نأكله من الجوع، لأن الجوع قد اشتد بنـــا، وأكلانا الكلاب"[٢٠]، كذلك شهدت مصر أسوأ مجاعة ألمت بهـــا فـــى عـــالم العصور الوسطى، سنوات ٤٥٧-٤٦٤/ ١٠٦٤-١٠٧١، فيما اصطلح عليه بالشدة المستنصرية أو "الشدة العظمى" استولى الجوع على النـــاس وعـــزت الأقوات، وأكلت الكلاب والقطط، وأكل الناس بعضهم بعضاً، وكانت نســـاء القصور تخرجن ناشرات شعورهن، وتصحن "الجوع! الجوع!" [٢١].
- وشهدت سنوات الدولة الأيوبية والمملوكية الغلاء والوباء والمجاعات ففـــى سلطنة العادل الأيوبى حدثت مجاعة ٥٩٦هـــ - ١٢٠٠م وفيها كمـــا يقـــول المقريزى صار غذاء الكثير من الناس لحوم بنى آدم بحيث ألفـــوه وتســـاقط الناس فى الطرقات، وفى زمن كتبغا (٦٩٤-٥٩٦هـــ/ ١٢٩٤-١٢٩٥م)، ضج الناس من شدة الجوع، حتى قال أبو الطيب المالكى نزيل قوص "لـــو وجدت بالقاهرة رغيفين ما خرجـــت منهـــا"[٢٢]، وتتتـــابع ســـنوات الغـــلاء والمجاعة، زمن الناصر محمد بن قلاوون (٧٣٦هـــ)، وفى عهد الأشـــراف قايتباى، عندما تشحطت الغلال وارتفع سعرها اسمعه الناس الكلام المنكـــى، وعندما اشتد الغلاء، وبيع خبز الذرة، صنف العوام رقصة، وهم يقولون[٢٣]:

زويجى ذى المسخـــرة يطعمنى خبز الـــذرة

وشهدت فترة الغورى تشحيطه الغلال وتتابع الأزمات، وصفها بكل دقـــة

وأمانة ابن إياس، على ما يذكر مثلاً فى أحداث عــام ٩١٩هــــ، عنــدما شــق السلطان من القاهرة "اسمعته العوام الكلام بسبب تشحيطه الخبز وغلو الــدقيق، وكان القمح الجديد قد وصل وأشيع بين النـــاس أن الســلطان يشــترى القمــح ويرسله إلى الشام فإنه كان بها غلاء عظيم، لما شق السلطان من القاهرة تسيّبت عليه العوام بالكلام المنكى، وقالوا له جهاراً : الله يهلك من يقصد الغــلاء إلــى المسلمين، فسمع ذلك بأذنه فتنكد فى ذلك اليوم" .

- في ربيع الأول سنة ٩٢٢ عندما بدأت استعدادات السفر لمحاربة ابن عثمان "صارت المماليك يهاجمون الطواحين ويأخــذون منهــا الخيــول والبغــال والأكاديش، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبــز مــن الأســواق وكــذلك الدقيق، ووقع القحط بين الناس، وضج العوام وكثر الدعاء على السلطان".
- البدايات الأولى لدخول ابن عثمان مصر القاهرة، شــهدت بــوادر تشــحط الغلال وارتفاع الخبز من الأسواق (محرم سنة ٩٢٣هــ" وسبب هذا الأمــر أن العثمانية لما دخلوا إلى القاهرة العثمانية، نهبوا المغل الــذى كــان فــى الشون وأطعموه لخيولهم، حتى لم يبق بالشون شيئاً من الغلال، ونهبوا القمح الذى كان بالطواحين، واضطربت أحوال الناس قاطبة"[٢٤]

وفى عهد خايربك (رمضان ٩٢٤هــ) "لما شق القــاهرة، ضــجت إليــه العوام من قلة الخبز فى الأسواق، وانطلقت ألسن العوام فى حــق ملــك الأمــراء بالكلام الفج، وقالوا له :أنظر فى أحوال المسلمين نور الله تعالى ألا يصــير ذلــك فى ذمتك. فتنكد ملك الأمراء فى ذلك اليوم إلى الغاية. عقب خروج الحجاج وسفر المحتسب، ارتفع الخبز من الأسواق وغلقت الطواحين وارتجت بسبب ذلك القاهرة (ذو القعدة ٩٢٤هــ)، وصار القاضى يطوف القاهرة فى كل يوم ثــلاث مــرات، وشرع يضرب الطحانين والخبازين ضرباً مبرحاً ويشهرهم فى القــاهرة، حتــى انحطت الأسعار ودعا الناس له قاطبة. وفى جمادى الآخرة ٩٢٥هــ، ثارت طائفة من الأصبهانية على الأمير جانم الحمزاوى وهو نازل من القلعــة، وعينــوا لــه الضرب، وقالوا له : قل لملك الأمراء قد متنا من الجوع نحن وخيلنــا مــن قلــة الشعير، ولا نلتقى فى الأسواق خبز، فإما أن يأذن لنا بالسفر أو أنــه يكفينــا مــن القوت، وكان قد وقع الغلاء بالديار المصرية، وتشحطت الغــلال، وعــز وجــود الخبز من الأسواق، وضج الناس من ذلك. وفى شعبان ٩٢٦هــ، عندما دخل ملك الأمراء من باب النصر وشق القاهرة، لم يدع له أحد مــن النــاس بالنصــر ولا زغرتت له النساء من الطيقان، بل أغلظ عليه بعض العوام، وقــال لــه : انظــر

بالشفقة في أحوال المسلمين بسبب الخبز والدقيق وسائر الأسعار في البضائع مشتطة".

"وفى شهر رمضان (٩٢٦هـ) عندما توقف النيل، ارتفعت أسعار الغلال والبضائع، ورسم ملك الأمراء لقضاة القضاة ومشايخ العلم ومشايخ الصوفية بأن يتوجهوا إلى المقياس ويبتهلوا إلى الله تعالى بالدعاء في وفاء النيل، بل أن ملك الأمراء نزل بنفسه إلى هناك وأحضر الأطفال الأيتام من المكاتب، وكثر هناك الضجيج والبكاء والتضرع إلى الله تعالى بالدعاء في أمر الزيادة، وفعل من وجوه البر والصدقات أشياء كثيرة، وخرج وصحبته الناس قاطبة للاستسقاء، وقد قال القائل[٢٥]:

بمسرى النيل ما أوفى فضجوا	ودب القحط فينا من أبيب
ولم أضرع لمخلوق لأني	رأيت الله ألطف من أبي بي

هكذا كانت البدايات الأولى بعد أن غزا ابن عثمان مصر، إذ توالت موجات متقطعة من الغلاء والبلاء والوباء والفناء التي حلت بالبلاد والعباد، وتلاحقت خطاها، واعتماداً على "أوضح الإشارات" لأحمد شلبى بن عبد الغنى، أساساً، وعلى بعض كتابات أخرى تاريخية عن العصر العثمانى الأول في مصر يمكننا إبراز بعض ولا أقول كل النماذج التالية ذات الدلالة :

- اتفق فى زمن محمد باشا الشهير بدوقه لى (٩٦١-٩٦٣هـ/ ١٥٤٤-١٥٥٦م)، غلاء عظيم، إلى أن عدمت الحنطة، والشعير والفول، وصارت الناس يقتاتون بالبذور والترمس، وصار أصحاب الأموال يجيبون الحنطة من بلاد الشام وغيرها من البلاد، حتى هلكت الفقرا[٢٦].

- فى زمن حسين باشا، الذى قدم إلى مصر سنة ٩٨١هـ- ١٥٧٣م، حصل غلاء عظيم وقحط، حتى أكلت الناس بذر الكتان وأعقب ذلك موت فجأة[٢٧].

- تحت عنوان "ثورة أهلية" كتب زيدان : "عندما تولى خضر باشا (١٠٠٦هـ - ١٥٩٨م)، أغضب الأهالى منذ وصوله القاهرة لأنه أمر بقطع جميع العطيات التى كانت توزع على العلماء والفقراء من الحنطة، ولم يقتصر على الإيقاع بهؤلاء الضعفاء فقط بل تجاوزهم إلى الضابطة، فأحرمهم من زادهم، فتجمهروا فى ٢٠ رمضان سنة ١٠٠٩هـ، فاتحدوا

جميعاً، والقاضى فى مقدمتهم وتوجهوا إلى الديوان، يريدون الانتقام، فقتلوا كخيا الباشا وأمراء آخرين، فخاف الباشا، فسلم لهم بكل ما كانوا يطلبون، وأعاد لهم العطيات كما شاعوا فخمدت الثورة، وعادت المياه إلى مجاريها"[٢٨].

- في زمن على باشا السلحدار (١٠١٠- ١٠١٣هـ/ ١٦٠١-١٦٠٤م)، كان الغلاء العظيم وسبب ذلك قلة وفاء النيل، بحيث أن أمين الحسبة أوقف ناساً على الأفران، يمنعون الناس من خطف العجين من المواجير، والخبز من الأسواق، ثم أنه شرع فى بيع قمح العنبر الشريف إلى الأفرنج، فى الجلود على هيئة البهار، فعند ذلك قامت العسكر عليه، وقالوا له : كيف ما تبيع القمح للأفرنج بستين فضة وقد أكلت الناس بعضها بعضاً من الغلاء، والقمح يباع بستة وثلاثين نصف فضة، وتطمع فى أربعة وعشرين نصفاً زيادة فى كل ويبة[٢٩].

- في عهد قرا حسين باشا (١٠٢٩-١٠٣١هـ/ ١٦٢٠-١٦٢٢م) زاد النيل زيادة مفرطة، فأيست الناس من عدم هبوطه. وارتفعت الأسعار، فخرج الباشا والعلماء والأشراف وأولاد المكاتب إلى سبيل على باشا ودعوا الله، فهبط النيل، ثم أعقبه طاعون[٣٠].

- فى زمن مصطفى باشا البستنجى(١٠٥٠-١٠٥٢هـ/١٦٤٠-١٦٤٢)، جاء الشراقى فى إقليم بمصر، وكانت سنة شديدة على الغنى والفقير، وحصل للباشا كرب عظيم "وفى أيامه كثرت المناسر لكونهم لم يجدوا الخبز"[٣١]، ودخلت اللصوص إلى الأسواق، وصاروا يأخذون فى كل ليلة محلات.

- في عهد عبد الرحمن باشا (١٠٨٧-١٠٩١هـ/١٦٧٦-١٦٨٠)، عندما بلغ ثمن أردب القمح ١٨٠ نصف فضة، ازداد السخط، وأمر عبد الرحمن باشا أن يباع الأردب بـ ١٣٠ فقط، انفجر العصيان، واشتعلت الحرائق فى الدكاكين ومخازن الحبوب فى الرميلة وسقط ١٣ قتيلاً[٣٢].

- فى عهد حسن باشا السلحدار، لما كانت سنة ١١٠٠هـ (١٦٨٩م)، وقع الغلاء بمصر وامتنع الوارد من الغلال، فبيع الأردب القمح بمائة وعشرين نصفا فضة، والأردب الشعير ثمانين والفول بخمسة وتسعين نصفاً، وأجرة طحين ويبة القمح أربعة أنصاف فضة، فضج الفقراء، وطافوا بالأزقة

والحارات يتساءلون وصاروا يتخطفون ما يجدونه من الخبز فـــى الأفـــران وفى الدكاكين[٣٣].

- فى عهد تولية على باشا (١١٠٣-١١٠٧هـ/ ١٦٩٢-١٦٩٥م)، وفى غرة محرم الحرام سنة ١١٠٧هـ - ١٢ أغسطس ١٦٩٥م، اجتمعـــت الفقـــراء والشحاتين من النساء والرجال والصبيان، وطلعوا إلـــى حـــوش الـــديوان، وصاحوا ونادوا : متنا من الجوع، وشدة الغلا. فلم يرد عليهم أحد جوابـــاً. فأخذوا الحجارة ورجموا جميع من فى الديوان. فضربهم الـــوالى جميعـــاً، وطردهم، فنزلوا إلى الرميلة، فنهبوا جميع الغلال التى بالرقعـــة، وكســـروا الحواصل، ونهبوا جميع ما كان فيها، من قمح وفول وشعير، ونهبوا حاصل كتخدا الوزير، وكان ملآن فوق وشعير، وكانت هذه الفعلة ابتدا الغلا فـــى جميع المأكولات جميعاً. ثم أخذت الأسعار فى الزيادة مـــن محـــرم ســـنة ١١٠٧، واستمر فى الزيادة إلى أن أبيع القمح بستماية فضة الأردب والفول بخمسماية فضة والشعير بأربعمائة فضة والعدس لم وجد، والرز بثمانمايـــة فضة واللحم الضانى بخمسة أنصاف الرطل، والجـــاموس الوقيـــع بثلاثـــة أنصاف الرطل، والسمن بألف فضة القنطار، والعسل النحل بستماية، والكل ديوانى. وحصل للناس بسبب ذلك الغلا الشديد فى مصر، وأقاليمها، حتـــى أن غالب أهل الأرياف والبلاد جاءوا مصر، ولكن أكثـــرهم مـــن البهنســـا والفيوم، وامتلأت أزقة مصر، وحاراتها، وأسواقها، واشتد الكرب والـــبلاء، وأكلت الناس الجيف. ووالله رأيت بعين أم رأسى جمعا من النساء الفقـــراء الذى بجانب الدرب الذى بحارة الجودرية، وحطوه فى جورة الفـــرن، ثـــم صاروا يتقاتلون عليه، وهم يأكلون فيه والدم والصـــديد وتـــراب الجـــورة. وافتقرت الأغنياء، وتهتكت الأحرار، وهجـــت النـــاس جوعـــاً. بحيـــث أن الأزقة، والحارات والأسواق، امتلأت بالأموات، وهلك أهل القـــرى، حتـــى كان المسافر يمر بالقرية فلم يجد بها إلا القليل من أهلها، ويجد بعض الدور مفتحة، ولم يكن فيها أحد وصارت الفقراء يخطفون الخبز مـــن الأســـواق، والعجين وهو رايح الفرن. وكل من أراد أن يخبز الخبـــز، واحـــد يشـــيله، واثنان يحرسان ويقولان أوعا العوام، والخبازين الـــذين يبيعـــون الخبـــز. اصطنعوا لهم قفاص. مثل قفاص الفراخ، فإذا اشترى إنسان خبـــزاً. يـــأتى الرجل إلى الخباز ليأخذ منه. يقول له بكم تأخذ. فيقـــول : بالشـــئ الفلانـــى فيأخذ منه الدراهم ويفتح القفص ويعطيه ويكون العوام حاضـــر. فيخطـــف

الخبز بالفوطة ويطير. فما أحد يقدر يدركه، لشدة جريه. وإذا سرح الخبـاز يكن معه رجلان : واحد أمامه. والثانى خلفه بالعصـا. ثـم أن الخطـافين صاروا يجتمعون ثلاثا أو أربعا، ويأتى واحد فى حذو الخباز، والآخر مـن خلفه، فالذى من خلف الخباز يدفعه، يكون الذى فى حـذوه منحنـى قـدام الخباز، فيتستر الخباز، يقع، يقوم الثالث بخطف القفص. ويفر هارباً فلم أحد يدركه، والرابع يحوش الناس عنه. ثم إنهم يأكلوه، وكل رغيفـين بنصـف فضة، وكل رغيف وزنه ثلاثة أواق من دقيق الفول، ودقيق الشعير"(٣٤).

- عندما قدم إسماعيل باشا (١١٠٧هـ- ١٦٩٥)، قامت الرعية فى وجهـه وعيطوا، وغوشوا، لما هم فيه من الغـلاء، والكـرب الشـديد، وكثـرت الشحاتين، التى امتلأت مصر منهم، لأن جميع الأرض لم تكن رويت جـاء فقراؤها إلى مصر، فأمر بجمعهم وتوزيعهم على الأمراء والأعيـان، كـل إنسان على قدر حاله وقدرته، وأخذ لنفسه جانباً ولأعيان دولته جانباً، وعين لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام صباحاً ومساءاً إلى أن انقضـى الغـلاء، وأعقب ذلك وباء عظيم(٣٥).

- فى ولاية محمد باشا رامى (١١١٦- ١١١٨هـ/١٧٠٤-١٧٠٧م)، توقف النيل من الزيادة، وهرعت الناس لطلب الدعاء، وأمـر الـوزير العلمـاء، وأولاد المكاتب، وجميع أهل القاهرة، أن يطلعوا للاستسقاء، ورغم أنه قـد أوفى فى توت، سرعان ما هبط، وحصل الغلاء الشديد، وكثرت الشـحاتين فى الأسواق والأزقة. (٣٦)

- ذكر يوسف الملوانى صاحب "تحفة الأحباب بمن ملك مصر مـن الملـوك والنواب". أنه فى آواخر عهد عابدى باشا (١١٢٦-١١٢٩هـ/ ١٧١٤-١٧١٧م) حدثت أزمة بسبب الحنطة، وامتنع الخبازون من بيع الخبز بمصر نحو ثلاثة أيام، وانكب الناس على شراء القمح بسـاحل بـولاق، وحصـل للفقرا تعب شديد وصار أولاد المكاتب يدعون على قايم مقام ومـن يحكـر الطعام.

- فى عهد ولاية محمد باشـا النشـنجى (١١٣٣-١١٣٨/١٧٢١-١٧٢٦م)، توقف البحر، فهاجت البلد، وغلت الحنطة، وجميع الحبوب "قامت الرعيـة، طلعت إلى الديوان، وشكت حالها إلى الـوزير، فسـعر القمـح بسـبعين، والشعير بخمسة وثلاثين، ونزل آغا مستحفظان نادى فى بـولاق، ثـم أن

الرعية نهبت جميع الرقع التى فى البلد، فامتنع الجالب، وصار القمح لا يوجد. وباتت الناس تلك الليلة بالجوع، وكانت سنة ضيقة (١١٣٤-١٧٢٢م) الحال، وتعبت فيها الفقراء"[٣٧]، وفى عام ١١٣٧هـ -١٧٢٢م، قامت الرعية وقفلت حوانيتها، ونهبت أسواق القاهرة، وهجمت الجامع الأزهر على العلماء وهم فى الدروس ووقع الضرب فى الجامع من الرعية، ونزلوا إلى الرميلة وإلى بيت جركس، وقصدوا القرافة بعد أن أن خرج عليهم العسكر، وباتوا طول الليل يدعون الله بالعفو، ويدعوا على جركس وطائفته، وطلع الناس على المنارات والدعاء على جركس، وكان دعائهم فوق المنارات : "يامن له المراد، فى كل ما أراد، بجاه المصطفى الحبيب، تعفو عن البلاد"[٣٨].

- وفى ولاية محمد باشا النشنجى الثانية (١١٣٨-١١٤١هـ/ ١٧٢٦-١٧٢٨م)، طلعت الرعية إلى الديوان فى ٧ أبريل ١٧٢٧ وشكوا من ظلم الأغا سليمان أبو دفيه، وما قد رتبهم عليهم من الحوادث والظلم، وجعل على كل طاحون ريالاً فى كل جمعة، فعزله الوزير وولى محله عثمان أيواظ بيك[٣٩].

- عندما قدم محمد باشا السلحدار (١١٤٤هـ - ١٧٣١م)، قامت الرعية فى وجهه، وشكوا له المعاملة، وغلو الأسعار، وعندما فزع عليهم الوالى ضربه الرعية بالطوب، فجاءت ضربة فى فخذ الباشا، بل عندما أتى عثمان باشا، بعد ذلك (١١٤٦هـ-١٧٣٣م) قامت الرعية فى وجهه وذكروا له الغلاء وفساد المعاملة، وعندما لم يلتفت إليهم رجموه[٤٠].

- فى ولاية باكير باشا (١١٤٧هـ - ١٧٣٥م)، صرخت العامة فى وجهه من جهة فساد المعاملة، وغلو الأسعار، إلا أنه لم يلتفت لذلك، وفى عهده ازداد الطاعون الذى فتك بالناس فتكاً ذريعاً وسماه العوام "طاعون كو" أو "الفصل العائق يأخذ على الرائق"[٤١].

- فى عام (١١٩٧هـ - ١٧٨٣م) قصر مد النيل، وشرقت الأراضى القبلية والبحرية وعزت الغلال بسبب ذلك "وشطح سعر القمح إلى عشرة ريالات الأردب، واشتد جوع الفقراء، وفى العام التالى (١١٩٨هـ -١٧٨٤) "جلت الفلاحون من بلادهم من الشراقى والظلم، وانتشروا فى المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور

البطيخ وغيره، فلا يجد الزبال شيئاً يكنسه، واشتد بهم الحال، حتـى أكلـوا الميتات من الخيل والحمير والجمال، فإذا خرج حمار ميت تزاحموا عليـه وقطعوه وأخذوه ومنهم من يأكله نياً من شدة الجوع، ومـات الكثيـر مـن الفقراء بالجوع، هذا والغلاء مستمر، والأسعار فى الشـدة وعـز الـدرهم والدينار من أيدى الناسن وقل التعامل إلا فيما يؤكل، وصار سـمر النـاس وحديثهم فى المجالس ذكر المآكل والقمح والسمن ونحو ذلك لاغير"[٤٢].

- فى غرة رمضان ١١٩٩هـ (٨ يوليه ١٧٨٥م)، ثارت فقراء المجـاورين والقاطنين بالأزهر، وقفلوا أبواب الجامع، ومنعوا منه الصلوات، وكان ذلك يوم الجمعة، فلم يصل فيه ذلك اليوم، وكذلك أغلقوا مدرسـة محمـد بيـك المجاورة له، ومسجد المشهد الحسـينى، وخـرج العميـان والمجـاورون يرمحون بالأسواق ويخطفون ما يجدونه من الخبز وغيره، وتبعهم فى ذلـك الجعيدية وأراذل السرقة، وسبب ذلك قطع رواتبهم وأخبازهم المعتادة. [٤٣]

- يتحدث الجبرتى، عن هبوط النيل ونقصانه "فضـجت النـاس وتشـحطت الغلال، وزاد سعرها، وانكبوا على الشراء، ولاحت لوائح الغلاء"[٤٤]، وذلك فى ذى الحجة ١٢٠٥هـ - أغسـطس ١٧٩١م، وفـى الخـامس محـرم ١٢٠٦هـ - ٤ سبتمبر ١٧٩١، وقف جريان الخلـيج والتـرع وشـرقت الأراضى، فلم يرو منها إلا القليل جداً، فارتفعـت الغـلال مـن السـواحل والرقع وضجت الناس، وايقنوا بالقحط وأيسوا من رحمة الله، وغلا سـعر الغلة من ريالين إلى ستة، وضجت الفقراء وعيطوا على الحكـام، فصـار الأغا يركب إلى الرقع والسواحل، ويضرب المتسببين فى الغلة ويسـمرهم فى آذانهم"[٤٥] وعندما يتحدث عن بداية سـنة (١٢٠٧هـــ - ١٧٩٢) [٤٦] يذكر "والأمر فى شدة من الغلاء، وتتابع المظالم، وخراب الـبلاد وشـتات أهلها، وانتشارهم بالمدينة حتى ملئوا الأسـواق والأزقـة رجـالاً ونسـاء وأطفالاً، يبكون ويصيحون ليلاً ونهاراً من الجوع، ويموت من الناس فـى كل يوم جملة كثيرة من الجوع".

(٣)

هذه الفقرة الأخيرة التى ذكرها الجبرتى، البكاء والصياح ليلاً ونهاراً مـن الجوع، والموت من الناس فى كل يوم جملة كثيرة من الجوع، تجعلنا نؤكد مـن خلال هذه المعطيات التاريخية، على أهمية ما يمكن أن نطلق عليـه "ثـقـافة

الجوع"، حيث تصبح للضرورة أحكام تبيح المحظورات، حين يقـدم المتضـطر على المستحيل بسبب جوعه على اتيان ما لا يجيزه الدين من أجل الحفظ علـى البقاء، فى وقت لا يحس فيه الشبعان بما يقاسيه الجائع، والإبداع الفكرى لأهـل مصر أفرز لنا عدة أمثال دالة على ذلك :

- "اللى قبل مننا قال : الزعلان ما يشبهشى الفرحان، والجعان مـا يشبعشـى الشبعان، والمكسى ما يشبهشى العريان".[٤٧]
- الشبعان يفت للجيعان فت بطى.[٤٨]

ولعل دارس التاريخ الاجتماعى المصرى الحديث، يجد فيما جمعه أحمد تيمـور باشا من "أمثال عامية" ما يستكمل به ملامح صورة ثـقـافة الجوع [٤٩]:

- الجعان يحلم بسوق العيش.
- حلم الجعان عيش.
- قالوا للجعان الواحد فى واحد بكام قال برغيف.
- الجعان يمدغ الزلط.
- الجوع كافر.
- على شان بطنه حلقوا دقنه.
- قالوا ياللى أبوك مات من الجوع، قال هو شاف شئ ولا كلشى!.
- كل لقمة فى بطن جايع أخير من بناية جامع.
- ما التقاش العيش ينتشه جاب له عبد يلطشه.
- ما لقوش عيش ينتشوه جابوا عبد يلطشوه.

وكما ربط عوام أهل مصر بين العطش والسقاء "باتت عطشانة وزوجهـا سقا"، فقد ربطوا كذلك بين الجوع والخبز "باتت جيعانـه وزوجهـا خبـاز"[٥٠]، وحثوا على مواساة الأحباب ولو بالشئ القليل "رغيف برغيف ولا يبات صاحبك جيعان"[٥١].

خبز الجياع هو الضرورى، أو كما قيل "أن حضر العـيش يبقـى المـش شبرقه" أو فى معنى آخر : "أن صح العيش يبقى الباقى بشرقة"[٥٢]، أو كما قيـل كذلك :

وفى نفس المعنى : "القنبر قال للقيقى : ما أحلا التين على الريق، قال له: تأدب يا قنبر ما بعد العيش مخبر"(٥٣) هو من الأشياء المقدسة، وتجاوز الحد فى استخدامه يعنى الكفران بالنعمة لدى أهل مصر "إذا اتبطر الخياط يشترى بـدال العيش رمان"(٥٤).

"رغيف الخبز" أو "لقمة العيش"، بمعنى أصـح، كمـا فـى بيـان لهجـة المصريين الخاصة، والتى على حد قول "أوليا شلبى"(٥٥)، لا تستخدم فـى ديـار أخرى، ولكنها تستخدم بين أهل مصر، يؤكد علـى ذلـك ماجـاء فـى "دفـع الأصر"(٥٦) للمغربى، أو فى "القول المقتضب"(٥٧) للبكرى، هذا الخبز، والذى هو "قوام الأبدان"(٥٨)، كما جاء فى تذكرة داود الانطاكى، يقترن بـالوجود والحيـاة، الأمر الذى دعا أهل مصر أن يطلقوا عليه "العيش" أى ما يعاش به، يرتبط بكرم الضيافة، فيقولون فلان "عياش" إذا كان مضيافاً، له أكثر من دلالة عند الصوفية إذ فيه "سر المهيمن واللطيف" وهو عند بعضهم يسمى "جابراً، أو "أبو جـابر" ، "جابر بن حبة"(٥٩)، يرتبط بالنعمة "ومن اعتقادات العامة أنهم لا يكبون الرغيـف على وجهه، ويزعمون أن من فعل ذلك استهزأ بالنعمة" ومن آدابهم أكل الرغيف من طرفه، ولا يأكلونه من وسطه. "ويقولون : من فعل ذلك دل علـى بطـره، ويرددون فى ذلك حديثاً: كل قصّ واشرب مصّ"(٦٠). يرتبط عندهم بعدة مفـاهيم ودلالات، فهو الرزق "أكل عيش"، ربطوا بينه وبين الأقدام فى العمل والسـعى وراء الرزق بقولهم "أكل العيش نصيب"(٦١) وربطوا بينه وبين نفى الكسل "أكـل العيش يحب الخفية"(٦٢)، وحتى الآن أصبح من أدبيات التعبير لديهم قولهم "قطع العيش" ومن أمثالهم "ابن الحرام ما خلاش لابن الحلال عيشه"، "ابن الحرام مـا خلاش لابن الحلال لقمة"(٦٣) وضربوا فى الحث على مجازاة الأجر بالعمل "اللى يأكل لقمة يعمل بها" وفى الجهد فى سبيل القوت "اللى ياكل لقمة يلطم لطمه"(٦٤). ولمن يتعب وينال أجراً قليلاً "أجير لقمة"(٦٥) وفى مكافأة الشئ بأضـعافه "إشـهد لى بلقمة (بكحكة) أشهد لك برغيف"(٦٦). وإذا وصفوا الإنسان بأنه خائب لا يفلح فى عمل ما قالوا عنه "مايسواش لقمة"(٦٧)، وإذا راجع خجولاً لم ينجح فى مهمته "رجع قفاه يقمر عيش"(٦٨)، ويؤكد أحمد أمين فى قاموسه "كان العـوام يسـمون الواحد من الموظفين (ابن عيشه) (٦٩) اى أنه خاضع للوظيفة التى عليهـا قـوام معاشه.

ربط أهل مصر بين القناعة والرضا والكفاف والاستحواذ على الضرورى

وبين الخبز، كان الجبرتى يستشهد دائماً بأبيات من الشعر، تتضمن إحدى الخصال للفوز بالدنيا والآخرة وتعبر عن القناعة، فعلى لسان الشيخ حسن البدرى الحجازى (٧٠):

وسبعة أن حصلت للفتى	يفوز بالدنيا وبالآخرة
صلاح أولاد وزوج كذا	نفس لمولاها غدت شاكرة
كفاف عيش ثم قنع به	والعلم أيضاً عمل صاهره

وعلى لسان الشيخ محمد بن سالم الحفناوى(٧١) :

خبز وماء وظل	هو النعيم الأجل
جحدت نعمة ربى	إن قلت أنى مقل

كذلك كان ابن عروس يردد من ضمن مقاطعه الشهيرة(٧٢) :

كسره من الزاد تكفيك	وتبقى نفسك عفيفة
والعمر بكره يطويك	وتنام فى جنب الخليفة

وفى زجر من يتعدى طوره والدعاء بالرحمة بمن يطلب الكفاف، ردد عوام اهل مصر "اللى طلب لحم أحرقوه واللى طلب عيش أرحموه"(٧٣) ، وفى شأن من يعذر من المديونين ومن لا يعذر منهم "من أداين العيش اعذروه، ومن أداين اللحم ألطشوه"(٧٤) كذلك رددوا "طرى ناشف هات"(٧٥) ، لذلك الرجل الذى لا يميز الأشياء فهو لا يتعفف عن أخذها فى أى حالاتها، أما القانع الزاهد فى الدنيا فهو القائل "آهى لقمة وآخرتها الموت"(٧٦).

وجد كاتب هذه السطور، فى الأدبيات التاريخية المملوكية - العثمانية، القسم بالخبز، و"العيش والملح" تتردد على الأفواه دائماً، ففى أحداث عام ٨٥٤هـ، يذكر ابن إياس فى "بدائع الزهور" أنه عندما عز الخبز وتشحط، رثاه بعض الشعراء بقوله(٧٧) :

قسماً بلوح الخبز عند خروجه	من فرنه وله الغداة فوار
ورغائف منه تروقك وهى فى	سحب الثقال كأنها أقمار

من كل مصقول السوالف أحمر الـــ	خــــدين للشـــبونير فيـــه عـــذار
كالفضة البيضـــاء، لكـــن تغتـــدى	ذهبــــاً إذا قويـــت عليـــه النـــار

وعلى لسان أحد المماليك فى مصر العثمانية : "العيش والملح لــه حــق، والرفق غالى"[٧٨] ، كذلك وبخ أحدهم آخر بقوله : "يا خـائن العـيش والعهـود ومخالف الشرع والسنة، عاصى السلطنة"[٧٩]

يقول أهل مصر لمن صنعت معه إحساناً وخانك فيما بعد "يخونك العـيش والملح"[٨٠] ، ومن أجمل ما يرددونه:

" يا خاين العيش لأبيعك بطاجن مش

وأوديك لدلال عمره ما غسل له وش"[٨١]

هكذا يقال لجاحد النعمة، من يخون المحسن إليه، "أكــل عيشــك، ونتــف ريشك"[٨٢]، أما لمن يوثق المودة والنصيحة وربط الروابط، واسـتدامة المـودة، فيقال عنه "أكلت معاه عيش وملح"[٨٣] والملح هو الحرمه "بين فلان وفلان ملح" وعن استمرارية العلاقة النافعة "كشكار دايم ولا علامة مقطوعة"[٨٤].

ويرى تيمور فى عبارة "بيننا عيش وملــح" أن الملــح بمعنــى "اللــبن"، ويريدون الرضاع ويقسمون به، ويقولون بين الرجلين ممالحة، أى عهد، والعهد "الملح"[٨٥].

والبر والإحسان، أو بمعنى أدق الصدقة كانت على أشكال وألــوان، مــن ضمنها التصدق بأرغفة الخبز وذلك "لتدارك الهموم والغموم ودفع الضــر"[٨٦] ، ومما قاله عوام أهل مصر فى الحث على فعل الصدقة "اللقم تمنع النقم"[٨٧].

كان هم علماء طلاب الأزهر والمكاتب، الحصول على الجرايات، وكــان رغيف العيش هو مطلب الشحات ولو طلبه بوقاحــة "ادينــى رغيــف ويكــون نضيف"[٨٨] أو حتى بتأدب وتظرف مثلما ردد بعض الأدباتية على السامعين[٨٩]:

أنــــا الأديـــــب الأدبـــــاتى	ألـــم العـــيش تحـــت بطـــاطى

هذا زمان التأدب بقيم وتقاليد، احترام وتقدير وتقديس لقمة العيش، التزاماً بمقولة الرسول صلى الله عليه وسلم "اكرموا الخبز" ومن هنا كان أهل مصــر لا

يجيزون بتاتاً التبذير فى أصغر قطعة من الخبز، كلما استطاعوا تجنب ذلك، يتحدث على مبارك في إحدى أجزاء خططه عن (جهينة القبلية) وعوائد أهلها فى الأكل مع الضيوف أو غيرهم "أن لا يتركوا رغيفاً مكسوراً، ويعدون ذلك عيباً فمن كسر رغيفاً، فلابد أن يأكله، أو يعطيه لمن يأكله بحيث لا ترجع السفرة برغيف مكسور حتى فى وليمة العرس على كثرة الآكلين"(٩٠)؛ ومن الأمثال التى كان يرددها أهل مصر "كمل لقمتك داهية تخفى خصلتك"(٩١)، والتى كانت تقال مزاحاً لمن يأكل ويترك لقمة. هذا الاحترام العظيم للخبز، أكدت عيون الأجانب الذين زاروا مصر أو عملوا بها، عليه، يذكر ادوارد وليم لين "وكثيراً ، ما لاحظت بعضهم يرفع قطعة الخبز إذا سقطت عرضاً فى الطريق إلى فمه وجبهته ثلاث مرات، ويفضلون وضعها على جنب لكى يأكلها كلب على أن يدوسها المارة"(٩٢).

يؤكد على هذه الرؤية كلوت بك بقوله (٩٣): "من الخصال المحمودة التى درجوا عليها، احترامهم الخبز، وصونهم إياه من الدنس لاعتقادهم وثوق الرابطة بينه والحياة".

هذه القطعة من الخبز، ترتبط بالسعادة والفرح والهناء "اللى عنده عيش وبلة عنده الفرح كله"(٩٤)، وعند الأحباب حتى ولو كان المأكول قليلاً "لقمة هنية تكفى ميه"(٩٥)، وكان يكفيهم "لقمة تحت حيطة ولا خروف بعيطه"(٩٦) بمعنى تفضيل القليل مع راحة البال على الكثير المحاط بما يزعج، وواجهوا المتجهم الدائم العبوسة بقولهم " ما يضحكش ولا للرغيف السخن"(٩٧).

ويدخل رغيف الخبز أو بمعنى آخر لقمة العيش فى نسيج بعض المعتقدات والمعارف الشعبية المصرية، منها على سبيل المثال لا الحصر "أن القرد كان أصله طفلاً جلس جنب أمه، وهى تخبز أمام الفرن، فتغوط، وأرادت مسح دبره، فلم تجد شيئاً فمسحته برغيف، فعاتبها الله فيه بأن مسخه قرداً، وجعل مؤخره أحمر لا شعر عليه من أثر مسح الرغيف حتى يرتدع الناس من إهانة نعم الله عليهم"(٩٨)؛ وفى طقوس الولادة والوفاة – خاصة فى صعيد مصر(٩٩) – إذا كانت المرأة قد فقدت عدة أطفال بصورة متتالية عند ولادتهم فإنها تعتقد أنها غضب "أختها" أو "قرينتها" أو كلتاهما، وأنهما تأخذان الأطفال منها، فعليها فى كل مرة ولادة تالية أن يدفن مع المشيمة رغيف خبز ورطل ملح، فى سلطانية تغطيها بسلطانية لها نفس الشكل تحت أرضية بيتها، وبهذه الوسيلة ترضى الأخت والقرينة ولا تأخذان الأطفال منها.

فى التعابير والكنايات والمأثورات القولية لعوام أهل مصر، فى لغة حياتهم اليومية، يحتفون بلقمة العيش، فمن يعرف الآخر بدقة "هو خبزه وعجنه"(١٠٠)، وعن الشئ العظيم يحوزه غير مقتدر عليه فيسبب له الارتباك "اللقمة الكبيرة تقف فى الزور"(١٠١)، أو حتى "كلامه زى اللقمة اللى تقف فى الزور"(١٠٢)، ويقال لمن زاد فرحة أو شيطنته زيادة على العادة "وأكل لقمة زايدة"(١٠٣)، ولمن استولى على شئ بغير جهد أو عناء "أكلها لقمة باردة"(١٠٤)، ومن ناله شئ من الناس بسهولة عليه أن يرده لهم فى الحال بتعب ومشقة "اللى يأكل عيش الناس بارد يقمره لهم"(١٠٥)، وترك الأمور لأصحاب الاختصاص "إدى العيش لخبازينه ولو يأكلوا نصفه"(١٠٦)، ومن أقوالهم المأثورة كذلك : "لقمة الفرح ما تشبع، لقمة جارى ما تشبعنى وعارها متبعنى"(١٠٧)، وقد ساد لدى بعضهم أن الكسل أحلى من العسل، أو بمعنى آخر "الأكل بالدقة، والنوم فى الأزقة، ولا فرخة محمرة يعقبها مشقة"(١٠٨)، وأن أكل العيش بدقة يظهر القناعة، فرددوا "ما أنتشى على البال طمن خاطرك وارتاح وكل رغيفك بدقة وأترك التفاح"(١٠٩)، غير أن الأقدام على العمل هو أسمى من الكسل لديهم "لقمة الراجل مقمرة ما تأكلها إلا المشمرة"(١١٠) وأن نوال الأجر يكون بحسن العمل، خاصة إذا كان "رغيف من تفالى يعدل حالى"(١١١)، فإذا تعدلت الأحوال "إن طاب لك عيشك كله كله"(١١٢) ولمن أظهر غناه، وهو فقير معدم "ماالقوش عيش يتعشوا، جابوا فجل يدشوا"(١١٣)، ولمن يتظاهر بالعظمة الكاذبة رغم أن أمه تبيع الخبز لفقرهم "أمه عياشة وعامل باشا"(١١٤).

هذه الأسطر السابقة ترينا إلى أى مدى تكمن أهمية لقمة العيش فى تصور عوام أهل مصر، فى حياتهم اليومية، وفى نسيج عقلهم الجمعى، فيما عبرت عنه، بعض ولا أقول كل هذه الدلالات اللفظية لمأثوراتهم القولية ومعتقداتهم ومعارفهم الشعبية.

(٤)

بمثل هذه التصورات، حول قيمة "رغيف الخبز" أو "لقمة العيش"، يصبح الخبز دائماً وأبداً هو البوصلة أو المؤشر الفعلى لمدى استقرار الأوضاع الاقتصادية – الاجتماعية لحياة العوام، بل والخواص كذلك، وكما قلت، فإن أزماته تؤثر على طبيعة الأوضاع السائدة، وعلى تطور المجتمع السياسى، خاصة وأن اختفاء الخبز أو تغيير شكله، لونه، وزنه، مادته، كان يؤدى إلى تفاقم واختلال التوازن المجتمعى، كانت لقمة العيش تملك القدرة على تعبئة

وتجميع أكثر الشرائح والفئات الاجتماعية المتضررة من عدم وجـوده مـثلاً أو نقصه أو ما طرأ عليه من الغلاء، وفى لحظات تاريخية محددة كان "الاجتماعى" يرتبط بـ "السياسى" ويواكبه دائماً، كان الخبـز يظهـر لنـا مـدى التفـاوت الاجتماعى فى ظل تمايز أنواعه وأشكاله والتقاليد المرتبطة بخبزه، بل وكـذلك بنمط استهلاكه، هناك من خبز القمح أو الحنطة : السميد، الخاص، الحـوارى، الصامولى، الطباقى، العلامة، يتناوله الأغنياء مع "عـيش الغـراب" و"أقـراص الملوك"، وهناك خبز الذرة "الكشكار" للفقراء، الـذين رددوا "كشـكار دائـم ولا علامة مقطوعة"[١١٥]. وكان حلم الفلاح المصرى، المنتج للغلال، أن يأتى إلـى المدينة لكى يشترى ويأكل خبز القمح، هكذا عبر الشيخ يوسف الشربينى فى "هز القحوف" عن هذه الأمنية.

وفى المدينة عندما كان يطرأ أى تغيير على وزن أو حتى شـكل الخبـز، سرعان ما كانت تتأزم الأمور، شهدت مصر منذ أزمنة بعيـدة أسـوداد لـون الخبز، حتى صار فى لون الكسب وخلط بالطفـل المسـحوق، هكـذا تحـدث المسبحى في "أخبار مصر" وتحدث المقريزى فى "إغاثة الأمة" وتحدث ابن إياس فى "بدائع الزهور" والجبرتى فى "عجائب الآثار". وتحدث عزيز مصـر محمـد على باشا فى أوامره من "الخبز الأسود غير الناضج"، وكما يؤكد أحمد الحتة فى كتابه عن "تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر" أنه حتى مطلع القرن العشرين كان يرد القمح إلى المطاحن مخلوطاً بالأوساخ والأتربة. ويتذكر كاتب هذه السطور قبل انتفاضة ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧ كتب مصطفى أمين فى الأخبار (١٤ يناير ١٩٧٧) : "نحن الشعب الوحيد الذى يأكل الخبز الأسود"، وبعد ذلـك بقليل انفجرت الانتفاضة التى تضمنت هتافاتها ما مس رغيف العيش[١١٦].

كان تغيير لون العيش أو نقص وزنه أو زيادة سعره، يؤدى إلى حـدوث اضطرابات وفى بعض الأحيان كانت تتخذ إجراءات عنيفـة كـان يقـوم بهـا المحتسب فى الأساس والذى لجأ إلى عقوبات كثيرة فرضت على المخالفين، من مصادرة الخبز وتوزيعه على الفقراء، وتسمير وجلد بعضهم، ووصل الأمر فـى أزمة (١٢١٦هـ - ١٨٠١م) فى عهد محمد باشا خسرو بسبب ازمة الخبـز أن نصبت مشانق عند أبواب المدينة برسم الباعة والمتسببين والخبـازين وغيـرهم وعلقوا عدة أناس من الباعة على حوانيتهم وخزموهم من آنافهم فرخص السـعر و"كبر العيش وكثر وجوده"[١١٧]. وفى عصر محمد على، شهدت البلاد موجـات من أزمة الخبز وارتفاع أسعاره وقلة وجوده ونقصان وزنه وحصول المضـايقة

للأهالى ووفاة آلاف بسبب الجوع، غير أن حزمة الإجـراءات المتعـددة التـى اتخذها، قد مكنته من توفير الحد الأدنى لتهدئة صراخ الجيـاع، وتكشـف لنـا أوامره ومكاتباته مدى حرصه على وضع الحل العاجل للخروج بالأزمة إلى بر الأمان، ففى تاريخ ١٢ محرم ١٢٠٣هـ إلى حبيب أفندى "يا حبيـب لا تـزى جواز تأخير ذلك دقيقة واحدة"(١١٨)، وبتاريخ ٢٦ شعبان ١٢٥٦هـ أمر منه إلى عموم المديرين "وأن حصل فى بيع الغلال تأخير باحتجاجات غير مقبولة فـأعلم يقيناً مجازاتك بالصلب في محلك"(١١٩)، وبتاريخ ٢٥ رجـب سـنة ١٢٤٥هـ (١٨٢٩) أمراً منه إلى كتخدا بك بمصر والذى كان يخفى غـلال الـذرة علـى الأهالي وإذا زاد النيل ادعى الغرق وإذا نقص أدعى الشرق وتسبب فـى مـوت الأهالي بعلة الجوع، جاء فيه (١٢٠):

"فما أنت إلا وحشا أو غولاً فاختر لنفسك أيهما لأننا لم نجد أسماً ينطبـق على أفعالك، فيلزم إعطاء الغذاء للأهالى وتخليصهم من اضطراب الجوع حيث أنك السبب والا يفعل بك مثلهم، ويجرى تعيينك بمصالح أخرى لتكسـب اسـماً آخر وقد علمت مما ورد امين حسين أغا باشجاويش عساكر الاندرون وفاة الفين ثلاثة من الاهالى بسبب الجوع الذي استولى عليهم حتى وأن المتواتر بين العامة أنه وباء".

ولعل ضراوة أزمة الخبز في مصر هى التى جعلت الاقتصادى البريطانى ناسو وليام سنيور Senior، الذى زار مصر بعد منتصف القرن التاسـع عشـر (نشرت له محادثات وسجلات للأحداث اليومية فى مصر ومالطه عـام ١٨٨٢ بعد وفاته) يصورها فى حواره مع حكيكيان(١٢١):

سنيور : ولكن الثورة الشعبية تتطلب ضرورة وجود صرخة شعبية.

حكيكيان : أن الصرخة الشعبية تتمثل فى المطالبة بتوفير الخبز بأسـعار منخفضة".

وهذه الصرخة هى التى جعلت فكرى أباظة ينقل على لسان وحـش مـن الوحوش إبان ثورة ١٩١٩، وهو يشعل مع غيره النار فى عمارة "محمود باشـا سليمان" يصرخ : "اسكت، وهل وزع محمود باشا سليمان أرغفة العـيش علـى الجائعين؟ نحن طلاب قوت !!!.." (١٢٢)، بل فى أثناء هذه الثورة، وفـى زفتـى أصدر يوسف الجندى بياناً أكد فيه "أننـا نثـور مـن أجـل الخبـز والحريـة والاستقلال".(١٢٣)

في منتصف القرن العشرين، وعندما اوشكت حكومة الوفد (١٩٥٠-١٩٥٢) أن تزيد سعر الرغيف مليماً واحداً، كتب خالد محمد خالد محذراً : "وراء كل ثورة رغيف"(١٢٤).

الهوامش

(١) على سبيل المثال لا الحصر، وفى أحداث سنة (١١٠٧هـ - ١٦٩٥م)، ذكر الأمير أحمد كتخدا عزبان عبارة "كانت سنة، الله لا يعودها على أمة محمد" وذلك فى كتابه : الدرة المصانة في أخبار الكنانة، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٩، ص٣٠، وأنظر كذلك:
فايقة حسين راغب: حدائق الأمثال العامية، السفر الثاني، الطبعة الأولى، مطبعة أمين عبد الرحمن، القاهرة ١٩٤٣، ص ٧٢-٧٣ ويذكر تيمور فى كتابه، أن الدعوات كانت تتكاثر والتي أصبحت مضربا للأمثال : "الله لا يرجع الغلا ولا كياله" و"سنة الغلا نسينا الخميرة" أى أنهم أبطلوا العجين للغلاء، "غلا وسو كيل" راجع : أحمد تيمور باشا : الأمثال العامية، الطبعة الرابعة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ١٩٨٦، ص ٤١، ص ٢٧٤، ص٣٤٨.

(٢) أحمد شلبى بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، مطبعة الجبلاوى ، القاهرة ١٩٧٨، ص١٤٢.

(٣) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، الجزء الثالث، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ١٩٩٨، ص ٥٠٦ [أحداث سنة ١٢١٩هـ - ١٨٠٤ - ١٨٠٥م].

(٤) أحمد كتخدا عزبان : كتاب الدرة المصانة، ص ٥٠، ص ٨٢.

(٥) أنظر : يوسف الشربينى : هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف، الطبعة الثانية، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية، ١٣٠٨هـ، ص١٢٠.

(٦) محمود عمر الباجورى : كتاب أمثال المتكلمين من عوام المصريين، المطبعة الشرقية، مصر خان أبى طاقية، ١٣١١هـ - ١٨٩٤م؛ ص ٥١.

(٧) فايقة حسين راغب : حدائق الأمثال العامية، السفر الأول، الطبعة الاولى، مطبعة أمين عبد الرحمن، القاهرة ١٩٣٩، ص ٦١.

(٨) عبد الرحمن الجبرتى : المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥٧-٥٨.

(٩) ناصر ابراهيم : المجاعات والأوبئة فى مصر فى القرن السابع عشر، رسالة ماجستير فى التاريخ الحديث. كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٩٧، ص ٨٦-٨٧.

(١٠) أمين سامى باشا : تقويم النيل، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٨، ص٦٣.

(١١) أحمد شلبى بن عبد الغنى: المرجع السابق، ص ٣٨٩.

(١٢) المرجع نفسه ، ص ١٢٨-١٤٩.

(١٣) ميخائيل شاروبيم بك : الكافى في تاريخ مصر القديم والحديث، الجزء الثالث، الطبعة

الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٨٩٨، ص ٩٠-٩١.
(١٤) فايقة حسين راغب : المرجع السابق، السفر الأول، ص ١٦٦.
(١٥) ظاهرة صعود العوام وبعض المشايخ إلى أعلى المنارات، والدعاء على الأمراء والعياط على الحكام، ظاهرة تستحق الانتباه فى مصر العثمانية. نتذكر على الفور ما كتبه صاحب "أوضح الإشارات" من الدعاء على جركس من فوق المنارات، وما ذكره صاحب "عجائب الآثار" فى أكثر من موضع، من ضجيج مجاورو الأزهر بسبب أحبارهم وصعودهم على المنارات يصيحون على نحو ما حدث في ديسمبر ١٧٨٥، وما حدث بعد ذلك في مايو ١٨٠٤ من اجتماع الكثير من غوغاء العامة وأطفال الجامع الأزهر ومعهم طبول وصعودهم إلى المنارات يصرخون ويطبلون راجع : عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار، الجزء الثاني، ص ١٤٨، والجزء الثالث ص ٤٦٦-٤٦٧.
(١٦) أحمد شلبى بن عبد الغنى : المرجع السابق، ص ١٩٣.
(١٧) مجهول : زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة، نسخة مصورة، مكتبة المتحف البريطانى رقم Add 9972، ص ٣٠.
(١٨) أحمد كتخدا عزبان، المرجع السابق، ص٢٩.
(١٩) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار، الجزء الثاني، ص ١١٠-١١١، ص ١٢٠.
(٢٠) محمد بن عبيدالله المسبحى : أخبار مصر فى سنتين (٤١٤-٤١٥هـ)، تحقيق وليم ج ميلورد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٩٣-١٩٤، ص ٢٠٨.
(٢١) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة، أو تاريخ المجاعات فى مصر، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ١٩٨٠، ص ٥٩-٦٢، وكذلك ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الأول، القسم الأول، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص ٢١٧.
(٢٢) الإدفوى، جعفر بن ثعلب : الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، المطبعة الجمالية بمصر سنة ١٩١٤، ص ٢٦٣.
في هذه المجاعة كان الفقير يقول لبابة الله، لبابة الله ويموت مكانه، وخرج الناس إلى الكيمان يلتقطون ما يكون مدفوناً بها من حبة قمح أو شعير أو فول أو ما أشبه ذلك" راجع قاسم عبده قاسم (د) : النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٧٨، ص ٥٥.
(٢٣) ابن إياس : المرجع السابق، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٣٧-٢٣٨.
(٢٤) نفس المرجع، الجزء الرابع (القاهرة ١٩٨٤)، ص ٣٠٢-٣٠٣، والجزء الخامس (القاهرة ١٩٨٤) ص ٢٨، ص ٦٢.
(٢٥) أنظر بالتفصيل المرجع السابق، الجزء الخامس، ص ٢٧٥، ص ٣١٣، ٣٤٤، ص ٣٤٨-٣٤٩.
(٢٦) أحمد شلبى بن عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ١١٢.
(٢٧) الاسحاقى المنوفى : لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول،

الطبعة الأولى، المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة ١٣١١، ص ١٥٨.
(٢٨) جرجى زيدان : كتاب تاريخ مصر الحديث، الجزء الثانى، مطبعة المقتطف بمصر ١٨٨٩، ص ٧٩، وهذه الثورة أشار إليها ابن عبد الغنى (ص١٢٧) بقوله : "وهو الذى قامت الاسباهية عليه وقتلوا كيخيته وكتخدا الجاويشية والترجمان، وقطعوا رؤسهم، و أشهروهم فى البلد، ثم علقوهم فى باب زويلة.. فلما اتصلت الأخبار إلى الأعتاب العلية ارسلوا له العزلان".
(٢٩) أحمد شلبى بن عبد الغنى : المرجع السابق، ص ١٢٧-١٢٨.
(٣٠) نفسه المرجع، ص ١٣٨.
(٣١) نفسه المرجع، ص ١٤٨-١٤٩.
(٣٢) راجع : "القاهرة العثمانية بوصفها مدينة "شئون البلديات والمرافق" فى : اندريه ريمون : فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٧٤، ص ٢٩.
يتحدث ابن عبد الغنى (ص ١٧٦)، في أنه قد حصل غلاء، ونهبت الرقعة التي بجوار مدرسة السلطان حسن وحرقوها.
(٣٣) ميخائيل شاروبيم بك : الكافى، الجزء الثالث، ص ١٠١.
(٣٤) أنظر : أحمد شلبى بن عبد الغنى: المرجع السابق، ص ١٩٣-١٩٤ وكذلك : أحمد الدمرداش كتخدا عزبان : المرجع السابق، ص ٢٩، والجزء الأول من "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، لعبد الرحمن الجبرتى ، تحقيق الدكتور عبد الرحيم بن عبد الرحمن ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ١٩٩٨، ص٥٠.
وتعتبر سنة ١٦٩٥ أسوأ أزمة مجاعة وغلاء، فى تاريخ مصر العثمانية، فى مدة الوزير على باشا قلج، سجل أردب القمح ٦٦٠ بارة وأردب الشعير ٤٠٠ بارة والفول ٥٠٠ بارة والأرز ٨٠٠ بارة، شهدت البلاد أحداث عنف ونهب وتقاتل الجوعى على سرقة الخبز، أطلق عليها "جد خطف العيش" ووصل الأمر إلى أن "فشا أكل بنى آدم واشتهر" على حد قول أحد المعاصرين، وحول أبعاد ذلك راجع : ناصر إبراهيم : المجاعات والأوبئة فى مصر فى القرن السابع عشر، ص ٤٥-٤٨.
(٣٥) أحمد شلبى بن عبد الغنى : المرجع السابق، ص١٩٧.
(٣٦) المرجع نفسه ، ص ٢١٠-٢١١.
(٣٧) المرجع نفسه ، ص ٢٢٧-٢٤٨.
(٣٨) المرجع نفسه ، ص ٤٣٣-٤٣٤.
(٣٩) المرجع نفسه ، ص ٥٠٢.
(٤٠)المرجع نفسه ، ص ٥٧٦، ص ٥٨٨.
(٤١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار، الجزء الأول، ص ٢٥٥.
كما هو معروف ، حتى فى أوقات الفناء، كان العوام يتهكمون ويسخرون على نحو ما حدث فى طاعون عام ١١٧١هـ الذى سموه "قارب شيحة" الذى يأخذ المليح والمليحة".
(٤٢) المرجع السابق، الجزء الثاني ، ص ١٠٧، ص ١٢٠-١٢١.
(٤٣) نفس المرجع، ص ١٣٤-١٣٥.

في النصف الثاني من القرن السابع عشر، كتب أوليا شلبى فى "سياحتنامه سى" "أن فى الأزهر اثنى عشر ألف إنسان، وإذا أعلن علماء الأزهر ثورتهم، خرج من الجامع منهم سبعمائة رافعين العلم، اللهم عافنا أن ثورتهم غاية فى شدتها". فمن المعروف أن هذه المؤسسة الدينية كانت تستقبل الوافدين إليها من فقراء الريف وتقدم لهم الخبز اليومى "الجراية" وكانت أرزاق العلماء أساساً من القمح، حتى "الزوادة" التى كانت ترسل إلى طلاب وعلماء الأزهر كان أغلبها من الخبز وبشكل عام كانت الجراية تخصص دائماً للعمال والجند والخدم وطلاب العلم، و"عيش جراية" ليس من خالص الدقيق، فإن كان خالصاً قالوا فيه "خاص" ، هكذا ذكر الجبرتى فى الجزء الثالث من "عجائب الآثار"، فالجراية تطلق على الخبز خاصة من "دقيق خشن"، أما الأمراء فلهم عيش "خاص" يريدون أحسنه ويرادفه "الحوارى ومن العيش الخاص "الخبز الأفرنجى" أى العيش "الرومى" أو ما عرف بالفينو فيما بعد، هناك "عيش السراية"، وكذلك "عيش الغراب"، أنظر :

مادة "جراية" فى أحمد تيمور : معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الثالث، تحقيق الدكتور حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص ٢٤-٢٥. وكذلك مادة "عيش"، نفس المرجع، الجزء الرابع، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ٢٠٠١، ص ٤٥٥-٤٥٧.

وقد استمرت ثورة الأزهريين ، أكثر من مرة بسبب أزمة صرف "الجراية" فيذكر الجبرتى فى أحداث ٢ ذى القعدة ١٢٠٢ هـ (٤ أغسطس ١٧٨٨) "ثار جماعة الشوام وبعض المغاربة بالأزهر على الشيخ العروسى بسبب الجراية، وقفلوا فى وجهه باب الجامع، وخرجوا إلى السوق، وأمروا الناس بغلق الدكاكين (أنظر الجزء الثاني من عجائب الآثار، ص ٢٥١).

(٤٤) المرجع نفسه السابق، ج٢، ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٤٥) المرجع نفسه، ص ٣٤٤،

(٤٦) المرجع نفسه ، ص ٣٦١-٣٦٢.

(٤٧) فايقة حسين راغب : المرجع السابق، السفر الثاني، ص ١٧٢-١٧٣.

(٤٨) محمد عياد الطنطاوى (الشيخ) : أحسن النخب فى معرفة لسان العرب، طبع فى لبسيا فى مطبعة ولهلم فوغل ١٨٤٨، ص ١١٤.

(٤٩) أحمد تيمور : الأمثال العامية، صفحات : ١٦٢، ١٨٧، ٣٦٩، ١٦٣، ١٦٨، ٣٢٦ [على عشان بطنه حلقوا دقنه] أى لأجل احتياجه للقوت رضى بحلق لحيته وتعرض لاستهزاء الناس به، ٣٧٤، ٤٠٣، ٤٣١، ٤٤٣.

راجع كذلك كتابه "الكنايات العامية" الطبعة الأولى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ص ٧٦، ص٨٤.

(٥٠) نعوم شقير : أمثال العوام فى مصر والسودان والشام، مطبعة المعارف بمصر ١٣١٢هـ، ص٧٢.

في هذا الكتاب أكد هذا الارتباط بين الجوع وبين الخبز : "حلم الجيعان عيش" (ص٧٩)، "قال له ابوك مات من الجوع قال له هو شاف شى ولا أكلشى" (ص ٩٦)، "قالوا لبنت الملك أهل البلد ماتوا من الجوع قالت ياكلوا قشور البقلاوة" (ص٩٨)، "لقمة عيش وثوب خيش تقضى

اليومين اللى لافيش ولا عليش" (ص١٠٣).

(٥١) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص ٨٣.

(٥٢) أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٣، ص ٦٩.

(٥٣) جون لويس بوركهارت : العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية فى عهد محمد على، ترجمة الدكتور إبراهيم شعلان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩، ص ٢٠٤.

(٥٤) فايقة حسين راغب : المرجع السابق، السفر الأول، ص ١٤٧.

(٥٥) اوليا شلبى : سياحتنامه سى، نسخة مترجمة غير منشورة إلى العربية بقلم الدكتور مجيب المصرى، ص٥٩.

(٥٦) ويقولون رغيف خبز وله أصل قال الرغف كالمنع جمعك العجين أو الطين تكتله بيدك ومنه الرغيف جمعه أرغفة ورغف ورغف بضمهن وراغيف قاموس، والرغيف فيه قصيدة في الفتوحات المكية وانه فيه سر المهيمن واللطيف، وأنه لابد منه من ثلاثمائة وستين عاملا حتى يوكل، ومما ترجمته فيه من أبيات كلستان الشيخ سورى

غيم هو والبدر بوح فى السرى	حتى إذا وصل الرغيف لكفكا
لا تاكلنه بغفلة إذ كلمته	فى دورها لا تستطيع لخلفكا
ما شرط انصاف تطيع	ولا تطيع لأمرها فتيقظن من لطفكا

راجع : الشيخ يوسف المغربي، رفع الأصر من كلام أهل مصر، تحقيق الدكتور عبد السلام عواد، دار النشر "العلم" إدارة التحرير الرئيسية للآداب الشرقية، مسكو ١٩٦٨، ص ٢٣.

(٥٧) يقولون للخبز (عيش)، قال المجدى : العيش الخبز، أوكل طعام، أو ما يعاش به، ويقولون فلان (عياش) إذا كان مضيافاً.

راجع : محمد بن أبى السرور الصديقى الشافعى : القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب، تحقيق السيد إبراهيم سالم، الناشر دار الفكر العربى، مطبعة مخيمر، القاهرة ١٩٦٢، ص٧٣.

(٥٨) الشيخ داود الانطاكى : تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب، المطبعة العثمانية المصرية، القاهرة ١٣٥٦هـ، ص١٢٥.

(٥٩) أحمد تيمور : معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، تحقيق الدكتور حسين نصار، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ٢٠٠١، ص ٤٥٥.

(٦٠) نفسه ، ص ٤٥٦.

(٦١) أحمد تيمور : الأمثال العامية، ص٢٨.

(٦٢) فايقة حسين راغب : المرجع السابق، السفر الثانى، ص ٤٣-٤٤.

(٦٣) المرجع نفسه ، السفر الأول، ص ٤٠.

(٦٤) المرجع نفسه، السفر الثاني، ص ٢٤٩.

(٦٥) المرجع نفسه ، السفر الأول، ص ٩٦.

(٦٦) أورده محمود عمر الباجورى فى "كتاب أمثال المتكلمين" ص ١٧، فى مكافــأة الشــئ بمثله، وفى القرآن هل جزاء الإحسان إلا الإحسان، وفى الحديث من صــنع الــيكم معروفــا فكافئوه فإن لم تكافئوه فادعوا لله.

(٦٧) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٦٨) أحمد أمين : المرجع السابق، ص ٤٤٦.

(٦٩) المرجع نفسه، ص ٣٨٦.

(٧٠) عبد الرحمن الجبرتى : المرجع السابق، الجزء الأول، ص١٤٨.

(٧١)المرجع نفسه ، ص ٤٦٥.

(٧٢) حسين مظلوم رياض - مصطفى محمد الصــباحى : تــاريخ أدب الشــعب، نشــأته، تطوراته، أعلامه، مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٦، ص٩٠.

وتظل "كسرة الخبز" دليلا على القناعة تراود الكثير، فيورد الطهطاوى :

لبيـــت تخفـــق الأرواح فيـــه	أحب إلى مـــن قصـــر منيـــف
وأكل كسيرة من كســـر بيتـــى	أحب إلى من أكـــل الرغيـــف

راجع : رفاعة بك رافع : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب المصرية، الطبعة الثانية، شركة الرغائب بمصر ١٩١٢، ص١١.

كذلك يضمن الشاعر إسماعيل صبرى، ديوانه ، بمثل هذه الأبيات :

لكســـرة مـــن رغيـــف خُبـــز	تـــــؤدم بـــــالملح والكرامـــــة
اشهى إلـــى الحـــر مـــن طعـــام	يخـــــتم بالشـــــهد والملامـــــة

راجع : إسماعيل صبرى : ديوان، صححه أحمد الزين، مطبعة لجنــة التــأليف والترجمــة والنشر، القاهرة ١٩٣٨، ص١٤٤.

(٧٣) فايقة حسين راغب : المرجع السابق، السفر الثانى، ص١١٤.

(٧٤) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٧٥) فايقة حسين راغب : المرجع السابق، السفر الأول، ص١٢.

(٧٦) نفس المرجع، ص ١٥.

(٧٧) ابن إياس : بدائع الزهور ، الجزء الثانى، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئــة المصــرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٨٤، ومما يذكره قول آخر :

وإذا غـــلا شـــئ علـــى تركتـــه	فيكون أرخص ما يكون إذا غـــلا
إلا الدقيق فمـــا لنـــا عنـــه غنـــا	فإذا غلا يومـــا فقـــد عـــمّ الـــبلا

(٧٨) أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان : المرجع السابق، ص ١٠٨، ص ٢٣٤.

(٧٩) مصطفى بن الحاج إبراهيم تابع حسن أغا عزبان دمرداشى : تــاريخ وقــائع مصــر القاهرة كنانة الله فى أرضه، مخطوط غير منشور، دار الكتب المصرية، تاريخ رقــم ٤٤٨،

ص ٣٥.
(٨٠) محمود عمر الباجورى: المرجع السابق، ص ١٧٠.
(٨١) نعوم شقير : المرجع السابق، ص١١٣.
(٨٢) فايقه حسين راغب : المرجع السابق، السفر الثاني، ص٤٤.
(٨٣)المرجع نفسه ، ص ٥٠.
(٨٤) جون لويس بوركهارت : المرجع السابق، ص ١٥٩.
هذا المثل يعتمد على قول محمد (ص) فى الحديث "خير الأعمال أدومها وأن قل، "كشكار" هو دقيق الذرة أوالنخالة يأكله الفلاحون، "علامة" : "دقيق ناعم" "مقطوعة" : "مبتورة" ، "ممنوعة"
- من المعروف أن خبز الذرة ظل هو الغذاء الأساسي للفقراء خاصة أهل الريف، وكانت أمنية الفلاح أن يأكل الخبز من القمح، كما ورد في "هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف" وقد ذكر الجبرتى فى الجزء الأول من "عجائب الآثار" (ص ٤٦٢) على لسان الشيخ حسن شمه والذي كتب موالاً قرقياً :
قالوا تحب المدمس قلت بالزيت الحار
والعيش الأبيض تحبه قلت والكشكار
(٨٥) أحمد تيمور : معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الرابع، ص ٤٥٦-٤٥٧.
ومن أطرف ما ذكره تيمور ، أن الانتهاء من الخدمة عند الموظفين، كانوا يقولون عنه في الدولة العثمانية "التقاعد"، بينما في مصر ذكروا "الإحالة على المعاش".
(٨٦) أنظر : شهاب الدين بن محمد الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف بجزأيه، دار القلم، بيروت ١٩٨١، الجزء الأول، ص ٣٧، ومما ذكره الأبشيهى (ص١٩٠) ما رواه عن ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : أكرموا الخبز، قالوا وماكرامته يا رسول الله، قال لاينتظر به إلا دام، إذا وجدتم الخبز فكلوه، حتى تؤتوا بغيره.
(٨٧) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص٣٣.
(٨٨) نفس المرجع، ص ١٨.
(٨٩) أحمد أمين : المرجع السابق، ص ١٣٧ وكذلك : شوقى ضيف (د) : الفكاهة فى مصر، العدد ٨٣ من كتاب الهلال، القاهرة ١٩٥٨، ص١٨١.
(٩٠) على مبارك باشا : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة، الجزء العاشر، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص١٥٦.
(٩١) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص ١٣٥.
(٩٢) "المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلى طاهر نور، مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٥٠، ص ٢١٣.
(٩٣) كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعود، مطبعة ابى الهول بمصر، الجزء الاول، د.ت، ص ٥٤٦-٥٤٧، وأنظر كذلك :
أحمد أمين : قاموس العادات، ص٢٩٣.
(٩٤) أحمد تيمور : الأمثال العامية، ص ٥٣.
(٩٥) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص ١٤٠، وكذلك تيمور : المرجع السابق،

ص ٤٢٤.
(٩٦) أحمد تيمور : المرجع السابق ، ص ٤٢٣.
(٩٧)المرجع نفسه ، ص ٤٤٧.
(٩٨) أحمد تيمور : معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الخامس، تحقيق الـدكتور حسين نصار، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ٢٠٠١، ص ٢٩٥.
(٩٩) وينيفريد بلاكمان: الناس فى صعيد مصر، ترجمة أحمد محمود، الطبعة الثانية، عـين للدراسات والبحوث، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٥٣، ص ١٠٦-١٠٨.
(١٠٠) سبيرو سقراط : قاموس اللهجة العامية المصرية (صدر عام ١٨٩٥)، طبعة جديـدة، مكتبة لبنان ١٩٨٠، ص ١٦١.
(١٠١) أحمد تيمور : الأمثال العامية، ص ٤٢٤.
(١٠٢) محمود عمر الباجورى : المرجع السابق، ص١٣٠.
(١٠٣) نفس المرجع ، ص١٦٣.
(١٠٤) فايقة حسين راغب : المرجع السابق، السفر الثاني، ص٥٣.
(١٠٥) أحمد تيمور : المرجع السابق، ص ٦٩.
(١٠٦) نفس المرجع : ص ١٦.
(١٠٧) نعوم شقير : المرجع السابق، ص ١٠٣.
(١٠٨)المرجع نفسه ، ص ٦٣.
(١٠٩) نفسه، ص ١٠٥.
(١١٠) أحمد تيمور : المرجع السابق، ص ٤٢٤.
(١١١)المرجع نفسه ، ص ٢٢٧.
(١١٢) نفسه، ص ٩٨.
(١١٣) نفسه، ص ٤٤٣.
(١١٤) نفسه، ص ٨٨.
(١١٥) وحول نماذج معطاة من أنواع الخبز وتفاوت وزنها وسـعرها أنظـر علـى وجـه الخصوص:
- محاسن محمد الوقاد (د) : الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامـة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩، ص ١٣٣.وكذلك : عبد الرحيم عبد الرحمن (د) : فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القـاهرة ١٩٩٠، هامش (١٥)، ص٣٠.
(١١٦) حول هتافات ١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٧ المرتبطة برغيف العيش :
- مش كفاية لبسنا الخيش... جايين ياخدوا رغيف العيش
- مش حنخاف مش حنخاف... غلو علينا العيش الحاف.
انظر : حسين عبد الرازق / مصر فى ١٨، ١٩ يناير ، الطبعة الأولى، دار الكلمة، بيـروت ١٩٧٩، ص ٨١، وكذلك عصمت سيف الدولة (د)، دفاع عن الشعب، الطبعـة الثانيـة، دار الكلمة للنشر، بيروت ١٩٨١، ص ٢٧.

(١١٧) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار، الجزء الثالث، ص ٢٩٨.
(١١٨) راجع الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على باشا : نسخة موجودة بدار الوثائق القومية بالقاهرة، الجزء الثاني، ص ٢٨٢-٢٨٣.
(١١٩)المرجع نفسه : ص ٣٤٢-٣٤٣.
(١٢٠) أنظر ملحق رقم (٢٠) فى كتاب أحمد الدماصى (د) : الاقتصاد المصري في القــرن التاسع عشر، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧، ص ٤٥٣.
(١٢١) أنظر : باير "خضوع الفلاح وثورته" ص ٢٣١ في "دراسات في التاريخ الاجتمــاعي لمصر الحديث : ترجمة عبد الخالق لاشين وعبد الحميد الجمال، الطبعة الاولى، مكتبة الحرية الحديثة، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٦.
(١٢٢) فكرى أباظة : الضاحك الباكى ، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٨، ص ٥٤.
(١٢٣) صلاح عزام : "مارس ١٩١٩ الدامى والفلاحون" مجلة الطليعة، مارس ١٩٦٩، ص ٣٩ (دراسة خاصة عن ثورة ١٩١٩).
(١٢٤) خالد محمد خالد : مذكرات - قصتى مع الحياة، مطابع أخبار اليوم، القــاهرة ١٩٩٣، ص ٣٨٢.

الفصل الثانى

دور الحرفيين فى ثورة القاهرة الثانية
إبان الحملة الفرنسية على مصر

نبيل السيد الطوخى(*)

كانت الحملة الفرنسية على مصر دوراً من أدوار التنازع الاستعماري الذي قام بين إنجلترا وفرنسا، ذلك التنازع الذى يرجع عهده إلى القرن السابع عشر و استمر أثناء القرن الثامن عشر ثم اتخذ شكلاً جديداً بعد قيام الثورة الفرنسية، انتهى بقدوم الحملة الفرنسية الى مصر ،ووصلت الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية يوم أول يوليو سنة ١٧٩٨، وأخذ جنود الحملة ينزلون غرب الاسكندرية ليلة ٢ يوليو، وزحفوا على المدينة فاحتلوها فى ذلك اليوم ، وبعد أن ثبت نابليون قدميه في الإسكندرية أخذ يزحف على القاهرة لاحتلالها ونجح فى ذلك بعد هزيمة المماليك والمصريين فى معركة إمبابة أو الأهرام[1] (٢١ يوليو ١٧٩٨) و قبل أن نتحدث عن دور الحرفيين فى ثورة القاهرة الثانية ، تجدر الإشارة إلى أن الحرفيين قاموا بدور هام فى معركة إمبابة وكذلك فى ثورة القاهرة الاولى (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) و بالتالى سنقوم بعرض موجز لهذا الدور قبل عرضنا لدورهم فى ثورة القاهرة الثانية.

أما عن دور الحرفيين فى معركة امبابة فإننا نلاحظ أن العواطف الوطنية الصادقة للطوائف قد تجلت بشكل واضح فى الدفاع عن القاهرة ضد نابليون ، فمن ذلك مثلاً حين خرج الناس إلى بولاق ليلحقوا بجيش المماليك فى يوم الثلاثاء الموافق ٣ من صفر سنة ١٢١٣ هـ (١٧من يوليو ١٧٩٨ م) وذلك استعداداً لمعركة امبابة ((فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم و ينصبون لهم خياماً أو يجلسون فى مكان خرب أو مسجد و يرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التى جمعوها من بعضهم ، وبعض الناس يتطوع بالإنفاق على البعض الآخر ، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل و غير ذلك))[2]،

(*) مدرس التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب، جامعة المنيا.

ويتضح لنا مما ذكره الجبرتى أن كل فرد من أفراد الطوائف قدم كل ما فى وسعه ، ولم يبخل أحد منهم بمال ، وبذلوا كل ما فى وسعهم وطاقتهم فى سبيل الدفاع عن بلادهم.

وعن دور الحرفيين فى ثورة القاهرة الأولى فإننا نلاحظ أن الذين قاموا بالدور الكبر فى هذه الثورة هم عامة القاهريين(*) الذين أشار إليهم الجبرتى تارة "بالحرافيش" و تارة أخرى "بالزعر" وتارة ثالثة "بالغوغاء"(*) وهؤلاء دون أدنى شك كانوا من الحرفيين (٣)

وبالتالي يمكن القول بأن طوائف الحرف قد اشتركت فى ثورة القاهرة الأولى التى بدأت فى يوم الأحد الموافق من٢١ أكتوبر سنه ١٧٩٨ ، و حدثت اتصالات مسبقة بين مجلس الثورة (٤) و بين شيوخ الطوائف كى يصدر كل شيخ التعليمات إلى أفراد طائفته ، إما بإغلاق محلاتهم عند صدور أول إشارة ، و إما بالامتناع عن العمل إذا لم يكونوا من أصحاب المحلات ، و أن يكون الجامع الأزهر هو مكان التجمع (٥) ، و لما بدأت الثورة التحم التجار و الصناع والحرفيون مع باقى الثوارلمهاجمة الفرنسيين (٦)

و تعتبر ثورة القاهرة الثانية (٢٠ مارس - ٢١ أبريل١٨٠٠) من أخطر الثورات المصرية ضد الاحتلال الفرنسى و بالتالى فهى تشكل حدثاً مهماً في تاريخ مصر الحديث إلى حد أن اطلق عليها البعض اسم "الثورة الكبرى"(٧)، وتتفق المصادر المعاصرة على واقع أن السكان كلهم قد شاركوا فى هذه الثورة. فماذا عن دور الحرفيين فى هذه الثورة ؟

لعبت طوائف الحرف دوراً مهماً في ثورة القاهرة الثانية سواء طوائف التجار أو طوائف الصناع و أرباب الحرف ، و بالنسبة لطوائف التجار فإننا نلاحظ أن كبار التجار لم ينعزلوا عن الثوار ، فلقد باشر السيد أحمد المحروقى شاه بندر التجار(*) و باقى التجار نفقات الثوار و العساكر المقيمين خلف المتاريس ، و تولوا تقديم الطعام و الشراب أثناء ثورة القاهرة الثانية (٨) كما ظل المحروقى يمر بالناس و بصحبته السيد عمر نقيب الاشراف * يأمرونهم بالقتال و يحرضونهم على الجهاد ، و الواقع فإن السيد أحمد المحروقى و قد قلده فى ذلك التجار و الأغنياء - قد أنفق بلا حساب من أجل تأمين و دعم المقاتلين(*) وكان عمر أغا الملاطيلى ، وهو تاجر فى خان الخليلى أحد تجار القاهرة الرئيسيين ، و قد امتدح الفرنسيين " مبادئه النزيهة والشريفة والمستقيمة " أحد

المشاركين في ثورة القاهرة الثانية [٩] .

و لم يكن الأمر مختلفا فى بولاق . فهناك وثيقة موقعة من جانب أعيان المدينة و ترفض الاستسلام تذكر الحاج مصطفى البشتيلى * و هو تاجر زيوت ثرى و صاحب وكالة فى بولاق ، ومن بين الموقعين أيضا محمد أغا الطويل و هو تاجر فى الكتان (كتانجى) و من ثم ينتمى إلى كبار تجار المدينة ، و هكذا فإن أعضاء نخبة القاهرة كانوا موجودين فى المرحلة النشيطة للثورة و ليس بعدها ، كما جرت العادة فى مجرد التفاوض مع السلطات و الذى كانوا يقيمون به تاريخياً [١٠] و بالتالى فهذا حدث غيرمسبوق بالمرة في تاريخ القاهرة القريب.

ويمكن القول أن التجار لعبوا دوراً مهماً في ثورة القاهرة الثانية [١١] فمنهم من قدم المال ، ومنهم من قدم السلاح و المال ، ومنهم من كان من أكبر الدعاة للثورة و المحرضين عليها أمثال الحاج مصطفى البشتيلى الذى تزعم الثورة منذ بدايتها فى بولاق يوم من٢٠ مارس، و في ذلك يقول الجبرتى " وأما بولاق فإنها قامت على ساق و تهور فى ذلك و تشدد الحاج مصطفى البشتيلى ، وهيج العامة فأخذوا الأسلحة و العصى و النبابيت ، وذهبوا إلى وطاق(*) الفرنسيس الذي تركوه بساحل البحر (النيل) و عنده جماعة منهم للحرس ، فقتل من أدركه أهل بولاق منهم ، و فر من فر و نهبوا ما فيه من الخيام و المتاع وغيره ، ورجعوا إلى البلد ، و فتحوا مخازن الغلال و الودائع التى للفرنسيس ، و أخذوا ما أحبوا منها ، وعملوا كرانك حول البلد و متاريس ، و استعدوا للحرب ، و الجهاد " [١٢] وواضح من عرض الجبرتى وصفه لمصطفى البشتيلى بالتهور و التشدد و دوره فى قيادة العامة للهجوم على الحامية الفرنسية فى بولاق ، وهذا الوصف يتفق مع طبيعة البشتيلى الذى كان من أكبر الدعاة للثورة و المحرضين عليها ، وكان يتمنطق فى وسطه بحزام ، و يتنقل من مكان إلى آخر ليقوى عزائم المحاربين و يجمعهم و يوجههم للحرب [١٣] . وهكذا يمكن القول بأن التجار قد لعبوا دوراً مهماً في ثورة القاهرة الثانية ، ولكن ماذا عن دور الصناع و أرباب الحرف ؟

قام الصناع و أرباب الحرف بدورهم فى هذة الثورة ، وصور الجبرتى ذلك بقوله " وأنشأ عثمان كتخدا معملاً ببيت قائد أغا بخط الخرنفش(*) و أحضر القندقجية * و العربجية و الحدادين و السباكين ، لإنشاء مدافع و بنبات ، وإصلاح المدافع التي وجدوها في بعض البيوت ، وعمل العجل والعربات والجلل و غير ذلك من المهمات الجزئية ، و أحضروا لهم ما يحتاجون اليه من

الأخشاب و فروع الأشجار و الحديد ، و جمعوا إلى ذلك الحدادين و النجـــارين و السباكين و أرباب الصنائع الذين يعرفون ذلك ، فصار هذا كله يصـــنع ببيــت القاضى و الخان الذى بجانبه و الرحبة التى عند بيت القاضى من جهة المشــهد الحسينى و اهتم لذلك اهتماماً زائداً ، وأنفق اموالاً جمة و أرسلوا فأحضروا باقى المدافع الكائنة بالمطرية " [١٤] .

وواضح من العرض السابق أن الثوار قد استعانوا بالحـــدادين فـــى صـــنع القنابل و تشغيل المدافع، و جدير بالذكر أن الصناع و أرباب الحرف قد قـــاموا بمساعدة الثوار فى انشاء مصنع للبارود بالخرنفش ، وآخر لإصـــلاح الأســـلحة والمدافع و ثالثاً لصنع القنابل و صب المدافع من الحديـــد الـــذى جمعـــوه مـــن المساجد والحوانيت ، وتطوع الصناع للعمل فى هذه المصانع و قدموا ما لـــديهم من الحديد و الآلات و الموازين ، و أخذوا يجمعون القنابل التى تتســـاقط مـــن المدافع الفرنسية في الشوارع و يســـتعملونها قـــذائف جديـــدة يطلقونهـــا علـــى الفرنسيين ، وتم كل ذلك بمساعدة الصناع من الحدادين والنجـــارين والســـباكين وأرباب الصنائع الأخرى [١٥]

و تؤكد المصادر الفرنسية المعاصرة على هذة الحقائق حيث ذكر مسيو مارتان أحد مهندسى الحملة و كان شاهد عيان لتلك الثورة ((لقد قـــام ســـكان القاهرة بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل ، فقد صنعوا البارود ، و صـــنعوا القنابل من حديد المساجد و أدوات الصناع ، و فعلوا ما يصعب تصديقه – و ما راء كمن سمع – ذلك أنهم صنعوا المدافع [١٦])) وقـــال الجنـــرال كليبـــر فـــى يومياته ((استخرج الأعداء مدافع كانت مطمورة في الأرض ، و أنشأوا معامل للبارود و مصانع لصب المدافع و عمل القنابل و أبدوا فى كل ناحية من النشاط ما أوحت به الحماسة و العصبية ، هذه هي بوجه عام حالة القاهرة عند قـــدومى إليها، وإنى لم أكن أتصورها على هذه الدرجة من الخطورة))[١٧]

وكذلك فان " فريان " يرسم اللوحة نفسها لنشاط محموم شارك فيه جميع السكان حيث يقول " لقد ابدى جميع السكان نشاطاً لا يمكن توفيره فى هذا البلـــد إلا عن طريق الدين وحده ، لقد أقاموا مصانع للبارود و توصلوا إلى صنع قنابل من حديد المساجد أو المطارق أو الالآت التى سارع الحرفيون الـــى تقـــديمها ، وبما أنهم لم يجدوا (قنابل و قذائف) من عيار هذة المدافع ، فقد اتجهـــوا إلـــى صنع هاونات و مدافع ، بما يشكل صناعة غير عادية فى هـــذا البلـــد ، وقـــد نجحوا فى ذلك [١٨] " .

و يعلق أندريه ريمون على ذلك قائلاً ((ويمكننــا أن نتصــور دهشــة العسكريين الفرنسيين الذين اكتشفوا ، بعد انتهاء التمرد مدفعين جــرى ســبكهما مؤخرا لإعادة إطلاق قنابلهم و مدفعاً مركباً على ركائز جديدة محلية الصنع ولم يكن من شأن هذه الاستماتة الوطنية إلا أن تعيد إلى أذهان جنود الثورة الفرنسية ذكريات العام الثانى للجمهورية (١٩))) .

و يذكر البعض " تم كل ذلك فى ثلاثة أيام (٢٠) " وهكذا نرى أن مصــر قد طرقت أبواب الصناعة من خلال قتالها ضد الاستعمار الغربى لا من خــلال الرضوخ له أو التعاون معه (٢١) .

ومن العرض السابق يتضح أن طوائف الحرف لعبت دورا مهمــا فــى ثورة القاهرة الثانية ، و أنها عملت نهاراً و ليلاً لأجل القضاء على الفرنســيين ، ومما لا شك فيه أن الحرفيين قد تأثروا إبان الثورة ، حيث أدت الثورة إلى وقف حالهم من جراء اغلاق الحوانيت (٢٢) و الطوابين و المخابز ،ووقف حال الناس من البيع و الشراء ، و ليت الأمر اقتصر على ذلك بل تعرضوا أيضاً بعد نهاية الثورة إلى مزيد من الغرامات الفادحة ، حيث فرض كليبر على سكان القــاهرة ضريبةً استثنائيةً باهظة ، وتم تكليف المعلم يعقوب بجبايتها (٢٣) . و لاشك فــى أن هذه الغرامات أدت إلى إرهاق الحرفيين و التجار (٢٤) .

ورغم كل هذة الأزمات فإن دور الحرفيين لم ينته بل ظل متواجداً على الساحة السياسية بعد خروج الحملة الفرنسية مــن مصــر ، حيــث نلاحــظ أن طوائف الحرف كان لها دور فى تولية محمد على ، ومن القيــادات الحرفيــة البارزة نذكر حجاج الخضرى الذى كان شيخا لطائفة الخضرية بحــى الرميلــة (الرفاعى) و كان أحد شخصيات الحى المرموقين ، و كذلك " ابن شمعة " شيخ الجزارين ، حيث ركب كل منهما فى موكب النصر الذى ذهب يــوم الاثنــين ٩ من يوليو ١٨٠٥ لاستقبال القابجى (الرسول) الذى يحمل أمر تولية محمد على و الياً للقاهرة (٢٥) ، ولأول مرة منذ قرون أصبحت القوى الشعبية فــى القــاهرة هى التى تصنع التاريخ بعد أن كانت هى التى تعانى من أحداثه .

الهوامــــش

(١) لمزيد من التفصيل عن معركة إمبابة أو الاهرام أنظر . نبيل السيد الطــوخى . صــعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ – ١٨٠١ . الطبعة الأولى . الهيئة المصــرية العامــة

للكتاب ١٩٩٧ ص ١١٣ -١١٩ .

(٢) عبد الرحمن الجبرتى . عجائب الأثار فى التراجم و الخبار ، الجزء الثالث ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الهيئة العامة لدار الكتب و الوثائق القومية مركز وثائق و تاريخ مصر المعاصر مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٩٨ . ص ٨

- " العامة " هم الذين شكلوا المستودع الأكثر غليانا للحركات الشعبية ، كما يتضح ذلك جيدا فى العقود الأخيرة للقرن الثامن عشر و خلال فترة الإحتلال الفرنسى القصيرة و فى الأعوام الأولى للقرن التاسع عشر ، ومن الصعب التوصل الى تعريف دقيق لهذة الفئة الضخمة من السكان الحضريين لأنها ترتبط من ناحية بعالم الحرف الذى يستوعب شرائحها الأكثر بؤساً وترتبط من ناحية اخرى بعالم محروم و هامشى و متمرد يبدو أنه يفلت من كل تحليل إجتماعى – إقتصادى دقيق . نقلا عن آندريه ريمون . المصريون و الفرنسيون فى القاهرة ١٧٩٨ -١٨٠١ ، ترجمة بشير السباعى - الطبعة الأولى . عين للدراسات و البحوث الأنسانية و الإجتماعية ، القاهرة ٢٠٠١ . ص ٥٠
- من الملاحظ أن غالبية هذة الكلمات كانت قد استخدمت بالفعل لوصف الجماعات الشعبية التى عرفت نشاطاً عظيماً في أواخر العصر المملوكى ، حيث كانت كلمة الزعر آنذاك هي الأوفر استخداماً بكثير و هذة الألفاظ الفظة إنما تترجم بشكل بالغ الدقة شعور التقزز لدى كتاب الأخبار المنتمين إلى البورجوازية حيال جماعة سكانية فقيرة كانت تظاهراتها مصحوبة باعمال العنف . لمزيد من التفصيل أنظر آندريه ريمون . المرجع السابق . ص ٥٣ و ما بعدها

(٣) السيد رجب حراز . المدخل الى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى الى الإحتلال البريطاني . ١٥١٧ -١٨٨٢ دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٧٠ . ص١٢١ .وجدير بالذكر ان عوامل هامة هى التى أثارت حنق هذة الطبقات الشعبية و حركتهم ضد الاحتلال الفرنسى، و تذكر المصادر المعاصرة أن السبب المباشر لاشتعال ثورة القاهرة الأولى هو تلك الضرائب الجديدة التى أمر بونابرت فى أكتوبر ١٧٩٨ (وأقرها الديوان العام فى ٢٠ من أكتوبر)بفرضها على الأملاك والمبانى كالحمامات والخانات والحوانيت والمقاهى وطواحين الغلال و المعاصر و السيارج و البيوت ، و يمكن القول بأن الرأى العام كان مهيئاً للثورة و جاءت مسألة الضرائب لتكون سبباً مباشراً لاندلاعها . لمزيد من التفصيل أنظر عبد الرحمن الجبرتى . المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ٤١ ، د. جاد طه . موقف الجبرتى من ثورات القاهرة . منشور فى عبد الرحمن الجبرتى . دراسات و بحوث بإشراف أحمد عزت عبد الكريم . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ . ص٣٢٩ ، ٣٣٠

(٤) سجل نابليون فى مذكراته أنه كانت هناك " لجنة للثورة " تنظم شئونها ، و تجمع المتطوعين ، وتسلحهم وأن الشيخ السادات كان رئيس هذة اللجنة ، كما ذكر فى تقرير له أن هذة اللجنة كانت تجتمع فى الأزهر أنظر . محمود الشرقاوى . الجبرتى و كفاح الشعب كتاب الهلال العدد ١٨٤ . يوليو ١٩٦٦ . ص ٦٨ .

(٥) عبد العزيز محمد الشناوى . صور من دور الأزهر فى مقاومة الإحتلال الفرنسى ، مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧٠ . ص ١٠٢ .

(٦) المرجع نفسه . ص ١١٦ .

(٧) محمود الشرقاوى . المرجع السابق . ص ١١١

• كان رئيس طائفة التجار و شيخهم هو عادة أغناهم و عرف فى القاهرة بلقب شاه بندر التجار و لعل أشهر من تولى هذا المنصب السيد أحمد المحروقى ، وذكر الجبرتى عنه أنه " عين الأعيان و نادرة الزمان شاه بندر التجار ، و المرتقى الى سنام الفخار ، النبيه النجيب ، والحسيب النسيب السيد أحمد بن أحمد الشهير بالمحروقى الحريرى ثم يذكر الجبرتى أنه " صار بمنزلة شيخ البلد بل أعظم ، و نفذت أوامره فى الإقليم المصري و الرومي و الحجازى و الشامى ، و أدرك من العز و الجاه و العظمة مالم يتفق لأمثاله من أولاد البلد " و توفى السيد احمد المحروقى فى ليلة الاحد الموافق ٢٢ شعبان ١٢١٩ هـ (٢٦ نوفمبر ١٨٠٤ م) لمزيد من التفصيل عن ترجمة السيد احمد المحروقى أنظر . الجبرتى . المصدر السابق . الجزء الثالث ص ٥١٠-٥١٥ ، على مبارك. الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة و مدنها و بلادها القديمة و الشهيرة . الجزء الثالث ، طبعة مصورة عن الطبعة الثانية بالقاهرة سنه ١٩٧٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ ، ص ١٨٤-١٨٧

(٨) الجبرتى المصدر السابق . الجزء الثالث . ص ١٥٨ ، حكمت أبو زيد . المجتمع القاهرى فى عصر الحملة الفرنسية كما صورة الجبرتى . منشور فى عبد الرحمن الجبرتى دراسات وبحوث باشراف احمد عزت عبدالكريم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ . ص ٣٥١ .

• كان السيد عمر مكرم نقيبا للأشراف فى مصر قبل مجىء الحملة الفرنسية ، فلما جاء الفرنسيون ظهرت شخصيته الكبيرة ونفسيته القوية بما دعا الشعب اليه من التطوع للقتال ، وما بثه فى نفوس الجماهير من روح المقاومة ، وكان فى طليعة المتطوعين للقتال المدافعين عن القاهرة فى وجه الإحتلال الفرنسى ، كما أنه لعب دورا مهما فى ثورة القاهرة الثانية ، فكان روح الثورة وقلبها النابض ، لا تفتر له حركة ولا يخفت له صوت . لمزيد من التفصيل عن هذا الدور ، أنظر . محمد فريد أبو حديد . زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم . كتاب الهلال عدد رقم ٧ ، دار الهلال بمصر ، ديسمبر ١٩٥١ . ص ٨٣ وما بعدها ، عبد العزيز محمد الشناوى . عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية .سلسلة اعلام العرب عدد رقم ٦٧ دار الكتاب العربى للطبع والنشر يوليو ١٩٦٧ . ص٦٧ وما بعدها .

• تجدر الإشارة إلى أن التجار لم ينفردوا بتقديم الدعم المالى للمقاتلين ، بل إننا نلاحظ أن الناس على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية قد قدموا كل ما يملكون من أجل نصرة الوطن والدين. انظر الجبرتى . المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ١٥٨ ، جاد طه . المرجع السابق . ص ص ، ٣٣٧ ، ٣٣٨.

(٩) أندريه ريمون . المرجع السابق . ص ١٧٢

(*) الحاج مصطفى البشتيلى نشأ فى قرية " بشتيل" وهى احدى قرى مركز إمبابة محافظة الجيزة وتبعد عن شاطىء النيل

من جهة إمبابة بحولى ثلاثة كيلو مترات من ناحية الغرب ، واشتغل بالتجارة فى بولاق حتى أصبح من أعيانها

وكبار تجار الزيت فيها ، وقد تكلم عنه الجبرتى لمناسبة اعتقاله قبل حوادث ثورة القاهرة الثانية بعده أشهر ، فذكر

أن الفرنسيين اعتقلوه ثانى ربيع الأول سنمه ١٢١٤ هـ (٤ أغسطس ١٧٩٩م) لما بلغهم من بعض الوشاه أن

بوكالته قدروا مملؤة باروداً ، ففتشوا الوكاله ووجدوا البارود فى القدور ، فضبطوها ، وقبضوا عليه ثم نقلوه الى

القلعة ، ولم يذكر الجبرتى متى أفرجوا عنه قبل نشوب الثورة ، وظاهر مـن منطـق الحوادث أنهم أطلقوا سراحه

بعد ابرام معاهدة العريش (٢٤ يناير سنه ١٨٠٠) لما عزموا على الجلاء فلما نقضت المعاهدة وتجددت الحرب

كان البشتيلى من دعاه الثورة فى بولاق . لمزيد من التفصـيل انظـر . عبـدالرحمن الجبرتى . مظهر التقديس بزوال

دولة الفرنسيس . تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، دار الكتـب والوثـائق القومية ، مركز وثائق

وتاريخ مصر المعاصر ، الطبعة الأولى ، مطبعـة دار الكتـب المصـرية بالقـاهرة ١٩٩٨. ص ١٤٩ ، محمود

الشرقاوى . المرجع السابق ، ص ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، عبدالرحمن الرافعـى . تـاريخ الحركة القومية وتطور نظام

الحكم فى مصر ، الجزء الثانى ، الطبعة الرابعه ، دار المعـارف ١٩٨١ ، ص ١٥٠ ، عبد العزيز عبد الظاهر ،

عزت عبد المنعم غنام . مصطفى البشـتيلى ١٧٩٨– ١٨٠٠ . مراجعـة . عاصـم الدسوقى ، مطبعة جامعة

القاهرة عام ٢٠٠٠، ص ٦

(١٠) أندريه ريمون . المرجع السابق . ص ١٧٢ .

(١١) كان الفرنسيون يستعدون للجلاء عن مصر بعد عقد معاهدة العريش ، لكن حدثت بعد ذلك مفاجآت أدت إلى نقض المعاهدة من جانب الأنجليز ، وبالتالى لم يجد كليبر مفـراً مـن وقف عملية الجلاء ، ثم أسرع فى صبيحة يوم ٢٠ مارس ١٨٠٠ بالزحف على رأس جيشـه لوقف تقدم العثمانيين ، الذين وصلت طلائعهم إلى المطرية على مسافة ساعتين من القاهرة ، فوقعت معركة عين شمس ، وفى هذه الأثناء كانت الثورة قد اشتعلت فى القاهرة فـى يـوم المعركة نفسه أى فى ٢٠ مارس ، فقد سبب سماع صوت المدافع القريب هياج أهل القاهرة . لمزيد من التفصيل عن ثورة القاهرة الثانية . أنظر عبدالرحمن الجبرتى . عجائب الأثار فـى التراجم والأخبار ، الجزء الثالث ، ص ١٥٣ وما بعدها . محمـد فـؤاد شـكري . الحملـة الفرنسية وظهور محمد على ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، دون تـاريخ . ص ٣٣٣ ، عبدالرحمن الرافعى . المرجع السابق ج ٢ ، ص ١٤٩ وما بعدها ، وجيه على أبو حمـزة . القاهرة فى عصر الحملة الفرنسية . رسالة ماجيستير غير منشورة ، بقسم التـاريخ .كليـة الآداب جامعة المنيا عام ١٩٨١ ، ص ٢٢٧ وما بعدها ، د . عصام محمد شبارو . المقاومة الشعبية المصرية للإحتلال الفرنسى والغزو البريطـانى . دار التضـامن للطباعـة والنشـر والتوزيع ، بيروت ١٩٩٢ ، ص ٨٤ وما بعدها .

- الوطاق : فى التركية أوتاق وأوتاغ ، وأوطاق ، والأطاق فى التركية اسم للخيمة الكبيرة المزخرفة تعد للعظماء ، والوطاق فى العربية هو الخيمة والمعسكر المكون من خيام ، لمزيد من التفصيل انظر أحمد السعيد سليمان . تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، دار

المعارف ١٩٧٩ . ص ص ١٩٨ ، ١٩٩ .
(١٢) عبدالرحمن الجبرتى . مظهر التقديس بزوال دوله الفرنسيس . ص ١٧٦ .
(١٣) محمود الشرقاوى . المرجع السابق . ص ١٦٣. وتــذكر المصـــادر المعاصـــره أن الفرنسيين نجحوا فى القبض على مصطفى البشتيلى رئيس الثوار وطلبوا من أتباعه أن يقتلوه " فطافوا به بولاق ، ثم قتلوه بالنبابيت " خضوعا لقوة الفرنسيين وجبروتهم . أنظر الجبرتى ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ ، ويبدو أنهم أرادوا بذلك أن يكون عبرة للمصرين حتى يتوقفوا عن المقاومة لكنه أصبح مثالاً يحتذى به فى البطوله والفداء والتضحية من أجل الوطن .

- خط الخرنفش : منطقة قريبه من شارع المعز لدين الله وهى منطقة عامرة .
- القندقجية : من الكلمة التركية " قونداق " وهى بمعنى القماط وكعب البندقية ، ألحقت بها (جى) اداه النسب إلى الصنعة والقندقجى هو بائع الأسلحة . لمزيد من التفصيل أنظــر أحمــد السعيد سليمان . المرجع السابق . ص ١٧٣ .

(١٤) عبدالرحمن الجبرتى . عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجزء الثالث . حــوادث شهر شوال سنه ١٢١٤ هـ
ص ١٥٧
(١٥) عبدالرحمن الرافعى . المرجع السابق . ج٢ ص ١٥٤ ، د. الســيد رجــب حــراز . المرجع السابق . ص ١٤٠ ، عصام محمد شبارو . المرجع السابق . ص ص ٨٤ ، ٨٥ .
(١٦) نقلا عن عبدالرحمن الرافعى . المرجع السابق . ج٢ . ص ١٥٤ .
(١٧) نقلا عن المرجع نفسه . ص ١٥٤ .
(١٨) نقلا عن آندريه ريمون . المرجع السابق . ص ١٧٥ .
(١٩) نفس المرجع . ص ١٧٥ .
(٢٠) عبدالرحمن الرافعى ، المرجع السابق ج٢ . ١٥٤ .
(٢١) محمد جلال كشك . ودخلت الخيل الأزهر . دار المعارف ١٩٧٨ . ص ٣٣٠ .
(٢٢) نبيل السيد الطوخى . طوائف الحرف فى مدينة القاهرة فى النصف الثانى من القــرن التاسع عشر (١٨٤١ -١٨٩٠) رسالة دكتوراه غير منشورة بقسم التاريخ - كليــة الآداب جامعة المنيا عام ٢٠٠١ . ص١٣
(23) Henery Laurens et Autres, l'Expedition D'Egypte 1798 – 1801, Armand Colin, Paris 1989 .p. 267 .
(٢٤) لمزيد من التفصيل أنظر . نبيل السيد الطوخى . المرجع السبابق ص ص ١٣ ،١٤
(٢٥) محمود الشرقاوى . المرجع السابق . ص ١٤٣ وما بعدها ، أندريه ريمون. فصول من التاريخ الأجتماعى للقاهرة العثمانيه . ترجمة زهير الشايب . كتاب روز اليوسف ، العدد السابع عشر القاهرة يوليو ١٩٧٤ . ص ٢٩٦ .

الفصل الثالث

انتفاضة عبد القادر ود حبوبة ١٩٠٨

قراءة جديدة

عبد الرحمن عوض(*)

قاوم السودانيون الاحتلال الإنجليزي ١٨٨٢- ١٩٥٦ ما وسعهم من مقاومة، وبعد انهيار الدولة المهدية بمقتل الخليفة عبد الله التعايشي وكبار قادته ومعاونيه في أم دبيكرات ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م استطاع الأنصار أن يقاوموا الحكم الثنائي لنصف قرن، فقد اندلعت عدة ثورات شعبية في مناطق مختلفة في السودان ، كان من أخطرها انتفاضة عبد القادر ود حبوبة في ١٩٠٨ . و أقول انتفاضة ولا أقول حركة أو ثورة ، لأنها جاءت وليدة ضغوط محلية طارئة في المنطقة فهب البطل عبد القادر ود حبوبة منتفضاً .

قامت الانتفاضة في منطقة مجلس ريفي المحيريبا (مساحتها كانت أقل من ٤٥٠ ميلا مربعاً) بالقرب من الكاملين بأرض الجزيرة مديرية النيل الأزرق .

كان والد عبد القادر ، محمد أمام إدريس حبوبة (حبوبة أي الجدة) شيخاً للمنطقة وزعيماً لقبيلة الحلاوين (مفردها حلاوى) في العهد التركي . كان يمتلك أراض واسعة بالقرب من المسلمية منذ كان ناظراً لقبيلة الحلاوين (الحلاوين إحدى البطون الكبيرة من قبيلة جهينة من كبرى القبائل العربية في السودان).

تعرف عبد القادر ود حبوبة على الإمام المهدى ، حينما كان المهدى يبنى قبة لأستاذه القرشي الزين في المنطقة الحلاوين (بين المسلمية والكاملين) فكان عبد القادر من بناة هذه القبة ١٨٨٠م (يبدو انه كان شاباً دون الثلاثين من عمره).

ولما قامت الثورة المهدية ١٨٨١- ١٨٨٥ م كان عبد القادر من أوائل

(*) باحث فى تاريخ وادى النيل.

من أيدوها ، واتصل بالمهدى وبايعه على الجهاد والوقوف معه بصلابة. [1]

وقد حضر عبد القادر، معارك المهدية - جميعها - ما عـدا كـررى - وحارب في تلك المعارك بجسارة ، وبعد وفاة المهدى (٢٢ يونيـة ١٨٨٥ م) الذي جعل عبد القادر واحداً من المقربين عنده - لإخلاصه له والثورة المهدية والدولة فإنه ظل على هذه الحال في عهد التعايشى خليفة المهدى ، الذي أصـبح صهراً له[2] .

لم يشترك عبد القادر ود حبوبة في معركة كررى ٤ سـبتمبر ١٨٩٨ ، ربما لأن الخليفة التعايشى رأى أنه رجل المهمات الصـعبه ؛ إذ أرسـله إلـى الجزيرة لحث أهلها على الجهاد وجمع المؤن لجيش الأنصار . وعقـب موقعـة كررى سجن عبد القادر مدة قصـيرة و أطلـق سـراحه ، بعـدها عـاد إلـى المسلمية.[3] ربما كان سجنه لتحريضه على الجهاد .

عندما أرسل الخليفة عبد الله التعايشى حملته إلى مصـر بقيـادة عبـد الرحمن النجومي ، كان عبد القادر من كبار القادة في الحملة ١٨٨٩ م ، وبعـد أن وقع في الأسر ، استطاع النجاة هو وشقيقاه بمسـاعد تـاجر قبطـي يـدعى "بطرس" من أصدقاء والدهم أما والدتهم فقد ماتـت فـي موقعـة توشـكى (٣ أغسطس ١٨٨٩م)[4] .

ويبدو أن عبد القادر ود حبوبة قد أعاد ترتيـب أوراقـه بعـد موقعـة توشكى، التي كاد أن يهلك فيها .

أسباب الانتفاضة : تعزو نوال عبد العزيز مهـدى - اسـتناداً إلـى المـؤرخ السوداني ضرار صالح ضرار - في تاريخه - أسباب الثورة عند ود حبوبـة إلى ظلم الحكم في تسوية أرضه و إعطائه أقل مما يستحق . [5] إلا أننا نختلـف مع وجهة النظر هذه ، التي توعز إلى الأسباب الشخصية أكثر منها إلى أسـباب أخرى .

فقد كان المؤرخ السوداني د. مكي شـبيكة فـي مختصـره اكثـر دقـة وموضوعية ، حينما عزا الثورة لدى ود حبوبة إلى أسباب فكرية حيث يقـول : " وعبد القادر من أولئك الأنصار الذين لم يعترفوا بالفتح (أي بـالحكم الثـنائي ١٨٩٩- ١٩٥٦ م) وما أراد أن يغير نهج حياته المرتكزة على بيعتـة للإمـام المهدى . وفى هذا خالف بقية إخوانه وبنى عمه لأنهم رضوا بـالأمر الواقـع ، وأرادوا أن ينتبهوا لمزارعهم والعيش في أمان تحت ظل الحكومة " [6].

فالثائر ود حبوبة متشبع بالمهدية حتى النخاع ، ومن الناشطين لبعثها في النفوس بعد زوالها ورغم أنه كان واحداً من الذين شهدوا الثورة المهدية والدولة والانهيار ، وخاض كل معارك المهدية ما عدا كرري ، إلا أنــه الوحيــد مــن المحاربين القدماء الذى قاوم الاستعمار الإنجليزي ورفع راية الثورة التــي لــم تستكمل بانتفاضته المشهورة في ١٩٠٨ م في منطقة الكاملين .

وحينما أرادت الحكومة أن تقيم مشروع زراعــة القطــن فــي منطقــة الحلاوين، شعر ود حبوبة بان الحكومة ظلمته في تسوية أرضـــه، بعــد أن ذاق من مرارتها السجن والأسر والاعتقــال، ولــم يفهــم الإنجليــز نفســية هــذا المحارب المخلص للمهدية، ولم يستطع المأمور المصري قراءة الماضي ليتعامل مع هذه الشرارة بالحذر والكياسة المطلوبين. وظنت الحكومة أن عبــد القــادر يريد جاهاً أو سلطان، وأنه حانق لانتقال نظارة الخط مــن آل حبــوب إلــى آل مساعد، وإنها من عوامل ثورته، فلو فعلت الحكومة شيئا من الكياســة لتغيــرت موازين الأحداث. فسخر عبد القادر من مزاعمهم، وقــال انــه يثــور لله وانــه سيموت فداءً لله.(٧)

فعندما شعر عبد القادر بنوايا الحكومة ، رحل من منطقــة " الرواكيــب " الواقعة أمام المحيريبا إلى منطقة " التقر" (٨) وحلف صادقا أن يقتل أي مســتعمر يأتيه فيها ، تحديا للمستعمر وتشجيعاً للسودانيين على الثورة . وقد حاول بعــض زعماء المنطقة أن يثنوه عن عزمه ، خوفاً من أن يؤدى هذا العمل إلى كارثة ، مثل كارثة " عبد الله ود سعد" بمنطقة الجعليين (يقصد بها واقعة المتمة ١ يوليو ١٨٩٧ م التي انتفض فيها عبد الله ود سعد على الخليفة التعايشى ، فقتل فيها ود سعد ونحو ألفين من أتباعه فى مجزرة تاريخيه مشهورة) . لكن عبد القادر كان مصراً على رأيه. (٩)

وعندما علمت الحكومة بنشاط عبد القادر ود حبوبة ، حــاول اليوزباشــي محمد أفندي شريف مأمور المسلمية التفاهم مع عبد القادر ورجاله ، عن طريق عدة خطابات واعطائهم الأمان ، إلا أن عبد القادر كان يعلم أســاليب الحكومــة ونواياها بحكم خبرته وتجاربه الطويلة منذ المهدية ، ورد على خطابات المأمور بخطابين رقيقين .(١٠)

عالجت الحكومة الثنائية الموقف بطريقة سكب " البنزين " علــى النــار؛ إذ أرسلت حملة لإخضاعه بقيادة مونكريف مساعد مفتش رفاعة ، وبعد سلسله من

الأخطاء الفادحة للحملة ، منها غطرسة مونكريف وسوء تقـديره للموقـف ، إذ سب المأمور المصري وشتمه في تلك الأوقـات العصـيبة ، وبعـدها توجـه مونكريف والمأمور معهما الجنود إلى المنزل الذي يتواجد فيه عبد القـادر ود حبوبة ، كان المأمور المصري يخاطبه في البداية في لين شديد : أنه سيحقق له أي مطالب شخصية يريدها ، مما كان لهذه " الرشوة " أثرها في نفسية محـارب قدير . فرد عليه عبد القادر في سخرية مريرة : يـالرخيس ، ظلمتنـي كتيـر وعارفك بتخدع في ، وغايته بعدده أنا زهدت في أي حاجة وكفايـة العـرايض اللي رفعتها ليك يالرخيس . فلم يتمالك المأمور المصري نفسه فقال عبد القـادر في حدة : " أنت لا تساوى شيئا ويمكنني القضاء عليك بعدة طلقـات إن أردنـا ذلك"، فهجم عبد القادر عليه وطعنه طعنة قاتله ، فصـرخ المـأمور صـرخة أخرجت رجال عبد القادر من مكامنهم ، فانقض أحـد أتباعـه علـى المفـتش الإنجليزي وقتله . فثارت ثائرة الحكومة فأرسلت عدة أورط منها واحدة بقيـادة مكوين بك (أورطة ٣) للقضاء على هذه الانتفاضة حتـى اسـتطاع الجنـرال ديكنسون السيطرة على شرارة الثورة . (١١) .

وحينما حاول عبد القادر ود حبوبة التخفي عن أعـين الحكومـة التـي رصدت جائزةً كبيرةً لمن يأتي به حيا أو ميتاً ، طمع أحد الرعاة – مـن غيـر أبناء المنطقة – فى الجائزة ، فقتله ود حبوبة، فتكالب عليه أهل القتيل في أعـداد كبيرة من الرعاة ، و أحاطوا بعبد القادر ، وبعد لأي شديد ألقوا القـبض عليـه وساقوه لمركز الكاملين لتسليمه إلى الحكومة (١٢) .

بعدها أعدمت الحكومة عبد القادر ود حبوبة وبعض رفاقه فـي ١٧ مـايو ١٩٠٨ م وصادرت ممتلكاتهم (خفف عن البعض الحكم لوساطة السيد الإمـام عبد الرحمن المهدى ١٨٨٥– ١٩٥٩م) بعدها قامت وزارة الخارجية البريطانية بالعدول عن قتل الذين لم يشتركوا في قتل المأمور المصري والمفتش (المساعد) وذلك خوفا من ثورة الرأي العام البريطاني .(١٣) (بلغ من جبن المستعمر أنـه سجن أولاد ود حبوبة وهم فى سن الصبا !)

نتائج انتفاضة ود حبوبة : لاشك أن الانتفاضة أكدت أن روح المهدية لم تخمد في النفوس – خاصة نفوس الأنصار – الذين أيدوا انتفاضة ود حبوبة تأييـداً كبيراً دون الجهر به . لعل موقف الأمام عبد الرحمن المهدى يعطينـا مؤشـراً لتلك للمستجدات عند تعليقة على ثورة ود حبوبة قائلا :... وعاش حياته عـامرة بمعاني المهدية ... مستنكراً للحكم الجديد ، وقد التف حوله عدد مـن الأتبـاع ،

وعندما هبّت الحكومة لقمع هذا النشاط ، شب القتال بـين الأنصـار بقيـادة ود حبوبة وجنود الحكومة . وبعد ضياع في الأموال والأنفـس انتصـرت قـوات الحكومة وشنق عبد القادر ود حبوبة ... (١٤) .

ورغماً عما في بيان الإمام عبد الرحمن المهدى من تحسر على ثورة ود حبوبة تصل إلى حد الإدانة (بدافع التقيّة أكثر منهـا بالنيـات) فإنـه آثـر ألا يغضب السلطات الإنجليزية وألا يثير أتباعه الأنصار ، ولعلنا نتعجب من قـول ونجت باشا الحاكم العام للسودان ١٩٠٠ – ١٩١٦ م : أن المهدية لم تمت بـل خنقت وستعاود الظهور متى ما سنحت لها الفرصة . (١٥) قياساً علـى التنديـد الضمني للإمام عبد الرحمن المهدى!

كانت هذه الانتفاضة درسا للحكومة الإنجليزية في السودان ، التي كانت تتوجس خيفة من مجرد قراءة " راتب المهدى " وعبرة لبعض قوى الأنصار من فئة المحاربين القدماء من أصحاب الإمام المهدى ، الذين لم يعوا جيدا الظروف الجديدة في ميزان القوى . وإن كان من النتائج الإيجابية لهذه الانتفاضـة علـى المدى المستقبلي ، مهادنة الاستعمار الإنجليزي للقوى الوطنية خاصة الأنصـار عقب اندلاع الحرب العالمية الأولي ١٩١٤–١٩١٨ م (١٦) .

أما صداها في مصر ، فقد كثفت الصحافة حملتها بالتنديـد بالاسـتعمار الإنجليزي، و أعادت إلى الأذهان حادثة دنشواى ١٩٠٦م ، حتى أطلق عليهـا الشيخ عبد العزيز جاويش ١٨٧٦ – ١٩٢٩م (دنشواى السودان) وان كانت بعض الحملات الصحفية قد تمادت في الأمر بعد توتر العلاقات بين السـلطات البريطانية فى القاهرة والخرطوم (كرومر – ونجت) وفرض الحكومة إعـادة العمل بقانون المطبوعات القديم (الرقابة) فبدلا من متابعة الموقف في السودان، غرقت الصحافة المصرية في مناقشة حرية الصحافة ، ودماء السودانيين الـذي أعدموا لم تجف بعد !

لقد برهنت انتقاضه عبد القادر ود حبوبـة علـى أن ورح المقاومـة لا يمكن كسرها بالعنف والبطش . وان الشعوب قادرة على التصـدى للمسـتعمر مهما كلفها الأمر من تضحيات . ما أغلى نيل الاستقلال.

الهوامش

(١) حركة ود حبوبة ١٩٠٨ – نوال عبدالعزيز مهدى –القاهرة – ١٩٨٤ م ص ١٠
(٢) المرجع السابق ص١٣ .

(٣) تاريخ السودان الحديث – حسن احمد ابراهيم – ص ١١٣.
(٤) المرجع السابق ص ٨٣ .
(٥) حركة ود حبوبة – نوال المهدى – ص ١٥.
(٦) مختصر تاريخ السودان الحديث – د. مكى شبيكة – دار الثقافـــة – بيـــروت – ١٩٦٥ ص١٣٤ .
(٧) نوال مهدى – ص ١٥.
(٨) التقر ، بضم التاء والقاف ، لعلها نوبية الأصل ، وهى تعنى الأرض السفلى .
(٩) نوال مهدى – ص ١٦.
(١٠)المرجع السابق ص ١٦.
(١١)نوال مهدى – ص ١٩ .
(١٢)المرجع السابق ص ٢٠.
(١٣)حسن احمد إبراهيم – ص ١١٣.
(١٤)الإمام عبد الرحمن المهدى – يوسف فضل حسن ، و محمد إبراهيم أبو سليم – مكتبـــة مدبولى القاهرة – ٢٠٠٢م ص ٧ .
(١٥)المصدر – السابق – ص ٦.
(١٦) حسن أحمد إبراهيم – ص ١١٤.

الفصل الرابع

الثورة العربية عام ١٩١٦م
وثمارها الاقتصادية والاجتماعية لبعض العشائر

عبدالعليم أبو هيكل(*)

منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادى بدأت الدولة العثمانية والعرب فى آن واحد البحث عن سبل لإصلاح أحوالهم وتقوية أوضاعهم سواء بالتكاتف فيما بينهم، أو كل باجتهاد أحادى ذاتى منفرد وسط موجات الضغط والزحف الغربى المتلاحق وعلى كافة المستويات الثقافية والاقتصادية والسياسية.

بلغ الانسجام مداه بين العثمانيين والعرب عقب تولى السلطان عبد الحميد مقاليد الدولة، وطرحه قضية الخلافة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر كسبيل لتحقيق أهداف المواجهة ضد الغرب والتصدى له، إلا أن هذه المحاولة حملت فى طياتها وفى ذات الوقت آراءً متعددةً بين أعراق الدولة العثمانية الرئيسة (الاتراك، العرب) بل داخل كل عرق أيضاً.

عقب عزل السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٩٠٨م، حسم رجال الاتحاد والترقى إشكالية العلاقة بين الأتراك والعرب عندما أعلنوا صراحة انفرادهم بقيادة الدولة باعتبارهم ورثة الحكم والأحق به منذ القرن الخامس عشر(١)، ومن ثم بدا أن الفريقين قد افترقا فى طريقهما. وعلى كل منهما البحث عن الكيفية التى يستطيع بها تحقيق طموحه.

أتت هذه التطلعات فى فترة حرجة عالمياً، لم يكن فيه مصير الشرق الأوسط تقرره فقط أطرافه الإقليمية، بل أضحى هدفاً للاقتناص من قبل القوى الأعظم وقتئذ (بريطانيا، فرنسا) على وجه الخصوص واللتان سارتا خطوات متتابعة لتحقيق هذا الغرض منذ القرن الثامن عشر(٢)، وعندما بدت سحب الحرب العالمية الأولى تظهر بالأفق عالمياً بشكل عام، وتحول الشرق الأوسط

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية الآداب - جامعة القاهرة.

إلى قبلة تتهافت نحوها القوى العالمية لتحقيق طموحاتها، وصوبت القوى الأعظم نحوه أسهمها.

أما الدولة العثمانية فقد حاولت، عندما تبين لها العدو من الصديق، جذب العرب إليها وكسب تعاطفهم نحوها، تحت الغطاء الإسلامى وبسبل شتى فى محاولة من الدولة إدماج العرب فى آلة الحرب، أو الاغداق عليهم بالوعود الاستقلالية أو تقديم الخدمات والمساعدات المادية، خاصة صوب الحجاز، كتعبير عملى عن مدى التمسك بأهداف التوجه الإسلامى(٣).

إلا أن العرب رغم تعاطفهم مع الدولة العثمانية، لم يغب عن أفئدتهم المعاملة القاسية لرجال الاتحاد والترقى وتوجهاتهم العرقية، والتى سرعان ما تأكدت عقب فشل حملة جمال باشا على القوات البريطانية عند قناة السويس عام ١٩١٥م، وما أعقبها من انقلاب سياسة هذا القائد التركى من الملاينة وكسب ود العرب إلى العنف والبطش بهم. (٤) كانت تحولات سياسة أحمد جمال تجاه العرب هى القشة التى حسمت العلاقة بين الزعامات العربية وقادة الاتحاد والترقى والموقف إزاء عمليات الحرب العالمية الأولى.

أثناء هذه التحولات فى العلاقة بين الترك والعرب، كانت اليد البريطانية وأعينها تراقب وتتلمس ما يجرى، علها تعثر عما تطمح إليه، لكسب تأييد العرب، ضد الدولة العثمانية علها وقرينتها فرنسا يتمكنان من تحقيق استراتيجيتهما فى القضاء على الدولة ومن ثم بسط الهيمنة على مقدرات المنطقة.

وجدت بريطانيا ضالتها فى الشريف حسين بن على لأسباب عدة أتت فى مقدمتها تطلعات الشريف الذاتية نحو الزعامة، والثقة المفقودة بينه وبين الأتراك بعد تمرس طويل فى العلاقات بينهما، ثم صلاته العربية الوثيقة بزعامات القوى المعنية بالقضية العربية(٥) من هنا بدأت المراسلات المعروفة (حسين / مكماهون) لتكون بمثابة مفاوضات غير مباشرة

للحصول على ثمن للمواقف الخاصة بأطرافها (الأشراف والإنجليز) وتحقيق غاياتهما، وكان الثمن قيام العرب بثورة بزعامة الشريف حسين ضد الدولة العثمانية مقابل التأييد البريطانى لها(٦).

كان الإنجليز يعلمون تماماً إمكانات الإشراف على كافة المستويات المحلية والإقليمية، عكس ما كان يدركه الشريف عن تطلعات الإنجليز، فقد كان

الأول لايملك سوى آمال وطموح نحو الزعامة ظناً منه أن تربعه على كرسـي إدارة الحجاز وأماكنه المقدسة، تمنحانه زعامة وقيادة مؤكـدة للعـرب والعـالم الإسلامى، حتى وافق فى نهاية المراسلات على القيام بالثورة ضد الأتراك مـع وعد من قبل الإنجليز بمساعدته وتقديم العون لـه تبعـاً لمجريـات الأحـداث والتطورات العسكرية للحرب(٧).

لم تكن قوى الحجاز كإدارة وإقليم إلا تركيبة جغرافية بشـرية وطبيعيـة أقل ما فيها أنها متنافرة، كل قطاع حضرى، بدوى، يعمـل لحسـابه الخـاص، ويظل العامل الدينى روحاً وموقعاً هو الرابط الأساسى الذى يلتف حوله الجميع، مقابل ذلك كانت جهود الشريف حسين بن على عندما أخذ علـى عاتقـه القيـام بالثورة، تنصب كلها نحو تحقيق أمل الزعامة وتقلد قيادة مملكة عربيـة، علـى حين كانت الأغلبية الساحقة من القاعدة العربية العريضة منصرفة إلى مشـاكلها اليومية الذاتية، خاصة مع هشاشة قنوات الاتصال بين الحركات الوطنية القومية من جهة والقواعد الشعبية العامة من جهة أخرى(٨)، وكان واقع الحجـاز أشـد وضوحاً فى هذا الاتجاه.

فعلى حين انكفأت جدة على نشاطها التجارى الراكد على البحر الأحمر، واعتمدت مكة المكرمة والمدينة المنورة على ما يأتى إليها قدراً فى موسم الحـج السنوى، بينما استقرت الطائف على كونها مزرعة لبعض الفواكه والمحاصـيل، واستمر النشاط القبلى فى هذا كله على وتيرته التقليدية العتيقة فى الاعتماد على الذات فموطنها ووضعها هو مقدار المساحة التى تمنحها مؤونة يومها المسـتمر من مفهوم البقاء للأقوى فى ظل بيئة قاسـية جغرافيـاً فقيـرة فـى وضـعها الاقتصادى أنانية فى موازينها الاجتماعية. (٩)

أدرك الشريف حسين بن على هذا الواقع جيداً، فاقتنع بحـدود سـلطانه الذى استمر محصوراً عند نطاق المواقع الحضرية المتناثرة فى المدن وبعـض الدور المتناثرة حولها بمدن الحجاز، على حين اسـتمرت الحاميـات التركيـة متقوقعة خارج أسوار ذات المدن ليس إلا (١٠).

عند هذا الأمر لم يبق للشريف حسين حين اتفـق مـع بريطانيـا للقيـام بالثورة عام ١٩١٦م، سوى ما يجود به هذا الواقع الطبيعى والبشرى من القبائل، وهو موقن أيضاً آنئذ أن هؤلاء البدو لن يكونوا طـوع يمينـه إلا بمقـدار مـا يستخلصونه من ثمار مالية أو عينية، ولن يستمروا فى ولائهم وارتباطهم بحركة

الشريف إلا فى الحدود الزمنية التى يستمر فيها عطاؤه إليهم.[11]

أمام هذه المقدرات كانت الهبات (الأموال) هى أبـــرز المعونـــات التـــى قدمتها بريطانيا للشريف، ولم تتفق المصادر على كميتها بشكل دقيق وتراوحـت بين ٥٠٠,٠٠٠ و ٧٦,٠٠٠ جنيهاً استرلينياً. عند لورنس وكلايتون ومكماهون، وإن كان الأخير هو المصدر الأساسى الذى حدد هذه الأموال وقيمتها المتباينيـــة فى رسائله إلى الخارجية البريطانية[12].

كما أشارت بعض الآراء أن بريطانيا لم تقدم المبالغ المطلوبة إلى جهـــة واحدة بل توزعت الأموال بين أعضاء أسرة الشريف حسين.

فعلى حين وافقت الخارجية البريطانية على تقديم عشرة آلاف جنيه إلـــى عبدالله بن الحسين، فقد وعدت بتقديم خمسين ألفاً للشريف الحسين بن على نفسه، شريطة ألا يجرى دفع (المبلغ الكبير) إلا بعد اتخاذ عمل فعلى وقيـــام الثـــورة ا لعربية بصورة عملية مؤكدة[13].

إذا كانت بريطانيا قد اعتمدت فى سياستها على عدم دفع المبلـــغ دفعـــةً واحدةً مما ينبئ عن حرصها أو عدم ثقتها بقدرات الأشراف فإن المبالغ لم تقـــدم أيضاً إلى شيوخ القبائل بشكل فورى كامل بل بـــذات الأســـلوب الـــذى اتبعتـــه بريطانيا.

فأحداث وتطورات الحركة لم تنشب بالحجاز شماله وجنوبه مرة واحـــدة، بل اندلعت فى بقعة فى حدود الموطن الذى كانت تقيم به القبيلة ثم تنتقـــل قفـــزاً إلى منطقة أخرى تالية، كى تتحرك كل عشيرة فى موطن إقامتهـــا بـــدءاً مـــن العاشر من يونية ١٩١٦م معلنة الولاء للأشراف ومحاصرة لبضع عشرات مـــن الجند التركى فى (مظاهرة عسكرية)، ثم يتولى أمر هذا التظاهر قبيلـــة أخـــرى كان فى الغالب إلى الشمال من مكة المكرمة وبمحاذاة ساحل البحر الأحمر[14].

بدأت مفاوضات الاشتراك فى الثورة والتعهد بمساندة الأشراف من قبـــل القبائل، عن طريق صكوك مالية مكتوبة من الشريف حسين أو أحد ولديه فيصل أو عبدالله، إلى شيوخ العشائر، كل على حده، وبنصوص وصيغة واحدة محـــددة متطابقة إلى حد بعيد، تفيد أن على شريف مكة المكرمة تقديم أموال تقابل أعداد أفراد العشائر والتى تحدد تبعاً لما يتطلبـــه إمـــداد الفـــرد بالمؤونـــة والـــذخيرة والأسلحة التى تتكفل بها العشائر، على ألا يتحمل الشريف أية أعباء أخرى فـــى التنقل والحماية الخلفية (المؤخرة) اللهم إلا التوجيه الإدارى والتنظيمـــى للجنـــد

ومواقيت تحركها تبعاً لما يتطلبه الموقف والحالة، بعد أن يستعد المجاهدون، شريطة ألا يكون هناك تصادم أو اعتداء أو خروج من مواطن العشيرة على حساب العشائر الأخرى خشية مغبة ما قد ينتج عن هذه التحركات غير المحسوبة من أضرار فى موارد الرزق والأسلاب التى اعتادت عليها العشائر منذ أمد بعيد(١٥).

فى اليوم التالى لتوقيع هذه الصكوك ٦ رجب ١٣٣٤هـ/٧ مايو ١٩١٦م، وجدت قوائم بالأسماء التى قدمت إليها (المبالغ المتفق عليها) إلا أنه من الملاحظ أن ما قدم إلى شيخ كل عشيرة كان أمراً سرياً لا يعلمه بقية الشيوخ، ربما لسبب جوهرى مفاده الغيرة المتأصلة بين القبائل، ومن ثم خشية المشاحنة فيما بينهم، وأكد ذلك التوجه ما جاء فى صك آخر يؤكد أنه عقب توزيع هذه المخصصات تبعاً للأعداد المشاركة من كل عشيرة سوف تشارك فى المعارك، فسوف يطلع الشريف جميع الشيوخ بما حصلوا عليه (علانية)، و(يتأكدون حينئذ من عدالة الحسين) (١٦).

إلا أن أياً من الوثائق العربية أو البريطانية المتاحة لم يرد بها أو تضم ما يؤكد الوفاء بهذا العهد الذى قطعه الإشراف على أنفسهم أو لأن الشريف حسين بن على قد احتفظ به لنفسه وفقد مع بقية أوراقه.

بلغ عدد شيوخ القبائل التى وقعت على هذه التعهدات المالية سبعة عشر شيخاً منهم على سبيل المثال لا الحصر:

١- الحارث بين سعد الجحدلى.

٢- أسد بن كعب الهلالى.

٣- محسن بن منصور الحربى.

٤- حمدان بن حميد الزيدى.

٥- محارب بن فهد آل عاصم.

٦- حسين بن مبيريك.

٧- سعيد بن متعب الحارثى.

٨- عبدالله بن سمران البقمى(١٧).

إضافة إلى المخصصات المالية، طالب بعض هؤلاء الشيوخ الحصول

على مواقع إدارية معترف بها من قبل الأشراف (حتى يكون هؤلاء الشيوخ – الحكام الجدد – هم يد ورجال الشريف سلالة ابن هاشم في الإدارة وعيونه لضبط أمور الناس وأحوالهم وحاجاتهم المطلوبة من العامة والخاصة على وجه العموم) [١٨].

كان رد الشريف على هذا المطلب هو التساؤل عن الكيفية التى يستطيع بها هؤلاء الشيوخ الجمع بين ما يتطلعون إليه من مراكز ومناصب إدارية وبين مهامهم القبلية وشؤون عشائرهم ومواطن مرعاهم فكان رد هؤلاء الشيوخ ممثلاً فى كل من محارب بن فهد آل عاصم وسعيد بن متعب الحارثى، أن لدى العشيرة القدرة على تنفيذ كل مايوكل إليهم من مهام فى (التعامل مع الناس رعاياهم أو غيرهم من الأعداء والجيران والأصدقاء) [١٩].

كما يبدو أن هؤلاء الشيوخ قد تأثروا بما كان يجرى فى نجد وقتئذ من خطوات لتوطين البدو وتطويع دورهم لصالح توجهات عبد العزيز بن سعود بإقامة الهجر واستقرار البدو بها تحت مسمى (الإخوان)، وذلك بالعمل فى الزراعة والجندية وذلك من خلال تثقيفهم دينياً[٢٠].

ففى رسالة معاصرة لاجتماعات الشيوخ مع الشريف حسين بن على وولديه فيصل وعبدالله، بعث مخلد بن ثامر الروقى العتيبى برسالة إلى الشريف يؤكد فيه على المطالب الإدارية التى نادى بها الشيوخ الذى اجتمعوا به، وأكد مطالبه باستعراض خطوات آل سعود فى القصيم مع القبائل هناك، والثمار الإيجابية والمنافع العامة لكافة (العرب) والبدو وآل سعود على حد سواء، حتى أن (معيشتهم أصبحت رغداً وثبتت أقدامهم وأصبحت كلمتهم مسموعة عند الجميع، فما بالنا لا نقتدى بهم بل أن عربان الحجاز أحق بها مع طرد الترك مع بلداننا ومواطننا) [٢١].

لذا كانت حجة شيوخ العشائر أن مطالبهم الإدارية والسلطات التى يتطلعون إليها مقابل الانضمام للحركة ضد الأتراك، سوف تؤكد أنهم ليسوا أقل كفاءة وقدرة من قبائل نجد وعشائرها والتى سارت قدماً بتوجيه ابن سعود، بل أنها سوف ترسخ سلطة الأشراف وتدعم موقفهم ليس فقط فى حواضر وبادية الحجاز وأماكنه المقدسة، بل فى كافة الديار الإسلامية. [٢٢]

الحديث عن الثورة وتحركاتها السريعة باتجاه شمال الحجاز، تكتظ بها المصادر والمراجع المعاصرة، كما ذكرنا سابقاً، والملفت للانتباه أن مراحل

إنطلاقها فى نطاق الأماكن التى كان يسيطر عليها الإشـراف والتابعـة لإقلـيم الحجاز وهو نطاق حكمهم، لم تستغرق إلا أياماً معـدودات، فلـم يكـن الجنـد الأتراك بالكثافة والإمكانات التى تؤهلهم لمواجهة مثل هذه التحركـات البدويـة خاصة مع خبرة هذا الطرف الأخير لمكنونات وطبيعة المسرح الذى تدور عليه الأحداث، خاصة وقد انطلقت الثورة فى فصل (القيظ - شديد الحـرارة) الأمـر الذى اعتاد معه الجند التركى أيضاً التجمع فى مصيف الحجاز (الطائف)، بينمـا استمرت حامية (المدينة المنورة) بقيادة فخرى باشا تقاوم بفضل (خط سكك حديد الحجاز) شريان الإمداد للقوات التركية مع عدم قدرة البدو على خوض معـارك داخل المدن(٢٣).

لهذا كله لم تقع معارك بين الأتراك وقوات الشريف بالمعنى المعلوم، بل كانت خطوات الثورة مجرد إعلان خلع راية الطاعة للترك ونهب كـل مايقابـل العشائر من أناس غرباء عن مواطنهم أو من مدنى الأتراك ونهبهم خاصة فـى جدة والطائف وحول ينبع، والقنفذة، بل قام بعض البدو بسـلب بعـض المـؤن والذخائر المرسلة من الإنجليز إلى قوات الثورة، قبل أن تصل إلـى المسـؤول عنها (الأشراف)، وفى بعض الأحيان كان الأمير زيد بن الشريف يـتمكن مـن استرداد بعض المنهوبات، كما حدث مع (ابن مبيريك) (٢٤).

لم يأت شهر سبتمبر ١٩١٦م / بداية محرم ١٣٣٥هـ حتى كانت الثورة قد حققت أهدافها بالحجاز وسقطت مدنه حتى شماله بإخراج الأتراك منها حتـى ضُبا وأمُلج، عدا المدينة المنورة.

عادت القبائل وشيوخها إلى سيرتهم الأولى وبدأوا بالخطوات العملية مـع ما تعهدوا به مع الشريف حسين الذى أعلن نفسه ملكاً على البلاد العربية، فـى ذات الوقت الذى بدأت فيه الأموال تلعب دورها، والوظائف الإدارية الموعـودة تنتظر الشيوخ.

فى شهر شوال عام ١٣٣٥هـ/ يوليو ١٩١٧م، صدر أمر شريفى مـن الحسين إلى كل من الشيوخ التالية أسماؤهم ليصبحوا شيوخاً للحـارات قرينـة الأسماء، برواتب محددة، فضلاً عن (عوائد) العمل بـأمر الحـارة، والالتـزام بالإقامة والاستقرار فى الموقع المسندة إليهم إدارتها فى جدة والطـائف ومكـة المكرمة على النحو التالى :

١- حمدان بن حميد الزيدى : شيخاً لحارة المعلا بمكة المكرمة ومكافأة شـهرية

قدرها ١٥٠ ريالاً مجيديا(*).

٢- سعيد بن متعب الحارثى : شيخاً لحارة البخارية بمكة المكرمة ومكافأة شهرية ١٧٠ ريالاً مجيدياً والأخذ بعين الاهتمام والاعتبار أعداد السكان الكبيرة وطوائفها المتنوعة.

٣- صفوان بن محارب آل عاصم : شيخاً لحارة الدعاجين فى الطائف ومكافأة شهرية قدرها ١٣٠ ريالاً مجيدياً على أن توكل إليه أيضاً مهمة حراسة الشوارع المحيطة بحارته والتأكد من نوعية الغرباء عنها.

٤- بريك بن حسين بن مبيريك : شيخاً لحارة السماعية بجدة على أن يعهد إليه ويتولى بشكل خاص مراقبة الطرق المارة عبر الحارة ومدى التزام القوافل بآداب رحلتها والتأكد من السلع التى يحملونها إذا كانت منهوبة أو شرعية.

٥- عبيد بن عبدالله بن سمران : وتوكل إليه شؤون وإدارة حارة الروسان بالطائف إضافة إلى مسؤولية الأمن على الطريق الواقعة بين الطائف ومكة المكرمة والشوارع المؤدية إلى هذه الطرق الرئيسية بما يراه مناسباً لتحقيق وضبط المهمة الموكلة إليه(٢٥).

على أن هؤلاء الذين أوكلت إليهم مهام إدارية كمكافأة لهم مقابل مساندتهم وتعاونهم مع الأشراف فى الثورة العربية، سرعان ما تحولوا تدريجياً، كما بدا وضحاً من الوثائق التى ظهرت، إلى تجار فى ذات المناطق التى تولوا إدارتها.

فعقب حادث المحمل المصرى الشهير عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م(٢٦)، رفع الكثير من تجار مكة المكرمة وجدة والطائف رسائل فى شهر محرم ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م إلى فيصل بن عبد العزيز ووالده يجأرون فيها من حجم ما تعرضوا له من خسائر أصيبوا بها من جراء الفوضى القائمة فى النواحى وإعراض أكثرية الحجيج عن التعامل معهم، وضاعف من الأزمة عدم وجود وفود الحج المصرى بشكل خاص، ومن بين من وردت أسماؤهم من التجار أبناء محارب آل عاصم وآل سمران وآل متعب الحارثى، وطالبوا آل سعود معاونتهم وتقديم النصائح والمساعدة لحل هذه المشكلة التى لا ذنب لهم فيها على حد قولهم، وضياع الأرباح التى جنوها من تجارتهم، مع هيبتهم التى فقدوها فى النواحى التى يتولون إدارتها، والأهم فى ذلك ما سوف يؤثر بالضرورة على مقدار الزكاة التى عليهم أداؤها(٢٧).

الملفت للانتباه كان فى رد ابن سعود على شكاوى التجار، الذى جاء محملاً بعدد من النقاط على النحو التالى :

أولاً : أن هذا الاعراض عن البيع والشراء بشكل واضح منذ فترة وجيزة فرضته أمور خارجة عن إرادة الجميع، فضلاً عن حداثة التعامل بين النجديين والحجازيين وعدم استقرار أوضاع الحجاز وتقرير شكل إدارته. (٢٨)

ثانياً : وهو التوجه الواضح لدى ابن سعود، الذى أعاد إليهم وذكرهم بالكيفية التى حصلوا عليها على هذه الأموال وأنها فى المقام الأول لم تكن من أرباح تجارة اكتسبوها وعملوا بها، بل كانت مجرد (أعطيات) قدمت إليهم من الشريف حسين بن على مقابل التعاون معه ضد الترك، فهم ليسوا من متمرسى التجارة ولا علاقة للتجار بها من قبل، وبمعنى موجز أن ليس لهم الحق فى افتعال ضجيج لأسباب ليسوا هم أهل لها، وأضاف ابن سعود (أن أهل ديرتنا من قبائل نجد والقصيم بشكل محدد الذين رافقونا بالحجاز، عندما علموا بأمر (أغنياء تجار الحجاز) وعلاقتهم بالشريف، فقد كرهوا التعامل (وصكوا) أى (توقفوا) عن التعامل مع أمثالكم). (٢٩)

ثم ارجع ابن سعود فشل هؤلاء التجار فى تنمية وتحريك تجارتهم إلى كونهم فى الأساس شيوخ عشائر وقبائل مهمتهم رعوية وتعاملاتهم مع الرعاة والصحراء فى المقام الاساسى، قبل أن يكونوا تجاراً.

وأخيراً طلب ابن سعود من التجار فى ختام رده على شكواهم القيام بالتعاون مع بقية المسلمين لخدمة دينهم ومواطنهم وإخوانهم، إذا لم يتمكنوا من الاستمرار فى أعمالهم التجارية التى يقومون بها. (٣٠)

أعقب ابن سعود رسالته تلك برسالة أخرى، بعد بضعة أيام وفى ذات الشهر الهجرى انصبت على مهامهم الإدارية التى حصلوا عليها، واستمروا بها عقب إزاحة الأشراف (وما من الله به علينا من نعمة الاستقرار والأمن، بعد الخوف والجزع) وذكرهم أن البيع والشراء فى تجارتهم يعود أساساً إلى انشغالهم فى ذات الوقت بمهام أخرى تكفلوا القيام بها، ولا يستطيعون إلقاء اللوم فقط على "عشيرتنا" - أى أهل نجد - فقد دبروا أحوالهم ورجعوا ديارهم-(٣١).

ثم أضاف ابن سعود فى إشارة أخرى إلى ضرورة الاقتداء بإخوانهم من المسلمين وأخذ العظة منهم، والذين اتبعوا الطريق القويم ولم يسيروا على دروب التجار والشيوخ، ورغبوا العمل فى أنشطة اخرى قريبة مما كانوا يعملونه من

قبل، بجهدهم دون من من أحد ودون أعطيات مقابل جهد لم يبذلوه، فعملوا بالفلاحة والزراعة فى مواطنهم مع ما بأيديهم من (حلال) أى أغنام وابل وخيول-، كما حدث مع إخوان لهم فى الطائف وحول وادى فاطمة وبالغرب من مكة المكرمة أيضاً[٣٢].

هذه الرؤية من قبل ابن سعود إلى تجار وشيوخ الحارات كانت تشير إلى ما كان حادثاً بالفعل وما اتبعه آخرون ساروا فى اتجاه مخالف غير الذى اتبعه الذين امتهنوا التجارة والإدارة، حيث قام بعض الشيوخ بشراء البذور وزراعة ما حول آبار موطنهم، وذلك بهدف الاستقرار وتثبيت أرضهم بانبات المحاصيل، على حد قول ابن سعود، ولم يكن هذا النشاط عند حدود المواطن القبلية بل لما هو مجاور لها، طالما لم يقع اعتداء على أرض العشائر الأخرى، وكانت المساعدات هى نفسها واردة من الأشراف نظير المعاونة ضد الأتراك[٣٣].

بل أضاف ابن سعود أن العمل فى الزراعة سوف يرسخ من سلطة هؤلاء الشيوخ داخل عشائرهم ويضمن لهم إحكام القبضة على تابعيهم ورعاياهم، فضلاً عما سوف يحققه هذا النشاط من مورد مضمون، (لأن الحصول على الغذاء ولقمة العيش لا يستطيع مخلوق أن يجافيه أو يستغنى عنه) [٣٤].

كان البعض من شيوخ العشائر بالفعل قد فضلوا تحويل ما حصلوا عليه من أموال الأشراف، نحو حرفة الزراعة تحت دعوى أنها أسرع فى الأرباح، وسلاح يدعم موقف العشائر فى التشبث بالأرض وملكيتها، فضلاً عن ضمان الغذاء الدائم لهم ولماشيتهم طيلة العام، إضافة إلى أن حرفة الزراعة لا تحتم عليهم ترك الرعى، بل تضاف إليه.

جاء فى صكوك محكمة مكة المكرمة الشرعية أحقية حصول عدد من الشيوخ على مساحات من الأراضى (المشاع) التى هى فى الأساس موطن لمراعيهم، وما يجاورها من أراض لا ينازعهم عليها أحد آخر وبما لا يخلق ضغائن ومصادمات بين قبيلة وأخرى[٣٥].

حدد السجل عدداً من أسماء الشيوخ الذين يحق لهم استزراع الأرض الخاصة بهم والمجاورة لهم التى لا ينازعهم فيها أحداً، بشرط أن يدفعوا للأشراف (جُعلاً) من المال أو المحصول، مقابل تمكنهم من الأرض والانتفاع بهم[٣٦].

أتت بعض الأسماء مدونة بالسجلات على النحو التالى :

١- فيصل بن حمود القرشى : وديرته بمكة المكرمة بموطن عشيرته.

٢- وجدان بن إبراهيم الشيب - وديرته إلى الشرق من مكة المكرمة بموطن عشيرته.

٣- سفيان بن حمود العتيبى ، وديرته إلى الغرب من مكة المكرمة بموطن عشيرته.

٤- محارب بن محمد اللحيان : وديرته إلى الجنوب من الطائف فى موطن عشيرته.

٥- تامر بن فيحان الخالدى : وديرته مجاورة لديرة آل لحيان إلى الجنوب من الطائف.

٦- فيصل بن جمعان الحوطى : وديرته إلى الشمال الشرقى من جدة.

٧- طامى بن مخلد الروللى : وديرته إلى الشمال الشرقى ناحية اليمين من آل الحوطى.

يستدعى الانتباه بعض الملاحظات :

أولاً : أن العديد من العشائر فضل استثمار ما حصل عليه من الأشراف فى الزراعة إضافة إلى التجارة كما سبق أن ذكرنا، وأن حدد موضع الاستثمار بمواطن القبيلة وما حولها إذا لم يتمحض عن هذا الامتداد مصادمات مع العشائر الأخرى والمجاورة[٣٧].

ثانياً : باعتبار أن هذه الأموال التى حصلت عليها العشائر من الشريف مقابل الاشتراك بالثورة ضد الأتراك، فإن المساحات الزراعية التى استزرعت لم تكن محددة بالدونم أو الفدان أو الهكتار مثلاً، بل دونت فى سجلات المحاكم الشرعية بأنها أرض زراعية بمسمى العشيرة ذاتهما (الروقة) البرقى من العتوب مثلاً، الشيبى اللحيانى، البقمى... وهكذا[٣٨].

ثالثاً : كما لوحظ من واقع سجلات المحاكم الشرعية لتلك البلدان وفى ذات الأعوام المذكورة ما بين عامى ١٣٤٦هـ/١٣٤٧هـ (١٩٢٧م/١٩٢٨م) أن المحكمة الشرعية أكدت أن أصحاب تلك الأراضى الزراعية قد أدوا ما عليهم من زكاة شرعية على المحاصيل والدواب وإن لم تحدد الكمية أو النوعية التى قدمت إلى "بيت المال"، وإن كانت على أغلب الظن فى شكل عينى[٣٩].

استهوى هذا التحول الجديد باتجاه العمل الزراعي بتملك الأراضي والانتفاع بها، العديد من الشيوخ بالتوسع أفقياً – أى محاولة استزراع الأراضي المجاورة لموطنهم الأساسي، والاستيلاء على أكبر مساحة متاحة – ولأغراض وأهداف شتى تكمن وراءها الغريزة العشائرية، ولو على حساب بقية العشائر، وتحت دعاوى الانتفاع المستمر منها رعوياً قبل الزراعة ومن ثم الادعاء بالتبعية للعشائر المدعية.

فهناك كم هائل من المشاحنات القضائية الشرعية خلال الفترة من عام (١٣٣٨هـ/١٩١٩م) وحتى أعوام (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) إنصبت كلها حول مشاحنات ومنازعات متصلة بحقوق التملك للأراضى المسموح للعشيرة الامتداد إليها وضمها إلى أفرادها وأبرز الأمثلة على ذلك:

أولاً : النزاع بين محارب بن محمد اللحيانى، وتامر بن فيحان الخالدى الزيدى حول موطنيهما بالطائف وأحقية كل منهما فى مواطن مرعى وزراعة كل منهما حول محصول العنب والخضروات للموسم الجديد القادم ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م، والذى انخرط فيه كافة أبناء العشائر (العياشية) من أتباع ثامر، (والرجبان) من اللحيانية، مما اضطرت معه المحكمة بالطائف فى نهاية المطاف الأمر بتخل كل منهما بترك المساحة المتنازع عليها بينهما كى تصبح مرة أخرى مشاعاً لكافة المسلمين وسقيا الماء. [٤٠]

ثانياً : كما سجلت محكمة جدة الشرعية مثالاً آخر لمثل هذه المنازعات حول الأرض الزراعية، التى تملكها بعض الشيوخ بالمنطقة – كما حدث فيصل بن جمعان الحوطى من جهة، وطامى بن مخلد الروللى فى المنطقة المجاورة لوادى فاطمة[٤١]. إلا أن المحكمة قررت فى نهاية النزاع الذى استمر تبعاً لما جاء بالسجلات ما يزيد على العشر سنوات، بأحقية طامى الروللى بالأرض المتنازع عليها، خاصة وأن عشيرته (السواعية) اتخذت من المنطقة ميداناً لمرعاها منذ (أمد بعيد) وأكد سجل المحكمة رأيه بأن القضاة لم يثبت لديهم استمرارية (بنو جمعان) – الطرف الأول فى تأدية الزكاة المشروعة على تلك المساحة بشكل دائم. [٤٢]

من خلال تلك السجلات أيضاً، خاصة سجل محكمة جدة يمكن معرفة أنواع المحاصيل الزراعية التى كانت تنتجها تلك الأرض المستصلحة وذلك عند تحديد كميات الزكاة الشرعية الواجب إخراجها، فكان الشعير، البرسيم،

الخضروات، العنب والرمان، كلها كانت فى المقدمة. (٤٣)

التحولات الاجتماعية والتجارية

لم تنحسر تفاعلات الاستفادة من أمـــوال الثـــورة العربيـــة عـــام ١٩١٦م والمقدمة إلى شيوخ العشائر عند التحولات فـــى (الوظيفـــة) الحرفيـــة للقبائـــل وشيوخها والتى كانت رعوية فى المقام الأساسى بخلق وظيفة زراعية وتجاريـــة ثم إدارية كى تضاف إلى اهتمامات شيوخ العشائر الأساسية، بل صـــحب هـــذا التحول وبالضرورة ارتقاء فى الوضع الاجتماعى لذات الأشخاص وتابعيهم فـــى آن واحد.

فقد أكدت سجلات محاكم المدن الثلاث جدة ومكة المكرمة والطائف عـــدة حقائق وأوضاع اجتماعية جديدة أضحى عليها هؤلاء الشيوخ من خـــلال عـــدة مظاهر فى أوضاعهم الجديدة فيما يتعلق بالعقارات وعدد الدور وقاطنيها، ثم بعد ذلك تحول طائفة من أبناء القبائل إلى مهن جديدة مارسوها منذ نعومة اظـــافرهم عكس ماكانت عليه مراحل حياة آبائهم، وكانت أبرز هذه المراحل لهؤلاء الأبناء هو الالتحاق بالمعاهد العلمية (الدينية) بالحجاز.

لم يكن لمعظم هؤلاء الشيوخ من مقار ثابتة للإقامة بها، بـــل كـــان جلهـــم مرتبطاً بحركة القبائل بشكل دائم، وفى أفضل الأحوال كان لبعض هؤلاء مقـــار مؤقتة بالمدن الرئيسة بالحجاز، إلا أنه لوحظ قبيل عـــام ١٩٣٠م (١٣٥٠هـــــ) امتلاك هؤلاء الشيوخ لعدد من الدور بذات المناطق التى استفادوا بها تجاريـــاً أو زراعياً أى بالمناطق التى كانت رعوية أو على أطراف المدن القديمة الحجازية، كما دونتها السجلات الشرعية وكانت على النحو التالى:

الاسم	عدد الدور	المدينة	القيمة تقديرياً بالريال
صفوان بن محارب آل عاصم	٣	الطائف	٨٣٠ (٤٤)
مبيريك بن حسين بن مبيريك	٢	جدة	٧٤٥
عبيد بن عبدالله بن سمران	٣	جدة	٧٩٠ (٤٥)
حمدان بن حميد الزيدى	٤	مكة المكرمة	٨٥٠
سعيد بن متعب الحارثى	٥	مكة المكرمة	١٣٠ (٤٦)

كما حددت ذات السجلات عدد المحال المملوكة لذات الأفـراد والسـلع التجارية التى يمارسونها بها أنشطتهم على هذا النحو :

الاسم	عدد المحال التجارية	أنواع السلع	حدود الزكاة المفروضة عليهم عام ١٣٥٠هـ بالريال ١٩٣٠م
صفوان بن محـارب آل عاصم	٧	الأقمشة القطنية والحريرية (هندية ومصرية) الحبـوب (شـعير وعـدس) أوانـى نحاسية. [٤٧]	٨٣٠ريال
مبيريك بـن حسـن بـن مبيريك	٤	الحديد، الورق، العاج، التمر	٧٤٥
عبيد بـن عبـداالله بـن سمران	٦	المأكولات (الجبن) الخبـز، القهوة والشاي، التوابل	٧٣٠[٤٨]
حمدان بن حميد الزيدى	٤٠	البخور، الملابس الحريرية البن اليمني	٥٨٠
سعيد بن متعب الحارثى	٥	الملابس القطنية، التوابـل، البخور، لوزام الحجيج	٦٢٠[٤٩]

حددت بدقة مواقع كل محل بالحارات والشوارع التى كانت مقامة بها من حيث المساحة والارتفاع والمجاورة وأسماء الجيران من الجهات الاربع بما فيها الشوارع المحيطة وقد لوحظ أنها ذات الحارات والمناطق التى تولى بها هـؤلاء الشيوخ أمرها إدارياً، أو هى مواقع المرعى أو الأرض المستزرعة حديثاً كمـا لوحظ أيضاً أن قيمة الزكاة المفروضة، كما جاء فى خانة الملاحظات الإضـافية بالسجلات أن أصحاب المحلات التجارية كانت تحدد نقلاً عن صاحب المحل أى مقدرة ذاتياً، مما يحمل معه إمكانية الزيادة والنقصان لهذا المبلغ المحدد فى العام المذكور ١٣٥٠هـ/ ١٩٣٠، فهو فى النهاية (تقدير ذاتى) ليس له مـن رقيـب سوى الله – على حد تعبير الملاحظات[٥٠].

بعد خمس سنوات ومن واقع السجلات الشرعية أيضـاً لـوحظ ارتفـاع مقدار الزكاة المدونة على أربع من هذه الشخصيات، ولم يرد ذكر على الإطلاق

لشخصية (مبيريك بن حسين) ولا أسباب هذا الانعدام، أو حتى مصير ما كان بحوزته من أملاك أو سلع تجارية، أما الباقون فقد حددت قيمة الزكاة المفروضة على كل منهم فى ذاك العام على النحو التالى :

	مقدار الزكاة بالريال
١- ورثة صفوان بن محارب آل عاصم ويبدو أنه توفى قبل هذا العام وحدد عدد أبنائه بـ (أربعة ذكور وأربع إناث)	١٢٤٠ (٥١)
٢- حمدان بن حميد الزيدى	١١٧٠ (٥٢)
٣- عيد بن عبدالله بن سمران (توفى عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٢) حددت الزكاة على اثنين من أبنائه الذكور وثلاث من الإناث باعتبارهم بالورثة شرعاً	١٣٨٠ (٥٣)
٤- سعيد بن متعب الحارثى	١٠٥٠ (٥٤)

بعد هذا العام ١٣٥٥هـ /١٩٣٤م، لم نستطع العثور على ما حدث بعده بالنسبة لهؤلاء الأشخاص، وربما يرجع ذلك إلى أن عبد العزيز بن سعود فى تلك الفترة أعاد ترتيب بناء دولته وتنظيمه بشكل آخر غير ما كان سائداً فى عهد الإشراف بالحجاز وبالتالى عدم إمكانية تتبع أنشطة ومواقف هؤلاء الأشخاص(٥٥).

ثم أن الكثير من المهتمين بالأنشطة الاقتصادية ركضوا وراء الاكتشافات البترولية فى المنطقة الشرقية من العربية السعودية، وأغلب الظن أن هؤلاء الشيوخ كانوا من جملة السباقين لاغتنام هذه الفرصة.

إلا أنه من المؤكد فى نهاية الأمر أن الثورة العربية ورجالها قد فتحت قناة بأحد سبلها نحو التبدل فى الواقع والتوجه للعناصر التى امتطتها بعيداً عن الأهداف التى كان يتطلع إليها الأشراف سياسياً، وكانت مؤشراً جديداً، قريباً بما جرى فى نجد من إقامة الهُجر ونبت (الأخوان)، ليكون هذا كله إرهاصات للتبدل فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتى بلغت ذروتها بمردود البترول بسلبياته وإيجابياته على مجتمعات شبه الجزيرة العربية والخليج.

الهوامش

(١) الملك عبدالله : مذكراتى، القدس ١٩٤٥م، ص ص ٢٣/٥٥.
(٢) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، ١٩٦٥م.
(٣) سليمان موسى : الحركة العربية ١٩٠٨/١٩٢٤م، بيروت، ١٩٧٧، ص ص ٢٣/٢٦.
وكذلك : جورج أنطونيوس : يقظة العرب، ترجمة ناصر الأسد، بيروت ١٩٦٦، ص ص١٧٩/١٨٥.
(٤) انظر سياسة أحمد جمال فى : مذكرات أحمد جمال باشا، القاهرة ١٩٢٣م.
(٥) الأمير عبدالله بن الحسين : مذكراتى، ص ص ٧٥/٨٠.
(٦) سليمان موسى : المرجع السابق، ص ص ١٥١/١٦٨.
(٧) المرجع نفسه.
(٨) F.O. 88/2/13, Report form Sir. H. Mc Mohon, (The Arab), 15/6/1915.
(٩) Ibid
(١٠) Ibid.
(١١) F.O. 882/18. Report from McMahon (Sherif of Mecca) 123/5/1916.
(١٢) F.O.882/19, Despatch from Sherif of Meca to McMahon, 1915/1916
وهى الرسالة التى أكد فيها الشريف وصول دفعة ثالثة من الأموال قدرها ٣٢٠,٠٠٠ جنيهاً استرلينياً، وأمل الشريف فيها أيضاً بوصول الباقى الذى يترواح ما بين ١٨٠,٠٠٠ و ٤٢٠,٠٠٠ جنيهاً استرلينياً.
(١٣) سليمان موسى : المرجع السابق، ص٢٧١.
(١٤) انظر تفاصيل هذه التحركات العسكرية للثورة بالحجاز فى بعض المصادر والمراجع على سبيل المثال:
١- مذكرات الأمير عبد الله، السابق ذكرها.
٢- سليمان موسى : مرجع سبق ذكره.
٣- أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى، جـ١، جـ٢.
(١٥) تعهد خطى باللغة العربية موقع عليه من قبل كل من شيخ الحجادله، والزيديين (آل زيد) والعواصم (آل عاصم) وسبعة عشر توقيع آخر، ومصدق عليه من الشريف فيصل فى ٦ رجب ١٣٣٤هـ/ ٧ مايو ١٩١٦ F.O.882/16 .

(١٦) دارة الملك عبد العزيز : مجموعة وثائق (أشراف الحجاز)، صك تعهـدى بـين سـيد الأشراف الحسين بن على وكافة الشيوخ المدونة أسماءهم به فى رجب ١٣٣٤هـ/مايو ١٩١٦.

(١٧) أما بقية الأسماء فكانت (محارب بن محمد اللحيانى / سفيان بن حمود العتيبى / فيصل بن جمعان الحوطى / مخلد بن ثامر الروقى العتيبى / ثامر بن فيجان الخالدى الزيـدى / طامى بن مخلد الروللى/ قبيس بن خالد بن شداد الحـوطى / عيسـى بـن راضـى الحربى / فيصل بن حمود القرشى وجدان الشيبى/ محارب السعدى.

(١٨) دارة الملك عبد العزيز : (وثائق اشراف الحجاز) تعهد مكتوب وموقع من قبل محارب بن فهد آل عاصم وأسد بن كعب الزيدانى وسهيل بن عروى الزيدانى ورفاقهم، ومـن الشريف حسين بن على . ١٢ رجب ١٣٣٤هـ/ ١٣ مايو ١٩١٦م.

(١٩) دارة الملك عبد العزيز: وثائق الأشراف، المصدر السابق ١٢ رجب ١٣٣٤هـ/ ١٣ مايو ١٩١٦م.

(٢٠) عبد العليم على أبو هيكل : العلاقات بين عبد العزيز والإخوان ١٩١٢/١٩٣٢م رسـالة ماجستير غير مطبوعة عام ١٩٧٧م – آداب عين شمس.

(٢١) دارة الملك عبد العزيز : وثائق أشراف الحجاز، "مكتوب من مخلد بن ثامر الروقى إلى صـاحب العـزة والشـرف سـلالة بنـى هاشـم – الحسـين بـن علـى، رجـب ١٣٣٤هـ/١٩١٦م.

(٢٢) F.O. 882/37, Despatch from McMahon (Sherif of Mecca, 3/6/1916).

(٢٣) إضافة إلى ما ذكرناه سابقاً عن الثورة بشكل خاص أنظر أيضاً :

١- نورى السعيد : محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربـى فـى الحجـاز وسورية، بغداد، ١٩٤٧م.

٢- على جودت : ذكريات، بيروت ١٩٦٧م.

(٢٤) موسى : المرجع السابق، ص٢٧٩.

(*) ظل الحجاز يتعامل بكم هائل من العملات، كالجنيهات الذهبية الإنجليزيـة والعثمانيـة، والمسكوفى و(البنتو) الفرنسى، وكان أكثرها الريال المجيدى حتى صدر مرسوم ملكى بإمكانية التعامل مع الريال الجديد عام ١٩٣١م والموازى فى حجمه ووزنـه بالريـال المجيدى.

(٢٥) وثائق الحرم المكى بمكة المكرمة : (الأشراف) عام ١٣٣٥هـ رسـالة شـريفية مـن الحسين بن على إلى مشايخ الزيدية وآل مبيريك وآل سمران وآل عاصم وإلـى كافـة

المسلمين، التاسع من شوال ١٣٣٥هـ/١٩١٧م.

(٢٦) تحدثت كافة الكتابات المعنية بتلك الفترة والموقع عن الحادثة ومنها على سبيل المثال : حافظ وهبه : جزيرة العرب ق٢٠ . فؤاد حمزه : قلب جزيرة العرب.

(٢٧) وثائق الحرم الملكى عام ١٣٤٩هـ/ ١٩٢٧م، رسالة موقع عليها من كبار تجار مكة المكرمة وإخوانهم تجار جدة إلى عبد العزيز بن سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها، محرم ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م.

(٢٨) وثائق الحرم المكى : (أوضاع الإخوان الحجازيين) رسالة إلى آل عاصم وآل سمران وغيرهم من تجار الحجاز، ربيع أول ١٣٤٦هـ/ يناير ١٩٢٨م.

(٢٩)المصدر نفسه.

(٣٠)المصدر نفسه.

(٣١) وثائق الحرم المكى : (توجيه إلى عموم المسلمين بأرض الحجاز) ٢٧ ربيع أول ١٣٤٦هـ/ يناير ١٩٢٨م.

(٣٢)المصدر نفسه.

(٣٣)المصدر نفسه.

(٣٤)المصدر نفسه.

(٣٥) محكمة مكة المكرمة الشرعية : سجل رقم ١٣ لعام ١٣٣٤هـ/١٩١٦م.

(٣٦)المصدر نفسه.

(٣٧) وثائق الحرم المكى عام ١٣٣٥هـ/١٩١٦م (مكتوب من مخلد الروقى العتيبى إلى عيسى بن راضى الحربى، عن الكيفية فى التصرف فى القروش المصروفه من الشريف حسين ١٣٣٥هـ.

(٣٨) سجل محكمة مكة المكرمة الشرعية، سجل رقم ٢٢ ربيع الأول ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م. وسجل محكمة جدة الشرعية، سجل رقم ٥٣ جمادى الثانية ١٣٤٨هـ/١٩٢٨م. سجل محكمة الطائف الشرعية، سجل رقم ٧ شعبان ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.

(٣٩)السجلات السابقة للأعوام ١٣٤٨/٤٧هـ/١٩٢٨م.

(٤٠) محكمة الطائف الشرعية، سجلات من رقم ٧ إلى ١١ من أعوام ١٣٤٧هـ إلى عام ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.

(٤١) واد يقع فى نهاية واد آخر أكبر هو وادى السيل، الذى يخترق جبال الحجاز ويصب بالبحر الأحمر جنوبا بالقرب من منطقة تدعى (الخمرة).

(٤٢) سجل محكمة جدة الشرعية رقم ٨٧ لعام ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.

(٤٣)المصدر نفسه.

(٤٤) سجل محكمة الطائف الشرعية : دفتر رقم ١١ (الدور ورعاياها) عام ١٣٥٠هـ/١٩٣٠م.

(٤٥) سجل محكمة جدة الشرعية : دفتر رقم٦٨ (عقارات وأبنية يوجب عليها الزكاة) عام ١٣٥٠هـ/١٩٣٠م.

(٤٦) سجل محكمة مكة المكرمة الشرعية : سجل رقم ٣١ بيان الشيوخ ممن يحق لهم تقديمها لخدمة الحجيج وعليا زكاة مال عام ١٣٥٠هـ/١٩٣٠م.

(٤٧) سجل محكمة الطائف دفتر رقم ١١ .

(٤٨) سجل محكمة جدة الشرعية : دفتر رقم ٦٨ السابق.

(٤٩) سجل محكمة مكة المكرمة الشرعية : الدفتر رقم ٣١السابق.

(٥٠) ذات السجلات السابقة أرقام ١١، ٦٨، ٣١.

(٥٠) السجلات السابقة ذاتها أرقام ١١، ٣١،٦٨.

(٥١) محكمة الطائف الشرعية : سجل رقم ١٩ (الزكاة الشرعية) المقررة عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٤م).

(٥٢) سجل محكمة مكة المكرمة : رقم ٤٧ المصارف الشرعية للأموال ١٣٥٥هـ/١٩٣٤م.

(٥٣) سجل محكمة جدة الشرعية : رقم ٦٩ الزكاة الشرعية عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٤م.

(٥٤) سجل محكمة مكة المكرمة : رقم ٤٧ السابق نفسه.

(٥٥) انظر عن بناء الدولة السعودية (مراحله وخطواته)

عبد العليم أبوهيكل : بناء الدولة السعودية فى عهد الملك عبد العزيز بن سعود ١٩٣٢/١٩٥٣م. رسالة دكتوراة غير منشورة ... هذا فضلاً عدم التنظيم فى تسجيل الأحداث والأوراق لبدائية الإدارة وقتئذ مما يستحيل معه تتبع مثل هذه الموضوعات.

الفصل الخامس

حركة الشيخ عز الدين القسام

عادل حسن غنيم(*)

حركة الشيخ عز الدين القسام هي أول حركة جهادية منظمة حـدثت فـي فلسطين خلال الانتداب البريطاني للبلاد (١٩٢٢-١٩٤٨م). وقد تكونت الحركة خلال النصف الأول من الثلاثينيات من القرن العشرين لكنها خاضت معركتهـا الحاسمة مع الاستعمار البريطاني في ٢٠ نوفمبر ١٩٣٥م. وأقول إنهـا حركـة منظمة لأن هناك شواهد عديدة تدل على ذلك :

أولاً : أن القسام كان يحسن اختيار رجالاته ويختبرهم في بعض المواقف.

ثانيًا : أنه كان يقسم رجالاته إلى عدد من الوحدات العسكرية المتخصصة.

ثالثًا : أنه كان يعد أعضاء التنظيم الإعداد النفسي والبدني الجيد.

رابعًا : أنه كان يستعين في تدريبهم بمتخصصين من ذوي الخبرة في التدريب.

خامسًا : أنه بتوجيه من القسام تمكن أحد رجالاته من صنع قنابـل ألغـام فـي معمـل بحيفا.

وقد يسأل سائل لماذا لم تحدث حركات جهادية في سنوات العشرينيات من القرن العشرين. ولهؤلاء نقول أن ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلـى أن عمليـات الهجرة اليهودية إلى فلسطين كانت قليلة، ففي معظم سنوات العشـرينيات حتـى عام ١٩٣٢ كان عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين لا يتجـاوز العشـرة آلاف وبعض السنوات أقل من خمسة آلاف حتى أنه في عام ١٩٢٧ كان عدد اليهـود الذين خرجوا من فلسطين حوالي ضعف من هاجر إليها، وفي عام ١٩٢٨ كـان العدد متقاربًا، وبدا الأمر كما لو أن تجربة الوطن القومي اليهودي لـن تحقـق نجاحًا.

وإضافة لهذا كانت قيادة الحركة الوطنية في فلسطين طوال العشـرينيات تعتقد أن الصهيونية وليس الاستعمار هي العدو الأول الذي ينبغي على الشـعب

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . كلية الآداب – جامعة عين شمس.

العربي في فلسطين مواجهته، وأنه ينبغي التخلص منها أولاً حتى يمكن التفاهم مع الانتداب، وظلت قيادة الحركة الوطنية في فلسطين طوال تلك السنوات تأمل خيرًا في بريطانيا، وتتوقع منها في نهاية الأمر أن تستجيب لمطالب البلاد وتتخلى عن سياستها التهويدية، غير مدركة لحقيقة العلاقة التي تربط الاستعمار بالصهيونية.

لكنه خلال سنوات النصف الأول من الثلاثينيات حدثت تغييرات هامة، لكنها لم تكن تغييرات في الأهداف السياسية للحركة الوطنية، بل كانت تغييرات في أساليب الحركة الوطنية ووسائلها، فمع تدفق أعداد المهاجرين الصهيونيين إلى فلسطين اعتبارًا من عام ١٩٣٣م أي بعد وصول النازية إلى الحكم في ألمانيا، ومع زيادة امتلاك الصهيونية للأراضي الزراعية، ومع ازدياد نضج عرب فلسطين سياسيًا وإدراكهم لحقيقة الاستعمار وفهمهم لمناوراته وأساليبه، انبعثت الدعوة قوية إلى اتباع سياسة أخرى غير سياسة الاحتجاجات والوسائل السلمية، فقد بذلت محاولات للحفاظ على الأراضي العربية وبناء اقتصاديات البلاد، وأسهم الشباب بدور واضح في ميدان الحركة الوطنية، ونظمت الدوريات لمراقبة الشواطئ منعًا للهجرة غير القانونية، وارتفعت رايات الكفاح المسلح ضد الاستعمار البريطاني، وتشكلت في تلك الفترة جماعات سرية نضالية آمنت بالكفاح المسلح طريقًا لمكافحة الاستعمار والصهيونية، وكان أهم تلك الجماعات جماعة الشيخ عز الدين القسام رائد الكفاح المسلح في فلسطين في وجه بريطانيا.

وأما عن نشأة عز الدين القسام فهو سوري الأصل، ولد في بلدة جبلة التابعة لقضاء اللاذقية عام ١٨٧١م، ونشأ في بيت من بيوت العلم والأدب، وبعد أن درس العلوم الابتدائية أرسله والده إلى الأزهر الشريف حيث تلقى عن الإمام محمد عبده، كما ألم بالتيارات الفكرية التي كانت تموج بها مصر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وتابع الصراع الفكري الذي كان قائمًا في ذلك الوقت بين الأصوليين ودعاة التغريب، كما تعرف خلال وجوده في مصر على النشاط الوطني المعادي للاستعمار البريطاني وعلى الحركة الصهيونية الناشئة، حيث زار مصر أوائل القرن العشرين ثيودور هرتسل مؤسس الحركة الصهيونية، ليدرس مع قادة الاحتلال البريطاني في مصر إمكانية إنشاء وطن قومي لليهود في سيناء. ثم عاد إلى بلده بعد سنوات عديدة، وعكف على التدريس في جامع السلطان إبراهيم بن أدهم. وطبقًا لما ذكره سميح

القاسم فقد حاول الشيخ عز الدين القسام تعبئة الجهود لمقاومة احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى، وقام بحملة تبرعات من أموال الزكاة للإنفاق على احتياجات المتطوعين وأسرهم، واتصل بالسلطات العثمانية التي أبدت ترحيبًا كبيرًا بالفكرة، وطلبت من المتطوعين السفر إلى الإسكندرونة تمهيدًا للانتقال إلى طرابلس الغرب، لكن المتطوعين بعد وصولهم إلى الإسكندرونة والانتظار فيها أكثر من شهر دون جدوى تلقوا الأمر من السلطات العثمانية بالعودة من حيث جاءوا، فبنوا بأموال التبرعات مدرسة لتعليم الأميين، وفي هذا دليل على فهم القسام الجيد لرسالة الإسلام حيث اعتبر محاربة الأمية جهادًا في سبيل الله.

ولم يكتف القسام بنشر العلم بل شارك في حركة الجهاد، فانضم إلى عصبة عمر البيطار، ثم اشترك مع صالح العلي في ثورته ضد الفرنسيين في شمالى سوريا (١٩٢٠-١٩٢١)، وأرسلت إليه السلطة العسكرية رسولاً يعده بتوليته القضاء وبذل العطاء له، فرد الرسول خائبًا مما دفع الديوان العرفي في اللاذقية إلى الحكم عليه بالإعدام. مما اضطر القسام إلى اللجوء إلى حيفا في الخامس من شهر فبراير ١٩٢٢م واستوطن فيها وتولى التدريس في جامع النصر، والخطابة في جامع الاستقلال في حيفا. كما أسس مدرسة ليلية لتعليم الأميين من العرب[1].

وكانت حيفا عندما هبط بها القسام سريعة النمو في عمرانها، فهي مرفأ فلسطين الأول وأقرب مدنها إلى لبنان، وهي بلدة متعددة الأقوام والجنسيات، وهي قاعدة التهويد مما أسبغ عليها حساسية خاصة. ووجد القسام في جمعية الشبان المسلمين التي تألفت في حيفا عام ١٩٢٧ فرصة لتوسيع نطاق علاقاته بالناس، فكان رئيسها وحامل لوائها. ويقول رشيد الحاج إبراهيم " لعل القسام هنا بدأ في ممارسة ما كانت نفسه تتوق إليه، وهو أن ينشئ عصبة بعد عصبة من أهل الإيمان بهدف الثورة يومًا ما " وإذا بالقسام بعد عدة سنوات يكون عصبة سرية كان بعض أفرادها من جمعية الشبان المسلمين وبعضهم الآخر من خارج هذه الجمعية.

أما موضوع جمع المال اللازم لهذه الحركة فكان له مصدران : المصدر الأول هو الاشتراك الشهري الذي كان يسدده الأعضاء وكان جيدًا، وأما المصدر الثاني فكان التبرع الطوعي الذي كان يجرى على أسس العقيدة الإسلامية.

وكان عدد كبير من إخوان القسام ذا وضع مـالي حسـن، فكـان مـنهم المزارع الكبير والتاجر والمقاول، وكانت أرباحهم وفيرة ، وكان العديـد مـنهم يتبرعون بالكثير من الأموال، كما أن بعض الثوار كانوا على صلة حسـنة مـع بعض الأثرياء، فكانوا يحصلون منهم على بعض الأموال طواعيةً[٢].

وكان الشيخ القسام ذا شخصية جذابة، حسن السيرة والمعاشرة، محدثًا لبقًا وخطيبًا بارعًا، وابتدأ بالخروج إلى القرى منذ عام ١٩٣٠م عندما عين مأذونـًا شرعيًا من قبل المحكمة الشرعية فكان بمقتضى هذه الوظيفة يحضـر حفـلات الأعراس، مما أعطاه فرصة للقاء الجماهير، وكان القسام يتصل بسـائر قـوى الشعب لا فرق بين متدين وغيره، اعتقادًا منه أن إصلاح المستهترين أولى مـن إصلاح غيرهم، وكان هذا الأسلوب محـل انتقـاد موجـه إليـه مـن بعـض الشخصيات، حتى أنه جرت بينه وبين بعض المثقفين مناظرات في هذا الصـدد، مثل تلك التي حدثت مع الشيخ صالح الحوراني، فكان يفحم خصومه.

وقد ذكر الكثيرون من إخوان الشيخ القسام أنه كان يراقب المصلين وهـو يخطب فوق منبر المسجد، ويدعو من يتوسم فيه الخير والاستعداد إلى زيارتـه في منزله، وتتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل لإنقاذ فلسطين مما يهـددها مـن أخطار.

وكان القسام يستعين على قضاء حوائجه بالكتمان، فكان لا يبـوح بالسـر الكبير الذي يحمله، وهو الدعوة إلى الثورة لمنع إقامة وطن قومي يهـودي فـي أرض فلسطين إلا لأشخاص قلائل، بعد أن يدرس نفسيتهم دراسة كافية لمدة قـد تطول عدة سنوات. واستمر القسام يعمل بكل الوسائل لتأسيس نواة صالحة مـن عرب فلسطين، يهيئهم للانطلاق في الوقت المناسب نحو الثورة[٣].

وكان القسام يدعو إلى اتحاد الكلمة ولم الشعث وكان يبث روح الوطنيـة في النفوس، مناديًا بالعودة إلى تعاليم السلف الصالح، منددًا بالفرقة منذرًا قومـه بعواقب الشقاق والتمزق[٤]. واتفق مع بعض الخلص من أصدقائه علـى حمـل راية الثورة، وتعاهدوا على أن يقدموا حياتهم فداء على مذبح الـوطن، ليعطـوا لأبناء أمتهم درسًا بليغًا في التضحية[٥].

وكان القسام يقوم بتدريب رجاله في رحلات ليلية، كمـا كـانوا يقومـون بحركات استطلاعية يتمرنون في أثنائها على إصابة الهدف. ولم يكتـف القسـام بخبرته في مجال التدريب، بل استعان بضباط مدربين عديدين كـان أشـهرهم

ضابط تركي له خبرته في هذا المجال، وحدد له راتبًا شهريًا[٦].

وطبقًا لما رواه صبحي ياسين كان القسام يقسم إخوانه إلى عــدة وحــدات عسكرية منظمة: وحدة خاصة بشراء السلاح وأخرى للتدريب العسكري وثالثــة للتجسس على البريطانيين والصهيونيين ورابعة للدعاية للثــورة فــي المســاجد والمجتمعات وخامسة للاتصالات السياسية، وهذا كله برغم إمكانياته المحــدودة ورغم مراقبة السلطة لسائر تحركاته[٧].

وقد ركز القسام اهتمامه بنشر مبادئه بين العمال وَالفلاحين والباعة الــذين كانوا يحضرون دروسه[٨]. كما كان متصلاً بأوساط العمال في حيفــا، وكانــت روحه وعظاته منسجمةً مع فكرة الجهاد حيث تكونــت حولــه حلقــة جهاديــة متدينة[٩].

وكان القسام يلوم العلماء على تهاونهم في الدعوة إلى الجهــاد، وحملهــم مسئولية الوضع الجائر الذي كانت تنوء فلسطين تحت أثقاله، وكان يردد علــى شفتيه في كل مناسبة آيات من كتاب الله تتعلق بالجهاد والاستشهاد[١٠]. ولم يكــن الشيخ القسام بالمتسرع أو المندفع، فقد كان شيخًا وقورًا، كمــا أنــه زوج وأب لبضع بنات وأطفال صغار، وهو فوق ذلك عالم كبير وشيخ جليل ، فهو والحالة هذه، رجل عاقل مسئول يدرك ماذا يصنع ويفهمه كل الفهم[١١]. وكــان القســام يؤمن بأن عرب فلسطين إذا شاءوا أن يحيوا في بلادهم ويدرأوا عنهــا الخطــر الاستعماري والصهيوني، فعليهم أن يبادروا إلى ذلك معتمدين على أنفسهم فقط، غير منتظرين أن تهبط عليهم النجدات من الســماء أو تــأتي إلــيهم مــن وراء الحدود، لأنه كان يدرك أن كل بلد عربي لديه ما يشغله مــن مشاكله الخاصــة أو يمنعه مــن تقديم المساعــدة والعون لعرب فلسطين[١٢].

ويروي صبحي ياسين أنه حدث بعد انتفاضة البراق عــام ١٩٢٩ انقســام داخلي في حلقات الشيخ القسام، فقد انشق عدد من إخوانه علــى رأســهم أبــو إبراهيم الكبير (خليل محمد عيسى) حيث أنهم رأوا أن الوقت قد حــان لإعــلان الثورة، حيث يرون الخطر يهدد كيان البلاد، ولم يكن الشيخ القسام موافقًا علــى ذلك حيث أن الإعداد للثورة لم يكن قد اكتمل بعد.

لكن إبراهيم الشيخ خليل أحد رفاق القسام يؤكد أنه لم يحدث انشقاق علــى الإطلاق بين القسام وإخوانه بل كان الوفاق على أشده، ولــم يحــدث الانشــقاق بمفهومه لا في حياة القسام ولا بعد استشهاده لسبب بسيط جدًا ،وهو أن القســام

كان يدعو إلى الجهاد على أساس ديني، وأن مفهوم الجهاد على أساس ديني لا يوجد به اشكالات أو تعقيدات لأن كل ما يتعلق بالجهاد محكوم بآيات قرآنية معروفة، وأنه كان هناك شعار واحد انضوى الجميع تحته وهو "هذا جهاد، نصر واستشهاد".

ويضيف إبراهيم الشيخ خليل أن ما حدث من خلاف كان بسيطًا حول توقيت إعلان الثورة، ففي أوائل ١٩٣٥ رأى القسام أن الإنجليز يراقبون تحركات الثورة، وأنهم قد يفسدون مخططات الثورة في حالة اعتقال الثوار، وأنه يرى الخروج إلى الجبال والطواف بالقرى لحث المواطنين على الاستعداد للثورة، لكن أبا إبراهيم الكبير وبعض الثوار كانوا يرون التريث في الخروج إلى الجبال مسلحين بل الطواف بالقرى دون سلاح وحث المواطنين على الاستعداد، لكن هذا الخلاف البسيط لم يؤثر على حركة الثوار حيث لبى الجميع النداء عندما حزم القسام أمره على الخروج إلى الجبال، وأرسل أبو إبراهيم ما في صندوق التنظيم من مال وقدره مائة جنيه إلى القسام، وهذا دليل واضح على بساطة الخلاف في هذا الشأن.

وقد ظل أمر هذا الخلاف غير معروف للحكومة أكثر من خمس سنوات، ودل على تقدير رجال هذه العصبة لرسالتهم حتى وان اختلفوا على الوسائل والتفاصيل. وقد ظل المختلفون بعد ذلك يعملون سرًا ضمن مخطط القسام الثوري.

وفي السنوات التي تلت انتفاضة البراق عام ١٩٢٩ كان نفر من الشباب المتحمس من إخوان القسام يرغب في التعبير عن شعور السخط على سياسة تهويد فلسطين بقتل من يمكن قتله من الصهيونيين. وفي عام ١٩٣٣ تمكن أحمد الغلاييني من صنع قنابل ألغام في معمله بمدينة حيفا، وأعطى ما صنع منها وعدده قنبلتان إلى الحاج صالح أحمد طه من قرية صفورية، فكان يذهب في بعض الليالي إلى المستعمرات الصهيونية الواقعة في مرج ابن عامر مع أحمد التوبة ومصطفى على الأحمد ويطلق النار على من يجد من الصهيونيين. وأما بالنسبة للقنبلتين فقد وضع الحاج صالح أول قنبلة منها في مسكن أربعة حراس صهيونيين في مستعمرة نهلال "الواقعة بين حيفا والناصرة" فقتلت القنبلة اثنين وجرحت آخرين، ولم يكشف سر القنبلة إلا بعد ثلاثة أشهر بالرغم من جهود رجال الشرطة. فقد اكتشف الحادث عندما قامت قوة من رجال الشرطة بتطويق قرية صفورية وصادرت بندقية حربية وقنبلة مماثلة للقنبلة التي ألقيت في نهلال

في منزل مصطفى الأحمد الذي استعملت معه سائر وسائل التعـذيب الوحشـية حتى اعترف بالحادث تفصيلاً، فاعتقل أحمد الغلاييني صانع القنبلـة وإبـراهيم أحمد طه وأحمد التوبة وآخرون منهم خليل عيسى "أبو إبراهيم الكبير فيما بعـد" وجرت محاكمتهم حيث حكم على مصطفى علي الأحمد بالإعدام ونفذ الحكم فيه، وحكم بالسجن خمسة عشر عامًا على صانع القنبلـة أحمـد الغلايينـي وبـرئ الآخرون[١٣]. ويروي عجاج نويهض أن الغلاييني بقى في السجن حتـى عـام ١٩٤٤، وأنه تابع نشاطه الوطني بعد الإفراج عنه.

وقد تبع ذلك محاولتان أخريان قام بهما رجال القسام على سبيل التجربـة، الأولى في مستعمرة عتليت عندما فاجأوا الصهيونيين وقتلوا عددًا منهم، والثانية قرب قرية " الياجور " عندما تصدوا لسـيارات كثيـرة كانـت تنقـل العمـال الصهيونيين من مستعمرة إلى أخرى وقضوا على عدد مـنهم[١٤]. وقـد أشـار التقرير السنوي لحكومة الانتداب لعام ١٩٣٥ إلى أن الحكومة كان لـديها شـك كبير في أن لعصابة الشيخ القسام علاقة بالأعمال الإرهابية التي حـدثت خـلال السنوات السابقة[١٥]. وكانت تلك العصبة تعمل في طي الكتمان، فلم يكن يعـرف من كان يقوم بتلك الأعمال غير نزر يسير من الوطنيين، ولكن لم يلبث الشـيخ القسام وعصبته أن قرروا القيام بأعمال الجهاد علانية لرفع معنويات الجمـاهير العربية وإبرازًا للأهداف التي يجاهدون في سبيل تحقيقهـا، وإحباطًـا للدعايـة المعادية التي كانت تحاول إظهار أعمال القساميين بأنها أعمال إجرامية، وأنهـم لم يكونوا سوى عصابة للسلب والنهب[١٦].

فعندما اشتد خطر الهجرة الصهيونية وانكشف أمر تسلح الصهيونيين سرًا بمساعدة السلطات البريطانية، أصبح الوضع السياسي لا يحتمـل مزيـدًا مـن التأجيل، وتقرر البدء بالتحرك من أجل الثورة في الأراضـي الجبليـة، وعقـد اجتماع في مدينة حيفا مركز الثورة الرئيسي في منزل محمود سالم المخزومـي ليلة الثاني عشر من نوفمبر ١٩٣٥[١٧]. وباع أصحاب القسام حلـي زوجـاتهم وبعض أثاثهم، واشتروا بثمنها رصاصًا وبنادق، ثم قصدوا جبال يعبد القريبة من مدينة حيفا ، بل القريبة من مرسى الأسطول البريطاني ، غيـر عـابئين بقـوة بريطانيا المسلحة. وهذا يدل على أن القوم كانوا يعرفون مصيرهم، وأنه الشهادة في سبيل الله[١٨]. ويؤثر عن رجال القسام أن كل واحد منهم كان يحمل في جيبه نسخة من القرآن الكريم الذي اتخذه قدوة لهم[١٩]. وكانوا يرون أن كل السـعادة في بلوغ مرتبة الشهادة والانتقال إلى الحيـاة الأخـرى للتمتـع بمـا أعـده الله

للمجاهدين والشهداء من نعيم مقيم[٢٠].

وطبقًا لما رواه دروزة وهو من أدق المصادر أن عدد الذين خرجوا مع القسام كانوا عشرة، وهم : يوسف الزيباوي (من قرية الزيب)، وحنيفة المصري (من القطر المصري)، ونمر السعدي (من غابة شفا عمرو)، وأسعد المفلح (من قرية أم الفحم)، وحسن الباير (من قرية برقين)، وأحمد عبدالرحمن جابر (من قرية عنبتا)، وعرابي البدوي (من قرية قبلان)، ومحمد يوسف (من قرية سبسطية)، ومحمد الحلحولي (من قرية حلحول) ومعروف الحاج جابر (من قرية يعبد)، وأنهم دعوا إخوانهم الباقين للانضمام إليهم[٢١]. ومروا وهم في طريقهم إلى غابات يعبد بمستعمرة عين حارود، فتعرض لهم حارس المستعمرة الصهيوني فقتله يوسف الزيباوي[٢٢]. وقد روى سكان قرية يعبد حيث كان القسام يرابط بجماعته على مقربة منهم ــ أنهم لم يسألوهم أو يطلبوا منهم شيئًا في يوم من الأيام، بل كانوا يأوون إلى كهوفهم في النهار يصلون ويقرأون القرآن، وفي الليل يخرجون إلى القتال[٢٣].

وقد ذكرت بعض المراجع العربية أن أحد أفراد قوات الأمن ــ وكان معروفا بأنه يعمل جاسوسًا للسلطة المنتدبة ــ علم بالمكان الذي لجأ إليه القسام ورجاله، فدل السلطة عليه[٢٤]. وسارعت السلطة إلى قمع هذه الحركة الخطيرة قبل تفاقمها وأرسلت إلى الأحراش قوة مختلطة من البريطانيين والعرب ــ تساعدها طائرات استكشافية ــ فطوقت العصبة التي لم يكن أمامها بد سوى الدخول في المعركة الحاسمة قبل أوانها، رغم المفاجأة وعدم التكافؤ في القوة[٢٥]. وحين طلب من القسام أن يستسلم أجاب " إننا لن نستسلم. إن هذا جهاد في سبيل الله والوطن " والتفت إلى زملائه قائلاً " موتوا شهداء "[٢٦]. وحين رأى في القوة المحاصرة عددًا من الجنود العرب صاح في رجاله " إياكم ومقابلة رصاص الجنود العرب بمثله .. ولكن عليكم بالإنجليز، فاجعلوهم هدفًا رصاصكم "، وعلى هذه القاعدة دارت المعركة[٢٧]. وبعد قتال استمر عدة ساعات انتهت المعركة باستشهاد الشيخ القسام وعدد من رفاقه وأسر الباقين، وأصدرت السلطة بلاغًا بالحادث نعتت فيه القسام وصحبه بالأشقياء[٢٨].

ويروي التقرير السنوي لحكومة الانتداب لعام ١٩٣٥[٢٩] أن حادث مصرع جاويش من رجال الشرطة كان يقتفي أثر حادث سرقة في تلال الناصرة يوم ٧ نوفمبر هو الذي أدى سريعًا إلى اكتشاف وجود عصابة مسلحة بقيادة الشيخ عز الدين القسام بالقرب من هذا المكان، وأنه بعد هذا الحادث بعدة أيام

وقبيل اكتشاف عصبة القسام قتل أحد عساكر الشرطة بعد تبادل النيران مع أحد رجال القسام الذي قتل أيضًا، وأنه في يوم ٢٠ نوفمبر أطلق عيار مفاجئ على موقع به أحد رجال الشرطة كان يقوم بعملية بحث في التلال الواقعة غرب جنين بعدة أميال، وأدى هذا العيار إلى اكتشاف الموقع الرئيسي لعصبة القسام.

ومن الغريب أن نجد هناك اختلافًا بين المراجع العربية ــ حتى من عاصر منها هذا الحدث ــ في تحديد موعد هذه المعركة وعدد الذين استشهدوا مع الشيخ القسام. فيروي أحد المراجع أن هذه المعركة كانت في يوم الأربعاء الموافق الحادي عشر من أكتوبر ١٩٣٥، وأن عدد الذين استشهدوا مع الشيخ القسام كانوا اثنين فقط هما يوسف الزيباوي وحنيفة المصري، وأن اثنين جرحا هما نمر السعدي وأسعد المفلح، وأن الأحياء قد اعتقلوا بمن فيهم الجرحى، وأن أحد الرجال العشرة الذين خرجوا مع الشيخ القسام استشهد قبل واقعة يعبد بيومين، وأن معروف الحاج جابر لم يشهد المعركة، لكنه اعتقل بعد ذلك وحوكم باعتباره أحد أفراد العصابة[٣٠]. كما يروي مرجع آخر أن هذه المعركة كانت في اليوم الحادي عشر من أكتوبر عام ١٩٣٤ وليس عام ١٩٣٥، وأن الذين استشهدوا مع القسام هما الزيباوي وحنفي، وأن المفلح والسعدي قد جرحا وقبض على الجرحى وعلى الباقين أحياء[٣١]. بينما يروي مرجع ثالث ويتفق معه الأستاذ عيسى السفري[٣٢]. والأستاذ نجيب صدقة في تحديد الموعد[٣٣]. أن هذه المعركة كانت يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٣٤ وأن الذين استشهدوا مع القسام كانوا أربعة لا اثنين وهم الشيخ يوسف عبدالله ومصطفى الزيباوي وحنفي عطية أحمد وأحمد أبو عطية أحمد، وأن الجند قبضوا على الذين ظلوا أحياء من رجال العصبة وهم الشيخ نمر السعدي وداود الخطاب ومحمود الزرعيني ومعروف الحاج جابر وأسعد المفلح وأحمد الحاج عبدالرحمن وعرابي بدوي[٣٤]. ويروي الأستاذ عمر أبو النصر أن المعركة كانت في الثلث الأخير من شهر نوفمبر ١٩٣٥، وأن الذين استشهدوا مع القسام كانوا أربعة هم الشيخ يوسف عبدالله ومصطفى الزيباوي وحنفي عطية أحمد وحمد بو قاسم خلف وأن الذين قبض عليهم من رجال القسام أربعة هم الشيخ نمر السعدي وداود الخطاب ومحمود الزرعيني ومحمود جابر[٣٥].

ويروي صاحب " مجمع الآثار الإسلامية " أن المعركة حدثت يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٣٥ ــ ويتفق ــ معه في تحديد الموعد الأستاذ أكرم زعيتر[٣٦]. وأنها انتهت باستشهاد ثلاثة من رجال الشيخ القسام هم:الشيخ يوسف عبدالله الزيباوي

وحنفي عطية ومحمد أبو قاسم خلف[٣٧]. بينما يروي أحمد طربين المؤرخ السوري المعروف أن المعركة حدثت في نوفمبر ١٩٣٥ وأن أربعة من زملاء القسام استشهدوا وقبض على الباقين، بينما قتل جندي بريطاني وجرح آخران[٣٨]. كما يروي مرجع آخر أن المعركة حدثت يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٣٥[٣٩]. بينما روى أحد المراجع الصهيونية أن جماعة الشيخ القسام نشطت في تلال الجليل في بداية نوفمبر ١٩٣٥، وأن ثلاثة من الجماعة قتلوا مع الشيخ القسام في المعركة، وأنه وجدت فوق جثثهم نسخ من القرآن الكريم[٤٠]. ولكن تتبع الأحداث يؤكد أن هذه المعركة حدثت في الأشهر الأخيرة من عام ١٩٣٥، وبالتحديد في ٢٠ نوفمبر ١٩٣٥، وقد تأكدت هذه الحقيقة من مراجعة الصحف اليومية العربية الصادرة في ذلك الوقت[٤١].

أما عن تحديد عدد وأسماء الذين خاضوا المعركة مع الشيخ القسام، وعدد وأسماء من استشهدوا أو أصيبوا فيها، فهذا أمر ما يزال يحتاج إلى تحقيق لم تتوافر وسائله بعد، وإن كان هناك شبه إجماع بين المراجع العربية على أن من بين من استشهد في هذه المعركة محمد حنفي أحمد (المصري) ويوسف الزيباوي. وهناك اختلاف بين الصحف المصرية حول تحديد اسم المصري الذي استشهد مع القسام حيث تروي جريدة المقطم أن اسمه هو " السيد قاسم المصرى"[٤٢]. بينما تروي جريدة الأهرام أن اسمه " السيد أحمد عطية " من سكان القاهرة، وأنه كان يقيم في حيفا قبل ذلك باثنين وعشرين عامًا، وأنه كان يشغل وظيفة "ورديان" في جمرك حيفا، وأنه كان زوجًا وأبًا لثلاث بنات صغيرات[٤٣]. لكن الاسم الذي ورد في كثير من المراجع هو "حنفي عطية أحمد".

تبقى بعد ذلك نقطة أخرى ما تزال تحتاج إلى تحقيق، وهي ما ذكرته بعض المراجع العربية[٤٤]. من أن القسام كان ينوي احتلال حيفا وإعلان ميلاد ثورة شعبية كبيرة. وإن كنت أرى على ضوء تطور الأحداث أن ذلك لم يكن أمرًا مطروحًا ــ على الأقل في تلك المرحلة ــ وأن تنفيذه كان يحتاج إلى مزيد من الرجال ومن العتاد ومن التهيئة الشعبية اللازمة التي لم تكن قد توافرت بعد بالقدر الذي يجعل هذا الهدف أمرًا قابلاً للتنفيذ في ذلك الوقت.

وقد أثارت هذه المعركة عواطف أبناء فلسطين وألهبت مشاعرهم، فقابلوها بمظاهرة جياشة من الأكبار، حتى خشيت السلطة من ذلك، فسلمت جثث الشهداء لذويهم وأغمضت العين عن الاحتفال بدفنهم[٤٥]. وقد نعي الشيخ عز الدين القسام وصحبه في مآذن المسجد الأقصى ومساجد فلسطين، وصلى الناس

عليهم في كل مكان صلاة الغائب[٤٦]. وسار موكب الجنـــازة مجلــلاً بـــالأعلام السورية والمصرية والعراقية والسعودية واليمنية[٤٧]. وقد حضر الجنازة جمهور كبير من المواطنين، وحيت الصحافة العربية الشـــيخ القســـام كشـــهيد للـــوطن والعقيدة. " أيها الصديق العزيز والشهيد. لقد سمعتك تعظ فوق منصـــة، مســـتندًا إلى سيف، أما اليوم وأنت في جوار الله، فقد أصبحت في مماتك أكثر عظة عما كنته في حياتك "[٤٨]. وقد أغلقت مدينة حيفا في ذلك اليوم، وصلى على الشهداء في المسجد الكبير، وانقلبت الجنازة إلى مظاهرة وأصيب عدد من رجال الشرطة البريطانيين، ولولا أن لزمت السلطة الصمت وسحبت جنودها لتطور الأمر إلـــى درجة كبيرة[٤٩]. وأبت الجماهير إلا أن تشيع الشيخ عز الدين القسام إلى مقـــره الأخير في قرية الياجور التي تبعد عن حيفا نحو عشرة كيلومترات سارتها على الأقدام حاملة نعش الشهيد، فكان مشهدًا رائعًا من مشـــاهد الوطنيـــة الحقـــة[٥٠]. وفطن أهل فلسطين إلى الغرض الذي أراده القسام باستشهاده فاحتفلت حيفا فـــي أوائل يناير ١٩٣٦ بتأبينه وتأبين رفاقه بمناسبة مـــرور أربعـــين يومًـــا علـــى استشهادهم احتفالاً رائعًا[٥١].

وجرت يوم ١٩ أكتوبر ١٩٣٦ محاكمة جماعة الشيخ القسام، فحكم علـــى كل من أحمد الحاج عبدالرحمن وحسن باير وعرابي بدوي بالسجن أربعة عشر عاما مع الأشغال الشاقة، وأسعد المفلح والشيخ نمر السعدي وداود على الخطاب ومعروف الحاج جابـــر بالسجين سنتين[٥٢]. وتضيف بعض المراجع اسمًا آخـــر إلى الذين حكم عليهم بأربعة عشر عامًا وهـــو محمـــد يوســـف، وأن المحكمـــة أوصت بمعاملة المحكوم عليهم معاملة خاصة وأن يعتبر تاريخ سجنهم من يـــوم ٢ مارس ١٩٣٦[٥٣]. وقد أعلن رجال القسام أمام المحكمة والقاضي البريطـــاني أنهم خرجوا لقتال البريطانيين لا اليهود[٥٤].

أما الجاسوس الذي وشى بعصبة الشيخ القسام وهو أحمد نايف، فقد اغتالـــه المجاهدون في حيفا قبيل محاكمة جماعة المجاهدين[٥٥]. وأما الذين ساعدوا فـــي القبض على المجاهدين أو شهدوا زورًا أثناء محاكمتهم، فقد اغتالهم المجاهـــدون في أوائل عام ١٩٣٧[٥٦]. وكان القساميون قد لجأوا في تلك الفترة إلى الاغتيالات الفردية لإرهاب الجواسيس وسماسرة الأراضي، فاغتالوا كثيرين كان في مقدمتهم الضابط حليم بسطة مدير القلم السياسي في شرطة حيفا، وكانوا قد هاجموه فـــي المرة الأولى وأطلقوا عليه الرصاص فجرحوه، فهاجموه بعد ذلـــك فـــي رائعـــة النهار، ورموه سبعة عشر رصاصة استقرت في جسده، ولم يبرحوا المكان حتى

تركوه جثة هامدة، ثم انصرفوا دون أن يتعرض لهم أحد أو تعرف أسماؤهم(٥٧).

وكان لاستشهاد القسام ورجالاته وللرصاصات التي أطلقوها صداها الطيب في نفوس عرب فلسطين، فقد أفهمتهم أن لسان القوة هو اللسان الوحيد الذي يجب أن تخاطب به السلطة المنتدبة، وأن لغة الرصاص هي اللغة الوحيدة التي تفهمها(٥٨). وبرهن القسام على أن الكفاح المسلح والإيمان الوطني الصحيح هما الطريق لمقاومة المستعمر البريطاني والحركة الصهيونية، فاستيقظت فلسطين على استشهاده. ورغم أن المعركة لم تأخذ وقتًا طويلاً، لكن أثرها كان من حيث الروح لا المقدار، ومن حيث الكيف لا الكم. فقد دل القسام الجماهير على الطريق رغم إدراكه لقوة بريطانيا، وقاتل السلطة بعدد قليل من الرجال ليحيى في النفوس روح الثورية(٥٩). وخرج بنفسه في أول معركة ليضرب المثل للجماهير، ويعلم الثوار كيف تكون القدوة الحسنة والنموذج الصالح. وكان ما فعله القسام أبلغ رد على سياسة زعماء فلسطين التقليديين، فلقد ثقف ونظم وقاتل حتى مات شهيدًا، غير آبه لجاه أو زعامة، وكانت سيرته مثلاً للكفاح والفداء، وكان المنهج الذي نهجه يخيف الزعامات، لأنه لا يكشفها فقط، بل يهددها بفقدان زعامتها، لهذا فإن الزعامات حرصت على عدم الاستفادة من الجو المتوتر الذي تولد عن بدء المقاومة، كما أن الزعماء لم يحضروا جنازة القسام، على الرغم من أن أكرم زعيتر ــ من رجال حزب الاستقلال ــ دعا الزعماء إلى الاشتراك في تشييع الجنازة، وكانت البرقيات التي أرسلوها باهتة باردة، ولم يكتفوا بهذا، بل أنهم اجتمعوا بالمندوب السامي قبل أن يمضي أسبوع على وفاة القسام، وقدموا له مذكرة حددوا فيها مطالب البلاد وأعطوه مهلة شهر للإجابة عليها(٦٠).

وبذلك يكون الشيخ القسام أول من عمل عملاً مركزًا للثورة، وزرع بذور الحقد على الاستعمار البريطاني في فلسطين، وترك عشرات من رجاله يقومون بالدور البارز في الثورة التي اندلعت في فلسطين خلال الإضراب الذي بدأ في فلسطين في النصف الثاني من إبريل ١٩٣٦(٦١). والذي كان هذا الحادث من حوافزها النفسية القوية(٦٢). حتى أن بعض المراجع العربية تعتبر أن ثورة ١٩٣٦ قد بدأت يوم خرجت حيفا بشيوخها وشبابها ونسائها تضطرب في موجة حزن، حاملة إعلامها وراياتها مودعة الشيخ القسام وصحبه الشهداء(٦٣). واعتبر مصدر آخر هذا الحدث مقدمة لثورة ١٩٣٦(٦٤).

وقد أزعج القسام السلطة المنتدبة حتى بعد موته، فقد استدعى مدير المطبوعات أصحاب الصحف ورؤساء تحريرها، وحظر عليهم كتابة شيء عن

القسام وهدد بمحاكمتهم وتعطيل صحفهم، لكن السلطة سرعان ما رأت روح القسام تنتشر في الشعب كله خلال الإضراب الكبير الذي حدث بعد استشهاد القسام بعدة أشهر والذي دام ستة أشهر كاملة.

وقد تابع رجال القسام رسالة قائدهم حتى قبيل ثورة ١٩٣٦، ففي اليوم الثاني من استشهاد الشيخ القسام خرج الشيخ فرحان السعدي أحد مريديه مع جماعة من الأنصار إلى جبال صفد ورابط هناك(٦٥). وفي الخامس من إبريل ١٩٣٦ قامت جماعة من إخوان القسام بقيادة الشيخ فرحان السعدي والسيد محمود ديراوي بالهجوم المسلح على السيارات الصهيونية بطريق نابلس — طولكرم، وقتلوا ثلاثة منهم وجرحوا آخرين، واختفوا عن النظار ليعيدوا الكرة من جديد، وأخذت الجماهير تفكر في الثورة المسلحة، وبدأ إخوان القسام من العلماء، يحرضون الشعب على القتال، وكان للعالم الشيخ كامل القصاب وزملائه دور بارز في هذا الصدد(٦٦).

وفي ختام حديثي عن حركة الشيخ القسام، أود أن أناقش ثلاث نقاط هامة هي : هل كانت هذه الثورة تضم قطاعات معينة من المواطنين ؟ وهل استطاعت أن تجند عددًا كبيرًا من المواطنين ؟ وهل كانت هذه الحركة تابعة أو مرتبطة بحزب معين ؟.

أولاً : إن الذي يستوقف النظر في حركة الشيخ القسام أنها اقتصرت على قوى العمال والفلاحين وحدهم، لكن التنظيم استعان بعدد محدود من المثقفين، مثل كامل القصاب الذي كان مستشارًا للتنظيم، وبعض الوجهاء، مثل فرحان السعدي الذي كان من قادة التنظيم، وبعض المدربين من موظفي الحكومة، لكن الغالبية العظمى في التنظيم كانوا من العمال والفلاحين.

ويقال أن أصحاب القسام بعد استشهاده كانوا يأبون انضمام أحد من الأفندية أو غيرهم من الضباط المدربين إلى حركتهم، مفضلين أن يتحملوا وحدهم عبء النضال. ويرجع أمين سعيد ذلك إلى أن القسام كان يرى الخير في أن تكون حركته قاصرة على العمال والفلاحين، لأنهما أخلص القوى وأكثرها انقيادًا واستعدادًا للبذل والتضحية. لكن أحد رفقاء القسام يضيف أن اقتصار الحركة على العمال والفلاحين ربما كانت لمدى معين(٦٧).

ثانيًا : أما عن عدد الذين استطاعت أن تجندهم حركة الشيخ القسام، فهناك شبه إجماع على أن عددهم كان قليلاً عند استشهاده. فقد ذكرت بعض

المراجع أن عددهم بلغ الخمسين[٦٨]. وذكر صبحي ياسين أن بعض إخوان القسام رووا له أن عدد المجاهدين الذين أعدهم القسام للجهاد بلغوا في عام ١٩٣٥ مائتي مجاهد[٦٩]. بينما قدرهم بالمئات أمين سعيد، وقدرهم أحد رفقاء القسام بأن عددهم قد تجاوز المئات وأنه باعتقاده يربو على الآلاف[٧٠]. لكنني أعتقد على ضوء ما توافر لدينا من معلومات أن عدد الثوار الحقيقيين كان قليلاً وربما تعاطف الكثيرون معهم، وأن حركة الشيخ القسام على قلة عدد رجالها وصغر حجم المعارك التي خاضتها خلال عام ١٩٣٥، كانت معنىً أكثر منها كمًا، وكانت رمزًا للحركة الثورية التي ستسود فلسطين بعد عدة أشهر ثم تبلغ أوجها خلال ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩.

ثالثًا : أما بالنسبة لتبعية الشيخ القسام أو ارتباطه بحزب معين، فهناك خلافات متعددة في هذا الشأن. فقد ذكر الأستاذ دروزة أن القسام كان من الذين انتسبوا إلى حزب الاستقلال في حيفا، وأنه كان على صلة وثيقة ببعض أركانه[٧١]. وأنه كان لبعض زعماء الحركة الوطنية صلات مع التشكيلات الجهادية قبل ثورة ١٩٣٦، وأن من هؤلاء أمين الحسيني ومحمد عزة دروزة ومعين الماضي وصبحي الخضرا ورشيد الحاج إبراهيم[٧٢]. بينما ذكرت مصادر الهيئة العربية العليا أن القسام كان عضوًا في لجنة الحزب العربي الفلسطيني التنفيذية، وأنه كان أكثر رجال الحزب العربي الفلسطيني اتصالاً بالمفتي وتعاونًا معه، وأنه انصرف إلى حركته بناء على اتفاق مع رجال الحركة الوطنية وتأييدهم له، وأنه تمت في خريف ١٩٣٥ مباحثات سرية بين القسام وزملائه وبين المفتي ورجال الحركة الوطنية بالقدس، انتهت بالاتفاق على انتهاج خطة معينة في مقارعة الأعداء[٧٣]. وأشارت مصادر أخرى إلى أن القسام لم يكن مؤمنًا بأي حزب، ولم يكن مرتبطًا بأية جهة على الإطلاق، بل ذكر أحد رفقاء القسام أن ارتباطه الوحيد كان بالعقيدة الإسلامية وحدها[٧٤]. بل إن أحد المصادر ذكر أن القسام اجتمع مع أمين الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى حينذاك عدة مرات، طالبًا منه تعيينه واعظًا عامًا متنقلاً، حتى يتمكن من الاتصال بسائر طبقات الشعب في المدن والقرى ومضارب البدو للإعداد للثورة، غير أن أمين الحسيني اعتذر له قائلاً " أننا نعمل لحل القضية سياسيًا " وأن القسام عندما قرر القيام بثورته، أرسل أحد إخوانه (محمود سالم) الملقب بأبي أحمد القسام إلى أمين الحسيني، يخطره عن عزمه القيام بثورة في فلسطين للقضاء على فكرة الوطن القومي اليهودي. وكان ذلك قبل حركة القسام بأشهر قليلة، وأن رسول القسام

اتصل بالمفتي بواسطة الشيخ موسى العزراوي أحد أعوان الحاج أمين وأعلمه برغبة القسام، وهي أن يسرع أمين الحسيني في الإعداد للثورة في جنوب فلسطين، على أن يعد القسام للثورة في شمالي فلسطين، فأجابه الحاج أمين بواسطة العزراوي " أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل، وأن الجهود السياسية التي تبذل تكفي لحصول عرب فلسطين على حقوقهم " ويضيف المصدر نفسه أن القسام كان يقاوم بشدة إنفاق أموال الأوقاف في تشييد الأبنية (فندق الأوقاف بالقدس) وتزيين المساجد بما فيها المسجد الأقصى نفسه، لأن إعداد الشعب للجهاد وتسليحه لخوض المعركة أفضل وأحق من الأمور الشكلية التي يمكن إنجازها في أوقات أخرى أكثر مناسبة، خاصة وأن المبالغ التي أنفقت في ذلك قدرت بمئات الألوف من الجنيهات الإسترلينية التي كان بالإمكان تسليح خمسة آلاف مقاتل بها آنذاك، لكنه لم يؤخذ بهذا القول(٧٥).

وقد تصدت نشرة " فلسطين " التي تصدرها الهيئة العربية في بيروت لهذا القول فنشرت بياناً لإخوان القسام ردوا فيه على ما جاء بالمصدر السابق، وأعلنوا أن الشيخ القسام وجميع إخوانه وزملائه وتلامذته كانوا يعملون بتعاون تام مع مفتي فلسطين وبتفاهم معه، وبتوجيه وتأييد منه وأن الشيخ كامل القصاب كان هو الوسيط الوحيد بين المركز الرئيسي للمجاهدين القساميين وبين المفتي، وأنه كان يسافر إلى القدس بين فترة وأخرى، ويعود حاملاً للمجاهدين التوجيه الوطني والمدد المادي(٧٦).

تلك هي الآراء المختلفة التي قيلت في صدد حركة الشيخ القسام أو تبعيتها لحزب أو اتجاه معين، لكني اعتقد من دراستي لهذه الحركة ومن تتبع أدوارها أنها لم تكن تابعةً لأحد. وقد يكون للقسام علاقات مع الحزب العربي الفلسطيني أو مع حزب الاستقلال، وقد يكون على صلات طيبة مع قيادة الحركة الوطنية، لكن ذلك لا يعني ارتباطه بتلك الأحزاب أو تبعيته لقيادة الحركة الوطنية. والأمر في تقديري لا يحتاج إلى عناء كبير، فحركة الشيخ القسام تقوم على فكرة الجهاد المسلح ضد الاحتلال، وأن القوة وحدها هي التي تستطيع أن تمنع بريطانيا من إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين، ولم تكن الأحزاب ولا القيادات القائمة في فلسطين في ذلك الوقت تؤمن بهذه الفكرة وتدعو إلى انتهاجها. وقد يكون هناك تعاون بين القسام وبين القيادات الوطنية، لكني اعتقد — على ضوء ما توافر لدي من مصادر — أن الحركة لم تكن نابعة من حزب معين، بل كانت منبثقة من إحساس ديني عميق من رجال القسام، وكلهم من الفلاحين والعمال، بالخطر

الذي يهدد حياتهم من جراء استمرار الهجرة الصهيونية إلى فلسطين ونشاط حركة بيع الأراضي، وأن الوسائل السلمية والطرق المشروعة لم تعد تجدي فتيلاً، وأن العمل المسلح وحده هو الذي يستطيع أن يعيد الأمور إلى نصابها.

يبقى بعد ذلك تساؤل هام وهو : هل كان وراء هذه الحركة دافع اقتصادي أم أن هناك دوافع أخرى ساهمت في قيام هذه الحركة ؟ لقد كان للعامل الاقتصادي أثره من غير شك في حدوث هذه الحركة، لكن العامل الديني كان هو العامل الأساسي في قيامها. ويظهر ذلك بشكل واضح من دراسة شخصية الشيخ عز الدين القسام قائد هذه الحركة. فهو شخصية دينية عامة، ورجل ذو مكانة اجتماعية ووضع اقتصادي مستقر، لكن تربيته الدينية وفهمه للإسلام جعلاه رافضًا للظلم مستعدًا لمقاومته، ليس لمجرد المساهمة في تحرير جزء من وطنه، بل تنفيذًا لما أمر به الله سبحانه وتعالى من وجوب الجهاد في سبيله ومقاومة الظلم والظالمين.

ثم نأتي إلى رجالات الشيخ عز الدين القسام، فنجدهم جميعا من الرجال الذين التفوا حوله في المسجد واستجابوا لتعاليمه وعظاته، ولم يكونوا أفقر النماذج الاقتصادية في المجتمع الفلسطيني، فقد كان كل عضو يسلح نفسه على حسابه الخاص ويبذل شيئًا مما يملك لعصبته، لكنهم كانوا في نفس الوقت من الذين يرون الخطر يهدد بلادهم، ويشاهدون الهجرات تتدفق على ميناء حيفا، ويحسون بما ينتظر البلاد من هلاك ودمار، وقد كان هناك على شاكلتهم كثيرون لم يتحول الإحساس بالخطر لديهم إلى تحرك ومقاومة مسلحة. فالعامل الديني أساسًا هو الذي ملأ قلوبهم بالإيمان، وهو الذي حرك فيهم كوامن الغضب، وهو الذي جعلهم يتركون أولادهم وأزواجهم جهادًا في سبيل الله. ومن ناحية أخرى فقد كان الجو السياسي العام في فلسطين في تلك الفترة لا يشجع على قيام تحركات ثورية من هذا النوع، فالقيادة السياسية تؤمن بالنشاط السلمي ضد بريطانيا، والأغلبية العظمى من عرب فلسطين تستجيب لهذه القيادة، حتى وإن لم يصادف ذلك ميولها، لكن العامل الديني هو الذي دفع رجال هذه العصبة إلى الخروج على هذا الإطار الذي كان يحدد مسار الأحداث السياسية في فلسطين في ذلك الوقت، وإلى رفع شعار الثورة المسلحة تحريرًا للبلاد ومقاومة للانتداب والصهيونية.

ولعلنا في نهاية هذا البحث نستطيع أن نتحدث عن القيمة التاريخية للشيخ عز الدين القسام :

أولاً : أنه من الشخصيات القيادية القليلة في تاريخنا العربي الحديث والمعاصر الذي تتمثل فيه فكرة استمرارية النضال، فخلال العقد الثاني من القرن العشرين عبأ الجهود لمقاومة الاحتلال الإيطالي لطرابلس الغرب. وخلال العقد الثالث كان من أوائل الذين حملوا السلاح وشاركوا في المقاومة ضد القوات الفرنسية. وخلال العقد الرابع نظم حركة المقاومة في فلسطين، وقاد أول معركة مسلحة ضد القوات البريطانية واستشهد خلالها.

فهو شخصية تتمثل فيها فكرة النضال الشعبي المستمر أو استمرارية الثورة.

ثانيًا : أن القسام قيادة تتمثل فيها الأبعاد الوطنية والعربية والإسلامية، فكفاحه ضد الفرنسيين في سوريا وضد البريطانيين في فلسطين هو كفاح من أجل تحقيق الاستقلال الوطني، وحرصه على أن يضم إلى قيادته بعض الشخصيات العربية يمثل لنا البعد العربي في القيادة وحرصه على وحدة هذه الأمة، وأما البعد الإسلامي فيتمثل في فهمه الصحيح للإسلام وقناعته بأن الجهاد فرض عين على المسلمين بما فيهم علماء الدين.

وأما عن أهم نتائج حركة الشيخ عز الدين القسام، فيمكننا أن نجملها فيما يلي :

أولاً : أنها مهدت لثورة ١٩٣٩/٣٦ التي استمرت حوالي ثلاث سنوات وكان من أبرز إنجازاتها تأجيل مشروع تقسيم فلسطين عشر سنوات كاملة. وهناك شبه إجماع من المؤرخين على أن حركة القسام كانت المقدمة الطبيعية للثورة.

ثانيًا : أن الحركة قدمت الكثير من الرجال الذين لعبوا دورًا هامًا في ثورة ٣٦-١٩٣٩، وكانوا يمثلون قيادات المناطق خلال المرحلة الأولى من الثورة التي كان يقودها رسميًا فوزي القاوقجي ، كما كان الكثير منهم من قيادات المرحلة الثانية.

الهوامش

(١) إبراهيم عيسى المصري : مجمع الآثار العربية ورجال النهضة الفكرية، الجزء الأول، ص١٥١،١٥٢؛ صبحي ياسين : الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص١٩،٢٠؛ عمر أبو النصر : الثورة العربية الفلسطينية، الجزء الأول، ص٢٧؛ سميح حمودة، الوعي والثورة، الطبعة الثانية، الأردن، دار الشروق للنشر والتوزيع، ١٩٨٦م، ص٢٢، ٢٤، ٢٥.

(٢) الأنوار : العدد ٦٠٩، ٦آب، ١٩٦١، ص١٣، مقال لعجاج نويهض؛ شئون فلسطينية، مارس ١٩٧٢، رسالة من مجاهد قديم (إبراهيم الشيخ خليل)، ص٢٦٧-٢٦٩.

(٣) صبحي ياسين : مرجع سابق، ص٢٠-٢٢؛ سميح حمودة : مرجع سابق، ص٥٠.
(٤) عمر أبو النصر (وآخرون) : جهاد فلسطين العربية، ص٢٧٠، ٢٧١.
(٥) عيسى السفري : فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، ص٢٣٨.
(٦) محمد نمر الخطيب : من أثر النكبة، ص٨٧، ٨٨؛ شئون فلسطينية، مارس ١٩٧٢، مرجع سابق.
(٧) صبحي ياسين : مرجع سابق، ص٢٣.
(٨) أمين سعيد : ثورات العرب في القرن العشرين، ص١١٧.
(٩) محمد عزة دروزة : حول الحركة العربية الحديثة، الجزء الثالث، ص١١٦.
(١٠) الرابطة العربية : السنة الأولى، العدد ١٧، ١٦ سبتمبر ١٩٣٦، ص٢٤.
(١١)اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة : عن ثورة فلسطين ١٩٣٦، ص٤١، مقال لمحمد على الطاهر.
(١٢) الأنوار : المرجع والصفحة السابقتان؛ شئون فلسطينية، مارس ١٩٧٢، مرجع سابق.
(١٣) صبحي ياسين : مرجع سابق، ص٢٦، شئون فلسطينية، المرجع السابق.
(١٤) الأنوار : المرجع والصفحة السابقتان.
(١٥)Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine and Trans-Jordan for the Year 1935, p. 6.
(١٦) إميل الغوري : المؤامرة الكبرى : اغتيال فلسطين ومحق العرب، ص٧٦، ٧٧.
(١٧) صبحي ياسين : مرجع سابق، ص٢٥، ٢٦.
(١٨) اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة : المرجع والصفحة السابقتان.
(١٩) الرابطة العربية : السنة الأولى، العدد ٢٤، ٤ نوفمبر ١٩٣٦، ص٢٢، مقال لعبدالله مخلص.
(٢٠) الرابطة العربية : السنة الثانية، الجزء ٩٦، ٢٠ إبريل ١٩٣٨، ص٢٤، مقال لأمين سعيد بعد زيارته لفلسطين.
(٢١) محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص١١٦.
(٢٢) الأنوار : مرجع سابق،
(٢٣) الرابطة العربية : السنة الأولى، العدد ١٧، ١٦ سبتمبر ١٩٣٦، ص٢٥.
(٢٤) فلسطين : العدد الثالث، ١٥ آذار ١٩٦١، ص١٠.
(٢٥) محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص١١٦.
(٢٦) ناجي علوش : المقاومة العربية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨، ص١٠٣.
(٢٧) اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة : المرجع والصفحة السابقتان.

(٢٨) أكرم زعيتر : القضية الفلسطينية، ص٩٧، ٩٨.
(٢٩)انظر الهامش رقم ١٥.
(٣٠)محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص١١٦.
(٣١) الأنوار : مرجع سابق.
(٣٢) عيسى السفري : مرجع سابق، ص٢٣٨.
(٣٣) نجيب صدقة : قضية فلسطين، ص١٧١، ١٧٢.
(٣٤) أمين سعيد : مرجع سابق، ص١١٧.
(٣٥) عمر أبو النصر (وآخران) : مرجع سابق، ص٢٧١، ٢٧٢.
(٣٤) أكرم زعيتر : مرجع سابق، ص٩٧، ٩٨.
(٣٧) إبراهيم عيسى المصري : مرجع سابق، ص١٥٢.
(٣٨) أحمد طربين : محاضرات في تاريخ قضية فلسطين، ص١٦٨.
(٣٩) أميل الغوري : مرجع سابق، ص٧٧.
(٤٠)Esco : Palestine : A Study of Jewish, Arab, and British Policies, vol. II. P. 784.
(٤١) الأهرام : ٢٢ نوفمبر ١٩٣٥، ص٧، المقطم : ٢٢ نوفمبر ١٩٣٥، ص٥.
(٤٢) المقطم : المرجع والصفحة السابقتان.
(٤٣) الأهرام : ٢٢ نوفمبر ١٩٣٥، ص٦.
(٤٤) صبحي ياسين : مرجع سابق، ص٢٨، ناجي علوش : مرجع سابق، ص١٠٤.
(٤٥) محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص١١٦، ١١٧.
(٤٦) المقطم : ٢٣ نوفمبر ١٩٣٥، ص٥.
(٤٧) الأهرام : ٢٢ نوفمبر ١٩٣٥، ص٧.
(٤٨)The Secretary of State for the Colonies : Palestine Royal Commission. Report, p. 88.
عيسى السفري : مرجع سابق، ص٢٣٨.
اللجنة الفلسطينية العربية بالقاهرة : مرجع سابق، ص٤١، ٤٢، وصبحي ياسين، مرجع سابق، ص٢٩.
عمر أبو النصر (وآخران) : مرجع سابق، ص٢٧٢.
عيسى السفري : مرجع سابق، ص٢٣٨.
الرابطة العربية : السنة الأولى، ٤ نوفمبر ١٩٣٦، ص٢٢، مقال لعبدالله مخلص؛ صبحي ياسين : مرجع سابق، ص٢٨.
محمد نمر الخطيب : المرجع السابق، ص٨٨.
فلسطين : العدد الثالث، ١٥ آذار ١٩٦١، ص١٢؛ الرابطة العربية : السنة الأولى ، ١٦

سبتمبر ١٩٣٦، ص٢٤، ٢٥.

اللجنة الفلسطينية العربية بمصر : بيان إلى العالم الإنساني عن حالة المعتقلين بجوار عكا، ص٦.

الرابطة العربية : السنة الثانية، الجزء ٩٦، ٢٠ إبريل ١٩٣٨، ص١٥، مقال بقلم أمين سعيد. زيارة له لفلسطين.

أمين سعيد : مرجع سابق، ص١١٨.

الأنوار : مصدر سابق.

ناجي علوش : مرجع سابق، ص١٠٤.

صبحي ياسين : مرجع سابق، ص٢٩.

محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص١١٧.

عمر أبو النصر (وآخران) : مرجع سابق، ص٢٧٣-٢٧٥.

أكرم زعيتر : مرجع سابق، ص٩٧، ٩٨.

الرابطة العربية : السنة الأولى، ١٦ سبتمبر ١٩٣٦، ص٢٥.

صبحي ياسين : مرجع سابق، ص٢٩، ٣٠.

الرابطة العربية : السنة الثانية، الجزء ٩٦، ٢٠ إبريل ١٩٣٨، ص١٤، ١٦، مقال لأمين سعيد؛ شئون فلسطينية، مارس ١٩٧٢، مرجع سابق.

محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص١١٦.

صبحي ياسين : مرجع سابق، ص٢٣.

الرابطة العربية : مرجع سابق، ص١٤؛ شئون فلسطينية، مارس ١٩٧٢، مرجع سابق.

محمد عزة دروزة : مرجع سابق، ص١١٦.

محمد عزة دروزة : من رسالة منه إلى الباحث مؤرخة في ١٤ أغسطس ١٩٦٤.

فلسطين : العدد الثالث، ١٥ آذار ١٩٦١، ص١٠.

الأنوار، المصدر السابق؛ شئون فلسطينية، مارس ١٩٧٢، مرجع سابق.

صبحي ياسين : مرجع سابق، ص٢١، ٢٢.

فلسطين، مرجع سابق، ص٢٥، ٢٦.

الفصل السادس

الثورة من أزمة نادي ضباط الجيش حتى اجتماع لجنة القيادة الأخير

١٩ أكتوبر ١٩٥١ – ظهر ٢٢ يوليو ١٩٥٢

فطين أحمد فريد[*]

تمهيد

كان سردار الجيش المصري وهو بريطاني الجنسية يسكن فيلا فاخرة على الطراز الإنجليزي بحي الزمالك تحيط بها عدة أفدنه من المروج الخضراء، مما تزيل عن ساكنها أي إحساس بالغربة وتذكره دائماً بالريف الإنجليزي ، وهي ذاتها الفيلا التي كان في طريقه إليها السردار "لي ستاك باشا" في ظهر يوم ٢٥ نوفمبر عام ١٩٢٤ حين اغتاله جماعة من الثوريين المصريين بعد خروجه من وزارة الحربية بشارع الفلكي .[1]

وبعد معاهدة عام ١٩٣٦ وإلغاء منصب السردار ، كان آخر من غادر هذه الفيلا السردار الفريق سبنكس باشا لينتقل إلي المستعمرة التي شيدها لنفسه في ظلال أهرام الجيزة ، وتعود الفيلا ومروجها إلي أصحابها ، ويقام على مروجها ناد لضباط الجيش المصري عام ١٩٣٨ وتضم إليه الفيلا التي استضافت لعدة سنوات الاتحاد المصري الإنجليزي ثم اتسعت عمارته على النحو الذي نراه اليوم والذي شهد في الأسبوع الأخير من عام ١٩٥١ معركة بل أزمة كبري لانتخاب أعضاء مجلس إدارة النادي ، وهي في العادة حادث عابر ما كان ليدخل التاريخ لولا الملابسات السياسية التي أحاطت به والنتائج بعيدة المدى التي تمخض عنها.[2]

وقد يبدو للقارئ أن قضية انتخابات نادي الضباط مسألة تافهة لا تحتاج حتى للالتفات إليها ، ولكن من يتعمق وراء هذه القضية يدرك أنه كانت تكمن

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد – جامعة قناة السويس.

فيها قوة الضباط الأحرار كتنظيم له كيان . لقد كانت انتخابات نادي الضباط هي المحك الذي أظهر قوة تنظيم الضباط الأحرار ، إذ تكتل التنظيم حول مرشحين معينين ونجح في جعلهم يفوزون بالعضوية في مجلس إدارة النادي، كما ساند التنظيم اللواء محمد نجيب ليفوز برئاسة مجلس إدارة النادي ، ولم يرشح من الضباط الأحرار سوي خمسة ضباط فازوا بالعضوية في مجلس إدارة النادي.[3]

ويكفي لتوضيح الأهمية التي أسفرت عنها هذه المعركة قول اللواء محمد نجيب – وكان الشخصية الأولي فى هذه الملحمة – "إن انتخابات نادي الضباط كانت هي فعلاً الثورة وعندما يكتب التاريخ الحقيقي لثورة ٢٣ يوليو سوف يقرر المؤرخون أن الملكية قد انتهت فى مصر بعد انتخابات نادي الضباط" . [4]

من هذه الكلمات الموجزة يمكننا أن ندرك كيف أن انتخابات نادي الضباط حينذاك قد اعتبرت عاملاً مؤثراً فى تطور الأحداث التي تلاحقت بعد ذلك وانتهت بنجاح تنظيم الضباط الأحرار ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من السيطرة على قيادة الجيش.

الدعوة لاجتماع الضباط

كان لابد من صدور لائحة تنظم شئون النادي ، ومن ثم صدرت أول لائحة له في عام ١٩٤١ ، قامت إدارة الجيش بصياغتها ، ولم تراع فيها مصلحة الضباط بقدر محاولة سيطرة رئاسة الجيش على شئون النادي. [5]

وكان من المفروض أن تقوم سلطة عليا للنادى تتمثل في الجمعية العمومية التي تمثل مجموعة من ضباط الجيش بالأسلحة المختلفة ، ومن ثم عملت إدارة الجيش علي السيطرة علي هذه الجمعية عن طريق تعيين أعضائها بواسطة قادة الأسلحة، بدلاً من إجراء انتخابات عامة لها ، وعن طريق الحد من عدد الجمعية العمومية بحيث لا تمثل إلا نسبة ضئيلة جداً من مجموع ضباط الجيش • ولم تكتف رئاسة الجيش بهذه السيطرة، بل امتدت إلي إدارة النادي. كان من المفروض أن تقوم الجمعية العمومية للنادي بانتخاب مجلس إدارة النادي، ولكن إدارة الجيش دأبت علي أن تشكل بمعرفتها مجالس إدارات من الأسلحة المختلفة، تقوم رئاسة الجيش بتعيينهم بين حين وآخر ، وتغييرهم من وقت لآخر دون أية ضوابط أو روابط.[6]ولم يكن هذا الوضع مع ما فيه من شذوذ من حيث قوانين الأندية المتعارف عليها مثاراً لخلاف أو جدل،

حتى بدأ اهتمام الجيل الجديد من ضباط القوات المسلحة بشئون الوطن السياسية وانفعاله بما يجري حوله من أحداث ذات طابع قومي وهي أحداث زخر بها عام ١٩٥١ .

وفي ١٥ سبتمبر عام ١٩٥١ عاد الملك فاروق من رحلته الترفيهية إلي جزيرة كابري الإيطالية ، وقبل عودته بأيام استقبل شيخ الأزهر عبد المجيد سليم بسبب نقده لسياسة الحكومة التي لخصها في جملة أصبحت متداولة علي الألسن هي : "تقتير هنا وتبذير هناك "وكان يشير بذلك إلي رحلة كابري وحياة البذخ والإسراف التي كان يعيشها الملك والتي كانت أخبارها شائعة، وكانت تلمح بها بعض الصحف والمجلات، نقلا عن وسائل الإعلام الأجنبية ، فضلاً عن ذلك فإن الأفكار كانت مهيأة لهزة سياسية بسبب ما كان يؤخذ علي وزارة الوفد .[7]المؤيدة بأغلبية جماهيرية من انحرافات، ضمنتها عريضة الأحزاب المعارضة التي رفعتها إلي القصر في تاريخ سابق ، غير أن المهادنة بين القصر وحزب الأغلبية لم تدع فرصة لإحداث أي تغيير في المسيرة ، في الوقت الذي بدأت تتبلور فيه التنظيمات السرية للضباط الأحرار والتي أخذت فيه المنشورات السرية التي تصدرها تثير علامات الاستفهام أو الدهشة أو الاستنكار بين رجال القوات المسلحة عن الأحداث الجارية .[8]

كان هذا هو الجو العام الذي جرت فيه الدعوة إلي اجتماع للضباط يعقد بحديقة النادي في يوم الجمعة ١٩ أكتوبر عام ١٩٥١ ، وكان صاحب الدعوة بكباشي المدفعية محمد رشاد مهنا، وقام بالترويج للدعوة الصاغ محمود جمال الدين حماد – مدير مكتب اللواء أركان الحرب محمد نجيب مدير سلاح المشاة – بناءً علي تعليمات من تنظيم الضباط الأحرار ، وذلك بين ضباط سلاحه وغيرهم فاستجاب لها نحو من ثلاثين ضابطاً كانت هي الطليعة المتواضعة لمعركة النادي . [9]

وفي عصر ذلك اليوم عقد الاجتماع المنشود في حديقة النادي وتولي رئاسته البكباشي محمد رشاد مهنا أكبر الحاضرين رتبة ، ودارت المناقشات حول استئثار إدارة الجيش وممثليها بشئون النادي وتبلورت الناقشات في صورة توصيات تدعو أولا إلي عقد دورة غير عادية للجمعية العمومية، وهو حق يجيزه القانون إذا تقدم عشرون من أعضاء النادي علي الأقل إلي إدارة النادي بطلب مسبب لانعقادها .[10]

وعلي الفور تم اتفاق الحاضرين علي كتابة هذا الطلب ، وقاموا بتوقيعه ورفعه إلي إدارة النادي ووافق الفريق حيدر قائد عام الجيش علي طلب دعوة الجمعية العمومية غير العادية، ولم يشأ أن يتحدي مشاعر الضباط عسي أن يكتسب شعبية في الجيش تعيد إليه ثقة الملك.[11]

كان الجيش في ذلك الوقت يغلي مع غليان الشعب ، ومع ذلك واصل الملك فاروق تصرفاته الحمقاء في إثارة الضباط ضده .فقد عين أحد رجاله في الجيش – اللواء حسين سري عامر – مديراً لسلاح الحدود بدلاً من اللواء أركان الحرب محمد نجيب الذي نقل إلي المشاة .[12]

وكان محمد نجيب شخصية محترمة ومحبوبة ومثقفة ، فهو حاصل علي ليسانس الحقوق وماجستير في القانون ، وخريج كلية أركان حرب . وكانت ثقافة محمد نجيب وأخلاقه الطيبة وتاريخه المجيد في حرب فلسطين تجعل منه موضع آمال "الضباط الأحرار" الذين كانوا يتطلعون إلي توثيق علاقتهم بأحد أصحاب الرتب الكبيرة . وكان عبد الحكيم عامر علي علاقة وثيقة بمحمد نجيب بحكم خدمته تحت قيادته في حرب فلسطين[13] .

اجتماع الجمعية العمومية العادية لنادي ضباط الجيش

وقبيل اجتماع الجمعية العمومية في الساعة الرابعة من مساء الحادي والثلاثين من ديسمبر عام ١٩٥١ حدث اجتماع بين محمد رشاد مهنا وبين تنظيم الضباط الأحرار "لجنة القاهرة" في منزل مجدي حسنين في عابدين، وحضر الاجتماع كل من زكريا محيي الدين وجمال سالم وحسن إبراهيم وعبد اللطيف البغدادي ، وكان محمد رشاد مهنا مستمعاً فقط، وفى نهاية الاجتماع اقترح عليهم أن يتضافر جميع الضباط للتركيز على عملية انتخابات نادي الضباط، وبذلك يمكن إثبات قوة تنظيم الضباط في مواجهة الفساد الملكي، واقترح أن يتفق الجميع على إنجاح محمد نجيب [14] ليكون رئيساً لمجلس إدارة النادي، وهو المنافس لحسين سري عامر قائد سلاح الحدود، ومرشح الملك لرئاسة النادي ، وبذلك يظهر الضباط تحديهم لإرادة القصر. [15]

والحقيقة أن صاحب فكرة ترشيح اللواء محمد نجيب لرئاسة مجلس إدارة نادي الضباط كان البكباشي رشاد مهنا ، وقد عرضها على الضباط الأحرار أثناء اجتماع لجنة القاهرة السابق الإشارة إليه، حيث رحب الضباط الأحرار بهذه الفكرة أشد ترحيب، وبناء على ذلك توجه البكباشي جمال عبد الناصر

والصاغ عبد الحكيم عامر لزيارة اللواء محمد نجيب، ليجداه في حالة سخط بسبب نقله المفاجئ إلي المشاة ، وأبلغهما أنه يعتزم الاستقالة من الجيش ، وأقنعاه بأن هذه الاستقالة سوف تبعث السرور في قلب الملك فاروق ، وطلبا منه الاستمرار ، وأن يحاول رد الصفعة إلي الملك بترشيح نفسه لرئاسة نادي الضباط . وهكذا وعلى خلاف ما يزعم البعض بدأت علاقات الضباط الأحرار باللواء محمد نجيب، وعرف بوجود تنظيم الضباط الأحرار منذ فترة مبكرة [16].

تم انعقاد الاجتماع في الساعة الرابعة من مساء يوم الحادي والثلاثين من ديسمبر بقاعة السينما بثكنات العباسية للنظر في التعديلات التي طرأت على قانون النادي ، وكانت هذه التعديلات قد أرسلتها رئاسات الأسلحة لأخذ رأي الضباط عليها قبل التصويت عليها من الجمعية العمومية. كانت هناك مادتان في القانون المقترح أثارتا النقاش والجدل وكان يكمن فيها أسباب النزاع : أولى المادتين هي المادة الثامنة ، وكانت تتعلق بتحديد الأسلحة التي تمثل في مجلس إدارة النادي ، ومن ثم بزغ نزاع حول سلاح الحدود ، لمحاولة ضمه كسلاح مستقل كبقية أسلحة الجيش، على الرغم من أن ضباطه المنتدبين من أسلحة أخري ممثلون في مجلس إدارة النادي. والواقع أن أغلب الضباط في مساندتهم للرأي الذي يقول بأن سلاح الحدود ليس سلاحاً قائماً بذاته ، كان يكمن في تحدي الضباط لمدير سلاح الحدود اللواء حسين سري عامر الذي أبعد بسببه من منصبه اللواء محمد نجيب مدير الحدود السابق ، بعد أن أصر الملك على تعيين رجل السراى اللواء حسين سرى عامر في هذا المنصب، وكان اللواء حسين سري تحوم حوله الريب والشبهات طوال مدة خدمته في سلاح الحدود فضلاً عن اتهامه في قضية الأسلحة الفاسدة والتحقيق معه بواسطة النيابة العامة. أما المادة الأخرى فكانت المادة التاسعة ، وتنص على أن تقوم الجمعية العمومية مجتمعة بانتخاب ممثلي الأسلحة المختلفة في مجلس إدارة النادي ، وهذا من شأنه أن يصبح الانتخاب صادقاً ممثلاً لإرادة الضباط، ولكن القصر خشي من تكتل الضباط واتحاد كلمتهم ، فعمل على ترويج اتجاه آخر هو أن يقوم ضباط كل سلاح من أسلحة الجيش بانتخاب ضباطه على أساس أن كل سلاح أدري بضباطه ، ولم يكن هدفه من وراء ذلك سوي تفرقة كلمة الضباط [17] .

حضر الاجتماع حوالي (٤٥٥) ضابطاً وهو أكثر من العدد القانوني الذي يقتضيه اجتماع الجمعية العمومية العادية (أكثر من ١٠% من مجموعة أعضاء النادي). وكان رئيس إدارة الجيش ورئيس هيئة أركان حرب عثمان المهدي

باشا خارج قاعة الاجتماع ،ونبها على البكباشي محمد رشاد مهنا بعدم اعـتلاء المنصة لإعطاء الفرصة للمجلس القديم بإدارة الجلسة وافتـتح رئـيس اللجنـة التنفيذية للنادي الأميرلاي جلال صبري الجلسة ولما تليـت مقترحـات تعـديل اللائحة كما أراد محمد رشاد مهنا، اختلفت الآراء وكاد الاجتماع يفشـل لكثـرة الجدل وهنا طلب رئيس هيئة أركان حرب من محمد رشـاد مهنـا أن يعتلـي المنصة إنقاذاً للموقف، وسيطر محمد رشاد مهنا على الموقـف، حيـث اقتـرح مباشرة وفى الحال عرض مشروع اللائحة الداخلية المقترحة (وكانت المقترحات تتضمن صراحة على ضرورة إجراء الانتخابـات) وعرضـها للتصـويت دون مناقشة، وكانت نتيجة التصويت أنهـا حـازت الموافقـة بأغلبيـة الأصـوات، وبالتصفيق المتواصل من أغلبية الحاضرين، وطالب أحد ضباط سلاح الحـدود من أعوان حسين سري عامر بضرورة تمثيل سلاح الحدود بعضو في مجلـس الإدارة الذي سينتخب فوراً، وعارض محمد رشاد مهنا بالحجة القوية بأن سلاح الحدود لا يعتبر سلاحاً قائماً بذاته، لأن جميع ضباطه منتدبون من أسلحة مختلفة وأن لكل منها مكان في مجلس الإدارة والمقترح انتخابهم في الجلسـة نفسـها ، وانتقل محمد رشاد مهنا مباشرة إلي طلب إجراء عملية الانتخابات التـي تمـت على الفور [18].

وقد تقدم لانتخابات الرياسة مدير سلاح المشاة اللواء أركان الحرب محمد نجيب ، اللواء حافظ بكري مدير سلاح المدفعية ، اللواء إبـراهيم الأرنـاؤوطي مدير سلاح المهمات، واللواء سيد محمد مدير سلاح الصيانة ولم يكن لأحد مـن هؤلاء مشكلة أو قضية بخلاف اللواء حسين سري عامر مدير سـلاح الحـدود الذي تطورت قصته مع انتخابات النادي وإصرار الملك علـى فرضـه علـى القوات المسلحة إلي محاولة اغتياله [19]

ويقول محمد نجيب في مذكراته : " استقر رأيي علي أن أرشـح نفسـي رئيساً لمجلس إدارة النادي لجس نبض الحالة في الجيش ، وتحدياً للملـك الـذي نقلني من سلاح الحدود " [20]

وفى منتصف الليل ومع استقبال فجر اليوم الأول من عام ١٩٥٢ أعلنـت النتيجة على النحو التالي : انتخب اللواء أركان الحرب محمد نجيب مدير سلاح المشاة بأغلبية شبه إجماعية إذ لم يحصل منافسوه الثلاثة إلا علي (٥٨) صـوتاً من مجموعة خمسمائة صوت تقريباً ، وبذلك كانت النتيجة كالآتي : لواء أركان حرب محمد نجيب رئيس مجلس الإدارة ، أميرلاى أركان حرب حسن حشـمت

عضواً عن الفرسان ، قائمقام أركان حرب محمد رشـاد مهنـا عضـواً عـن المدفعية ، بكباشي إبراهيم حافظ عاطف عضواً عـن المدفعيـة ، قائـد جنـاح بهجت مصطفي عضواً عن الطيران ، قائد أسراب حسن إبراهيم السيد عضـواً عن الطيران ، بكباشي أركان حرب زكريا محيى الدين عضواً عـن المشـاة ، بكباشي أحمد حمدي عبيد عضواً عن المشاة ، صاغ جمال حماد عضواً عـن المشاة ، قائمقام بحري أنور عبد اللطيف عضواً عـن البحريـة ، يوزباشـي أمين شاكر عضواً عن الإشارة ، بكباشي أركان حرب مهندس إبراهيم فهمي دعبس عضواً عن المهندسين ، بكباشي مهندس عبد العزيز الجمل عضواً عـن الصيانة ، صيدلي عياد صليب عضواً عن الخـدمات الطبيـة ، بكباشـي عبـد الرحمن أمين عضواً عن خدمة الجيش ، بكباشي متقاعد جلال ندا عضـواً مـن جمعية المحاربين القدماء، قائمقام عبد الرحمن فوزي عضواً عـن المهمـات ، ويوزباشي يحي الحرية إمام معين عن الحاشية العسكرية . (21)

وهكذا نجد أن نصيب الضباط الأحرار في مجلس إدارة نادي الضباط كان كبيراً حيث فاز بمنصب رئيس مجلس الإدارة اللواء محمـد نجيـب ، وانتخـب عضوان فقط من الضباط الذين شكلوا فيما بعد مجلس قيادة الثورة وهما بكباشي زكريا محيي الدين من المشاة ، وقائد أسراب حسن إبراهيم من الطيران – كمـا انتخب ثلاثة من الضباط الأحرار من غير أعضاء مجلس القيادة هم : بكباشـي محمد رشاد مهنا من المدفعية ، والصاغ أحمد حمدي عبيد والصاغ جمال الدين حماد من المشاة . وممن خانهم الحظ في الانتخاب من أعضـاء مجلـس قيـادة الثورة فيما بعد قائد الجناح جمال سالم . ومن الشخصيات التي لمعت بعد ذلـك البكباشي محمد فوزي (وزير الحربية فيما بعد) وحصل على ٣٧ صوتاً . وبذلك كانت نتيجة الانتخاب فوزاً ساحقاً للضباط الأحرار ، إذ تبـين مـدي انضـمام الضباط ذوي الرتب الصغيرة والمتوسطة إلي جانب التيار الوطني ، كمـا كـان إبعاد ممثل سلاح الحدود من الانتخاب تحدياً سافراً من الضباط للملك. وكان هذا دليلاً على تأثير ونفوذ تنظيم الضباط الأحرار بين ضباط الجيش ، كما كان دليلاً أيضاً على شعبية محمد نجيب.

ويعلق عبد اللطيف البغدادي على معركة انتخابات نادي ضـباط الجـيش بقوله " عرف الملك فاروق بأمر الضباط الأحرار وتنظيماتهم داخل الجيش بعـد أن تحديناه في انتخابات مجلس إدارة نادي ضباط الجيش وانتصارنا عليـه فـي تلك الانتخابات ،لأنه هو نفسه كان وراء ترشيح عدد من الضباط المـوالين لـه

وعلى رأسهم اللواء حسين سري عامر كرئيس لمجلس إدارة النادي – وهو لـم يكن يتمتع بسمعه طيبة بين الضباط. ومنظمتنا كانت قـد رأت التصـدي لهـذا الترشيح منه ورشحنا ضباطاً آخرين وعلى رأسهم اللواء أركان حـرب محمـد نجيب كرئيس لمجلس الإدارة . وكان الغرض الآخر غير هذا التحدي للملك هو التعرف من خلال هذه المعركة التي سنخوضها علـى قـوة تماسـك الضـباط المنضمين إلي التنظيم وقدرتهم ومدي تأثيرهم على باقي ضباط الجيش". [22]

"وقد أكدت نتيجة الإنتخاب التي نجح فيها جميع مرشحينا فعالية التنظـيم وقدرته. ولكن من جانب آخر كانت هناك نقطة ضعف صاحبت هذا التصـرف منا فلقد تخلينا ولأول مرة عن الأسلوب السري الذي كنا نتبعه من قبل . وكـان نشاطنا علنياً في هذه المعركة فكشفنا عن أنفسنا ، وأصبح من الطبيعي بعد ذلـك أن يسعي الملك وأجهزته السرية الخاصة بالأمن إلي التعرف على من وراء هذا التنظيم ومن هم أفراده ، حتى تحاول القضاء علـيهم قبـل اسـتفحال خطـرهم واستبعادهم من الجيش. ومن هنا كان لعامل الوقت أهمية قصوى ، وكان علينـا أن نسبقه في التحرك، وأن نضرب ضربتنا ونقوم بالانقلاب الذي كنا نعد أنفسـنا له، قبل أن يعمل هو على تصفيتنا نهائياً مـن الجـيش وتضـيع علينـا بـذلك الفرص[23]".

في الأول من يناير عام ١٩٥٢ عقد مجلس الإدارة الجديد أول اجتماع له، تم فيه اختيار رئيس وأعضاء المكتب التنفيذي لمجلس الإدارة كالآتي : أميرلاى أركان حرب حسن حشمت نائب رئيس ، بكباشي عبد الرحمن أمـين سـكرتير عام ، قائد أسراب حسن إبراهيم السيد سكرتير مساعد ، يوزباشي بحري أحمـد عبد الغني مرسي سكرتير مساعد ، يوزباشي أمين شاكر سـكرتير مسـاعد ، وبكباشي أركان حرب مهندس إبراهيم فهمي دعبس أمين صندوق. [24]

الفريق حيدر يستدعي محمد نجيب

ولم يمر يومان حتى كان الفريق حيدر قد استدعي إلي مكتبه في ثكنـات قصر النيل كلاً من اللواء محمد نجيب رئيس مجلـس إدارة النـادي الجديـد ، والبكباشي محمد رشاد مهنا عضو مجلس الإدارة ، واجتمع بهمـا إلـي سـاعة متأخرة من الليل ، محاولاً إقناعهما تنفيذ رغبة أوامر الملك بانضمام ممثل سلاح الحدود إلي مجلس إدارة النادي ، ولكنهما حينما أراد أن يبينا له أن ذلك ليس من سلطة مجلس إدارة النادي، بل من سلطة الجمعية العمومية ، استشـاط الفريـق

حيدر غضباً ، وأبدي لهما ضرباً من التهديد ، وانتهي الاجتماع بعـد منتصـف الليل بساعتين دون الوصول إلي أي حل[25] . وعن هذه المقابلـة يقـول اللـواء محمد نجيب : " قال الفريق حيدر لنا فى صراحة أن أوامـر مولانـا أن يـدخل حسين سري عامر مجلس إدراة النادي ،هكذا دون لف أو مواربة . فقلت لحيدر أن هذا ليس من حق مجلس الإدارة ، بل هـو مـن صـميم حقـوق الجمعيـة العمومية، فإذا أصر مولانا فسأعقد الجمعية العمومية وأعرض الأمـر عليهـا . واستمرت الجلسة سبع ساعات حتى الثانية صباحاً " في حوار ونحن لا نتزحزح عن موقفنا شعرة ، رغم ظهور نبرة تهديد صريحة في حديث حيدر عندما أعيته الحيل[26] .

فرض عضو من سلاح الحدود

وفى الثالث من يناير عام ١٩٥٢ وجهت رئاسة هيئة أركان حرب الجـيش خطاباً إلي اللواء محمد نجيب بصفته رئيساً لمجلـس إدارة النـادي المنتخـب ، وموعزاً به من القصر الملكي تعلن فيه أنه تقرر اعتبار سلاح الحـدود سـلاحاً قائماً بذاته ، وبناءً عليه يصبح له الحق في تمثيله في مجلس إدارة النادي [27] .

وأحس اللواء محمد نجيب بخطورة الموقف، فدعا إلي عقد اجتماع لمجلس إدارة النادي يوم السبت ٥ من يناير، وعرض اللواء محمد نجيب خطاب رئاسـة أركان حرب الجيش على أعضاء مجلس الإدارة ، فانقسمت الآراء فـى بـادئ الأمر بين مؤيد ومعارض ، ولكن اللواء محمد نجيب بـين لأعضـاء المجلـس خطورة الموقف، وما قد يسفر عنه من مخاطر نتيجة تحـدي رغبـة الملـك ، واقترح انتداب البكباشي محمد إبراهيم فهمي كحل وسط ليمثل سلاح الحدود فى مجلـس إدارة النادي كمستمع فقط وليس له صلاحية العضوية إلي حين دعـوة الجمعية العمومية [28] .

ووافق مجلس إدارة النادي بالإجماع على الاقتراح ، وكان الفريق حيـدر ينتظر قرار مجلس الإدارة في إحدى غرف النادي على أحرمن الجمر ، فما إن انتهي مجلس الإدارة من إصدار القرار، حتى قام الفريق حيدر بإبلاغه للملـك ، ظناً منه أن سيحوز رضاه ويجعله يكسب ثقته ، ولكن الملك لم يـرض بـذلك ، فقد أحس بأن نتيجة الانتخاب كانت بمثابة طعنة له ، واعتبر كل ما حدث تحـدياً له [29].

على أثر ظهور هذه المشكلة ، قدم البكباشي عبد الرحمن أمــين اســتقالته من منصب سكرتير عام المجلس في أوائل فبراير ١٩٥٢ ، وفى الجلسة نفسها تم الاتفاق على اختيار البكباشي إبراهيم حافظ عاطف – قائد مدرسة المســاعدة الجوية – ليكون سكرتيراً عاماً للمجلس وبقي البكباشي عبد الرحمن أمين عضواً عادياً بالمجلس (30) .

وثار اللواء حسين سري عامر ، فقد شعر بأن "الضــباط الأحــرار" وراء هزيمته وكتب مقالاً هاجم فيه "الضباط الأحرار" هجوماً بذيئاً ومليئــاً بالشــتائم ، وهدد بأنه سيتخلص منهم فى ساعة واحدة ويدخلهم جميعاً السجون . وجاء مقال حسين سري بمثابة طعنة تحاول التهوين من شأن الضباط الأحرار ، الأمر الذي أثار عبد الناصر بصورة كبيرة(31) .

وكان اللواء حسين سري عامر قد اعتبر قرار مجلس إدارة النادي الخاص بتمثيل سلاح الحدود فى إدارة النادي نصراً خاصاً له . ففي صباح اليوم الثــامن من يناير عام ١٩٥٢ توجه اللواء حسين سري على رأس وفد من ضباط سلاح الحدود إلي قصر عابدين ، للتعبير في سجل التشريفات الملكيــة عــن ولائهــم للملك، بينما توجه رئيس أركان حرب الجيش في اليوم ذاته ومعه مجموعة مــن قادة الجيش وكبار ضباطه إلي القصر أيضاً ليقيدوا أسماءهم أيضاً فــي ســجل التشريفات ، معبرين عما يكنونه للملك من ولاء وطاعة (32).

وبعد ذلك استقل اللواء حسين سري عامر سيارته عائداً إلي مكتبه، حيــث استقبل وفود المهنئين، ثم استقل سيارته عائداً إلي بيته في منطقة الزيتون . ومــا كادت سيارته تتوقف أمام منزله في المســاء حتى انطلــقت طلقات نارية عديدة نحو السيارة من أفراد تربصوا له بالقرب من منزله (33) .

وكان عبد الناصر قد قرر أن يرد على حسين سري عامر بقوة . لــيحفظ للضباط الأحرار مكانتهم ومهابتهم، ومن خلف ظهر "لجنة القيادة لتنظيم الضباط الأحرار" اتفق عبد الناصر وحسن إبراهيم وحسن التهامي وكمال رفعت وصلاح الدسوقي على اغتيال حسين ســري عــامر ، وأطلقــوا عليه الرصــاص فــي مساء يوم ٨ يناير عام ١٩٥٢ وفشلت المحاولة (34).

وكان جمال عبد الناصر هو الذي دبر حادث محاولة اغتيال اللواء حسين سري عامر وقد أقر عبد الناصر بتدبيره هذه المحاولة في كتابه فلسفة الثــورة. ويصف جمال عبد الناصر دوره في هذا الكتاب بقوله :"اخترنا واحداً وقلنا أنــه

يجب أن يزول من الطريق وكانت الخطة أن نطلق الرصاص عليه، وهو عائد إلي بيته في الليل ، وجاءت الليلة الموعودة .. كان المسرح خالياً كما توقعنا (ضاحية الزيتون) وكمنت الفرقة في أماكنها التي حددت لها وأقبل الواحد (يعني حسين سري عامر) الذي كان يجب أن يزول وانطلق نحوه الرصاص وانسحبت فرقة التنفيذ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة وبدأت عملية الإفلات والنجاة ، وأدرت محرك سيارتي وانطلقت أغادر المسرح الذي شهد عملنا [35].

ويفصل اليوزباشي كمال رفعت ما حدث بقوله : "حضر جمال عبد الناصر إليَّ بالمنزل مساء يوم ٧ يناير عام ١٩٥٢ وأخبرني بفكرته ، وعموماً فقد ذهبت معه ومعنا حسن التهامي إلي منزل حسين سري عامر في نفس الليلة لانتهاز أية فرصة لتنفيذ العملية، ولما لم يتيسر ذلك أرجأنا العملية إلي اليوم التالي، حيث انضم إلينا حسن إبراهيم، حيث قام بعملية المراقبة ، وكان جمال عبد الناصر يقود عربته الأوستن الصغيرة وينتظرنا في شارع مجاور ، وتوليت أنا وحسن تهامي تنفيذ العملية " [36].

حريق القاهرة واجتماع اللجنة التأسيسية

في الوقت الذي شهد صدام ضباط الجيش بالملك فاروق وقعت مجزرة الإسماعيلية التي خلقت مرارة شديدة لدي الشعب المصري ، وأدت إلي تصاعد العداء ضد البريطانيين[37]، فانتشرت المظاهرات في أنحاء القاهرة في اليوم التالي – ٢٦ يناير ١٩٥٢ – التي تطورت إلي الحرق والتخريب والتدمير [38]. كانت هذه المجزرة ثمرة تحالف الإنجليز مع الملك والعناصر المرتبطة به ، وتعتبر الشرارة التي فجرت كل أنواع الغضب والسخط ، التي تجمعت لدي الشعب لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية ، وهيأت المناخ الملائم لتنفيذ خطة مدبرة لتخريب القاهرة وحرقها [39].

احترقت القاهرة ، وأقيلت حكومة الوفد ، وبقيت الأحكام العرفية التي أعلنتها. وكان لحريق القاهرة أثر شديد على الضباط الأحرار . ففي مساء اليوم نفسه (يوم الحريق ٢٦ يناير ١٩٥٢) اجتمعت اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار لدراسة الموقف. واتضح بجلاء في هذا الاجتماع أن الأحداث وتطورها في البلاد تسير بخطي سريعة نحو حالة من التدهور لم يسبق لها مثيل . وأن الزمام ربما يفلت في أية لحظة ويحدث انفجار من الشعب المتذمر، وتصبح البلاد في حالة من الفوضى لا يمكن التكهن بنتائجها. وكان لابد لها والحالة هكذا من أن

تتحرك بسرعة خاصة وأن الملك نفسه قد عرف بأمر الضباط الأحرار وتنظيماتهم داخل الجيش بعد تحديهم له في انتخابات مجلس إدارة نادي ضباط الجيش والتي جرت يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥١، وتم انتصارهم عليه في تلك الانتخابات . وكان عليهم أن يسبقوه في التحرك وأن يضربوا ضربتهم ويقوموا بالانقلاب الذي كانوا يعدون أنفسهم له، قبل أن يعمل هو على تصفيتهم نهائياً من الجيش، وتضيع عليهم بذلك الفرصة(40) .

ويقول بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة : " وعندما أثيرت تلك النقاط وهذه الظروف التي تحيط بنا فى مناقشاتنا وضرورة تحركنا السريع والعاجل كان جمال عبد الناصر يري عدم الاندفاع ويدعو إلي التأني ، وكانت هذه عادته. وقد أعاد عبد اللطيف البغدادي ما سبق ذكره في جلسات سابقة من ضرورة سرعة الحركة موضحاً أن الأحداث ستسبقنا، ولابد لنا من تنفيذ خطتنا في أقرب فرصة، وكان جمال عبد الناصر ضد هذا الرأي الذي نادي به عبد اللطيف البغدادي ، وقد حاول الأخير أن يبين أن ما حدث في يوم ٢٦ يناير ونزول الجيش إلي شوارع القاهرة يؤكد ما سبق وما كان متوقعاً ، ومن أنه كان من الممكن تنفيذ خطتنا في ذلك اليوم لو كنا قد أعددنا أنفسنا من قبل ولكن الرأي في اللجنة التأسيسية في هذه الجلسة كان يتجه إلي عدم التحرك ويحرص على التريث والحذر ، ولما وجد عبد اللطيف البغدادي أنه لا يزال هناك إصرار على عدم التحرك السريع رغم تلك الأحداث ، أعلن لزملائه أعضاء اللجنة عن انسحابه من حضور اجتماع اللجنة التأسيسية في المستقبل حتى يقرروا أن الوقت المناسب قد حان لتنفيذ خطتهم ، وأن يعتبروه في تلك الفترة جندياً لهم في سلاح الطيران. وأنهم سيجدونه وزملاءه ضباط القوات الجوية خير عون لهم حينما تحين الساعة(41).

إن عدم تكامل تنظيم الضباط الأحرار كان هو السبب في عجزهم عن الحركة فور وقوع حريق القاهرة. وحتى هذه اللحظة لم يكن تنظيم الضباط الأحرار قد أخذ شكلاً هرمياً متعدد المسئوليات منضبط السرية ، ولم يكن له لائحة ولا برنامج كما أن بعض المجموعات لم تكن تواظب على دفع الاشتراكات ، ولم يكن نظام الخلايا قد استقر على أسس ثابتة وخاصة في سلاح الطيران (42).

ومنذ اجتماع اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار مساء يوم الحريق توالت المنشورات وتأكد لجميع ضباط الجيش الوجود الفعلي والنشاط الظاهر للضباط

الأحرار. وانضم أعداد كبيرة من الضباط لتنظيم الضباط الأحرار، بحيث أصبح التنظيم قوياً وقادراً على أن يثير اهتمام القوي الداخلية وحتى الخارجية المهتمـة باستمرار نفوذها في مصر ، وفى هذا الوقت وصلت معلومات لتنظيم الضـباط الأحرار من الإخوان المسلمين أن الإنجليز أبلغوهم أنهم يريدون الـتخلص مـن الملك، حيث أصبح مكشوفاً ومكروهاً من الشعب، ولا يضـمن مصـالحهم وأن الإنجليز طلبوا من الإخوان اغتيال الملك [43] .

كما وصلت معلومات أخري عن طريق الملحـق العسـكري الأمريكـي المتصل بعلي صبري مدير مخابرات الطيران " أن في حالـة تحـرك الجـيش المصري لأي حركة تغيير فإن الأمريكان سيطلبون من الإنجليز عدم التـدخل، إذا كانت هذه الحركة غير شيوعية، ولا تهدد مصالحهم، واستقر رأي الضـباط الأحرار على التحرك في شهر نوفمبر ١٩٥٢ [44] وحول هـذا التـاريخ أيضـاً حاول الوفد أن يستعين بشباب ضباط الجيش وقام الضابط حسن علام لحسـاب الوفد بطبع منشورات، وقبض عليه وقامت الحكومة بتحديد إقامة فـؤاد سـراج الدين وعبد الفتاح حسن، وعلى اثر ذلك قام الضباط الأحرار بالاتصـال بأحـد أقارب النحاس باشا لمحاولة الاتفاق مع الوفد والتعاون معه ورد النحـاس باشـا بأنه لا يستطيع أن يدخل لعبة الضباط ولأنه لا يريـد أن يخسـر أوراقـه مـع الأمريكان[45] .

المنشورات بعد الحريق

كان الضباط الأحرار يعتمدون على منشوراتهم التي لم تتوقف والتي تبادل مسئولية طبعها وتوزيعها عدد من الضباط الأحرار ، منهم عبد الرحمن عنـان وحمدي عبيد وزير الإدارة المحلية فيما بعد ، وخالد محيى الـدين ، وأخيـراً استقرت بعد حريق القاهرة لتكون من مسئولية (الحركة الديمقراطيـة للتحـرر الوطني)[46].

وفى هذا تفسير للأفكار والآراء التي حفلت بها المنشورات والتـي كانـت تعكس الاتجاه الحقيقي لمجموعة الضباط الأحرار.

ظهر بعد حريق القاهرة منشور يقـول : " أيهـا الضـباط ، إن الخونـة المصريين يعتمدون عليكم وعلى جيشكم لتنفيذ أهدافهم وهم يظنونكم أداة طيعـة في أيديهم للبطش بالشعب وإرغامه على قبول ما يكره . فليفهم هؤلاء الخونة أن مهمة الجيش هي الحصول على استقلال البلاد وصيانته .. وأن وجود الجـيش

في شوارع القاهرة إنما هو لإحباط قرارات الخونة التي تهدف إلي التدمير والتخريب ... ولكننا لا نقبل ضرب الشعب .. ولن نطلق رصاصة واحدة على مظاهرة شعبية .. ولن نقبض على الوطنيين المخلصين .. يجب أن يفهم الجميع أننا مع الشعب الآن ، ومع الشعب دائماً ولن نستجيب إلا لنداء الوطن (47) .

وفى منشور آخر صدر في فترة وزارة أحمد نجيب الهلالي الأولي يقول: "توالت مؤامرات الاستعمار الانجلو أمريكي في الفترة الأخيرة في مصر، لمحاولة القضاء على الحركة الوطنية، ولصرف أنظار الشعب عن الكفاح المسلح ضد الاستعمار في القناة إلي مشاكل داخلية في القاهرة، فيما بعد أن أعلنت حكومة الوفد قطع المفاوضات وإلغاء المعاهدة ورفض حلف الشرق الأوسط الرباعي الاستعماري، وتكوين الكتائب الوطنية ، اشتدت جذوة الوطنية في البلاد حتى كادت أن تصل مصر إلي حقوقها الكاملة ، دبر الاستعمار وأذنابه انقلاب ٢٦ يناير الماضي، وجاءت حكومة على ماهر وبدأت المفاوضات من جديد ، وكان الاستعمار والخونة المصريين يأملون كثيراً من على ماهر التسليم تسليماً كاملاً بمطالبهم بقبول واستعمال الأحكام العرفية للتنكيل تنكيلاً واسعاً بالشعب، ولكن خاب رجاؤهم ولم يجبهم على ماهر إلي مطالبهم ، فكان لابد من انقلاب جديد لتحقيق الأهداف الاستعمارية السابقة ، وتحويل الحركة إلي الداخل ، والقيام بحركة تطهير واسعة بالبلاد بحجة تقوية الصفوف قبل مجابهة الاستعمار . وهكذا وصل الهلالي إلي الحكم بعد تدبير سابق ، وقد جاء الهلالي وأعلن برنامج الوزارة بصراحة ، وأن مهمتها الرئيسية هي التطهير وقد تناسي أن الفساد الأكبر مصدره الاستعمار، وأنه لا يمكن القضاء على الفساد الداخلي إلا إذا قضي على أسبابه ومصدره . إن من أهداف الضباط الأحرار الكفاح ضد الفساد وضد الرشوة والمحسوبية واستغلال النفوذ ، ولكن يجب إلا نتجه إلي ذلك إلا بعد القضاء على الاستعمار" (48) .

أبرزت المنشورات السابقة اتجاهات وطنية تتعارض تماماً مع التخطيط الأمريكي للسياسة المصرية ، بل وربطت بين الاستعمارين البريطاني والأمريكي في محاولتهما القضاء على الحركة الوطنية وصرف أنظار الشعب عن الكفاح المسلح. وكان لتوالي ظهور منشورات الضباط الأحرار وارتفاع أصواتهم الهامة أثر على تحركات الملك ، وليس على تصرفاته ، وضاعف الحراسة على نفسه ، وكان خلال سهراته ومباذلة سواء فى نادي السيارات أو ملاهي الليل يحيط نفسه بضباط من الحرس في ملابس مدنية يمضون الليل ساهرين (49) .

إعلان الأحكام العرفية وإقالة النحاس

اجتمع مجلس الوزراء برياسة مصطفي النحاس باشـــا بمنزلـــه اجتماعـــاً استثنائياً عاجلاً في الساعة السابعة من مساء يوم ٢٦ ينـــاير ١٩٥٢ ، واســـتمر حتى الساعة العاشرة مساء ، وفيه تقرر إعلان الأحكام العرفية في جميع أنحـــاء البلاد ، ووقف الدراسة في الجامعات وجميع المعاهد والمدارس إلي أجل غيـــر مسمي ، وفى الساعة العاشرة والنصف مساء أذاعت الوزارة المرســـوم الـــذي استصدرته ووقعه الملك فاروق، وهو يقضي بإعلان الأحكام العرفية في جميـــع أنحاء البلاد ابتداء من مساء اليوم ، وتعيين مصطفي النحاس حاكمـــاً عســـكرياً عاماً [50].

وفى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم الأحد ٢٧ يناير ١٩٥٢ ، تســـلم مصطفي النحاس في منزله كتاب إقالة وزارته موقعاً عليه من الملـــك فـــاروق ومؤرخاً في هذا اليوم نفسه ، وقد عبر فاروق فيه عن الإقالة بكلمة أخري أخف منها لهجة وهي "الإعفاء"، وأعرب في كتاب "الإعفاء" عن أسفه "لما أصيبت بـــه العاصمة أمس من اضطرابات نتجت عنهـــا خســـائر فـــي الأرواح والأمـــوال، وسارت الأمور سيراً يدل على أن جهد الوزارة التي ترأسونها قد قصـــر عـــن حفظ الأمن والنظام ، لذلك رأينا إعفاءكم من منصبكم " [51].

وفى هذا الخصوص يذكر كريم ثابت أنه في يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢ اتصل حافظ عفيفي بالملك فاروق وأبلغه أن إنجليزيا كبيراً زاره في بيته، وقال لـــه أن وزارة مصطفي النحاس تفكر في قطع العلاقات السياسية بين الحكومة المصرية والحكومة البريطانية . لذلك طلب فاروق إلي حافظ عفيفي بوصفه رئيساً للديوان أن يتحري الأمر، وبعد أن تحري حافظ الأمر أبلغ الملك بأن "الموضوع" محـــل بحث الوزارة [52] .

واستطاع حافظ عفيفي أن يقنع الملك بأن الفرصة ملائمة للاستراحة مـــن الوزارة الوفدية تحت ستار مسئوليتها في حريق القاهرة فيرضـــي الإنجليـــز ، ويظهر لهم أنه انتهز أول فرصة سنحت له فتخلص منها . وهكذا أقيل النحـــاس باشا . واعتقد حافظ عفيفي أنه خطا خطوة جديدة نحو رئاسة الوزارة [53].

نشاط الضباط الأحرار

تواصلت مسيرة الضباط الأحرار ، وفى كل يوم كان التنظيم يقترب مـــن نقطة التصادم . ففي أوائل أبريل ١٩٥٢ ، وزع اليوزباشـــي مصـــطفي كمـــال

صدقي والملازم عبد القادر طه منشوراً هاجما فيه الملك فاروق وشبهاه بأنه مثل الخديوي توفيق الخائن ، وشبها حريق القاهرة بمذبحة الإسكندرية أيـام الثـورة العرابية ، وكان اليوزباشي مصطفي كمال صدقي معروفاً لدي الملك ، فقد كـان لفترة من الوقت محسوباً من رجاله ضمن الحرس الحديدي ، وقرر الملك قتـل الملازم عبد القادر طه ، واغتاله شخص يدعي على حسنين،[54] يوم ٢٤ مارس ١٩٥٢[55].

وأصدر تنظيم الضباط الأحرار يوم ١٨ إبريل ١٩٥٢ منشوراً يتهم فيـه اللواء حسين سري عامر صراحة بأنه مسئول عن اغتيال عبـد القـادر طـه ، واتهم مرتضي المراغي – وزير الداخلية – بالتستر على الجريمة [56].

وفي مايو ١٩٥٢ عقدت لجنة القيادة – اللجنة التأسيسية للضباط الأحـرار – اجتماعاً في بيت الصاغ عبد الحكيم عامر بالعباسية ، وكـان عبـد اللطيـف البغدادي متغيباً عن الاجتماعات منذ مدة احتجاجـاً علـى أن تنظـيم الضـباط الأحرار لا يفعل شيئاً ، لكنه حضر هذا الاجتماع قائلاً: "لقد أتيت لأنكم قـررتم عمل شئ". وفى هذا الاجتماع وضعت لجنة القيادة خطاً فاصلاً في العلاقة مـع البكباشي عبد المنعم عبد الرؤوف ، فقد عاود الإلحاح على ضـرورة الارتبـاط بالإخوان، ولما رفضت لجنة القيادة طلبه قال : "أنـا مـرتبط بـالإخوان ولـن أتركهم، وقررت لجنة القيادة إبعاده". كما تحدد في هذا الاجتماع موعـد نهـائي للقيام بالحركة هو ٥ نوفمبر ١٩٥٢.

انعقاد الجمعية العمومية غير العادية لنادي الضباط

في ظل وزارة نجيب الهلالي باشا وفى مساء يوم ١٦ يونيو ١٩٥٢ ، تـم عقد اجتماع الجمعية العمومية غير العادية لنادي الضباط والتي سبق ودعي لهـا مجلس الإدارة منذ أوائل يناير ١٩٥٢، لمناقشة موضوع فرض عضو من سلاح الحدود في مجلس إدارة النادي ، رغم مخالفة ذلـك للائحـة وافتـتح الجلسـة البكباشي إبراهيم عاطف، ثم ترك المنصة للقائمقام أركان حرب رشاد مهنا ليقوم بأعمال مقرر الجلسة، وأعلن رشاد مهنا عن الغرض من الاجتماع وملابسـات الموضوع ثم فتح باب المناقشة، [57] .

وكان أول المتحدثين الضابط جمال عـلام – عضـو حـدتو ، وعضـو الضباط الأحرار – حيث استهل كلامه بمطالبة المجتمعين بالوقوف حداداً علـى روح الشهيد الملازم أول عبد القادر طه. ووقـف المجلـس وجميـع الضـباط

المجتمعين حداداً . وكانت هذه الاستجابة الإجماعية من الضباط بمثابة تحد للملك فاروق وأعوانه في الجيش بصفة خاصة [58] .

وتعاقب المتكلمون بعد ذلك، وكان الكل يؤيد رفض خطاب رئيس هيئة أركان حرب الجيش، ويعارضون تمثيل سلاح الحدود بعضو في مجلس إدارة نادي ضباط الجيش. وحاول ضباط من السلاح البحري منهم أنور عبد اللطيف وكلهم من المؤيدين للملك بإعلان انسحابهم من الاجتماع . ورد عليهم رشاد مهنا بحسم أن أمر انسحابهم أو وجودهم سيان حيث انهم مقيدون من بدء الجلسة في دفتر الحضور في محضر الجلسة حتى ولو لم يصوتوا فهذا لا يؤثر على رأي الأغلبية [59].

ثم عرض رشاد مهنا مقرر الجلسة وبأسلوب مباشر وحاسم قرار رئيس هيئة أركان حرب للتصويت وجاءت نتيجة التصويت بالإجماع برفض القرار، وسقطت محاولة الملك بتمثيل سلاح الحدود بعضو في المجلس الجديد. وقام سكرتير المجلس التنفيذي إبراهيم حافظ عاطف مع السكرتير المساعد قائد الأسراب حسن إبراهيم بتحرير كل ما جاء بالجلسة على شكل محضر جلسة، وبذلك أضاعوا الفرصة على أي تلاعب من أعوان الملك [60].

قام أعوان الملك الموجودون في مجلس الإدارة بتقديم استقالتهم من عضوية المجلس بالتتابع، وكان غرضهم وغرض القصر أن تكون هذه الاستقالات بمثابة حل للمجلس خصوصاً إذا زاد عدد المستقيلين. وقد قدم الآتين استقالتهم : الأميرالاى حسن حشمت – نائب رئيس مجلس الإدارة ورئيس المجلس التنفيذي ، يوزباشي بحري أحمد عبد الغني مرسي – عضو عن البحرية ، قائمقام بحري أنور عبد اللطيف – عضو ومدير مكتب حيدر باشا ، أميرالاى صيدلى عياد صليب – عضو الخدمات الطبية ، يوزباشي يحيى الحرية أمام – العضو المعين عن الحاشية العسكرية ، بكباشي أركان حرب مهندس إبراهيم فهمي دعبس – عضو عن المهندسين [61] .

وقام كبار ضباط قيادات الجيش بالضغط على باقي أعضاء مجلس الإدارة لتقديم استقالاتهم، حتى يصبح مجلس إدارة النادي المنتخب فى حكم المنحل، ويكون هذا الحل سلمياً دون اللجوء إلي أسلوب إصدار قرار حل قد يثير النفوس[62].

ولكن الباقين كان معظمهم من تنظيم الضباط الأحرار فلم ينفع معهم الضغط أو التهديد، وبذلك بقي مجلس الإدارة سليماً رغماً عن إرادة القصر،

وكان هؤلاء الباقون هم : محمد نجيب ، رشاد مهنا ، إبراهيم حافظ عاطف، زكريا محيى الدين ، حمدي عبيد ، جمال حماد ، بهجت مصطفي ، حسن إبراهيم وعبد الرحمن فوزي [63] .

الكتيبة الثالثة عشرة تستعد للتحرك إلي السودان

هكذا توالت الأحداث سريعاً ، ففي أواخر يونية ١٩٥٢ صدرت الأوامر إلي الكتيبة الثالثة عشر مشاة [64] بالتحرك من العريش إلي معسكر العباسية بالقاهرة ، بعد انتهاء مدة خدمتها في سيناء. وكان من المفروض وفقاً لتنقلات وحدات الجيش أن تبقي الكتيبة في هذا المعسكر شهرين، ريثما تستعد للتحرك إلي السودان ، لتغير كتيبة أخري انتهت مدة خدمتها بالسودان. وكان العرف أن تقوم الكتيبة المنقولة إلي السودان بتسليم جميع معداتها عدا البنادق والرشاشات الخفيفة وذخيرة الخط الأول، وعندما تصل الكتيبة إلي الخرطوم تتسلم معدات الكتيبة التي ستغيرها، وتعود الكتيبة الأخرى من السودان ببنادقها ورشاشاتها فقط. لذلك صدرت التعليمات لقيادة الكتيبة الثالثة عشرة من رئاسة الجيش بتسليم حملة الكتيبة وعرباتها المجنزرة ومدافعها واحتياطي ذخيرتها [65] .

وزارة حسين سري باشا(٢ –٢٠ يوليه ١٩٥٢)

بعد استقالة نجيب الهلالي باشا كلف الملك فاروق في وقت واحد اثنين لتأليف الوزارة الجديدة هما بهي الدين بركات باشا، وحسين سري باشا ، وأخذ كل منهما يجري مشاوراته في تأليف الوزارة دون أن يعلم أحدهما أو كلاهما أن الآخر مكلف أيضاً بتأليف الوزارة . وكان هذا إجراء فريداً من نوعه سواء في تاريخ مصر أو تاريخ أكثر الدول تخلفاً في العالم [66]. واعتبر هذا في مناقشات التنظيم السري للضباط الأحرار مظهراً سافراً لعدم الاستقرار بل لانهيار نظام الحكم [67] .

وتلبية لإلحاح ورجاء حافظ عفيفي باشا ، استدعي الملك بهي الدين بركات باشا لتأليف الحكومة الجديدة ، وكان في وسع هذا الشخص ، أن يواجه خطورة الموقف وحاجات الساعة ، لكن طالع فاروق السيئ ، كان يقوده في هذه الآونة ويوجهه ، إذ لم تمض ساعات على تكليف بهي الدين بركات ، الذي شرع في العمل ، حتى غير الملك رأيه ، واستدعي حسين سري باشا ثانية في منتصف ليلة الثاني من يوليه . وقام حسين سري بتأليف حكومته هذه المرة من المغمورين والتافهين ، وكان إدخال كريم ثابت باشا فيها نذير شؤم . إذ لم تعد هناك محاولات لاستئصال الفساد ، وعادت مصر القهقرى إلي مجراها المالي القذر.[68]

وكان وراء هذا الاختيار رجلان من رجال الحاشية هما إلياس أندراوس – المستشار الاقتصادي للملك – وكريم ثابت – المستشار الصحفي للملك ومنظم سهراته وعلاقاته المتدهورة . ومكافأة لدور كريم ثابت أدخله حسين سري الوزارة ، وزير دولة . وكان دخول كريم ثابت وزيراً بالوزارة من علامات انحدار المنصب الوزاري لأن الملك سبق وحاول فرضه كوزير على رؤساء وزارات سابقة ورفضوا جميعاً (69) .

ومنذ ٢٦ يناير ١٩٥٢ وحتى تولي حسين سري باشا الوزارة ، تملك فاروق وزمرة الباشوات الرعب من ظهور تضامن الشعب وتماسكه وسخطه، وأن هذا التضامن أصبح وجهاً لوجه مع أدوات السياسة المصرية، ولو أن السياسيين وعلى رأسهم الملك والحاشية لم يدركوا مدي تردي النسيج الاجتماعي الذي هم على قمته، والأدهي من ذلك أنهم لم يدركوا أن الوطنية المصرية التي كانت تثور على البريطانيين تحولت أيضاً للثورة على القهر والفساد وعليهم هم أنفسهم (70) .

كان محمد هاشم باشا المحامي وزوج ابنة حسين سري باشا ، ووزير الداخلية ، الرجل الأول في هذه الوزارة التي عاشت ثلاثة أسابيع فحسب، كانت سياسته تتلخص في كلمات تهدف إلي مهادنة جميع الأطراف حتي يصل بالسفينة إلي بر الأمان والتي كانت تواجه أزمة اقتصادية مرهقة وضغوطاً من القصر على الوزارة وتعثراً في المفاوضات المصرية البريطانية، فضلاً عن بوادر تمرد في الجيش بدأ يأخذ منحني خطيراً ، أما عن ضغوط القصر فكان أخطرها فرض اسم كريم ثابت باشا على الوزارة ليشغل منصب وزير القصر ويكون كما قال عن نفسه عنصراً مهدئاً بين الحكومة والملك .

كان كريم ثابت ابناً للصحفي خليل ثابت بك رئيس تحرير جريدة المقطم اليومية المسائية والعضو بمجلس الشيوخ وهو لبناني متمصر عاش لمهنته بين الخرطوم والقاهرة، ولا غبار علي حياته العامة أو الخاصة ، وعمل كريم ثابت في الصحافة الأسبوعية واليومية واشتهر بما يعرف بصحافة المغامرات وأخذ يتقرب إلي القصر منذ الأيام الأخيرة من حكم الملك فؤاد، ولكن وجد الفرصة لطموحه مع خليفته فاروق وتمكن منه ، وكانت رغبة الملك في تعيينه وزيراً قد ترددت مع تشكيل كل وزارة بل كان له من الجرأة أن عرض نفسه على وزارة على ماهر عن طريق صفيه إبراهيم بك عبد الوهاب، وبرر رغبته الجريئة بأنه سوف يعمل "فرملة" بين على ماهر وتكتل الحاشية ضده ، غير أن فضائح استغلاله للنفوذ ودوره في انحراف الملك لم يدع لعلي ماهر خياراً في رفض هذه الصفقة.

وجاء أحمد نجيب الهلالي وتجدد العرض، ولكن رد الفعل كان ثورة عارمة، حتى أن الهلالي استخدم ألفاظاً عنيفة للتعريف بكريم ثابت، بل أنه عندما ألف وزارته الثانية بعد أسابيع من هذا التاريخ رفض أن يضم إليها وزيرين كل ما اتهما به أنهما جلسا يوماً في وزارة واحدة ضمت كريم ثابت، وهي وزارة حسين سري الذي قبل تعيين كريم ثابت وزيراً للقصر، لكي يتلقى الصدمات عنها كما زين له.

وعلى أثر تعيين كريم ثابت وزير دولة في وزارة حسين سري باشا أمضي رئيس الوزراء كتاباً بندب كريم ثابت رئيساً لمجلس إدارة الإذاعة.

جاءت حكومة حسين سري باشا وتوقع الناس تكرار ما حدث في عام ١٩٤٩، حيث أجري حسين سري انتخابات انتهت بمجيء حكومة للوفد [71].

ويؤكد ذلك ما ذكره أنتوني إيدن في مذكراته فقال : " واعتقدت أن هذه الأحداث ، مقدمة لعودة الوفد ، وشاركني هذا الاعتقاد الكثيرون في مصر . وبدأت تظهر صور. النحاس باشا رئيس الوزراء السابق ، في ثوبه الحريري يرحب بعودة زميله المخزى سراج الدين ، الذي كان موقوفاً بتهمة الفساد ، واشتراكه المزعوم في فتنة القاهرة " [72] .

أما المهمة الصعبة التي واجهتها وزارة حسين سري فهي مشكلة الجيش الذي كانت كل الدلائل تؤكد أنه سوف لا يهادن الملك بعد أن نجح في فرض رياسة اللواء محمد نجيب فى انتخابات نادي الضباط متحدياً الإرادة الملكية ، لهذا رأي حسين سري أن من الحكمة ضم محمد نجيب إلي تشكيلها ، ولكن اسم محمد نجيب شطب على الفور ، ولم يعلم محمد نجيب نفسه بذلك [73]، لذلك أخذ رئيس الوزراء ، بالإضافة إلي عمله وزارتي الحربية والبحرية والخارجية [74].

مذكرة الملك

وفى يوم الخميس ١٠ يوليو ١٩٥٢ ، مرت ثمانية أيام على تولية حسين سري باشا رياسة الوزراء وفى هذا اليوم استقبل رئيس الوزراء الدكتور حافظ عفيفي باشا رئيس الديوان ومعه مذكرة بالقلم الأحمر – بخط الملك أو الشماشرجي عزيز عثمان – جاء فيها : يعتبر حيدر باشا– القائد العام – معفياً من منصبه إذا لم يعمل الآتي في خلال خمسة أيام : أولاً – حل مجلس إدارة النادي ، ثانياً – نقل ١٢ ضابطاً ، ولما ذكر رئيس الديوان أنه لا يعرفهم تساءل حسين سري باشا كيف يمكن مناقشة موضوع عن مجهولين ، كذلك اعترف

حيدر باشا بأنه لا يعرف أسماء هؤلاء الضباط [75].

وفى يوم الأحد ١٣ يوليو ، تحركت مقدمة الكتيبة الأولي مدافع ماكينة من العريش إلي ثكنات هاكستب ، وهي عبارة عن سرية إدارية تتكون من ٦٠ جندياً بقيادة قائد ثاني الكتيبة البكباشي يوسف منصور صديق. وفى نفس اليوم أصدر اللواء عباس حلمي زغلول مدير إدارة الجيش أمراً بحل مجلس إدارة نادي ضباط الجيش وتعيين مجلس مؤقت، وذلك تنفيذاً لتعليمات الفريق محمد حيدر باشا القائد العام [76].

في صباح الاثنين ١٤ يوليو ١٩٥٢ ذهب القائد العام الفريق محمد حيدر باشا إلي مجلس الوزراء وأحاطه علماً بأنه نفذ رغبة الملك بحل مجلس إدارة نادي ضباط الجيش ، فاعترض حسين سري باشا على تصرفه ولفت نظره إلي أنه لم يطلب منه حل المجلس ، بل طلب دراسة المذكرة الخاصة بالموضوع، فكان رد حيدر باشا بأن هذا اليوم الخامس الذي منحه الملك له لحل موضوع النادي ، ومنذ هذه اللحظة بدأ رئيس الوزراء التفكير في الاستقالة بسبب تدخل موظفي القصر في شئون الحكم [77].

وفى يوم الثلاثاء ١٥ يوليو ، استقبل حسين سري باشا رئيس الوزراء كبار قيادات الجيش، حيث أطلعهم على الأوضاع السياسية والعسكرية في البلاد، وذكر لهم اهتمام جلالة الملك القائد الأعلى بالقوات المسلحة في البر والبحر والجو ، وطلب منهم التضافر والتعاون مستنيرين بخبرة الفريق محمد حيدر باشا القائد العام [78].

وفى صباح يوم الأربعاء ١٦ يوليو استقبل حسين سري باشا بداره في الإسكندرية السفير الأمريكي جيفرسن كافري لاستكمال المساعي التي تبذلها الولايات المتحدة للتوفيق بين مصر وبريطانيا ، وعبر السفير عن موقفه بأنه والرئيس المصري صديقان حميمان ، كما اجتمع السفير الأمريكي في اليوم نفسه بعبد الرحمن عزام باشا أمين عام جامعة الدول العربية [79].

ويذكر الصاغ صلاح نصر – أحد الضباط الأحرار : "زارني البكباشي جمال عبد الناصر والصاغ عبد الحكيم عامر في منزلي في منتصف يوليو ١٩٥٢ وناقشنا الموقف ، ووصلنا إلي ضرورة القيام بعمل إيجابي والتحرك للاستيلاء على السلطة. وسألني جمال عبد الناصر عن مدي استعداد الضباط ، قلت له : إننا جميعاً مستعدون للتحرك " [80].

حل مجلس إدارة نادي الجيش المنتخب

في ١٦ يوليو ١٩٥٢ طلب أركان حرب قسم القـاهرة ، مـن البكباشـي إبراهيم حافظ عاطف – سكرتير عام المجلس التنفيـذي لمجلـس إدارة نـادي الضباط – الانتظار في نادي الضباط بالزمالك في الساعة الثالثة والنصف بعـد الظهر لمقابلة اللواء على نجيب قائد قسم القاهرة – المحروسة – وعلم إبـراهيم عاطف بعد عدة اتصالات أن المقابلة ستكون بخصوص صدور أمر من رئاسـة هيئة أركان حرب الجيش بحل المجلس، وأبلغ إبراهيم عاطف الخبر للواء محمد نجيب رئيس مجلس الإدارة، وتأكد محمد نجيب من صحة الأمر، وكلف إبراهيم عاطف بالتصرف بما يتراءى له في مقابلة على نجيب. فاتصل إبراهيم عـاطف بالصاغ طيار حسن إبراهيم مساعد سكرتير عام المجلس التنفيذي ، واتفق معـه على الحضور في الميعاد المحدد في النادي وعلم من حسن إبـراهيم أن هنـاك أوامر صدرت بإشارات إلي جميع الوحدات بعدم مغادرة المعسكرات، إلي حـين صدور أوامر بحجة أن رئاسات الجيش العليا ستمر على الوحدات والمعسكرات وكان ذلك لضمان عدم تجمع أي ضباط في النادي [81].

وحضر اللواء على نجيب في الميعاد في النادي وكان معه مجموعة مـن الضباط – أميرالاى محمد حسني ، وأميرالاى جلال صبري وقائمقام مصـطفي كمال عبد الرازق ، وبكباشي يوسف العجرودي ، وصاغ حافظ صدقي ، وقائد أسراب على صبري وضابط من البحرية وآخرون – وأبلغ على نجيب إبـراهيم عاطف أنهم حضروا لاستلام النادي بأوامر من جهة عليا ، فقد صدرت أوامـر بحل مجلس الإدارة وعارض هذا إبراهيم عاطف بأنه لا يملـك حـل مجلـس الإدارة المنتخب إلا بالعرض على الجمعية العمومية التي انتخبتـه ، واسـتمرت المناقشة إلي قرب الغروب، حيث بدأ الزوار من الضباط وبأعداد كبيرة تفد إلـي النادي وتحرج الموقف، وأجل اللواء على نجيب المناقشة إلي اليوم التـالي ولـم يجر أي تسلم أو تسليم [82].

وفى مساء ١٦ يوليو اجتمع بمنزل الصاغ محمد عبد العزيز هندي عـدد من الضباط الأحرار هم : جمال عبد الناصر ، وشمس بدران ، وعبـد القـادر مهنا ، وأحمد عبد الرحمن نصير ، وجمال القاضي ، وزغلول عبد الـرحمن ، وأقسموا على المصحف على الوفاء بما عاهدوا عليه أنفسهم من القيام بـالثورة وأن تكون الشريعة الإسلامية رائدهم ، وبعد أن تردد جمال عبد الناصر لحظـة – كما يقول الصاغ هندى – وافق وأقسم في النهاية [83].

في هذه الفترة أصبحت قضية نادي ضباط الجيش مادة للشـائعات، لهـذا صدر قرار سري من الرقيب العام – البلاد مازالت تحت الأحكـام العرفيـة – وذلك بتاريخ ١٦ يوليه بمنع نشر أخبار النادي في الصحف وكـان مـن ردود الفعل على حل المجلس رفع قضيته إلي مجلس الدولة تولاها المحامي صـبري الحكيم [84].

مصطفي أمين وبرقية اللواء محمد نجيب

وفى الساعة السابعة من مساء الأربعاء ١٦ يوليو اتصل مصطفي أمـين بالوزير كريم ثابت، وطلب مقابلته لأمر خطير . ورحب كريم بمقابلة مصـطفي أمين ، وفور حضوره أخبره بأن الحالة فـي الجـيش مضـطربة ، وأن أحـد محرري " أخبار اليوم " أسر إليه أنه نما إلي اللواء محمد نجيـب قائـد سـلاح المشاة أن النية متجهة إلي نقله إلي جهة نائية ، فقرر أن يستقيل مـن الجـيش ، وأعد برقية بهذا المعني ليرسلها إلي رئيس هيئة أركان حرب الجيش [85].

ويذكر كريم ثابت : " وأطلعني مصطفي أمين علـى صـورة البرقيـة ، وكانت هذه أول مرة أسمع فيها أن هناك توتراً بين القصر وفريق من الضباط ، وأن هناك اضطراباً ، وأن هناك تفكيراً في تشتيت بعض الضـباط والاسـتغناء عن خدمات آخرين ، وأن محمد نجيب يفكر في الاستقالة وأن اسـتقالته تزيـد الموقف تعقداً . وعلى الفور اتصلت بزميلي الـدكتور محمـد هاشـم – وزيـر الداخلية فلم أجده ،وتركت له رسالة بضرورة الاتصال بي بمجرد وصوله. وفى الساعة التاسعة والنصف كلمني هاشم في مصر الجديدة، واتفقنا علـى الالتقـاء فوراً في مكتبه بوزارة الداخلية، فحدثته عما سمعته من مصطفي أمين، فأبـدي اهتماماً عظيماً بالموضوع، وأقبل مصطفي أمين ، فطلبت إليه أن يعيـد علـى هاشم ما قصه على . وفى هذه الجلسة عرفت أموراً جديدة كثيرة عـن حركـة الضباط الأحرار ونشاطهم وعن روح التذمر في الجيش ،وكنت أجهلهـا جهـلاً تاماً [86].

" ولما طالت جلستنا ، خشينا أن نستلفت أنظـار الصـحفيين والمـوظفين الموجودين في الوزارة ، فاقترحنا على مصطفي أمين أن يسبقنا إلي بيته علـى أن نلحق به بعد قليل فنستأنف حديثنا وبحثنا عنده ، وندعو إلي مقابلتنا من نـود دعوته ، وقد اخترنا بيته مكاناً لاجتماعنا لعدم وجود " حراسـة " عليـه ، فـلا يدري أحد بحركاتنا ومقابلاتنا . وبالفعل قام الدكتور محمـد هاشـم بالاتصـال

بالفريق حسين فريد يسأل عن الحالة في الجيش وأخبار اللواء محمد نجيب، فأكد حسين فريد أن كل شئ هادئ فعلاً ، وأنه سيبحث موضـوع استقـالة محمـد نجيب في الصبـاح " [87].

اتفقت آراؤنا على أن تعيين محمد نجيب وزيـراً للحربية خير ما يعمـل في هذه الظروف ، إلي جانب خروج اللواء حسين سري عامر مـن الجـيش ، وقلنا إن تعيين محمد نجيب وزيراً للحربية لن يقتضي تعديلاً في الوزارة مـا دام رئيس الوزارة هو الذي يتولي شئون وزارة الحربية ، فمن السـهل أن يتنـازل عنها للوزير الجديد ويكتفي بالرئاسة مع الخارجية – وقدرنا أن إقناع الملك بهذا الرأي لن يكون مهمة سهلة ، ولا سيما بعد انتخاب الضباط لمحمد نجيب رئيسـاً لناديهم في الانتخابات التي لم يرض عنها جلالته . غيـر أننـا أجمعنـا علـى ضرورة بذل كل ما يمكن بذله لإقناعه بقبولة ! [88] .

ويقول كريم ثابت : وكان محمد حسن – الشماشرجي – في القاهرة فـي ذلك اليوم ، فاستحسنا دعوته إلينا لنفهمه أن شئون الجيش شئون دقيقة لا يستهان بها ،وأن الاسترسال في تأييد اللواء حسين سري عامر يوغر صدور عدد كبيـر من الضباط ، ولنطلب منه أن يعاوننا في إقناع الملك بقبول اللواء محمد نجيـب وزيراً للحربية . واتصل به مصطفي أمين بالتليفون وطلب منه أن ينضم إلينـا ، فحضر بعد قليل وبعدما أصغى إلي ما أردنا أن نقوله له ، تظاهر بالاقتناع بـه ووعد بتأييد فكرتنا عند الملك " وإن كنت – كما قال – أؤكد لحضراتكم أنه ليس في الجيش ما يدعو إلي الانزعاج والقلق ، فإن الحالة عادية وكل شئ على مـا يرام ، وما الضجة التي يثيرها بعض الضباط سوي ضجة مصطنعة ، ولا يزيد عددهم على عشرين ضابطاً علـى أكثـر تقـدير ، وهـم ضـباط مشـاغبون ومعروفون، وقليل من الحزم كفيل بوضع كل شئ في نصابه ! " [89].

ويستطرد كريم ثابت قائلاً : " دق جرس التليفون ، وكان المتكلم طه عبـد المطلب – مدير مكتب الدكتور محمد هاشم وزير الداخلية ، فأخبره أنه ومحمـد نجيب قد وصلا إلي بيته ، فقال له إنه سيوافيهما بعد خمس دقائق . وانصـرف وزير الداخلية لمقابلة اللواء محمد نجيب" [90].

مقابلة وزير الداخلية للواء محمد نجيب

ويذكر الدكتور محمد هاشم – وزير الداخلية أن مقابلته مع اللواء محمـد نجيب تمت في الساعة الثانية صباح يوم ١٧ يوليـو فـي منزلـه (أي منـزل

الوزير): "تقابلت مع اللواء نجيب وفاتحته في الموضوع ، ورد اللواء نجيب:" إن مجلس إدارة النادي حُل وإني سوف أنقل إلي منقباد وأنا رجل كبير لا أحب أن يعتدي على أحد لذلك صممت على الاستقالة ". ويستطرد الدكتور محمد هاشم : "لم أستطع أن أعده بأنه لن يكون هناك أمر بنقله أو نقل أحد الضباط بعد أن رأيت كيف حل الفريق حيدر النادي ، ولم أصارحه بأن حسين سرى باشا يميل للاستقالة لأني لم أعلم تطورات الأمور في الإسكندرية "[91].

ويستطرد وزير الداخلية : قلت للواء نجيب : "هل تثق بي" قال : اللواء نجيب : "أثق بك" قلت" إذا طلع النهار فوجدت نفسك أو أي ضابط آخر قد نقل أو فصل فإني أرجوك أن لا تنفذوا النقل ولا تتحركوا إلا إذا جلسنا جلسة أخري كهذه" ، ثم قام طه عبد المطلب مدير مكتب وزير الداخلية بتوصيل اللواء محمد نجيب في سيارتي إلي منزله [92].

رواية اللواء محمد نجيب عن مقابلته لوزير الداخلية

هذه رواية الدكتور محمد هاشم عن مقابلته للواء محمد نجيب ، أما رواية اللواء محمد نجيب عن المقابلة نفسها فيرويها على النحو التالي : "جاء إلي البيت المدعو غرس الدين – وهو مخبر أو كاتب كان يعمل سابقاً مع وكيل الداخلية القيسى باشا الذي تربطني به علاقة عائلية – وذلك عند الغروب – يوم ١٨ يوليو – وقال لي : إن هاشم باشا يريد مقابلتك بمنزله ، فوافقت وذهبت في الساعة نفسها بدون طبنجة وبدون احتياط إلي الزمالك فلم أجد أحداً سوي شرطي في الخارج ، وفتح الباب شخص لعله مخبر وانتظرت في غرفة الصالون حتى الساعة ١,٤٥ صباحاً بسبب وجوده (أي الوزير) بمجلس الوزراء – مجلس الوزراء انتقل إلي الإسكندرية منذ شهر مايو – واعتقدت أن هذه قد تكون مؤامرة لاغتيالي ولم أحضر مسدسي ، وجلست بجوار فازة نحاس قد أضطر لاستخدامها في الدفاع " [93].

" حضر هاشم باشا واعتذر وسال عن سبب تذمر رجال الجيش، فلم أرد أن أتوسع معه، ولكني أشرت إلي انتخابات النادي وفشل حملة فلسطين مما يعلمه الجميع ، وطلبت إصلاح الفساد ومنع التجارة في الأسلحة كما أشرت إلي أن الملك سحب إعانة النادي، ولمحت له بأن سبق أن عرض على منصب وكيل وزارة الحربية بدلاً من المرحوم اللواء عبد الحميد باشا حافظ – والمقصود كان إبعادي من الجيش – وسألني هاشم ما رأيك في منصب وزير الحربية ؟

فضحكت وقـلت : إنني سـأكون سببـاً في إقالة الـوزارة بعـد ٢٤ سـاعة. ورفضت المنصب " [94].

ويستطرد اللواء محمد نجيب قائلاً : " وكان رفضي في الحقيقـة مسـتنداً إلي شعوري بأنهم يقومون بمناورة لإبعادي عن الجيش. وخلال هـذا الحـديث الذي امتد حتى الثانية بعد منتصف الليل ، أبلغني هاشم باشا بطريقة عـابرة أن هناك قائمة بأسماء (١٢) شخصاً عرفت الجهات المسئولة أسماء ثمانية مـنهم .. ثم لم يشأ أن يصرح بشيء .. وأبديت له عدم الاكتراث بمثـل هـذا الحـديث ، مؤكداً له أن هناك شعوراً عاماً وجارفاً في صفوف الجـيش ضـد كثيـر مـن تصرفات رجال السراي. وأثناء عودتي إلي منزلي في الزيتـون ، وكـان ليـل القاهرة هادئاً صافياً استرجعت مادار من حديث ، وأدركت أن الموقف خطيـر . ونمت نوماً متقطعاً وأنا أرنو إلي نور الصباح " [95].

وفى صباح ١٧ يوليو اتصل الدكتور محمد هاشم تليفونياً برئيس الوزراء في الإسكندرية وأحاطه علماً بكل ما تم ، فرد حسين سري باشا بأنـه سـيحاول المحاولة الأخيرة مع الملك بعرض الطلبات الآتية : فصل اللواء حسـين سـري عامر فوراً ، تعيين اللواء محمد نجيب وزيراً للحربية تكوين لجنة تطهيـر فـي الحربية [96].

كما اتصل في الصباح نفسه – صباح ١٧يوليو – اللواء محمـد نجيـب بالبكباشي إبراهيم عاطف، وكلفه بتنفيذ التعليمات بالتسليم ،وكلفه أيضـاً بمقابلـة شقيقه اللواء على نجيب بقسم القاهرة ، وعلى الفور انتقل البكباشي إبراهيم إلـي قسم القاهرة حيث اجتمع باللواء على نجيب في مكتبه وعلى انفـراد، وبلغـه أن جميع اعتراضاته وكلامه اليوم السابق قد بلغت إلي الجهات العليـا، وأن اللـواء حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب كان موقفه مشرفا جدا ، حيث كان يـدافع عن إبراهيم عاطف كأنه أحد أبنائه، ونصح على نجيب إبـراهيم عـاطف بـأن يجعل العاصفة تمر، ويجب أن نميل معها حتى لا ننكسر، وبعد أن تمر العاصفة يمكن استعادة الموقف واستئناف العمل [97].

انتشر خبر محاولة حل مجلس الإدارة بين جميع ضباط الجـيش بسـرعة مذهلة وقابل البكباشى إبراهيم عاطف اللواء على نجيب يوم ١٧ يوليـو ١٩٥٢ ومعه اللجنة السابق ذكرها عدا قائد الأسراب على صبري وتم تسـليم أعمـال مجلس الإدارة لهذه اللجنة وبذلك تمت إجراءات حل مجلس إدارة نادي ضـباط

الجيش بتحد سافر من الملك بغير سند من أي شرعية أو قانون أو لائحة (98).

وفى صباح ١٧ يوليو أيضاً ، استعرض وزير الداخلية الفرقة البوليسية المدرعة التي كان قد أمر بتشكيلها وزير الداخلية السابق محمد مرتضى المراغي باشا لقمع المظاهرات واستوردت أجهزتها من الولايات المتحدة الأمريكية – ويقال أنها منحة منها – وذلك بدعوة من حكمدار العاصمة اللواء أحمد طلعت بك (99).

اجتماع لجنة القيادة للضباط الأحرار

في مساء ١٧ يوليو ١٩٥٢ ، عقدت لجنة القيادة للضباط الأحرار اجتماعاً عاجلاً حضره الجميع عدا أنور السادات وصلاح سالم، وذلك بعد أن وصلتهم معلومات عن نية الملك حل مجلس إدارة النادي تحدياً لهم وعلم أيضاً أن هناك أخباراً تسربت بأن الحكومة سوف تعتقل أي ضابط يعارض قرار الحل ، وأن محمد نجيب معرض للاعتقال والطرد من الخدمة (100).

ساد الاجتماع صمت مرير وحزين قطعه صوت عبد الحكيم عامر قائلاً: "لقد وجه لنا الملك صفعة شديدة ،وما لم نرد عليه بصفعة مماثلة فإن تنظيمنا سيفقد ثقة الضباط ولن يقبل أحد الانضمام إلينا ، خاصة وأن أخباراً تسربت إلينا بأن هناك قراراً باعتقال أي ضابط يعارض قرار حل النادي" . وتقدم جمال عبد الناصر باقتراح مؤداه أن يقوم التنظيم بسلسلة اغتيالات تستهدف هز أركان النظام ، واقترح أن نغتال حسين سري عامر وحسين فريد وحيدر باشا وحسن حشمت – قائد القوة المدرعة الذي كان رأس الرمح فى الهجوم على الضباط المؤيدين للواء محمد نجيب في مجلس إدارة النادي ، وأحد قادة الجيش المشهورين بولائهم للسراي (101).

اتفقت لجنة القيادة أن يجهز كل عضو مجموعته للبدء في التنفيذ ، كما تم الاتفاق على الاجتماع في الغد بمنزل اليوزباشي خالد محيى الدين بمصر الجديدة لاتخاذ القرارات المناسبة (102).

تحركات الضباط الأحرار واجتماع لجنة القيادة يوم ١٨ يوليو

في صباح الجمعة ١٨ يوليو ١٩٥٢ قام البكباشي جمال عبد الناصر واليوزباشي خالد محيى الذين بزيارة الصاغ ثروت عكاشة في منزله بثكنات العباسية ليحيطاه علماً بأن الرأي استقر على أن يكون تنفيذ الانقلاب يوم ٥

أغسطس بالتحديد، وليس في ٥ نوفمبر كما سبق أن تقرر في حالة عدم اجتماع البرلمان في موعده في نوفمبر ، ثم توجه الثلاثة إلي منزل البكباشي حسين الشافعي بثكنات العباسية لإبلاغه بموعد الانقلاب ، وصلي الجميع صلاة الجمعة على صوت الراديو في شرفة الفيلا [103] .

بعد ذلك اجتمعت لجنة القيادة في منزل حسين الشافعي، وحضر هذا الاجتماع لأول مرة البكباشي يوسف منصور صديق – قائد ثاني كتيبة مدافع الماكينة الأولي – حيث أحضره البكباشي جمال عبد الناصر ، لأن يوسف كان يريد أن يطمئن على وجود قوات كافية ، وبعد مناقشات طويلة صرف النظر كلية عن عمليات الاغتيال، واقترح جمال عبد الناصر وضع خطة تفصيلية لبدء التحرك الإيجابي بالسيطرة على القوات المسلحة وحدد الهدف بالاستيلاء على المنطقة العسكرية – رئاسة الجيش – وتحدد توقيتاً لذلك يوم ٢ أو ٣ أغسطس ١٩٥٢ [104]. وكان هذا هو الموعد الثاني .

عبد الناصر يجتمع بقادة الإخوان المسلمين يوم ١٨ يوليو

كان جمال عبد الناصر قد طلب في هذا اليوم – الجمعة ١٨ يوليو – عقد لقاء هام وعاجل مع قادة الإخوان المسلمين . وقد تم هذا اللقاء في ذات اليوم حوالي الحادية عشرة مساءً في منزل عبد القادر حلمي ، وحضره مع عبد الناصر كمال الدين حسين وعبد الحكيم عامر . وحضره من الإخوان مع عبد القادر حلمي ، حسن العشماوي وصالح أبو رقيق ، وصلاح شادي وفريد عبد الخالق ،وأخبر عبد الناصر الإخوان بحدوث أمور خطيرة، إذ أن أسماء أعضاء مجلس قيادة الضباط الأحرار قد عرفها البوليس السياسي [105].

ولذلك فإنهم يرون وجوب الإسراع بالقيام بالانقلاب ، وقد قرروا ذلك فعلاً ، وسأل جمال عبد الناصر عما إذا كان الإخوان موافقين ومستعدين للقيام بدورهم الذي سبق الاتفاق عليه وتحمل المسئوليات بعد إتمام الانقلاب ، وطلب رداً سريعاً ، ولكن الإخوان أفهموه أن صاحب الكلمة في هذه الأمور هو المرشد وأنه موجود بالإسكندرية وأن الرد يحتاج علي الأقل إلي ٤٨ ساعة للسفر لاستطلاع رأي المرشد وتحديد لقاء بعد هذه المدة ، وسافر عبد القادر حلمي ومعه صالح أبو رقيق وفريد عبد الخالق ، واتفق على بقاء صلاح شادي في القاهرة لانتظار جمال عبد الناصر في الموعد المتفق عليه في حالة احتمال تأخير عودة عبد القادر حلمي وإخوانه من الإسكندرية ، وقد تحقق فعلاً هذا

الاحتمال ، وعندما حضر جمال عبد الناصر في الميعاد المحدد في ٢٠ يوليو تأجل اللقاء العام حتى يعود عبد القادر حلمي من الإسكندرية بعد لقاء المرشد[106].

عرض عبد القادر حلمي وإخوانه الموضوع على المرشد ، الذي وجه إليهم عدة استفسارات أهمها مدي تمسك هؤلاء الضباط بالإسلام ومدي إخلاصهم في قولهم بالعمل على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وهل تم الاتفاق في وضوح وصراحة على هذا الأمر؟ وهل اتفق على المشاركة الكاملة بين الإخوان والضباط الأحرار في الانقلاب والمسئولية إزاءه والتعاون في تنفيذه وبعد نجاحه، وفى النهاية أعطاهم المرشد موافقته المشروطة بالأمرين السابقين، كما أعطاهم الحق في الاتصال بالإخوان لتنفيذ التعليمات في الوقت المناسب، التي تترتب على قيام الانقلاب والمشاركة فيه بما فيهم ضباط الإخوان في الجيش لتنفيذ ما يصدر إليهم من تعليمات قيادتهم ، وعندما عاد عبد القادر حلمي وإخوانه متأخرين عن الموعد السابق عرفوا الموعد الجديد للقاء جمال عبد الناصر الذي حدده معه صلاح شادي يوم ٢١ يوليو [107].

اجتماع لجنة القيادة يوم ١٩ يوليو

دعا جمال عبد الناصر لجنة القيادة لاجتماع عاجل يوم السبت ١٩ يوليو وهو اليوم نفسه الذي التقي في صباحه مع اللواء محمد نجيب الذي أبلغه المعلومات المزعجة التي سمعها من وزير الداخلية.

أكد جمال عبد الناصر في هذا الاجتماع على أن موعد الانقلاب سيكون ليلة ٢٣ يوليو بدلاً من ليلة ٢٢ يوليو، ليتم استكمال دراسة الخطة التفصيلية للتنفيذ ، وتحديد مهمة كل وحدة من الوحدات العسكرية التي ستساهم بدور في الانقلاب . ودور كل ضابط سيشترك بها . وكذا لإبلاغ جمال سالم وصلاح سالم ومحمد أنور السادات الموجودين بمنطقة العريش ورفح بالموعد الذي حددناه للتنفيذ ، وحتى تتاح لهم الفرصة أيضاً لإعداد أنفسهم في منطقتهم والتنبيه عليهم بعدم التحرك إلا بعد أن نكون قد تحركنا في القاهرة وحققنا بنجاح الخطوة الأولى. [108]

وأنه سيتم إخطارهم تليفونياً بذكر كلمة السر والتي كنا قد اتفقنا عليها وهي كلمة (نصر) ، وسافر إليهم حسن إبراهيم يوم ١٩ يوليه بالطائرة ليطلعهم على الموقف وما قررناه ودورهم . ولإبلاغ محمد أنور السادات كذلك بالنزول

إلي القاهرة قبل الموعد المحدد للتنفيذ ليشترك معنا عند التحرك وليقوم بالـــدور الذي كان قد حدد له في الخطة . وهو العمل على تعطيـــل شـــبكة التليفونـــات الموصلة بين القيادة العسكرية ووحدات الجيش المختلفة ثم يعاد تشغيلها لصالحنا والاستفادة بها (109).

ويذكر عبد اللطيف البغدادي : "وكان تواجد (٨٠,٠٠٠) جندي بريطـــاني في منطقة قناة السويس يشغل بالنا وتفكيرنا باستمرار خشية تـــدخلهم عســـكرياً عندما نتحرك ، ولكن لم يكن أمامنا من مفر غير قبول هذا الخطر ، وإلا جمدنا موقفنا حتى يتم جلاؤهم عن بلادنا . وموعد جلائهم غير معـــروف ولا محـــدد. والموقف والظروف التي يمر بها وطننا لا تتحمل هذا التأجيل غيـــر المحـــدد . ورأينا أن نضع في اعتبارنا عند وضع خططنا التفصيلية احتمال هـــذا التـــدخل منهم . وأن نحسب حسابه . وأن نعد أنفسنا له وذلـــك بالتصـــدي لهـــم بقـــوات عسكرية عند مدخل القاهرة الشرقي وأن نعمل على التعـــاون مـــع المنظمـــات الشعبية خاصة جمعية الإخوان المسلمين، لمقاومـــة هـــذا التـــدخل مـــنهم لـــو حدث(110)".

إبلاغ جمال وصلاح سالم وأنور السادات

وفى يوم السبت ١٩ يوليو تم إبلاغ جمال سالم وصـــلاح ســـالم وأنـــور السادات الموجودين بمنطقة العريش ورفح بالموعد الذي تحدد بصـــورة نهائيـــة بواسطة قائد الأسراب حسن إبراهيم الذي سافر إليهم بالطائرة، وتم التنبيه عليهم بعدم التحرك إلا بعد أن تتحرك الوحدات العسكرية في القاهرة، وتحققت المرحلة الأولي من الخطة . وأنه سيتم إخطارهم تليفونياً بذلك بذكر كلمة السر "نصـــر" . كما قام حسن إبراهيم بإبلاغ أنور السادات بالنزول إلي القاهرة يـــوم ٢٢ يوليـــو قبل الموعد المحدد للتنفيذ ليشترك مع القوات عند التحرك وليقوم بالـــدور الـــذي كان قد حدد له في الخطة ، وهو العمل على تعطيل شبكة التليفونات الموصـــلة بين القيادة العسكرية ووحدات الجيش المختلفة وقت الانقلاب إلي أن يتم السيطرة على الجيش ووحداته المختلفة ثم يعاد تشغيلها لصالح الحركة والاستفادة بها.(111)

وبالفعل طلب البكباشي محمد أنور السادات إجازة عارضة وافـــق عليهـــا قائد الالآي عن يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢.

ويقول أنور السادات : " وفى يوم ٢١ يوليو في ساعة مبكرة من الصـــباح كانت هناك طائرة تتجه من القاهرة إلي العريش ، وهي نفســـها الطـــائرة التـــي

تسافر إلي العريش عادة كل يوم "إثنين" لكن في هذه المرة كان حسن إبراهيم فيها ، أرسله جمال عبد الناصر إلينا "صلاح سالم وجمال سالم وأنا ". وكان جمال عبد الناصر قد اتصل بنا تليفونيا وأخطرنا بأن " حسن إبراهيم" في طريقه إلينا ، وفى مطار العريش كنت مع جمال سالم فى انتظار الطائرة. جاء حسن إبراهيم ليبلغنا أن الخطة الأساسية ستنفذ ما بين ٢٢ يوليو و ٥ أغسطس ! وطلب حسن مني أن أسافر على الفور إلي القاهرة لمقابلة جمال عبد الناصر هذا ما قاله السادات في كتابة "قصة الثورة كاملة " [112] إلا أنه قال في كتابه " البحث عن الذات " أن عبد الناصر طلب أن أنزل إلي القاهرة يوم ٢٢ يوليو [113].

وهذه التواريخ التي ذكرها أنور السادات تتضارب مع بعضها وتخالف السياق التاريخي فالجميع من رجال لجنة القيادة الذين حضروا الاجتماع بما فيهم حسن إبراهيم الذي حمل الرسالة قد أكدوا أن السادات أبلغ يوم ١٩ يوليو ١٩٥٢ بضرورة تواجده يوم ٢٢ يوليو بالقاهرة لأن موعد قيام الحركة قد تحدد بصورة نهائية ليلة ٢٣ يوليه ١٩٥٢.

الساعات الأخيرة في وزارة حسين سري باشا

في الأيام الأخيرة من عمر وزارة حسين سرى باشا كان الخاصة والعامة يتهامسون عن اتجاهات لبعض ضباط الجيش يتحدون الملك وخاصة أن بعض المنشورات قد وصلت إلي أيدي المسئولين وبعض قيادات النقابات العمالية والمهنية ورؤساء الصحف وكانت هذه المنشورات تشير إلي حرب فلسطين وإلي صفقات الأسلحة المشبوهة وإلي الفساد الذي استشري في الجيش وفى مختلف مرافق الدولة[114].

وأراد حسين سرى باشا أن يهدئ الموقف بين الملك وضباط الجيش وعرض على الملك إمكان إسناد وزارة الحربية إلي اللواء محمد نجيب ليكون ذلك ترضية للضباط، وكان حسين سرى قد سبق ورشح محمد نجيب لهذا المنصب عند تأليفه الوزارة وقبل قرار حل مجلس إدارة نادي الضباط المنتخب، ولكن الملك رفض وتولي حسين سري وزارة الحربية مع رئاسة الوزارة .[115]

وفى العاشرة من صباح يوم السبت ١٩ يوليو ١٩٥٢ ، اتصل حسين سرى باشا من الإسكندرية بالدكتور محمد هاشم باشا الموجود في القاهرة وطلب منه الحضور فوراً ، فوصل الساعة الثالثة عصراً ، فابتدره حسين سرى باشا بقوله : "اسمع المهازل طلبت من السراى الطلبات السابقة والخاصة بتعيين

اللواء محمد نجيب وزيراً للحربية، وإعفاء اللواء حسين سرى عامر من الخدمة في الجيش فردت بالآتي : أرفت محمد نجيب وعين حيدر باشا وزيراً للحربيـــة. ودهشت لأن حيدر كان مطلوب طرده ، فلما ألحيت مرة أخري ردت السراي : إذا كان لابد من فصل حسين سرى عامر فيجب فصل محمد نجيب معه(116).

وفى يوم الأحد ٢٠ يوليو ١٩٥٢ دعا حسين سرى باشــا الــوزارة إلـــي الاجتماع به في داره بالإسكندرية ، وأطلعهم على تفاصيل الأزمة فـــي جميــع مراحلها ، وختم بيانه بقوله إنه قرر الاستقالة ، إذ يتعذر عليه المضي في الحكم بعدما رفض الملك اقتراحاته ، فأيدوه في موقفه ووافقوا على الاستقالة . ثم قــال حسين سري : إذن فقد تقررت الاستقالة بالإجماع(117).

وفى نحو الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ٢٠ يوليو اتصــل انــدراوس بكريم ثابت تليفونياً وقال له : يحسن بحسين سري باشا أن يقدم استقالته فــوراً ، وألا ينتظر حتى صباح الغد ، فقد سمعت أن بعضهم يقترح على الملــك إقالـــة الوزارة بكتاب شديد العبارة. وعلى الفور أسرع كريم ثابت إلي حسين سرى في بيته ، ونبأه بذلك ، فنهض إلي التليفون وكلم حافظ عفيفي باشا فى منزلــه ، ثــم ذهب إليه بكتاب الاستقالة(118) .

وقال حافظ عفيفي باشا لحسين سرى باشا وهو يتسلم منه الإستقالة : أنـــا من رأيكم وأؤيدكم ، لا فقط في وجوب خروج حسين سرى عامر من الجــيش ، بل أيضاً في وجوب تعيين اللواء محمد نجيب وزيراً للحربية . ولكن نعمل إيـــه إذا كانت البلاد بيحكمها خادم ! إشارة إلي محمد حسن الشماشرجي(119).

وذكر حسين سرى في كتاب استقالته : " أن الأمانة تقتضي أن أبين للمقام السامي الكريم أنني أصبحت غير قادر على الاستمرار في تحمل أعباء الحكــم ، راجياً أن تتنازلوا جلالتكم فتتفضلوا بقبول استقالتي"(120).

وقبل الملك استقالة وزارة حسين سري باشا يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، وجاء في الأمر الملكي بقبول الاستقالة : "كنا نود أن تعملوا على تذليل الصعاب التـــي من أجلها قدرتم عدم إمكانكــم الاستمرار في مهمتكم ، فتحققوا بذلك مــا عقــد عليكم من أمل عندما حملتم أمانة الحكم ، إلا أنكم آثرتم أن تتخلــوا عــن هــذه المهمة في الظروف الدقيقة التي تواجهها البلاد ، والتي اخذ يتزايد فيها الشــعور بثقل التبعات ، ولم يعد يسعنا إلا أن نجيبكم إلي ملتمسكم . قد أصدرنا أمرنا هذا إلي مقامكم الرفيع بقول استقالتكم " (121) .

بلاغ الصاغ ثروت عكاشة للبكباشي جمال عبد الناصر

وفى يوم ٢٠ يوليو ، ١٩٥٢ تلقي الصاغ ثروت عكاشة مكالمة تليفونية من زوج شقيقته أحمد أبو الفتح رئيس تحرير المصري الموجود بالإسكندرية يخبره أن حكومة حسين سري باشا ستقصي عن الحكم ، وإن أحمد نجيب الهلالي سوف يشكل وزارة جديدة وسيكون وزير الحربية فيها اللواء حسين سرى عامر العدو اللدود للضباط الأحرار وتنظيمهم ، وأفهمه بصورة ملتوية بضرورة عمل شئ قبل أن يقبضوا عليهم . وعلى الفور أبلغ ثروت عكاشة هذه الأخبار المزعجة للبكباشي جمال عبد الناصر [122].

وعرف الضباط الأحرار ما حدث فأيقنوا أن الموقف بينهم وبين الملك أصبح حاسماً ، وأنه إن ظفر بهم حوكموا بتهمة الخيانة لا ريب ، هذا إذا لم يغتالوا بليل ويقضي على حياتهم ثم لا يعرف أحد مصيرهم . لذلك لم يلبثوا حين قدم حسين سرى باشا استقالته إن اجتمعوا قرروا انتزاع الموقف من يد الملك ليأخذوه بيدهم . فالمسألة الآن بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت. وخير أن يموتوا كراماً في معركة إذا هم لم ينتصروا . فإن انتصروا آل الأمر إليهم وأنقذوا رؤوسهم [123].

تطابقت رواية اللواء محمد نجيب مع رواية الصاغ ثروت عكاشة وعززت كل منهما الأخرى ، ودعي البكباشى جمال عبد الناصر لجنة القيادة للاجتماع.

اجتماع لجنة القيادة يوم الأحد ٢٠ يوليو ١٩٥٢ .

وفى اجتماع لجنة القيادة بمنزل الصاغ خالد محيى الدين حكي جمال عبد الناصر ما قاله له اللواء محمد نجيب عن قصة قائمة الإثني عشر ضابطاً ثم حكي ما قاله ثروت عكاشة. وقررت لجنة القيادة التحرك فوراً خلال ٤٨ ساعة.. وتحددت ليلة ٢٢ يوليو ، إلا أن جمال عبد الناصر عاد يوم ٢١ يوليو ليبلغ لجنة القيادة بأنه يري التأجيل ليلة أخري انتظاراً لحشد قوات أكبر. وتحددت ليلة ٢٣ يوليو كموعد نهائي . وخلال الفترة من ٢٠ يوليو وحتى يوم ٢٢ وضعت الخطة النهائية لحركة الجيش بعد أن روجعت بالحذف والإضافة[124].

وفى يوم ٢٠ يوليو أعلنت حالة الطوارئ ابتداءً من الساعة السابعة مساءً إلي صباح اليوم التالي . كما اجتمع جمال عبد الناصر في هذا ، ليوم للمرة

الثانية بممثل جماعة الإخوان بعد يومين من الاجتماع الموسع الذي عقد في منزل عبد القادر حلمي وحضرة خمسة من الجماعة بشأن معاونة الجماعة في حماية المرافق العامة عند قيام الحركة (125).

وفى مساء يوم ٢٠ يوليو عقد اجتماع موسع في منزل الصاغ صلاح نصر بحدائق القبة ، حضره ما يزيد على خمسة عشر ضابطاً من التنظيم منهم جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ويوسف منصور صديق وزكريا محيي الدين وصلاح سعده وعمر محمود وبعض ضباط الكتيبة الثالثة عشرة من التنظيم وصلاح نصر (126).

وشرح جمال عبد الناصر الموقف العام وقال : إن نسبة النجاح ضئيلة جداً فالملك متربص بنا ، والإنجليز في منطقة قناة السويس قد يتدخلون لضرب الثورة ، وأمريكا قد تتدخل بجانب الملك ، وقد يحدث تدخل من بعض وحدات الجيش ، ولكن لابد أن نتحرك . واستطرد جمال عبد الناصر قائلاً : حتى لو أخفقنا وأعدمنا الملك ، فإننا نكون قد مهدنا السبيل لغيرنا كي يعرفوا طريق الثورة . ثم شرح جمال عبد الناصر دور الكتيبة الثالثة عشرة في عملية الاستيلاء على مقر القيادة العسكرية بكوبري القبة. وتقرر في نهاية الاجتماع عقد اجتماع أخير عصر يوم ٢٢ يوليو في بيت الصاغ صلاح نصر لمراجعة آخر ترتيبات العملية (127).

وفى يوم الاثنين ٢١ يوليو ، أعلنت حالة الطوارئ في الإسكندرية في الساعة الثامنة مساءاً وحتى صباح ٢٢ يوليو (128).

اجتماع ثالث بين جمال عبد الناصر وممثلي جماعة الإخوان

وفى يوم الإثنين ٢١ يوليو عقد اجتماع ثالث بين جمال عبد الناصر وممثلي جماعة الإخوان بمنزل عبد القادر حلمي ، حضره صالح أبو رقيق وحسن العشماوي وفريد عبد الخالق وصلاح شادي وأعلنوا موافقة المرشد العام على معاونة الحركة عند قيامها مع تحفظات معينة. وشرح عبد القادر حلمي وجهة نظر المرشد بالتفصيل . وصدق جمال عبد الناصر على جميع تحفظات المرشد وأكد قبولها وأنه سبق الاتفاق عليها مع الإخوان ، واستطرد قائلاً : أنه تأكد له اليوم أن اسمه قد عرف لدي البوليس السياسي لذلك فقد اتفقوا على القيام بالانقلاب في خلال يومين على الأكثر وأنه سيعرف الإخوان بالموعد وساعة الصفر (129).

وقبل انصراف جمال عبد الناصر استأذن صلاح شادي من باقي الأخــوة الموجودين في الانفراد بجمال عبد الناصر ، وقد تــم الانفــراد فتــرة قصــيرة انصرف بعدها جمال عبد الناصر ، حيث أبلغ صلاح شادي باقي الأخــوة بأنــه وجمال عبد الناصر تذاكرا في هذا اللقاء عهدهما السابق على المبادئ والأهداف التي بايعا الله عليها قبل الإقدام علي هذه الخطوة المصيرية وأشهد الله على هــذا العهد بقراءة الفاتحة (130).

في خلال الاجتماع حضر الدكتور حسين كمال الــدين وعبــد الــرحمن السندي ومعهما الضابطان البكباشي عبد المنعم عبد الــرؤوف والبكباشـــي أبــو المكارم عبد الحي ، وكان صلاح شادي قد استشــار إخوانــه الأربعــة الــذين اجتمعوا معه بجمال عبد الناصر فيما إذا كان من المصلحة تعريفهم بما يجــري من أمور في هذا الشأن أم لا ؟ واتفقوا أنه ليس من المصلحة الآن الكشف عمــا يجري من اتصالات مع هذه الجماعة، وأن على ضباط الجيش من الإخوان تنفيذ ما يصدر إليهم من تعليمات قيادتهم ، وقد التزم صلاح شادي بهذا الرأي عنــدما قال إنهما باعتبارهما ضابطين فى الجيش قد شعرا بتحركات للضباط الأحرار ، ولما سألا الدكتور حسين كمال الدين وعبد الرحمن السندي لــم يجــدا عنــدهما معلومات بهذا الشأن وقالا إنهما ما جاءا إلا للاستفهام من صلاح شادي عن هذا الموضوع وقد انصرفا قبل انصراف جمال عبد الناصر (131).

وفى الساعة العاشرة والنصف مساءً يوم ٢١ يوليو ، ذهب البكباشي جمال عبد الناصر والصاغ كمال الدين حسين ، لزيارة البكباشي عبد المــنعم أمــين – قائد ثاني المدفعية المضادة للطائرات – في شقته المطلــة علــى شــارع النيــل بالجيزة ، وكان كمال حسين قد اتصل به تليفونيا بهذا الخصوص ، وطلب جمال عبد الناصر من عبد المنعم أمين المشاركة في الانقلاب المحدد له ليلة ٢٣ يوليو حيث وافق الأخير على ذلك (132).

اجتماعات مستمرة لجمال عبد الناصر والضباط الأحرار طوال يوم ٢١ يوليو

تعددت اجتماعات الضباط الأحرار طوال هذا اليوم ، ففي الصــباح كــان جمال عبد الناصر يقوم بتصحيح أوراق امتحان كلية أركان الحــرب، واتصــل بالصاغ ثروت عكاشة في مكتبه الواقع بالمبنى نفسه للاطمئنــان علــى مــدي الاستعدادات ، وفى سلاح المدفعية قام اليوزباشي محمد أبو الفضــل الجيــزاوي بتجميع أكبر عدد من الضباط بعد الظهر وكانوا نحو ثلاثين للتحكم في مــداخل

المنطقة العسكرية والسيطرة على منطقة الماظه، وإعداد عربات مـن خدمـة الجيش لنقل الجنود ، وعقد اجتماع للمشاة في أحد منازل الضباط حضره عبـد الحكيم عامر وكمال الدين رفعت وعبد الحليم عبد العال وإسماعيل فريد وعباس رضوان لتوزيع الواجبات عليهم حيث أنهم كانوا يمثلون مجموعـة الاعتقـالات وهي التي عهد إليها باعتقال كبار الضباط بالكلية الحربية، كمـا عقـد اجتمـاع لضباط الفرسان فى منزل حسين الشافعي لتـدوين كشـوف بأسـماء الضـباط المشتركين فى العملية ووحداتهم واستبعاد المشكوك فيهم، واشترك فى الأجتماع حسين الشافعي وثروت عكاشة وعثمان فوزي وخالد محيى الدين (133) .

قام البكباشي جمال عبد الناصر ومعه الصاغ عبد الحكيم عامر فى ذلـك اليوم بزيارة البكباشي يوسف منصور صديق فى منزله بحلمية الزيتـون وهـو المنزل الذي يفصله الشارع عن منزل اللواء محمد نجيـب ، ونصـحاه بعـدم الاشتراك فى العمل مراعاة لحالته الصحية حيث كان مريضـاً . إلا أن يوسـف صديق صمم على الاشتراك وأبلغ صديقيه أن قواتـه علـى اسـتعداد للتحـرك وعرف من جمال عبد الناصر أنه سيرسل له برسول يبلغه بساعة الصفر (134).

وزارة الهلالي باشا وتحركات الضباط الأحرار

وفى يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ قبلت استقالة حسـين سـرى باشـا ، وكلف الملك فاروق أحمد نجيب الهلالي باشا بتشـكيل الـوزارة الجديـدة (135). واقترح الهلالي باشا ما اقترحه حسين سرى باشا من تعيين اللواء محمد نجيـب بك وزيراً للحربية. وظلت شخصية وزير الحربية الجديد لم يكشف عنها إلا فى الرابعة من مساء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، عندما وصل أعضاء مجلس الوزراء إلي القصر الملكي "قصر المنتزه" لأداء اليمين ، وهناك قيل لهم إن إسماعيل شيرين ابن شقيقة الفريق حيدر باشا ، وزوج شقيقة الملك ، الاميره فوزية سيكون هـو الوزير المنتظر، ولم يعلم الهلالي باشا بما اعتزمه الملك إلا حين رأي إسماعيل بك شيرين فى القصر فى الموعد المعين لحلف الوزراء اليمين بين يدي الملك . ولم يجد الهلالي باشا فى نفسه القوة ليرفض تأليف الوزارة ،لأن اقتراحه الخاص بوزير الحربية رفض . وتألفت الوزارة كما أراد الملك أن تتألف (136).

وقد أظهرت خدعه تعيين إسماعيل شرين وزيراً للحربية دليلاً على سـوء تقدير خطير بواسطة الملك فاروق ، فقد كان واضحاً أن شيرين سـوف يكفـل الواجهة التي يتخذ من خلفها اللواء حسين سري عامر ومرتضي المراغي وزير

الداخلية الجديد النشيط إجراء ضد الضباط الأحرار ، وبالفعل فإنه بعد ساعة من أداء اليمين فى الإسكندرية ، وصلت الأوامر إلي القيادة العليا للجـيش بالقـاهرة لاعتقال الضباط الأحرار[137]. وجاء استدعاء الملك للهلالي باشا ، متأخراً جـداً، إذ كان الجيش قد تحرك ، وكان الملك ورجال السلك السياسي ، في هذه الأونـة يقضون الصيف في الإسكندرية [138].

حفل يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ بتحركات نشطة لجميع الذين اشتركوا في حركة الجيش ففي الصباح ذهب اللواء محمد نجيب في سيارته العسكرية إلي بيت جمال عبد الناصر بشارع والي ، واعتلي درجات السلم مسرعاً مما تسـبب في قطع بنطلونه فلم يجده ، فذهب إلي كلية أركان حرب حيث قابله مـع عبـد الحكيم عامر للتأكيد على أن يتم التنفيذ في الليلة نفسها. وقال جمال عبد الناصر أنه أرسل إلي البكباشي أنور السادات في العريش بصفته ضـباط إشـارة لكـي يسيطر على الإذاعة والتليفونات ، وفى الوقت نفسه حضرت مجموعة الاعتقال إلي منزل عبد الحكيم عامر للتأكد من ساعة الصـفر علـى أن يعـودوا إلـي الاجتماع في الساعة الثالثة بمنزل البلتاجي بالعباسية، ولكن عبد الحكيم عامر لم يحضر إلا بعد الساعة السابعة مساءً وعلى إثرها توجهوا للمرور علـى منـازل الضباط الأحرار لتبليغهم بآخر التعليمات [139].

اجتماع لجنة القيادة الأخير (ظهر يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو ١٩٥٢)

وفى الساعة الثانية بعد ظهر ٢٢ يوليو عقدت "لجنـة القيـادة" اجتماعهـا الأخير فى منزل خالد محيى الدين ، وحضره كل من جمال عبد الناصر ، حسن إبراهيم ، عبد الحكيم عامر ، كمال الدين حسين ، عبد اللطيف البغدادي ، وخالد محيى الدين ، وتغيب جمال سالم وصلاح سالم وأنور السادات ، وحضـر هـذا الاجتماع من خارج لجنة القيادة زكريا محيى الدين وحسين الشافعي وعبد المنعم أمين وإبراهيم الطحاوي . وكان حضورهم مبرراً ومنطقياً ، وإن كان جمال قـد دعاهم الى الحضور بمبادرة منه ، فقد شارك زكريا فى إعداد خطة التحـرك ، ومن الطبيعي أن يحضر ليشرحها للجنة القيـادة الحاضـرين مـن خارجهـا ، والطحاوي كان سيقود تحرك سلاح خدمة الجيش ، والشافعي سيقـود تحـرك الفرسان ، وعبد المنعم أمين سيقود تحـرك المدفعية [140].

وهذه الخطة وضعها جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وكمال الـدين حسين وزكريا محيى الدين ، وهي بخـط عبـد الحكـيم بإضـافات زكريـا

والتعليمات النهائية لجمال عبد الناصر وبخطـــه . وتقـــع فـــى ســـت صـــفحات فولسكاب الخط ليس جيداً ، فيها شطب وتعديل مشحونة بالمصـــطلحات الفنيـــة والرموز [141].

تحدث المجتمعون عن خطة التحرك والتفت بغدادي إلي زكريـــا محيـــي الدين وقال له :" اقرأ الخطة" وعرضها زكريا وكانت بســـيطة للغايـــة ويمكـــن القول إنها اكتسبت عناصر نجاحها من بساطتها ،وكانـــت تنقســـم إلـــي ثـــلاث مراحل: [142]

المرحلة الأولي :

١- يلتزم اللواء محمد نجيب – قائد الحركة – داره لأنه كان تحت المراقبة .

٢- السيطرة على القوات المسلحة بالإستيلاء على مبني القيادة العسكرية بمنطقة كوبري القبة باقتحامها والاستيلاء عليها بمجموعة من الضباط الأحرار.

٣- تقوم مجموعة الإعتقال ، باعتقال بعض كبار قادة وضباط الجيش والطيران من منازلهم لضمان عدم إمكان تحرك أي قوات عسكرية للتصدي للحركة .

٤- حددت الخطة في مرحلتها الأولي مهام الأسلحة المختلفة :

- **الفرســـان :** إغلاق المنطقة عند شارع الخليفة المـــأمون بجـــوار محطـــة البنزين ، وإغلاق المنطقة عند المستشفي العسكري وكذا المنطقة عند "باب ستة" بالعباسية وبوابة العباسية ، كما تقوم مجموعة من المدرعات بالسيطرة على مطارات الماظه ومصر الجديدة وغرب القاهرة.
- **المدفعية :** عزل منطقة ألماظة وهايكستب والطرق المؤدية لمبنـــي القيـــادة بكوبري القبة والطرق المؤدية لوحدات الجيش المختلفة. وتقرر أن يعـــاون المدفعية فى هذه المهمة وحدات من الفرسان بدبابات وعربات مصفحة.
- **المشاة :** الكتيبة رقم ١٣ مشاة تحت قيادة الصـــاغ صـــلاح نصـــر معـــه مجموعة من تسعة ضباط أحرار (وقد انضم لهم فى آخر لحظة القائم قـــام أحمد شوقي قائد الكتيبة متضامناً مع الضباط الأحرار) تتوجه إلـــي مبنـــي قيادة الجيش بكوبري القبة ومساعدة من مقدمة كتيبة مدافع الماكينة الأولـــي يقودها البكباشي يوسف منصور صديق فى الاستيلاء على مبني القيادة بمن فيها من قيادات.

كما خصص جزء من الكتيبة ١٣ مشاة للسيطرة على رئاسة سلاح الحدود فى كوبري القبة وجزء آخر من نفس الكتيبة للسيطرة علـــى مبنـــي الإذاعـــة والقاء بيان من الإذاعة في الصباح الباكر من يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

الطيران : القيام بطلعات استكشاف للتأكد من عدم تحرك قوات بريطانية مـــن قاعدة القنال ، وطلعات استكشاف فوق القاهرة والإسكندرية، ومنع الملك مـــن الهروب سواء عن طريق الجو أو البحر. وكانت مهمة الطيران تالية لتحـــرك قوات الحركة في المرحلة الأولي .

٥- تحدد المسئولون عن تحريك القوات في المرحلة الأولي على الوجه الآتي :

أ- الفرسان : حسين الشافعي ، خالد محيى الدين ، وثروت عكاشة .

ب-المدفعية : كمال الدين حسين ، وعبد المنعم أمين .

ج – **المشاة :** البكباشي يوسف منصور صديق، القائم قام أحمد شوقي ومجموعة قيادة الكتيبة ١٣، تحت الإشراف المباشر للبكباشي جمال عبد الناصر.

د – **الطيران :** حسن إبراهيم ، وعبد اللطيف البغدادي .

٦- انتقال قائد الحركة اللواء أركان الحرب محمد نجيب من منزله إلـــي قيـــادة الجيش بعد السيطرة عليها .

المرحلة الثانية :

العمل على السيطرة على جهاز الحكومة المـــدني ، وإنـــزال قـــوات إلـــي الشوارع للسيطرة على عدد من المواقع المدنية الحيوية كالإذاعـــة والتليفونـــات وقصر عابدين ، مباني وزارة الداخلية وأجهزة الأمن وأقسام الشرطة الرئيسية .

المرحلة الثالثة :

التحرك لمحاصرة الملك ومنعه من الاتصال بأي وحـــدات مـــن القـــوات المسلحة أو القوات البريطانية تمهيداً لعزله ولكن في سرية تامة حتى لا تتسرب معلومات للإنجليز أو لغيرهم .

بعد انتهاء زكريا محيى الدين من قراءة الخطة ، تحدث البكباشي حســـين الشافعي واعلن ان سلاح الفرسان جاهز ولديه عدد ٣٢ ضابطاً جاهزين لتحريك قواتهم ، ولدي أحرار الفرسان ٤٨ دبابة و ٤٨ سيارة مدرعة وكتيبة ميكانيكيـــة وآلاي خيالة.

وتحدث خالد محيى الدين قائلاً : إن قوات الفرسان كفيلة بإنجاح الحركة ، دونما حاجة لانتظار وحدات مشاة ، أو انتظار وصول بقية كتيبة يوسف صديق. ثم تحدث البكباشي جمال عبد الناصر عن المدفعية والمشاة قائلاً : إنـــه مســئول عن تدبير وحدات منها .

اقتصر الاجتماع على مناقشة المرحلة الأولي في الخطـــة والتـــي كانـــت تستهدف في جملتها السيطرة على القوات المسلحة وكان تنفيذها يبدأ في الســـاعة الواحدة صباحاً بتحرك سرية مشاة من الكتيبة ١٣ من معسكر العباسية لاحـــتلال مبني رئاسة الجيش بكوبري القبة الذي كان يقع في الطابق الأول منـــه مكاتـــب إدارة الجيش بينما يقع في الطابق الثاني منه مكتب الفريق حسين فريـــد رئـــيس أركان حرب الجيش وهيئة مكتبه وعينت مقدمة كتيبة مـــدافع الماكينـــة الأولـــي المشاة القادمة من معسكر الهايكستيب لتكون قوة احتياطية للمعاونة في تنفيذ هذا الواجب . [143]

وفى ساعة الصفر المحددة كان على وحدات المدفعية بأقسامها المختلفـــة التحرك من معسكراتها في ألماظة والهايكستيب لضرب حلقة من الحصار حـــول المنطقة العسكرية الممتدة من معسكر العباسية جنوباً إلـــي منطقـــة معســـكرات الجيش بألماظة شرقا وإلي منطقة هايكستيب شمالا وإغلاق جميع مداخل القاهرة الشرقية والشمالية التي تؤدي إلي مناطق المعسكرات وإلي رئاسة الجيش [144].

وكان سلاح الفرسان مكلفا بالاشتراك مع سلاح المدفعية في إحكـــام هـــذا الحصار بوحدات تعين من الدبابات والسيارات المدرعة والكتيبة الميكانيكية[145].

وخصصت سرية مشاة من الكتيبة ١٣ تحت قيادة الصاغ صلاح ســـعده ، لاحتلال مبني قيادة سلاح الحدود الذي كان يرأسه اللواء حسين ســـري عـــامر عميل السراي وخصم الضباط الأحرار اللدود، وكان المبني يقع خلـــف رئاســـة الجيش بكوبري القبة، ونظراً لتوقع حدوث مقاومة سلاح الحدود لـــذلك وضـــع تروب من الدبابات الشيرمان في معاونة ســـرية الكتيبـــة ١٣ ، ممـــا أدي إلـــي تأجيـــل عملية الاستيلاء على المبني إلي أول ضوء يـــوم ٢٣ يوليـــو ليتيســـر استخدام الدبابات [146].

وكـــان احتـــلال دار الإذاعـــة بمكاتبها بشارع الشريفين وباستوديوهاتها بشارع علوي موكولا إلي فصيلة من الكتيبة ١٣ مشـــاة بمعاونـــة تـــروب مـــن السيارات المدرعة من سلاح الفرسان [147]

وكان الخطأ الوحيد تقريباً هو عدم إدراك واضعي الخطة أن استوديوهات الإذاعة وقتئذ بشارع علوي كانت تعتمد في بثها على خطوط تليفونية متصلة بمحطة الإرسال الرئيسية بمنطقة "أبوزعبل".

ولذا فإن من يسيطر على محطة الإرسال هذه كان في إمكانه بث الإرسال أو قطعة كما حدث فعلا صباح يوم ٢٣ يوليو ، عندما انقطع الإرسال قبل إلقاء البيان الأول للحركة . وقد تم تدارك هذا الخطأ عن طريق الأوامر التي صدرت من البكباشي جمال عبد الناصر للصاغ مجدي حسنين بالتوجه إلى أبوزعبل للسيطرة على محطة الإرسال بمساعدة تروب من الدبابات [148].

وكان دور سلاح الإشارة بالخطة هو السيطرة على مصلحة التليفونات بشارع الملكة نازلي (رمسيس حالياً) عن طريق تروب من السيارات المدرعة من سلاح الفرسان بهدف تعطيل شبكة التليفونات بالمصلحة لمنع حدوث اية اتصالات بين الإسكندرية والقاهرة، وكذا السيطرة على تحويلة التليفونات العسكرية الموجودة بالدور الأرضي بمبني رئاسة الجيش بكوبري القبة لمنع إجراء أية اتصالات بين قادة الجيش ووحداته [149].

كما حددت مجموعات صغيرة من الضباط للقيام بعمليات اعتقال كبار قادة الجيش والطيران في بيوتهم لضمان عدم توجههم إلي وحداتهم ومنعهم من إصدار أية أوامر لتحريك قوات عسكرية يمكن أن تتصدي للحركة [150].

وكان دور سلاح الطيران ينحصر في السيطرة على مطاراته الثلاثة الرئيسية حول القاهرة وهي الماظه ومصر الجديدة وغرب القاهرة ليلة ٢٣ يوليو بمعاونة وحدات من السيارات المدرعة، وعلى أن يبدأ استخدام الطائرات المقاتلة صباح يوم ٢٣ يوليو بالقيام بعدة طلعات فوق القاهرة والإسكندرية على ارتفاع منخفض لأحداث التأثير المعنوي المطلوب وهو تشجيع القوات المشتركة في الحركة، وفى الوقت نفسه بث روح اليأس في نفوس الملك وحكومته وأعوانه لحثهم على الاستسلام . كما كان من أهداف الطيران القيام باستطلاع فوق مداخل القاهرة الشرقية لاستكشاف أيه تحركات بريطانية تجاه العاصمة تمهيداً للإبلاغ عنها والتصدي لها، و العمل في الوقت نفسه على إحباط أية محاولة يقوم بها الملك للهروب من مصر عن طريق البحر أو الجو [151].

واستكمالاً لتنفيذ الخطة كانت الأوامر الصادرة لجميع قوات الحصار تقضي بمنع أي ضابط من رتبة البكباشي فما فوق من اجتياز نطاق الحصار

والدخول إلي أماكن تجمع الوحدات بالمعسكرات، حتى لا يفكر أحد من الضباط القدامى في القيام بأعمال مضادة للحركة. وكان أمل قيادة الحركة، فى انضمام باقي وحدات الجيش معقودا على وصول الضباط الشبان من رتب الصاغ واليوزباشي والملازم إلي وحداتهم فى الصباح حيث سيكون من السهل عليهم السيطرة على وحداتهم وإعلان انضمامها إلي قوات الحركة فإن مشاعرهم وأمانيهم لا تختلف عن تلك التي تملأ نفوس زملائهم من الضباط الأحرار، وسوف يكون المجال أمامهم متسعا بعد غياب القادة والضباط القدامى عن أنظارهم فإن قوات الحصار سوف تكون قد تكفلت بإبعادهم ومنع دخولهم إلي المعسكرات [152].

هذا ولم يكن واردا فى الخطة الاستيلاء على مبني القيادة العامة للقوات المسلحة بثكنات قصر النيل (مكان فندق هيلتون ومقر الجامعة العربية حالياً) فقد كان المبني خالياً بسبب وجود الفريق محمد حيدر القائد العام وهيئة مكتبه جميعا فى المقر الصيفي للقيادة العامة بثكنات مصطفي باشا بالإسكندرية[153].

وكانت السيطرة على وحدات الجيش بالمناطق الخارجية وخاصة فى سيناء والإسكندرية موكولة إلي الضباط الأحرار بهذه الوحدات على أساس تنحية قادتها وتوليهم قيادتها بأنفسهم بمجرد إبلاغهم إشارة النجاح، فتم تكليف البكباشي جمال سالم والصاغ صلاح سالم بالسيطرة على قوات العريش ورفح [154].

وكانت الخطة فى إجمالها تتميز بالبساطة والواقعية وتحددت فيها الواجبات وفقا للإمكانيات المتاحة ولو سارت بالطريقة التي رسمت لها لأمكن للحركة من السيطرة على القوات المسلحة دون أيه مقاومة ولتم اعتقال قادة الجيش فى بيوتهم ولكانت المفاجأة مذهلة للملك والحكومة فى الإسكندرية عند استماعهم إلي البيان الأول للحركة فى السابعة والنصف من صباح ٢٣ يوليو من دار الإذاعة بالقاهرة ولكن الأقدار تدخلت وتسرب سر الحركة إلي الملك وأعوانه قبل ساعة الصفر بثلاث ساعات على الأقل مما كاد يهدد الحركة بالفشل بل ويقضي عليها قبل أن تبدأ فحدثت وقائع ومصادفات أغرب من الخيال مما أتاح للحركة فرصة الفوز والنجاح ورغم وقوع بعض الارتباك فى بادئ الأمر إلا أنه سرعان ما استقرت الأوضاع وجري تنفيذ الخطة الموضوعة كما رسمت تماما [155].

انتهي اجتماع لجنة القيادة الأخير في تمام الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، وتقرر عدم الاتصال بين الضباط وبعضهم تليفونياً، وإن تعد كل مجموعة نفسها للتحرك واتفق الجميع أن تكون كلمة السـر "نصر" [156].

التفت جمال عبد الناصر إلي خالد محيى الدين في نهاية الاجتماع يسـأله أين سيكون في المساء وقبل ساعة الصفر ، فقال خالد : سأذهب أنـا وحسـين الشافعي إلي بيت ثروت عكاشه فقال جمال : قد أمـر علـيكم .... وأضـاف : ثروت عاطفي خليه يخلي باله [157].

تبليغ الأخوان وحدتو

في هذه الأثناء كان جمال عبد الناصر منشغلاً بعدد من القضايا الهامـة ، فقد اتصل بالإخوان المسلمين فقام بنفسه ومع كمال الدين حسين بالاتصال باثنين من أهم أعضاء جمعية الإخوان المسلمين هما حسن عشماوي وصالح أبو رقيق وأبلغاهما بموعد تحرك الجيش واتفقا معهما على أن يسهم بعض الأخـوان فـي مساندة حركة الجيش بعد انتصارها في الصباح ، ومساعدة الحركة كـذلك فـي حالة تحرك القوات البريطانية ضدها [158].

ويقول خالد محيى الدين : " وقبل التحرك أبلغني جمال عبد الناصر أنـه أبلغ الإخوان باستعدادنا للتحرك ، فسألته هل ردهم إيجابي؟ فهز رأسه بالموافقة، ولكنه أضاف : إنهم متعبون جداً وعلينا أن نعيد الحسابات بالنسبة لهم ، ففهمـت من كلامه أنهم واجهوه بمطالب كثيرة ولكن الظروف الحرجة أملت على عبـد الناصر عدم مجابهتهم " [159].

وكان جمال عبد الناصر قد أرسل شـقيقيه عـز العـرب وشـوقى إلـي الإسكندرية يوم ٢١ يوليو لمقابلة اليوزباشي أحمـد حمـروش ، وكـان أحـد المسئولين عن قسم الضباط في منظمة "حدتو" ليطلبا منه السـفر إلـي القـاهرة لمقابلة جمال عبد الناصر [160].

وحضر أحمد حمروش ليقابل جمال عصر يوم ٢٢ يوليو ، وأبلغه جمال بأن " الضباط الأحرار" سيتحركون الليلة ، وطلـب منـه الاتصـال "بالضـباط الأحرار" في الإسكندرية بهدف تأمين المنطقة هنـاك . وكانـت لجنـة القيـادة تستشعر خطراً من وجود الملك بالإسكندرية ومعه قوات من الحرس الملكـي ، وخشيت اللجنة من أن يجمع حوله قوات أخري ليستقوي بها كما فعل الخـديوي

توفيق إبان الثورة العرابية [161].

لماذا اختار جمال عبد الناصر أحمد حمروش بالذات ؟ ولعل الإجابة الأكثر منطقية هي أن جمال عبد الناصر أراد أن يبلغ "حدتو" بموعد الحركة ، كما أبلغ الأخوان ، ليضمن إمكانية مساندتها له . وبالفعل أسرع حمروش إلي القاضي أحمد فؤاد ، وأسرع الاثنان لمقابلة خالد محيي الدين ، ثم توجه حمروش ليبلغ النبأ إلي الرفيق بدر سكرتير عام "حدتو" [162]. وهكذا أتم جمال عبد الناصر تحصين الحركة سياسياً.

أما ذيول معركة انتخابات نادي ضباط الجيش فقد امتدت إلي ما بعد قيام حركة الجيش وذلك فى سبتمبر ١٩٥٢ حيث طالبت مجموعة من الضباط بانتخابات جديدة لمجلس إدارة النادي تكون أكثر تعبيراً للوضع الجديد بعد التغييرات الجذرية التي مرت بها القوات المسلحة ونجاح حركة الجيش يوم ٢٣ يوليه ، فكان رد مجلس قيادة الثورة أن الوقت لم يحن بعد لإجراء هذه الانتخابات بدعوى أن الجيش لم يستكمل تطهير نفسه، لهذا فإن مجلس قيادة الثورة يري أن يتم تشكيل المجلس الجديد بالتعيين ، الأمر الذي أثار ثائرة الداعين إلي إجراء الانتخابات متهمين مجلس قيادة الثورة بأنه عاد بهم إلي الوضع الذي ثاروا عليه إبان سيطرة إدارة الجيش على النادي ، هكذا انتهت قصة نادي ضباط الجيش من حيث بدأت .

الهوامش

(١) محمد حسين هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية ، الجزء الثاني ، ص ٣٧٢.
(٢) المصدر السابق ، نفس المكان.
(٣) صلاح نصر ، ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير ، الجزء الأول ، ص ٨١.
(٤) أحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليو " ، ص ٨١.
(٥) وثائق المحفوظات العسكرية ، لائحة تنظيم شئون نادي فاروق
(٦) مقابلة مع اللواء محمد نجيب بمنزله بالمرج المحدد فيه إقامته يوم ١٥ سبتمبر ١٩٧٩ ، انظر كذلك مقابلة مع زكريا محيي الدين يوم ٥ يونيه ١٩٨٦ ، مقابلة مع جمال حماد يوم ٢ مارس ١٩٨٨.
(٧) المقصود بوزارة الوفد هي وزارة مصطفي النحاس باشا (الوزارة السابعة) واستمر حكمه خلال الفترة من ١٢ يناير عام ١٩٥٠ وحتى ٢٧ يناير عام ١٩٥٢.
(٨) أحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليو " ، ص ص ١١١ – ١١٢ .
(٩) صلاح نصر ، " ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير" ، الجزء الأول ، ص ٨٢ ، أنظر كذلك أحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليو " ، ص ١١٢ ، مقابلة مع عبد اللطيف البغدادي بمنزله يوم ٨

ديسمبر عام ١٩٨٦ ، مقابلة مع علي صبري (نائب رئيس الجمهورية السابق) بمنزله يـوم ٢٢ ديسمبر عام ١٩٨٦.

(١٠) مقابلة مع الصاغ جمال حماد ، سبق ذكرها ، انظر كذلك لائحة تنظيم شئون نـادي فـاروق والقانون الخاص بذلك.

(١١) كان الفريق حيدر مزعزعاً إذا كان قد أثير حوله عام ١٩٥٠ ما يشير إلي تدخله فـي قضـية الأسلحة الفاسدة مما جعله يقدم استقالته فوراً في نوفمبر عام ١٩٥٠ ، ولكن الملك لـم يشـأ أن يتخلي عن رجله ، فأعاده إلي منصبه فى مايو عام ١٩٥١.

(١٢) مقابلة مع خالد محيي الدين بمنزله ، سبق ذكرها ، أنظر كذلك مقابلة مع عبد اللطيف البغدادي بمنزله ، سبق ذكرها ، خالد محيي الدين ، والآن أتكلم ، ص ١٠٩ .

(١٣) خالد محيى الدين ، والآن أتكلم ، ص ١٠٩ ، أنظر كذلك مقابلة مع عبد اللطيف البغـدادي ، سبق ذكرها.

(١٤) اللواء أركان الحرب محمد نجيب كان يشغل في ذلك الوقت منصب مدير سلاح الحدود حيـث نقله الملك فاروق من مدير سلاح الحدود إلي مدير سلاح المشاة مما ترتب عليه غضـب اللـواء محمد نجيب وكاد يقدم استقالته لولا تدخل الضباط الأحرار ومنعه من تقديم استقالته.

(١٥) محمد عبد الفتاح أبو الفضل "مذكراته " ، ص ص ٨٩ –٩٠ والمصدر الرئيسي لهذه المعلومات هو حديث في لقاءات متكررة مع الضابط السابق إبراهيم حافظ عاطف مساعد سكرتير عام مجلس إدارة نادي الضباط ومع محمد رشاد مهنا سكرتير عام مجلس إدارة النادي.

(١٦) خالد محيي الدين ، والآن أتكلم ، ص ١٠٩ .

(١٧) مقابلة مع محمد رشاد مهنا ، يوم ٢١ يوليو ١٩٨٧ بمنزله بمنشية البكري ، أنظر كذلك صلاح نصر ، " ثورة ٢٣ يوليو " ، ص ٨٢ ، وأحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليـو " ، ص ص ١١٢ – ١١٣.

(١٨) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، " مذكراته " ، ص ص ٨٩ –٩٠

(١٩) أحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليو " ، ص ١١٦.

(٢٠) محمد نجيب ، " كلمتي للتاريخ " ، ص ٣١ .

(21) أحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليو " ، ص ١٢٠ ، أنظر كذلك محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ص ٥٦ –٥٧.

(٢٢) عبد اللطيف البغدادي ، " مذكراته " ، الجزء الأول ، ص ص ٤٣ – ٤٤ .

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٢٤) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ٥٨.

(٢٥) صلاح نصر ، " ثورة ٢٣ يوليو " ، الجزء الأول ، ص ٨٣.

(٢٦) محمد نجيب ، "كلمتي للتاريخ " ، ص ٣٣ ، مقابلة مع الرئيس السابق محمد نجيب بمنـزل زينب الوكيل بالمرج يوم ١٥ سبتمبر عام ١٩٧٩.

(٢٧) صلاح نصر ، "ثورة ٢٣ يوليو " ، ص ٨٣ ، أنظر كذلك محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، كنت نائبا لرئيس المخابرات ، ص ٩٠ .

(٢٨) صلاح نصر ، " ثورة ٢٣ يوليو " ، ص ٨٣ .

(29) المصدر السابق ، نفس المكان.

(30) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، كنت نائباً لرئيس المخابرات ، ص ٩٠.

(31) خالد محيى الدين "والآن اتكلم " ، ص ١١٠ .

(32) صلاح نصر ، "ثورة ٢٣ يوليو" ، ص ٨٣ .

(33) صلاح نصر ، "ثورة ٢٣ يوليو" ، ص٨٣ .

(34) صلاح نصر ، "ثورة ٢٣ يوليو" ، ص ٨٤ ، أنظر كذلك خالد محيى الدين ، والآن اتكلم ، ص ١١٠.

(35) أحمد عطية الله ، "ليلة ٢٣ يوليو" ، ص ص ١٢٤ – ١٢٥ ، ارجع فى ذلك إلي جمال عبد الناصر ، كتاب "فلسفة الثورة" ، ص ١٢ وما بعدها.

(٣٦) كمال الدين رفعت ، أوراقه الخاصة – غير منشورة – مذكراته عن هذه الحقبة ، ص ٣٧.

(37) F.O. 371/96862.B.M.E.O. To F.O.26 Jan. 1952.No.92. Confidential.

(٣٨) عبد الرحمن الرافعي ، "مقدمات ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢" ، ص ١٢٨.

(39) F.O.371/96873. Stevenson To Eden. 25 Feb. 1952. No. 48. Confiedential. Her Majesty's Embassador's Investigation Committee's Report On the Egyptian rioting on 26 Jan. 1952.

(40) مقابلة مع عبد اللطيف البغدادي يوم ١٨ ديسمبر ١٩٨٦ بمنزله بمدينة نصر ، أنظر أيضا مقابلة مع زكريا محيى الدين بمنزله بالدقي يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٨٦ ، مقابلة مع حسين الشافعي بمنزله بالدقي يوم ١٥ يناير ١٩٨٧ ، أنظر أيضاً مقابلة مع كمال الدين حسين بمنزله بالدقي يوم ٦ فبراير ١٩٨٧ ، أنظر أيضاً البغدادي ، مذكراته ، الجزء الأول ، ص ٤٤.

(41) عبد اللطيف البغدادي ، مذكراته ، الجزء الأول ، ص ٤٤ ، أنظر كذلك محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر ، ص ص ٦٢ – ٦٣.

(42) أحمد حمروش ، قصة ثورة ٢٣ يوليو ، الجزء الأول ، ص ١٧٨.

(43) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر ، ص ٦٦.

(44) كانت النية معقودة لدي تنظيم الضباط الأحرار على القيام بالثورة خلال عام ١٩٥٥ . وقد ورد ذلك فى تصريح لجمال عبد الناصر للصحفي البريطاني دافيد مورجان مراسل الصنداي تايمز فى شهر يوليه ١٩٦٢.

(45) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ٦٦.

(46) وثائق ثورة ٢٣ يوليه ، الملف الخاص بمنشورات الضباط الأحرار ، منشور صادر باسم الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني إلي ضباط الجيش.

(47) وثائق ثورة ٢٣ يوليه ، الملف الخاص بمنشورات الضباط الأحرار بعد حريق القاهرة ، صورة من المنشور ومرفق بهذا الملحق أيضا مجموعة من المنشورات السرية التي كانت تصدرها المجموعات المختلفة من التنظيمات السرية ، أنظر الملحق رقم (١٤).

(48) وثائق لجنة تسجيل ثورة ٢٣ يوليو ، الملف الخاص بالمنشورات ، المصدر السابق ، منشور صدر بتاريخ ٥ مارس ١٩٥٢.

(49) أحمد حمروش ، قصة ثورة ٢٣ يوليو ، الجزء الأول ، ص ١٨٠ .

(50) وثائق مجلس الوزراء المصري ، مرسوم إعلان الأحكام العرفية الصادر بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، أنظر كذلك محضر اجتماع مجلس الوزراء بمنزل مصطفي النحاس باشا مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢.

(51) وثائق مجلس الوزراء ، كتاب إقالة مصطفي النحاس بتاريخ ٢٧ يناير ١٩٥٢ والذي صدر فى صورة أمر ملكي رقم ٨ لسنة ١٩٥٢ صادر إلي حضره صاحب المقام الرفيع مصطفي النحاس باشا.

(52) كريم ثابت ، مذكراته : عشر سنوات مع فاروق " ، ص ٤٣٢ .

(53) المصدر السابق ، ص ٤٣٣.

(54) خالد محيى الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٢٢ .

كان الملازم عبد القادر طه من ضباط الحرس الحديدي الذى شكله الملك لحسابه من الضباط وعندما اختلف الملازم عبد القادر طه مع الملك أمر باغتياله على يد الحرس الحديدي نفسه وكانت هذه المعلومات معروفة تماماً فى وسط جميع ضباط الجيش ، أرجع فى ذلك إلي محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر – ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ،الجزء الأول ، ص ٦٧ وانظر كذلك سيد جاد ، الحرس الحديدي ، ص ص ١٤٥ – ١٤٦.

(55) أحمد عطية الله ، " ليلة ٢٣ يوليو ، ص ص ١٢٥ - ١٢٦ .
(56) وثائق لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ملف المنشورات ، منشور صادر يوم ١٨ أبريل ١٩٥٢ ، أنظر كذلك مقابلة مع خالد محيى الدين ، سبق الأشارة إليها.
(57) محمد علبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر – ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الجزء الأول ، ص ٦٧ .
(58) خالد محيى الدين ، والآن أتكلم ، ص ١٢٤.
(59) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، المصدر السابق ، ص ص ٦٧ –٦٨ .
(60) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر – ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الجزء الأول ، ص ٦٨ .
(61) المصدر السابق ، نفس المكان.
(62) المصدر السابق ، ص ٦٩.
(63) المصدر السابق ، نفس المكان .
(64) كان تنظيم الضباط الأحرار مسيطراً على الكتيبة الثالثة عشر مشاه عن طريق الصاغ صلاح نصر ، وكانت الكتيبة تضم أكبر عدد من الضباط الأحرار وتعتبر القوة الرئيسية التـي اعتمـد عليها التنظيم في الاستيلاء على السلطة مع كتيبة مدافع الماكينة بقيادة البكباشي يوسف منصور صديق.
(65) صلاح نصر ، ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير ، الجزء الأول ، ص ٨٦.
(66) عبد الرحمن الرافعي ، مقدمات ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ ، ص ١٤٥ .
(67) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر – ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الجزء الأول ، ص ٧٠.
(68) ايدن ، أنتوني ، مذكراته – القسم الأول ، ترجمة خيري حماد ، ص ٣٣٩ ، انظـر وثـائق مجلس الوزراء المصري ، أمر ملكي رقم ٤١ لسنة ١٩٥٢ صادر إلي حضرة صاحب المقـام الرفيع حسين سري باشا بتشكيل الوزارة ، يوم ٢ يوليه ١٩٥٢ ، وانظر كذلك مرسوم تشـكيل الوزارة يوم ٢ يوليه ١٩٥٢ ، الصادر بقصر المنتزه في ١٠ شوال ١٣٧١ الموافـق ٢ يوليـه ١٩٥٢ وهذه الوزارة هي الخامسة التي شكلها حسين سري باشا.
(69) عبد الرحمن الرافعي ، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ص ص ١٤٥ – ١٤٦ .
(70) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر – ٢٣ يوليو سـنة ١٩٥٢ ، الجـزء الأول ، ص ص ٧٠ –٧١ .
(71) خالد محيى الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٢٤ .
(72) ايدن ، انتوني – مذكراته ، القسم الأول ، ص ص ٣٣٩ – ٣٤٠.
(73) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ص ١٣٩ - ١٤٠ .
(74) ايدن ، أنتوني ، المصدر السابق ، ص ٣٤١ .
(75) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٤٩ ، انظر كذلك أحمد بهاء الدين ، فاروق ملكا ، ص ص ١٤١ – ١٤٢ .
(76) يوسف منصور صديق ، مذكراته ، غير منشورة ، ص ص ٣٨ – ٣٩ .
(77) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ص ١٥١ – ١٥٢.
(78) المصدر السابق ، ص ١٥٢.
(79) أحمد عطية الله ، المصدر السابق ، ص ١٥٣ .
(80) صلاح نصر ، ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير ، ص ٨٧.
(81) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر – ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الجزء الأول ، ص ٧١.
(82) المصدر السابق ، المكان نفسه.

(83) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٥٤.
(84) المصدر السابق ، ص ص ١٢٦ - ١٢٧ .
(85)كريم ثابت – مذكراته ، عشر سنوات مع فاروق ، ص ٤٥١.
(86) كريم ثابت – المصدر السابق ، ص ص ٤٥١ - ٤٥٣ .
(87) المصدر السابق ، ص ص ٤٥٤ - ٤٥٥ ، انظر كذلك أحمد عطية الله ، المصدر السابق ، ص ١٥٤.
(88) المصدر السابق ، ص ص ٤٥٤ - ٤٥٥ ، انظر كذلك أحمد عطية الله ، المصدر السابق ، ص ١٥٤.
(89) كريم ثابت ، المصدر السابق ، ص ص ٤٥٥ - ٤٥٦.
(90) المصدر السابق ، ص ٤٥٦.
أريد أن ألفت النظر هنا إلي أن كبار السياسين كانوا يتحدثون مع خادم الملك في أمور السياسة العليا ، وهذا أكبر دليل على فساد الأوضاع في ذلك الوقت.
(91) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ص ١٥٤ – ١٥٥ .
(92) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٥٥ ، نقلا عن رواية الدكتور محمد هاشم.
(93) محمد نجيب ، كلمتي للتاريخ ، ص ص ٣٦ - ٣٧ ، انظر كذلك مقابلة مع اللواء محمد نجيب بمنزله بالمرج سبق ذكرها ، محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر ،الجزء الأول ، ص ٧٣. اعتقد أن التاريخ الذي حدده اللواء محمد نجيب عن مقابلته لوزير الداخلية يوم ١٨ يوليو ١٩٥٢ ، هو التاريخ الصحيح وليس تاريخ ١٧ يوليو الذي ذكره كريم ثابت .
(94) المصدر السابق ، نفس المكان .
(95) محمد نجيب ، كلمتي للتاريخ ، ص ٣٧ ، انظر كذلك مقابلة مع اللواء محمد نجيب بمنزله بالمرج ، مقابلة سبق ذكرها.
(96) أحمد عطية الله ، المصدر السابق ، ص ١٥٦.
(97) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر – ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الجزء الأول ، ص ٧٢ ، انظر كذلك محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، مذكراته – كنت نائباً لرئيس المخابرات ، ص ص ٩٤ - ٩٥ .
(98) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، مذكراته – كنت نائباً لمدير المخابرات ، ص ص ٩٥ - ٩٦ ، انظر كذلك محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ٧٢.
(99) كريم ثابت – مذكراته ، عشر سنوات مع فاروق ، ص ٤٥٦ ، انظر كذلك أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٥٤.
(100) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ٧٢ ، انظر كذلك خالد محيى الدين ، والآن اتكلم ، ص ص ١٢٤ - ١٢٥.
(101) خالد محيى الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٢٥.
(102) المصدر السابق ، نفس المكان .
(103) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٥٩ .
(104) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ص ٧٢ - ٧٣ ، انظر كذلك ، خالد محيى الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٣١ ، محمد نجيب ، كلمتي للتاريخ ، ص ص ٣٤ - ٣٥.
(105) مقابلة مع صلاح شادي بمنزله يوم ١٥ يونيو ١٩٨٦ ، انظر كذلك صلاح شادي ، مذكراته ، ص ص ١٧٥ - ١٧٦.
(106) صلاح شادي ، مذكراته ، ص ١٧٦ .
(107) المصدر السابق ، ص ص ١٧٦ - ١٧٧.
(108) عبد اللطيف البغدادي ، "مذكراته " الجزء الأول ، ص ٤٨ .

(109) عبد اللطيف البغدادي ، مذكراته – الجزء الأول ، ص ص ٤٨ - ٤٩ .
(110) عبد اللطيف البغدادي ، مذكراته ، الجزء الأول ، ص ٤٩ .
(111) عبد اللطيف البغدادي ، مذكراته ، الجزء الأول ، ص ص ٤٨ –٤٩ ، انظر كذلك مقابلة مع قائد الأسراب حسن إبراهيم بمنزله يوم ١٥ يوليو ١٩٨٧ ، أحمد حمروش ، قصة ثورة ٢٣ يوليو ، الجزء الأول ، ص ١٩٤.
(112) أنور السادات ، قصة الثورة كاملة ، كتاب الهلال ، العدد ٧٥ ، يونيه ١٩٥٧ ، ص ص ٩٣ – ٩٤.
(113) أنور السادات ، البحث عن الذات ، ص ١٤٠ .
(١١٤) محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ٧٣.
(١١٥) محمد حسين هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية ، الجزء الثاني ، ص ص ٣٧٣ - ٣٧٤ ، انظر كذلك ، إيدن ، انتوني – مذكراته القسم الأول ، ص ص ٣٤١ - ٣٤٢.
(١١٦) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٦٢.
(١١٧) كريم ثابت ، مذكراته – عشر سنوات مع فاروق ، ص ٤٦٤.
(١١٨) كريم ثابت ، المصدر السابق ، ص ص ٤٦٤ - ٤٦٦٥ .
(١١٩) المصدر السابق ، ص ٤٦٥ .
(١٢٠) وثائق مجلس الوزراء ، كتاب استقالة الوزارة المرفوع إلي حضرة صاحب الجلالة الملك من حضرة صاحب المقام الرفيع حسين سرى باشا ، الإسكندرية يوم ٢٨ شوال ١٣٧١ (٢٠ يوليو ١٩٥٢).
(١٢١) وثائق مجلس الوزراء ، أمر ملكي رقم ٥٠ لسنة ١٩٥٢ بقبول استقالة وزارة حسين سرى باشا ، صدر بقصر المنتزه فى ٣٠ شوال ١٣٧١ (٢٢ يوليو ١٩٥٢).
(١٢٢) محمد نجيب ، كلمتي للتاريخ ، ص ٣٩ ، انظر كذلك خالد محيى الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٣٣ ، مقابلة مع ثروت عكاشة بمنزله ، يوم ١٥ يوليو ١٩٩.
(123) محمد حسين هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية ، الجزء الثاني ، ص ٣٧٤.
(124) خالد محيى الدين ، والأن اتكلم ، ص ١٣٣.
(125) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٦٤ ، انظر كذلك أوراق صلاح شـادي – غيـر منشورة
(126) صلاح نصر ، ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير ، ص ٨٧.
(127) صلاح نصر ، المصدر السابق ، ص ص ٨٧ – ٨٨ .
(128) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٦٦.
(129) صلاح شادي ، مذكراته ، ص ١٧٧.
(130) المصدر السابق ، ص ص ١٧٧ – ١٧٨.
(131) صلاح شادي ، مذكراته ، ص ص ١٧٧ - ١٧٨ .
(132) مقابلة مع كمال الدين حسين يوم ١٥ أبريل ١٩٩٧ بمنزله بالدقي ، انظر كذلك مقابلـة مـع البكباشي عبد المنعم أمين بمنزله ، مقابلة سبق ذكرها.
(133) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٦٨.
(134) يوسف منصور صديق ، مذكراته ، غير منشورة ، ص ص ٨ - ٩ .
(135) وثائق مجلس الوزراء ، أمر ملكي رقم ٥١ لسنة ١٩٥٢ صادر إلي حضرة صاحب الدولة أحمد نجيب الهلالي باشا ، صدر بقصر المنتزه فـى ٣٠ شـوال ١٣٧١ (٢٢ يوليـو ١٩٥٢) بتشكيل الوزارة الجديدة . ووزارة أحمد نجيب الهلالي باشا هي الوزارة الثانية واستمرت حتى يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٢.
(136) محمد حسين هيكل ، مذكرات في السياسة المصرية ، الجزء الثاني ، ص ٣٧٤.
(137) عادل ثابت ، فاروق الأول الملك الذي غدر به الجميع ، ص ٢٣٢ .

(138) إيدان ، أنتوني ، مذكراته ، القسم الأول ، ترجمة خيري حماد ، ص ٣٤٢.

(139) أحمد عطية الله ، ليلة ٢٣ يوليو ، ص ١٦٨.

(140) خالد محيى الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٣٣ ، انظر كذلك مقابلات مع : عبد اللطيف البغدادي، سبق ذكرها ، حسن إبراهيم ، سبق ذكرها ، كمال الدين حسين ، سبق ذكرها ، زكريا محيى الدين، سبق ذكرها.

(141) مقابلة مع ثروت عكاشة بمنزله يوم ٢٥ مارس ١٩٨٨ ، انظر كذلك ثروت عكاشة ، مذكراته، الجزء الأول ، ص ص ٢٥ –٢٨ ، مقابلة مع زكريا محيى الدين بمنزله بالدقى ، مقابلة سبق ذكرها .

(142) عبد اللطيف البغدادي ، مذكراته ،الجزء الأول ، ص ٤٦ وما بعدها ، انظر كذلك خالد محيى الدين ، والآن اتكلم ، ص ص ١٣٤ – ١٣٩ ، صلاح نصر ، ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير ، ص ص ٨٩ – ٩١ ، محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات في ثورات مصر الجزء الأول ، ص ص ٧٤ – ٧٦ ، مقابلة مع زكريا محيى الدين بمنزله بالدقي ، مقابلة سبق ذكرها .

- يذكر البكباشي عبد اللطيف البغدادي أنه عند قيام زكريا محيى الدين بقراءة الخطة لاحظت أن جمال عبد الناصر قد انتحي بى جانباً مع حسن إبراهيم وقال أن الموضوع ليس أقدمية (ذلك لأن زكريا كان أقدم من جمال عبد الناصر فى الرتبة كما أن زكريا لم يكن قد انضم للجمعية التأسيسة فى ذلك الوقت بينما كان جمال هو الرئيس المنتخب).
- يذكر خالد محيي الدين : "بعد انصراف الزملاء الأربعة من خارج لجنة القيادة كان أول ما فعله جمال عبد الناصر أنه عاتب البغدادي بشدة لأنه طلب من زكريا محيى الدين أن يقرأ خطة التحرك وقال جمال : لقد وضعت الخطة وساعدني زكريا فى ذلك ، فلماذا يقرأها . لقد كان جمال عبد الناصر حساساً للغاية حتى فى الأوقات الصعبة ، إزاء مكانته كمسئول عن الحركة لا يترك أيه فرصة للشك لدي أي من الضباط المشاركين فى الحركة حول زعامته .

(143) مقابلة مع زكريا محيى الدين بمنزله بالدقي ، مقابلة سبق ذكرها.

(144) مقابلة مع كمال الدين حسين بمنزله بالدقي ،مقابلة سبق ذكرها.

(145) خالد محيى الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٣٥ ، أنظر كذلك مقابلة مع خالد محيى الدين ، سبق ذكرها.

(146) مقابلة مع الصاغ صلاح سعدة يوم الثلاثاء ١٩ فبراير ٢٠٠٢

(147) مقابلة مع الصاغ صلاح سعدة يوم الثلاثاء ١٩ / ٢ /٢٠٠٢ .

(148) جمال حماد ، ٢٢ يوليو اطول يوم فى تاريخ مصر ، ص ص ١٨٦ – ١٨٧ .

(149) مقابلة مع اليوزباشي خالد محيى الدين ، مقابلة سبق ذكرها .

(150) مقابلة مع الصاغ حسين حمودة بمنزله بحدائق القبة يوم ١٨ فبراير ١٩٨٧.

(151) مقابلة مع قائد الجناح عبد اللطيف البغدادي بمنزله بمدينة نصر ، مقابلة سبق ذكرها ، انظر كذلك ، مقابلة مع قائد أسراب حسن إبراهيم ، مقابلة سبق ذكرها.

(152) مقابلة مع زكريا محيى الدين ، بمنزله بالدقي ، مقابلة سبق ذكرها.

(153) المصدر السابق .

(154) مقابلة مع عبد اللطيف البغدادي بمنزله بمدينة نصر ، مقابلة سبق ذكرها.

(155) مقابلة مع البكباشي عبد اللطيف بغدادي ، مقابلة سبق ذكرها.

(156) مقابلة مع اليوزباشي خالد محيى الدين ، بمنزله ، مقابلة سبق ذكرها.

(157) خالد محيى الدين ، والآن اتكلم ، ص ١٣٦.

(158) مقابلة مع كمال الدين حسين بمنزله بالدقي يوم ١٠ مارس ١٩٨٧ ، انظر كذلك أوراق صلاح شادي ، غير منشورة ، مذكراته عن تلك الفترة ، محمد عبد الفتاح أبو الفضل ، تأملات فى ثورات مصر ، الجزء الأول ، ص ٧٧.

(159) خالد محيي الدين ، والان اتكلم ، ص ١٣٧ .

(160) المصدر السابق ، ص ١٣٧ ، انظر كذلك أحمد حمروش ، قصة ثورة ٢٣ يوليو ، الجـزء الأول ، ص ١٩٥ ، مقابلة مع عز العرب عبد الناصر بمنزله بمصر الجديدة يـوم ١٨ مـارس ١٩٨٧.

(161) مقابلة مع كمال الدين حسين بمنزله يوم ١٠ مارس ١٩٨٧ ، انظر كذلك خالد محيى الدين ، والأن اتكلم ، ص ١٣٧ ، أحمد حمروش ، قصة ثورة ٢٣ يوليو ، الجزء الأول ، ص ١٩٥ ، ذكر أحمد حمروش : أنه قابل جمال عبد الناصر أمام منزله بكوبرى القبة حوالي السـاعة الخامسـة والنصف مساء يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ حيث ترك عربته السوداء الصغيرة ووقـف يتحـدث مـع اليوزباشي أحمد حمروش حيث أبلغه بموعد الحركة ، وكان فى العربة الصاغ كمال الدين حسين والقائمقام أحمد شوقي والصاغ صلاح نصر.

(162) خالد محيى الدين ، والأن اتكلم ، ص ١٣٧ .

الفصل السابع

٢٣ يوليو ١٩٥٢ انقلاب أم ثورة

عبدالمنعم إبراهيم الجميعى[*]

يعد تحديد المفاهيم والمصطلحات من الأمور الأساسية فى دراسة الحدث التاريخى. وحتى تتضح صورة ما حدث فى يوليو ١٩٥٢ سنعرض أولاً للفارق بين مفهوم الانقلاب والثورة.

يحدث الانقلاب غالباً من فئة تستهدف الاستيلاء على السلطة بالقوة. وتغير شخص الحاكم دون أن يكون فى مخططها إحداث أى تغيير فى الأوضاع والعلاقات الاقتصادية، والاجتماعية والسياسية للبلاد، بل يظل المجتمع على ما هو عليه، ويقتصر الأمر على استبدال حاكم بحاكم بينما الثورة تنبع غالبا من صفوف الشعب لتعبر عن آماله وآلامه، وتعمل على إحداث انتفاضة أساسية وجذرية فى البناء الاجتماعى بهدف إقامة علاقات اجتماعية جديدة، وإحداث تغييرات فى تركيبة المجتمع وفلسفته وأهدافه بما يتفق مع مصالح جماهير الشعب وتطلعاته خاصة وأن قيمة الثورة الحقيقية ترتبط بمدى شعبيتها وبمدى ما يمكن أن توفره للجماهير من تعبئة لاعادة صنع المستقبل، وتغيير ما هو كائن إلى ما يجب أن يكون، بحيث يؤدى هذا التغيير إلى مغالبة التخلف والانتقال بالمجتمع إلى حياة أفضل[1]

وقد أوضح "جمال عبد الناصر" مفجر ثورة يوليو الفرق بين الثورة والانقلاب فى حديث له بجريدة الأهرام فذكر أن الثورة تهدف إلى الوصول إلى الحكم لتحقيق تغيير جذرى فى أوضاع المجتمع بينما الانقلاب فى حقيقته محاولة لتغيير شخص الحاكم فحسب[2] ولتحليل ذلك يتضح أن فكرة استخدام العنف فى كل من الثورة والانقلاب تصبح واردة طالما أن كل منهما يرمى إلى الاطاحة بالنظام الحاكم واستبداله بنظام جديد ومن هنا فإنه من الناحية العملية قد تختلط فكرتا الثورة والانقلاب وتتداخلان، خاصة وأن وجود ثورة شعبية شئ ينـدر وجوده. قد يقول البعض أن الثورة الايرانية بقيادة الخومينى على الشاه كانت

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر . رئيس قسم التاريخ كلية التربية -جامعة القاهرة بالفيوم.

ثورة شعبية خالصة وهذه حقيقة، ولكنها لا تعد مقياساً يمكن الأخذ به فكثيراً مـــا تعتمد الثورات على أقلية نشطة من الشعب يساندها بعض رجال الجيش ثم تنضم إليها جماهير الشعب بعد ذلك ، أو أن تقوم القوات المسلحة فى بلد مـــا بحركـــة تعبر فيها عن مصالح أغلبية الشعب وأهدافه وآماله. ثم يقف الشـــعب بجانبهـــا لتحقيق هذه الأهداف والآمال حتى تتمكن من تثبيت أقدامها.

ولكى يمكن تصنيف ما حدث فى الثالث والعشرين من يوليو هـــل هـــو انقلاب أم ثورة؟ ينبغى أن نستعرض الأقاويل التى ترددت حول حركة الجـــيش فى يوليو ١٩٥٢ وحقيقتها. فالضباط الذى خططوا لهذه العملية كانوا عبارة عـــن مجموعة غير معروفة من صغار الضباط من أبناء الطبقة الوسطى ولـــيس لهـــا أى سند جماهيرى بل تمثل واقعاً اجتماعياً معيناً وتعبر عن إرادة جيل بعينـــه[٣]. كما أنهم لم يصفوا حركتهم فى بداية أمرها بالثورة بـــل قـــالوا إنهـــا "الحركـــة المباركة"، كما أن اللجنة التنفيذية لهم أطلقت على نفسها اسم "القيادة"، وأجهـــزة الصحافة والأعلام أطلقت عليها اسم "الانقلاب"، والكتب التى صـــدرت وقتـــذاك ذكرت أنها "انقلاب"[٤]، هذا إلى جانب أن الضباط الأحرار كانوا قد أشاروا فـــى منشوراتهم الأولى إلى ضرورة عودة الجيش إلى ثكناته بعد تأدية واجبـــه، وقـــد أوضح "عبد الناصر" ذلك صراحة فى كتابه "فلسفة الثورة" فذكر أنه كان يتصور أن دور الضباط الأحرار ينحصر فى أنه دور طليعة الفدائيين الذى لا يســـتغرق سوى بضع ساعات يأتى بعدها الزحف المقدس للصفوف المتراصـــة المنظمـــة لتتسلم زمام الأمور وتعيد ترتيب الأوضاع ولكنه فوجئ بجموع جـــاءت شـــيعاً متفرقة، وفلولاً متناثرة لا تستطيع تكملة المشوار[٥] مما جعل الحاجة إلى إقامـــة نظام جديد يختلف عن النظام السابق مطلوباً كما أكد عبد اللطيف البغدادى ذلـــك بقوله((لم نكن قد أعددنا لأنفسنا برنامج عمل مفصل لإدارة أمور البلاد خشـــية ما يترتب على ذلك من خلافات وفرقة بيننا فى وقت كنا فى أشد الحاجـــة إلـــى استمرار تماسكنا ووحدتنا)).[٦] يضاف إلى ذلك أن قادة الحركة قـــاموا بـــدعوة مصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين بعد أن عادا من الخـــارج فـــى ٢٧ يوليـــو ١٩٥٢ لمعرفة نوايا الوفد إذا تسلم الحكم، ولكن هذه المقابلة لم تكن موفقه[٧].

ومعنى ذلك أن قادة الحركة لم يكن لديهم تصور واضح عن الخطـــوات الواجب اتخاذها بعد السيطرة على الموقف خاصة وأنه كان من المفترض لديهم تسليم السلطة إلى تنظيمات سياسية وطنية يضاف إلى ذلك أن إطـــلاق مفهـــوم الثورة على هذه الحركة كان ينقصه العديد من الإجراءات حتى يمكن أن يطلـــق

عليه ثورة، ويؤكد ذلك أنه مع أن هذه الحركة كانت عسكرية صرفه فإن الـذى خطط لها مجموعة من الضباط، ولم يعرف عن أهدافها ضباط الصف والجنـود إلا بعد أن نفذوا أوامر ضباطهم بالتحرك دون وعى بحقيقة ما سيحدث، نظـرا لعدم وجود أى فكرة لديهم عن تنظيم الضباط الأحرار ومخططات رجاله(٨) كما أن جماهير الشعب المصرى كانت قد فوجئت بالحدث التى لم تعرف عنه إلا من خلال البيان الذى أذيع باسم اللواء محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة(٩) فى الساعات الأولى من صباح يوم ٢٣ يوليو والذى تحدث فيه عن الفترة العصـيبة التى اجتازتها مصر من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وأكد فيه للشـعب المصرى أن الجيش كله سيعمل "لصالح الوطن فى ظل الدستور مجردا من أية غاية" كما طالبه بألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف لأن هذا ليس فى صالح مصر".

وعلى الرغم من أن جماهير الشعب المصـرى اسـتقبلت هـذا البيـان بحماس شديد، فإنها منعت من التظاهر لتأييده منعاً باتاً خشية أن تسنح الفرصـة للدسائس كى تلعب دورها مما يفسح المجال أمام التدخلات الأجنبية(١٠) هذا إلـى جانب أن المنظمات السياسية القائمة وقتذاك لم تشارك بشكل مباشر فى صـناعة ما حدث باستثناء منظمة "حدتو" والإخوان المسلمين الذين ساعدوا علـى قيامـه بشكل غير مباشر(١١) ونتيجة لكل ذلك وقف النـاس حيـارى لا يـدرون مـاذا سيحدث لمستقبل بلادهم، ولا يعرفون ماذا تخبئه لهم الأقدار، مع هذا الانقـلاب التى تغلبت عليه الصفة العسكرية، ثم سرعان ما تبين للجميع أن ما حـدث فـى مصر خلال ليلة ٢٣ يوليو لم يكن من الأحداث العابرة بل كان ثورة بكـل مـا تضمنته هذه الكلمة من معان، خاصة بعد التغيرات التى أحدثتها من أجل تغييـر هيكل البناء الاجتماعى لمصر، وتحسين أوضاع الجماهير الشعبية، وما قامت به من إجراءات هدمت الثوابت.

ففى الساعة السادسة من مساء يوم ٢٦ يوليـو ١٩٥٢ أذاعـت محطـة الإذاعة المصرية الانذار الموجه إلى الملك من اللواء محمد نجيب حملـه فيـه كثيراً من السيئات مثل سوء التصرف والعبث بالدستور وامتهـان إرادة الشـعب، وطالبه بضرورة مغادرة البلاد موضحاً أن ما حدث إنما هو تعبيـر عـن إرادة الشعب وذلك بقوله "لقد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش" و"الجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عـدم النـزول على رغبة الشعب من نتائج" وهذا يعنى أن حركة الجـيش كانـت تسـتند فـى

مطالبها على رأى الشعب ورغبته فى تغيير أوضاع البلاد[١٢].

وبعد أن استمع الناس للإنذار ازداد تأييدهم للثورة خاصة وأنها تطلب من الملك النزول عن العرش والخروج من البلاد تحقيقاً لرغبة الشعب ثم قيام الملك بالتوقيع على وثيقة التنازل ومغادرته البلاد معزولاً عن عرشه. ومعنى ذلك أن حركة الجيش لم تكن مجرد انقلاب عسكرى له أهداف محدودة ومطالب خاصة برجال الجيش إذا ما أجيبت هدأت الأحوال وترك الملك على عرشه، ولكن ما حدث كان عكس ذلك تماماً خاصةً وأن المخاطرة لم تكن مأمونة العواقب فقد أرادها رجال الحركة ثورةً شاملةً على الأوضاع السائدة اجتماعية واقتصادية وسياسية والتى يرغب الشعب فى التخلص منها خاصة بعد الاستياء الواسع من النظام الملكى، والإحباط وفقدان الثقة فى الأحزاب السياسية مما شكل تربةً خصبةً لحركة الضباط الأحرار وقربهم من الشعب، ومن هنا تحول الانقلاب إلى ثورة أرادها الشعب على يد الجيش المعبر عن إرادة الأمة، وانطلقت قرارات التغيير فى صميم الهيكل الاجتماعى والاقتصادى للأمة المصرية، فألغيت الألقاب المدنية مثل البيك والباشا فى ٣٠ يوليو ١٩٥٢ نظراً لأنها كانت ألقاباً تميز بعض الفئات عن بعض، وتم حل البوليس السياسى التابع للقصر الملكى فى الأول من اغسطس ١٩٥٢ وتم البدء فى ١١ اغسطس ١٩٥٢ فى تطبيق قواعد خاصة للحد من السفر وتحويل الأموال إلى الخارج، وزيادة الضرائب على الدخل التجارى وغيره من الدخول كجزء من سياسة التقشف الاقتصادى بهدف تقليص العجز فى خزينة الدولة[١٣].

وإلى جانب ذلك فقد تم العفو عن المتهمين بالعيب فى الذات الملكية، كما صدر قانون الأحزاب السياسية بشأن ضرورة إجراء تطهير كامل للأحزاب السياسية وضرورة خضوعها لقرار القيادة العامة[١٤].

وبعد خمسين يوما تقريباً من قيام الحركة وبالتحديد فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ صدر المرسوم بقانون رقم ١٧٨ لسنة ١٩٥٢[١٥] الذى وضع حداً نهائياً للنظام الإقطاعي وحول الأغلبية الساحقة من الفلاحين إلى ملاك للأرض. بعد أن كان يتحكم سادتهم فى لقمة عيشهم. فبعد أن كانت الثروة الزراعية تتركز فى أيدى فئة قليلة من الأفراد مع بقاء الأغلبية الساحقة من أهل الريف فى حالة من التبعية والسيطرة المسلطة على رقابهم برزت الإجراءات الثورية المنطلقة إلى العدالة الاجتماعية والتحرر والقضاء على التخلف الاقتصادى والظلم الاجتماعى الذى عاشت مصر فى ظله قرونا طويلة، فأعيد توزيع الأرض وفقاً لقواعد

ومبادئ جديدة. وتم تحديد الملكية الزراعية بمائتى فدان، وتصفية طبقـة كبـار الملاك الـزراعيين، وانتشـار الجمعيـات التعاونيـة وقيـام نقابـات العمـال الزراعيين[١٦].

وبعد أن وجدت حركة الجيش استجابة مذهلة وتضافراً من الشعب الذى هز خلع الملك فاروق قلبه وأثار مخيلاته ،خاصة بعـد أن بـدأ تنفيـذ قـانون الاصلاح الزراعى، وأصبح الفلاح الأجير مالكاً[١٧] غيـرت قيادة الحركة اسمها إلى مجلس قيادة الثورة فى يناير ١٩٥٣ ولتأكيد ارتباط ثـورة الجيش بالشـعب أعلن اللواء محمد نجيب أن وثيقة الاعلان الدستورى بشأن دستور الحكم المؤقت إبان فترة الانتقال إنما هى تصدر باسم الشعب[١٨].

وقبل أن ينتهى العام كان النظام الملكى قد وصل إلى نهايتـه وأعلنـت الجمهورية فى ١٨ يونيو ١٩٥٣ وبدأ الفكرى الثورى يؤدى دوره فـى تغييـر المجتمع المصرى وتحقيق أحلام المصريين، وأصبحت كلمة الثورة هى المرشد والدليل فيما يتخذ من إجراءات أو يصدر من قوانين وقـرارات سـواء كانـت سياسية أم اقتصادية أو اجتماعية. كل ذلك حول حركة الضباط إلى ثورة عبرت عما كان يجيش فى نفوس الناس من آمال وغايات تتصـل بالقضـية القوميـة والأوضاع الداخلية.

وانطلقت الحركة من عقالها وهى تجمع بـين ثـورتين ثـورة سياسـية وأخرى اجتماعية لتعبر عن السخط الذى كانت تمتلئ به نفوس الشعب بطبقاتـه وطوائفه وهيئاته كافة[١٩] وقد أكد الرئيس "عبد الناصر" ذلك فى كتابـه "فلسـفة الثورة " بقوله: ((كانت هناك ثورة سياسية ليسترد بها الشعب حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغيه فرض عليه، ومن جيش معتد اقام فى أرضه دون رضـاه، وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر فيها الأمر على تحقيـق العدالـة لأبناء الوطن الواحد[٢٠] وقد خاض الشعب المصرى هذه التجربة الهائلة ونجـح فى أن تعيش الثورتان معا فى وقت واحد))[٢١].

ومما سبق يتضح أن حركة الجيش بدأت كانقلاب عسكرى لـم يشـارك الشعب فيه ثم تحولت إلى ثورة قامت الجماهير بتأييدها خاصة وأنها عبرت عن أهدافها فى التخلص من الأوضاع الفاسدة، فهى ثورة عبر عنها الجيش المنبعـث من صفوف الشعب. وقد أوضح اللواء محمد نجيب ذلك بقوله: "إن دور القـوات المسلحة كان دوراً تاريخياً عبرت به عن انفجار الثورة على مـن لـم يؤمنـوا

بمصلحة الشعب".[٢٢]

فثورة يوليو وطبقا للمبادئ الستة التى بلورت أهـدافها قامـت بتحقيـق استقلال البلاد وحريتها كما جاء فى المبدأ الأول وهو القضاء علـى الاسـتعمار وأعوانه، ومن أجل التغلب على سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية كان المبـدأ الثانى والثالث والرابع القضاء على الاقطاع، والقضاء على الاحتكار وسـيطرة رأس المال على الحكم، وإقامة عدالة اجتماعية، وفى سبيل النهـوض بـالجيش جاء المبدأ الخامس إقامة جيش وطنى قوى، وكان المبدأ السادس هو إقامة حيـاة ديمقراطية سليمة نتيجة فساد النظام الداخلى، ولكن ليس كل مـا يتمنـاه المـرء يدركه خاصة وأن السياسات الارتجالية التى واكبت معظم قرارات رجال الثورة على الصعيدين السياسى والاقتصادى قد تم اخضاعها لعوامل التجربة والخطـأ. وهكذا كانت حركة الجيش بمثابة الأداة التى استخدمت لتحقيق رغبة الشعب فـى القضاء على الاستعمار والتخلص من الحكم الأجنبى، وفى تقريـب المسـافات الاجتماعية بين الطبقات وانفتاح السبيل إلى التغيير الثورى، وقد تحمل كل ذلـك الأعباء مجموعة من صغار الضباط من أبناء الطبقة الوسطى وأبنـاء صـغار الموظفين ممن نبتوا بين صفوف الشعب وتمكنوا من دخول الكلية الحربية فـى أعقاب معاهدة ١٩٣٦.[٢٣] وعانت معظم أسرهم من الاستدانة لدفع مصـروفاتهم فى الكليـة الحربية[٢٤] ولم تتلاق مصالحهم مع مصالح الطبقـة الحاكمـة.[٢٥] ويؤيد ذلك تصريحات قادة الثورة وأقوالهم وأفعالهم تجاه إصلاح أحوال طبقات الشعب من الفلاحين والعمال وأصحاب الدخول المحدودة، كما يؤيده الاصلاحات التى قاموا بها لصالح هذه الطبقات مثل تحديد الملكية الزراعية، وخفض أجـور المساكن، وإصدار التشريعات الخاصة بحقوق العمال وغيرها وتوفير حد أدنـى لمعيشة كريمة لجماهير الشعب المصرى.

والخلاصة أن حركة يوليو ١٩٥٢ بدأت فى شكل انقلاب عسكرى، ثـم تحولت إلى ثورة بعد أن حظيت بتأييد الشعب المصرى ومشـاركته، وشـكلت تحالفاً رائعاً بين الشعب والجيش حول مطالب الأمة المصرية، اقتلعـت خلالـه الأنظمة القديمة، وقامت بأحداث تغييرات عميقة وشـاملة فـى القـيم والـنظم والأوضاع السياسية والاجتماعية والتى ثبت من خلالهـا أن الجـيش كـان أداة الشعب للقيام بهذه الثورة.

الهوامش

(١)جورج بوليتزير، جى بيسى، موريس كافينج: المبادئ الأساسية للفلسفة، جـ١، ص ٧٣.

(٢)الأهرام فى ١٩٥٩/٧/٢ من حديث مع الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل.

(٣)أحمد حمروش: ثورة ٢٣ يوليو ، ص ٢١٢.

(٤)أنظر : كتاب راشد البراوى حقيقة الانقلاب الأخير فى مصر.

(٥)فلسفة الثورة، ص ١١.

(٦)مذكرات عبد اللطيف البغدادى، ص ٦٣.

(٧)ويكفى الاشارة إلى أن النحاس قد بدأ حديثه مع محمد نجيب قائلا أنـا زعـيم الـ ١٨ مليون (أى تعداد سكان مصر وقتذاك) أرحب بزعيم الـ٦٠ الف(أى عدد الجيش المصـرى) مما أصاب الضباط الأحرار بإحباط شديد تجاه الوفد الذى تصور قادته أنهم سـادة الموقـف سواء شاءت الثورة أم أبت،وبأن مستقبل الثورة فى أيديهم، كوفتونـوفيتش: ثـورة الضـباط الأحرار، ص ١٢٠

(٨) جمال حماد: ٢٢ يوليو أطول يوم فى التاريخ ، ص ٦٤.

(٩)على الرغم من أن جمال عبد الناصر كان قائدا لتنظيم الضباط الأحرار، فإنه نظرا لصغر سنه ورتبته تم اختيار اللواء محمد نجيب لقيادة الحركة نظرا لرتبته العالية، وسمعته الطيبـة ووطنيته حيث قاتل بشجاعة فى حرب فلسطين ١٩٤٨ وجرح مرتين، هـذا بالإضـافة إلـى بساطته وجاذبيته وطيبة قلبه وسلامة نيته، وسرعة ثقته بالغير.

(١٠)راشد البراوى: مرجع سابق، ص ٢٧.

(١١)كوفتونوفيتش: ثورة الضباط الأحرار، ص-ص ١١٥-١١٦.

وللتفاصيل ذلك انظر: فطين فريد: ثورة يوليو ١٩٥٢ من التنظيم السرى إلى سقوط فـاروق، ص ٣٩٥، وأحمد حمروش: مرجع سابق، ص ٣٠٧.

(١٢) فعل عرابى ذلك قبل سبعين عاما خلال مظاهرة عابدين فى ٩ سـبتمبر ١٨٨١ عنـدما قال للخديوى : ((لقد جئت لأعرض مطالب الجيش والشعب وكلها طلبات عادلة)).

للتفاصيل أنظر : عبدالمنعم الجميعى : الثورة العرابية ؛ دراسات وبحوث وثائقية ص ٢١ .

(١٣) كوفتونوفيتش: مرجع سابق، ص ١٢٠.

(14) Vatikiotis, P: Nasser and His Generation, 76. .

(١٥)حول الوثيقة الخاصة بقانون الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية انظر ملحق رقم (١).

(١٦)راشد البراوى: الفلسفة الاقتصادية للثورة، ص ٣٦.

(١٧)انور عبد الملك: مصر مجتمع يبنيه العسكريون، ص ٩٣.

(١٨)انظر ملاحق الدراسة. ملحق رقم (٢).

(١٩)راشد البراوى: حقيقة الانقلاب الأخير فى مصر، ص ١٢.

(٢١) فلسفة الثورة، ص ٢٨.

(٢٢) مجلة التحرير: العدد الأول فى ١٧ سبتمبر، ١٩٥٢.

(٢٣)علاء الحديدى: مصطفى النحاس، دراسة فى الزعامة السياسية المصرية، ص ١٧٦.

(٢٤)احمد حمروش: مرجع سابق، ص ٢١٦.

الفصل الثامن

تغير قيم عائلة مصرية قبل ١٩٥٢ وبعدها

ليلى عنان(*)

"أعوذ بالله من كلمة أنا"..... ولكن ما الحل وأنا سأقص عليكم ما حدث لي، أنا؟ فتوقيت تاريخ ميلادي سمح لي أن أكون شاهدة عيان على تغيير جذري في قيم عائلات الطبقة الوسطى بعد ثورة يوليو، تغيير كان نتيجته أن فتحت لأبناء هذه الطبقة، آفاق لم يكن يحلم بها من ولدوا قبلهم بخمس سنوات، كما لم يشعر بها من ولد بعد هذه المرحلة الفاصلة، بخمس سنوات فقط. لذا سأحكي لكم ما شاهدته وعشته بنفسي، لأن تجربتي الشخصية لم تكن فريدة ولا نادرة، في مصر النصف الثاني من القرن العشرين، مصر التي شكلتها ثورة يوليو. ولكني أود أن أحيي، في أول حديثي، ذكرى المرحوم "إبراهيم بيه"، فهو من أثبت لي أن الانقلاب العسكري الذي تم يوم ٢٣ يوليو، لم يكن، كما كان يقال مجرد "حركة مباركة".

"إبراهيم بيه" هو الذي أثبت لي أن ما حدث كان "ثورة"، بالمعنى الفرنسي لكلمة "revolution"، أي دورة كاملة لنقطة قطعت في دورتها ثلاثمائة وستين درجة في دائرة محكمة، فأصبحت كل الأمور معكوسة، ولنقل "بالبلدي: أصبح عاليها واطيها"....

"إبراهيم بيه" كان تركياً شاهق البياض، من الجيل الثاني لأتراك جاءوا إلى مصر ليستوطنوها. وكان يعيش، مثله في ذلك مثل أقرانه، من ريع عزبة، لا يذهب إليها إلا مرتين في السنة من أجل "المحصول". كان مثل إخوانه، يدفع ستين جنيها ليرتدي بذلة من الصوف الإنجليزي، من عند Delia الإيطالي، أغلى حائكي ذلك العصر. ملحوظة: كان خريج الجامعة آنذاك، لا يحصل على أكثر من ستة جنيهات في الشهر. لذا، أصبح لقب "بيه" يلازم هذا "الإبراهيم". فمن في العائلة غير التركية، يستطيع أن يتباهى بمثل هذا المظهر؟

(*) أستاذ الأدب الفرنسى، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

وفي يوم أعتبره تاريخياً، صدر أمر بضرورة التوجه إلى أقسام البوليس لاستخراج بطاقة شخصية لكل مواطن، كان ذلك جديدا على المصريين. وذات صباح، دخل علينا "إبراهيم بيه" ووجهه الأبيض يكاد ينفجر من شدة الحمرة والانفعال. وإذا به يصيح: "الموظف سألني عن اسمي قلت له، عن مسكني قلت له، عن مهنتي .... قلت له صاحب أطيان. وبمنتهى الاحتقار، قال: "يعني عاطل" .... تصوروا؟ أنا "عاطل" على آخر الزمن! ... نعم، كان آخر الزمن، زمن كان فيه الوجيه صاحب الأطيان، يستحق تلقائيا لقب "بيه"، وما يصاحبه من تقدير واحترام، خاصة إن كانت ملابسه من عند Delia. أصبح "إبراهيم بيه" ومن يشبهه، ينعت بلفظ مهين. فهو بلا شهادة يتوظف بها، ولا عمل يجعله يذهب يومياً إلى الديوان، مثل أقاربه ممن اختلطت دماؤهم بدماء المصريين الفلاحين، الذين يشقون طيلة اليوم على مكتب حقير، مقابل ستة جنيهات في الشهر، لأنهم "نجحوا في دراستهم، أصلهم فقرا ولاد كلب".

بدأ إذا عصر الموظف، وأخذ أولاد "البهوات" الفاشلين في الدراسة ينظرون بحسد معلن لأولاد الفرع الفلاحي من العائلة، الذين نزحوا إلى المدينة لأن الحالة الاقتصادية لعائلاتهم أصبحت تسمح لهم بالحصول على الشهادات "العالية"، وتبوءوا المراكز المرموقة. وذهب سكان الفجالة إلى شبرا، ونزح أهل شبرا إلى مصر الجديدة، وهاجر أهل مصر الجديدة إلى الزمالك، وأصبح "الستر" يكفي لاحترام الجميع.

ولكن ثمة أحداثاً دارت في محيط الطبقة المتوسطة التي أنتمي إليها أكدت لي أن التغيير الذي حدث لم يكن تغييراً اجتماعياً فقط، بل تواكبه ثورة أخرى في نمط التفكير، وتبدل القيم السائدة حتى ذلك العصر.

في عام ١٩٥٠، انفجرت قنبلة إعلامية مصغرة: إذ تسرب خبر مفزع، انتشر كالنار في الهشيم وسط الركود العائلي الذي يقدس تعاليم كتاب شفهي اسمه "الأصول". وكانت هذه "الأصول" تحتم على الفتاة انتظار العريس الملائم ما دامت قد وصلت لسن الخامسة عشرة. وكنت أنا في الخامسة عشرة عندما أعلن أبي موافقته على أن أذهب إلى الجامعة، وإذا بأحد أخوالي يقتحم منزلنا كالزوبعة، ويتهم أبي بالضعف أمام نزوات ابنته الطائشة: كيف يلقي بها هكذا إلى عالم الغواية في مجتمع الجامعة المختلط. ورفض أبي الفلاح غير المثقف الإذعان لهذه النظرة الغريبة، وذهبت إلى الجامعة. وفي الوقت نفسه ، تقدم الى خطبتي ضابط شاب من الفرع الريفي للعائلة. وكادت صدمته تصيبنا بالضحك

عندما عرف أن أبي لا ينوي تزويجي — حسب طلبي — قبل نهاية دراستي الجامعية: "أنا أتجوز بنت حطت رجلها في الحرم الجامعي؟!". ومرت الأيام، ثم رضخ الشاب المحافظ الذي تربى في الريف، رضخ لشروط العروس العنيدة، وتمت الخطبة بعد أيام من قيام الثورة. ولكن حدث بعد ذلك ما كنت أتوقعه، إذ بدأ يلح على بالزواج السريع: وما المانع في استكمال الدراسة بعد الزواج؟ المانع أنني لن أحصل على أعلى الدرجات، ولن أفوز بوظيفة أحلامي ..... ورأيت الصاعقة تنزل على رأس الخطيب المذهول: "تشتغلي؟ يعني إيه تشتغلي؟ أصحابي يقولوا إيه؟ مش لاقي أكسيكي؟!"... ... كان هذا هو المنطق السائد وسط شباب تربى على قيم أصيلة، حافظ عليها حتى عندما نزح إلى القاهرة، عندما أصبح الجيل الجديد من المتعلمين في العائلات الريفية الميسورة. المناقشة العنيفة التي دارت بيني وبين خطيبي من أجل مشروع ما بعد الجامعة وقعت في عام ١٩٥٤ ...... وفي عام ١٩٥٥، تخرجت وتوظفت وتزوجت. وذات يوم مشهود كان انتصاري، إذ جاءني زوجي قائلا: "كامل يسلم عليك، وبيسألك تشوفيله عروسة من زميلاتك "...

كنا آنذاك في عام ١٩٥٧، أي بعد ثلاث سنوات من وقوع الصاعقة بسبب رغبتي في العمل، وخمس سنوات فقط من قيام الثورة، وضابط شاب ممن كان زوجي يخشى تعليقاتهم، يبحث عن عروس تشتغل ... يا نهار أبيض......

وفي المرحلة نفسها ، دوت قنبلة أخرى وسط العائلة المحترمة: كانت ابنة خالي الذي رفض فكرة ذهابي إلى الجامعة، قد ذهبت ....إلى الجامعة .... ولم يتعجب أحد آنذاك، فقد أصبحت "الأصول" الجديدة، وبسرعة مذهلة، تحتم على البنت، مثلما كانت تحتم على الولد، الحصول على شهادة جامعية. ولم تشذ عائلتي في هذا عن باقي وسطنا المحافظ الوقور. ولكن ما شذ في الأمر، أن ابنة خالي هذه تمت خطبتها وهي في السنة الثانية، فطلبت ألا تستمر في تعليم كانت تكرهه، وإذ بالخال الجهبذ، والذي سبق ورفض وجودي في جامعة هي بؤرة فساد مؤكد، إذ به، ولأول مرة في حياته، يصفع ابنته صفعة دوت، وكأنها إنذار لكل بنات العائلة، حتى لا يرفضن الذهاب إلى الجامعة بعد ذلك! الرجل الناضج نفسه الذي اعتبر ذهاب ابنة أخته إلى الجامعة فضيحة غير محتملة، يجبر الآن ابنته الحبيبة إلى المضي في تعليم مختلط، لم يعد في نظره بؤرة ضياع: الجامعة أصبحت ضرورة حتمية!

لقد أصبح العرسان بالفعل ــ وهم هدف كل عائلة لها ابنــة "علــى وش جواز" ــ أصبح العرسان يسألون عن فتيات متعلمات وحاصلات علــى شــهادة جامعية! ياله من انقلاب، ولكنه انقلاب عام. ولذا، كان صديق زوجي وخــالي مثالين، لهما في نظري بلاغات عميقة. لأن الثورة كانت قد قامت قبل هذا الكلام بخمس سنوات فقط، وأصدقاء زوجي يبحثون الآن عــن عــروس تشــتغل، ولا يأبهون بما سيقال عن ضيق ذات اليد، وخالي لا يريد أن تتــزوج ابنتــه قبــل حصولها على درجة علمية من الجامعة.

عالم الجيولوجيا لا يحسب مرور الوقت إلا بآلاف السنين أو بملايينهــا، أما المؤرخ، حتى لو كان يؤرخ لما شاهده بنفسه وعاشه دقيقة بدقيقة، فالسنوات تبدو له أحيانا وكأنها أيام، (إلا أثناء الأزمات التاريخية الكبرى طبعا). ولذا، فأنا أعجب الآن، وأنا أتذكر أن ما حدث لي في عام ١٩٦٥، لم يكن بعيدا عن عــام ١٩٥٠، مقارنة بما حدث: ففي عام ١٩٥٠، رفض شاب أن يتزوج مــن فتــاة " حطت رجلها في الحرم الجامعي". وفي عام ١٩٦٥، أي بعد خمسة عشر عامــاً تبدو وجيزة بالنسبة للمؤرخ، وافق هذا الشاب (الذي كــان لا يــزال شــابا)، أن تذهب زوجته لتعيش وحدها في باريس للحصول على درجة دكتوراه الدولة، أي لمدة لا تقل عن عشر سنوات. والعجب أنه ما من أحد في العائلة احتج على هذا القرار، أو علق عليه بالسوء. فما من أحد في المجتمع السابق ذكره، رأي أيــة غضاضة في الأمر. وبالفعل ذهبت إلى فرنسا، كان هناك أكثر من زميلة، من طبقتي الاجتماعية المحافظة نفسها ، أكثر من زوجــة، تركــت مثلــي زوجهــا وأولادها بحثاً عن العلم، وبمباركة كل أفراد العائلة ... مــن الجيــل الســابق، وبمساعدتهم.....

لقد أصبح العلم تاجا تبحث عنه العائلات لبناتها، بعد أن كانــت تخشــى عليهن من الاختلاط في الجامعة.وأعتقد أنه لولا ما قامت به ثورة يوليــو مــن تكريم للعلم، وما نتج عنه من تغيير في مفاهيم الناس ــ وما هذا طبعا إلا مثــال بسيط لما غيرته ــ لولا هذا، لما تبدلت هكذا قيم الناس، ولما تواجــدت اليــوم معكم، لأدلو بدلوي.

وكل هذا كان في حادثتي صفع خالي لابنته، وطلب صــديقنا عروســاً بوظيفة، حادثتان لا قيمة لهما في تاريخ أمة، ولكني أرى فيهمــا مؤشــراً لمــا سيحدث بعد ذلك، لأن خالي قاهري، وزوجي وصديقه كبرا في الريف، وحافظا على قيم طفولتهما. ومع ذلك حدث لثلاثتهم التحول نفسه . ففــي تــاريخ كــل

ثورة، يتحول الجيل الذي عاصر الثورة إلى فكر جديد، ويكتسب قيماً جديدة، مع أنه كبر وتكونت شخصيته قبل حدوثها. وعادة ما يحقق هذا الجيل، بعد ذلك، أمالاً وأحلاماً كان النظام السابق يمنعها من الانطلاق. ولكن المناخ الجديد لم يحرمه من حقوق أصبحت مشروعة، حتى وإن كانت جديدة عليه. هذا المناخ والتغيير الذي حدث، سيشكلان جيلاً جديداً آخر، جيل أولاد لا يعرفون قيم مجتمع ما قبل الثورة وقوانينه: انهم بحق "جيل الثورة". جيل أطفال أصبح أباؤهم يريدون زوجة متعلمة، وأمهات أصبحن موظفات. إنه الجيل الذي فتحت له مثلاً، كما حدث في مصر، أبواب التعليم وهو لا يزال في ريف يؤمن بتقاليد وقيم توارثتها الأجيال السابقة على مر القرون، ريف لا يعرف، كما حدث في المدن الكبرى، أجانب يشكلون سلوك أكابر القوم. وعندما كبر هذا الجيل الجديد المولود بعد الثورة — جيل أولادي — نزح من الأقاليم إلى "مصر أم الدنيا"، والحكومة تفتح له أبواب التوظف في المدن، فيتحول أفراده إلى "أفندية" — سواء كانوا رجالاً أو نساءً — ينتشرون في المكاتب والشوارع والأندية. وهكذا تحولت قاهرة الأجانب إلى قاهرة الأقاليم، بها كل قيم ريف أصبح قاهرياً. ويتطور أهل الريف في لبسهم حتى يتلاءم مع الوظيفة في مكاتب الدولة، ولو أنه لا يفقد طابعه الديني الخاص بتقاليد "البلد". ولم يعد ميدان العتبة، هو الحدود الفاصلة، بين قاهرة "أولاد البلد"، وقاهرة المصريين المتفرنجين، وأصبح الجميع مصريين في بلد واحدة.

هؤلاء هم النتاج الحقيقي لمجتمع غير قيمه وفكره عند قيام الثورة ... وكل هذا لأن خالي صفع ابنته !! والله أعلم.

الفصل التاسع

موقف الـولايات المـتحدة الأمـريكية من العدوان لبريطاني على ثورة عمان ١٩٥٧م

ابراهيم العدل المرسى(*)

المقدمة

تتناول هذه الدراسة موقف الولايات المتحدة الأمريكيـة مـن العـدوان البريطاني على ثورة عمان ١٩٥٧م، حيث شـهد عـام ١٩٥٧ نشـاط الثـوار العمانيين لدعم مواقعهم العسكرية ، وقاموا بثورة لتحرير بلادهـم مـن القـوات المشتركة لسلطنة مسقط وبريطانيا ، وتدخل الإنجليز بثقلهم العسكري ، وهجموا على قوات الإمام ومعاقله بالطائرات، وقصفوا القري العمانية الآمنـة بالقنابـل كمرحلة جديدة فى الحرب على ثوار عمان، وبينما كانت المعارك تتخذ مسـرحاً لها فى مقاطعات عمان الداخلية خلال تلك الفترة ، أحـدثت أنباؤهـا اهتمامـات عربية وعالمية واسعة النطاق .

ولعل اختياري لموقف الولايات المتحدة الأمريكية من هذا العدوان يرجع لعدة اعتبارات منها ، أنه بعد الحرب العالمية الثانية تغير سلم التدرج الـدولي ، حيث ظهر قطبان عالميان جديدان من خارج القارة الأوربيـة همـا الولايـات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي ، وقد أصبحا فى ظل الوضع الجديـد همـا وحدهما القادرين على تقرير النسق الدولي بما يملكانه من مقدرات فائقة .

أن تاريخ علاقات الولايات المتحدة الأمريكية بعمان يعـود إلـى عـام ١٨٣٢ حين وقعت الولايات المتحدة معاهدة مع سلطنة عمان ، وكانـت إحـدى أوائل المعاهدات التي وقعتها الولايات المتحدة مع بلد آسيوي.

اهتمام الولايات المتحدة بمنطقة الخليج العربي ، ومحاولتها لوراثة نفـوذ بريطانية السياسي الذي بدأ أفوله فى الخمسينات فى الشرق الأوسط عامة والعالم العربي خاصة ، وننوه إلى أن علاقات الدولتين فى المنطقة العربية خلال تلـك

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد بآداب المنصورة.

الفترة كانت أكثر تعرجا بين الفتور والقوة والهبوط والارتفاع ، وكـان أبرزهـا هبوطاً إبان أزمة السويس عام ١٩٥٦ .

وكانت مصالح الولايات المتحدة بمنطقة الخليج العربى تتعارض أحيانـاً مع مصالح حليفتها بريطانيا.

وسوف نتناول هذه الدراسة النقاط التالية:

أولا : ثورة عمان ١٩٥٧ والعدوان البريطاني ، موضحا أسـباب هـذه الثورة وأحداثها والتدخل البريطاني والعدوان المسلح عليها .

ثانيا : موقف الولايات المتحدة الأمريكية من العدوان البريطـاني علـى ثورة عمان من خلال مۆقف الحكومة والصحافة الأمريكية ، والموقف الأمريكي فى الأمم المتحدة .

ثالثا: القوي الدولية الكبري والموقف الأمريكي ، موضحا صدي الموقف الأمريكي على المستوي الدولي وبخاصة فى القوي الدولية الكبري مثل الاتحـاد السوفيتي وفرنسا وبريطانيا .

وقد اعتمدت هذه الدراسة على مجموعتين مـن الوثـائق ، المجموعـة الأولي الوثائق العربية مـن محـافظ وزارة الخارجيـة المصـرية الجديـدة ، والمجموعة الثانية الوثائق الأجنبية سواء الأمريكية والإنجليزية ، بالإضافة إلـى المراجع العربية والأجنبية والصحف التي تناولت هذا الموضوع .

تمهيد

تتمتع عمان بموقع جغرافي يسيطر على مدخل الخليج العربـي، وعلـى قسم كبير من سواحل البحر العربي، ونظرا لقربها من الهنـد وصـلاتها بعـالم المحيط الهندي، فقد كانت من أوائل الأقطار العربية التي وقعـت فـى بـراثن الاستعمار فقد احتلها البرتغـاليون أولا ثـم الهولنـديون ثـم الفرنسـيون، ثـم الإنجليز[1]، على أن العمانيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الـدول الاسـتعمارية التي حاربتهم بكل ما لديها من قوة برية وبحرية وخاصة بريطانية مدعومة مـن قبل أعوانها فى المنطقة.

وقد قام العمانيون بثورات متعددة فى أوائـل القـرن العشـرين لنيـل استقلالهم وحريتهم فكانت ثورات ١٩١٣، ١٩١٦، ١٩١٩، وقد قمعت بريطانيـا

هذه الثورات وأقدمت على تقسيم عمان ، فظهرت سلطنه جديـدة هـي سـلطنة مسقط بموجب معاهدة السيب سنة ١٩٢٠ (٢) ، فصنع منها البريطـانيون دولـة تدين لهم بالولاء ، والملاحظ أنه منذ عقد هذه المعاهدة بين الإمامة والسلطنة كان الأئمة يسيطرون على مقاطعات الداخل ، ويعينون الولاة والقضـاة ويفرضـون الزكاة ، وعلى الرغم من انه لم توضح حدود سياسية بين الإمامـة والسـلطنة ، فإن الحدود كان متفقاً عليها عرفياً بين الطرفين ، كما كان الوكلاء البريطـانيون فى مسقط والخليج العربي بمثابة وسطاء فى العلاقات التي كانـت تقـوم بـين السلطان والقبائل الداخلية فى عمان (٣).

وعموما يوجه تاريخ عمان المعاصر عاملان ، علاقة سـلاطين مسـقط ببريطانيا ، ثم موقف هذين الطرفين من الإمامة فى الداخل (٤) ، ولقـد شـهدت الساحة العمانية فى تاريخها المعاصر فترتين من الكفاح المسلح إحـداهما بـدأت فى الخمسينيات و الأخري فى الستينيات حتي منتصف السبعينيات مـن القـرن العشرين.(٥)

وهذه الدراسة حول الفترة الأولي من الكفاح المسلح فى الخمسينيات فـى القرن العشرين للشعب العماني ، ففي الوقت الذي كانت تحتدم فيه الصـراعات الدولية حول واحة البوريمي ولى الإمامة عام ١٩٥٤ إمام جديد هـو القاضـي غالب بن على الهنائي البالغ من العمر ٤٥ عاما بدلا من محمـد بـن عبـد الله الخليلي الذي توفي فى السنة نفسها ، إلا أن هذا التاريخ سـجل بالنسـبة لعمـان ولكل منطقة الخليج منعطفاً فى تاريخها المعاصر ، فقد كان بداية مرحلـة نمـو على صعيد النشاطات النفطية ، وكانت هناك تغيرات جذرية فى طريقهـا إلـى الظهور اهتزت معها كل موازين القوي والمعادلات السياسية القديمـة ، كانـت مجتمعات الخليج قد بدأت تشاهد ، آنذاك طفرات سريعة ومؤثرة علـى الصـعيد الاقتصادي والسياسي ، ثم الاجتماعي والثقافي ، باستثناء عمـان التـي فـرض عليها ان تنتظر حتي السبعينيات ، وفى هذا السياق احتل الخليج مقدمـة مسـرح الإستراتيجية الغربية والبريطانية على الأخص ، وبخاصة عمـان التـي كانـت خارج منطقة نفوذ الإنجليز .

وقد منح سلطان مسقط عام ١٩٥٣ امتيازات لبريطانيـة للتفتـيش عـن النفط، ليس فى الأراضي الواقعة تحت نفوذه فحسب، بل فى الأراضي الداخليـة التابعة لإمامة عمان ، فقد أعطي الحق لنفسه فى التصرف بها حسـب رغبتـه، وفى عام ١٩٥٤ قامت بريطانيا بالتنقيب فى منطقة الفهور ، داخل حدود الإمامة

ومن أجل ذلك تهيأت لكل الاحتمالات وشكلت جيشاً خاصاً على حساب الشـركة النفطية عرف باسم " قوة مشاة مسقط وعمان " (٦)

وبتحريض من بريطانيا أعلن سلطان مسقط إبطال اتفاقية السـيب ولـم يعترف بالإمام الجديد، وحاول أن يأخذ البيعة من بعض زعماء الأباضية ولكنه لم يوفق، فقرر الاعتماد على القوة، أولا بتأييد شركة النفط صاحبة الامتيازات، ثـم بمساندة رسمية من الحكومة البريطانية، وقابل الإمام غالب ذلك كله بالإجراءات الدفاعية التي كان بوسعه أن يتخذها، اسـتخدم سلطان مسقط فى بدايـة الأمـر الحرس الوطـني الذي احتل بواسطته مدينة عبري عام ١٩٥٤، غير أنـه لـم يستطع أن ينال من قوة الإمامة إلا بعد أن تدخلت القوات البريطـانية بصـفة رسمية، وقد جاء هذا التدخل فى أعقاب احتلال واحات البوريمي فى أكتوبر عام ١٩٥٥، وفى ديسمـبر من العام نفسه زحفت قوات بريطانية مـن الشمـال والشرق نحو نزوي العـاصمة الجديدة للإمامة واحتلتها، وحرص سلطان مسقط سعيد بن تيمور علي أن يسمي الدولة التي كان يحكمها بمسقط وعمان"(٧).

وقد أذاعت شركات البترول البريطانية أن تقاريرها أثبتت غنـي عمـان بالبترول ، ولذلك سارع المستعمرون الإنجليز بمحاولة السيطرة علـى أراضـي عمان ، خارقين بذلك كل القوانين والمواثيق والاتفاقيات ضاربين بميثاق الأمـم المتحدة عرض الحائط (٨) ، ولكن العمانيين بقيادة الإمام غالب بن على صـدوا هذه الهجمات العدوانية ، ونشبت على أثرها ثورة ١٩٥٥ ، واستطاع الثـوار أن يصمدوا أمام هذه الضربات بالرغم من اختلاف الإمكانيات المادية والمعنويـة ، وعلى إثر احتلال نزوي عاصمة عمان ، انسحب الثوار إلـى المعاقـل الجبليـة ليستطيعوا مواصلة نضالهم وقتال المستعمرين .(٩)

وعلى الرغم من الأسلحة والمعدات الوفيرة التي قدمها الإنجليز لسـلطان مسقط إلا انه تحاشي أن يتوغل فى الجبال حيـث معاقـل العمـانيين ، مكتفيـا بزيارات خاطفة لبعض مدن الداخل ، وبعد احتلال نزوي كان يبدو أن السلام قد استتب ، وخاصة بعد أن أعلن كل من الإمام وسليمان بـن حميـر مصـالحتهما للسلطان ، ولكن طالب بن علي بدأ يستعين بالسعوديين لتحريك الثورة من جديـد متخذاً مدينة الدمام مركزاً له .(١٠)

ومما ساعد على ذلك ، بقاء الإمام وأعضاء المجلس المعـاون لـه فـى المناطق الجبلية واتصالهم المستمر بأبناء القبائل العمانية مـن خـلال شـيوخهم

لاستنفار عزائمهم ، كان له آثاره فى الحد من قدرة السلطان سعيد بــن تيمــور ومن خلفه بريطانيا وقواتها المعتدية ، فى إحكام السيطرة ونشر نفــوذ ســلطان مسقط على الشعب العماني الذي رفض الاستسلام ، ووقف صفاً واحــداً ضــد قوي الطغيان ، ولاشك أن قرار الشعب العماني بالامتناع عن صلاة الجمعة منذ وقوع الاحتلال يعد شكلاً جماعياً من أشكال المقاومة السلبية ؛ فوفقــا للمــذهب السائد فى عمان تعطل صلاة الجمعة ، إذا ما سيطر على الأمور سلطان جــائر أو تحدت قوي طاغية سيادة الحاكم العادل ، وكان من الطبيعي أن تتطور هــذه المقاومة السلبية إلى حركة مسلحة [١١] ، حيث قــرر أبنــاء الشــعب العمــاني الانضواء تحت لواء الكفاح المسلح الذي أعلنه الإمام غالب لاستعادة أراضــيهم من مغتصبيها ، إلا أن اتساع الساحة العمانية وتخلف طرق المواصــلات بهــا ، مع انعدام الوسيلة السريعة لإتمام الاتصال المباشر ما بين الإمام ومؤيديــه مــن رؤساء القبائل أثر إلى حد كبير فى سرعة تهيئة أبناء الشعب العمــاني لمباشــرة النضال المسلح بصورة إيجابية فى فترة زمنية قصيرة [١٢] ، إذ لم يلبث أن قــام الشعب العماني مرة أخري عام ١٩٥٧ بثورة ضد سلطان مسقط المدعوم بقوات الاحتلال البريطاني .

أولاً: ثورة عمان ١٩٥٧ م والعدوان البريطاني

اعتقد البريطانيون أن قضية عــمان قد انتهت عند هذا الحد ، ولكــــنهم كانوا مخطئين فما لبثت الاضطرابات أن قامت من جديد ، ولــم يدر بخلدهم أن هذا الاستقرار مرحلي وموقوت بفترة إعداد الشــعب العمــاني لتنظــيم قدراتــه القتالية ليبدأ كفاحه المشروع لاجلاء القوات الغازية على أرضه ، وليوقــع أشــد الخسائر المادية والبشرية بقوات الاحتلال البريطانية خلال عام ١٩٥٧.[١٣]

حيث اتخذ طالب بن على من مقر إقامته بالدمام مركزاً للاتصال بالداخل والخارج ، ويبدأ المراحل الأولي للأعداد لهذه الثورة ، كذلك قام طالب بن علــى بمعاونة اثنين من أبناء الشيخ عيسي بن صالح أمير الشــرقية الراحــل بافتتــاح مكتب لإمامة عمان فى القاهرة ، حيث جاء صالح بن عيســي الحــارثي أميــر المنطقة الشرقية لعمان ونائب إمام عمان إلى القاهرة ، وأفضي كما تذكر الوثائق إلى أنه يريد أن يذكر الرئيس عبد الناصر بقضية عمان ، ومــا تواجهــه مــن حصار عسكري بريطاني وضغط على الشعب العماني ومنعه مــن الاتصــال بالدول العربية [١٤] ، وعموماً فقد تم افتتاح مكتب لإمامة عمــان فــى القــاهرة،

وأخذ هذا المكتب يشن حملة دعائية واسعة ضد الاستعمار البريطاني وسلطان مسقط ، وبدأ العمانيون يتلقون مساعدات سعودية عن طريق دبي التي اتخذت مركزاً لتهريب المؤن والسلاح إلى ساحل الباطنة ومنها إلى المقاطعات الداخلية لعمان [١٥] وفى الوقت نفسه قام الإمام ومؤيدوه من شيوخ القبائل – فى حدود إمكانياتهم المالية المحدودة – بشراء بعض الأسلحة والذخيرة من السوق المحلية المحيطة بأراضي عمان، فى محاولة لإشعار أبناء الشعب بضرورة ممارستهم لكل وسائل الاستعداد لمباشرة الكفاح المسلح ضد الغزاة [١٦]

ولعل الموقف العربي و الدولي كان مشجعاً لطالب بن على للعودة إلى عمان من ملجئه بالسعودية حيث أعلن– بالاتفاق مع غالب بن على – بعث الإمامة الأباضية من جديد وكان ذلك فى بداية عام ١٩٥٧ ، كما أعلن سليمان بن حمير زعيم الجبل الأخضر دخوله المعركة إلى جانب الإمام ، ومما يذكر أنه كان محتجزا فى مسقط منذ أحداث عام ١٩٥٥ ، ولكنه تمكن من التسلل إلى تنوف وتعاون مع طالب بن على ضد السلطان ، كما انضم إلى زعماء الإمامة إبراهيم بن عيسي من مقاطعة الشرقية ، ويستنتج من ذلك أن بعض العناصر التي خضعت للسلطان ، بعد احتلاله لنزوي فى عام ١٩٥٥ عادت وانشقت عليه فى عام ١٩٥٧ ، وربما يرجع ذلك إلى الدعاية التي لاقتها القضية العمانية [١٧] وبخاصة على المستوي العربي حيث كانت الظروف التي تمر بها الأمة العربية، مساعدة على ذلك فى تلك الفترة ، وقبلها فقد فوجي الوطن العربي بوقوع العدوان الثلاثي على مصر ، الأمر الذي كان رد فعله العميق فى نفوس جماهير الأمة العربية ، وجاء العدوان ليؤكد حقيقية نوايا السلطات الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية من الثورة المصرية ، إلا أن نجاح مصر فى وأد مخطط دول العدوان الثلاثي كان له آثاره الكبري فى تطلع كل أبناء الوطن العربي للتمرد على سيطرة الاستعمار [١٨] والغريب أن سلطان مسقط كان أحد زعماء المنطقة القلائل الذين أيدوا الاعتداء الثلاثي على مصر [١٩]

وعموما اتخذت هذه الحركة العمانية أبعادا عربية فكسبت عطف العرب ومساعدتهم خاصة من القيادة الناصرية لأنها ، أولا أعلنت المقاومة المسلحة ضد الاستعمار البريطاني ، وجاء ذلك بعد حرب السويس ، التي بلغ فيها عداء العرب لبريطانية قمته وثانياً كونها انتفاضة مسلحة جاءت أثناء الحرب التحررية الجزائرية التي كسبت تأييداً عاماً عربياً وعالمياً واسعاً[٢٠]، ولذلك أولت الحكومة المصرية مزيدا من الاهتمام للنضال العربي فى تلك المنطقة وأخذت تمدها

بالخبراء العسكريين [٢١] وبالعتاد والسلاح ، حيث أخذ الإمداد العسكري يأخذ طريقة إلى عمان ، ويؤكد ذلك فتحي الديب بقوله " استغرقنا الفترة من أول شهر فبراير ١٩٥٧ حتي شهر مايو ١٩٥٧ فى تسليم الشيخ طالب بن على احتياجات شعب عمان من الأسلحة والمعدات والذخيرة التي التزمنا بالوفاء بها ، وأخذت طريقها إلى شاطئ الخليج العربي فى سرية كاملة ، وقام الشيخ طالب باعداد وسيلة النقل البحري المأمونة بمعرفته بعد أن زودناه بكل وسائل الأمن الواجب توافرها لنجاح عملية التهريب عبر مضايق هرمز إلى الشاطئ العمانى المطل على الخليج العربي ، ليتم إنزالها على دفعات فى سرية تامة ، حيث تم نقلها إلى الداخل وتوزيعها على المكافحين)) .[٢٢]

وهكذا أبدت مصر والسعودية عناية خاصة لإعانة الإمام غالب على على استئناف النضال[٢٣] ويبدو أن السعودية لم تقدم مساندة صريحة للإمام وأعوانه إلا فى أعقاب أزمة السويس، أما قبل ذلك فقد آثرت المساعدات غير المكشوفة، إذ أنها كانت أميل إلى الاحتفاظ بعلاقتها الدبلوماسية مع الحكومة البريطانية، ولكن العلاقات السعودية البريطانية تدهورت على إثر قطع الحكومة السعودية علاقتها الدبلوماسية مع بريطانية فى أعقاب العدوان الثلاثي على مصر، كذلك اتخذت جامعة الدول العربية سلسلة من القرارات لدعم موقف عمان والمطالبة بتأييدها على الصعيديين العربي والدولي، كما قامت الوفود العربية فى مختلف المؤتمرات بالمطالبة بحق إمامة عمان فى الاستقلال وخاصة فى مؤتمر باندونج، ومؤتمر بلغراد للدول غير المنحازه، والمؤتمر الإسلامي، واهتمت الوفود العربية فى هيئة الأمم برفع قضية عمان فى مختلف اللجان[٢٤].

ولذلك استطاعت الإمامة استقطاب فئات واسعة من السكان ومن الأنصار فى البلاد العربية، لأنها صورت كفاحها على انه تحرير لعمان من نير الاستعمار البريطاني وبذلك استطاعت أن تشد انتباه الرأي العام العربي لسنوات عدة[٢٥].

بدأت أولي مرحل الثوار فى شهر أبريل عام ١٩٥٧ فى المنطقة الشرقية بقيادة الشيخ إبراهيم بن عيسي الحارثي ، الأمر الذي لفت الإنجليز ليركزوا اهتمامهم على المنطقة الشرقية حيث تمكنوا من القبض على الشيخ إبراهيم بن عيسي ونقلوه إلى مسقط ليودع فى السجن ، وبهذا أجهضت أولى مراحل الثورة، إلا أن الشيخ طالب بن على تمكن من النزول هو ورجاله سرا على ساحل

الباطنة في شهر يوليو من العام نفسه ، ووصل هو وشباب التحرير إلى منطقة الجبل الأخضر حيث انضم إليهم الإمام غالب والشيخ سليمان بن حمير ، وعقد الإمام اجتماعا ضم عدداً كبيراً من أفراد الشعب من مختلف أنحاء عمان ليعلن تكوين جيش التحرير العماني ، وتفجير الثورة من أجل تحرير الأرض ،و إجلاء المستعمر عن أرض عمان [٢٦] .

وبدأت الثورة الفعلية في يوم ١٩، ٢٠ من يوليو واستولي الثوار العمانيون علي بعض المناطق المجاورة لمنابع البترول [٢٧] ، وأحرزت ثورة ١٩٥٧ نجاحاً مؤزراً بتمكن بعض الفرق العمانية من استرداد نزوي ، وما أن حل شهر يوليو من هذا العام حتي كانت جميع مدن عمان ومقاطعات الجبل الأخضر يرفرف عليها علم الإمامة الأبيض ، وعجز سلطان مسقط عن قمع الحركة الجديدة بعد أن نجح الإمام غالب بمن معه في التمركز في الجبل الأخضر ، ونجح زعماء الإمامة في قطع الطريق الذي يمتد من البوريمي إلى مركز عمليات شركات النفط في منطقة الفهود ، وبدوا على وشك الانقضاض على الساحل لمطاردة السلطان ، ولعل ذلك ما دفع السلطان سعيد بن تيمور الى طلب المساعدة البريطانية للمرة الثانية ، وعلي أي حال فقد كان من المناسب لبريطانيا أن توافق دون إبطاء على تقديم مساعداتها ، وعللت ذلك بالصداقة التي تربطها بالسلطان وأسرته ، وحاجتها لكي تؤكد للحكام الخاضعين لحمايتها في الخليج أنها لا تسمح باضطرابات داخلية أو الاستعانة بتأييد أجنبي ، هذا فضلاً عن ضمان استراتيجيتها ومصالحها وخصوصاً بالنسبة لشركات النفط البريطانية العاملة في المنطقة [٢٨] .

وبالفعل أرسل الإنجليز في يوليو قطعات مشاة وآليات وسرب من الطائرات ساعدت في استعادة نزوي بعد معارك طاحنة، ذهب ضحاياها الألوف من العمانيين، بما في ذلك الكثير من النساء والأطفال الذين ماتوا تحت أنقاض الغارات الجوية وخاصة في المنطقة الشرقية والظاهرة والجبل الأخضر [٢٩] .

وكان من الطبيعي أن يدعو الإمام غالب شعبه للنضال والمقاومة وأذاع بيانه الذي قال فيه " أيها الشعب المجاهد الكريم ، إن الطائرات المعتدية قد ألقت اليوم منشورات تهديديه، تطالب منا فيها التسليم إلى سلطان جائر ظالم، تسنده قوة استعمارية حدثكم عنها إخوانكم أبناء الأقطار العربية الذين لاقوا الويلات على يديها ، وإنني باسم الدين الإسلامي الحنيف وباسم القومية العربية التي انطبع بها قلب كل عربي، أناشدكم بالوقوف صفاً واحداً إزاء المعتدين وبالتأسي

بإخوانكم الذين ناضلوا فى بورسعيد بمصر ، وفى اليمن ويناضلون الآن بالجزائر ، ولكم أنتم الأثر المحمود فى القتال وليست هذه بأول مرة تقاتلون فيها مستعمراً ، فالبرتغال جاءوكم غزاة فهزمتموهم وطاردتموهم ، وطهرتم البلاد الإسلامية جمعيها من شرهم ، وها أنتم اليوم تواجهون امتحانا كبيراً فى دينكم وفي عروبتكم وفى كرامتكم ، فإلي القتال ولن ترهبنا قنابلهم، لأننا على حق والله ينصر أهل الحق ، ومهما نبذل من ثمن فى ذلك فهو زهيد يا أهالي عمان الى الصبر والجهاد ، والله يكفيكم مكرهم ، وينصركم عليهم " [٣٠] .

ونظم الثوار صفوفهم ، واتخذ هؤلاء القادة مقراً لهم فى الجبل الأخضر وسط عمان ، ونظموا العمليات العسكرية دون انقطاع (١٩٥٧ – ١٩٥٨) ، حيث انضم إليهم زعماء القبائل بعمان بأسلحتهم فى الجبل الأخضر ، وقرروا الصمود فى وجه المستعمرين [٣١] وعلى إثر استعادة نزوي تمكن شقيق الإمام طالب بن على بمن معه من الثائرين من التمركز فى منطقه قريبه من تنوف ، واستعانوا ببعض المدرعات السعودية [٣٢] .

لم يحدث بعد ذلك قتال على نطاق واسع إلا فى نهاية عام ١٩٥٨ ، حيث تدخلت بريطانيا بكل ثقلها " وامتلأ الساحل العماني بالسفن الحربية البريطانية القادمة من عدن والبحرين لمقاتلة المجاهدين العمانيين الذين اشتدت عملياتهم الحربية واتسع نطاقها ، وقد صرح متحدث باسم مكتب إمامة عمان بدمشق أن الغرض من تدفق الحشود البريطانية التي استقدمت من جميع الجهات هو الحصول على نصر حربي قبل فصل الشتاء لاسترداد هيبة بريطانيا الضائعة فى هذه المنطقة العربية ، وناشد المتحدث العالم المتحضر كله بأن يستنكر حرب الإبادة والأعمال العدوانية التي ترتكبها بريطانيا فى هذا الجزء من العالم العربي الذي قرر شعبه أن يقاتل حتي النصر أو الموت " [٣٣] .

وبدأت الأعمال الحربية تميل لمصلحة بريطانيا ، وربما يرجع ذلك وكما تذكر الوثائق " أن وكالات الأنباء ذكرت أنه يجري نقل جنود بريطانيين من عدن ، بالإضافة إلى وصول أسلحة كبيرة العدد من الطائرات الحربية والدبابات والعربات المصفحة ، وأن هذه الأسلحة سترسل فورا إلى مسقط لاستعمالها فى قمع ثورة عمان " [٣٤] ، هذا الى جانب أن كثيراً من رؤساء قبائل عمان انضموا إلي السلطان ، ويبدو أن هذا الوضع هو الذي مكن قوات السلطنة من احتلال المركز الرئيسي للثوار فى الجبل الأخضر ، ونتج عن المساعدة العسكرية البريطانية استعادة السلطان إدارته المحلية على مقاطعات عمان الداخلية ،

وتمكن من الاحتفاظ بحاميات عسكرية فى كثير من هذه المقاطعات " وفى ذلــك الوقت تقدمت السلطات البريطانية بعرض للإمام غالب بن على تطلب فيه وقــف إطلاق النار والدخول فى مفاوضات للصلح ، غير أن الإمام اشترط عدة شروط من بينها :

أولا : أن تجري المفاوضات تحت إشراف لجنة محايدة .

ثانيا : أن تنسحب جميع القوات البريطانية من جميــع الأراضــي التــي احتلتها فى عمان اعتبارا من عام ١٩٥٥ .

ثالثا : أن ينسحب جميع الولاة الذين عينهم السلطان .

لم يقبل الإنجليز شروط الإمام ، واضطر الثوار بقيادة طالب بــن علــى إلي توسيع نطاق العمليات العسكرية ، حيث شن العمانيون هجوما عنيفــا علــى قوات السلطنة ، وتطورت المقاومة باستخدام العمانيين لمدافع الهاون وتمكنوا من هدم عدة مراكز وتحصينات ، كما اشتبكت بعض قطــع مــن جــيش التحريــر العماني مع قوة إنجليزية يرأسها الماجور بيكر فقتل القائد مع جميع أفراد قوته ، واشتدت عمليات العصابات التي ظلت تقاوم القوات المسقطية البريطانية ببســالة منقطعة النظير ، ومما ما دفع بريطانيا إلى استخدام سلاحها الجوي حيث انهالت الطائرات البريطانية من القواعد الجوية فى قبرص وكينيا والبحرين على الجبــل الأخضر ، وتحطمت المقاومة نهائيا فى يناير ١٩٥٩[٣٥] بعد أن منيــت قــوات الثورة بخسائر كبيرة فى الرجال والممتلكــات ، إذ أن بعــض القــوي والمــدن الصغيرة دمرت تماما ، ومنها مدينة تنوف الشهيرة ، وذلك إثر الغارات الجويــة الكثيفة ، وهي طريقة عسكرية كان العمانيون يجهلونها فى ذلك الوقت [٣٦] .

وعموما استطاع السلطان أن يبسط نفوذه على معظــم أنحــاء عمــان ، واستطاع غالب وطالب وسليمان بن حمير الإفلات بأتباعهم إلى السعودية التــي قدمت لهم مختلف المساعدات نكاية فى بريطانيا لاحتلالها البــوريمي ، واســتقر زعيم الإمامة فى الدمام ، حيث أنشأ وصحبه ما يشبه حكومة فى المنفي ، كمــا توسعوا فى إقامة مكاتب للإمامة تحت رعاية الجامعة العربية فى معظم الــدول العربية ، وتابعوا إصدارات جوازات سفر عمانية ، ومع ذلك لــم تكــن الــدول العربية على الاستعداد للاعتراف بدولة عمان فى المنفي إلا إذا اثبــت الإمامــة وجوداً فاعلاً داخل بلادها [٣٧] .

وعلى الرغم من عدم تناسب الإمكانيات ، فقد اســتطاع ثــوار عمــان

مقاومة القوات البريطانية المسقطية من أبريل ١٩٥٧ الى يناير ١٩٥٩ ، ولكـن هزيمتهم لم تكن سوي تمهيد لمرحلة جديدة من الكفاح على شكل حرب عصابات استمرت بصورة منقطعة النظير [٣٨] ، ثم استمرت القضية العمانية فى الاتجـاه الدبلوماسي سواءً على صعيد جامعة الدول العربية أم على صعيد الأمم المتحدة ، واستمرت كذلك الى أن تولي السلطان قابوس بن سعيد الحكم فى عمان فى يوليو ١٩٧٠ ، فتم تسوية هذه القضية سلمياً .

ثانياً: الموقف الأمريكي من العدوان البريطاني على ثورة عمان ١٩٥٧

بينما كانت المعارك تتخذ مسرحاً لها فى مقاطعات عمان الداخليـة فـي خلال الفترة من ١٩٥٧ إلى ١٩٥٩ ، أحدث أنباؤها اهتمامات عربيـة وعالميـة واسعة النطاق ، إذ استنكرت كثير من الشعوب والحكومات العدوان البريطاني ، مما ساعد على خروج القضية العمانية من الحيز الإقليمي إلى النطـاق الـدولي وتستهدف هذه الدراسة إلقاء الضوء على موقف الولايات المتحدة الأمريكية إزاء هذا العدوان البريطاني على ثورة عمان عام ١٩٥٧ .

ويمكن تفسير الموقف الأمريكي من هذا العدوان فى إطار ثلاثة محاور:

الأول : موقف الحكومة الأمريكية .

الثاني : موقف الصحافة فى أمريكا .

الثالث : موقف الولايات المتحدة الأمريكية فى هيئة الأمم المتحدة .

بالنسبة للمحور الأول ، الخاص بموقف الحكومة الأمريكية ، أي الموقف الرسمي ، كان يسير فى منحني مختلف طبقا للمصالح الأمريكيـة فـي منطقـة الخليج العربي حيث نجد أن الولايات المتحدة لم تكن قد نسيت موقف بريطانيـا وأعمالها العسكرية خلال أزمة البوريمي ، ورأت معاهدة السيب ذريعة للضـغط على البريطانيين ، ليعترفوا بالمصالح الأمريكية فـي هـذه المنطقـة ولتحقيـق مكاسب استراتيجية منها ، لاسيما وأن استمرار خلل ضمني بين الدولتين فى هذه المنطقة كان يؤدي فى نظر بعض المراسلين الأمريكيين فى لندن إلى مواجهـة محتملة بين مصالح الدولتين .[٣٩] .

وعلى الرغم من اعتراف بريطانيا بأن المصالح الأمريكية لا تنفصل عن المصالح الغربية فى المنطقة ، وعلى الرغم من استعداد بريطانيا للتعـاون مـع الولايات المتحدة ، فإن وزارة الخارجية البريطانية لم تتأخر عن إعـادة تأكيـد

موقفها المبدئي بوضوح ، يجب أن نستمر فى التعريف بأن المسئوليات الخاصـــة التي نمارسها فى الخليج لا تعني سوانا ، وأن ما نحن فى حاجة إليه هم الـــتفهم وحتي التأييد من جانب الأمريكيين ، ولكن ليس التدخل الأمريكـــي ، لقـــد أكـــد البريطانيون بأنه إذا زال نفوذهم فسوف يفسح ذلك المجـــال للقوميـــة العربيـــة ، ويخلص التقرير إلى أن هناك موقفاً بريطانياً وليس موقفاً أمريكيـــاً أو أنجلـــو – أمريكياً (٤٠).

ولكن زادت العلاقات بين البلدين تعكيرا بعد مصادرة القوات البريطانيـــة فى أغسطس عام ١٩٥٧ أسلحةً أمريكيةً كان الســـعوديون قـــد أرســـلوها إلـــى الإماميين وقد استاءت بريطانيا من هذا الأمر الذي يتعد خبره ، ومع ذلك نطـــاق وزارتي الدفاع والخارجية ، وذلك أن الخط السياسي البريطاني كان يقوم علـــى تجنب جعل عمان موضوع مجابهة مع الولايات المتحدة (٤١) .

وعلى الرغم من ذلك نجد أن تصريحات الرئيسي الأمريكي أيزنهـــاور ومواقفه كما ورد فى مذكراته كانت منسقةً مع الموقـــف البريطـــاني، حيـــث لا يعترف بإمامة عمان ،ويعدها تابعة لسلطان مسقط ، ويذكر أن سبب هذه الثـــورة جاء بدعم من الخارج وبخاصة من مصر حيث يقول " علماً بأن بعـــض قـــوات عمان قد دربت فى السعودية على أيدي ضباط مصريين وسعوديين " ولما كانت العلاقات الأمريكية – السعودية من القوة ، فقد حاول أن يدافع عن الملك ســـعود حيث يذكر "أن هذه القوات دربت فى السعودية من غير موافقة سعود كما يبـــدو" ثم أضاف فى دفاعه عن السعودية بقوله " بعث الملك سعود برسالة يؤكد لي أنه لم يزود الثوار العمانيين بالسلاح ، وإدعي بأن الثوار كـــانوا يحصـــلون علـــى الأسلحة بموجب اتفاق بين ناصر ونهرو ، ولم يذكر الملك أي برهان لادعائـــه ، لكنني أبلغت هارولد ماكميلان على الفور ، وكان مسروراً بهـــذه الإشـــارة ، إن الملك سعود لم يكن راغباً فى تطوير هذا الحادث الى شجار كبير بين الســـعودية وبريطانيا " كذلك نجد أيزنهاور يدافع عـــن الموقـــف الأمريكـــي إزاء هجـــوم الصحافة البريطانية على الولايات المتحدة بأنها تساعد الثوار حيث يقول " ربمـــا لم نفاجأ حين كنا نشارك فى الاستياء والاشتباه الذي وجهه البريطـــانيون نحونـــا فى عرض صحفي فى بريطانيا أثناء الأسبوع الأخير من يوليـــو ١٩٥٧ ، أبـــدي البريطانيون اعتقاداً قوياً بأن شركات النفط الأمريكية كانـــت خلـــف العصـــيان بصورة غير مباشرة ، كان ذلك سخيفاً ولكن تلاشي الاعتقـــاد بـــبطء ، أكـــدت لماكميلان عن الإشاعات الزائفة التي تضمنت شركات النفط الأمريكية ، فكتبـــت

له قائلا : إذا كنا عازمين على تحمل هذا الشئ ، فإننا لا نكون مستعدين على بذل الجهد للمساعدة على حل مشاكل النفط التي انتابتكم على إثر أزمة السويس في الخريف الماضي (٤٢).

وليس من شك فى أن التوتر الذي حدث بين الولايات المتحدة وبريطانيا فى منطقة الخليج كان يشكل تهديداً للعلاقات بينهما ، ومن ثم فقد حدث الكثير من التنسيق بينهما، حيث نشرت صحيفة نيورك تايمز فى عددها الصادر يوم ٢٤ يوليو أن وزير الخارجية البريطاني لويد اجتمع بالسفير الأمريكي فى لندن جون هبي وتني فى لندن لمدة عشرين دقيقة ، وتقول الأنباء انهما تباحثا فى الموقف فى منطقة الخليج الغنية بالبترول، وقد رفضت المصادر البريطانية تحديد مصدر الأسلحة الحديثة التي يستعملها الثوار (٤٣) .

وعموماً رأت الولايات المتحدة إسدال الستار على هذه الخلافات ، وتمثل ذلك فى تصريح وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس ، الذي أكد فيه على ضرورة أن نتوقف عن هذه الخلافات فى سبيل مقاومة الهدف الأكبر ، وكان يعني به الاتحاد السوفيتي معتبراً أن ما حدث أو يحدث من خلافات أنما هى من الأمور الثانوية التي لا ينبغي أن تؤثر على وحدة المصالح بين بريطانيا والولايات المتحدة (٤٤) .

وفى نوفمبر ١٩٥٧م أجري رئيس الوزراء البريطاني محادثات جدية مع الرئيس الأمريكي لحل الخلاف بين البلدين ، أدت إلى إعلان الهدف المشترك الذي أقام استراتيجية جديدة و إقامة فترة تعاون بين البلدين ، يؤكد الترابط العضوي بين بريطانيا والولايات المتحدة باعتبار ان مفهوم الاكتفاء الذاتي القديم قد سقط وباعتبار ان بلدان العالم الحر لا تستطيع المحافظة على أمنها الا بتنسيق طاقاتها وبتقاسم المهمات فى ما بينهما ، ولقد اتفقت حكومتا المملكة المتحدة والولايات المتحدة على العمل ومن الآن فصاعدا وفق هذا المبدأ ، وقسمت المنطقة رسمياً كما يلي : تخضع عمان ومنطقة ساحل عمان واليمن والبحرين وقطر لمنطقة النفوذ البريطاني ، وتبقي المملكة العربية السعودية وإيران تابعتين للنفوذ الأمريكي ، ولكن اقتسام النفوذ التالي لم يحل قضية عمان (٤٥) .

وهكذا عادت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الاعتراف لبريطانيا بأفضليتها فى التفوق السياسي والعسكري فى المنطقة ، وعلى الرغم من انهيار مركز بريطانيا العسكري فى الشرق الأوسط بعد جلائها عن مصر في عام

١٩٥٤ ثم ما ترتبت على فشل العدوان الثلاثي على مصر فى عام ١٩٥٦ ، من زيادة ذلك الانهيار حتي أن الولايات المتحدة التزمت أن تمد بريطانيا بجزء من نفقات الدفاع عن إستراتيجية شرق السويس ، مما جعل بريطانيا أكثر اعتمادا على الولايات المتحدة التي أتيحت لها الفرصة للتغلغل بنفوذها فى الخليج بصورة أوسع مما كان عليه الحال من قبل (٤٦) .

وعلى الرغم من ذلك نجد أن زعماء ثورة عمان حاولوا الاتصال بالحكومة الأمريكية لتأييدهم فى ثورتهم حيث أرسلوا الأمير صالح بن عيسي الحارثي أمير المنطقة الشرقية ونائب إمام عمان الى القاهرة للرئيس عبدالناصر، ويرجوه الاتصال بالملك سعود لتذكيره بقضية عمان لمناقشتها مع الرئيس الأمريكي أثناء اجتماع سعود بأيزنهاور لطلب العون (٤٧) ، حيث بدت الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فى رأي العالم كله تقريبا فى دور بطلة العدالة والحرية والديمقراطية دون أن تكون لها أغراض شخصية ، كانت هيبة أمريكا وقوتها فى أعلي مكانة ، لقد قدمت الولايات المتحدة المعدات والرجال لإنقاذ أوربا وروسيا من هتلر والنازيين ، ودفعت الإيطاليين إلى ترك مستعمراتهم الإفريقية ، وطردت اليابانيين من الصين والهند الصينية وأندونسيا والفلبين وبورما وكوريا ولم تطلب الولايات المتحدة أي شئ لنفسها فى مقابل ذلك لقد هتف هوشي منه محييا الأمريكيين لأنهم الأصدقاء الحقيقيون للإنسان المظلوم على الأرض ، وكذلك ورغم التباين الملحوظ اتخذ شارل ديجول وتشرشل وحتي ستالين نفسه فى إحدي المناسبات مواقف مشابهة ، وفى عالم ملئ بالكراهية والموت والدمار (٤٨) .

موقف الصحافة الأمريكية

وبالنسبة لموقف الصحافة الأمريكية ، والمعبر عن وجهة نظر الرأي العام الأمريكي ، فقد تناولت أحداث الثورة وتطوراتها ، مع تحليل لهذه الأحداث ومناقشة موقف البريطانيين من ذلك ، تابعت هذه الصحافة أحداث الثورة العمانية وتطوراتها حيث نشرت صحيفة نيويورك تايمز فى عددها الصادر يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٧" أنباء انتصارات ثوار عمان وذكرت أن الثوار برئاسة إمام عمان غالب بن على وأخوه طالب استولوا على العاصمة الإقليمية نزوي وأخذوا حوالي ٢٠٠٠ ميل مربع من الأراضي الواقعة تحت حكم سلطان مسقط وعمان "وأضافت فى خبر آخر تحت عنوان" إنذار بريطاني لثوار عمان ، الاستسلام أو

التحرير لسلاح الطيران الملكي قال فيه " أن بريطانيا اعطت الثوار إنذارا لمدة ٢٤ ساعة عليهم فى أثناءها أن يتركوا المناطق التي سيطروا عليها وإلا تعرضوا لاستكشاف جوي لمعرفة قوتهم وصرح سير برنارد بورز المقيم السياسي العام البريطاني فى الخليج بأن الطائرات ألقت بمنشوراتها محذرة الثوار ومنذرة إياهم بان يتركوا مواقعهم " ثم علقت على ذلك بأن بريطانيا ستقدم التأييد الجوي وتدعيم صغير للقوات البرية ، وتقدر قوات السلطان بحوالي ١,٥٠٠ جندي تحت إمرة ١٠ ضباط إنجليز " (٤٩) .

بينما ذكرت نفس الصحيفة فى عددها الصادر فى ٢٥ يوليو من نفس العام " أن القوات البريطانية تحركت من البحرين إلى الشارقة بناء على طلب سعيد بن تيمور للمساعدة البريطانية ، وقد اتخذت النفاثات البريطانية المقاتلة من مطار الشارقة الذي يبعد حوالي ٢٠٠ ميل من نزوي قاعدة له " ، وأضافت تقول الأنباء أن فرقتين من الكمرونيين وصلت البحرين من كنيا خلال اليومين المنصرمين لتدعيم القوات البريطانية القائمة هناك " ، وقد وصفت الصحيفة قلعة نزوي الحصينة بقولها " أن ارتفاعها يبلغ ٢٥٠٠ قدما بجدرانها البنية وأبراجها تسيطر على الأكواخ المحيطة بها والتي يسكنها نحو ٦٠٠٠ قروي على جبل تحيط به هضبة فى ظل الجبل الأخضر وارتفاعه نحو ١٠,٠٠٠ قدم ، وأضافت أن هذه المنطقة تعد حصن الإمام الثائر الشيخ غالب بن على وأخيه الطموح طالب بن على ، وسيد جبل الأخضر سليمان بن حمير وتناولت أنباء تطور المعارك فى عمان ، وتدخل القوات الجوية البريطانية بانتهاء الإنذار الذي وجه للثوار بمغادرة المنطقة بدأ الهجوم ، وقد قال متحدث بسلاح الطيران الملكي أن القنابل أصابت كل الأهداف وأضاف المتحدث البريطاني بأن غارات أكثر قد أعدت ضد الثوار ستتوجه إلى مقر قيادتهم فى قلعة نزوي إذا لم يذعنوا للإنذار الثاني ، وفى برقية لسلاح الطيران الملكي جاء فيها " لقد هاجمت قلعة فى أزكي التي تقع على مسافة ٢٠ ميلا شرق العاصمة العمانية نزوي التي تعد أمنع حصن لإمام عمان قائد الثوار ، وقد ألقوا قنابلهم على تلك القلعة الهائلة التشييد بجدرانها التي تبلغ فى سمكها ٥ أقدام ، وقد أكد أحد الطيارين أن هناك خسائر فادحة بعد الهجمات التي ركزت على داخل القلعة ، وقد أصابت الصواريخ كل الأهداف بنجاح ، وألقت منشورات أخري على نزوي محددة ٤٨ ساعة تنتهي غدا ، ثم تتخذ غارات أشد وقد أوضحت الاستكشافات على نزوي أن الثوار يحتلون القلعة ويرفرف عليها علم أبيض " (٥٠)

وفى مجمل تحليل الأحداث فى عمان ومناقشة موقف البريطانيين نشرت صحيفة نيويورك تايمز فى عددها الصادر يوم ٢٣ مـن يوليـو ١٩٥٧ تحـت عنوان " نزاع عمان يثير مخاوف بريطانيا على البترول " فذكرت أن بريطانيـا تحركت يوم ٢٢ يوليو لحماية مصالحها البترولية فى منطقة الخلـيج بإعلانهـا التأييد الحربي التام لسلطان مسقط وعمان ، وصرحت المصادر الرسمية العليـا بأن الحكومة البريطانية سوف تحارب أي محاولة مـن جانـب الثـوار، الـذين تساندهم السعودية ومصر كما هو معتقد – لخلع السلطان سـعيد بـن تيمـور " وأضاف الصحيفة " أن الحكومة البريطانية تشعر بأنها إذا تركت السلطان فإنهـا ستفقد كل نفوذها فى ولايات البترول الهامة فى الخليج مثـل البحـرين وقطـر والكويت ، وقد أحيط الرئيس ايزنهاور ودالاس بوجهة النظر البريطانيـة أثنـاء مؤتمر برمودة فى مارس ، وكان الوضع فى هذه المنطقة محل نقاش " [٥١] .

ثم تطرقت الصحيفة إلى موقف حزب المحافظين حيـث قالـت " وقـد أوضح الجناح الأيمن فى حزب المحافظين أن الأسلحة التـي اسـتعملها الثـوار كانت أمريكية ، وقد رد سلوين لويد أن الأسلحة جديدة ولكن لا يمكنه القول بأنها أمريكية " .

ثم تناولت الصحيفة موقف الحكومـة البريطانيـة حيـث ذكـرت " أن الحكومة البريطانية فى تصميمها على مساندة السلطان مشغوفة بتلافي الاصطدام مع الولايات المتحدة ، وترجع الصعوبة التي تعتري الموقف إلى التنـافس بـين شركات البترول البريطانية والأمريكية فى المنطقة " [٥٢] .

وتحدثت الصحيفة عن موقف الحكومة الأمريكية فقالت " خرج متحـدث أمريكي مسئول وذكر أن الولايات المتحدة ستبذل ما وسعها مـن جهـد لإبقـاء الهدوء فى المنطقة " وأضافت وترجو الأوساط الأمريكية أن يكون نزاعا داخليـا محضا ولكن يخشي أن يتطور النزاع بسبب بترول المنطقة الغنيـة ومـا تثيـره المشاحنات القديمة بسبب واحة البوريمي " ودعت الصحيفة حكومة الولايات الى التفاهم مع البريطانيين وعلقت عل ذلك بأن الولايات المتحدة لم تقـدم الخـدمات الودية فى هذا النزاع " [٥٣]

وتحت عنوان " ثورة جديدة فى الجزيـرة العربيـة " نشـرت صـحيفة نيويورك تايمز فى عددها الصادر يوم ٢٣ من يوليو مقالا استهلته بالهجوم على القومية العربية وهاجمت مصر لمواقفها من هذه الثورة حيث قالـت " علـى أن

قيادة الثوار العمانيين تعد القاهرة هي المركز الرئيسي لها يعاونها فى ذلك مصر والجامعة العربية ، كما أن الأمين العام للجامعة العربية – عبد الخالق حسونه – يضطلع فى هذه الأيام بمهمة مساندة هذه الثورة التي قامت فى جنوب الجزيـرة العربية حيث قالت " إن عزل سلطان مسقط وعمان سيؤدي إلى الإقـلال مـن مركز بريطانيا فى هذه المنطقة ذات البترول ، بل يفتح الباب نحو خلـع بـاقي ملوك المنطقة الساحلية وينذر بالخطر المحمية عدن " (٥٤) .

ونشرت صحيفة نيويورك تايمز فى عددها الصادر يوم ٢٤ مـن يوليـو أخبار المعارك القتالية فى عمان وتطورات الموقف ، ومما ذكرته فى هذا الصدد ما صرح به سير برنارد بوز المقيم السياسي العام فى الخليج العربي حيث قـال أن الثوار يستعملون أسلحة أتوماتيكية لم تر من قبل فى المنطقة ، وأضاف بـأن هذا دليل واضح على أن أحدا من الخارج يعاونهم ، ولكن لا يوجد دليل قـاطع من هو ؟ " وأضافت الصحيفة " وقد رفضت المصادر البريطانية تحديد مصـدر الأسلحة الحديثة التي يستعملها الثوار ، بينما المعتقد أنها صناعة أمريكية وأنهـا وصلت إليهم عن طريق العربية السعودية ، وقد صرح لويد لمجلس العموم بـأن القلاع التي يتحصن بها رجال القبائل مزودة بأسلحة حديثة مهربـة إلـيهم مـن الخارج كفيلة بإلقاء الرعب بين القبائل المخلصة والمذبذبة " وذكـرت مـا ردده لويد لمجلس العموم " بأنه لا توجد جبهة قتال ، ولكنهـا حـرب قبليـة متنقلـة بأسلحتهم البسيطة " (٥٥) .

وفى نفس الصحيفة نشرت تحت عنوان " الولايات المتحدة تسعي لمنـع الصدام " حيث ذكرت بأن الحكومة الأمريكية اتخذت خطوات لمنع الثورة ضـد سلطان مسقط وعمان من أن تؤدي إلى صدام سياسي بـين الولايـات المتحـدة وبريطانيا ، وهاجمت صحافة لندن فى ادعائها أن الولايات المتحدة أو مصـالح الولايات المتحدة البترولية كانت وراء هذه الثورة " حيـث ذكـرت أن لنكـولن هوايت المتحدث الرسمي فند هذه الادعاءات ووصفها بأنها لا أساس لها إطلاقا ، وقال أيضا أن الاتهام القائل بأن أساس النزاع هو التنافس بين مصالح بريطانيـا والولايات المتحدة البترولية قمامة مهملة ، فالحقيقة أن الولايات المتحدة باعـت أسلحة إلى العربية السعودية لا ترتبط بهذا الوضع ، وأضاف بأن الحكومة لـيس لديها الدليل على أن القبائل الثائرة استخدمت أسلحة الولايات المتحدة (٥٦) .

بينما نجد صحيفة الواشنطن بوست تكتب فى تعليق لهـا علـى أحـداث عمان تذكر " أنه إذا كان ممكنا فى الماضي سحق أية ثورة بالقوة ، فـإن فشـل

الهجوم الانجلو – فرنسي على مصر قد جعل سياسة العنف مستحيلا فى أيامنا "، لقد تغير اتجاه الرياح وكان الاستعمار التقليدي يعيش أيامه الأخيـرة فـي ظـل انتقادات الرأي العام الدولي ، ومن هذه الناحية ، فإن تعليق الواشنطن بوست لـم يلخص فى الواقع إلا الأجواء الصحفية العامة التي أجمعت على إدانة الاعتداءات البريطانية على عمان ، وكان الرأي العام يري فيها عمليات منذرة بالفشل أمـام صعود تيار القومية العربية (٥٧) .

ويمكن تلخيص وجهات نظر الصحافة الأمريكية إزاء العدوان البريطاني علـى عمان فيما يلي:

– أكدت على أن البترول كان السبب الرئيسي لهذه الحرب ، وإذا تركت السلطان فقد تفقد كل نفوذها فى ولايات البترول الهامة فى الخليج العربي .

– أوضحت أن الجناح الأيمن من حزب المحافظين أن الأسـلحة التـي استعملها الثوار العمانيين كانت أمريكية ، ولكن الحكومة البريطانية نفت ذلك .

– تحاول الحكومة البريطانية تلاقي الاصطدام مـع الولايـات المتحـدة الأمريكية ، وترجع الصعوبة إلى التنافس بـين شـركات البتـرول البريطانيـة والأمريكية فى المنطقة .

– هاجمت الصحف الأمريكية القومية العربيـة ثـم عرضـت بـالثورة العمانية وادعت أن القاهرة هي المركز الرئيسي لقيادة الثوار يعاونها فـي ذلـك الجامعة العربية ، حيث يقوم الأمين العام للجامعة العربيـة بالاضـطلاع بمهمـة توحيد الدولة العربية فى صراع جديد ضد الاستعمار .

– تناقلت الصحف الأمريكية العمليات العسكرية البريطانية فى المنطقـة وأبرزت نجاحها العسكري

الموقف الأمريكي فى الأمم المتحدة

وبالنسبة للمجال الدولي ، فقد عرضت قضية عمـان لأول مـرة فـي أغسطس عام ١٩٥٧ عندما طلب– ذلك ممثلو أحد عشر دولة عربية فى رسالة مؤرخة فى ١٣ أغسطس من العام نفسه ، واجتمع مجلس الأمن بموجب المـادة ٣٥ من الميثاق لدراسة عدوان بريطانيا المسلح على استقلال عمـان وسـيادة وسلامة أراضيها رغم اعتراض بريطانيـا ، وصـوت ضـد إدراج القضـية استراليا، كولومبيا ، كوبا ، فرنسا ، بريطانيا ، وصوت لصـالح إدراج قضـية

عمان " العراق الفلبين السويد الاتحاد السوفيتي ، وامتنع عن التصويت الولايات المتحدة الأمريكية وحضر ولم يصوت الصين [٥٨] .

على أن ما يعنينا هنا هو الموقف الأمريكي حيث يذكر البعض أن الامتناع الأمريكي كانت له دوافع مختلفة كليا ، ولكن هذا الامتناع كان يعادل الاعتراض ، ربما أن الأصوات السبعة المطلوبة لم تجتمع ، فلم يكن ممكنا أدراج القضية على جدول الأعمال ، ومع ذلك فقد كانت بريطانيا تخشي أن يفسر تحفظ الولايات المتحدة على أنه عدم اعتراف بوحدة مسقط وعمان ، وان يمنع إعادة فتح القنصلية الأمريكية فى مسقط التي كانت الولايات المتحدة قد أغلقتها فى عهد تيمور بن فيصل (١٩١٣- ١٩٣١) [٥٩] ، على الرغم أن أيزنهاور لم يعترف بإمامة عمان واعتبرها جزأ تابعاً لسلطان مسقط وعمان حيث يذكر ذلك بقوله " قامت ثورة مفاجئة ترأسها إمام عمان ضد سلطنة مسقط وعمان ، والمحمية البريطانية الواقعة على الجانب الشرقي من شبه الجزيرة العربية" [٦٠] .

وعموما فقد وقفت معظم الدول الغربية إلى جانب بريطانيا ، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية ، التي ساندت السعودية فى أزمة البوريمي ، إلا أنها وقفت موقفا سلبيا وغير مشجع فى جميع المناسبات التي عرضها فيها القضية العمانية على الأمم المتحدة . [٦١]

وتأجلت القضية العمانية على جدول أعمال الجمعية العام للأمم المتحدة، ولكن المجموعة العربية فشلت فى هذه المحاولة ، وتأجلت القضية إلى عام ١٩٥٨ ثم إلى عام ١٩٥٩ ، وأخيرا إلى عام ١٩٦٠ [٦٢] ، وطوال هذه الفترة وبينما كانت القضية العمانية تعرض فى المنظمات الدولية دون أن تحقق نجاحا ملموسا [٦٣] .

من خلال استعراض الموقف الأمريكي من العدوان البريطاني على ثورة عمان يمكن استقراء ما يلي :

أن استراتيجية الأمريكية فى منطقة الخليج العربي إحدى بؤر الخطر فى المنطقة العربية كانت تعمل على محورين فى ذلك الوقت :

المحور الأول : محور المجابهة الدولية الشاملة ضد القوي العظمي الأخرى فى المجتمع الدولي أي الاتحاد السوفيتي .

المحور الثاني :محور الصراع المباشر وغير المباشر ضد المصالح الاقتصادية المنافسة داخل الكتلة الغربية نفسها ، وكانت محاولة السيطرة على مراكز الإنتاج العالمي وبخاصة فى منطقة الخليج العربي من أبرز الأهداف الكامنة في خلفية هذا الصراع (٦٤) .

وبالنسبة للمحور الأول نجد أن تراجع قوي الدول الاستعمارية القديمة – بريطانيا وفرنسا– على سلم التدرج الدولي – وما ترتب على ذلك من عدم قدرتها على الاحتفاظ بمستعمراتها وبمناطق نفوذها فى الشرق الأوسط ، وما تلا ذلك من حصول العديد من دول الشرق الأوسط على استقلالها السياسي وفى وقت لم تكن تملك فيه القدرة على حماية ذلك الاستقلال ، وقد أحيت من جديد أطماع القوتين العظميين – الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي – فى السيطرة وبسط النفوذ على المنطقة (٦٥) ، وبخاصة فى السنوات التي تلت الحرب العالمية .

لم تعط لبريطانيا أو للولايات المتحدة الأمريكية حرية المحافظة على المصالح الغربية فى هذه المنطقة ، إذ أن تلك المصالح كانت محاصرة بتحديات كثيرة لم تعرفها الحقبة الاستعمارية فى الخليج ونعني بها نمو القومية العربية والثورات المحلية التي اجتاحت المنطقة ، فضلا عن الدعاية التي كان يقوم بها الاتحاد السوفيتي ضد الإمبريالية والاستعمار الجديد (٦٦) .، حيث بادر الاتحاد السوفيتي إلى إصدار بيان فى السادس عشر من أبريل ١٩٥٥ تناول فيه موضوع الأمن فى الشرق الأوسط ، وطالب بتسوية تقوم على مبدأ التعايش السلمي ، وحذر فى بيانه بأنه فى حالة استمرار سياسات الضغط والإرهاب فإنه سيبادر إلى حماية استقلال دول تلك المنطقة (٦٧) ، ولعل ذلك تجلي فى موقفه من الثورة العمانية ، ولذلك نجد أن الشرق الأوسط من ناحيته الاستراتيجية كان يعد من وجهة النظر الأمريكية مجرد حلقة ضخمة هامة من حلقات الدفاع العالمية التي تقيمها أمريكا حول النطاق السوفيتي (٦٨) .

وبالنسبة للمحور الثاني ، محور الصراع المباشر وغير المباشر ضد المصالح الاقتصادية داخل الكتلة الغربية نفسها وبخاصة مع بريطانيا ، والذي كان له أثره فى الموقف الأمريكي ، حيث نجد أن بريطانيا كانت تعتبر الخليج العربي بمثابة بحيرة مغلقة على نفوذها إلا أن اكتشاف النفط أدي بالولايات المتحدة الأمريكية إلى مزاحمة بريطانيا مزاحمة اقتصادية ، وقد وضح ذلك فى إصرار الحكومة الأمريكية على إلزام بريطانيا بسياسة الباب المفتوح ، وهو

مبدأ روجت له السياسة الأمريكية فى مناطق النفط فى الشرق الأوسط فيما بين الحربين العالميتين وينص هذا المبدأ على عدم احتكار دول بعينها بامتياز معين قد يشكل أضرارا لدولة أخري واستطاعت الأمريكية بذلك المبدأ أن تضمن لبعض الشركات الأمريكية المساهمة فى استغلال النفط فى كل من البحرين والكويت ، بينما انفردت شركات أمريكية أخري باستغلال نفط السعودية ، وفي خلال الحرب العالمية الثانية تكشفت أهمية الخليج الاستراتيجية وتمثل ذلك فى الدور الذي قامت به الولايات المتحدة فى استخدام الخليج كمنطقة عبور هامة لنقل الإمدادات الأمريكية إلي الاتحاد السوفيتي عن طريق إيران ، وما تبع ذلك – فى السنوات الأخيرة من الحرب من إنشاء قاعدة جوية أمريكية فى منطقة الظهران، حيث وقع اختيار العسكريين الأمريكيين عليها لقربها من آبار النفط(٦٩).

وبعد نجاح الولايات المتحدة فى تحقيق سياسة نفطية متقدمة فى الخليج العربي بفضل شركاتها العاملة هناك أصبح للنفوذ الاقتصادي الأمريكي صفة الهيمنة على تلك المنطقة ولم تعد تقبل بمن يشاركها أو يسلبها مثل هذه الهيمنة واعتبرت أن هذه المنطقة هي نفوذ أمريكية ، ومن ثم عرقلت الولايات المتحدة أية نشاطات أوربية تهدف إلى تحقيق مكاسب اقتصادية تفوق ما حققته هي هناك (٧٠) .

وعموما كان النفط العربي أحد نقاط الخلاف والتوتر فى العلاقات الأمريكية – البريطانية ، وقد شهدت منطقة الشرق الأوسط ، وخاصة البلدان العربية منها نزاعات وحروباً كان النفط سببها المباشر وغير المباشر ، فالنفط كما يذكر محمد حسين هيكل " كان عنصرا دائما فى كل أزمة كبري وقعت فى العالم العربي ، ومنذ بدأت رياح الاستقلال تهب عليه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وكان البترول يطرح نفسه على الأزمات ، أو كانت الأزمات تطرح نفسها على البترول وفق متغيرات الظروف " (٧١) .

وربما يتضح لنا ذلك فى تضارب المصالح البريطانية والأمريكية حول مشكلات الحدود بين إمارات الخليج العربي والدول المجاورة ، أو كما حدث بالنسبة لمشكلة البوريمي بين مسقط وأبو ظبي والسعودية ، ففي الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تؤيد السعودية تحت ضغط الشركات الأمريكية العاملة فى النفط فى تلك المنطقة ، اتجهت السياسة البريطانية إلي تأييد الإمارات الخاضعة لها لحمايتها ، وتمثل ذلك فى احتلالها للبوريمي فى عام

١٩٥٥ [٧٢] ولعل موقف أمريكا من استيلاء بريطانيا على واحـة البـوريمي ، وكان ذلك مفاجأة للسعودية حليفتها – كان موقفـا مائعـا – فهـي لا تسـتطيع لأسباب اقتصادية أن تنضم لأي من الجبهتين فى ذلك الوقت ، وإن كانت تبـدي العطف على السعودية ظاهرا وتطمع فى الإحلال محل بريطانيـا فـى منـابع الثروة البترولية العربية [٧٣] ، كذلك يتضح أيضا فى الموقف الأمريكـي مـن العدوان البريطاني على ثورة عمان ، حيث كانت دوافعها تتمثل فى المحافظـة على علاقتها مع بريطانيا ، وبخاصة أن العلاقات الأمريكية – البريطانية فـى الشرق الأوسط ، سارت خلال فترة الخمسينات فى خط أكثر تعرجا منه فى أي وقت آخر ، وكان السبب فى ذلك يرجع ، ولاشك إلى أن تلك الدولتين لا واحدة منها فقط ، كانت لها مصالح هامة فى تلك المنطقة ، وإذا كانت سياسة الدولتين اتفقت فى منطقة الشرق الأوسط على إنشـاء حلـف بغـداد ، إلا أن الموقـف الأمريكي من أزمة السويس أثار استهجان البريطانيين باعتباره موقفا يهدد إلـى حد كبير حلف شمال الأطلنطي ، على أن الخلـل فـى العلاقـات البريطانيـة الأمريكية فى نهاية عام ١٩٥٦ ، لم يلبث أن عولج أمره بسرعة مذهلـة فلـم يتكرر مرة أخري فى عام ١٩٥٧ ، عندما عاد الموقف فى الشـرق الأوسـط فاضطرب مرة أخرى بسبب أزمة الأردن فى أبريل ، والنـزاع بـين سـوريا وتركيا فى أواخر الصيف ، ثم بسبب ثورة إمامة عمان ضد سلطان مسقط فـى شهرة يوليو وهي الثورة التي أخمدتها القوات البريطانية [٧٤] ، ورغم ذلك كـان هناك نقاط اتفاق فى العلاقات الأمريكية –البريطانية ، منهـا نظـرة الـدولتين للثورات الوطنية وحركات التحرر الوطني فى المنطقة .

ونستطيع القول أن الولايات المتحدة الأمريكية مـن خـلال خبراتهـا التاريخية مع مصر الناصريَة منذ عام ١٩٥٢ ، فقد نظرت نظره عدم ارتيـاح لهذه الثورات ، ذلك أن هذه الثورات لم تقض على حكومـات مواليـة للغـرب فحسب ، بل أقامت حكومات انتهجت بصورة عامة سياسة ودية تجـاه الاتحـاد السوفيتي وإقامة علاقات وثيقة معه ، واتخذت موقفا ، يمكن وصفه بالبرود فى احسن حالاته تجاه الغرب ومشاريعه السياسية والعسكرية فى المنطقة ، وللتعبير عن نظرتها إزاء هذه الحكومات فإن الولايات المتحـدة وصـفتها بالحكومـات (المتطرفة) مقابل صفة الاعتدال التي درجت على اسـتخدامها للدلالـة علـى الحكومات المرتبطة بعلاقات ودية ووثيقـة مـع الولايـات المتحـدة والـدول الغربية[٧٥] .

وهناك مسألة هامة يجدر التنويه إليها وهي أن الولايات المتحدة بـرغم تفوقها العسكري وظهورها على راس المعسكر الغربي فى السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، إلا أنها لم تشأ مع ذلـك أن تضـعف مـن روابطهـا التقليدية مع بريطانيا ، وبالتالي ظلت حريصة على إن توكل لبريطانيا الشـئون الدفاعية لمنطقة الخليج العربي مكتفية بالتنسيق السياسـي والاسـتراتيجي مـع استمرار اعترافها بالتفوق السياسي والعسكري الذي كانت تمارسه بريطانيا فـي المنطقة ، والتساؤل الذي نطرحه فى هذا المجال هو لماذا تمسـكت بريطانيـا بالمحافظة على تفوقها السياسي والعسكري فى الخليج العربي ؟ ، وقد يكـون من السهل الإجابة على هذا السـؤال ، إذا أخـذنا فـي اعتبـاره الامتيـازات الاقتصادية الجديدة التي أصبح الخليج يتميز بها ونعني بذلك اعتبـاره مصـدرا هاما للنفط ، وبالتالي فإن اكتشاف النفط واستغلاله أضفي عـلى الخلـيج قـدرا كبيرا مـن الأهـمية فى الموازين الاقتصادية والاسـتراتيجية ، وممـا زاد بريطـانيا تشبثا بالبقاء فيه (٧٦) .

القوي الدولية الكبري والموقف الأمريكي من هذه الثورة

كان للموقف الأمريكي من ثورة عمان عام ١٩٥٧ صداه المتباين على المستوي الدولي ، وسوف نقصر دراستنا على موقف القوي الدولية الكبري في تلك الفترة ، وهي الاتحاد السوفيتي القطب الأخـر ، وكـذلك القـوي الدوليـة الأخري فى سلم التدرج الدولي ونعني بها فرنسا وبريطانيا .

وإذا ألقينا نظره على موقف الاتحاد السوفيتي ، نجد أنه كان ينبع مـن الاتجاه الرئيسي فى العلاقات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية ، إذ كان هنـاك اتجاهان رئيسيان ، أول هذين الاتجاهين استعماري يهدف إلى تشـديد التـوتر الدولي وإثارة هستريا الحـرب ، وإخضـاع الـبلاد الضـعيفة لإرادة الـدول الاستعمارية ولقد أطلق على هذا الاتجاه اسم " اتجاه مراكـز القـوة ، وتسـير الولايات المتحدة وحلفاؤها من الاستعماريين فى هذا الاتجاه ، إذ أنهـا خلقـت سلسلة من الكتل السياسية – العسكرية – كحلف الأطلسي والحلـف المركـزي وحلف جنوب شرق آسيا ، ويفرض واضعو سياسة مراكز القوة للإبقـاء علـى العالم على شفير الحرب وللمضي وراء هذا المبرر فى طريق سـباق التسـليح الرهيب ، أما الاتجاه الثاني فتمثله السياسـة السـوفيتية ، وسياسـات الدولـة الاشتراكية التي تريد تخفيف حدة التوترات الدولية ، وقيام علاقات متبادلة النفع

وعلى أساس حسن الجوار بين جميع البلدان فى العالم (٧٧) .

بينما نجد رؤية الساسة الأمريكية فى موقف الاتحاد السوفيتي فى هذه المنطقة منذ بداية الحرب الباردة فى الخمسينات على الاعتقاد بأن الاتحاد السوفيتي يستغل الصراع العربي – الإسرائيلي لتثبيت نفوذه فى الشرق الأوسط والسيطرة على ثروته النفطية ، وعلى طرق المواصلات البحرية من أجل الضغط على الولايات المتحدة وحلفائها فى أوربا واليابان (٧٨) وبالنسبة للنفط يذكر الخبير الأمريكي المتخصص فى شئون الشرق الأوسط ريتشارد نولت " أدي تنامي التهديد الشيوعي ضد الغرب ، إلى تأكيد أهمية الدفاع عن الشرق الأوسط للاحتفاظ بموارده النفطية التي قدرت فى ذلك الوقت بثلثي مجموع الاحتياطات العالمية المغروفة من النفط ، بالإضافة إلى الأهمية الاستراتيجية لقناة السويس وغيرها من القواعد العسكرية الأخري المتناثرة فى المنطقة العربية ، ويضيف على أن التهديد لذلك النفط ولتلك القواعد لم يكن يأتي كله من اتجاه الشيوعية والاتحاد السوفيتي ، بل أيضا إلى تنامي الحركات القومية ضد استمرار الوجود الغربي ، الذي كان مصدرا هاما من مصادر هذا التهديد ، ويري تشجيع الاتحاد السوفيتي لهذه الحركات القومية ومساندتها (٧٩) .

ويري البعض أن نفط الشرق الأوسط وخاصة النفط العربي لم يكن يمثل مصلحة اقتصادية مباشرة للاتحاد السوفيتي بقدر ما كان حرمان الولايات المتحدة منه ، يشكل هدفا مرحليا ، فقد اعتبر السوفيت أن امتيازات المصالح البترولية للولايات المتحدة والغرب فى المنطقة العربية هي الأساس الذي تقوم عليه قوة أمريكا وتأثيرها السياسي فى دول المنطقة ، وأنه لو تصدع هذا الأساس فسوف ينهار النفوذ الغربي بأكمله ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، دأب الاتحاد السوفيتي على العمل على خطين متوازين ، أضعفا كارت البترول الغربي من جهة ، وتنمية علاقاته مع الدول العربية وخاصة المنتجة للنفط من جهة ثانية ففي الاتجاه الأول لم ينغمس الاتحاد السوفيتي فى المعركة الاقتصادية المرتبطة باستغلال النفط العربي ، لأنه لم يكن يعاني فى تلك المرحلة أزمة نفطية ولا يحتمل عبء المواجهة مع الولايات المتحدة التي يدرك أهمية مصالحها فى تلك المنطقة ، ولذلك اعتمد على أسلوب الدعاية والتحريض ضد احتكار شركة النفط الأمريكية واستغلالها لثروة العرب النفطية ، والى جانب تأييد موسكو لكل صوت يرتفع مطالبا بالتأميم ، أما على الصعيد السياسي فقد حاول الاتحاد السوفيتي التأثير فى المصالح الاقتصادية والنفطية للولايات

المتحدة عن طريق تنمية علاقاته السياسية والاقتصادية مع بعض الدول العربية وإيران بغية الحصول على مواقع له فى تلك المنطقة ، وقد استغل أخطاء السياسة الأمريكية تجاه الدول العربية بانحيازها الدائم لإسرائيل فى إطار الصراع العربي الإسرائيلي [٨٠].

ومما لاشك فيه أن الاتحاد السوفيتي كانت له مصالح أمنية وسياسية واقتصادية فى منطقة الشرق الأوسط بصفة عامة ، ومنطقة الخليج العربي على وجه الخصوص ، غير أن الموقع الإستراتيجي للشرق الأوسط وما يمثله من أهمية لأن الاتحاد السوفيتي كان فى مقدمة مصالح السوفييت خلال فترة الخمسينيات والستينيات وتنبع أهمية الموقع الاستراتيجي بالنسبة للاتحاد السوفيتي من كون هذه المنطقة قريبة جغرافيا من أراضيه وتشكل حدودها المتاخمة له (إيران – تركيا – أفغانستان) مصدرا للخطر على المراكز الصناعية السوفيتية ، لذلك كانت سياسة الاتحاد السوفيتي تجاه منطقة الشرق الأوسط والخليج العربي ترتكز على حماية أمنه القومي من أي تهديد غربي محتمل ينطلق من هذه المنطقة ولذلك بادر الاتحاد السوفيتي إلى إصدار بيان فى السادس عشر من أبريل ١٩٥٥ تناول فيه موضوع الأمن فى الشرق الأوسط ، وطالب بتسوية تقوم على مبدأ التعايش السلمي ، و حذر الاتحاد السوفيتي فى بيانه بأنه فى حالة استمرار سياسات الضغط والإرهاب فإنه سيبادر إلى حماية استقلال دول تلك المنطقة [٨١] .

لذلك جاء موقف الاتحاد السوفيتي متسقا مع تلك السياسة خلال أحداث الثورة العمانية والعدوان البريطاني المسلح عليها ، فعبد تكوين جيش تحرير عمان تبني الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية قضية الإمامة [٨٢] ، بل وساند الثورة العمانية فى المحافل الدولية ، وظل يطالب بتصفية الاستعمار فى عمان ، كما أولت الصحافة السوفيتية عناية بالأحوال العامة فى تلك المنطقة [٨٣] ، حيث علقت صحيفة " أزفستيا" فى عددها الصادر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٧ على حوادث عمان وذكرت أن هذه الأزمة نتيجة لتنافس الأمريكيين.والبريطانيين على العالم العربي ، وذكرت أن الأزمة القائمة فى إمامة عمان هي نتيجة لتآمر الاحتكار الأمريكيين على طرد أذنابهم البريطانيين من تلك المنطقة ، وقالت أن العالم يعرف المؤامرات الاستعمارية البريطانية منها والأمريكية ، ولكن هذه المؤامرات لن تتمكن من هزيمة شعوب الشرق العربي [٨٤] .

ويمكن تلخيص الموقف السوفيتي إزاء ثورة شعب عمان حيث هاجمت الغرب والولايات المتحدة كما تذكر الوثائق ما يلي :

أن صحافة الغرب حاولت أن تصور هذه النهضة بأنها مسألة داخلية بين فريقين من شعب عمان من أجل استقلاله .

أن أمريكا تتصارع مع بريطانيا للسيطرة على هذه المنطقة ، وان شركات البترول الأمريكية والبريطانية احتكرت منابع البترول فى شبه الجزيرة العربية ، وأنها فى سبيل الحصول على هذه الثروات مستعدة لارتكاب أي جريمة ضد الشعوب العربية وأن أمريكا تضغط على بريطانيا لتجبرها على مقاسمتها امتيازات البحث عن بترول هذه المنطقة ولكن هذا لن يقلل من شأن كفاح العمانيين .

أن سياسة أمريكا أظهرت ما تسعي إليه من إعادة التفرقة بين الدول العربية لربطها بعجلة السيطرة الأمريكية وهذه السياسة تفسر ما حدث فى الأردن وسوريا ومصر واستفزاز المتطرفين فى إسرائيل ضد الدول العربية(٨٥).

وفى المقابل نجد أن الوثائق الأمريكية تعد أن الدعاية الكبيرة المؤيدة للإمام تأتي من مصر وسوريا والاتحاد السوفيتي (٨٦) .

أما رؤية فرنسا للموقف الأمريكي فيمكن استخلاصه من خلال كتابات الصحف الفرنسية ، حيث كتبت صحيفة "لوموند " فى ٢٤ يوليو ١٩٥٧ بمقال عنوانه " السويس ثانية " مضمونه " أن الحوادث الأخيرة بين الوطنيين العمانيين وقوات سلطان مسقط حلقة جديدة من النزاع الذي نشب فى السنوات الثلاثة الأخيرة بين الإنجليز وسلطان مسقط وبين الملك سعود حول حدود الأقاليم الجنوبية الشرقية للجزيرة العربية ، و يخشي أن تتحول الحالة فى مسقط إلى سويس ثانية ، إذا ما أبدت واشنطن بعض التحفظ تجاه التدخل البريطاني " واختتمت الصحيفة بقولها " أن النزاع رغم أنه نزاع محلي إلى الآن ، يعتبر فرصة سانحة للعرب للتخلص من شركات البترول الغربية ، أن نجاح الثورة سيكون سابقة خطيرة بالنسبة لإمارات الجزيرة العربية وخاصة إمارات الخليج العربي (٨٧) .

وتحت عنوان " حرب الذهب الأسود " كتبت صحيفة كومبا مقالا فى عددها الصادر فى ١٩٥٧/٧/٢٣ جاء فيه " أن ثورة القبائل الإسلامية بقيادة

شقيق الإمام غالب بن على أمام عمان ،ليست سوي أحد فصول حرب البترول، وأن الثورة البترولية لصحاري هذه المنطقة كانت سببا للأحداث الأخيرة وفـــي سنة ١٩٣٩ كانت بريطانيا تتزعم الدولة المستغلة لبترول الشرق ، أمـــا اليـــوم فثلاثة أرباع بترول الشرق الأدنى تستغله شركات أمريكيـــة تقـــوم بمحـــاولات عديدة لإزاحة منافستها الإنجليزية ، وأن قصة هذا الصراع الأخوي بين أمريكا وبريطانيا يرجع إلى سنة ١٩٥٤ عندما اكتشفت بعض المنقبين الإنجليز الـــذهب الأسود فى منطقتي البوريمي والفهود " .

وتحدثت الصحيفة عن دور الولايات المتحـــدة حيـــث أضـــافت " أمـــا السياسة الأمريكية فإنها تخالف اتجاهات السياسة البريطانية فالسياسة الأمريكيـــة تقضي بمساندة شركة أرامكو وتمكينها من التنقيب عن البتـــرول فـــى منـــاطق جديدة واختتمت الصحيفة قائلة " أن بريطانيا مازالت تمتلك فى يـــدها الوســـائل الكفيلة بقلب الميزان لمصلحتها ، ومهما كان الوضع فيجب قيـــام تفـــاهم بـــين بريطانيا والولايات المتحدة ، لوضع حد لهذه المناوشات الدموية فى المنطقة .

وعموما يمكن تلخيص موقف الصحافة الفرنسية إزاء الموقف الأمريكي فى النقاط التالية :

اعتبار النزاع فى عمان أحد فصول الصراع حول الثروة البترولية فـــي هذه المنطقة وان هذا النزاع فى الواقـــع بـــين شـــركات البتـــرول الأمريكيـــة والشركات البريطانية .

أظهرت الخوف من فشل حملة بريطانيا كما فشلت حملة الســـويس ، إذا ما بدأت واشنطن بعض التحفظ تجاه التدخل البريطاني .

ضرورة تفاهم الولايات المتحدة وبريطانيا بشأن اتباع سياسة موحدة فى هذه المنطقة تصون مصالح الطرفين ، لأن هذا النزاع فرصة ســـانحة للنـــداء العربي بالتخلص من شركات البترول الغربية .

نجاح الثورة العمانية سيكون دافعا لامارات الجزيـــرة العربيـــة علـــى مناهضة النفوذ الغربي وإشعال الثورة التحررية فى المنطقة بأسرها ، وانتصار للقومية العربية [٨٩] .

وإذا ألقينا نظرة عن صدي الموقف الأمريكي فى داخل بريطانيا نفســـها فقد تجلي واضحا فى مجلس العموم البريطاني ، وبخاصة من أعضـــاء نـــواب

الأغلبية (المحافظين) ، ولعل ذلك كان ينبع من موقف حزب المحافظين بالنسبة للشرق الأوسط والذي كان يعد أحد المجالات الهامة فـي السياسـة الخارجيـة البريطانية بعد الحرب العالمية الثانية ، وبخاصة أن كثيراً من مراكزها الرئيسية بدأت تنسحب منها على سبيل المثال مصر والسودان ، ولهذا كان هذا الحـزب يؤمن بأن أي سياسة ضعيفة فى الشرق الأوسط سـوف تكـون وبـالا علـى المصالح البريطانية ، وأن كانت هناك استثناءات تجعـل هـذا الإيمـان يتسـم بالمرونة لا بالتعصب . (٩١) .

ولعل ذلك يتجلى بصورة واضحة ، حيث كان الشعور بالغضب أقـوي وأشد فى نفوس النواب المحافظين الذين تمردوا على معاهدة ١٩٥٤ بين مصر وبريطانيا الأمر الذي أدي بستة منهم الى الاستقالة من إدارة الحزب احتجاجـا على فشل الحكومة فى مواصلتها للحرب حتي تحقق الهدف الـذي مـن أجلـه أعلنتها كذلك فإن عددا كبيرا من نواب المحـافظين انتقـد موقـف حكـومتهم واستقال بعضهم من إدارة الحزب ، كما استقال وزيران مـن وزراء المرتبـة الثانية من الحكومة إبان أزمة السويس وموقف حكومتهم منها (٩٢).

وعموما شهدت جلسات مجلس العموم البريطاني وبخاصة مـن نـواب حزب المحافظين انتقادات واستفسارات عن الموقف الأمريكي بصـفة خاصـة إزاء هذا العدوان ، حيث نجد بوب وليامز (المحافظ) يتساءل هل يستطيع وزير الخارجية أن يؤكد لنا – بالنسبة لخطورة الموقف – عما إذا كان من المعتقد انه ستكون هناك مساندة من جانب أمريكا للسياسة الخارجية البريطانية ، فكـان رد لويد لست أعتقد أن مثل هذه المسألة محل بحث فقد عقدنا العـزم علـى اتخـاذ الإجراءات الذي اتخذناه بسبب علاقات الصداقة التاريخية بيننا وبـين سـلطان مسقط(٩٣) .

وعلى نفس المنوال تساءل نابارو (محافظ) بالإشـارة إلـى الأهميـة القصوي لموارد بريطانيا البترولية بهذه المنطقة ، وما أشيع فى الأيام الأخيـرة أن الأسلحة التي تصل الإمام هل هي أسلحة أمريكيـة الأصـل وهـل هنـاك اتصالات بالولايات المتحدة فى هذا الصدد ، فكان رد لويد ، أنه ليس لدية أيـة معلومات بشأن هذه الأسلحة وكونها أمريكية الأصل وكل ما لدينا من معلومات، أن هناك أسلحة حديثة فى المنطقة لابد أنها قد أحضرت من خـارج أراضـي مسقط وعمان (٩٤) .

ولعل هذا التخوف من موقف الولايات المتحدة من جانب نواب حـزب المحافظين كان مرده إلى موقف الولايات المتحدة إبان أزمة السويس حيث أننـا نجد أن فريقا من نواب المحافظين كان أشد عنفا فى لومه سياسة أمريكا أثنـاء هذه الأزمة ، واستطاع أن يجمع أكثر من مائة توقيع من النـواب المحـافظين على اقتراح باستهجان موقف الحكومة الأمريكية بازاء الحكـومتين الإنجليزيـة والفرنسية باعتباره موقفا يهدد إلي حد كبير حلف شمال الأطلنطي (٩٥) .

خاتمة

أختلف موقف الولايات المتحدة الأمريكية تجـاه العـدوان البريطـاني المسلح على ثورة عمان عام ١٩٥٧ م ، فبينما وقفت الصحافة الأمريكيـة فـى موقف الدفاع عن سياسة الولايات المتحدة ، ونفي تـدخلها لمسـاعدة الثـورة العمانية نجد صحف أخري تندد بهذا العـدوان ، وربمـا اسـتغلت الحكومـة الأمريكية موقف صحافتها وآرائها لتحقيق مصـالحها الاقتصـادية والسياسـية للضغط على البريطانيين للحصول على أكبـر المكاسـب الاقتصـادية فـى منطقة الخليج وليس أدل على ذلك من زيادة الاستثمارات النفطية الأمريكية فى تلك المنطقة حيث وصلت مساهمتها إلى أوجها عام ١٩٥٨ ، فبلغت نسبة ٥٦% فى حين تراجعت بريطانيا إلى ٣٣% من نفط الخليج (٩٦) .

شهد موقف الحكومة الأمريكية تغيرا كبيرا حسب مصالحها السياسـية فى المنطقة وتبعا لعلاقتها مع حليفتها بريطانيا ، وكما يذكر البعض أن سياسـة الولايات المتحدة لم تتفق مع سياسة بريطانيا فى منطقة الشرق الأوسط إلا فـي إنشاء حزب بغداد ، وفيما حدث من أزمات عام ١٩٥٧ ، ومما ضاعف من اثر هذا الانسجام حرص الحكومتين على مصالحهما فـي بتـرول هـذه المنطقـة بالإضافة إلى حرص الولايات المتحدة على ان تقف موقفا مغايرا لموقفها أبـان أزمة السويس عام ١٩٥٦ ، هذا إلى جانب الهدف الاستراتيجي لكـل منهمـا ، حيث كانت مقاومة الهدف الأكبر وهو الاتحاد السـوفيتي مـن وجهـة النظـر الأمريكية وتيار القومية العربية المتصاعد آن ذاك من وجه النظر البريطانيـة ، ولذلك يري البعض أنه من أسباب فشل هذه الثورة العمانية التنسيق البريطـاني – الأمريكي فى منطقة الخليج (٩٧) .

كان موقف الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة سلبيا وغير مشجع فـي جميع الأوقات التي عرضت فيها قضية عمان ، وبخاصة أن عمان دولة مستقلة

ذات سيادة كما تقرر ذلك المعاهدات المعقودة بينهما وبين دول أخري منها الولايات المتحدة الأمريكية ، وهي بهذه الصفة مسئولة عن حفظ الأمن الداخلي في بلدها على الرغم من أن مبادئ القانون الدولي وأحكام ميثاق الأمم المتحدة تقرر عدم تدخل الدول فى الشئون الداخلية للدول الأخري ، وحفظ الأمن الداخلي فى كل دولة يرجع إلى السلطات الداخلية فيها ، وأحدث مثال فى تلك الفترة استنكار الأمم المتحدة وموقف أمريكا المتشدد لتدخل قوات السوفيت فى شئون المجر الداخلية عندما وقعت الاضطرابات الداخلية فيها فى أكتوبر ١٩٥٦م.

الهوامش

١. إبراهيم شريف : الشرق الأوسط ، وزارة الثقافة والأعلام ببغداد ١٩٦٥ ، ص ٥٢.

٢. عزة النص : الوطن العربي ، دار اليقظة العربية بدمشق ١٩٥٩ ، ص ١٠٤ .

٣. جمال زكريا قاسم : تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، المجلد الرابع ، تطور الأوضاع السياسية والاقتصادية لامارات الخليج العربي ووصولها الى الاستقلال ١٩٤٥-١٩٧١ ، دار الفكر العربي بالقاهرة ٢٠٠١ ، ص ٢٢٢ .

٤. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربي ، الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٦٥، ص ٢٧٦ .

٥. عبد المالك خلف التميمي : بعض قضايا الحركة الوطنية فى الخليج العربي ، المستقبل العربي ، العدد (٣) ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ، لبنان ١٩٨٤ ، ص ٢٩ .

٦. حسين غباشي : عمان ، الديمقراطية الإسلامية ، تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث ١٥٠٠- ١٩٧٠ ، نقلة إلى العربية د.أنطون حمص ، دار الفارابي ، بيروت لبنان ، الطبعة الثالث ١٩٩٩ ، ص ٣١٤ .

٧. صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

٨. دار الوثائق القومية بالقاهرة : وزارة الخارجية ، الأرشيف السري الجديد محفظة ٦٥٠، بيان محمد الحارثي رئيس مكتب إمامة عمان بالقاهرة ، الذي ألقاه فى اجتماع لجنة الشئون السياسية بتاريخ ١٠/٨/ ١٩٥٧ .

٩. منذر البكر وآخرون : صور من المقاومة العربية للأطماع الأجنبية ، منشورات جامعة البصرة ١٩٧٣ ، ص ٣٦ .

١٠.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .

١١.أ.س.ج ، محفظة ٦٥٠ ، بيان محمد الحارثي

١٢.فتحي الديب : عبد الناصر وتحرير المشرق العربـي ، مركـز الدراسـات السياسـية والاستراتيجية بالأهرام ٢٠٠٠ ، ص ٢٣٧ .

١٣.المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

١٤.أ.س.ج ، محفظة ١٥٩٢ ، ملف ٢/١٠٤/٣٧جـ٢ ، عمان .

١٥.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .

١٦.فتحي الديب : المرجع السابق ، ص ٢٣٨

١٧.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

١٨.فتحي الديب : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

19. F.o., 371-120, 869 , Annual Report on Territiories In Persian Gulf , Mascat , 1956 .

٢٠.عبد المالك خلف التميمي : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

٢١.صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

٢٢.فتحي الديب : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

٢٣.صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .

٢٤.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ص ٢٣٢- ٢٣٣ .

٢٥.خلدون حسن النقيب : المجتمع والدولة فى الخليج العربي والجزيـرة العربيـة ، مـن منظور مختلف ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولـي ١٩٨٧ ، ص ٢٤ .

٢٦.فتحي الديب : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

٢٧.أ.س.ج ، محفظة عمان رقم (١) ، ملف ١٠٣٧/٤٩ / ٥

٢٨.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٣٣- ٢٣٤

٢٩.محمود على الداود : محاضرات عن التطور السياسي لقضية عمان ، معهد الدراسـات

العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولي ١٩٨٧ ، ص ٢٤ .

٣٠. أ.س.ج ، محفظة ٦٥٠ ، بيان محمد الحارثي .

٣١. جريدة الجمهورية (القاهرية) ، العدد ١٧٧١ ، ١٩٥٨/١٠/٢٦ .

٣٢. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

٣٣. الجمهورية ، العدد ١٨٠١ ، ١٩٥٨/١١/٢٥ .

٣٤. أ.س.ج ، محفظة عمان (١) ، ملف ٤٠٩ / ١٠٣٧ / ٥ .

٣٥. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

٣٦. حسين غباشي : المرجع السابق ، ص ٣١٥ .

٣٧. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ٢٣٧ .

٣٨. خلدون حسن النقيب : المرجع السابق ، ١٤٠ .

39. F.o., 371-188 ,76 ,From Washington To Foreign office ,July, 23,1957 .

40. F.o. ,371-120,575, letter dated , March, 2, 1956

٤١. حسين غباشي : المرجع السابق ، ٣٢٤

٤٢. مذكرات ايزنهاور : ترجمة هيوبرت يونغمان ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان ، الطبعة الأولي ١٩٦٩ ، ص ٩٣- ٩٤ .

٤٣. أ.س.ج ، محفظة ٦٥٠ ، ملف ١٤٠/١٤٠ / ٣ جـ٢ ، قضية إمامة عمان كما تصورها الصحافة الأمريكية ، ١٢/ ١٩٥٧/٨ .

٤٤. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .

٤٥. حسين غباشي : المرجع السابق ، ص ٢٦٥ .

٤٦. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٦٥ .

٤٧. أ.س.ج ، محفظة ١٥٩٢ ، ملف ٢/١٠٤/٣٧جـ٢ .

٤٨. استيفين أمبروز : الارتقاء إلى العالمية ، السياسة الخارجية الأمريكية منذ عام ١٩٣٨ ،

ترجمة نادية الحسيني ، المكتبة الأكاديمية ١٩٩٤، ص ٨٠ .

٤٩. أ.س.ج ، محفظة ٦٥٠ ، ملف ١٤٠ / ١٤٠ / م جـ٢ ، قضية عمان كما تصورها الصحافة الأمريكية .

٥٠. المصدر السابق

٥١. المصدر السابق

٥٢. المصدر السابق

٥٣. المصدر السابق

٥٤. المصدر السابق

٥٥. المصدر السابق

٥٦. المصدر السابق

٥٧. نقلا عن حسين غباشي : المرجع السابق ، ص ٣١٦ .

٥٨. فتحي الديب : المرجع السابق ، ص ٢٥٣ .

٥٩. حسين غباشي : المرجع السابق ، ص ٣٢١ .

٦٠. مذكرات ايزنهاور : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

٦١. محمود على الداود : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

٦٢. حسين غباشي : المرجع السابق ، ص ٣٢١ .

٦٣. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ٢٤٠ .

٦٤. مني سحيم حمد آل ثاني : السياسة الأمريكية فى منطقة الخليج العربي ١٩٤٥ – ١٩٧٣، منشورات المركز الأكاديمي للدراسات الاستراتيجية بالقاهرة ، الطبعة الأولي ٢٠٠٠ ، ص ١٣٩ .

٦٥. ممدوح محمود مصطفي منصور : الصراع الأمريكي – السوفيتي فى الشرق الأوسط ، مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٢٩ .

٦٦. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .

٦٧. واي بوجوش وآخرون : السياسة الخارجية السوفيتية بين عامي ١٩٤٥ – ١٩٦٥ ،

تعريب وتعليق خيري حماد . الكتاب العربي للطبعه والنشر بالقاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٢٤

٦٨.ك.م . دور هاوس : السياسة الخارجية البريطانية بعد الحرب العالمية الثانية ، ترجمة حسين قباني . الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢١٤ .

٦٩.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ص ٢٦١- ٢٦٢ .

٧٠.منى سحيم : المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

٧١.محمد حسنين هيكل : حرب الخليج أوهام القوة والنصر ، مركز الأهرام بالقاهرة ١٩٩٢، ص ٥٨ .

٧٢.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .

٧٣.توفيق على منصور : بريطانيا والعرب شرق السويس ،القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٧٧ .

٧٤.ك .م . دورهاوس : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ وما بعدها .

٧٥.مني سحيم : المرجع السابق ، ص ص ٢٢٢ – ٢٢٣ .

٧٦.جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ص ٢٦٢ – ٢٦٣ .

٧٧.واي بوجوش وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤٣ .

٧٨.حافظ برجاس : الصراع الدولي على النفط العربي ، بيان للنشر والتوزيع لبنان ، الطبعة الأولي ٢٠٠٠ ، ص ٢٢٩ .

79. Richard, H.,Nolte, United states policy and The Middle East , in Gerorgiana Stevens (ed) The United states and the middle East , new york , 1964, pp .156-157

٨٠.حافظ برجاس : المرجع السابق ، ص ص ٢٣١ – ٢٣٢ .

٨١.واي بوجوش وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

٨٢.خلدون حسن النقيب : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

٨٣.محمود على الداود : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

٨٤.أ.س.ج ، محفظة ٦٥٠ ، تقرير عن قضية عمان كما تصورها الصحافة السوفيتية .

٨٥.أ.س.ج محفظة عمان (١) ، ملف ٤٠٩ /١٠٣٧ / ٥ ، بشأن موقف روسيا من شعب عمان بتاريخ ١٩٥٧/٩/٥ .

86. U.s.a , in Telligence Report ,no 7558 ,The oman conflict ,august , 8, 1957 .

٨٧. أ.س.ج ، محفظة ٦٥٠ ، العدوان البريطاني على ثورة عمان كما تصـــورها الصـــحافة الفرنسية بتاريخ ١٩٥٧/٨/٦ .

٨٨. المصدر السابق

٨٩. المصدر السابق .

٩٠. تولي حزب المحافظين الحكم بعد عام ١٩٥١ ، واستمر حتي العدوان البريطاني علـــى عمان ، أنظر ك .م . دورهاوس : المرجع السابق ، ص ص ٣٢٣- ٣٢٦.

٩١. ك .م . دورهاوس : المرجع السابق ، ص ٣٢٧

٩٢. نفسه ، ص ٣٣٨ .

٩٣. أ.س .ج ، محفظة ٦٥٠ ، مناقشة مجلس العموم البريطاني للأحداث الأخيرة فى عمان، ١٩٥٧/٨/٥.

٩٤. المصدر السابق .

٩٥. ك .م . دورهاوس : المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

٩٦. محمد على عمر الفرا : العلاقات الاقتصادية بين فرنسا ودول الخليج العربـــي ، بحـــث منشور بمجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ، الســـنة الثانيـــة ، العـــدد السابع يوليو ١٩٧٩ ، ص ١١٤ .

٩٧. عبد المالك خلف التميمي : المرجع السابق ، ص ص ٢٨ – ٢٩ .

الفصل العاشر

رواد التحرر الوطنى المصرى الحديث في المنظور الشعبى

"دراسة فى الإحصاء التاريخى"

محمد رفعت عبد العزيز(*)

في بداية التسعينيات أصدر أستاذنا الدكتور عبد العظيم رمضان كتاباً بعنوان " تاريخ مصر والمزورون " ، بما يعني- من وجهة نظره - وقوع أكثر من حالة تزوير كان معنياً بكشفها . نحن إذن أمام حالة تعقدت حينما اعترف هو نفسه أن أحد كتاب اليوميات - بجريدة الأخبار - وصفه بأنه "مؤرخ ملاكي معروف بهذيانه"(١)، إذ معنى هذا أن الكاتب المشار إليه يتهم الدكتور عبد العظيم رمضان بما هو أكثر من الهذيان ، إنه يتهمه بالتزوير ، وإلا فما معنى كلمة ملاكي؟.

وتتأكد الحالة حين يصدر صلاح الشاهد كتابه " ذكرياتي في عهدين " ويهديه ؛ إلى هؤلاء المؤرخين أو الكاتبين الذين جعلوا من عمالقة مصر أقزاماً... وإلى هؤلاء الكتبة الذين صنعوا من الأقزام عمالقة .. "(٢).

نحن - إذن - أمام إشكالية اكتنفت تاريخنا من قديم ؛ أن يطمس اللاحق تاريخ السابق ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، بيده أو بيد غيره . هذه العادة تعمقت في تاريخنا حتى برزت في حفر غائر أيام الرعامسة ، أحد تفسيراته تفادي الطمس أو التشويه.

وحول تاريخنا الحديث ، ومنذ وقت مبكر من قراءتي له ، شدني موقفان بطلهما أحمد عرابي بعد عودته من المنفى(٣)؛ في الموقف الأول كان عرابي يهم بالخروج من الجامع الأزهر فإذا بشباب من الحزب الوطني يتهمونه بالخيانة بل ويبصقون عليه. والموقف الثاني مماثل للموقف الأول ، وإن كان هذه المرة في أحد المقاهي، حيث جلس الزعيم الكبير يريح قدميه من عناء

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد، كلية التربية، جامعة عين شمس.

المسير ، وكان البصق أيضا بعد الاتهام بالخيانة..

انسابت وقتها عبراتي ، وأنا أتخيل عبرات الرجل تتخلل ذقنه المشـيب لتحرق قلبه .. تخيلته يتواري خجلاً وهو الأجدر بالفخر بعد أن اتهموه بالخيانـة وهو من أوائل مـن حملوا راية الحريـة .. تذكرت وقتها ماركوس أورليوس " ١٦١-١٨٠ ".. ذلك الإمبراطور الروماني الذي بدا أنه على وشك تحقيق حلـم أفلاطون الكبير في فيلسوف حاكم أو حاكم فيلسوف ، وهو يحتضر ويـزم رداءه حوله ويقول : " إني أغادر حياة يتمنى ارتحالي عنها قـومي أنفسـهم ، أولئـك الذين من أجلهم كدحت وصليت ودبرت .. ففيم السعي إذن لإطالة العمر ؟ ".

والأدهي أن يشترك في هذه الجهالة رواد الحركة الوطنية المصرية أنفسهم ، ولن نبتعد عن عرابي كثيراً ، فقد هاجمته جريدة اللواء عند عودته من المنفى ، واتهمه مصطفى كامل بالجبن والضـعف والتعمـد فـي إدخـال الاحـتلال[٤]. واستمرت جريدة اللواء في حملتها على عرابي ، فنشرت القصائد الطويلـة رداً على من يمدحونه ، حتى لقد وصفها عرابي في مخطوطه " كشف الستار عـن سر الأسرار" بأنها من الجرائد المأجورة [٥]. أيضاً تعرض عرابي لنقـد أميـر الشعراء أحمد شوقي في قصيدة مطلعها :

صغار في الذهاب وفي الإياب ... أهذا كل شأنك يا عرابي

ويرد عرابي – في مخطوطه– على أمير الشعراء :

نفاق في الحضور وفي الغياب ... وهذا شأن أبنـاء الكلاب

عفت أفكار مثلك يا جهول ... ويعفو الله عن وطن مصاب[٦]

وإذا كـان مصطفى كامل قد جرَّح في كفاح أحمد عـرابي وفي فكر قاسم أمين[٧]. فـإنه لم يسلم – هو الآخر– من نقد ، أنظره وهو يشـكو .. " فالـذين يقصدونني ويوافقون على أعمالي ، إنما يقولون بذلك في مجالسـهم الخاصـة ، وربما خافوا المجاهرة به في المجالس العامة ، والذين يعترضون علي ويطعنون في ، يقولون ذلك جهاراً ، فهم لم يتركوا لفظاً من ألفاظ القباحـة والسـفاهة إلا ذكروه ، ولم يفوتوا صفة من صفات النقائص إلا نسبوها لشخصي . كـل ذلـك ولا مدافع عني. فكأني بقومي وهم ساخطون على ناقمون مني!"[٨]. لكن الغريب أن يأتي نقد مصطفى كامل من رفيق كفاحه[٩]. محمد فريد الذي قال: "مصـطفى كامل رحمه الله كان يخفي على ما كان يختص بالمساعدات المالية التـي كـان

يأخذها سواء من الخديو أو من السلطان عبد الحميد"[١٠].

أيضا فقد طعن محمد فريد في الإمامين الأستاذين محمد عبده ورشيد رضا. ورغم أنه ترفق بزعيم الأمة سعد زغلول إلا أنه اعتبره انتهازياً ، ولكنه عبر عن هذا المعنى بقوله أنه " من الناس الذين يسيرون مع الحوادث "، ولكنه أضاف الكلمة الإنجليزية التي تترجم إلى انتهازي"Opportunist" ، وعاد بعد ذلك ليصف سعد زغلول بأنه " يريد الوصول إلى الوزارة على أكتاف رجال الحزب الوطني"[١١].

ومن ناحيته ، فقد جرَّح سعد زغلول في كفاح مصطفى كامل ، وزاد – وفقاً لما ورد في مذكراته (الكراسة السابعة ص٣٤٤) – بأنه نصاب ! وكان رأي قاسم أمين ، صديق سعد زغلول ، في مصطفى كامل أنه " نصاب خداع ، ومنافق كذاب"[١٢] ، لذا لا نستغرب ألا يسلم سعد زغلول من لسان خصومه ، فيصفه الكثيرون بالطاغية[١٣]، ويزيد البعض باتهامه بالخيانة[١٤].

وحين اتهم مصطفى النحاس – في يونيو ١٩٣٦- جمعية مصر الفتاة بأنها تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة البلاد فقد وجد من يتهمه بالطغيان من بين خصومه[١٥]. وبالسلبية من بين أنصاره ، فقد عبر محمد التابعي عن الموقف الأخير بقوله : " يحز في نفوسنا – نحن الوفديين – أن زعيمنا حاكم ضعيف وأنه وضع الدستور عن يمينه ، والقانون عن يساره وعمامة ابن حنبل فوق رأسه ؟، ثم أقسم على المصحف ليحترمن أحكام الدستور والقانون ولو شنقوه. قيد مصطفى النحاس باشا نفسه بنفسه ، واختار أن يكون حاكماً ضعيفاً ، في وقت كان يحل فيه شيء من الاستبداد. والعاجز من لا يستبد.

مصطفى النحاس الدكتاتور الطاغية – كما يصفه المعارضون – كل عيبه عندنا ، نحن أنصاره أنه لا طاغية ولا دكتاتور ولا يحزنون ، كل عيبه أنه وهو يستند إلى أغلبية قل أن يفوز بها زعيم من قبله ، قد اختار أن يترك أقلية قل أن يوجد مثلها في هزالها وضعفها تتحكم فيه ، لو شاء ليستطيع أن يبطش بها ، ويمسحها من اللوح ويذرو ترابها للريح.

وما أفلح حاكم ، ولن يفلح حاكم يختار لنفسه هذه الطريق الضيقة .. ليت مصطفى النحاس أدنى شيئاً من بطش صدقي أو " عنطزة " محمد محمود ، ليته كان طاغية بحق وحقيق ، إذن لاسترحنا ولاستراح الدستور والقانون ، واستقرت الأمور وانتظم الحكم ومشت أسباب الإصلاح في هذا البلد.

صحفي منا كان يحك قصبة أنفه لحر دستوري لا في العير ولا في النفير فكانت وزارة الداخلية تقوم على قدم واحدة ولا تقعد ، وكانت إدارة الأمن العام تقوم على قدم واحدة ولا تقعد ، حتى تتعطل الصحيفة وتصادر أعدادها ويزج الصحفي في السجن تحت إذن المحقق بضعة أيام"[١٦].

وبصرف النظر عن هذه الدعوة الصريحة إلى "استبداد وفدي" يحرض عليه مفكرو الحزب ، ويشكو منه خصومه ، فإن خروج بعض أعضاء حزب الوفد من الحزب وانقلابهم عليه - بما مثل ظاهرة عبر عنها البعض " بانفصال الوفد عن الوفد "[١٧] - إنما كان يعني تشويهاً من صحافة الحزب لتاريخ المنقلبين ، أو من صحافة المنقلبين لتاريخ الوفد، بما يعني في النهاية تشويهاً للتاريخ المصري الحديث. لذلك لا نستعجب حينما يلخص عبد الناصر رأيه في السياسيين القدامى ويقول :" ذهبنا نلتمس الرأي من ذوي الرأي ، والخبرة من أصحابها ، ومن سوء الحظ لم نعثر على شيء كثير. كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا قتل رجل آخر، وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا هدم فكرة أخرى. ولو أن أحداً سألني في تلك الأيام ما هي أعز أمانيك لقلت له على الفور أن أسمع مصرياً يقول كلمة إنصاف في حق مصري آخر .. أن أحس أن مصرياً قد فتح قلبه للصفح والغفران ولحب إخوانه المصريين.

كانت كلمة " أنا" على كل لسان .. كانت هي الحل لكل مشكلة ، وهي الدواء لكل داء ، وكثيراً ما كنت أقابل كبراء - أو هكذا تسميهم الصحف - من كل الألوان والاتجاهات ، وكنت أسأل الواحد منهم في مشكلة التمس عنده حلها ، لم أكن أسمع إلا " أنا"[١٨].

ولعل شهادة خالد محي الدين بالنسبة لمسائل ثلاث تطوع هو نفسه للشهادة فيها، لأنها أثارت جدلاً كثيراً عند كل من سجل شهادته حول ثورة يوليو تبين أن دور قادة ثورة يوليو قد تعرض لتشويه كبير.... "والمسائل الثلاث هي:

الأولى: واقعة أن أنور السادات أتى من رفح متأخراً ثم ذهب للسينما وهناك تشاجر مع أحد الأفراد ، وذهب إلى قسم البوليس وعمل محضراً بالخناقة ، وعاد إلى البيت في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ليجد ورقة من عبد الناصر تبلغه بضرورة الحضور .. فقد بدأت الحركة. ويحاول البعض إلقاء بعض الظلال والشكوك على دور السادات في الحركة ، وقال البعض إن السادات أراد أن يثبت بمحضر بوليس أنه لا علاقة له بالحركة ..[١٩].

وتحليلات أخرى كثيرة.

وفي البداية أقرر أن أنور السادات كان على علاقة بيوسف رشاد رجـل الملك المخلص .. لكن أنور السادات لم يفش سرنا له ، ولو فعـل ذلـك لكـان مصيرنا جميعاً هو الإعدام ، فقد كان السادات يعرف كل أعضاء " لجنة القيادة " ولو أبلغ عنا لكان وجه مصر قد تغير تماماً ، لكنه لم يفعل. أما أنه قد حـرص على تسجيل واقعة مشاجرته في محضر للبوليس ، فلعل هذا مرتبط بخبرة سابقة للسادات ؛ فقد حوكم أكثر من مرة ، وفصل من الجيش ، ولعلـه أراد تحصـين موقفه بعض الشيء إن فشلت الحركة ، ولا بأس في ذلك ، خاصة وأنه فعلا لـم يتخلف كثيراً ، وأسرع ليسهم مع الآخرين فيما يفعلون ، ثم تلا بيان الحركة في الإذاعة.

والمسألة الثانية : هي أن جمال وعبد الحكيم كانا وحتى لحظة القبض عليهمـا بواسطة قوات يوسف صديق يرتديان الملابس المدنيـة ، ويحـاول الـبعض أن يستنتج من هذا أنهما كانا يريدان التخلص من المسئولية في حالة فشل الحركـة والقبض عليهما.

وردي على ذلك .. أنه بالنسبة لأي من أعضاء " لجنة القيادة " لم يكـن هناك أي مجال للتخلص من المسئولية في حالة الفشل ، وخاصة بالنسبة لشخص كجمال عبد الناصر الذي تورط أمام أعداد كبيرة من الضباط بصـفته المسـئول الأول عن الحركة ، أما ارتداء الملابس المدنية فيمكن فهمه وفهم مبرراته ، فعبد الناصر وعامر لم يكن لديهما قوات ليتحركا بها ، ورغبة كل منهما في التحـرك بحرية ولضمان الاتصال بأية قوات ، وإبلاغها بضرورة مهاجمة مبنـى قيـادة الجيش فقد كان من الطبيعي أن يرتديا ملابس مدنية ، فالتحرك بملابس عسكرية كان مستحيلا في ليلة كهذه ، خاصة وأنهما يعلمان جيداً أننا أصـدرنا تعليمـات بمنع تحرك الضباط من رتبة بكباشي فما فوق.

أما المسألة الثالثة: التي يستشعر ضميري ضرورة أن أدلي بشهادتي فيهـا فهي دور محمد نجيب ، وقد حاول البعض أن يقلل من دور محمد نجيـب ، وأن يدعي أنه ظل في بيته حتى انتصرت الحركة فأتى لينتزعها ، والحقيقـة غيـر ذلك. لقد رغب نجيب في أن يشاركنا التحرك منذ اللحظة الأولى ، وعندما علـم أننا وضعنا خطة التحرك طالب بالمشاركة في تنفيذها ، لكننا كنا نريد أن نبعـده عن أي مشاركة فعلية عن عمد لنضمن سلامته حتى يمكنه في لحظة انتصـارنا

أن يتولى القيادة.

هو إذن كان يريد ويصمم أن يشاركنا المسئولية والمخاطرة ولـم يبخـل بشيء ، لكننا وعن عمد قررنا أن ندخره بعيداً عن المخاطرة ، وكنا على حـق في ذلك ، ثم إنه كان الوجه الذي قدم للعالم وللشعب المصري كقائـد للحركـة العسكرية التي استولت على الحكم في البلاد ، وتحمـل المسـئولية العسـكرية والسياسية أمام الجميع، وأي تراجع أو نكسة ليوليو في أيامها الأولى أو ساعاتها الأولى كان سيضع على عاتق نجيب المسئولية الأولى التي لا مجـال للـتخلص منها ، خاصة وأن صحف يوم ٢٤ يوليو قد صدرت بعنـاوين كبيـرة تقـول : محمد نجيب يقوم بحركة عسكرية"[٢٠].

عموماً ، وفي نهاية القرن صار المشهد السياسي والثقافي مسمماً بأضـعاف ما كان عليه في بداية القرن ، وصار الاتهام بالخيانة يسري في المجتمع بسهولة شديدة كالتي روى بها محمود أمين العالم ذكرياته لسليمان الحكيم ، الـذي نقـل عنه في قصة خلافه مع السادات أنه عندما اعتقل في العام ١٩٧١ كانت التهمـة الموجهة لي هي الخيانة العظمى ، وفي الدفاع عـن نفسـي اتهمـت السـادات بالخيانة العظمى لأفكار ومبادئ الثورة .. وبدلاً من أن أكـون متهمـاً حولـت السادات إلى متهم[٢١].

إنها حالة غير عادية من تزوير أو تشويه تاريخ مصر !.

ولخطورة الأمر ، 'يقسم الدكتور عبد العظيم رمضان الـذين يـزورون تاريخ مصر إلى ثلاث فئات : فئة تـزوره عمـداً ؛ لأن لهـم مصـلحة فـي تزويره[٢٢]، وفئة تزوره جهلاً ؛ لأن معلوماتهم التاريخية قاصـرة عـن كتابـة التاريخ الصحيح ، أما الفئة الثالثة ، فهي فئة الذين اشتركوا في صنع الأحداث ، ويقدمون رؤيتهم للحدث التاريخي ، دون أن يحيطوا بكل الرؤى الأخرى الغائبة عنهم ، والتي يعرفها المؤرخ في تحقيقه للحدث التاريخي[٢٣].

ونحن نرى أن هذا التقسيم لا يغطي كل حالات تشويه تـاريخ مصـر الحـديث والمعاصر ، وذلك:

١- لأنه ليس تقسيماً جامعاً مانعاً ، فعلى سبيل المثال لا تنطبق عليه التشـوهات التي سببها بعض رواد التحرر الوطني فيما سقناه في المقدمة ، فلم يكن تقيـيمهم السالب - أو تجريحهم - لكفاح من سبقهم عن جهل أو قصر نظر ، ومـا كـان تعمدهم هذا النقد الجارح إلا اختلافاً في الشكل دون الجوهر ، وفـي الأسـلوب

دون الهدف ؛ حرية الوطن.

ونمثل بموقف مصطفى كامل وكرد فعل عكسي لهزيمة العرابيين ، فقد برزت في كفاحه سمتان ؛ أولاهما ألا يستعمل الجيش مطلقاً في حركته ، بل يجعل اعتماده على الرأي العام الذي يمكن تنميته بالتربية الوطنية والأخلاقية للشعب ، حتى يتكون منه قوة تكون ركيزة للحركة الوطنية . وفي هذا الصدد يقول :" .. من الحكمة ألا نمكن العدو من رقابنا ، .. وإني أود ألا يدخل الضباط في حركتنا السياسية دخولا ظاهراً ، لأن هذا يضر بالمسألة المصرية ضرراً بليغاً ، حيث يجد الاحتلال مسوغاً لخلق التهم الثورية بمصر ، وغير ذلك مما لا يخفى عليكم ".

أما الثانية فهي عدم معاداة الخديو حتى لا تنقسم الأمة ، كما حدث بين العرابيين والخديو توفيق ، ويضطر الخديو لكي ينقذ عرشه للانضمام للقوى الأجنبية ضد الوطنيين ، فتفسد حركة الدعوة إلى الاستقلال ويستفيد الإنجليز من ذلك ويحققوا أغراضهم الاستعمارية باستمرار احتلالهم للبلاد[٢٤].

٢- يغفل التقسيم – أيضاً – التشويه غير المباشر الناشئ عن ضغوط خارجية ، وعلى سبيل المثال 'يرجع محمد حسنين هيكل الحملات المستعرة ضد جمال عبد الناصر إلى مخططات قوى السيطرة العالمية بشكل عام ، وإلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بشكل خاص ، وهو يؤكد أن ذلك لم يكن تخميناً ولا رجماً بالغيب ، وإنما كان استناداً إلى حقائق معروفة أكدتها ملفات هذه الوكالة التي كانت مفتوحة لمن يقرأ ويفهم ويستوعب ، وكان ذلك بفضل لجنة التحقيق الخاصة التي أشرف عليها السناتور تشرش عضو مجلس الشيوخ الأمريكي ، وقد شكلت لبحث تجاوزات هذه الوكالة وجرائمها التي كان الزعيم الهندي جواهر لال نهرو يشير إليها دائما بقوله " إنها القوة الشريرة الملعونة في زماننا المعاصر ". ولم تكن الملفات قد فتحت بعد ، ولم يكن قد ثبت يقيناً أن هذه الوكالة كانت حرباً لا هوادة فيها ضد زعماء الثورة الوطنية المعادية للاستعمار وقيادات التقدم في العالم الثالث عموماً : بعضهم حاولت اغتياله مادياً وبعضهم حاولت اغتياله معنوياً ، ونجحت في مرات ولم تنجح في مرات أخرى :

- حاولت هذه الوكالة ونجحت في الاغتيال المادي – بالقتل – بالنسبة "أللليندي" في "شيلي" و"لومومبا" في "الكونجو" وحاولت هذه الوكالة ولم تنجح في الاغتيال المادي – بالقتل – بالنسبة "لكاسترو" في "كوبا" و"مكاريوس" في "قبرص".

• وحاولت هذه الوكالة ونجحت في الاغتيال المعنوي – بالتشويه – بالنسبة لـــ "سوكارنو" في "أندونيسيا" و"نكروما" في "غانا"، وحاولت هذه الوكالة ولم تـنجح في الاغتيال المعنوي – بالتشويه – بالنسبة لــ "شوين لاى" في "الصين" و"أنديرا غاندي" في "الهند".

وفيما يتعلق بعبد الناصر ، يذكر هيكل أن وكالة المخـابرات المركزيـة الأمريكية حاولت ثلاث مرات في أواخر الخمسينيات اغتيال جمال عبد الناصر. وقد رتبت المخابرات الأمريكية فعلاً ثلاث فرق للاغتيال تقوم بهـذه المهمـة ، ولكنها لم تنجح ، فقد قبض على إحداها ، وعجزت الأخرى عن تنفيذ المهمـة ، كما أن الثالثة وهي مكونة من عرب في خدمة المخابرات الأمريكية لم تبلغ عما حدث لها بعد أن وصلت فعلاً إلى مصر[٢٥].

وطبقاً لتحقيقات اللجنة المذكورة – يضيف هيكل – يتحدث التقرير في جـزء منه عن الأساليب التي اتخذتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في مجـال توجيه الرأي العام في العالم منذ بدلت نشاطها أثناء الحرب العالمية الثانية تحت اسم " وكالة الخدمات الخاصة " ، ثم تحولت بعد ذلك بقانون أصـدره الـرئيس الأسبق " هارى ترومان " إلى " وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ".

ويرسم التقرير صورة عجيبة لنواحي النشاط التي لجأت إليهـا المخـابرات المركزية الأمريكية في مجالات الصحافة والنشر والإعلام بصفة عامـة لكـي تضمن تحقيق أغراضها :

• من ذلك مثلاً أن الوكالة أنشأت من وراء الستار دوراً صحفية في عديد مـن بلدان العالم الثالث ، وكان تمويل هذه الدور كله من مصادر الوكالة ، كمـا أن هناك دوراً أخرى ساعدت الوكالة على إنشائها ولم تطلب من أصـحابها شـيئاً محدداً بالذات ، ولكن مجرد ربط مصالحهم بالوكالة حقق " تكييف" اتجاهـاتهم مع أغراض هذه الوكالة ، على حد تعبير نص التقرير.

• وأنشأت الوكالة أو ساعدت على إنشاء وكالات أنباء وصـور نشـطت وراء جمع الأخبار والصور بطريقة عادية ، ولكنها التوت قليلاً بالنشـر بمـا يكفـل إعطاء انطباعات معينة تريدها الوكالة ، أو تلاعبت بنقط التركيز فيمـا تنشـره وتوزعه لكي تؤكد هذه الانطباعات.

• وأنشأت الوكالة قسماً خاصاً لتزييف الكتب ، ويشير التقرير إلـى أن الكتـاب الذي روجت له الدعايات تحت عنوان " أوراق نبكوفسكي " والذي قيل في ذلك

الوقت إنه اعترافات جاسوس للاتحاد السوفيتي يكشف فيها أسرار ودخائل النظام السوفيتي ، إنما هو في واقع الأمر من صنع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وتأليفها.

• ثم أنشأت الوكالة قسماً للتشويه الإخباري Misinformation كانت مهمته صنع قصص إخبارية تخترع بالتلفيق (!) حكايات يكون من شأن إذاعتها تشويه حقائق معينة أو تشويه سمعة أشخاص بعينهم يتصدون للسياسة الأمريكية أو يعارضون مقاصدها(٢٦).

١- هناك ما أغفله التقسيم ، وما أشار إليه الدكتور وحيد رأفت - القانوني المعروف - كسبب لتشويه تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وتشويه رواده، وهو النفاق ، أو ركوب الموجة ، أو الأكل على كل الموائد. وهي حالة إنسانية تزداد بالقرب من ذوي السلطة ، لذا فبعد الحملة المسعورة على جمال عبد الناصر ، ليصل الأمر إلى ذمته المالية ، أكد محمد حسنين هيكل - دفاعاً عن عبد الناصر ضد الحملة المعروفة المصدر والاتجاه - على تأكيد السادات أنه كان مشتركاً مع جمال عبد الناصر في "رسم كل سياسة واتخاذ كل قرار"، واعتبر السادات مسئولاً بالممارسة ، أو كان مسئولا بالصمت. كما أشار إلى أن الأمور تطورت بعد ذلك كثيراً ، وتجاوزت هذا الحد الذي بدا له سنة ١٩٧٥(٢٧). ونحن نرى أن ما لم يتم في هذه الحملة المسعورة عن طريق التوجيه ، إنما تم بطريق النفاق.

٢- هناك -خارج تقسيم الدكتور عبد العظيم رمضان- البحث عن دور أو ادعاء البطولة ، وهي حالة أشار إليها هيكل فيما يتعلق بجمال عبد الناصر؛ فالروايات كثيرة ، بعض أصحابها يبحث لنفسه عن تاريخ في الماضي ، وبعضهم يبحث عن دور في الحاضر. ويضيف : " ثم إن الروايات كلها قادمة من النسيان ، وإلى النسيان تذهب. الاختلاق واضح في كثير منها ، حتى أن بعض الذين قابلوا جمال عبد الناصر لدقائق ينسبون إليه - بخيالهم - أحاديث تستغرق أياماً بعد أيام. والروايات معظمها مختلط متضارب. بل أكثر من ذلك، فلو صدق الناس كل ما يروى لكان تصديقهم شهادة لجمال عبد الناصر وليس شهادة عليه. فإذا كانت كل هذه الروايات تمثل " عقول " هؤلاء جميعاً ، إذن فلقد كان الرجل فعلاً معجزة زمانه . إذ كيف تسنى له أن يحقق كل ما حقق ومثل هؤلاء جميعاً من حوله ؟!"(٢٨).

ومن جانبنا نضرب مثالاً على إدعاء البطولة بالكتاب الذي أصدره كـل من اللواء مصطفى عبد المجيد نصير ، واللواء عبد الحميد كفافي ، واللواء سعد عبد الحفيظ ، والسفير جمال منصور ، والذي قدم لـه الـدكتور عبـد العظـيم رمضان بقوله :" يعد هذا الكتاب من أخطر الوثائق التي صـدرت عـن ثـورة يوليو، وهو كفيل بتغيير الصورة التي رسمت لهذه الثورة ولصناعها ولأحـداثها التي رسخت في أذهان الشعب المصري ووصلت إلى مرتبة الحقـائق الثابتـة". وقوله :" ولم أتدخل في الوثيقة بأي شكل من الأشكال ، بل تركتها كمـا كتبهـا أصحابها حفاظاً على الحيدة التاريخية ، ولأدع للقارئ الكريم حرية الحكم ، مـع اقتناعي الشخصي بكل ما ورد في الوثيقة"[٢٩].

وأهم الحقائق التي ساقها الكتاب – من وجهة نظر أصحابه ومقدمه – عن ثورة يوليو هي :

أولاً : أن اللجنة التأسيسية لتنظيم ضباط الجيش المكونة من : عبد الحميد كفافي، ومصطفى نصير ، وجمال منصور ، وسعد عبد الحفيظ (من سـلاح الفرسـان) هي التي قامت منذ عام ١٩٤٥ ببناء القاعدة الثورية في الجيش .

ثانياً : أن " اللجنة التأسيسية لتنظيم الجيش " هي التي أطلقـت اسـم " الضـباط الأحرار " على الحركة الثورية في الجيش وذلك في أكتـوبر ١٩٥٠ ، حينمـا انضمت مع مجموعة جمال عبد الناصر وخالد محي الدين .

ثالثاً : أن مجموعة جمال عبد الناصر وخالد محي الدين ، لم يكن لهـا رصـيد سابق في العمل الثوري المنظم حتى نهاية عـام ١٩٤٩، وأن هـذه المجموعـة حينما اندمجت مع مجموعتنا (اللجنة التأسيسية لتنظيم ضباط الجيش) في عـام ١٩٥٠ استندت إلى القاعدة الثورية التي بنتها مجموعتنا منذ عام ١٩٤٥.

رابعاً : أخفت مجموعة عبـد الناصر وخـالد محـي الـدين عـن مجموعـة الفـرسان(نصير ، وكفافي ، وجمال منصور، وسعد عبد الحفيظ) موعد قيـام الثورة ، وكان ذلك بنية مبيتة مع سبق الإصرار.

ونحن ندفع " الحقيقة " التي ذكرها جمال منصور ورفاقه بحقيقـة أخـرى ، أو ندفع ادعاءهم بادعاء آخر. يذكر أنور السادات أنه " أسس أول تنظيم سري مـن الضباط وكان ذلك في ١٩٣٩ .. كان ضمن أعضائه عبد المنعم عبد الـرؤوف وكان يعتبر الرجل الثاني بعدي .. وعبد اللطيف بغدادي وحسن إبراهيم وخالـد محي الدين وأحمد سعودي حسين الله يرحمه .. وحسن عزت والمشـير أحمـد

إسماعيل .. الذي كان يحضر اجتماعاتنا دون مشاركة سياسية فقد كان يرحمه الله رجل عسكرية كرس حياته لعمله وتخصصه.

لم ألجأ إلى الخلايا السرية للدفع بهذه الثورة المسلحة لبلوغ أهدافها كما فعل عبد الناصر بعد عودته من السودان في ديسمبر سنة ١٩٤٢ وتسلمه التنظيم في أوائل سنة ١٩٤٣ بعد اعتقالي في صيف ١٩٤٢ ففي تلك السنة كان خط هتلر قد بدأ في الانكسار وبالتالي استعاد الإنجليز قوتهم في مصر ، فكان على عبد الناصر أن يخطط للمستقبل "[٣٠].

أيضا – وفي مكان آخر – يقول أنور السادات:" وصدرت النشرة العسكرية بعودتي إلى القوات المسلحة اعتباراً من ١٥ يناير ١٩٥٠ برتبة يوزباشي – وهي الرتبة التي خرجت بها– وكان زملائي في الجيش قد سبقوني في ذلك الوقت برتبتين .. رتبة صاغ ورتبة بكباشي.

كان أول من زارني مهنئاً جمال عبد الناصر ومعه عبد الحكيم عامر .. علمت من عبد الناصر أن تنظيم الضباط الأحرار قد أصبح أوسع انتشاراً ، وأن قوته ، تشتد يوماً بعد يوم .. وكأنما أراد أن يثبت لي مدى قوة التنظيم أو أن يختبر هذه القوة ، طلب مني أن أتقدم لامتحانات الترقية بحيث أستعيد ما فقدت من رتب وأنا خارج الجيش ، وأن لا أهتم بالصعاب التي سوف تواجهني .. فمهما كان شأنها سيذللها التنظيم ويتخطاها .. وفعلا تم هذا .. وحصلت على رتبة بكباشي في وقت قصير.. طلب مني عبد الناصر أن لا أقوم بأي نشاط سياسي واضح.. لأني بسبب تاريخي النضالي لابد أن أكون بطبيعة الحال مراقباً، ولو أن هذا لم يمنع جمال من أن يكشف لي عن خريطة الضباط الأحرار في وحدات الجيش المختلفة، فكنت أزورهم وأتبادل الحديث معهم ولكنها كانت جميعاً أحاديث ودية لا علاقة لها بالسياسة .. فلم يكن من المفروض في التنظيم أن أكشف لهم عن نفسي ، أو أن أشعرهم أنني أعرف أنهم ينتمون إلى الضباط الأحرار.

كانت هذه قاعدة أساسية أرساها عبد الناصر يوم تسلمه التنظيم من بعدي عندما قبضوا علي في صيف ١٩٤٢، وهي أن يظل تشكيل كل خلية سراً لا يعرفه إلا أعضاؤها"[٣١].

من ناحية ثانية ، فإننا نعتد بشهادة خالد محي الدين الذي يقرر ويكرر أنه كانت هناك مجموعات منظمة في الجيش قبل " الضباط الأحرار" ولكنها

كانت شيئاً آخر غير" الضباط الأحرار" . ومن هذه المجموعات مجموعة " جمال منصور" ، ومجموعة " الحرس الحديدي " ومجموعة " أنور السادات " . وفيما يتعلق بانضمام مجموعة جمال منصور إلى الضباط الأحرار ، يذكر خالد محي الدين :" أنهم طلبوا الانضمام كمجموعة ، بينما أصر عبد الناصر – وكان على حق – في عدم قبول أية انضمامات جماعية ، وأن كل من ينضم إلى " الضباط الأحرار " يجب أن ينضم فردياً[٣٢].. وبعد أن انضموا إلينا ، لعب جمال منصور دوراً هاماً ، ولم أزل أذكر له أنه هو الذي اختار اسم " الضباط الأحرار "، وهو الذي رتب عملية شراء " الرونيو " الذي طبعنا عليه منشوراتنا، وكان صاحب العلاقة مع " شوقي عزيز " الذي كتب لنا على الآلة أول منشوراتنا وهيأ مكان طباعتها.. لكنه بعد انضمامه إلى التنظيم بدأ في إثارة القلاقل والمشاكل ، وأكثر هو وزملاؤه من الانتقاد لكل شيء ، بالحق وبالباطل، وطالبوا بمعرفة أسماء " القيادة " وتحولوا إلى مشكلة حقيقية في التنظيم ، فلما رفضنا الانصياع إلى مطالبتهم بمعرفة أسماء " القيادة " تباعدوا عنا[٣٣].

هكذا يتضح من انضم إلى من ! ومن الذي وضع شروط الانضمام . من ناحية ثالثة ، وبالالتفات إلى إشارة خالد محي الدين السابقة عن أسباب ابتعاد مجموعة " جمال منصور " فإن قائمة المجموعة المذكورة ، والتي نشرت كوثيقة في كتاب "ثورة يوليو والحقيقة الغائبة " ، لم تضم من لجنة القيادة[٣٤]. التي قادت ثورة يوليو إلا خالد محي الدين ، وإذا كانت القائمة قد أرجعت انضمام خالد محي الدين إلى تنظيم جمال منصور في الفترة من ١٩٥٠-١٩٥٢ ، فإن خالد محي الدين يقرر أن التقاءه بجمال عبد الناصر – عن طريق عبد المنعم عبد الرؤوف – إنما كان في نهاية عام ١٩٤٤[٣٥].

من ناحية رابعة ، فإن رئاسة جمال عبد الناصر لتنظيم "الضباط الأحرار" من البداية أمر يؤكده خالد محي الدين[٣٦]، كما يؤكده أنور السادات لولده (جمال) إذ يقول تحت عنوان (جمال عقل الثورة):" أما الاعتبار الأول يا بني فهو أن عمك جمال هو عقل الثورة ومدبرها ورائدها.. بمعنى أنه إلى هذه اللحظة – مثلا –بعد مضي عدة سنوات على قيام الثورة ، فإن أحدا منا نحن الذين كنا في مجلس قيادة الثورة لا يعلم بالضبط عدد الضباط الأحرار، ومن هم الذين خرجوا يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢؟ ومن هم الذين لم يخرجوا ؟ إلا فرداً واحداً هو عمك جمال. وما زلنا بين الحين والآخر نسمع أسماء ضباط ولا نعرفهم ، فيقول عمك جمال أن فلاناً هذا خرج يوم ٢٣ يوليو وكان يقود الوحدة الفلانية.

ولكن عمك جمال - والشيء بالشيء يذكر - يرفض إلى يومنا هذا ، وسيظل يرفض ، أن يصرح بأسماء بعض الضباط ممن خانتهم أعصابهم في اللحظة الأخيرة فلم يشتركوا في الثورة ساعة قيامها إيماناً منه بالمبادئ التي جعلت من ثورة ٢٣ يوليو عملاً مجيداً ، ونهجاً مستقيماً يقوم على الحق ويتمسك بالمبادئ[٣٧].

ومما سبق يتضح الأصل من الفرع ، ومن يمكن الالتفاف حوله ومن يمكن تجاهله ، ويتضح - أيضا- مبالغة دكتور عبد العظيم رمضان ، إن لم نقل تحيزه، فغياب مجموعة جمال منصور لم تؤثر في كثير أو قليل في ثورة يوليو، وما نشرته من وثائق لم يغير في كثير أو قليل من " الصورة التي رسمت لهذه الثورة ولصناعها ولأحداثها".

٥- يغفل تقسيم عبد العظيم رمضان تناقض المواقف الشخصية ، أو الانقلاب الشخصي ، وهو أمر تتداخل لحدوثه عوامل كثيرة ، قد يكون منها النفاق ، وقد يكون تغير الجو السياسي ، وقد يكون عودة الوعي . وأياً كان السبب ، فإن هذه "الردة" تمثل تشويهاً للتاريخ ، ونضرب مثلاً عليها بكتاب "عودة الوعي" لتوفيق الحكيم ، وهو الكتاب الذي أثار عاصفة من الأفعال وردود الأفعال في جميع المعسكرات السياسية المتصارعة في مصر وفي العالم العربي. خاصة وأن توفيق الحكيم كان أباً روحياً لثورة يوليو ، وبالذات في الفترة التي تولى فيها عبد الناصر مقاليد الحكم . فتوفيق الحكيم هو القائل عن عبد الناصر :" إنه قرأني وتأثر بي إلى حد وصفته بعض الكتب الأجنبية بأنه تلميذ أفكاري ، وكان من مصلحتي الشخصية - إذن - أن أستغل هذه الصفة وأضخمها بتضخيم منجزاته ". لكن توفيق الحكيم هو القائل أيضا : " إن الاشتراكية التي تحققت كانت هزيلة " ولذلك ما إن صدر الكتاب حتى سارعت قوى اليمين واليسار إلى تحديد موقف من الكتاب وكاتبه . وبين ترحيب اليمين وتهليله ، لما حوى الكتاب من نقد للتجربة الناصرية ، وبين ضيق اليسار وردود فعله الغاضبة ، اهتم الحكيم اهتماماً خاصاً بحركة اليسار ، وشرع يبين أنه بعمله الذي قدمه ، لم يكن يحمل الماء إلى طاحونة اليمين . ثم زاد على ذلك بأن بادر إلى فتح الحوار مع اليسار ، حين وجه على صفحات روز اليوسف - في ١٩٧٤/١٠/٢١ - رسالته المشهورة " من توفيق الحكيم إلى اليسار المصري " ، ونشر الرسالة تحت عنوان " لم أنقد لحساب الماضي ، وإنما لحساب المستقبل "[٣٨].

وكما غير توفيق الحكيم في أقواله - لا نعرف لحساب من!- فقد غير

السادات في أقواله لحساب نفسه ، ففي حديثه إلى ولده عن شخصية عمه " جمال " قال له :" فقد ذكرت في الفصول السابقة أن الهيئة التأسيسية وافقت قبل قيام الثورة على تعيين قائد مسن للثورة من خارج الهيئة إلا واحداً عارض في هذه الخطوة هو أبوك الذي يكتب لك هذه السطور ، وقلت أيضا إنه كان هناك ثلاثة مرشحون اختير منهم محمد نجيب ، وبعد أن صدر هذا القرار أذكر إنني اجتمعت على انفراد بعمك جمال في شقته بكوبري القبة ، وأخذت أتناقش معه وأبدي له تخوفي الشديد من تسلم رجل غريب لقيادة الثورة التي لم تبدأ بعد ، وكان محور خوفي أن الرجل بحكم سنه وعقليته وجيله الذي نشأ فيه لن يستطيع أن يفهم العمل الثوري ولا يرجى منه بعد هذه السن أن يعيش بعقلية غير عقليته، مما يشكل خطراً جسيماً على الثورة خصوصاً عند البدء.

وأذكر أنه بان على عمك جمال أنه اقتنع ، وأخذ ينفث دخان سيجارته على عادته حين يكون مستغرقاً في التفكير ، ثم لم يلبث أن قطع الصمت قائلاً: " يجب أن تحسب حساب النفس البشرية.. " ولم أفهم أول الأمر، ولكن عمك جمال لم يلبث أن استطرد قائلاً : " نحن جميعاً في الهيئة التأسيسية زملاء وفي سن واحدة ورتبنا تكاد تكون واحدة ، والذي جمعنا في هذا العمل هو الصداقة أولا ثم الأخوة والمحبة اللتان ولدتا الثقة بدليل أننا نتآمر ليل نهار ولا يحس بنا أحد ، وأخشى ما أخشاه أننا إذا جعلنا قيادة الثورة فينا أن يفتح هذا الأمر ثغرة في نفس واحد منا ونحن بشر ، والنفس البشرية مليئة بالانفعالات ، وأنا لا أريد أن يكون مستقبل الوطن معلقاً على الانفعالات ، بل أريد أن أفرض احتمالاً واحداً في الألف فيه شك من انفعال في نفس أي واحد فينا لأن المسئولية مسئولية مستقبل شعب ، وبالثقة والمحبة نستطيع أن نحقق المستحيل ".

وهكذا وضع عمك جمال شعار المثل العليا موضع التنفيذ من قبل أن تبدأ الثورة يا بني"(٣٩).

بعدها ، وبعدما تمحور السادات حول ذاته في" البحث عن الذات " كان رأيه في جمال عبد الناصر ما يلي :" فلم يكن من السهل أن تزول الغشاوة عن عيني عبد الناصر .. وداخله مليء بتناقضات لا يعلمها إلا الله .. يحتم علي واجبي كصديق أن لا أكشفها أو أفصح عنها .. ولكنها كانت موجودة .. عبد الناصر مات دون أن يستمتع بحياته كما يستمتع الآخرون .. فقد قضاها كلها بين انفعال وانفعال .. القلق يأكله أكلاً فقد كان يفترض الشك في كل إنسان مسبقاً .. وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا أن خلف عبد الناصر وراءه تركة

رهيبة من الحقد سواء بين زملائه أقرب الناس إليه ، أو داخل البلد نفسها بجميع طبقاتها .."[٤٠].

قبلها ، وتحت عنوان " الحبيب العائد " تغزّل أنور السادات في جمال عبد الناصر أمام ولده :" وجمال يارب من صنعك الرائع ، وإبداعك القاهر ، إنه عبدك المؤمن بك ، المتوكل عليك ، المسير بإلهامك ، الباعث في شعبه وقومه رسالة الحق والعزة والسلام. ولقد نصرتنا به يارب في مواطن كثيرة.. نصرتنا به يوم أن ضاقت علينا أرضنا، وحبس الملك الخليع هو وشركاؤه علينا أنفاسنا ، فشاءت قدرتك أن ينتصر الشعب ، وأن يملي إرادته كفاحاً ونضالاً وخلقاً وابتكاراً وتضحية وفداء وصلابة وإصراراً من خلال جمال ، وعلى يد جمال وبيقين منك يارب وهبته لجمال "[٤١].

الطريف أن خالد محي الدين يذكر أن " لجنة القيادة " عقدت اجتماعاً بمنزل كمال الدين حسين بمنشية البكري لنجري انتخابات الرئيس .. جميعاً منحنا صوتنا لجمال عبد الناصر إلا أنور السادات ، كان غائباً وفوض عبد الحكيم عامر في الإدلاء بصوته ، وطلب منه التصويت لحسن إبراهيم قائلاً : إذا كنا نشكو من سيطرة جمال عبد الناصر فلننتخب شخصاً لا يستطيع السيطرة علينا ويمكننا أن نتحكم فيه ، وطلب منه التصويت باسمه لحسن إبراهيم . والغريب أن حسن إبراهيم نفسه كان قد منح صوته لجمال عبد الناصر[٤٢].

٣- يغفل تقسيم عبد العظيم رمضان التحيز ، وهو أكبر آفة تصيب من يتصدى للتأريخ ، وتشوه التاريخ . ولانتشار الظاهرة مظاهر كثيرة ، فقد لاحظ "طارق البشري " في سماعه التعقيبات على كتابه " الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥-١٩٥٢" أن من كان ضد الوفد وصفه بالوفدية ، ومن كان ضد مصر الفتاة وضعه بينهم ، ومن كان ضد الشيوعيين صنفه فيهم "[٤٣].

وتذكر "سهير إسكندر " في دراستها عن "الصحافة المصرية والقضايا الوطنية ١٩٤٦-١٩٥٢" أن رؤية جريدة أخبار اليوم السياسية – على سبيل المثال – يمكن تبريرها بشكل عام ، في صدد عدائها للوفد ، فكانت تعاديه إن أخطأ وإن أصاب[٤٤]. وعلى الجانب الآخر ، فإن جرائد الوفد كالت للأحرار الدستوريين- مثلا- الأوصاف التالية :" المنشقون .. المتعجلون .. دعاة التردد والهزيمة.. أنصار ملنر في خديعة مصر وتضليلها .. أعوان عدلي في صدع الوحدة وشق الصفوف .. أذناب ثروت في خرق الإجماع والخروج

على الأمة والتنكيل بأبنائها .. الأحرار الوصوليون .."[٤٥].

ولا يخفي مصطفى بهجت بدوي " إنني كلما ذكر اسمي أمـام أنـاس لا أعرفهم معرفة شخصية ولا يعرفونني تصايحوا : هو " ناصري " ! هو "بتـاع عبد الناصر " ! وأبتسم فلا أنا ناصري ولا أنا (بتاعه) ، ولا حتى التقيـت بـه عمري في لقاء خاص ، ولا دخلت بيته أبدا أو مكتبه ، رغم أنه كـان يعرفنـي سماعاً ، ويعينني رئيساً لتحرير الجمهورية سنة ١٩٦٥ سماعاً أيضاً"[٤٦].

وحتى في المواقف الثابتة – مثل إنجازات ثورة يوليـو – فقـد ذهـب البعض إلى أن السادات أحيا مواتها[٤٧] في حين ذهب البعض الآخر إلى أنـه – أي السادات – وراها التراب[٤٨] في حين يـرى رأي ثالـث أن مرحلـة عبـد الناصر كانت مرحلة قهر سياسي وديمقراطية اجتماعيـة ، ومرحلـة السـادات كانت مرحلة قهر سياسي واجتماعي[٤٩].

وحتى في المواقف المصيرية – مثل هزيمة يونيـو ١٩٦٧ – تختلـف الآراء ويظهر التحزب . فشيعة عبد الناصر يبرئونه مـن الشـبهات ، ويلقـون بالمسئولية في وجه المشير عبد الحكيم عامر بصفته المسئول الأول عن القـوات المسلحة ، وأتباع المشير يقولون أن رجلهم كان مظلوماً ، ولم يكن يملـك مـن الأمر شيئاً ، لأن كل الخيوط كانت في يد عبد الناصر[٥٠].

وبعد ، لعلنا ننهي هذه المقدمة ببعض الملاحظات الهامة :

١- التشوه أو التشويه الحادث في تاريخ مصـر الحـديث والمعاصـر كبيـر وخطير، أن نجعل من عمالقة مصر أقزاماً ، أو نجعل من الأقزام عمالقة.

٢- منطلقات هذا التشوه أو التشويه كثيرة ومتعددة ، لكن الأخطر أنها متداخلة.

٣- التحيز (مع) يداري بعض الحقيقة ، لكن أن يتحول إلى تحيز (ضد) فإنـه يهدد بإخفاء كل الحقيقة.

٤- طبيعي أن يدعي كل من يتنـاول تـاريخ مصـر الحـديث المعاصـر الموضوعية، لكن كم من التشويه يرتكب باسم الموضـوعية. فبموضـوعية يصدر الدكتور عبد العظيم رمضان كتاباً يضم مجموعة المقالات التاريخيـة التي نشرها في جريدة الوفد ، رداً على فيلم " ناصر ٥٦" الذي أثار عرضـه –كما يقول – ضجة في الرأي العام العربي والمصري ، وكان هدفه من كتابة هذه المقالات " التصدي للأباطيل التي قدمها هذا الفيلم بمحاولته تصوير قرار

تأميم شركة قناة السويس في صورة عمل بطولي خالد ، وإخفاء الأخطاء القاتلة التي ارتكبها عبد الناصر عند اتخاذ هذا القرار[٥١]. ثم هو يقرر أن الثمن الذي دفعته مصر كان فادحاً نتيجة سوء تقدير عبدالناصر للموقف[٥٢].

وبموضوعية – على الموقف نفسه – يرى محمد حسنين هيكل أن جمال عبدالناصر أجرى حساباته وبنى تقديراته للآثار والعواقب بدقة وبصيرة، وفي الحقيقة – كما يقول هيكل – فقد كانت تلك واحدة من أعظم لحظات حياته[٥٣]، ثم هو يؤكد بأن الصحفي الأمريكي الكبير (ساي سالزبيرجر) عندما كتب كتابه الشهير " آخر العمالقة " واختار جمال عبد الناصر ، في الصف نفسه مع تشرشل وروزفلت وستالين وإيزنهاور وديجول وماوتسي تونج ونهرو وتيتو ، إنما بنى اختياره لجمال عبد الناصر كواحد منهم على أساس إدارته الكاملة لحرب السويس. وأشار سالزبيرجر إلى أن جمال عبد الناصر أدار هذه الحرب على المستوى الوطني والإقليمي والدولي وعلى المستوى العسكري والسياسي والنفسي بكفاءة تستثير الإعجاب في ظروف شديدة التعقيد ، وفي مواجهة توازن قوي متشابك وخطير[٥٤].

وبموضوعية يرصد محمد حسنين هيكل تآكل الطبقة المتوسطة في السنوات الأخيرة ، وبموضوعية يتساءل الدكتور عبد العظيم رمضان : أفلا تعيش هذه الطبقة الوسطى – بأجنحتها الثلاثة – عصرها الذهبي الذي لم تشهده في أي عصر من عصور التاريخ المصري؟ أفلا تكسب من المكاسب ما لم تكسبه في حياتها كلها؟[٥٥].

بل إن ندرة الالتزام والموضوعية في كتابة تاريخ مصر المعاصر[٥٦] قد انتهت إلى غير ما التزمت به ، وإلى غير الموضوعية .. أنظر شهادة أحد شهودها : "وأما ما أثبتته الندوة من أن التاريخ ما زال يمثل أكبر ميادين الصراع بين القوى السياسية المتصارعة في مصر ، فيتمثل في عدد الصقور الذين وفدوا على الندوة لينهشوا في جسد تاريخ مصر المعاصر ، ويشوهوه بسخائم أحقادهم السياسية ، يحرفون وقائع التاريخ ، ويفترون على الزعماء والأبطال ، ويتخذون من الندوة وليمة يفترسون فيها إيجابيات التجربة الليبرالية وإيجابيات التجربة الناصرية على السواء!

نعم فقد أثير في الندوة أن سعد زغلول خائن ! ومصطفى النحاس أهبل ! ولو كان ممثلو التيار المعادي لعبد الناصر موجودين في الندوة لأثاروا ما أثاروه

من أنه حرامي أو أنه عميل إسرائيلي! ولو كان ممثلو التيار المعادي للسادات موجودين لأثاروا قصة أمه الجارية الزنجية " ست البرين " التي أورثته الخصائص والصفات التي دفعته إلى القيام بمبادرة القدس !(٥٧).

٥- يساعد على تشويه التاريخ - فيما يتعلق بالناس - تعميم يقعون فيه ، واتجاه سالب نحو الحاكمين ، عبر عنه أنور السادات متمثلا بحكمة عربية تقول " إن نصف الرعية ضد الحاكم ، هذا إن عدل "(٥٨)، أو هم ينظرون إلى قادتهم إما في صورة شياطين أو في صورة آلهة (٥٩).

٦- لابد أن تشويه صورة رواد التحرر الوطني المصري الحديث يمثل صدمة، خاصة وقد شارك أكثرهم في هذا التشويه ، هذه الصدمة تخف إذا ما انتبهنا إلى شهادة إسماعيل صدقي (باشا) في الزعيم سعد زغلول : "صحيح أنني اختلفت معه ، وصحيح أنه كان للرجل أخطاء - ومن ذا الذي لا يخطئ - وصحيح أنه كانت فيه عيوب ، ولكنها كما يقول الفرنسيون ، العيوب التي تلازم الصفات الكبيرة "(٦٠). ونحن هنا نؤكد - وبشدة - على هذه المقولة ، ونقول إن ما سبق من تجريح عيوب تلازم صفات كبيرة بحق.

لكن رغم هذا التحفظ أو هذا التخفيف ، يبقى الوضع خطيراً ، خاصة مع ما يذهب إليه البعض من أننا لن ننتصر في أي معركة إلا إذا عرفنا تاريخنا(٦١)، فما بالنا وتاريخنا يتشوه أمام أعيننا وبأيدينا ، وما حالنا ورموز الأمة تتساقط - في عيون النشء - كأوراق الخريف ؟. لا حديث - إذن - عن القدوة والاقتداء أو الوطنية والانتماء ، ويالها من خسارة تخسرها الأمة .. بل لا نبالغ كثيراً إذا اعتبرناها " حماقة " ارتكبها - ويرتكبها - الكبار ليقع فيها الصغار . ومع كثرة الشهادات تتوه الحقيقة ، ومع التحيز تميع ، ومع التشويه تضيع.

في وسط هذا كله كان علينا - وصولا إلى الحقيقة ، وتقييماً لدور رواد تحررنا الوطني المصري الحديث - أن نستخدم منهجاً يتفق مع خطورة الوضع، ويناسب الموضوع ، فكان تطبيق المنهج الإحصائي على التاريخ.

وبداية لابد من تحديد بعض المفاهيم ؛ فالتحرر الوطني المصري مقصود به هنا التحرر بكل أشكاله؛ العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتنويرية، في تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، أي من حكم محمد علي حتى نهاية حكم أنور السادات(٦٢).

والإحصاء التاريخي أحد أساليب البحث التي لا يستخدمها المؤرخون كثيراً، وإن استخدموها فبشكل جزئي ، وهو - أي الإحصاء التاريخي- يقـدم للباحـث الدليل حيث لا يوجد لديه دليل ملموس[٦٣].

والعينة التي استخدمها الباحث في بحثه تمثل ثلاثة مستويات :

المستوى الأول :

عبارة عن الطلائع الذين اشتركوا في المسابقة القومية - عـن رواد التحـرر الوطني - التي نظمتها وزارة الشباب (٢٠٠٢/٢٠٠٣) ، وبلـغ عـددهم ٧٥٠ طليعياً تتراوح أعمارهم بين ١٢-١٥سنة . واعتبرناهم إطاراً تجميعيـاً ممـثلاً لفكر العامة ، فهم يمثلون بداية المعرفة مقابل خبرة أسـرهم ومعلمـيهم الـذين اهتموا - لابد - بمسابقة لها عائد مادي ومعنوي.

المستوى الثاني :

عبارة عن مجموعة من طلاب قسم التاريخ بكلية التربية ، جامعة عـين شـمس عددهم ٦٠٠ طالب ممثلين للسنوات الأربع ، وهم يمثلون مرحلة وسـطية مـن الناحية النفسية والمعرفية.

المستوى الثالث :

أعضاء هيئة تدريس ومؤرخون - بلغ عددهم ٦٢ مشـتغلاً بالتـأريخ - يمثلون العلم والخبرة ، ويمثلون - بالتالي - إطاراً مرجعياً يمكـن قيـاس رأي واتجاه الآخرين عليه ، لما يتوفر فيهم من موضوعية مفترضة ، خاصة أولئـك المتخصصون في التاريخ الحديث والمعاصر.

وقد سارت إجراءات البحث على النحو التالي :

وزعنا استمارات تضم قائمة مفتوحة تشمل أسماء ٢٧ مـن الـرواد - اختارهم الطلائع - ''يختار منهم عشر'' مرتبين حسب قيمتهم الريادية عند مـن يوافق على إجراء الاستبيان ، والذي يكون له الحق أيضا في أن يضـيف مـن يشاء من رواد ليسوا ممثلين في القائمة ، وأن يضعهم في الترتيب الذي يريـده، وطالبنا أن يكون هناك تبرير للاختيار الأول.

وفي المعالجة الإحصائية الأولية يعطى للاختيار الأول في كل اسـتمارة ١٠ درجات ، وللثاني ٩ درجات ، وللثالث ٨ درجات .. وهكذا تنازليـاً حتـى

العاشر حيث يحصل على درجة واحدة.

وفي المعالجة الإحصائية الثانية تجمع الدرجات ويرتب الرواد في كل مستوى في رتب الأول فالثاني فالثالث ... وهكذا.

وفي المعالجة الإحصائية الثالثة نقوم بجمع الرتب في المستويين الأول والثاني(*). ونقارنها بالمستوى الثالث الذي يمثل إطاراً مرجعياً ، لنرى مدى اقتراب أو ابتعاد الرأي الشعبي عن الإطار المرجعي.

وفي المعالجة الإحصائية الأخيرة نجمع الرتب في المستويات الثلاث لنصل إلى الرأي العام أو رأي الأغلبية.

وفيما يتعلق بالمستوى الأول فقد كان اختيار الطلائع للرواد اختياراً حراً، مرده إلى الطالب أو ولي أمره أو معلمه ، وقد يكون مرتبطاً بما يوجد - أو لا يوجد - في مكتبة المدرسة من كتب عن رواد التحرر الوطني المصري الحديث ، وقد يتأثر بالمحتوى الدراسي الذي قدم له أثناء سنوات الدراسة ، أو أن الرائد من المحافظة التي ينتمي إليها الطالب.

عموماً - وبعد استبعاد الرئيس محمد حسني مبارك والسيدة حرمه للموضوعية - فقد أسفر إحصاء اختيارات الطلائع ، نتيجةً للتوزيع التكراري ، عن الترتيب التالي:

١- سعد زغلول
٢- مصطفى كامل
٣- جمال عبد الناصر
٤- أحمد عرابي
٥- محمد أنور السادات
٦- محمد فريد
٧- طلعت حرب
٨- رفاعة الطهطاوي
٩- الإمام محمد عبده
١٠- محمد علي
١١- هدى شعراوي
١٢- قاسم أمين
١٣- عباس العقاد
١٤- عمر مكرم
١٥- عبد الرحمن الكواكبي***
١٦- محمد كريم***
١٧- نبوية موسى***
٢٢- سيد درويش*
٢٣-صلاح سالم*
٢٤-عبد المنعم رياض*

(*) حيث يحصل الأول على (٢٧) درجة ، والثاني على (٢٦) درجة ، والثالث على (٢٥) درجة .. وهكذا حتى الأخير (السابع والعشرين) الذي يحصل على درجة واحدة .

١٨-عبد الله النديم**
١٩- محمد نجيب**
٢٠- أمين الرافعي*
٢١-سليمان الحلبي*
٢٥-محمود سامي البارودي*
٢٦-مصطفى النحاس*
٢٧-يوسف صديق*(#)

وفيما يتعلق بالمستوى الثاني ، والذي يضم طلبة الفرق الأربعة بقسم التاريخ بكلية التربية جامعة عين شمس ، فقد عرضنا عليهم القائمة التي أفرزها اختيـار الطلائع (٢٧ رائداً) مرتبين أبجدياً ، ليختاروا منها - بالترتيب -من يرونه أحق بالريادة ، وطلبنا منهم إضافة من يرون من أسماء ، في ترتيبهـا مـن وجهـة نظرهم، قد يكون الطلائع قد أغفلوها . وقد أسفر التوزيع التكراري لاختيـارات الفرق الأربع عن الترتيب التالي:

الترتيب	اختيارات الفرقة الأولى	اختيارات الفرقة الثانية	اختيارات الفرقة الثالثة	اختيارات الفرقة الرابعة
الأول	جمال عبدالناصر	جمال عبدالناصر	جمال عبدالناصر	محمد علي
الثاني	سعد زغلول	محمد أنور السادات	محمد أنور السادات	مصطفى كامل
الثالث	مصطفى كامل	سعد زغلول	محمد علي	محمد أنور السادات
الرابع	محمد أنور السادات	أحمد عرابي	مصطفى كامل	جمال عبد الناصر
الخامس	أحمد عرابي	مصطفى كامل	أحمد عرابي	طلعت حرب
السادس	قاسم أمين	محمد علي	سعد زغلول	سعد زغلول
السابع	رفاعة الطهطاوي	رفاعة الطهطاوي	طلعت حرب	أحمد عرابي
الثامن	محمد علي	طلعت حرب	الإمام محمد عبده	قاسم أمين
التاسع	طلعت حرب	قاسم أمين	رفاعة الطهطاوي	رفاعة الطهطاوي
العاشر	الإمام محمد عبده	الإمام محمد عبده	محمد فريد	الإمام محمد عبده
الحادي عشر	محمد فريد	محمد فريد	قاسم أمين	سليمان الحلبي
الثاني عشر	عباس العقاد	محمد كريم	عبا س العقاد	عباس العقاد
الثالث عشر	عبد الله النديم	عبد الله النديم	محمد نجيب	محمد فريد
الرابع عشر	محمد كريم	عمر مكرم	محمد كريم	عمر مكرم
الخامس عشر	سليمان الحلبي	عباس العقاد	عمر مكرم	محمد كريم
السادس عشر	عمر مكرم	سليمان الحلبي	عبد المنعم رياض	عبد الله النديم
السابع عشر	محمد نجيب	البارودي	سيد درويش	سيد درويش

(#) اتفاق الإشارات دليل على تساوي التكرارات ، ويكون الترتيب هجائياً.

الثامن عشر	محمود سامي البارودي	محمد نجيب	سليمان الحلبي	محمد نجيب
التاسع عشر	هدى شعراوي	عبد المنعم رياض	البارودي	هدى شعراوي
العشرون	سيد درويش	هدى شعراوي	هدى شعراوي	عبد المنعم رياض
الواحد والعشرون	مصطفى النحاس	سيد درويش	عبد الله النديم	نبوية موسى
الثاني والعشرون	نبوية موسى	مصطفى النحاس	نبوية موسى	البارودي
الثالث والعشرون	عبد المنعم رياض	الكواكبي	أمين الرافعي	أمين الرافعي
الرابع والعشرون	صلاح سالم	صلاح سالم	صلاح سالم	صلاح سالم
الخامس والعشرون	الكواكبي	نبوية موسى	مصطفى النحاس	مصطفى النحاس
السادس والعشرون	أمين الرافعي	أمين الرافعي	يوسف صديق	الكواكبي
السابع والعشرون	يوسف صديق	يوسف صديق	الكواكبي	يوسف صديق

وباعتبار الفرق الأربعة تمثل مستوى واحداً ، فقد أفـــرز جمـــع الرتـــب الترتيب التالي :

١- جمال عبد الناصر
٢- محمد أنور السادات
٣- مصطفى كامل
٤- سعد زغلول
٥- محمد على
٦- أحمد عرابي
٧- طلعت حرب
٨- رفاعة الطهطاوي
٩- قاسم أمين
١٠- الإمام محمد عبده
١١- محمد فريد
١٢- عباس العقاد
١٣- محمد كريم
١٤- عمر مكرم
١٥- سليمان الحلبي
١٦- عبد الله النديم
١٧- محمد نجيب
١٨- سيد درويش
١٩- البارودي
٢٠- عبد المنعم رياض
٢١- هدى شعراوي
٢٢- نبوية موسى
٢٣- مصطفى النحاس
٢٤- صلاح سالم
٢٥- أمين الرافعي
٢٦- الكواكبي
٢٧- يوسف صديق

أما المستوى الثالث ، مستوى الأساتذة والمتخصصين فقد كررنا معـــه مـــا فعلناه مع المستوى الثاني ، وأسفر التوزيع التكراري عن الترتيب التالي :

١- جمال عبد الناصر
٢- مصطفى كامل
٣- سعد زغلول
٤- محمد أنور السادات
٥- أحمد عرابي
٦- طلعت حرب
٧- محمد على
٨- رفاعة الطهطاوي
٩- محمد فريد
١٠- الإمام محمد عبده
١١- قاسم أمين
١٢- عباس العقاد
١٣- محمد كريم
١٤- عمر مكرم
١٥- هدى شعراوي
١٦- عبد الله النديم
١٧- سليمان الحلبي
١٨- محمد نجيب
١٩- نبوية موسى
٢٠- سيد درويش
٢١- البارودي
٢٢- عبد المنعم رياض
٢٣- الكواكبي
٢٤- مصطفى النحاس
٢٥- صلاح سالم
٢٦- أمين الرافعي
٢٧- يوسف صديق

وبجمع الرتب في المستويات الثلاثة (الطلائع + طلبة قسم التاريخ بكلية التربية جامعة عين شمس + الأساتذة والمتخصصون) لنفتش عن اتجـاه عـام ، يصبح الترتيب على النحو التالي :

١- جمال عبد الناصر
٢- مصطفى كامل
٣- سعد زغلول
٤- محمد أنور السادات
٥- أحمد عرابي
٦- طلعت حرب
٧- محمد على
٨- رفاعة الطهطاوي
٩- محمد فريد
١٠- الإمام محمد عبده
١١- قاسم أمين
١٢- عباس العقاد
١٣- محمد كريم
١٤- عمر مكرم
١٥- هدى شعراوي
١٦- عبد الله النديم
١٧- سليمان الحلبي
١٨- محمد نجيب
١٩- سيد درويش
٢٠- نبوية موسى
٢١- البارودي
٢٢- عبد المنعم رياض
٢٣- الكواكبي
٢٤- مصطفى النحاس
٢٥- صلاح سالم
٢٦- أمين الرافعي
٢٧- يوسف صديق

ولعله من المناسب قبل أن نسجل بعض الملاحظات على هذا الترتيب ، أن نسجل تبرير اختيار بعض الأساتذة والمتخصصين للرواد العشر الأول من وجهة نظرهم:

١- جمال عبد الناصر :

- إن أحداً لم يحب مصر كما أحبها عبد الناصر.
- أول حاكم مصري منذ زمن الفراعنة يحدث ثورة اجتماعية بيضاء .
- قضى على نظام سياسي اقتصادي اجتماعي رجعي ، وأقام نظامـاً تقـدمياً بديلاً، ولا ينقص من قدره أنه انهزم في معركة عسكرية.
- أكثر زعماء الأمة تجسيداً للشخصية المصرية.
- كان لديه مشروع وطني كبير ، ولم يأخذ شيئاً في المقابـل ، هـذا رغـم أخطائه ومصدرها غياب الديمقراطية.

٢- مصطفى كامل :

- أعطى دون طلب ، وفجر الثورة الوطنية في وقت ماتت فيه الروح الوطنية، فضلا عن استخدامه لوسيلة جديدة لمحاربة المستعمر وهي الصحافة.

٣- سعد زغلول :

- قائد أول ثورة شعبية من أجل التحرر الوطني بعد الحرب العالمية الأولـى ، وقد تمثلت فيه صفات الزعامة الشعبية الحقيقية.

٤- محمد أنور السادات :

- انتشلنا من اليأس للرجاء ومن الظلام للنور بانتصارنا المجيد فـي معركـة أكتوبر المجيدة.
- استرداد التراب المصري بعد حرب أكتوبر المجيدة.
- بطل الحرب والسلام.

٥- أحمد عرابي :

- أول من رفع صوت الشعب وأعلى إرادته في العصر الحديث.
- قاد أول ثورة مصرية صميمة ، ولكن فشلت لأسباب معروفة ، وأدت إلـى

تشكيل تاريخ مصر الحديث.

- أول زعيم مصري يقف أمام الخديو والحكومة ، ويحقق كثيراً من مطالب الجيش والشعب في العصر الحديث.

٧- محمد علي :

- صاحب أول مشروع نهضوي قومي شامل في مختلف النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والعسكرية.
- المؤسس الحقيقي لمصر الحديثة.
- مؤسس مصر الحديثة على كل المستويات.
- مفجر حركة التغيير في العصر الحديث أو تاريخ مصر الحديث.

٨- رفاعة الطهطاوي :

- أول من تعرف على الحضارة الأوروبية ، وفهم معظم جوانبها ، وبذل جهداً متواصلاً لنقل إيجابياتها إلى بلاده.
- رائد الفكر الحديث في العالم العربي ، وأول من أدخل الأفكار والمفاهيم الغربية الحديثة في الفكر العربي ، مع ما تجشمه من جهود كبيرة في تعريب هذه المفاهيم واستيعابها في اللغة العربية.

٩- محمد فريد :

- شخصية لا غبار عليها ، إسهاماته في مجال الفكر والاقتصاد كانت أبرز أثراً، عمل دون دعاية ، وضحى دون مقابل.
- رمز التضحية والفداء.

١٠- الإمام محمد عبده :

- رائد تجديد الفكر الإسلامي.

وكملاحظة - أولى- نجد أن طلعت حرب رغم حصوله على المركز السادس بين رواد التحرر الوطني المصري الحديث ، فإن أياً من أساتذة التاريخ لم يضعه في المركز الأول ، وإلا لوجدنا تبريراً لاختياره ، على أن ذلك يعني من ناحية أخرى أنه كان من أكثر الرواد تكراراً ، وبموقع متقدم في اختياراتهم. وعلى عكس الحال اختير بعض الرواد في مركز أول ولم يحصلوا على ترتيب

عام متقدم بين رواد التحرر الوطني. من ذلك عبد الله النديم الـذي جـاء فـي الترتيب الأول عند اثنين من المؤرخين وبرروا لاختياره بأنه نبت بـين الطبقـة الفقيرة من أبناء الشعب المصري، ثم ترعرع بين أفرادها ، وانطلق إلى الزعامة دون أن ينسى أنه عاش بين أبناء هذه الطبقة ولم ينسها. والتبرير الثاني أنه كان الوحيد من زعماء الثورة العرابية الذي لم يستسلم وظل على مبدئه. وقد تكـرر الوضع نفسه مع كل من قاسم أمين والكواكبي ، وفي تبرير اختيـار الأول أنـه ساعد في رفع الظلم الذي وقع على المرأة في عصـر الاضـمحلال " العصـر التركي " وساهم في التخلص من بعض التقاليد البالية ، وعلى رأسها عدم تعلـيم المرأة . وفي تبرير اختيار الكواكبي قيل أنه حاول كشف الاستبداد فـي الأمـة ومقاومة هذا الاستبداد.

ويلاحظ – ثانياً – أن بعض الأساتذة والمتخصصين قد أضـافوا رواداً إلـى القائمة التي عرضناها عليهم ، هؤلاء الرواد – بترتيبهم الهجائي– هم :

١- أحمد لطفي السيد.

٢- إسماعيل مظهر.

٣- حسن البنا.

٤- حسين المنصوري.

٥- سلامه موسى.

٦- شبلي شميل.

٧- طه حسين.

٨- عباس حلمي " الثاني – الخديو ".

٩- عدلي يكن.

١٠- فرح أنطون.

١١- لويس عوض.

١٢- مصطفى عبد الرازق " الشيخ ".

١٣- ملك حفني ناصف " باحثة البادية".

١٤- مي زيادة.

هذه الاختيارات وإن مثل بعضها استغراباً ، فإنها – على أيـة حـال – لـم تحصل إحصائياً على أي ترتيب ، كما أن أغلبها جاء نتيجة اختيار أَحَدَيْ أقطاب الفكر الماركسي البارزين.

ولأننا حددنا من البداية أن اختيار أساتذة التاريخ والمتخصصين لرواد التحرر الوطني يمثل إطاراً مرجعياً نقيس عليه فكر واتجاه العامة ، فإنه يلاحظ – ثالثاً– وبقياس العام على الخاص توافق في المراكز العشر الأولـى فـي المسـتويات الثلاثة، باستثناء بسيط هو تقهقر مركز محمد فريد لصـالح قاسـم أمـين فـي المستوى الثاني ، وهو أمر قد يفسره زيادة طالبات هذا المستوى عـن البنـين ، كذلك تأخر مركز السادات من الثاني في المستوى الثاني إلى الرابع في المستوى الثالث.

لكن التوافق يتأكد بصورة تقريبية مع مركز كـل مـن جمـال عبـد الناصـر ومصطفى كامل وسعد زغلول في المستويات الثلاثة ، وبصـورة تأكيديـه مـع طلعت حرب، وبصورة مذهلة مع كل من رفاعة رافـع الطهطـاوي ، وعمـر مكرم، وعبد الله النديم في المستويات الأربعة.

يلاحظ – رابعاً – بقياس الخاص على العام تطابق شبه تام بين اختيارات أساتذة التاريخ والمتخصصين وبين الرأي العام في مصر بمسـتوياته الثلاثـة ، وهو ما يؤكد صدق المقياس – الإحصاء – الذي يصل إلـى الموضـوعية مـن خلال الذاتية ، ويصل إلى دليل حين يعز الدليل.

وبناء على الملاحظة السابقة ، وهو ما نعتبره أهم نتيجة لهذا البحـث ، فإن عمالقة مصر لن يصبحوا أقزاماً ، ولن يصبح الأقزام عمالقة . وعلى سبيل المثال فإن دعوة الكاتب والصحفي جمال بدوي لإطلاق اسم مصطفى النحـاس على محطة مترو الأنفاق بالعتبة[٦٤] ، متجاوزاً كل من سبقه مـن رواد – بنـاء على هذه الدراسة – يعتبر تجاوزاً.

كما جانب التوفيق د. عبد العظيم رمضان حينما اعتقد أن "مستشـاري الـرئيس مبارك قد جانبهم التوفيق في إحدى فقرات الخطاب التاريخي الهام الـذي ألقـاه الرئيس يوم ٢٦ أبريل الماضي[٦٥] أمام مجلسي الشـعب والشـورى بمناسـبة استكمال تحرير سيناء. وهي الفقرة التي تحدث فيها الرئيس عن " رعيل القـادة العظام الذين أثروا التجربة المصرية بالفكر والممارسة.

لقد ذكر الرئيس مبارك بالنص أسماء : محمد على ، أحمـد عرابـي ،

مصطفى كامل ، محمد فريد ، سعد زغلول ، جمال عبد الناصر ، أنور السادات، ولم يذكر مصطفى النحاس!"[٦٦]. ودون أن نقلل من دور مصطفى النحاس ، فإن هذه الدراسة " الموضوعية " وليست " الذاتية " أو " الحزبية " تضع هذا الرائد الوطني وتاريخه في مكانه الحقيقي قياساً على الرواد الآخرين[٦٧]. لكننا ننتهز الفرصة لننصف مستشاري الرئيس مبارك ، فإن الرواد الذين جاء ذكرهم في الخطاب المذكور هم غالبية العشر الأوائل الذين صنفتهم هذه الدراسة ، التي نقدمها لهم تدعيماً لما سبق ، ودليلاً لما سيأتي.

ولعل أهم نتيجة تترتب على هذا الجهد أننا لا نعطي – فقط – كل ذي حق حقه، وإنما – في نفس الوقت – نحمي الناشئة من التشويش والتشويه ، ولعل هذه واحدة من أهم القيم الإجرائية لدرس وتدريس التاريخ.

الهوامش

(١) عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٩٣، ص١٣.

(٢) صلاح الشاهد : ذكرياتي في عهدين ، ط٢، دار المعارف ، ١٩٧٦، ص (هـ).

(٣) رغم تحول عرابي – عند البعض – من " بطل للعدالة إلى رمز وطني لمصر " ، وأنه " كان البطل المنشود للتعبير عن إرادة مصر " ، فقد أكد البعض أنه عاش – بعد عودته من المنفى – " شبه غريب في وطنه ". أنظر الكسندر شولش : مصر للمصريين ، أزمة مصر الاجتماعية والسياسية، ١٨٧٨-١٨٨٢، تعريب رءوف عباس ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ١٩٩٩ ، ص١٩٧. وأنظر أيضا ، حسين فوزي النجار : أحمد عرابي .. مصر للمصريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢، ص٩. وأنظر أيضا ، لويس جريس : يوميات من التاريخ المصري الحديث .. "١٧٧٥-١٩٥٢"، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨، ص٢٩٣.

(٤) اللواء ، ٣ أكتوبر ١٩٠١.

(٥) ج٢، ص٦٨١.

(٦) المرجع نفسه والجزء ، ص٦٩٣.

جدير بالذكر أن جريدة المقطم المعروفة بولائها للاحتلال دافعت عن أحمد عرابي ، فقد أشارت إلى أنها استنتجت مما قيل حول عرابي " أنه مكروه مبغوض عند ذوات مصر ومن ينتمي إليهم ، ولكنه لا يزال محبوباً عند السواد الأعظم من الوطنيين ، ولا سيما طلبة العلم والفلاحين" . أنظر جريدة المقطم في ٢ أكتوبر ، ١٩٠١.

(٧) عبد العظيم رمضان : مصطفى كامل في محكمة التاريخ ، ط٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤، ص٨٥.

(٨) نفسه ، ص ص٤٥-٤٦.

(٩) في رسالة أرسلها مصطفى كامل إلى محمد فريد من باريس بتاريخ ١٩ يوليو ١٨٩٨ ، قال :" ما بيننا من الود والإخاء يجعل مالك مالي ، ومالي مالك ، وحياتي حياتك ، وحياتك حياتي ، وهذا ما اعتقده وما تعتقده أنت ، فروحي تناجي روحك بالود والإخلاص في كل لحظة ". أنظر عبد المنعم الجميعي : الخديو عباس الثاني والحزب الوطني ، دار الكتاب الجامعي ، ١٩٨٢، ص٢٤٥.

(١٠)وحيد عبد المجيد : الوطنية والتكفير السياسي" مصر في بداية ونهاية القرن العشرين " ، الأهرام ، ١٩٩٩، ص ١٣٧.

(١١)نفسه ، ص ١٣٧.

(١٢)عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، ص١٤٢.

(١٣)عبد العظيم رمضان : الفكر الثوري في مصر قبل ثورة ٢٣يوليو ، مكتبة مدبولي ، ١٩٨١، ص٩١.

(١٤)عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، ص١٣٧.

(١٥)يذكر أحمد حسين ، زعيم مصر الفتاة ، أنه عندما قابل النحاس باشا في أوائل نوفمبر ١٩٣٣ ، واجهه الأخير بأنه دسيسة ، وأنه لابد أن يكون مدفوعاً من جهة من الجهات للقيام بما يقوم به ، ثم قال له : " لا يوجد في مصر إلا راية واحدة هي راية الوفد ، وكل وطني عامل يجب أن يعمل تحت راية الوفد . فكل حركة ، أو كل عمل من الأعمال لا يكون تحت راية الوفد ، لا يمكن إلا أن يكون دخيلا على الأمة ، ودسيسة من الدسائس .فإذا كنت صادق النوايا وتريد خدمة بلدك ، فعلام إنشاء الجمعيات ، ووضع البرامج ، وإرسال النداءات ؟ وإذا كان كل جندي يخرج على قائده ويؤلف لنفسه جمعية ، ويضع برنامجاً ، إذن تشتتت الجهود ، وعمت البلاد الفوضى ! فإذا كنت تريد أن تكون وطنياً ، فتعال بين إخوانك الشبان في الوفد ، واندمج في صفوفهم ، فالأمة لا ترحم الخوارج". أنظر، عبد العظيم رمضان : قضايا في تاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ص٧٩.

(١٦)عبد العظيم رمضان : الفكر الثوري في مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو ، ص٩١.

(١٧)محمد فريد حشيش : حزب الوفد " ١٩٣٦-١٩٥٢"، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩، ص٢٠.

(١٨)صلاح الشاهد : المرجع السابق ، ص ص ٣٧٢-٣٧٣.

(١٩)يذكر محمد حسنين هيكل أنه ليس هناك دليل مادي يؤكد هذا الإدعاء ضد السادات ، بينما يؤكد عادل حموده الواقعة ، ويضيف "وسواء كان ذلك التصرف براعةً أو كان هروباً ، فإنه تحول إلى نكتة ...فعندما كان أحد يسأل : (هوه السادات فين ؟)كان زملاؤه في مجلس قيادة الثورة يقولون : (في السينما) ". أنظر ، محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، الأهرام ، ١٩٨٨، ص ٧٥. وأنظر أيضا، عادل حموده : النكتة السياسية ، كيف يسخر المصريون من حكامهم ، سفنكس للطباعة والنشر، ١٩٩١، ص٢٢٥.

(٢٠)خالد محي الدين : والآن أتكلم ، الأهرام ، ١٩٩٢، ص ص ١٥٤-١٥٥.

(٢١)وحيد عبد المجيد : المرجع السابق ، ص ١٤٩.

(٢٢)قصَر د . عبد العظيم رمضان من يزورون تاريخ مصر الحديث عمداً على الناصريين ، في حين يرصد البعض تزويراً في تاريخ مصر قبل جمال عبد الناصر والناصريين ، مصدره مؤرخو القصور الملكية وعملاء الاستعمار الذين شوهوا زعماء الثورة العرابية كي يصيبوا الأمة بخيبة أمل في قيمها وزعمائها ، وحتى لا تطلع الأجيال المقبلة على مواقف البطولة خشية أن يشهدوا الخطى ويترسموا الطريق . أنظر عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، ص٧. وأنظر أيضا ، على الحديدي : عبد الله النديم ، أعلام العرب ، العدد ١٢٥، ١٩٨٧، ص٤.

(٢٣)عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، ص ٧.

(٢٤)عبد الرحمن الرافعي : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ط٤، النهضة المصرية ، ١٩٦٤، ص ص٣٧-٣٨. وأنظر أيضا ، عبد المنعم الجميعي : عبد الله النديم ، دار الكتاب الجامعي ، ١٩٨٠، ص ص٢٠٠-٢٠٢.

(٢٥)محمد حسنين هيكل : لمصر لا لعبد الناصر ، الأهرام ، ١٩٨٧، ص٢٣.

جدير بالذكر أن محمد حسنين هيكل نشر في كتابه " سنوات الغليان " وثيقة بتوقيع الأحرف الأولى من اسم السفير (إيفون كيركباتريك) الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية عن المحادثات مع الحكومة الفرنسية – ١٥ نوفمبر ١٩٥٦- حول الحكومات البديلة لمصر بعد سقوط جمال عبد الناصر . أنظر ، محمد حسنين هيكل : سنوات الغليان ، ج١، الأهرام ، ١٩٨٨، ص٨٠١.

(٢٦)محمد حسنين هيكل : لمصر لا لعبد الناصر ، ص ص٢٤-٢٥.

(٢٧)نفسه ، ص٤٢.

(٢٨)نفسه ، ص٢١.

(٢٩)مصطفى عبد المجيد نصير وآخرون : ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص ص٥-٦.

(٣٠)أنور السادات : البحث عن الذات ، المكتب المصري الحديث ، ١٩٧٩، ص٣٠. وأنظر أيضا ، أمال السبكي : التيارات السياسية في مصر " ١٩١٩-١٩٥٢" ، دار المعارف ، ١٩٨٢، ص ص٣٥٦-٣٥٨.

(٣١)أنور السادات : المرجع السابق ، ص ص١١٢-١١٣.

(٣٢)اشترط جمال عبد الناصر الشرط نفسه عند انضمام أعضاء التنظيم الشيوعي (حدتو) إلى تنظيم الضباط الأحرار . أنظر ، خالد محي الدين : المرجع السابق ، ص ٦٨.

(٣٣)نفسه ، ص٢٢١.

(٣٤)وتتألف من : جمال عبد الناصر ، عبد الحكيم عامر ، حسن إبراهيم ، عبد المنعم عبد الرؤوف ، صلاح سالم، عبد اللطيف البغدادي، كمال الدين حسين ، خالد محي الدين ؛ أنظر ، المرجع نفسه : ص ١٠٧.

(٣٥)نفسه ، ص٤٣.

(٣٦)نفسه ، ص ١١١.

(٣٧)أنور السادات : يا ولدي هذا عمك جمال ، دار الهلال ، ١٩٥٨، ص ص ٨٠-٨١.

(٣٨)لطفي الخولي وآخرون : ملف عبد الناصر بين اليسار المصري وتوفيق الحكيم ، دار القضايا ، بيروت ، ١٩٧٥، ص ص٥ -١٩.

(٣٩)أنو السادات : يا ولدي هذا عمك جمال ، ص ص ٥٠-٥١.

(٤٠)أنور السادات : البحث عن الذات ، ص ٩٢.

(٤١)أنور السادات : يا ولدي هذا عمك جمال ، ص١٨٧.

(٤٢)خالد محي الدين : المرجع السابق ، ص١١٣.

(٤٣)طارق البشري : الحركة السياسية في مصر ، ط ٢، دار الشروق ، ١٩٨٣، ص٨.

(٤٤)سهير إسكندر : الصحافة المصرية والقضايا الوطنية "١٩٤٦-١٩٥٢" ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦، ص ٢٧٨.

(٤٥)نجوى كامل : الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية " ١٩١٩-١٩٣٦" ، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦، ص ص٢٣-٢٤.

(٤٦)مصطفى بهجت بدوي : حكايات سبتمبر ٤٢، على هامش عهود فاروق وعبد الناصر والسادات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ص ١٢٤-١٢٥.

(٤٧)رمزي ميخائيل : تاريخ السياسة والصحافة المصرية من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥، ص ٣١٥.

(٤٨)السيد يوسف : مذكرات معتقل سياسي ، صفحة من تاريخ مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩، ص٣٤١.

(٤٩)أحمد فارس عبد المنعم : السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية " ١٨٠٥-١٩٨٧"، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧، ص ص٢٢١-٢٢٢.

(٥٠)جمال بدوي : معارك صحفية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ ، ص ص٣١٦-٣١٧.

(٥١)عبد العظيم رمضان : الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠، ص٥.

(٥٢)نفسه ، ص٣١.

(٥٣)محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، ط٢ ، الأهرام ، ١٩٩٢، ص٤٥٩.

(٥٤)نفسه ، ص٥٦١.

جدير بالذكر أن بعض المحايدين يدعم " موضوعية هيكل " في مواجهة " موضوعية عبد العظيم رمضان " فيحسم الجدل حول الموضوع بقوله : " وهكذا خرج ناصر منتصراً ، محققاً كل ما كان يتمناه ". أنظر ، جايل ماير : الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩، ترجمة عبد الرءوف أحمد عمر ، ١٩٩٩، ص٣٤٩.

(٥٥)عبد العظيم رمضان : هيكل والكهف الناصري ، الهيئة المصرية العامـــة للكتـــاب، ١٩٩٥، ص ص١٢-١٣

(٥٦)نظمها المعهد الهولندي للآثار المصرية والبحوث العربية بالقاهرة ، مع قســم التــاريخ بجامعــة القاهرة، والمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، وقسم الدراسات العربية بجامعة أمستردام.

(٥٧)عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، ص ص ١٣٦-١٣٧.

(٥٨)أنور السادات : البحث عن الذات ، ص١٥٠.

(٥٩)عادل ثابت : عبد الناصر والذين غدروا به ، أخبار اليوم ، ١٩٩٧، ص٦.

(٦٠)إسماعيل صدقي (باشا) : مذكراتي ، مكتبة مدبولي ، ١٩٩١، ص٧٧.

(٦١)محسن محمد : التاريخ السري لمصر ، دار المعارف ، ١٩٧٩، ص٤٣٢.

(٦٢)للموضوعية استبعدنا فترة حكم الرئيس محمد حسني مبارك.

(٦٣)من المشكلات التاريخية التي استخدم الإحصاء لحلها قضية من التاريخ الأمريكي تمثلت في جدال نشأ حول مؤلف ١٢ مقالاً فيدرالياً ، حيث إدعى كل من الكسندر هاميلتون Alexander Hamilton وجيمس ماديسون . James Madison تأليفها ، وكانت المقالات الفيدرالية قد نشـــرت فـــي عـــام ١٧٨٧/ ١٧٨٨ بواسطة هاملتون ، ماديسون وجاى Jay ، وكانت المقالات تصـــدر فـــي صـــحيفة نيويورك تحت إسم مستعار وبغرض حث المواطنين على الموافقة على الدستور ، وقد أصبح لهـــذه المقالات فيما بعد أهمية سياسية كما كانت تعد مصدراً للمعلومات بالإضافة إلى اتخاذهـــا مصـــدراً لتفسير قصد واضعي أو نيتهم الدستور في قضايا معينة.

وقد كان معلوماً مؤلفي هذه المقالات بصورة عامة ولكن دون تخصص ، وبعد وفاة هاميلتون فـــي ١٨٠٧ ، أعلن ماديسون في ١٨١٨ قائمة بمؤلفاته بعد اعتزاله منصب رئاسة الجمهورية، وبعـــدها ظهرت قوائم أخرى بادعاءات معارضة لها . وكان الخلاف حول ١٢ مقالاً: وظل النزاع قائماً حول مؤلف هذه المقالات ماديسون أم هاميلتون وذلك لمدة قرن ونصف . ومن الواضح أن سبب ظهـــور هذه المشكلة هو أن ماديسون وهاملتون لم يسرعا بعرض قوائم مؤلفاتهم حـــين صـــدورها أو بعـــد سنوات قليلة ، وكذا بسبب إعلان ماديسون لقائمته بعد وفاة هاملتون . وقد كانت هنـــاك صـــعوبات كثيرة أدت إلى عدم إمكان تعيين المؤلف الحقيقي لهذه الإثنتي عشرة مقالة . فالمحتوى السياسي لهذه المقالات لم يكف لإعطاء دليل مقنع لترجيح واحد على الآخر ، إذ أنهما في البدايـــة كانـــت لهمـــا اتجاهات مشتركة، ولكن بعد فترة أصبحوا أعداء سياسيين لدودين ، لدرجة أنه في مناسبات متعـــددة كان كلاهما يتخذ موقفاً معارضاً حتى لكتاباته السابقة . وتمت محاولات للتمييز بين طريقتهما فـــي الكتابة ، غير أنها لم تنجح حيث أن طريقتهما في الكتابة كانت متشابهة لدرجة كبيرة ، ففـــي عـــام

١٩٤١ قام عالم الإحصاء موستلر Frederick Mosteller مع ويليـامز Frederick Williams بعمل مشترك ، تضمن احتساب متوسط طول الجملة للكتابات الأخرى غير المتنازع عليهـا لكـلا المتنافسين ، فكانت ٣٤،٥ ، ٣٤،٦ لكل من هاملتون ومادسون على الترتيب .
ومن المحاولات التي أجريت في هذا المجال ، فحص ٥٠ مقالاً لماديسون و٤٨ مقالاً لهامليتون ، وتم احتساب معدل استخدام بعض الكلمات مثل Whilst – While ، ويعد كلا منهما بديلاً للآخر . وقد أفصحت المقارنة عن ترجيح كفة ماديسون باعتباره كاتب هذه المقالات ، غير أنها لم تعد دليلا قوياً وكافياً . ومن المحاولات الأخرى التي أجريت في هذا المجال ، هو عرض التكرار النسبي لـبعض الكلمات الأخرى مثل – Commonly – War – Innovation وقد تم إعداد توزيع تكراري لكـل كلمة ، كما تم حساب معدل تكرار بعض الكلمات الأخرى لتوفير متطلبات الأساليب الإحصائية حيث يشترط بعضها فحص كلمات تكون مسـتقلة تمامـاً عـن محتـوى أو مضـمون الـنص Non-Contextual Words ، ولهذا الغرض تم إعداد توزيع تكراري مقارن لكل كلمة من الكلمات To From –By– وقد تم إعداد جدول يحوي ٣٠ كلمة تم اختيارها بصورة مختلفة حسب درجة علاقتها بمحتوى النص degree of contextuality ، وتم احتساب معدل استخدام كل كلمة مـع إجـراء المقارنة بين كل من ماديسون وهاميلتون ، وباستخدام أساليب الاستقراء الإحصائي مـع الاسـتعانة بالحاسب الآلي تم التوصل إلى النتائج ، وهي تشير إلى ترجيح تأليف هذه المقالات المتنازع عليهـا بمعرفة ماديسون بدرجة كبيرة . أنظر مصطفى زايد : الإحصاء والبحـث التـاريخي ، المؤسسـة العصرية للنشر والترجمة ، ١٩٨٧، ص ص٦٢-٦٣.

(٦٤)جريدة الوفد في ٢٧ سبتمبر ١٩٩٧.

(٦٥)عام ١٩٨٢.

(٦٦)عبد العظيم رمضان : تاريخ مصر والمزورون ، ص٥٦.

(٦٧)ارجع إلى ترتيب النحاس باشا بين الرواد في المستويات الثلاثة ، وفي ملحق الدراسة.

ملحق الدراسة

جدول تمثيلي لاختيارات (٢٧) من الأساتذة والمتخصصين

رتبت فيه أسماؤهم هجائياً، ورتب الرواد حسب رتبهم في المستوى الثالث، والرقم الوارد في الجدول يعبر عن ترتيب الرائد من وجهة نظر الأستاذ أو المتخصصـص ضـمن الاختيـارات العشر التي طلبناها منه في الاستبيان

الاسم	عبد الناصر	مصطفى كامل	سعد زغلول	السادات	أحمد عرابى	طلعت حرب	محمد على	الطهطاوى	محمد فريد	محمد عبده	قاسم أمين	العقاد	محمد كريم	عمر مكرم	هدى شعراوى	النديم	سليمان الحلبى	محمد نجيب	نبوية موسى	سيد درويش	البارودى	عبدالمنعم رياض	الكواكبى	مصطفى النحاس	صلاح سالم	أمين الرافعى	يوسف صديق
أ.د أحمد حسين اللقاني	١	٥	٢	٣	٦	٨	٤	٩	١٠	٧																	
أ.د أحمد دراج		٧	٤		١	٥		٢	٨	٦	٣			٩			١٠										
أ.د أحمد زكريا الشلق	١	٥	٦				٢	٣	١٠	٤	٧	٨															
أ.د أحمد الشربيني	٩	٥	٨	١٠	٣	٧	١	٢	٦	٤																	
السفير أحمد عطية الموسى	١	٤	٣		٢	٨			٦	٧	١٠					٩								٥			
أ.د. إيمان يحيى سيد	١	٦	٣		٥	٨	٢		٤	٧						٩								١٠			
أ.د أيمن فؤاد سيد	٤	٧	٢	٣	١٠	٥	١	٩										٨						٦			
أ.د رءوف عباس حامد	٢	٤					١		٣		٧			٦		٥					٨						
د. سيد عشماوي	١	٥	٤	٩	٢	١٠	٨	٧	٣	٦																	
أ.د شحاته إسماعيل	١	٤	٦	٣	٥				٧	٨								٢			١٠			٩			
أ.د عادل غنيم	٤	٦	١			٢		٣	٥				٩	٨						٧				١٠			
أ.د عبادة كحيله	١	٣	٨		١٠				٢				٦	٤			٥				٩		٧				
أ.د عبد الجواد صابر	٧	٩	٤	٥	١	١٠		٣	٨	٦							٢										
أ.د عبد الله عزباوي	٨	٧	٦	٩		٥	٣	١		٢	٤									١٠							

الاسم	عبد الناصر	مصطفى كامل	سعد زغلول	السادات	أحمد عرابى	طلعت حرب	محمد على	الطهطاوى	محمد فريد	محمد عبده	قاسم أمين	العقاد	محمد كريم	عمر مكرم	هدى شعراوى	النديم	سليمان الحلبى	محمد نجيب	نبوية موسى	سيد درويش	البارودى	عبدالمنعم رياض	الكواكبى	مصطفى النحاس	صلاح سالم	أمين الرافعى	يوسف صديق
أ.د عبد المنعم الجميعي						٩		٢	١٠		٥		٤	٣		١					٦		٨	٧			
أ.د. عرفه أحمد حسن	٩							٨	١٠				٥	٦			٤	٧					١				٣
أ.د عطية القوصي	١	٥	٤		٣							٦		٢	١٠	٧					٨			٩			
أ.د فتحي أبو سيف	٣	٥	٤			٨	١			٢		٩	١٠	٧													
د. فطين أحمد فريد	٢	٣	٧		٦		١		٥	٤	٩							٨				١٠					
أ.د ليلى عنان	١	٧	٥		٦	٣	٢	٤			٩			١٠					٨								
الصحفية / ماجدة رفاعة	٣	٨	٦	١٠	٥	٧	٤	١	٩	٢																	
أ.د محمد بركات البلي	١	٣	٥		٢	٦	٤		٧		٩			٨	١٠												
أ/د محمد عبد الحميد عيسى	١	٣	١٠		٥	٤	٢							٧						٩	٨		٦				
أ.د محمد مجدي الجزيري	٢		٧			٩	١	٣		٤				٥	١٠					٦							٨
الأستاذ محمود أمين العالم								١		٣	٤					٢											
أ.د محمود إسماعيل	١					٣		٢		٤	٧			٨	١٠		٥			٩			٦				
أ.د مكرم عبد الفتاح	٦	٣	٥	١٠	٤	٧		١	٨	٢						٩											

الفصل الحادى عشر

الانتفاضة الفلسطينية من خلال رواية

"حالم بفلسطين" لراندة غازى"

عبدالله عزباوى(*)

تعتبر رواية "حالم بفلسطين" لراندة غازى من أهم الأعمال الأدبية التى لفتت الأنظار فى الفترة الأخيرة. وراندة غازى فتاة مصرية تبلغ من العمر ستة عشر عاما ،وتعيش فى إيطاليا وقد كتبت روايتها باللغة الإيطالية. وقد هزها مقتل الطفل الفلسطيني محمد الدرة برصاص جنود الاحتلال الإسرائيلي، الذى عرض عبر شاشات التلفزيون فى جميع أرجاء العالم ومنها إيطاليا التى تعيش فيها راندة. وقد تفاعلت راندة مع هذا الحدث، ومن ثم فقد بدأت بالبحث عن الحقيقة وفهم ما يجرى فى الأراضي الفلسطينية المحتلة "الضفة الغربية وغزة". وبعدما أتمت راندة ذلك صاغته فى قصة قصيرة دخلت بها إحدى المسابقات الأدبية فى إيطاليا وفازت فيها هذه القصة، ولذا فقد طلب إليها أحد الناشرين الإيطاليين تحويلها إلى قصة طويلة "رواية" وقامت راندة بتحويل قصتها القصيرة إلى رواية ،وقد طبعت هذه الرواية ثلاث مرات حتى الآن.

وعن أسباب تأليفها روايتها تقول راندة غازى فى آخر الرواية : "أهدى هذه الرواية التى كل شخصياتها وأحداثها باستثناء بعض الأحداث المنقولة عن وسائل الإعلام من صنع خيالي بالكامل إلى محمد جمال الدرة ذى الاثنى عشر عاماً مثل أحمد ومثل وليد- من شخصيات روايتها- بدون سبب.. بشجاعة ، أهديه هذه القصة أدعو لأجله أن يحظى أينما كان.. أينما وجد بشئ أفضل من الكراهية والموت فى تلك الحرب".

وقد لاقت هذه الرواية رواجاً كبيراً عند صدورها، وتناولها بالنقد والتعليق أكثر من مائة عرض وتعليق فى الصحف والمجلات المتخصصة. وقد أزعجت الرواية المنظمات الصهيونية المتطرفة فى كل من أوربا والولايات

(**) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، كلية التربية، جامعة القاهرة بالفيوم.

المتحدة، لما تضمنته هذه الرواية من رصد وانتقادات لسياسة العنف الإسرائيلية ضد الفلسطينيين الأبرياء. وقد طالبت هذه المنظمات الصهيونية بسحب الرواية من الأسواق واعتبارها دعوة للتحريض ضد اليهود، واتهمت هذه المنظمات مؤلفتها "راندة غازى" باللاسامية ومعاداة اليهود ،وقد ردت المؤلفة على هذه الاتهامات بأنها لم تأت بشيء من عندها وأن كل ما أشارت إليه فى الرواية منشور فى الصحف العالمية.

وتدور رواية "حالم بفلسطين" حول مجموعة من الأصدقاء الفلسطينيين الذين التقوا معاً صدفة، ومن خلال تفاعلات الأحداث والحوار بين هؤلاء الأصدقاء، تقوم راندة غازى بمعالجة الانتفاضة الفلسطينية والموقف الإسرائيلي تجاهها. والشخصية الرئيسية فى الرواية هى شخصية إبراهيم المتواجد طوال الرواية، بينما تختفي بعض الشخصيات، ثم تعود من جديد أو تظهر شخصيات أخرى جديدة ،وهو المقصود بـ "حالم بفلسطين" وهو الوحيد الذي بقى على قيد الحياة من بين الشخصيات الفلسطينية التى حوتها الرواية ، وكأن راندة غازى تريد أن تقول أن الحلم الفلسطيني بإقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس سوف يتم تحقيقه، طالما أن هناك نضالاً فلسطينياً من أجل تحقيق هذا الحلم وطالما كان هناك فلسطينيون على قيد الحياة، لا يفقدون الأمل فى تحقيق هذا الحلم الفلسطيني.

وتعالج رواية راندة غازى المحاور التالية

- الانتفاضة الفلسطينية ومعنى الجهاد.
- العنف الإسرائيلي إزاء الانتفاضة الفلسطينية.
- الرؤية الإسرائيلية لعملية السلام مع الفلسطينيين.
- الموقف الأمريكي من القضية الفلسطينية.
- عدم اكتراث العالم بما يجرى فى الأراضي الفلسطينية المحتلة وما يمارسه الإسرائيليون فى حق الفلسطينيين.

أولا: الانتفاضة الفلسطينية

تتعاطف راندة غازى مع الانتفاضة الفلسطينية، وإن لم تحدد أي انتفاضة تتحدث عنها ، هل هى الانتفاضة الأولى ١٩٨٧-١٩٩٢، أم الانتفاضة الثانية

المعروفة بانتفاضة الأقصى التى نشبت فى سبتمبر ٢٠٠٠، و قامت بسبب دخول شارون المسجد الأقصى وانتهاك حرمته ،فى اعتقادي أن الانتفاضة لدى راندة غازى هى معنى ومضمون يدل على رفض الشعب الفلسطيني لواقعه المر تحت الاحتلال الإسرائيلي الغاشم الذى ينتهك حرماته ومقدساته ويدنس أرضه. وهى ترى أن ما يقوم به الفلسطينيون ضد الإسرائيليين المحتلين من ثورة وتمرد ورد العنف بالعنف هو نوع من الجهاد الشرعي، فتقول على لسان والد إبراهيم- الشخصية المحورية فى الرواية "الجهاد شرعي.. شرعى.. تذكروا أن الله قال لنا دافعوا عن أرضكم أهلكم ، ولو اعتدى أحد على أرضكم واستولى على داركم وادعى الأكاذيب على ما لكم، قاتلوا .. استعملوا أسلحته ومخططاته وأفعاله واصنعوا به مثل ما يصنع بكم ،وستكون تلك حرباً مقدسة"[1].

ولم تشر إلى الآيات الدالة على ذلك فى القرآن الكريم. وان لجأت بعد ذلك إلى القرآن الكريم وذكرت الآية القرآنية الكريمة التى تحث المسلمين على الاستشهاد فى سبيل الله فتورد الآية الكريمة: "ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتاً ،بل أحياء عند ربهم يرزقون"[2] وذلك على لسان والد إبراهيم الذى كان يعمل واعظاً فى أحد المساجد ويحث الفلسطينيين على القتال ضد الإسرائيليين . والذى تم قتله على أيدى هؤلاء الإسرائيليين المحتلين.

تعتمد راندة غازى فى تبرير الانتفاضة الفلسطينية على أن إبراهيم رأى فى طريقه إلى عمله بعض الأطفال يتصايحون[3].

"وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم".

"واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم".

"فإن قاتلوكم فاقتلوهم، كذلك جزاء الكافرين".

وهى تؤكد أن أرض فلسطين هى أرض العرب وهى كنعان القديمة التى احتلها اليهود فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد فتقول على لسان والد إبراهيم الذى كان يقول للمصلين "نحن على صواب.. تذكروا ذلك جيدا.. على صواب.. وكان يلمح ظلاً ولو صغيراً.. على أحد الوجوه.. ظل يشك كان يقول: أرض كنعان.. تذكروا أصبحت أرض إسرائيل فيما بعد.. تذكروا بعد انتصار الإسرائيليين فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد.. تذكروا.. هذه أرضنا.. ملكنا"[4].

وهى تشير إلى معانى بعض الأسماء التى يحملها بعض الفلسطينيين والفلسطينيات مثل جهاد ونضال، فتقول على لسان بطل القصة- إبراهيم: "جهاد إنه اسم من تلك الأسماء المستحدثة فى وقت الحرب. نضال هو اسم ايضاً من تلك الأسماء المستحدثة فى وقت الحرب وهو يعنى رجلاً شجاعاً لا يستسلم.. يقاتل"(٥).

تعود راندة غازى مرة ثانية لتبرير قيام الفلسطينيين بالجهاد والعمليات الاستشهادية ضد الإسرائيليين، فتقول على لسان بطل القصة "إبراهيم"((لو توقفنا يوما عن القتال وعن الاشتباك مع الجنود الذين يدخلون قرانا؟ لو توقفنا يوماً عن اللجوء للعنف. ماذا سيفعلون؟ أسيقتلونا ايضاً؟ أيستمرون فى التقدم بالدبابات والرشاشات؟ وهل يتوقفون عن احتلال أراضينا؟

يا جهاد.. ليست عندهم النية فى الانسحاب ولا تتخيل أنهم يرون لنا القتال والمجازفة بأرواحنا كل يوم ،ولكننا نقوم فقط بالدفاع عما أنفسنا يا جهاد... أو على الأقل الدفاع عمن بقى لنا. قطعة بائسة من الأرض ،ولو توقفنا سيأخذونها مناهى الأخرى. لم يحترموا الاتفاقات قط. أبداً بل سعوا دائماً إلى احتلال الأراضي. أراضينا أراضى لبنان.. يريدون الاستحواذ على ما يقدرون عليه.. ليقيموا إسرائيل العظمى.. أرض الميعاد"(٦).

وتورد على لسان نضال((يجب أن نقاتل ننقذ أبناءنا ونسعى لمنحهم مستقبلاً افضل، بلا جنود صعاليك يعيثون فساداً فى المدن، يدنسون الجوامع ويلوحون بأسلحتهم))(٧).

وهى ترى أن هزيمة الإسرائيليين لن تتم إلا بقوة تحمل الفلسطينيين ومواجهة الإسرائيليين بالعنف لا بالشفقة والتسامح أو الضعف، فتقول على لسان نضال أيضاً: "علينا أن نهزمهم بفضل قوة تحملنا ،علينا أن نهزمهم بشجاعتنا ، ببسالتنا ،لا بالشفقة والتسامح أو الضعف ،هؤلاء القلة يقتلون منا كل يوم ،أبناءنا ، نساءنا ،أمهاتنا ،آباءنا ،سنقهرهم ،سنكرس حياتنا لهذه الحرب وسنقهرهم))(٨).

وهى تحاول أن ترد على أكاذيب الإسرائيليين بأن من يقوم بالعمليات الاستشهادية هم من المتطرفين الفلسطينيين، فتشير إلى شخصية جمال ذى العشرين ربيعاً- وإن لم يكن متطرفاً- الذى فجر نقطة تفتيش إسرائيلية. وفجر معه خمسة جنود إسرائيليين(٩).

وإذا كانت راندة غازى قد أوردت أو تبنت فيما سبق الأسباب الرئيسية

لقيام الفلسطينيين بانتفاضتهم ومواجهة الإسرائيليين بالعنف ،فهي فـي الوقـت نفسه تورد الرأي الآخر المطالب بتوقف العنف مـع الإسـرائيليين حتـى يـتم التوصل إلى سلام مع الإسرائيليين ،فتقول على لسان محمد وهو سائق لشـاحنة إسعاف: "يجب أن نهزمهم بالتحكم فى أنفسنا.. انظر عرفات.. ليس بمفرده عمل شئ.. يقول شيئا وشعبه يفعل شيئاً آخر ،بالاعتداءات والانفجارات لن نصل أبـداً للسلام(١٠).

الموقف الإسرائيلي من الانتفاضة والفلسطينيين

ويعتبر هذا المحور من أهم محاور الرواية والذى خصصت لـه رانـدة غازى القسط الأكبر من روايتها ،من أجل فضح الاحتلال الإسرائيلي وإظهـاره للعالم.

وتصف راندة توقع الفلسطينيين للموت من قبل الإسرائيليين كـل يـوم فتقول: "هذه البلدة ،وهذا الخراب والموت القريب من الكل ،كل يوم ،صار الموت شيئاً عادياً ، بكل ما فيه ،الموت المفاجئ ،والموت غير المتوقع ،والموت القريـب والموت الحائر ،والموت المباغت))(١١).

وترصد راندة بعض الأحداث التى قتل فيها بعض الفلسـطينيين علـى أيدى الجنود الإسرائيليين، فتقول على لسان إبراهيم: "البلدة المجاورة مات فيهـا اليوم ثلاثة فتيان ،حيث حضر جنديان وسمعا جلبة فالتفتا وأطلقا النار))(١٢).

هكذا يطلق الجنود الإسرائيليون النيران على الفلسطينيين لمجـرد أنهـم سمعوا جلبة، فهم يخشون من اعتداءات الفلسطينيين أو رمـيهم بالحجـارة ، إن أسهل شئ لديهم إطلاق النيران على الفلسطينيين المساكين.

وتشير راندة إلى كثرة عدد القتلى من الفلسطينيين، فتورد علـى لسـان محمد سائق شاحنة لنقل الجرحى والقتلى من الفلسطينيين إلى المستشـفى التـى يعمل بها فتقول: "أعتقد أنني لن أحتمل المزيد من الذهاب والإياب بـين القـرى والمستشفى ،يصلنا قتلى كل يوم يا رامى.. قتلى فوقهم قتلى.. أعدادهم مهولة.. لم أعد قادراً على غسل الدم من فوق شاحنتى (١٣).

كما تورد على لسان محمد لرامى أيضاً: "أنا لم أعد قادراً علـى رؤيـة هذه الحرب ،وهى تقتل شعبى يا رامى"(١٤).

وهى تصور مدى بشاعة الإسرائيليين فى تعـاملهم مـع الفلسـطينيين

الأبرياء فتورد مشهداً لجندى إسرائيلي يصوب مدفعه الرشاش إلى إحدى السيدات الفلسطينيات التى وقعت على الأرض أثناء فرارها من الجنود الإسرائيليين الذين هاجموا قريتها وعاثوا فيها عيثا، وتوسل هذه المرأة إليه ألا يقتلها ، إلا أنه قتلها فى النهاية ،فتصوره راندة بكلماتها على النحو التالى((حينما خاطبت المرأة الجندى صرخت فيه.. أمك.. أين هى الآن؟ أيروق أن أرسل ابني خلفها حاملاً رشاشا فى يده ؟ أيروق لك ان يطردها ابنى من بيتها وأن يهددها"(١٥).

وتفضح راندة غازى السياسة الإسرائيلية فى تخريب بيوت أسر المجاهدين الفلسطينيين، عقاباً لهم لما اقترفه ذووهم فى حقهم، وتصور ذلك بأسلوب يجعل القارئ يقشعر بدنه من هول العنف الإسرائيلي وهدم بيوت الفلسطينيين ،فتقول: "ذات يوم وصل ثلاثون لاجئاً فلسطينيا إلى البلدة فقد كان لزاماً عليهم أن يهجروا بيوتهم لأن الإسرائيليين قرروا أن بلدتهم كانت مقراً لجماعة إرهابية ،وهكذا هدمت بيوتهم وصارت بلدتهم قاعدة إسرائيلية، فى ذلك اليوم دخلت الدبابات بلدتهم ،أطلق الجنود النار على كل الأشخاص الذين وجدوهم نساءً شيوخاً ، أطفالا ،دخلوا كل البيوت ،أشعلوا النيران فى بعضها ، فيما أصحابها لا يزالون بالداخل. فى البعض الآخر اغتصبوا النساء ، سرقوا المال ،دمروا كل شئ ،وضربوا الشيوخ وحطموا عظام الأطفال دون أن يقتلوهم ، حتى يعانى الناس طويلاً بأطفالهم المعاقين ، يمثلون عبئا على أسرهم))(١٦).

وهنا نجد راندة غازى تشير إلى أسلوب الإسرائيليين فى معاقبة أطفال الحجارة بتكسير عظامهم وعدم قتلهم ،حتى يكونوا عالة على أهاليهم وجعل مهمومين بأبنائهم المعوقين ،وحتى يكون ذلك درساً لبقية الأطفال الفلسطينيين . وهى السياسة التى اتبعها رابين ،عندما كان وزيراً للدفاع.

وتشير راندة إلى عدم احترام الإسرائيليين لمقدسات المسلمين ودخولهم المساجد بالأحذية وتدنيس هذه الأماكن الطاهرة بحجة التفتيش عن بعض العناصر الإرهابية- حسب ادعائهم- وتصف راندة ذلك فتقول "مخلفين ورائهم- اى الجنود الإسرائيليين- على بساط الصلاة الطاهر ،وحلاً وغباراً ، رافعين أصواتهم ،ومقاطعين مشوشين على المصلين ،لأنهم كان لابد أن يتحكموا. هذا ما قالوه.. هكذا بالضبط.. إنهم لابد أن يفتشوا"(١٧).

وتتحدث راندة غازى عن إجراءات التفتيش الإسرائيلية لسيارات

الفلسطينيين ، ، وكيف أنهم لا يحترمون سيارات الإسعاف التى تحمل المصابين أو المرضى أو السيدات الحوامل من الفلسطينيين ، وأنهـم لا يسـمحون لهـا بالمرور حتى يمكن إسعاف من بداخلها ،وصفت كل ذلك على لسان رامى وهـو سائق فلسطيني لإحدى الشاحنات التابعة لأحد المستشفيات الفلسـطينية ، كـان يتحدث إلى محمد الممرض فى المستشفى التى يعمل بها رامى" ،وأنا قادم إلـى المستشفى ،كنت راكباً سيارة أجرة ،وكانت تسبقنا سيارة إسـعاف ،وفـى لحظـة أوقف بعض الجنود الإسرائيليين حركة المرور ووضعوا حاجزاً وبدأ يفحصـون كل الأوراق ؟ واحداً واحداً ".

قالوا أنهم يبحثون عن إرهابيين.. ومر الوقت بطيئـاً واغتـاظ سـائق الأجرة ،وصدرت صرخة من سيارة الإسعاف، فانتابني الخـوف ونزلـت مـن السيارة ،وذهبت لاستطلاع الأمور فقال لى سائق الإسعاف إنه ينقل امرأة حاملاً ، كانت تتألم ،أتتفهم ،كان يجب أن تذهب للمستشفى لتضع طفلهـا ،جريـت إلـى الجنود وتوسلت إليهم ،أن يتركونا نمر قلت لهم: إن هناك امرأة حبلى ،كانت على وشك الوضع ،وأنها سوف تموت ألماً. أتعرف ما أجابنى هذا الجنـدى لعنـة الله عليه أتعرف بم أجابني؟ قال لى لتمت هذا ما قاله لى.. بوجه بارد ،بقلب مجـرد من المشاعر ،وببرود ولا مبالاة ولتمت ،جريت لرؤية المرأة. كان معها بالـداخل ممرضتان يقولان لها أن تأخذ أنفاساً طويلةً ومنتظمة ،ولكنها كانت تصرخ ،كانت تتألم بشدة ،كانت تطلب أن ننقلها إلى المستشفى.. أن نسرع إنها لم تعـد قـادرة على الاحتمال.. لكن لم يكن فى استطاعة أى منا نقلها إلى المستشفى ،لا أحد منا قد أماتني ذلك. وعندما يسأل محمد رامى ماذا حل بتلك المرأة يجيبه رامـى يـا إلهى صمدت يا محمد لمدة ساعة ،صارخةً باكيةً ثم بدأت تنزف .. تنزف كثيراً، ثم ماتت بعد أن صفت كل دمها ماتت والطفل ايضاً مات. مات ،ولم استطع فعل شئ بينما كانت المرأة تشد على يدي بائسة ،وتنظر إلى بتوسل قائلةً خذني إلـى المستشفى ،ولم ،لم آخذها"(١٨)

لقد كانت راندا غازى وهو تصور بشاعة الاحـتلال الإسـرائيلي فـى معاملة الفلسطينيين، وكيف أنهم أى الإسرائيليين عديمو الإنسانية، وليس لـديهم أى قلب يحمل مشاعر الرحمة ،ما كتبته راندة غازى فى هذا الخصوص يفـوق مائة مقال تكتب عن وحشية الإسـرائيليين فـى التعامـل مـع الأبريـاء مـن الفلسطينيين، ما كتبته راندة غازى أقرب إلى الفيلم التسـجيلي ،وكأنهـا تحمـل كاميرا تصوير ،وصورت به هذا المشهد الذى يهـز كـل المشـاعر الإنسـانية

وتفضح الوحشية الإسرائيلية ،ولقد رأينا كيف أن القوات الإسرائيلية التى حاصرت الرئيس عرفات فى مارس من العام الماضى(٢٠٠٢) فى مقره فى رام الله فى العملية المعروفة باسم "الجدار الواقي" منعت سيارات الإسعاف من نقل المصابين والقتلى من الفلسطينيين والفلسطينيات.

وبالرغم من أن المسيحيين الفلسطينيين لم يشاركوا إخوانهم المسلمين في العمليات الاستشهادية ، ربما لأسباب تتصل بالعقيدة ،فإنهم لم يسلموا من بطش الإسرائيليين وعدوانهم ،وقد أوضحت راندة غازى هذه الحقيقة على لسان رامى سائق الشاحنة المسيحي الفلسطيني ،فقالت: "لقد فقدت أسرتي فى تلك الحرب ، لم يعد يبقى لى شيئ أنقذه ،رأيت كل شئ ،رأيت الرصاص يحطم نوافذ كنيستنا، أثناء حضورنا للقداس ،رأيت المصلين يرتمون أرضاً ويصرخون فزعا"(١٩)

وترى راندة غازى أن ما يقوم به الإسرائيليون تجاه الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة ، هو إبادة جماعية لهذا الشعب المسكين ،وأن هذه الابادة لا تقل بشاعة عما لا قوه من إبادة جماعية على يد هتلر، وهى تقصد تعذيب اليهود فى معسكرات أوشيفتز ، وعملية الهولوكوست "المحارق" التى أقامها هتلر لليهود ،ومن ثم فإن راندة ترى أن ما يحدث لفلسطيني الأراضي المحتلة" الضفة الغربية وغزة" هى ثاني إبادة جماعية لشعب فى التاريخ، فتقول تعقيباً على وحشية الإسرائيليين تجاه فلسطيني الضفة الغربية وغزة تلك هى ثاني إبادة جماعية لشعب فى التاريخ ، أصحاب السلطة المسئولون الأوائل عن الموتى. لم يتعلموا درس الألم. لا ،بل قرروا تعذيب شعب آخر مثلما تم تعذيبهم ،وأن يدفعوا ثمن آلامهم بشر بائسون ،بائسون ،فقدوا كل شئ ما عدا شيئاً واحداً إيمانهم.. وها هى معسكرات الاعتقال ،لا لا تبحث عنها بعينيك ،لن تراها. تلك المعسكرات موجودة فى ذاكرة اليهود الذين يريدون حكومة شرعية ،الذين يحيون جنون مستشار ألمانى سابق ،فى عقول هؤلاء اليهود الذين يبدون أنهم يمثلون كل يهود العالم.. حتى ولو لم يكن الوضع كذلك"(٢٠).

ويجب أن نشير إلى أن هناك ابادات جماعية أخرى مشهورة لم تشر إليها راندة غازى وتعنى بها إبادة الهنود الحمر على سكان الولايات المتحدة الأمريكية على أيدى الوافدين الجدد الأمريكان فى القرن التاسع عشر فيما يعرف بالاتجاه ناحية الغرب ،وهناك إبادة الصرب فى عقد التسعينيات للمسلمين فى البوسنة والهرسك بعد انهيار دولة يوجوسلافيا. وهناك مذبحة الأرمن التى وقعت عام ١٩١٥ على أيدى الأتراك.

وتتساءل راندة ،لماذا يفعل الإسرائيليون ذلك بالفلسطينيين فتقـول علـى لسان محمد وهو يتحدث إلى راعي: "لماذا يفعلون بنا ذلك؟ إنهم شعب ملعـون ، قاسوا الكثير في الماضي ،لكنهم الآن يريدون أن ندفع ثمن ما حدث لهم ،أعنـي أنهم اضطهدوا طويلاً ،لماذا لا يبحثون عن بعض السلام الآن ،لماذا يستمرون في تلطيخ أيديهم بالدم"؟(٢١)

وتعود راندة غازى إلى الإستشهاد بالقرآن الكريم في تذكير اليهود بنعمة الله عليهم فتورد الآية الكريمة: "يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتـي ،التـي أنعمـت عليكم واني فضلتكم على العالمين" ثم تتساءل قائلة: "حررهم الله أنقذهم ،وهكـذا يشكرونه ،بقتل أبنائه؟ انهم حقا ظالمون"(٢٢).

وتوضح راندة حال الفلسطينيين اليوم ،بعد أن استولى الإسرائيليون على الجزء الأكبر من بلدهم في عام ١٩٤٨ ،واستولوا في أعقاب حرب ١٩٦٧ على الضفة الغربية وغزة ،وصادروا معظم أرضى الفلسطينيين، بحيث لم يبق لهم إلا القليل من هذه الأراضي فتقول: "ما الذى يبقـى لهـذا الشـعب الـذى تغطيـه الكوفيات.. بضع رقع من الأراضي ،وحتى تلك القطع القليلة احتلت ،اغتصـبها اليهود، وحتى تلك الرقع القليلة الأرض الطاهرة في المساجد الموضـع الوحيـد للسلام المطلق داستها أحذية الجنود العسكرية".

ولا تنسى راندة غازى في هذا المجال أن تورد بعض أوصاف شـارون الذي أذاق الفلسطينيين المر فتقول على لسان جمال– أحد أشـخاص روايتهـا: "يطلق الشباب على شارون.. سفاح قذر حتى دون أن يعـرف شـكله"(٢٣). وأن كل الشعب الفلسطيني يكره هذا السفاح القذر"(٢٤).

وتشير راندة غازى إلى أحوال الشعب الفلسـطيني الاقتصـادية تحـت الاحتلال الإسرائيلي إشارة عابرة لكنها تحمل كل معاني الفقر والمعانـاة ،حـين تقول: "يأكلون الحمص ،لأن المال الذى تعطونهم إياه لا يسمح إلا بشرائه"(٢٥).

وتقارن راندة غازى بين أحوال الفلسطينيين الفقـراء فـي معسـكرات اللاجئين ،الذين هدمت قـراهم وبيـوتهم وحيـاة الإسـرائيليين المترفـة فـي المستوطنات الإسرائيلية التى بناها الإسرائيليون في الضفة الغربية وغزة ،فتقول عن معسكرات اللاجئين من الفلسطينيين "في إحدى الحقول الحالية والمهجـورة عادة نصبت خيام اللاجئين ،وقد تساءل إبراهيم بطل الرواية عنـدما رأى هـذه الخيام: "ترى أي القرى استولوا عليها هذه المرة (٢٦).وأنـه رأى علـى الفـور

سراير المعسكر الخشبية الخشنة ذات الملاءات المتسخة. أطفال شـيوخ نسـاء جرحى داميين ،محتضرين ،باكين ،حزانى ،منهارين"(٢٧).

أما عن الحياة فى المستوطنات اليهودية، فقد وصفتها عندما تحدثت عن إحدى المستوطنات فقالت: "مروا بمستوطنة يهودية تفيض بالحياة ،تملؤها محـال وحدائق وناس يشترون ويرحلون ويخرجون من المحال ،صبية علـى الألـواح الزلاجية ،عشاق فى المطاعم ،عائلات فى الشوارع ،هنا لم تكن الحـرب ،تبـدو سوى حادث بعيد ،كلمة بلا وزن ،مشكلة لا تعنى احداً. كـان النـاس يرتـدون ملابس جميلة ،وتبدو عليهم النعمة مال.. صحة.. سلطة. كان يصعب تصديق أنه على نحو بضع كيلو مترات قليلة ،هناك قرى فقيرة حيث بشر يتألمون ،ويموتون من الجوع والبرد ،بل أسوأ من ذلك. رمياً بالرصاص. وكان يصعب تصديق أن الحياة الرغدة لهؤلاء الناس يمكنها التعايش مع فقـر شـعب ممـزق بـالجراح والآلام(٢٨).

وتشير راندة إلى نتائج الانتفاضة على لسان إبراهيم ، الذى كان متشائماً من نتائجها ،فتقول: " مضى عليها عام الآن ،لكن الشئ الوحيد الذى حصلنا عليه هو عدد مفزع من القتلى"(٢٩).

ويبدو أن راندة غازى هنا عندما أشارت إلى نتائج الانتفاضـة السـلبية على سكان الأراضي المحتلة الفلسطينية كانت تشـير إلـى بشـاعة الاحـتلال الإسرائيلى فى مواجهة هذه الانتفاضة، وأنها من ناحية أخـرى تـورد الـرأي الآخرعن الانتفاضة حيث يعتقد بعض الفلسـطينيين أن الانتفاضـة الفلسـطينية الثانية "انتفاضة الأقصى سبتمبر ٢٠٠٠" لم يكن هناك داع لها.

وبالرغم من رنة التشاؤم التى أوردتها راندا بشأن انتفاضة الأقصى إلا أنها تؤمن بان المستقبل ربما يحمل خيراً للفلسطينيين فتقول: "ربما يـأتى زمـن يمكن أن يحدث فيه شئ ما ،ربما يأتى زمن أن يتوقف فيه تقدم الإسرائيليين"(٣٠).

وراندة غازى لا تضع كل الإسرائيليين فى سلة واحد ،فهناك من اليهـود من يرفضون العنف مع الفلسطينيين فتقول على لسان رامى الـذى أحـب فتـاة يهودية "أعتقد أننا فى الواقع نحتفظ ببعض الأحكام المسبقة عنهم من الخطـأ أن تقول أنهم يحبون العنف ،كلهم متعجرفون ،هناك الكثير مـنهم ممـن لا ينطبـق عليهم ذلك ،وبعضهم يرفضون الحرب"(٣١).

كما تشير –راندة غازى– إلى وجود مجموعة من اليهود المحبين للسلام

ولعلها تقصد بهم جماعة السلام الآن فى إسرائيل ،فتقول على لسان رامى الـذى كان قد تعرف على جماعة من الإسرائيليين المحبين للسلام "قابلت مجموعة من الشباب. لكنهم كانوا أشخاصا شجعاناً أذكر لك. لطالما قلت لى- يقصد ابراهيم- أن اليهود كلهم قساة على حد سواء ،لكن هؤلاء كانوا اناساً شرفاءً. كانوا يعرفون ما يفعله بنا جنودهم كل يوم إنهم لم يكونوا مثل الآخرين))(٣٢).

كذلك ترى راندة غازى أن يهود إسرائيل ليسوا كل يهود العالم فتشـير إلى أن هناك يهوداً آخرين فى العالم يحتجون على العنف الذى يمارسه يهـود إسرائيل ضد فلسطيني الأراضي المحتلة وأن حكومة إسرائيل لا تمـثلهم وإنمـا تمثل نفسها فقط، وأنهم أبرياء من أفعالها فتقول: "إبراهيم يعرف ،يـؤمن ،بـأنهم ليسوا كذلك ،لا يمكن أن يكون شعب بأكمله يؤمن بذلك لازال هنـاك أشـخاص يؤمنون ،أشخاص لا يخفون المأساة خلف قناع من الـوهم ،لكـنهم يواجهـون الواقع ،مثل تلك المرأة التى شاهدها ذات مساء فى التلفزيون فى منزل جاره ريا ض ، تلك المرأة التى صرحت باسم الجالية اليهودية بسويسرا- وهى تضع يدها على قلبها- إن حكومة إسرائيل لا تمثلهم فى شئ. إنهم يحتجون علـى العنـف الذى يمارس ضد الفلسطينيين ، وليسوا كلهم يريدون القضاء عليهم"(٣٣)

الموقف الأمريكى من الانتفاضة الفلسطينية

توضح راندة غازى الموقف الأمريكـى مـن الانتفاضـة الفلسـطينية والفلسطينيين، فعلى حين تتغاضى الولايات المتحدة عن عمليات الاغتيال التـى تقوم بها إسرائيل ضد القيادات الفلسطينية، فأنها تنظر إلى الفلسطينيين على انهم إرهابيون وسفاحون ،وتعالج ذلك بطريقة ساخرة فتقول: "اغتيل زعـيم منظمـة التحرير الفلسطينية.. ماما أمريكا وبخت إسرائيل حقاً العالم يتطلع ،الفلسـطينيون يردون ،ماما أمريكا تصفهم بالإرهـابيين "حقـا؟" العـالم يتطلـع.. واضـح ان الإسرائيليين ليسوا إرهابيين- كلا- ليسوا إلا جنوداً مسـاكين يحملـون بعـض المدافع الصغيرة وقليلاً من الدبابات. أنظر فى المقاتل الفلسطيني يا لهم من قتلـة سفاحين. تلك الأسلحة ذات التقينة العالية فى مقدمة الجيش ،والأجهـزة الحديثـة شديدة التعقيد -هل هى حجارة- تلك الحصى الفتاكة المصوبة بدقـة والكتائـب العسكرية شديدة التنظيم.. العالم يتطلع.. تستمر ماما أمريكا فى إرسـال هـدايا صغيرة للإسرائيليين نعم هدايا صغيرة مجرد هدايا صغيرة للقتل"(٣٤).

وبالإضافة إلى هذا التهكم فان راندا غازى تشير إلى بندقية خاصة بأحد

الجنود الإسرائيليين تحمل عبارة "صنع فى أمريكا" وصلت قبل شهر(٣٥).

العالم والانتفاضة الفلسطينية

تشير راندة غازى فى روايتها فى أكثر من مكان إلى عدم اهتمام العالم بما يجرى فى الأراضي المحتلة من مذابح يقوم بها الإسرائيليون فى حق الشعب الفلسطيني، فتقول فى إحدى الإشارات إلى التجاهل بمناسبة مقتل والد إبراهيم على أيدى الجنود الإسرائيليين قتل فى الحرب- هو الآخر- إلا أن حادث مقتله لم يظهر على شاشة التلفزيون، لكن فى الواقع لا يهم أن يعرف العالم ،بما أن العالم لا يأبه البته ،ليمت واحد أكثر. واحد أقل. ما هى إلا أرقام.. أنها ليست معركتهم.. وهم لا يعرفون ذلك جيداً لأنهم- هم- الذين اختاروا أن يقفوا بعيداً، وكما تعرف فإن الأمر بالنسبة لهم سيان- ولا يهمهم بتاتاً- فهم مشغولون بأمور أخرى(٣٦).

وتشير مرة أخرى إلى عدم إدراك دول العالم بالأطماع الإسرائيلية فتقول: "لكن الإسرائيليين يريدون الأراضي كلها يريدون أرض إسرائيل يريدون تحقيق حلم إسرائيل الكبرى.. لن يرضوا بالسماح للفلسطينيين بإقامة دولتهم.. لم يحترموا المعاهدات.. يحاولون أخذ كل شئ.. رباه. العالم لا يدرك ذلك"(٣٧).

الاسرائيليون وعملية السلام

عالجت راندة غازى الرؤية الاسرائيلية للسلام مع الفلسطينيين، هذا السلام غير العادل والذى يجبر الفلسطينيين على التنازل عن جزء كبير من أراضيهم فتقول فى تعليقها على موقف إبراهيم من الفلسطينيين و السلام إبراهيم يعرف جيداً أن الحكومة الإسرائيلية ليست راغبة فى السلام لأن السلام يعنى تسويات، يعنى اهتمام ،يعنى إنسانية واحساس لكن الإسرائيليين يريدون الأراضي كلها. يريدون أرض إسرائيل، يريدون تحقيق حلم إسرائيل الكبرى لن يرضوا بالسماح للفلسطينيين باقامة دولتهم ، لم يحترموا المعاهدات.. يحاولون أخذ كل شئ . كل شئ(٣٨).

وتشير مرة أخرى إلى الرؤية الإسرائيلية للسلام مع الفلسطينيين عند الحديث عن والد إبراهيم فتقول: "كان والده يقول لتلك الجماعة من المصلين بالمسجد أنه حين يدخل العدو بيتك. ويسلبك ملابسك. وحين يحتل حجرات بيتك ، ويترك لك ركناً بالردهة. فقط ما يسمح لك بالوقوف أنت وعائلتك ثم بعد ذلك

بعد أن يسلبك ما تملك يقول لك ببساطة لنصنع السلام ،إن قلت لا أتكون إرهابيا ،لا تريد السلام؟ بالطبع تريده. كان والده يقول ،لكن لا سلام بدون عدل"(٣٩).

وتوضح راندة رغبة الفلسطينيين فى إقامة السلام العادل مع الإسرائيليين ونقض هؤلاء للاتفاقات التى وقعوها ،ولعل أوضح مثال نقضهم اتفاقات أوسلو فتقول على لسان إبراهيم الذى يوجه خطابه إلى جهاد "لقد حاولنا الحوار ألف مرة.. وألف مرة.. نقضوا الاتفاقيات ،فعلوا ما أرادوا ،متحدين العالم كله"(٤٠).

كما تتحدث عن تشدد الإسرائيليين وصلافتهم فى المفاوضات وتركهم المفاوضات لإجبار الفلسطينيين على الانصياع لآرائهم وألا فلنؤجل المفاوضات مرة ومرات ،فتقول: "إنهم فاقدون الإحساس بآلام شعبنا ،وحتى بآلامهم ،حتى حين يرجو العالم بأجمعه.. حين يتوسل بعض الاتفاقيات فهم يتركون مائدة المفاوضات بمنتهى الصلافة ويقولون لا .. لا .."(٤١).

وترى راندة أنه نظراً لفشل مساعي السلام وتعنت الإسرائيليين مع الفلسطينيين ، ويأس الآخرين من الحصول على حقوقهم ،فإنهم يلجأون إلى العنف فتقول على لسان ابراهيم: "أترى أن اصحاب المحادثات السلمية قد فعلوا شيئاً ملموساً لأجلنا ،إنه لشئ محزن أن أقول ذلك. لكنه الطريقة الوحيدة لإنقاذنا الآن"(٤٢).

لقد نجحت راندة غازى المصرية الاصل وذات الستة عشر ربيعا فى فضح الوحشية الاسرائيلية تجاه الشعب الفلسطينى البطل. إن اهمية ما كتبته راندة غازي إنها استطاعت أن توصل الصوت والاستغاثة الفلسطينية إلى العالم الغربى سواء فى الولايات المتحدة أو أوربا، دون ما أية دعاية مدفوعة الأجر تجعل القارئ الغربى ينأى عنها.

رواية "حالم بفلسطين" تبرز أهمية اللجوء إلى الآداب والفنون فى شرح القضايا العربية أمام الرأى العام الغربى وهو ما حدث مع هذه الرواية، ومن ثم نستطيع القول إن راندة غازى بنشر روايتها بالإيطالية وترجمة هذه الرواية إلى معظم اللغات الأوربية قد خدمت القضية الفلسطينية خدمةً كبيرةً وجليلةً، عجزت عن تأديتها كثير من المؤسسات السياسية والإعلامية العربية.

الأمل أن يقوم العرب المقيمون فى أوربا بأعمال أدبية مشابهة ومخاطبة الرأى العام الغربى بلغته التى يجيدونها ويؤلفون بها أعمالاً أدبية أخرى ،كما

أرجو ان يقوم الفنانون العرب بعمل بعض الأعمال الفنية من فن تشكيلي وأعمال درامية من أفلام تسجيلية وغيرها، تستطيع أن تخاطب الرأى العـــام العـــالمى، وتشرح قضاياه العربية وفى مقدمتها القضية الفلسطينية التى هـــى لـــب مشـــكلة الشرق الأوسط. دونما دعاية مصطنعة . إذا ما قام أدباؤنـــا وفنانونـــا العـــرب المقيمون فى الخارج بمثل هذه الأعمال التى على شاكلة رواية "حالم بفلســـطين" لراندة غازى فسوف نستطيع شرح وجهة النظر العربية، وكسب هذا الرأى إلـــى جانبنا فى معركتنا ضد قوى الظلم والطغيان التى نجحت حتى اليوم فى طمـــس الحقائق وتضليل الرأى العام العالمى وضمه إلى جانبها، فهذه القوى الظالمة قـــد استطاعت على سبيل المثال تصوير الانتفاضة الفلسطينية ومـــا صـــاحبها مـــن عمليات استشهادية على انها أعمال إرهابية. نأمل أن تكون هذه الروايـــة بدايـــة لأعمال مشابهة ونرجو ألا تكون العمل الأخير فى هذا المجال.

الهوامش

(١) الرواية ، ص ٢٩ .
(٢) السابق ، ص ٣٠ .
(٣) السابق ص ١٩١ .
(٤) السابق ، ص ٢٩.
(٥) السابق ، ص ٩.
(٦) السابق ، ص ٩٢.
(٧) السابق ، ص٥٤.
(٨) السابق ، الصفحة نفسها.
(٩) السابق ، ص٢٠.
(١٠) السابق ، ص ٨٣.
(١١) السابق ، ص ٤٨.
(١٢) السابق ، ص ١٨.
(١٣) السابق ، ٨٤ .
(١٤) السابق ، ص ٨٢.
(١٥) السابق ، ص٧١.
(١٦) السابق ، ص ٥٦.
(١٧) السابق ، ص ٤٤.
(١٨) السابق ، ص ٨٥.
(١٩) السابق ، ص ٨٤.
(٢٠) السابق ، ص ١٦٩- ١٦٢.
(٢١) السابق ، ص ٨.

(٢٢)السابق ، ص ١٤٥.
(٢٣)ص ١٨٥ .
(٢٤)ص ١٩.
(٢٥)السابق .
(٢٦)السابق ، ١٢٧.
(٢٧)السابق ، ١٢٧.
(٢٨)السابق ، ص ١٥٣ .
(٢٩)السابق ، ص ٢٣.
(٣٠)ص ١٨٥.
(٣١)ص ١٧٩.
(٣٢)ص ١٨٧.
(٣٣)ص ١٦٢.
(٣٤)ص ١٦.
(٣٥)السابق ، ص ٢٣١.
(٣٦)السابق ، ص ١٥.
(٣٧)السابق ، ص ١٦١ .
(٣٨)السابق ، الصفحة نفسها .
(٣٩)السابق ، ص ٢٨ .
(٤٠)السابق ، ص ٩٤، ٩٥.
(٤١)السابق ، ص ١٨٩.
(٤٢)السابق ، ص ٩٣.

الفصل الثانى عشر
البعد الدينى والتاريخى
للموقف الإسرائيلى من غزو العراق
(الجذور والتداعيات)

محمد محمود أبوغدير(*)

تمهيد

ستظل الحرب العراقية بكل تداعياتها المختلفة، ولسنوات طويلة، مثار مناقشات وموضع دراسات، لكشف الجوانب غير المعلنة منها، ومتابعة تأثيراتها المتعاقبة على المنطقة وعلى العالم أيضا. والجانب الذى ستركز عليه هذه الدراسة الموجزة، هو البحث عن جذور الموقف الإسرائيلي تجاه الحرب العراقية التى بدأت شكليا فى العشرين من شهر مارس ٢٠٠٣، ولكنها بدأت فعليا قبل ذلك بأشهر عديدة تعود كما يدعى كثير من المحللين السياسيين والعسكريين إلى ما حدث للولايات المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠١ والذي أصاب الكبرياء الأمريكى فى مقتل ودفع الإدارة الأمريكية إلى البحث عن كبش فداء تكيل له الضربات لكى تثبت للعالم أنها القوة الأعظم على وجه البسيطة. وإذا كانت الخطوات التى قامت بها الولايات المتحدة لشن الحرب على العراق معروفة للجميع، فإن الموقف الإسرائيلي من هذه الحرب منذ كانت فكرة إلى أن تحولت إلى برنامج عمل وإلى استعدادات شملت مناطق شاسعة من الكرة الأرضية وإلى أن سقط النظام العراقى السابق، لم يحظ بعد بالدراسة الكافية بسبب رغبة اللاعب الأول، أى الولايات المتحدة فى إسدال ستار من السرية على الدور الذى لعبته إسرائيل لخدمة المخططات والتجهيزات الأمريكية المتشعبة التي سبقت الاندلاع الفعلى للقتال، واخفاء ما قامت به إسرائيل من خدمات لوجستية ومخابراتية خلال المعارك ذاتها، لأن الكشف عن أى دور لإسرائيل فى هذه الحرب سيضعف التحالف الذى شكلته واشنطون لتخوض معه أتون الحرب وبخاصة الدول العربية أو الإسلامية التى شاركت بهذه التسهيلات اللوجستية أو تلك قبل الحرب وخلالها. وعلى خلفية

(*) أستاذ اللغة العبرية وآدابها، جامعة الأزهر.

الاستعدادات التى كانت تقوم بها الولايات المتحدة لتنفيذ الهجوم على العراق، تم إعداد حملة إعلامية أمريكية إسرائيلية تتحدث عن ضغوط بذلتها واشنطون لحث إسرائيل على عدم تنفيذ أى هجمات جوية على العراق فى حالة حدوث أى قصف عراقى لأهداف فى إسرائيل، كما حدث فى الحــرب الســابقة. وفــى الــداخل الإسرائيلي، افتعلت معارك وهمية على صفحات الجرائد المختلفة بين مؤيد للطلب الأمريكى ومعارض له، وفى تلك الأثناء كانت عمليات تخزين الأسلحة والعتــاد الحربى الأمريكى تجرى على أشدها فى قواعد إسرائيل الحربية، وكانت أجهــزة المخابرات الإسرائيلية بكل ما لديها من أقمار صناعية تنطلق فى فضاء المنطقة، تزود الولايات المتحدة بالمعلومات الخاصة بالعراق وانتشار وحداتها العســكرية وغير ذلك من التعاون العسكرى المباشر وبخاصة فى المناطق الشمالية والغربية للعراق والذي ستكشف عنه الأيام القادمة، وإن بدأت تفاصيله فى الظهور فــور سقوط النظام العراقي.

إذن، إذا كانت إسرائيل لم تشارك بصورة معلنة فى الحرب الأمريكيــة فى العراق للأسباب التى أشرنا إلى بعضها، فإن تواجدها الســرى علــى أرض العراق كان أسبق من الحرب العراقية، ناهيك عن التسهيلات اللوجســتية التــى قدمتها للمجهود الحربي الأمريكي في العراق. وقد ذكــر المعلــق الإســرائيلي "جدعون سامت" فى ذروة القتال على أرض العراق بــأن المــرء يشــعر بــأن وحدات المارينز الأمريكية التى وصلت إلى كربلاء فى العراق هى وحدات لواء جولانى الإسرائيلي التي ترابط فى طولكرم". ليس هذا فقط بل إن هذا الصــحفي الإسرائيلي نفسه لم يخف تأثير الحرب العراقيــة علــى إســرائيل رغــم عــدم مشاركتها فعليا فيها فيقول "تلك الحرب التى لم تشارك فيها إسرائيل فعليا سيكون لها أعظم الأثر على مصير الدولة". (1) أى إنه، إذا كانت الحروب التى خاضتها إسرائيل منذ حرب ١٩٤٨ فصاعداً، هي التي بلــورت شــكل الدولــة الحاليــة وحددت ملامحها، فإن الحرب العراقية التى لم تشارك فيها إســرائيل بصــورة مباشرة، يراد لها الآن أن تدخل ضمن منظومة الأحداث والموتيفات التى يجــب أن تستغل من أجل تجميع الداخل الإسرائيلي بكل توجهاته السياسية على هــدف واحد وهو استغلال الوضع الذى نشأ فى المنطقة بعد الحرب العراقيــة والــذى جعل مــن الولايــات المتحــدة كمــا ذكــر الصــحفى والمفكــر والسياســي الإسرائيلي"اورى أفنيرى" إمبراطورية كبرى على غرار الإمبراطورية الرومانية القديمة من أجل إرساء إمبراطورية إسرائيلية صغرى تخضع لســيطرة اليمــين

المتطرف وللمستوطنين. [٢]

كما برز قبل الحرب العراقية وخلالها ، ما يشبه الاتفاق العام داخل إسرائيل حول ضرورة تأييد المجهود الحربي الأمريكي فى المنطقة، بل ويمكن القول بأن الحرب الأمريكية فى العراق، وفرت عنصر تقارب بين اليمين واليسار فى إسرائيل، وهو تقارب فسره المفكر الإسرائيلي "ميرون بنبنستى" برغبة كل طرف فى إسرائيل فى اعتبار تلك الحرب بمثابة المخرج المرغوب فيه للجميع، بل وهى عنصر للتقريب بين اليمين واليسار، وإنه إذا كانت الولايات المتحدة قد وصفت كل من يعارض تلك الحرب بأنه يرتكب عملاً مخجلاً وغير أخلاقى أيضاً، لأن الولايات المتحدة تضحى بأرواح أبنائها من أجل حماية الشعوب الصديقة فى أوروبا، فإن على الإسرائيليين التقاط هذه الإشارة لأنهم اعتادوا العيش فى أجواء تتسم بالعنف، ولذلك فعليهم المشاركة فى النضال ضد "الإرهاب الإسلامي" الذي تقوده الولايات المتحدة. [٣]

لقد برز فى إسرائيل من اعتبر تأييد العناصر اليمينية الأمريكية المتطرفة ومعها عناصر يهودية، للحرب ضد العراق، بمثابة وعد بلفور جديد. وفى هذا يقول "أورى أفنيرى" بأن "الأيديولوجية الخاصة بالجماعات اليمينية الأمريكية المتطرفة والتى تدعو إلى إقامة إمبراطورية أمريكية عالمية والتى تؤيد أيضاً إقامة أرض إسرائيل الكاملة، تذكرنا بظروف الإعلان عن وعد بلفور. فقد جاء هذا الوعد ثمرة لتزاوج بين شخصين، رجل وإمرأة أما المرأة فهى الصهيونية المسيحية السلفية، والتى ظهرت إلى الوجود قبل ظهور الحركة الصهيونية بسنوات عديدة، والرجل، هو الاستعمار البريطانى. وهكذا ساعد ظهور الفكرة الصهيونية، الإمبراطورية البريطانية على إحباط محاولات فرنسا ضم فلسطين إلى إمبراطوريتها وجرى ضمها إلى الإمبراطورية البريطانية التى كانت فى حاجة إلى تأمين قناة السويس والطرق المؤدية إلى الهند. والآن يحدث ذلك مرة أخرى. فقد نظم "ريتشارد برل"، وهو من زعماء اليمين المتطرف فى أمريكا، ندوة اقترح فيها عدم الاكتفاء بشن الحرب على العراق، بل دعا إلى شن حرب على السعودية ومصر أيضا من أجل السيطرة على مصادر البترول ومن أجل تحويل العراق إلى محور تدور حوله المصالح الأمريكية[٤]. تتسع حقاً جذور الموقف الإسرائيلي تجاه العراق الحالي لتشمل جوانب دينية تاريخية، وجوانب ثقافية وسياسية واقتصادية بالإضافة إلى الجوانب العسكرية الأمنية، وتشترك جميعها فى رسم مواقف إسرائيل الحالية والمستقبلية وتصرفاتها وهو ما سنلقى

الضوء عليه في الصفحات التالية.

الدين والتاريخ كأساس لتشكيل الوجدان الإسرائيلي تجاه العراق

رغم أن الغالبية العظمى من السكان الإسرائيليين ليسوا متدينين (٨٠% علمانيون مقابل ٢٠% متدينون) إلا أن الدين والتاريخ القديم يشكلان أحد مكونات الوجدان الإسرائيلي الذي يجعل من الإنسان الإسرائيلي كائنا يعيش فى عالمين متناقضين فى آن واحد فى عالم الماضى بكل ما به من توجهات وموروثات دينية، بالإضافة إلى التجارب التاريخية التى خاضتها الجماعات اليهودية فى أماكن شتاتها وتواجدها، وعالم الحاضر الذى يتطلب منه أن يكون إنسانا طبيعيا يعيش فى دولة طبيعية كسائر دول العالم، وليس فى دولة تربط مبررات وجودها بأسباب دينية ووعود ربانية يشاركهم فيها آخرون من غير الإسرائيليين.

وهكذا يلاحظ كل متابع للواقع الإسرائيلي الحالي أنه منذ قيام إسرائيل وحتى الآن، استمرت ظاهرة إخضاع الدين للتاريخ والتى كانت من أهم خصائص التفكير الدين اليهودي على امتداد سنوات الشتات، وذلك فى مجال البحث عن تفسير ديني يلائم الظروف التاريخية التى مرت بها الجماعات اليهودية والتى لازالت تضرب بجذورها فى الواقع الإسرائيلي الحالي. وقد حدد المؤرخ الإسرائيلي المعاصر دكتور ى. تلمون، ملامح العقل الإسرائيلي وجذوره الدينية التاريخية بقوله "إن الجماعات اليهودية لازالت غارقة فى التاريخ القديم وفى المواريث الدينية أكثر من غيرها من الجماعات البشرية الأخرى، ولذلك أصبح الإنسان الإسرائيلي الحالي ممزقا بين التأكيد الذاتى للنفس اليهودية والذي ينبع من تحويل التاريخ إلى صنم جامد يجب عبادته، وبين الرفض الذاتى لنفس هذا التاريخ"[٥] وقد أثر هذا التوجه على أسلوب تعامل الإنسان الإسرائيلي مع القضايا المختلفة التى تحيط به مع الحرص على ربطها بالماضي اليهودي الذي يعتبره تجربة خاصة به وحده منذ اختصت الإرادة الإلهية، كما يقولون، العبرانيين القدامى وجعلت منهم شعبا خاصا للرب الذى هو رب إسرائيل والإسرائيليين فقط.

بين العراق الحالية وأرض الرافدين قديماً

بناءً على الموروثات الإسرائيلية القائمة على عبادة التاريخ، يجرى التعامل مع العراق الحالية على أساس أنها امتداد لأرض الرافدين القديمة. وتحتفظ

الذاكرة الدينية والتاريخية للإسرائيليين بتجربتين مريرتين مرت بهما الجماعات الإسرائيلية القديمة فى أرض العراق حيث تتصل التجربة الأولى بقيام الدولة الأشورية، التى قامت على أرض العراق الحالية، بتدمير دولة إسرائيل الشمالية وعاصمتها نابلس (التى كانت تشكل الجزء الشمالى من الدولة التى أقامها داود قبل أن تنقسم إلى دولتين بعد وفاة سليمان، إلى دولة إسرائيل فى الجزء الشمالى وعاصمتها نابلس ودولة يهوذا فى الجزء الجنوبى وعاصمتها القدس) وحدث هذا الدمار للدولة الشمالية فى حوالي عام ٧٢٢ ق.م. وترتبط التجربة المريرة الثانية بقيام ملك بابل نبو خذ نصر فى عام ٥٨٦ ق.م بغزو دولة يهوذا وتدمير الهيكل وسبى آلاف الإسرائيليين إلى بابل فيما بات يعرف باسم السبى البابلى والذى استمر قرابة ٧٠ عاما.

ولذلك يقول الصحفى الإسرائيلي "جى معيان" فى مقال نشره فى صحيفة هأرتس من أن المرء يجد صعوبة فى التخلص من الانطباع القائل بأن النظام العراقي الحالى، هو تجسيد لآلاف السنوات التى شكلها تاريخ العراق القديم ابتداء من العصور السحيقة فى القدم ومروراً بالفتوحات الإسلامية، وانتهاءً بالحروب التي فجرها صدام حسين. [٦] وليس هذا فقط، بل أن هذا الصحفي نفسه لا يطيق إطلاق أسماء تاريخية وإسلامية على فرق الجيش العراقي فيقول بأن "الوحدات المميزة فى الجيش العراقي تحمل أسماء قومية تاريخية إلى جانب حملها أسماء إسلامية، كما أن أسماء بعض المدن مثل: النجف، كربلاء، البصرة وبغداد، ليست مجرد أسماء تطلق على ساحات قتال شهدتها الحرب الأخيرة، بل هى أسماء لمدن تحمل شحنات وجدانية تتصل بالماضي الإسلامي الزاهر، لأن صدام أراد إظهار نظامه وكأنه يدافع عن العروبة والإسلام فى حرب متواصلة منذ ١٣٦٦ عاما. [٧]

ومع بدء الحرب العراقية الأخيرة عاد الصحفى الإسرائيلي "جى حوجى" ومعه زميلته "داليا فرورى" إلى إحدى المقالات التى نشرت فى صحيفة الجمهورية العراقية قبل ستة أشهر من إندلاع الحرب وجاء فيه "إن ملك بابل نبوخذ نصر الذى سبى اليهود إلى بلاده تنبأ بظهور زعيم عراقي يشبه صدام حسين وأن ذلك سجل على نقش حجرى يعود إلى عام ٥٧٠ ق.م، وعثر عليه فى ثمانينيات القرن العشرين ويعود إلى عهد الدولة البابلية وكتبت عليه العبارات التالية" على كل من يعثر على هذا النقش، أن يمسحه بالزيت ثم يسجل اسمه عليه إلى جانب تسجيل قائمة بالأعمال التى نفذها فى حياته ثم يعيد النقش

الحجرى إلى مكانه، وكل من يفعل ذلك ستمتد سنوات حكمه. وكتبت فى مكـان أخر وعلى النقش نفسه عبارات منسوبة إلى الملك البابلى نبوخد نصـر تقـول "كل من يقوم بإعادة بناء دولة بابل، سيهزم أعداءه ويقضى عليهم إلـى الأبـد". وعلق هذان الصحفيان على ما نشرته صحيفة الجمهوريـة العراقيـة بقولهمـا: "هكذا وبعد ٢٦٠٠ عاما تقريبا من وفاة ملك بابل، منحته حكومة العراق وسـام الشرف الذى يستحقه، حيث أطلق اسمه على إحدى فرق الحـرس الجمهـورى مثلما أطلق اسم حمورابى على فرقة أخرى، بالإضافة إلى إطلاق اسم المدينـة المنورة على فرقة ثالثة. وخلص هذان الصحفيان إلى القول بأن "صـدام الـذى اعتبر نفسه صلاح الدين العصر الحديث، أراد أن يبث رسالةً واضحةً تقول بأن هناك خطاً ممتداً ، وبصورة مباشرة، بين موقعه الحالي وبـين الإمبراطوريـة البابلية القديمة. (٨) ويتخذ الصحفى الإسرائيلي "عاميت كوهين" من المصير الذى تعرضت له الدولة العباسية، جرس إنذار يحذر به شعوب العالم من أن المسلمين الحاليين لن يسكتوا على ما حدث للعراق، فكتب مقالا فى صحيفة معاريف تحت عنوان "حرب عالمية" قال فيه: "من لا يعرف العالم الإسلامى جيـداً، يمكنـه أن يفترض أن المسلمين سيبتلعون وبهدوء ما تتعرض له العراق حالياً، فكثير مـن المسلمين يشيرون بانفعال إلى حصار قديم تعرضت له المدينة نفسـها وكأنـه حدث بالأمس فقط، ونقصد بذلك ما حدث قبل حوالى ٧٥٠ عاما حـين حاصـر المغول مدينة بغداد. (٩) ويعرج الصحفى إلى حروب إسرائيل مع العالم العربـى ويربط ذلك بما يحدث للعراق الآن فيقول: "لم تختف من الذاكرة العربية نتـائج حرب ١٩٤٨ أو حرب ١٩٦٧، بل العكس هو الصحيح، وهذا ما سوف يحـدث مع العراق. فتواجد جيش أجنبى، محتل وكافر فى النجف وكربلاء وهمـا مـن أكثر المدن قداسة لدى الشيعة، سيزيد من حدة الغضب خاصة وأن الكثيـر مـن المسلمين فى أرجاء العالم يشعرون الآن بأن أمريكا لا تحارب العراق فقط بـل تحارب الأمة الإسلامية وتحاول سرقة ثرواتها. ومن هنا فإن المخاوف المقرونة بالغضب العظيم، ستدفع المزيد من الناس إلى الاتجاه إلى طريق الجهاد العـالمى وإلى المضى فى طريق صدام حسين، إنطلاقا من مقولـة أن الطريـق الوحيـد للتصدى للشيطان الأكبر، هو طريق النضال".

وفى المقال نفسه يحاول "عامير كوهين" توسيع دائرة تنـاول ردود الفعـل المرتقبة للحرب العراقية سعيا لإثارة العالم ضد الإسـلام والمسـلمين فيقـول: "الإسلام هو الذى يجمع بين الأندونيسى، الشيشـانى، الفلسـطينى والمصـرى،

فليست القومية هى التى توحد المسلمين بل الديانة الإسلامية، وإذا كان كل عربى ملتزم بدولته وبجيشها، فالمسلم لا يلتزم بأى حدود سياسية، فهو يستطيع العمل من تلقاء نفسه، لأنه ليس مثل الجندى الذى يمتثل للأوامر الصادرة إليه، فالمتطوعون المستعدون للموت على تراب العراق، لا يفعلون ذلك لأنهم عرب أو لأن العراق دولة عربية، ولا يفعلون ذلك من أجل صدام، بل يحاربون باسم الإسلام وعلى أرض الإسلام". ثم يشير كوهين إلى ما حذر منه الرئيس حسنى مبارك من أن "الحرب العراقية ستؤدى إلى ظهور مائة بن لادن جدد".(١٠)

"من حرب عسكرية ضد العراق إلى غزو ثقافى له جذوره الدينية والتاريخية"

لعل ما تردد فى العالم مؤخراً وسجلته العديد من التقارير الصحفية والإعلامية والعديد من مواقع الإنترنت ومنها موقع "إسلام أون لاين" وغيره فى الخامس عشر من شهر أغسطس ٢٠٠٣ نقلا عن مصادر بحثية عراقية مطلعة فى بغداد، عن افتتاح مركز إسرائيلي للدراسات الشرق أوسطية، يبرز أحد تجليات اهتمام إسرائيل الزائد بالحرب ضد العراق وتوسيع دائرة سعيها من مجرد تمزيق إحدى الدول التى شكلت مصدر قلق وإزعاج لإسرائيل، إلى القيام بغزو ثقافي لتلك الدولة، ليضاف ذلك إلى المخططات الاقتصادية الإسرائيلية فى العراق والتي لم تعد سرية ولا خافية عن الأنظار. وقد بدأ المركز الإسرائيلي العمل اعتباراً من الأول من شهر أغسطس ٢٠٠٣ من مبنى ضخم يقع فى شارع "أبو نواس" المطل على نهر دجلة. وهذا هو أول نشاط ثقافي معلن لإسرائيل فى العراق حيث حصل على الموافقات اللازمة من سلطات الاحتلال الأمريكية ومن وزارة الدفاع فى واشنطن، كما إن حراسةً أمريكيةً مشددة تفرض حوله. وهذا المركز يتبع مؤسسة إسرائيلية تدعى "ميمرى". وبدأ المركز عمله قبل خمس سنوات فى مقر رئيسى فى واشنطن، وله فروع منتشرة فى لندن وبرلين، والقدس الغربية. ويتلقى المركز الدعم المالي من منظمات يهودية وصهيونية منتشرة فى العالم. ويجئ اهتمام إسرائيل بهذا البعد الثقافى تمشيا مع النهج العام السائد لديها والقائم على ربط الماضى بالحاضر لإثبات استمرارية التواجد اليهودي القديم في المنطقة، ويضاف إلى ذلك بعد ديني أبرزته صحيفة معاريف بقولها: "إن أرض العراق هى أرض التناخ" وهى الأرض التى وقعت فيها أحداث قصة برج بابل، وهناك توجد مدينة أور" التى ولد فيها إبراهيم (عليه السلام). (١١) والمعروف أيضا أن الديانة اليهودية تبلورت بشكلها النهائى الحالى فى أرض بابل خلال سنوات السبى، حيث جمعت أسفار العهد القديم (التناخ) بعد

أن ظلت تروى شفاهةً على امتداد أكثر من ٩٠٠ عاماً. وفى العـراق القديمـة أيضاً وُضع ثانى أهم مصادر الشريعة اليهودية وهو التلمود البابلى.

ولقد بدأ العمل الإسرائيلى لجمع وتهريب المقتنيات الدينية والثقافية اليهودية فى العراق، منذ الساعات الأولى لسقوط بغداد. وقد ذكرت صحيفة "هاتسـوفيه" أن العمل على تجميع الكتب الدينية اليهودية المقدسة فى العراق بدأ فور سـقوط نظام صدام حسين. (١٢) ولم تكتف إسرائيل بمطالبة الأمريكيين بأن ينوبوا عنهـا فى مجال تجميع المقتنيات الثقافية والدينية اليهودية بل بادرت الوكالة اليهوديـة إلى إيفاد مبعوث خاص إلى بغداد وهو "جيف كى" للالتقاء ببقايا يهـود العـراق وللإشراف على نقل أرشيف الطائفة اليهودية فى العراق والموجود فى أحد أقبية مبنى المخابرات العراقية إلى إسرائيل. (١٣) وفى هذا المجال، ذكر عـالم الآثـار المصرى ورئيس هيئة الآثار المصرية د/ زاهى حواس فى حديث مع الإذاعـة البريطانية الناطقة باللغة العربية، بأن جميع النقوش والمقتنيات الدينية والأثريـة التى تؤرخ لفترة تواجد اليهود فى العراق القديمة خلال سنوات السبى البابلى قـد اختفت من المتاحف العراقية.

إن إسرائيل بسعيها للتواجد على أرض العراق ثقافيا وإعلاميا، تريد تحقيق نوع من القبول لها لدى الشارع العراقى، وهو ما فشلت فيه حتى الآن عسكريا. فهى لا تجرؤ على الظهور علانيةً باعتبارها أحد مصـادر الـدعم اللوجسـتى والمخابراتى للتواجد الأمريكى فى العراق، ومن هنا ترى أن النافذة الثقافية قـد تحقق لها بعض القبول. وفى سبيل تحقيق هذا الهدف افتتحت إسرائيل فى يونيـو ٢٠٠٣ قناة "الشرق الأوسط" الفضائية ليصل بثها العراق، إلى سوريا ، لبنـان، المغرب، مصر، دول الخليج العربى وأوربا. وفى حينـه أكـد الـوزير عنـان كوهين، أن القناة ترمى إلى تقريب الإسرائيليين إلى الشـرق الأوسـط. (١٤) إذن بدأت خطوات الغزو الثقافى للعراق بتدشين قناة الشرق الأوسط وإفتتاح مركـز الدراسات الشرق أوسطية والذى سبق ان أشرنا إليه فى سطور سـابقة ويـديره الجنرال المتقاعد "يجآل كارمون"، وهو مستشرق إسرائيلى ومعـروف بمواقفـه المتطرفه المعادية للعرب وعمل لسنوات طويلـة مستشـارا لـرئيس الـوزراء الإسرائيلى فى مجال مكافحة الإرهاب.

البترول، العراق، والماء، ومشروعات اقتصادية إسرائيلية مرتقبة

بدأت إسرائيل فى الانتقال إلى مرحلة أخرى من مراحل استغلالها للتغيـر

الذى حدث فى العراق بعد سقوط نظام صدام لتحقيق مصـــالح متشـــعبة داخـــل العراق وخارجه أيضا، ونقصد بذلك الانتقال من مجال المساهمة الفعلية وغيـــر المعلنة فى الغالب، فى الحرب على العراق، إلى مرحلة الحصول على نصـــيبها من غنائم تلك الحرب. وللتذكير فقط نقول بأنها أسهمت بقسط وفير ومؤثر فـــى الحرب العراقية بدءاً من التنسيق والتخطيط المشترك مع أمريكا قبـــل الحـــرب، وإقامة نظم المعلومات والإنذار المشتركة والتجسس على العراق عـــن طريـــق القمر الصناعى الإسرائيلي "أوفيك ٤" ، ثم التدريبات العسكرية الثنائية فى البحر الأبيض المتوسط، وأيضاً قيام إسرائيل بتدريب الجنود الأمريكيين علـــى حـــرب المدن العربية الخاطفة بإنشاء بلدتين وهميتين على الطراز العربي داخل فلسطين بهدف التدريب على اقتحامهما. ثم طورت إسرائيل شكل التـــدخل فـــى الحـــرب العراقية بدفع عناصر من قواتها الخاصة وعناصر من المخابرات إلى منـــاطق كردية وأخرى تقع فى غرب العراق وبخاصة فى المنطقة التى تقع فيها القاعـــدة الجوية العراقية الشهيرة H.3. كما كان لإسرائيل دور بارز في مطـــاردة صـــدام حسين ثم أسره في نهاية الأمر . أي أن إسرائيل تريد أن تبرز وتؤكد وجودهـــا فى العراق سواء قبل الحرب أو خلالها أو حتى بعد التوقف الرســـمي للأعمـــال القتالية الرئيسية، ومن هنا جاء تأكيد أحد المسئولين المؤثرين اقتصـــادياً علـــى سياسات البيت الأبيض وهو البروفيسور "جون تيلور" فى مقابله له مع صـــحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية بأن "بلاده تدعو الشركات الإسرائيلية للمشـــاركة فى جهود إعادة إعمار العـــراق، مؤكـــدا أن العـــراق مفتـــوح أمـــام شـــركات إسرائيلية.(١٥) ويبدو أن هذه الدعوة جاءت متـــأخرة بعـــض الشـــئ، إذ ذكـــرت الأنباء، نقلا عن مصادر كردية عراقية فى مدينة أربيل، أن عدة وفود إسرائيلية وصلت بشكل سرى إلى منطقة الشمال العراقي حيث أجرت مباحثات مع قيادات الفصيلين الكرديين بقيادة جلال طالباني ومسعود برزانى. وأشارت تلك المصادر إلى أن الوفود الثلاثة تعمل فى مجال البترول والسياحة والبنيـــة التحتيـــة، وأن بعض المسئولين الإسرائيليين فى هذه الوفود بحثوا إعداد خطة لعودة أكراد مـــن أصل يهودى يعيشون الآن فى إسرائيل إلى شمالي العراق. كما نـــاقش أعضـــاء الوفود، المسائل الفنية المتعلقة بإصلاح خط أنابيب البترول الموصل إلـــى حيفـــا لإعادة تشغيله، وبحثت بدائل وصول البترول العراقي إلى إسرائيل.(١٦)

وقد أفادت صحيفة "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية فى عددها الصادر يوم الثلاثاء ٢٠٠٣/١٠/٢١، أن تركيا حذرت إسرائيل مؤخرا من العمل فى شـــمال

العراق، وذلك على خلفية الأنباء التى أفادت أن إسرائيل تعمل على امتلاك قطع أرض غنية بالبترول فى منطقة الموصل. وكانت وسائل الإعـلام التركيـة قـد نشرت أنباء عن نشاطات إسرائيلية فى شمالى العراق واستندت فى ذلـك علـى مصادر فى المخابرات التركية ذكرت بأن الإسرائيليين يقومـون بشـراء أراض غنية بالبترول من أصحابها فى شمالى العراق وبخاصـة مـن الأكـراد. وقـد وصفت صحيفة "أشكام" التركية النشاط الإسرائيلى فى شمال العراق بأنه احتلال ثان للعراق، وذكرت أيضا بأن السـلطات الأمريكيـة فـى العـراق أصـدرت تراخيص تتيح لشركات إسرائيلية بامتلاك الأراضى العراقيـة بالإضـافة إلـى نشاطات إسرائيلية أخرى فى العراق.

وبررت حكومة إسرائيل ما يحدث بأنه يتم عن طريق شركات إسـرائيلية خاصة لا تحتاج إلى مصادقة من الحكومة الإسرائيلية. (١٧)

ولا تغيب مطامع إسرائيل فى المياه العراقية عن البال، أو كما ذكر "أحمـد الخميسى" بأنه إذا كانت أمريكا تنظر لحضارة العراق باعتبارهـا مجـرد آبـار للنفط فإن إسرائيل ترى العراق مصدرا للمياه، مشيرا إلى ما سـبق أن أعلنتـه رئيسة وزراء إسرائيل السابقة جولدا مئير من أن التحالف الإسرائيلى مع تركيـا وأثيوبيا يعنى أن أكبر نهرين فى المنطقـة، النيـل والفـرات، سـيكونان فـى قبضتنا. (١٨)

من المخططات الإسرائيلية المستقبلية

المطالبة بممتلكات اليهود العراقيين وشراء أراض عراقية

سارعت صحف إسرائيل الصادرة فى الحادى عشر من شهر يوليو ٢٠٠٣ وعلى رأسها صحيفة معاريف إلى نشر ترجمة كاملة لمقـال نشـرته صـحيفة المستقبل اللبنانية ضمنته مجموعة كاملة من الأسماء، الأمـاكن، والتفصـيلات والأوصاف المثيرة وذلك فى مجال الحديث عن الأنشطة السرية لإسرائيل فـى العراق بعد سقوط نظام صدام حسين. وذكرت الصحيفة أن رجـال المخـابرات الإسرائيلية والوكالة اليهودية يقومون بعملية تمشيط واسعة فى العـراق لتحديـد المجالات التى يمكن لإسرائيل أن تعمل فيها. ويتم هذا تحت إشراف مباشر مـن الوزير الإسرائيلى "إهود أولمـرت" . وذكـرت الصـحيفة اللبنانيـة أن هنـاك مجموعات إسرائيلية تقوم بعمل إحصاء وجرد لممتلكات يهودية فى العراق سبق أن صودرت، للمطالبة باستردادها. وبالإضافة إلى ذلك، ذكرت الصـحيفة بـأن

أحد الفنادق الفاخرة فى بغداد تحول إلى مركز لأعمال مجموعـة مـن التجـار والسماسرة الإسرائيليين الذين زحفوا إلى بغـداد لشـراء منـازل وأراض فـى العراق.[١٩]

وكانت صحيفة هاتسوفيه الإسرائيلية قد أشارت، كما ذكرنا، قبل ذلك إلـى تنظيم مؤتمر فى نيويورك يناقش ترتيب وسائل العمـل المطلوبـة لاسـترجاع ممتلكات اليهود فى العراق. وأن المؤتمر عقد تحت رعايـة الوكالـة اليهوديـة والمؤتمر اليهودى العالمى. وذكرت هاتسوفيه بأن سقوط صدام قـدم الفرصـة للتقدم بطلبات للحصول على تعويضات مقابل الثروات اليهودية التى صـودرت فى العراق. والمطالبة باسترجاع ممتلكات اليهود هنـاك.[٢٠] نحـن إذن أمـام مخطط دقيق ومدروس يجرى تنفيذه حاليا مما سيوفر لإسرائيل موطئ قدم فـى العراق، وهو مخطط متشـعب، إذ يشـمل الجوانـب العسـكرية المخابراتيـة، والاقتصادية والتجارية وينتهى بالمطالبة بالحصول على جزء من مياه العـراق وبتروله ، بل هناك.شركات فى الولايات المتحدة وإسرائيل بدأت تتحـدث عـن حساب تكلفة إعادة تشغيل أنبوب النفط القديم الممتد من العراق إلى حيفا وعـن إنشاء أنبوب مواز لنقل مياه من العراق إلى إسرائيل.

ولضمان نجاح واستمرارية تلك المخططات الإسرائيلية، ذكـرت مصـادر بريطانية بان هناك اتصالات تجرى الآن بين مستثمرين أمريكيين وإسـرائيليين من جانب ومستثمرين من بعض الدول العربية والعراق للتنسيق فيما بينهم لتنفيذ مشروعات عملاقة فى إطار برامج إعادة تعمير العراق.[٢١]

الخلاصة

نحن إذن أمام سيناريو واضح ومحدد المعالم تسعى إسرائيل من خلاله إلى الاستفادة من التواجد الأمريكى فى العراق، ليس فقط من أجل الفوز بموطئ قدم إسرائيلى داخل العراق بل، للوصول إلى ما هو أبعد ذلك ويتمثل فى التالى:-

١- تحقيق مكاسب اقتصادية وسياسية داخل العراق ذاته عن طريـق مشـاركة شركات إسرائيلية عملاقة فى مشروعات تعمير العراق، ولضـمان اسـتمرارية هذا المخطط يجرى الاتصال بأطراف عربية ومسـتثمرين عـرب وعـراقيين لتكوين شركات مشتركة مع إسرائيل ومع مستثمرين يهود فى الخـارج بهـدف إضفاء الشرعية على التواجد الإسرائيلى الاقتصادى فـى العـراق، ولتحاشـى الحساسية النابعة من الاعتماد فقط على الدعم الأمريكـى المرفـوض عاطفيـاً

ووجدانياً من الشارع العربى.

٢- اتخاذ العراق كمنطلق للوصول إلى دول وأسواق عربية أخرى وبخاصة فى منطقة الخليج وربما يشمل ذلك إيران ودول إسلامية أخـرى مثـل أندونيسـيا وباكستان وتركيا، وذلك لتفتيت اقتصاديات العالم العربى وإضعافها وللفوز بدعم إسلامى واسع لما يسمى بمشروعات متعددة الأطراف والقوميات، تعمل لـيس فقط من أجل تطوير العراق وتحديثه بل من أجل توسـيع دائـرة مشـروعات التطوير والتحديث لتشمل العالم العربى كله. وهذا يتفق مع الـنهج الأمريكـى الذى يتحدث عن تغير مستقبلى فى خريطة الشرق الأوسط نحـو مزيـد مـن الديمقراطية والتقدم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى.

٣- القيام بعملية غزو ثقافى واسع لدول المنطقة وللدول الإسلامية المحيطة بها انطلاقاً من العراق. وقد بدأ هذا المخطط بإنشاء مركز الدراسات الـذى أشـرنا إليه مع تسويقه إعلامياً عن طريق إنشاء منظومة من القنوات الفضائية الموجهة أساساً للمشاهد العربى والمسلم والتى بدأت أولاها فى العمـل فعـلا. وتخطـط وزارة الخارجية الإسرائيلية لإنشاء قناة فضائية عربية اخرى بتمويل من خارج إسرائيل بزعم تسويق صورة إسرائيل فى العالم العربـى والاتصـال بـدوائر المثقفين العرب لتحقيق تقارب معهم ودفعهم إلى تفهم حقيقة إسرائيل، كما ذكـر سلفان شالوم وزير خارجية إسرائيل خلال زيارته الأخيرة للولايات المتحدة.

٤- يتزامن هذا التوجه مع السعى إلى محاربة بل وإغلاق أى مراكـز بحثيـة عربية تشكل أعمالها وإصداراتها الفكرية والسياسية والثقافية حجر عثرة أمـام السعى الأمريكى المدعوم إسرائيليا لإعادة تشكيل وجـدان المـواطن العربـى والمسلم. وآخر مثال على ذلك ما تعرض له مركز زايد بن سـلطان آل نهيـان فى أبو ظبى لمضايقات وهجمات إعلامية واسعة داخـل إسـرائيل والولايـات المتحدة أدت إلى تعطيل وتوقف الموقع الخاص بهذا المركز بل وإلـى إغـلاق المركز تماما. الأمر إذن خطير وما هو قادم لن يقل خطورة عما ينفذ الآن.

وهكذا فإن العالم العربى وعلى رأسه مصر أمام حملة شـعواء متعـددة الأغراض والأهداف والوسائل، مما يحتم أن نتبنى مشـروعاً إعلاميـاً وثقافيـاً وحضارياً عربياً، يبدأ من القاهرة لما لديها من إمكانيات بشرية وقدرات إعلامية لتوصيل كلمتها إلى كل شبر فى المنطقة وفى العالم، حيث ثبـت مـن الحـرب الأخيرة فى العراق أن الإعلام لا يقل خطورة عن المدفع.

الهوامش

(١) جدعون سامت "أسرلة أمريكا"، هآرتس ٢٠٠٣/٤/٤.
(٢) أورى أفنيرى: تأملات فى الحرب العراقية". موقع أفنيرى فى الإنترنت ٢٠٠٣/٤/٤.
(٣) ميرون بنبنستى: "لقد جاءت الحرب"، هآرتس ٢٠٠٣/٢/١٣.
(٤) اورى أفنيرى. المصدر السابق.
(٥) ى. تلمون. لقاء معه نشر فى معاريف ١٩٧٦/٥/٤.
(٦) صحيفة هآرتس ٢٠٠٣/٤/١٣.
(٧) المصدر السابق.
(٨) صحيفة معاريف ٢٠٠٣/٤/١.
(٩) صحيفة معاريف ٢٠٠٣/٤/٤.
(١٠)المصدر السابق.
(١١) صحيفة هآرتس ٢٠٠٣/٤/٣.
(١٢) صحيفة هاتسوفيه ٢٠٠٣/٦/٢٥.
(١٣) صحيفة هاتسوفية ٢٠٠٣/٧/٣.
(١٤) أحمد الخميسى: أخبار الأدب القاهرية عدد ٢٠٠٣/٨/٧.
(١٥) صحيفة يديعوت أحرونوت ٢٠٠٣/٦/٢٤.
(١٦) الأهرام المصرية ٢٠٠٣/٧/١.
(١٧) صحيفة يديعوت أحرونوت ٢٠٠٣/١٠/٢١.
(١٨) أحمد الخميسى.
(١٩)صحيفة معاريف ٢٠٠٣/٧/١١.
(٢٠) صحيفة هاتسوفيه ٢٠٠٣/٧/١٥ .
(٢١) موقع الـ B.B.C ٢٠٠٣/٨/٢٠.

إصدارات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

*****

١- الببليوجرافيا الشارحة للترجمات العربية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، إشراف أحمد زايد، ١٩٩٧.
٢- الملخصات السوسيولوجية العربية: من الأول وحتى السابع، إشراف أحمد زايد، ١٩٩٧.
٣- الملخصات السوسيولوجية العربية: من الثامن وحتى الحادى عشر، إشراف محمد الجوهرى فى عامى ١٩٩٩-٢٠٠٠.
٤- الإنتاج الفكرى العربى فى علم الفولكلور: قائمة ببليوجرافية، إعداد محمد الجوهرى وآخرون، ٢٠٠٠.
٥- الفولكلور العربى: بحوث ودراسات (المجلد الأول)، إشراف محمد الجوهرى، ٢٠٠٠.
٦- الفولكلور العربى: بحوث ودراسات (المجلد الثانى)، تحرير محمد الجوهرى، وإبراهيم عبدالحافظ، ومصطفى جاد، ٢٠٠١.
٧- استخدام الحاسب الآلى فى مجال العلوم الاجتماعية (استخدام برنامج SPSS من خلال Windows)، عبدالحميد عبداللطيف، ٢٠٠٠.
٨- البناء السياسى فى إحدى قرى الصعيد، محمود جاد ، ٢٠٠٠.
٩- آثار القبلية على المزاج الغنائى والموسيقى لأهل الصعيد، تأليف محمود جاد، ٢٠٠١.
١٠- العنف فى الأسرة، تأديب مشروع أم انتهاك محظور، تأليف على السمرى، ٢٠٠١.
١١- ملامح التغير فى القصص الشعبى الغنائى، تأليف إبراهيم عبدالحافظ، ٢٠٠١.
١٢- الصحة والبيئة: دراسات اجتماعية وأنثروبولوجية مهداة إلى روح الأستاذ الدكتور نبيل صبحى، تأليف مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بالجامعات المصرية، ٢٠٠١ (ضمن مشروع توثيق الإنتاج العربى فى علم الاجتماع).
١٣- الإنتاج الفكرى العربى فى علم الاجتماع : قائمة ببليوجرافية مشروحة (١٩٢٤-١٩٩٥)/ إشراف أحمد زايد ، ومحمد الجوهرى ،٢٠٠١، (وهى طبعة منقحة ومزيدة من المجلدات السبعة الأولى من الملخصات السوسيولوجية العربية التى سبق أن أصدرها المركز ونفذت) .
١٤- الشباب ومستقبل مصر : الندوة السنوية السابعة لقسم الاجتماع ، كلية الآداب، جامعة القاهرة ، ٢٩-٣٠ أبريل ٢٠٠٠/ تحرير محمود الكردى، ٢٠٠١.
١٥- المجتمع الاستهلاكى ومستقبل التنمية فى مصر : الندوة السنوية الثامنة لقسم الاجتماع، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ٢٢-٢٣ إبريل ٢٠٠١/ تحرير أحمد مجدى حجازى ، ٢٠٠١ .
١٦- الإدراك البيئى عند الطفل: دراسة مقارنة بين الريف والحضر، تأليف أحمد مصطفى العتيق، ٢٠٠١.

١٧- دراسات مصرية فى علم الاجتماع: مهـداة إلـى روح الأسـتاذ الـدكتور حسـن الساعاتى، ٢٠٠٢.
١٨- الجماعات الهامشية: دراسة أنثروبولوجية لجماعات المتسولين بمدينة القاهرة، تأليف ابتسام علام ، تقديم: فاروق العادلى ، ٢٠٠٢ .
١٩- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الأول: الإطار النظـرى وقـراءات تأسيسية، تأليف مجموعة من أساتذة الجامعات، ٢٠٠٢.
٢٠- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الثانى: التراث فى عالـم متغيـر: قراءات تأسيسية، تأليف مجموعة من أساتذة الجامعات، ٢٠٠٢.
٢١- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الثالث: مقترحات ومحاولات بحثية، تأليف مجموعة من أساتذة الجامعات، ٢٠٠٢.
٢٢- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الرابع: عمال مصـر بـين ثقافـة التصنيع والثقافة التقليدية: دراسة ميدانية بمجمع الألومنيوم، تأليف محمـود عبدالرشـيد بدران، أحمد محمد السيد عسكر، ٢٠٠٢.
٢٣- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الخامس: التيار الإسلامى بين التأييد والمعارضة: قراءة فى الصحافة المصرية، تأليف على ليلة، ٢٠٠٢.
٢٤- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب السادس: تأثير أنماط العمران علـى تشكيل بعض عناصر الثقافة الشعبية: دراسة ميدانية لسياقات اجتماعية متباينة بمصـر، إشراف وتحرير محمود الكردى، ٢٠٠٢.
٢٥- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب السابع: الاحتفالات الشعبية الدينية: دراسة لديناميات التغير وقوى المحافظة والتجديد. تأليف منى الفرنوانى، ٢٠٠٢.
٢٦- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الثامن: الطـب الشـعبى: دراسـة فـى اتجاهات التغير الاجتماعى فى المجتمع المصرى، تأليف سعاد عثمان، ٢٠٠٢.
٢٧- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب التاسع: قوى المحافظة والتجديد فى بعض عناصر التراث المادى: دراسة حالة للأزياء الشعبية المصرية. تأليف فاتن أحمـد على، ٢٠٠٢.
٢٨- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب العاشر: ديناميـات تغيـر التـراث الشعبى فى المجتمع المصرى: دراسة لعادات الطعـام وآداب المائـدة. إعـداد نجـوى عبدالمنعم قاسم، إشراف علياء شكرى.
٢٩- علم الاجتماع ودراسات المرأة: تحليل استطلاعى، تأليف محمود عبدالرشيد بـدران، ٢٠٠٢.
٣٠- المرأة وقضايا المجتمع، تأليف مجموعة من أساتذة الجامعات، ٢٠٠٢.
٣١- بحوث فى الأنثروبولوجيا العربية، مهداة إلى الأستاذ الدكتور أحمد أبوزيد، تحريـر/ ناهد صالح، ٢٠٠٢.
٣٢- دراسات فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، مهداة إلى روح الأستاذ الـدكتور أحمـد الخشاب، ٢٠٠٢.
٣٣- القيم كما تعكسها الصحافة المحلية: تحليل مضمون صـفحة (المحليـات) بجريـدة

الأهرام، تأليف فاطمة القلينى، ٢٠٠٢.
٣٤- علم الاجتماع والرعاية الاجتماعية، دراسات مهداة إلى روح الأستاذ الدكتور عبدالمنعم شوقى، تحرير/ عبدالهادى الجوهرى، ٢٠٠٢.
٣٥- العدالة بين الشريعة والواقع فى مصر فى العصر العثمانى، إشراف رؤوف عباس، تحرير/ ناصر إبراهيم، عماد هلال، ٢٠٠٢.
٣٦- علم السكان، تأليف محمد محى الدين، القاهرة، ٢٠٠٢.
٣٧- أنتونى جيدنز: مقدمة نقدية فى علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون، القاهرة، ٢٠٠٢.
٣٨-دراسات فى علم الاجتماع، مهداة إلى روح الأستاذ الدكتور مصطفى الخشاب، تحرير/ أحمد زايد، القاهرة، ٢٠٠٣.
٣٩- رشدى صالح والفولكلور المصرى. دراسة لأعماله وفصول من تأليفه، محمد الجوهرى، القاهرة، ٢٠٠٣.
٤٠- الإنتاج العربى فى علم الاجتماع، قائمة ببليوجرافية مشروحة (المجلد الثانى: ١٩٩٥-٢٠٠٠)، إشراف محمد الجوهرى وأحمد زايد، القاهرة، ٢٠٠٣.
٤١- الملخصات السوسيولوجية العربية، المجلد الثانى عشر، إشراف محمد الجوهرى وأحمد زايد، القاهرة، ٢٠٠٣.
٤٢- التقاء الحضارات فى عالم متغير، حوار أم صراع، تحرير: عبادة كحيلة، القاهرة، ٢٠٠٣.
٤٣- الثقافة الثأرية والثقافة المسالمة: تأصيل نظرى ودراسة ميدانية للثقافة الفرعية ومحددات السلوك الإجرامى، تأليف محمود عبدالرشيد بدران، أحمد محمد السيد عسكر، ٢٠٠٣.
٤٤- قراءات معاصرة فى نظرية علم الاجتماع، ترجمة مصطفى خلف عبدالجواد، مراجعة وتقديم محمد الجوهرى، القاهرة، ٢٠٠٢.
٤٥- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الحادى عشر: التراث والحداثة فى منظومة القيم المرتبطة بالعمل الأهلى عند قادة المجتمع المدنى، تأليف خالد عبدالفتاح، ٢٠٠٣.
٤٦- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الثانى عشر: التسامح الاجتماعى بين التراث والتغير، تأليف أشرف عبدالوهاب، ٢٠٠٣.
٤٧- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الثالث عشر: قضايا المرأة المصرية بين التراث والواقع: دراسة للثبات والتغير الاجتماعى والثقافى، تأليف علياء شكرى، ٢٠٠٣.
٤٨- دراسات بيئية فى المجتمع المصرى، تأليف نجوى عبدالحميد سعدالله، ٢٠٠٢.
٤٩- كتابات اجتماعية معاصرة، مهداة إلى الأستاذ الدكتور السيد محمد بدوى، تحرير: محمد سعيد فرح، ٢٠٠٣.
٥٠- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الرابع عشر: الثابت والمتغير فى آليات الضبط الاجتماعى، تأليف: عدلى السمرى، ٢٠٠٣.

٥١- الجماعات الهامشية المنحرفة فى تاريخ مصر الاجتماعى الحديث، تأليف: سيد عشماوى، ٢٠٠٣.
٥٢- سخرية الرفض وتهكم الاحتجاج. عوام أهل مصر وتعسف وعنطظة الأتراك. مصر العثمانية ١٥١٧-١٩١٤، تأليف: سيد عشماوى، ٢٠٠٣.
٥٣- الطوائف المهنية والاجتماعية فى مصر فى العصر العثمانى، تحرير: ناصر إبراهيم، إشراف رءوف عباس، ٢٠٠٣.
٥٤- الأسرة المصرية وتحديات العولمة: الندوة السنوية التاسعة لقسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٧-٨ مايو ٢٠٠٢/ تحرير أحمد زايد وأحمد مجدى حجازى، ٢٠٠٣.
٥٥- الدين والدولة فى العالم العربى، أعمال ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، تحرير: عاصم الدسوقى، ٢٠٠٣.
٥٦- العولمة وقضايا المرأة والعمل، أعمال الندوة العلمية لمركز الدراسات والبحوث والخدمات المتكاملة بكلية البنات، جامعة عين شمس، تحرير: عبدالباسط عبدالمعطى واعتماد علام، ٢٠٠٣.
٥٧- اختراع التراث: دراسات عن التقاليد بين الأصالة والنقل والاختراع، تحرير/إيريك هوبسباوم، تيرنس رينجر، مراجعة وتقديم/ عاصم الدسوقى، ٢٠٠٣.
٥٨- إدوارد شيلز، التراث.. تأصيل وتحليل من منظور علم الاجتماع، مراجعة وتقديم/ محمد الجوهرى، ٢٠٠٤.
٥٩- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الخامس عشر: الفنون الأدبية الشعبية.. دراسة فى ديناميات التغير، تأليف: إبراهيم عبدالحافظ، ٢٠٠٤.
٦٠- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب السادس عشر: صناعة الولى. دراسة أنثروبولوجية فى الصحراء الغربية، تأليف: فاروق أحمد مصطفى، محمد عباس إبراهيم، ٢٠٠٤.
٦١- الرفض والاحتجاج فى المجتمع المصرى فى العصر العثمانى، تحرير: ناصر إبراهيم، إشراف: رؤوف عباس، ٢٠٠٤.
٦٢- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب السابع عشر: الفكاهة وآليات النقد الاجتماعى، تأليف: شاكر عبدالحميد، معتز سيد عبدالله، سيد عشماوى، ٢٠٠٤.
٦٣- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الثامن عشر: ثقافة التحايل.. دراسة ميدانية لنماذج من التجمعات العشوائية بالقاهرة الكبرى، تأليف:هناء الجوهرى، ٢٠٠٤.
٦٤- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب التاسع عشر: الزواج العرفى. واقعه وآثاره النفسية والاجتماعية، تأليف: معتز سيد عبدالله، جمعة سيد يوسف، ٢٠٠٤.
٦٥- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب العشرون: أطلس دراسات التراث الشعبى، تأليف: مصطفى جاد، ٢٠٠٤.
٦٦- جرائم العنف الأسرى بين الريف والحضر، تأليف: السيد عوض، ٢٠٠٤.
٦٧- المخدرات والأزمة الراهنة للشباب المصرى، تأليف: أحمد مجدى حجازى، ٢٠٠٤.
٦٨- الثورة والتغيير فى الوطن العربى عبر العصور، تحرير: عبادة كحيلة، القاهرة، ٢٠٠٤.

رقم الايداع	2004/22340

مطبعة العمرانيه للاوفست
الجيزة - المنيب
ت :7779398